الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق

من خلال المجلة الآسيوية

(1872-1822)

إعداد

الدكتور محمد العربي معريش

إشراف

الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

دار الغرب الإسلامي

تونس

الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق

من خلال المجلة الآسيوية

(1872-1822)

أصل هذا الكتاب أطروحة دكتوراه دولة بعنوان:

الاستشراق الفرنسي في المغرب العربي
من خلال المجلة الآسيوية الفرنسية
(1822- 1872)

الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق

من خلال المجلة الآسيوية

(1822-1872)

إعداد

الدكتور محمد العربي معريش

إشراف

الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله



دار الغرب الإسلامي

تونس



الطبعة الأولى: 2009 م

دار الغرب الإسلامي
العنوان: ص.ب.: 200 تونس 1015

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾

سورة المائدة، الآية 8.

اَلإِهْدَاءُ

أهْدِي هَذَا الكتاب الْمُتَوَاضِعَ

إِلَى السَّيِدَةِ أم عبد الرحمن معريش،

وَإلى كَافَّة أَبْنَائي وَبَنَاتِي الَّذِينَ نَغَّصَ عَلَيْهِم الكتاب

طَعْمَ الْحَيَاةِ وَأَفْقَدَهُم كُلَّ صَبْرٍ.

م. ع. معريش

تصدير

الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله

عاش الدكتور محمد العربي معريش يعالج موضوع الاستشراق قرابة ربع قرن. بدأه من ظهوره وواصله إلى مشارف مرحلة حساسة منه، أي عند بلوغ الاستشراق الأوج بارتباطه بالاستعمار كأداة له في السيطرة على الشعوب، وخصوصا الشعوب الإسلامية.

ورغم أن الاستعمار كان ظاهرة أوروبية فإن الدكتور معريش قد ركز على الاستشراق الفرنسي باعتبار فرنسا من أسبق الدول الأوروبية اتصالا بالحضارة العربية الإسلامية، إذ يرجع هذا الاتصال إلى الحروب الصليبية. وإذا كان الاستشراق عموما قد تناوله عدد من الباحثين من زاوية اللغة الانجليزية فإن الأستاذ معريش قد كفاهم ذلك من زاوية اللغة الفرنسية.

وسواء كان الاستشراق في أغلبه انجلوفونيا أو فرنكوفونيا فإن فرنسا قد أنجبت فيه عمالقة اعترف لهم العالم بالتميز فيه. ونخص بالذكر سلفستر دي صاصي، وكاترماير، ورينان، وماسينيون... إن بعض هؤلاء قد خدم بلاده في توسعها على حساب الشعوب وبعضهم خدم الثقافة الشرقية عموما والعربية الإسلامية خصوصا، فأحيوا تراثها وعرفوا بأعلامها ووضعوا لها المناهج العلمية التي تميزت بها ثقافتهم.

ولم يدرس الأستاذ معريش الاستشراق الفرنسي في جملته بل درسه في آثاره الباقية وهي (المجلة الآسيوية) التي تعتبر منجما لا يفنى لكل دارس ومرجعا لكل راغب في معرفة مسيرة الاستشراق الفرنسي. فقد تتبع هذه المجلة عددا عددا، ونكاد نقول ورقة ورقة، من سنة ظهورها 1822 إلى سنة 1872 حين تغير مزاج الاستشراق. وإذا كان المستشرقون الفرنسيون قد كتبوا تقاريرهم ومحاضرهم وسجلوا ملاحظاتهم ومناقشاتهم في (المجلة الآسيوية) فإن الأستاذ معريش قد فَلَى هذه المدونات فليا وقلّبها تقليبا واستنبط منها

مكتشفاتهم وآراءهم واستنتجاتهم. وقد عرض كل ذلك على بساط النقد والتمحيص وخرج بنتائج ذاتية ذات أهمية خاصة.

ومن ميزة أسلوب هذا الكتاب أن صاحبه لا يسرد بل يناقش، ولا يقبل الآراء على عواهنها وإنما يخضعها لميزان العلم والزمان والمكان والموضوع، وهو يبحث فيما وراء المنظور أو المحسوس منها وهو الذي يهدف إليه كل كاتب. وقد انتهى إلى أن هناك أجيالا من المستشرقين لا يعتبرون بالضرورة طبعة واحدة، وامتدح منهم من يستحقون في نظره المدح والتنويه ورفض آراء من يستحقون في نظره الرفض والنقد.

وما دمنا نصدّر هذه الدراسة تصديرا فلا نرى داعيا للدخول في التفاصيل التي ذكرها الكاتب بعرض منهجه وخطته وتقسيماته الداخلية إلى فصول ومباحث. وحسبنا التنويه برجاحة العقل عند الأستاذ معريش وتوازن أحكامه وعدم اندفاعه في الحكم المسبق على المستشرقين والهجوم عليهم، كما فعل بعض الذين درسوهم من العرب والمسلمين. فقد وصل به الإنصاف إلى الإشادة ببعض أعمال من يستحق ذلك منهم.

ونحن لا نشك في أن القراء المهتمين بالموضوع سيجدون في الكتاب منهجا واضحا ومادة خصبة قد تجعلهم يراجعون أحكاما عديدة صدرت ضد الاستشراق، والفرنسي منه بصفة خاصة.

أ.د/ أبو القاسم سعد الله

الجزائر، دالي إبراهيم ، 31 أكتوبر 2008

المقدمة

الاستشراق كظاهرة ثقافية وحركة علمية، رديف المحاولة التي قامت بها أوربا طوال القرون الثلاثة من الفترة الحديثة، في إطار البحث عن الذات الأوربية، من خلال إحياء التراث الإغريقي-اليوناني-الروماني، واليهودي-المسيحي.

والاستشراق الفرنسي، أحد ثمار الحركة الاستشراقية الأوربية المعاصرة، المنبثقة عن وشوك أوربا الانتهاء من إحياء تراثها، وفضولها العلمي، وتطور أساليب بحثها، وخفوت القيود اللاهوتية على البحث، والرومانسية وغيرها.

اكتشفت أوربا بلاد الشرق انطلاقا من تصورات وقوالب ذهنية وفكرية وحضارية صقلها عصر الاستنارة وأهلها للقيام بالدور التاريخي المتمثل في فعل الاستشراق. وكان من الممكن أن تكون النتائج أكثر إيجابية، لولا تأثير اتجاه الحضارة الأوربية ونزعتها الخاصة. فإذا كان (اتجاه الحضارة = الأخلاق + الجمال)، وكانت الأخلاق عند المستشرقين مساوية للترعة الإنسانية، وكان الجمال مساويا لأشياء الشرق (الثقافة)، فمن الملاحظ أن الجمال يسبق الأخلاق في ترتيب عناصر المعادلة السابقة عند الأوربيين، وهو ترتيب مخالف لثقافتنا، مما يعني أنه في حالة تعارض نزعتهم الإنسانية (أخلاقهم) تجاه الشرق مع طموحات المستعمر في الاستحواذ على أشياء الشرق وثقافته، يقفون إلى جانب الترعة الاستعمارية على حساب نزعتهم الإنسانية. وهذا مفتاح مهم من مفاتيح فهم الاستشراق وعلاقته بالاستعمار.

لقد تجسدت معرفة الآخر، في مفهوم وسلوك المستشرقين، في بعث التراث العربي-الإسلامي-العثماني-الفارسي، والهندي، الصيني... الخ، بغرض إعطاء الثقافة الغربية بعدا إنسانيا شرقيا، مما شكل مصدرا آخر للوعي الأوربي في شقه المعرفي، وكذلك الروحي، من خلال بعثهم للتراث الديني الشرقي الإسلامي، اليهودي، المسيحي، البوذي... الخ.

أخذ الجيل الأول للاستشراق الفرنسي المعاصر، على عاتقه مهمة التعرف على الآخر، وكان جيلا يتطابق من حيث سنن وقوانين الحضارة مع الجيل الأول (الباني) للحضارة، ولذلك فهو يمتاز بالحزم والعزم والمنطقية والموضوعية وطول النفس... الخ. وكان من جملة أهدافه: إخراج التاريخ الأوربي من دائرته الضيقة بفتح آفاق له على النوع البشري، ودراسة الحضارات الشرقية، وباختصار دراسة شعوب الشرق تكملة لجدول تاريخ الإنسانية.

ترى ما الأسئلة الأساسية التي يقتضي الموضوع طرحها؟ ألم تكن نوايا وأغراض ومقاصد بحث المستشرقين المعاصرين في تراثنا مغايرة لنواياهم ومقاصدهم من البحث في تراثهم؟ أليس من حق بعضنا اعتبار مصطلح الاستشراق مرادفا لمعاداة التراث العربي والإسلامي والتبشير بالقيم الغربية؟ ألم يرفض الاستشراق الاعتراف بالإسلام دينا سماويا وبالقرآن كتابا إلهيا وبمحمد رسولا ونبيا؟ أليس الاستشراق المعاصر عموما والفرنسي على الخصوص، أخطر أنواع الغزو الفكري على الفكر الإسلامي؟

لكن في المقابل: لماذا لا يرى خصوم الاستشراق إلا وجهه القبيح؟ ألم يكشف الاستشراق الفرنسي عن جوانب من تراثنا وتراث الشرق بلا استثناء، من المغرب والأندلس إلى اندونيسيا واليابان؟ ألم يساهم في بعث هذه الجوانب مجددا؟ وهل استطاع الاستشراق النيل من التراث العربي الإسلامي، لغة وثقافة وعقيدة، أم مُني بهزيمة وخاب رجاؤه فيه؟ هل خطر على بال أعداء الحضارة الإسلامية من المستشرقين أنهم كانوا من خلال عولمة البحث في التراث الحضاري سيؤدون إلى عولمته فكرا وثقافة وإيمانا؟ ثم ما العيب في الاستفادة من التجربة والخبرة الاستشراقية في مجال النقد والبحث العلمي الأكاديمي المعاصر في مجال تراثنا ووضعه على المحك، مع استثناء الوحي والسنة الصحيحة؟ ألم يفسح الله عز وجل في القرآن الحق في الدفاع عن النفس للخصم والعدو؟ فلماذا نخشى الحوار مع المستشرقين ونضعهم كلهم في سلة واحدة؟

تكمن مبررات اختيار الموضوع في كون الاستشراق الفرنسي، فعل علماء، اعتمدوا على مصادر أصلية وأصيلة، وخلصوا إلى تجارب وتفاعل ومعايشة لتراث الشرق، وأنتجوا معطيات وظفها رجال الفكر والثقافة والسياسة والاستعمار على حد سواء، فأثروا بذلك علومهم الإنسانية وحتى الطبيعية والرياضية ... الخ. وفهموا فهما

علميا ميدانيا واقع شعوب الشرق المصابة وقتئذ بداء القابلية للاستعمار، وهو ما ساعدهم فيما بعد على تحقيق جملة من المقاصد تصب في الهيمنة على هذه الشعوب.

ومن المبررات أيضا، كون مساعي أوربا لمعرفة الآخر لا تزال قائمة إلى اليوم، على تشغيل المؤسسات الاستشراقية وصدور الأبحاث. وأكثر من ذلك أن الاستشراق أعطي نفسا جديدا وبعث إلى الواجهة مجددا من خلال تراكم معارف عصر الاستنارة ومعارف الاستشراق المعاصر فأديا إلى بروز ظاهرة ثالثة تمثلت في البحث عن أداة تنظيم هذه المعارف والمعلومات مما ولد ثورة في الاتصال أداتها الكمبيوتر، وثقافة عالمية هي ثقافة العولمة بفعل تعميمها عن طريق الانترنيت والنظام الرقمي... الخ.

وقد اخترنا معرفة الاستشراق الفرنسي من خلال مصدر أساسي من مصادره هو "المجلة الآسيوية" (Journal Asiatique) التي تصدرها مؤسسة "الجمعية الآسيوية" الفرنسية. وهي المجلة التي كانت تضاهي في أهميتها "مجلة العلماء" (Le Journal des Savants) المتخصصة في نشر الدراسات المتعلقة بإحياء التراث الإغريقي-اليوناني-الروماني. كما اخترنا مجال المغرب والمشرق العربيين، مع التركيز على المغرب العربي، الذي تعمدنا تسبيقه في العنوان، في سياق انتمائه للعالم العربي والإسلامي، لاسيما وقد التقى خلال الفترة المعنية بالدراسة، الدافع العلمي للاستشراق الفرنسي، بالدافع الاستعماري في المغرب العربي على الخصوص.

وأما مبررات تركيزنا على الفترة الممتدة بين 1822-1872، فلأن أعمال هذه الفترة هي القاعدة التي ستقوم عليها مجمل أعمال المستشرقين الفرنسيين اللاحقة. وما هذه الأعمال اللاحقة إلا تكملة أو توسيعا أو تعميقا للأولى. ولأن الفترة المشار إليها آنفا، تتفق تحديدا والجيل الأول لاستشراق الجمعية والمجلة الفرنسية الآسيويتين، وقد أهمل من أرخوا للاستشراق الفرنسي مصدرا مهما كالمجلة الآسيوية الفرنسية، رغم كونها حوت زبدة الاستشراق الفرنسي. وكانت الجمعية الآسيوية الفرنسية، أولى الجمعيات الأوربية الحرة، تضم أبرز علماء الاستشراق في فرنسا، كما كان تأسيسها لغرض ترويج آداب الشرق. وقد أنتجت المجلة خلال الفترة المعنية بالدراسة 100 مجلد، هي بمثابة وثائق أولى للدراسة، لاسيما تقريرها السنوي الذي اعتبره فطاحل الفكر الاستشراقي الفرنسي "أصدق جهد تاريخي في ميدان الاستشراق".

دفعنا إلى اختيار الموضوع أيضا، كون الفترة التي تعنينا تتطابق مع ما اعتبرناه واصطلحنا عليه بالجيل الأول، وهي تشكل مفصلا مهما من مفاصل الحضارة الغربية وعلاقتها مجددا بحضارات الشرق وثقافاته، ومن خلال ظاهرة الاستشراق بالذات، لاسيما وأنها جسدت فيما بعد ثقافة العولمة، التي قامت بفعل استيعاب مختلف الثقافات والحضارات -التي ظلت منذ بدايتها في التاريخ تجري في شكل أنهار أو جداول موازية لبعضها البعض- رغم أنها جميعها تصب في مصب واحد (العولمة)، لأول مرة في تاريخ البشرية، كما يلاحظ الأستاذ مالك بن نبي.

وفي تطرقنا لموضوع: "الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق العربيين"، اتبعنا الخطة الآتية:

- التمهيد: حاولنا فيه طرح خلفيات الموضوع طرحا مستوحى من سنن وقوانين الحضارة، وقد مكنتنا العودة إلى قرون أوربا الخالية، من اكتشاف المنوال الذي نُسجت عليه الحياة الأوربية في أصولها البعيدة. ثم السياق الذي نشأت فيه ظاهرة الاستشراق الأوربي المعاصر على العموم، والفرنسي على الخصوص.

- وخصصنا الفصل الأول لمفاهيم توفر للقارئ جملة معان وأدوات أولية تهيئه لفهم طبيعة وتصور المستشرقين الفرنسيين لجملة من الأمور. كما حاولنا اقتفاء آثار المناهج والطرق العلمية التي سلكوها خلال الفترة. وقد أنهينا الفصل برسم مشهد للمحيط العلمي العام الذي نشأت فيه الجمعية الآسيوية الفرنسية ومجلتها.

- واستعرضنا في الفصل الثاني تراجم بعض المستشرقين الذين كانت لهم مساهمات بارزة، وعرفنا بملامح شخصيات ووجهات بعضهم، مستخلصين القواعد والقوانين ومجمل القناعات التي تحكم مستشرقي الجيل الأول، الذين لا يجوز نكران القيمة العلمية لإنتاجهم، ضمن السياق الذي جاء فيه، فهو أحيانا يستحق كل التقدير. مع الإشارة إلى تداخل أدوار بعض المستشرقين الفرنسيين ورجال الاستعمار في المستعمرات حتى تكاملت أو تطابقت.

- وكقاعدة، قسمنا كل فصل من الفصول الثلاثة الموالية إلى ثلاثة مباحث يستعرض الأول اهتمامات المستشرقين في الفترة المعنية، تليه دراسة للمحتوى الفكري-الثقافي والعلمي للاهتمامات، وينتهي المبحث الثالث بنظرة نقدية.

وقد عالجنا خلال ذلك، الآثار المخطوطة على الخصوص، والفعل الاستشراقي وتعابيره الفكرية والثقافية، ونقد فعله ومنهجيته. وتمت معالجة كل ميدان من ميادين الحياة العلمية والفكرية على حدة. فقد خصصنا الفصل الثالث للناحية الدينية. وأحطنا في الفصل الرابع باهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في مجال الأدب. وعالجنا في الفصل الخامس اهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في مجال التاريخ. وأما الفصل السادس والأخير، فتطرقنا فيه إلى اهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في مختلف ميادين الحياة العلمية الأخرى ومنها الفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية، وكذا الجغرافيا وعلم الفلك والأنتروبولوجيا.

– وحاولنا أثناء ذلك الوقوف على الكيفية التي تمت بها قراءتهم للتراث، وأدوات فهمهم له، وخلفيات قراءته، إلى غير ذلك من القضايا النقدية الكثيرة.

لقد تمت قراءتهم للتاريخ في نطاق الانتماء العربي-الإسلامي لبلاد المغرب والمشرق على حد سواء. لكن وفق مقتضيات ووسائل النقد الذي توصل إليه الأوربيون في القرن 19 م.

وتعاملوا مع التراث، بالنقل والنسخ أحيانا، والمقارنة أو المقابلة بين نصوصه، وأحيانا أخرى، جاء في شكل ملخصات ومواجيز، وباقتطاع أجزاء أو مستندات ووثائق، أو مقتطفات تاريخية، وخلاصات، وقصص وحكايات، جلها أعمال لمؤرخين ونتاجهم، والتعرض لها بالشرح والتعليق والنقد والتثريب، وبالتوطئة لها والتمهيد. واعتمادا على علم قراءة النصوص القديمة، ومحسنات الأسلوب بإدخال علامات الوقف عليها وما إلى ذلك.

وقد عملوا في ذلك كله بفكرهم الذي هو نتاج عصر الاستنارة، بالرأي والتفكير والملاحظات، والجدل، والشك، فأصدروا أحكاما بالاستحسان تارة وبالاستهجان أخرى.

– والواقع أننا لم نفعل أكثر من التزامنا العلمي الموضوعي وحرصنا على أن نعكس ما قام به المستشرقون من جهود. فلم يكن بالوسع التمييز في الثقافة الإسلامية وفي الآداب العربية أيضا بين المغرب والمشرق.

من المتوقع ألا يكون هذا العمل كاملا، فكثير من المادة لم تجد مكانا لهـا مـع كونها ضرورية لإزالة الغموض عن معلومات الموضـوع علـى الخـصوص، وحـول الاستشراق الفرنسي على العموم. ثم إن أملنا كبير، إن شاء الله، أن نوفـق إلى تكملـة معالجة باقي أجيال المستشرقين حتى تستكمل السلسلة وتتـضح صـورة استـشراق ومستشرقي الجمعية والمجلة الفرنسيتين.

لقد فرضت علينا الأمانة العلمية أن نحافظ ما أمكن على أصل الكثير من أسمـاء المستشرقين بالفرنسية حتى يسهل على القارئ المهتم الرجوع إليها في لغتها الأصـلية. كما أن الالتزام بالموضوعية التي هي محاكمة وحكم في آن واحد، جنبتنا نقد الاستشراق بشدة، والسقوط في التعبير عن وجهة النظر الواحدة، مما انعكس علينا سلبا –ربمـا– إذ لم تأخذ الكثير من أفكار المستشرقين نصيبها من النقد، واقتصرنا في ذلك على كـون نقدها تحصيل حاصل في تأليف أكاديمي.

وإذا كان لابد من كلمة أخيرة، فإن هذه الدراسة مدينة لكثير من الأشخاص. ولكنها مدينة على الخصوص وبعمق للأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله الذي أشرف عليها حين كانت الدراسة مشروع أطروحة دكتوراه، وكان سخيا في النصح والتشجيع. ثم إنها مدينة أيضا للدكتور ناصر الدين سعيدوني الذي ناب عن الدكتور سعد الله لمدة.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

م. ع. معريش

المختصرات

- د.: الدكتور
- د. ت. ط.: دون تاريخ الطبع
- د. م. ط.: دون مكان الطبع
- ق. م.: قبل الميلاد
- م: ميلادي، متر
- م. ط.: مكان الطبع
- هـ: هجري

-1^{me}: unième

- **A.** CHODZKO: Alexandre

-**A.** D'AVRIL: Adolphe

-**A.** DUPONT: Alexandre

-**C. A. M.** DU CAURROY: De La Croie Adolphe-Marie

-**Dr.**: Docteur

-**Edit**: éditeur, édition

-**F.** FRESNEL: Fulgence

-**F.** WOEPCKE:François

-**G** $^{NT:}$ Gouvernement

-**G.** DE DUMAST:Guerrier

-**G.** DE TASSY: Garçin

-**G.** DUGAT:Gustave

-**H**: Henri

-**Impr.** Royale: Imprimerie

-**J. D.**: Joseph DERENBOURG

-**J.** FERRETTE: Jules

-**J. G.** JACKSON: James Grey

-**J.** M.C. PORTALIS: Joseph-Marie Comte

-**J.** MOHL: jules

-**J. T.** REINAUD: Joseph Toussain

-**J.A.:** journal asiatique

-**L.** DUBEUX: Louis

-**M. G.** DE SLANE: Le Baron Mac Guckin

-**N. J.** A.:nouveau journal asiatique

-**Op. Cité**:ouvrage précédemment cité

-**P. G.** DE DU MAST: Le baron P. Guerrier

-**P**: page

-**Publ.**: Publication

-**R.** DOZY: Reinhardt

-**R.A.**: revue africaine

-**S.** DE SACY:Le baron Sylvestre

-**S.D.**: Sans date

-**St**: saint

-**T. X.** DE BIANCHI: Thomas-xavier

-**T**: tome

-**V.** DE SANTAREM: Le Vicomte

-**Vol.**: volume

تمهيد

اعلم أن الأحداث والوقائع، إذا اطردت أسباها ومسبباها وفق صيرورة ما، ولدت ما يمكن الاصطلاح على تسميته الظاهرة [1]، التي تستوقف نظر المراقبين والباحثين على السواء.

وقد تكون الظاهرة، تارة مظهرا لبزوغ فجر جديد يصنعه الإنسان، كصورة مدنية من المدنيات، كما قد تكون مظهرا لأفول مدنية أخرى، بفعل الإنسان نفسه[2].

وقد أدى تكرار ظواهر نشوء المدنيات وأفولها إلى استخلاص المنهج التطوري النفسي-الاجتماعي-الحضاري، وهو أشبه بقانون مفاده أن الإنسانية، على العموم، تمر من بداية تطورها إلى نهاية انحطاطها بثلاثة أعمار -طفولة، رجولة فشيخوخة- وهي تصنع أحكامها، خلال هذه الأعمار، طبقا لمقاييس تتعلق بعالم الأشياء، الأشخاص أو الأفكار، بطغيان أحدها على الآخر[3].

ولما كانت الإنسانية تبلغ رشدها، حين تصبح الفكرة أو الأفكار ذات قيمة في ذاتها، دون أيما تأييد من عالم الأشياء أو الأشخاص(4)، فإن مرحلة الرشد هذه هي الأهم على الإطلاق، إذ تمارس الإنسانية إنسانيتها خلالها بكل أبعادها.

---

(1) - مالك، بن نبي، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1981، ص: 62.

ــ تدل الظاهرة على ما يمكن رؤيته أو ملاحظته، على حين أن الحادث يدل على ما يرى وما لا يرى. وتطلق الظاهرة على الواقع الخارجي المؤثر في الحواس، كما تطلق على كل ما يبحث فيه العلم من الحقائق التجريبية. انظر:

ــ جميل، صليبا، **المعجم الفلسفي** بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

(2) - ابن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ص: 20.

(3) - ابن نبي، **إنتاج المستشرقين**، ص: 34. (ضاعت منا بطاقة تعريف الكتاب أثناء التهميش له).

(4) - **نفس المصدر**، ص: 35.

والأفكار، إما أن تكون متجهة إلى الأمام، أي نحو المستقبل، تسير سيرا حثيثا في طريقها نحو الحضارة، بزاد الوحدة الروحية أو الأيديولوجية، أو تتجه اتجاها تقهقريا ملتفتا إلى الماضي بصورة مرضية "عاطفية"[1].

كانت الظاهرة الأولى –السير نحو الحضارة- تنطبق على العالم الأوربي، لاسيما في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، أي خلال عصر الاستنارة[2] وما انبثق عنه. أما الظاهرة الثانية –الانحطاط والتقهقر- فتنطبق على العالم الإسلامي، في الفترة ذاتها. وهي الفترة التي ولدت فيها ظاهرة الاستشراق الثقافي الأوربي المعاصر على العموم، والفرنسي منه –وهو الذي يعنينا- على وجه الخصوص، لاسيما وقد سعى الغرب للاتصال بالشرق ومحاولة معرفته وفهمه والتعامل معه من خلال ظاهرة الاستشراق. فما هي الخلفيات التاريخية الحضارية لهذه الظاهرة الثقافية ؟ وما هي حيثيات اللقاء ؟

الواقع أن الإجابة على السؤالين تقتضي العودة إلى قرون خلت، قصد معرفة المنوال الذي نُسجت عليه الحياة الأوربية حتى في أصولها البعيدة.

فمما لا شك فيه، أن إنسان أوربا استمد –منذ كان يشيد حياته وسط المستنقعات- غذاءه من الأرض. وقد هيأت هذه الضرورة الحيوية جميع العناصر الأولية في "الحضارة الزراعية" أو "الحضارة الخضراء"، على ما ذهب إليه أحد علماء الاجتماع الفرنسيين، وفرضت عليه البيئة الزراعية سلوكا يتفق وعلاقات الجوار الوثيقة، وخلقت لديه فكرة الملكية وفكرة الزمن الاجتماعية. ودفع المناخ الإنسان داخل البيت إلى استخدام النار وتأثيث بيته. أما خارج البيت فتولدت لديه الروح القروية التي أدت فيما بعد إلى وجود الحياة الاجتماعية شيئا فشيئا، وبهذا اندمج الفرد في وضع تنطبق عليه

---

[1] - **نفس المصدر**، ص: 41.

[2] - أو **حركة التنوير** أو فلسفة الأنوار، هي حركة فلسفية بدأت في القرن الثامن عشر، تتميز بفكرة التقدم، والشك في التقاليد، ومعارضة الدين، والإيمان بالعقل، والدعوة إلى التفكير الذاتي، والتفاؤل بتأثير التعليم في الإصلاح الأخلاقي. انظر:

- صليبا، المعجم الفلسفي، ج 2، **مصدر سابق**.

شرائط الحياة المستقرة ومطامحها الحضارية[1]. ولو قدر للمهندس أو الفنان الأوربي أن يشهد نهاية دورة حضارته فسيعود إلى سابق مهنته بستانيا أو مزارعا[2].

قبل أن ننتقل إلى المرحلة التي دخلت فيها أوربا عهداً جديداً — وهو العهد الذي عاشت خلاله فترة النهضة وصنعت فيه وعيها المستمد من المصادر اليهودية المسيحية في الشق الروحي، واليوناني الروماني في ميادين المعرفة[3]- لا بد أن نشير ولو باختصار وتركيز، إلى همزة الوصل بين أوربا القديمة وأوربا الحديثة، وأعني بذلك عصر الحضارة العربية الإسلامية لصلته بموضوع الاستشراق.

لسوء حظ الإنسانية أن أوربا نسيت أو تناست تجربة الحضارة العربية الإسلامية، بفعل تزوير الكتّاب الغربيين للتاريخ في الفترة الحديثة حتى ظهر في عيون من أخذ عنهم أن التاريخ هو تلك المسافة المختزلة التي تبتدئ من "الأكروبول"[4] في أثينا وتنتهي عند قصر "شابو"[5] بباريس أو أكثر من ذلك بقليل، ولو أن الأوربيين دققوا النظر لوجدوا هوة كبيرة تفصل حضارة أرسطو[6] وحضارة ديكارت[7] وأن تلك الهوة من القرون هي الحضارة الإسلامية، وقد كانت هي همزة الوصل في التاريخ الإنساني بين حضارة أثينا وباريس[8].

---

(1) - ابن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986، ص: 39 — 40.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 42.

(3) - حسن حنفي، جريدة "الخبر" الجزائرية، بتاريخ 15 /02 /2001.

(4) - **الأكروبول**: اسم أعطي للقلاع والحصون الدينية التي تقع في أعلى نقطة بكل مدينة من المدن الإغريقية القديمة وأشهرها التي تقع بمدينة أثينا على ارتفاع 165م. انظر:

- Paul ROBERT, **Petit ROBERT 2,** 5 ᵐᵉ édit. Paris, 1981 : Acropole.

(5) - عائلة نبيلة بإقليم "بواتو" بفرنسا، امتدت شهرتها عبر أجيال منذ 1040 م. تنقسم العائلة إلى عدة فروع.

- La Grande Encyclopédie, Inventaire raisonné des Science, des Lettres des Arts par une Société de Savants et de gens de Lettres, T : 10, Société Anonyme de la Grande Encyclopédie, Paris, S. D.

(6) - هو **أرسطوطاليس** (384- 322 ق. م.)، الفيلسوف الجامع لكل فروع المعرفة الإنسانية في تاريخ البشرية. يمتاز على أستاذه أفلاطون بدقة المنهج واستقامة البراهين والاستناد إلى التجربة الواقعية. وهو واضع علم المنطق كله تقريبا. ومن هنا لقب بـــ"المعلم الأول"، و"صاحب المنطق". انظر: عبد الرحمن، بدوي، **موسوعة الفلسفة**، ج1، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984، ص: 98.

(7) - **ديكارت**: (1595ـــ 1650)، فيلسوف فرنسي يعد رائد الفلسفة في العصر الحديث، وفي الوقت نفسه كان رياضيا ممتازا، ابتكر الهندسة التحليلية. انظر: - **نفس المصدر** السابق، ص: 488-499.

(8) —ا بن نبي، **شروط النهضة**، **مصدر سابق**، ص: 148-149.

فالعرب، بعد أن ارتفعوا إلى مستوى المعارف الإغريقية، وهضموا كنوزها العلمية، لم يقتصروا عليها ولكنهم قاموا بجهود علمية مضنية، وأنجزوا بدورهم أبحاثا شاقة كللت بالنجاح[1].

ثم أن الحكم الإسلامي لم يستعمر بما في هذه الكلمة من معنى الاستغلال المادي المنحط، بل كان فتحه للبلاد، كجنوب فرنسا وإسبانيا وصقلية وإفريقيا الشمالية، لضمها للحضارة الإسلامية في الشام أو العراق. وليس لأحد أن ينكر هذه الحقيقة محتجا بأن انعدام التفرقة السياسية إنما يعود إلى أن شعوبه كانت متوحدة في الدين، فإن الواقع التاريخي يشهد، وأقباط مصر ويهودها مثلا يشهدون أيضا، أن الإسلام لم يكن يعم البلاد كدين، بل كحضارة. لأجل ذلك شهد التاريخ أن القسيس "جربرت"[2] Gerbert d'Aurillac تعلم العلوم الإسلامية ثم رقى عرش البابوية باسم البابا "سلفستر الثاني" Sylvestre II، فأصبح المحرك الأول للحرب الصليبية الأولى (1096-1099م)[3]. لاشك أن هذا ما كان ليحدث لولا أن الإسلام قد جاء بعهد جديد في تاريخ العلاقات بين الشعوب[4].

لكن أوربا أخذت منذ عصر "بوكاشيو"، حين كانت حضارتها ترضع في مهدها لبان حضارة العرب، تتنكر للحضارة الإسلامية[5].

---

(1) - -L'abbé BARGES, Trad. " Histoire du Nil Bienfaisant " par le Cheikh Ahmed -Ben-Mohamed-El-Menoufiyi, **J.A.**, 4 me Série, T : 7, 1846, P : 487.

(2) - **جربرت**: أخذه "بوريل" Borel كونت برشلونة إلى الأندلس عام 967 م أين تلقى العلوم عن العرب. كان ينظر إليه على أنه أعلم علماء أوربا في زمانه. بعد وفاة البابا "جريجوار V" ترقى عرش البابوية (999 1003 – م)، وكرس جهوده لإصلاح الكنيسة. وهو الذي حاول توحيد المسيحيين ضد المسلمين. على أن تأثيره على الأوربيين كان في المجال العلمي على الخصوص. وكانت وفاته بروما عام 1003 م.

ـــ انظر: - Michel, MOURRE, **Dictionnaire encyclopédique d'histoire,** Bordas, Paris, 1978, Sylvestre II.

(3) - جرت الحرب الصليبية الثانية بين (1147ـــ 1149 م) والثالثة (1189ـــ 1192) والرابعة (1202ـــ 1204) والخامسة (1217ـــ 1221) والسادسة (1228ـــ 1229) والسابعة (1248ـــ 1254) والثامنة (1270).

انظر: **نفس المصدر السابق**، مادة: Croisades.

(4) - ابن نبي، **شروط النهضة**، **مصدر سابق**، ص: 148.

(5) - ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، **مصدر سابق**، ص: 43.

هناك من المؤرخين من يرى، أن نهضة أوربا في القرن 16، تعتبر تركيبا حققه الزمن والأحداث على الحدود بين الثقافة الإسلامية والعالم المسيحي. والحروب الصليبية التي انفجرت على هذه الحدود، كانت نوعا من التركيب الذي اتخذ وضعا معكوسا. وللثقافة دار أمنها وإقامتها في مواطن حضارتها. ولكن الأحداث التي تنتج عنها لها ميدانها بصفة عامة في "المنطقة الحرام" على حدودها[1].

لقد قامت الحضارة الغربية في بدايتها على هيكل أخلاقي مسيحي، أتاح لها التماسك والوثبة الضروريين لازدهارها. لكن تطورها قد غير هذا الأساس العقدي شيئا فشيئا، إلى أن صار هيكلا مختلطا يتمثل فيه، التفكير الكاثوليكي والبروتستانتي وما يسمى بالتفكير الحر والتفكير اليهودي[2].

وقد قرر التاريخ أن الحضارة المسيحية سارت سيرة الحضارة الإسلامية التي سبقتها في الزمن. فهي قد ولدت مثلها مرتين، الأولى بميلاد الفكرة المسيحية، والثانية بتسجيل هذه الفكرة في الأنفس. أي دخولها في أحداث التاريخ[3].

نشأت المسيحية في وسط فيه خليط من الديانات، والثقافات العبرية والرومانية، واليونانية فلم يتسن لها الدخول إلى قلوب الناس وسط الزحام الفكري الثقافي، لتؤثر فيها تأثيراً فعالا. و لم يكتب لها أن تعمل عملها إلا عندما بلغت وسط البداوة الجرمانية في شمال أوربا، حيث وجدت النفوس الشاغرة، فتمكنت منها، وبعثت فيها الروح الفعالة، فسجلت الميلاد النفسي للحضارة المسيحية التي اندفعت بها لتكون حلقتها في سلسلة التاريخ[4].

---

(1) – ابن نبي، مشكلة الثقافة، **مصدر سابق**، 95-96.

(2) – **نفس المصدر السابق**، ص: 103.

(3) – ابن نبي، **شروط النهضة، مصدر سابق**، ص: 55.

إذا كانت المدنية الإسلامية قد جمعت المولدين في وقت واحد فإن ذلك يعود إلى الفراغ الذي وجدا ته الفكرة الإسلامية في النفس العربية العذراء، التي لم تنشأ فيها ثقافة، ولا ديانة سابقة فخلا لها بذلك الجو، ولم يكن حظ الحضارة المسيحية في نفوس أهلها و بيئتها، كحظ الحضارة الإسلامية. **نفس المصدر**، ص: 55.

(4) – **نفس المصدر**، ص : 55.

فالروح المسيحية ومبدؤها الخلقي هما القاعدتان اللتان شيدت عليهما أوربا سيادتها التاريخية. فالوسيلة إلى الحضارة متوفرة ما دامت هنالك فكرة دينية تؤلف بين العوامل الثلاثة: الإنسان، والتراب، والوقت، لتركّب منها كتلة تسمى في التاريخ "حضارة"[1].

فالفكرة المسيحية أخرجت أوربا إلى مسرح التاريخ وبنت عالمها الفكري انطلاقا من ذلك، ومع عصر النهضة استعادت أوربا اكتشافها العالم الإغريقي، فتعرفت على "سقراط"[2] باعث الأفكار وصاحب منهج التوليد الذي يقضي باستخراج وبعث الأفكار من النفس بتوجيه الأسئلة إليها.

وتعرفت على "أفلاطون"[3] مؤرخ أفكار سقراط ومناقشاته مع فلاسفة عصره. وتعرفت على "أرسطو" مشرع أفكار سقراط، والمعتقد أن الفلسفة تنظم المعرفة البشرية بكاملها[4].

التقت أوربا بالعالم الإغريقي ثانية و قد اكتسى صبغة مسيحية منذ القديس "توماس الأكويني"[5] (Saint Thomas d'Aquin) الذي حاول في العديد من الكتب التي تركها أن يوفق بين العقل والإيمان، بين عقائد المسيحية ونظريات أرسطو[6].

---

(1) – **نفس المصدر**، ص : 57-58.

(2) – **سقراط**: (470-309 ق.م) فيلسوف يوناني. يعد أبا الفلسفة اليونانية، اشتهر بمنهج التوليد manieutique الذي يقضي باستخراج وبعث الأفكار من النفس بتوجيه الأسئلة إليها. لم يترك مؤلفات كتبها بخط يده؛ لأن تعليمه كان ينحصر بالتحدث إلى تلاميذه.

– أنظر: ابن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، ط 1، دار الفكر، الجزائر، 1992، ص: 41.

– انظر أيضا: بدوي، موسوعة الفلسفة، ج1، **مصدر سابق**، ص: 576.

(3) – **أفلاطون**: (428-338ق.م) فيلسوف يوناني من أهم تلاميذ سقراط. دون في بعض المؤلفات العديدة التي تركها أحاديث سقراط أو مناقشاته مع فلاسفة عصره. أنظر: ابن نبي، مشكلة الأفكار، **مصدر سابق**، ص:41. وكذلك: بدوي، موسوعة الفلسفة، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 154-190.

(4) – **نفس المصدر السابق**، ص: 42.

(5) ـــ **توماس الأكويني** (1227 -1174) St Thomas d'Aquin فيلسوف وعالم باللاهوت، إيطالي الأصل. درس الفلسفة واللاهوت والفلسفة في عدة مدن أوربية، وخاصة في نابولي بإيطاليا حيث كانت تناقش أمهات المؤلفات الإسلامية. ترك العديد من الكتب التي حاول فيها أن يوفق بين العقل والإيمان، بين العقيدة المسيحية ونظريات أرسطو. **نفس المصدر**، ص: 41 – 42. وقد تأثر الأكويني بابن رشد، انظر أيضا: بدوي، موسوعة الفلسفة، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 426-427.

(6) – ابن نبي، مشكلة الثقافة، **مصدر سابق**، ص: 42.

ولما كان الواقع الأوربي بعامة والفرنسي بخاصة هو "إنسان الأرض" وأن الحضارة الأوربية هي "حضارة الزراعة" فإن العمليات التي تستنتج الأرض خيراتها –من المحراث والبذور والحصاد– لها بالضرورة دور هام في نفسية الإنسان الأوربي كما أن لها دوراً هاما في صياغة رموز حضارته، إذ أن الزراعة هي العملية التي تنظم إنتاج الأرض. وفي الظروف التي تعاظم فيها إنتاج الفكر أثناء حركة النهضة في أوربا، أطلق الرجل الفرنسي كلمة ثقافة "Culture" التي تعني الزراعة إطلاقاً مجازيا. وقد شخصت هذه الاستعارة كلمة "الثقافة" واقعا تمثل في تعاظم إنتاج الفكر وتحوله إلى واقع اجتماعي[1].

قامت نزعات فردية أوربية تدين بمبدأ "الإنسانيات الإغريقية اللاتينية"[2] وقرائح فكرية كلاسيكية بدراسات في حجرة الدراسة وبطون الكتب فأنتجت أعمالا أدبية وثمرات فكر في ميادين الفن والفلسفة والعلم والقانون... الخ. لأجل ذلك اعتبرت ثقافة عصر النهضة ميراثا من مواريث أثينا وروما، وفسرت "النهضة" على أنها هي ذاتها "دعوة إلى التاريخ القديم"[3]. وجدت فيه أوربا دليل الطريق وزادها والمصدر الذي غذى عبقريتها ابتداء من فيدياس[4](Phidias) حتى "ميشيل أنج"[5] (Michel-Ange)كما وجدت فيه مقياس تنظيمه العقلي من أرسطو إلى ديكارت[6].

اكتملت صورة المجتمعات الأوربية ببعث تعاليم المسيح أثناء حركة الإصلاح الديني، ومن خلال فلسفة ديكارت التي أمدت هذه المجتمعات بالاتجاه نحو العموم، فمنحتها ما كان يفتقر إليه استقرارها من حركة ونشاط.

وإذا كانت المسيحية هي التي أودعت "خميرة" التوسع الأخلاقي الذي استخدم ذريعة للحروب الصليبية التي أخرجت أوربا من حدودها لتبنّي حصاداً طيبا مع الحضارة

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 25- 26.

(2) - بمعنى أن مشكلتها ذات علاقة وظيفية بالإنسان، وفلسفة الإنسان. انظر: **نفس المصدر** السابق، ص: 70.

(3) - ابن نبي، مشكلة الثقافة، **مصدر سابق**، ص: 28.

(4) - النحات الأثيني والممثل الشهير للفن الكلاسيكي الإغريقي (490 ـــ 430 ق. م.).

- انظر: - La Grande Encyclopédie, **op. Cité**, T : 26.

(5) - نحات، رسام، مهندس معماري وشاعر إيطالي (1475 ـــ 1564 م).

ـــ انظر: - ROBERT 2, **op. Cité.**

(6) - ابن نبي، مشكلة الثقافة، **مصدر سابق**، ص: 105.

الإسلامية، ثم للمشاريع الاستعمارية الحديثة ومنها اكتشاف أمريكا والاستعمار الذي طال العالم الإسلامي بدءاً من الحملة على مصر عام 1798، فالحملة على الجزائر عام 1830، فإن فلسفة ديكارت هي التي نظمت ضروب النشاطات الأساسية للمجتمعات الأوربية تنظيما علميا، ودفعتها دفعا مثمراً إلى الازدهار الصناعي الذي سينتج عن تطورها[1].

غير أن التعميم المفرط للشك الديكارتي سيؤدي غالبا إلى تفسير متعسف للحقائق النفسية التي هي الأساس في موضوع "الكتب المقدسة والحركة النبوية" وقد أدى هذا التعميم، في تفسير الأديان والعقائد إلى وضعها بين مجموعة ظواهر نفسية تدرس تحت اسم "الظواهر الباطنة" (Phénomènes Pneumatiques)[2]. ويبدو أن هذا التعميم منسوب إلى المصدر العبري خاصة، حيث يستقي النقد الحديث أسانيده عن الموضوع: الأسانيد التي هي في الواقع المخطوطات الإسرائيلية في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، مصدر المعلومات الرئيسية عن الحركة النبوية. ومن المعلوم أن هذه الحقبة من التاريخ الإسرائيلي لم تكن فترة ارتقاء روحي، بل هي الأخرى فترة تدهور خلقي وديني ناتج عن الاضطرابات الاجتماعية والسياسية. وكان هذا التدهور على وجه التحديد هو موضوع دعوة الأنبياء، منذ النبي "عاموس"(Amos) ومعاصرَيْه "ميخا" (Michée) و"يوشع" (Osée)[3] اللذين لم يأتيا ليعلنا وعد البشارة، بل ليبلغا وعيد العقوبة[4].

---

(1) - ابن نبي، وجهة العالم الإسلامي، **مصدر سابق**، ص: 40-41.

(2) **Pneumatique** أو Pneumatologie، علم نظري يبحث في طبيعة الكائنات الروحية. ولما كان البحث النظري في طبيعة الأرواح متعلقا باللاهوت الطبيعي من جهة، وباللاهوت النقلي من جهة ثانية، سمي علم الكائنات الروحية بعلم ما بعد الطبيعة الخاص، بخلاف علم ما بعد الطبيعة العام الذي يبحث في الموجود بما هو موجود. انظر: المعجم الفلسفي، ج 1، **مصدر سابق**.

(3) - آخر ملوك إسرائيل (731— 722 ق. م.). انظر:

- Dictionnaire encyclopédique d'histoire, **op. Cité** Osée.

(4) - ابن نبي، **الظاهرة القرآنية**، **مصدر سابق**، ص: 86-87.

وقد ظهرت الدول القومية واللغات الأوربية في القرن 16 م. أما الجمعيات العلمية الحرة، فقد ظهرت فيما بعد، بنفس دافع إنشاء المنشورات الخاصة بالعلوم الجديدة، التي لم تجد لها مكانا ضمن منظومة آداب وقتذاك.

وكان ظهور هذه الجمعيات، لاسيما في عهد غطت فيه الجمعيات الحرة بشبكتها معظم القارة الأوربية، إنه القرن الذي أعقب نهضة الآداب، وأضحت الأفكار الجديدة تشغل الضمير الإنساني بعد أن كسرت أغلال الفلسفة والعقيدة السكولاستيكية[1]. ولم تلق الأفكار الناشئة الترحيب في المدارس الرسمية، الأمر الذي أشعر محبي الأنوار الجديدة بضرورة التفاهم وحماية أنفسهم والعناية المشتركة بالعلوم الناشئة[2].

وقد أخذت هذه العلوم مكانتها اللائقة شيئا فشيئا، واتسعت قاعدة التعليم العمومي، وتوطدت أركان بعض الجمعيات الحرة مكونة أكاديميات ومدارس رسمية. وكانت أوربا كلها تعمل على التطور بإصلاح الدراسات الكلاسيكية.

ظل الشعور السائد والمطرد، طوال ثلاثة قرون، في أوساط المؤلفين الأوربيين، هو وجوب ترجمة ونشر الكتابات الإغريقية واللاتينية، وتطبيق الوقائع التي تحتويها على مختلف العلوم اللاهوتية، الفلسفية، التاريخية والطبيعية، وكذا استبدال المناهج السكولاستيكية بمناهج أكثر تحررا، وإصلاح الذوق الأدبي، اعتماداً على النماذج القديمة. وأخيراً، إعادة النظر في مناهج التربية العلمية للعالم. دام هذا العمل الضخم إذن، نحو ثلاثة قرون استغرقتها أوربا في تطبيق برنامج[3] من هذا النوع.

---

(1) – المدرسي **Scolastique** (والسكولاستيكية)، هو المنسوب إلى المدرسة، ويطلق على التعليم المدرسي الذي نشأ ونما في المدارس الكنسية، والجامعات الأوربية، بين القرن 10 والقرن 17م. وأهم الصفات التي يتميز بها هذا التعليم ارتباطه بعلم اللاهوت، وتوفيقه بين الوحي والعقل واعتماده في البحث على طرق القياس البرهاني، وعلى تفسير النصوص القديمة، ولاسيما نصوص "أرسطو". ويعد القديس "توما الأكويني" أشهر ممثلي هذا التعليم. ويطلق المدرسي على كل رجل يتصف بالعقلية المدرسية، ويرغب في التقيد بالآراء التقليدية، ويخضع لسلطان القدماء، ويتقاعس عن تجديد نفسه بتجارب الحياة. وإذا كان اللاهوت الوضعي مبنيا على دراسة الوثائق والآثار التي تتضمن كل ما يتعلق بالوحي الإلهي، كالكتب السماوية، وقرارات المجامع المقدسة وغيرها، فإن اللاهوت المدرسي يرتب الحقائق المستخرجة من الوثائق ويؤلف منها كلا متماسكا. واللاهوت الاعتقادي يبحث في أصول الدين. انظر: المعجم الفلسفي، ج1+ 2، **مصدر سابق**.

(2) – Rapport (1851-1852), **J. A.**, 4 me série, T : 20, 1852, P : 12-13.

(3) – **نفس المصدر السابق**، ص : 12-13.

ونشأ تيار جديد، وسط تقاليد الفكر الكلاسيكي وعاداته، أضحى ينظر إلى وجوب أن تمتد فكرة "ثقافة" لتشمل ما وراء ما أطلق عليه "الإنسانيات الإغريقية اللاتينية" ليضم في رحابه واقعا اجتماعيا يتجاوز حدود أوربا ليحمل بصورة عامة طابع العفوية الإنسانية. فهذا هو العصر الذي اكتشفت فيه أوربا بعامة، وألمانيا بخاصة، ثقافات آسيا على يد "شبنهور" SCHOPENHAUER (1788 -1860) من خلال فلسفة الهنود، و"نيتشه" NIETZSCHE (1844-1900)[1] في مجال البحث الاجتماعي في القرن 19، وبتأثير التوسع الاستعماري، والأفكار الجديدة التي جاء بها علم النفس والاجتماع حتى ضم مجالا جغرافيا أوسع ومعنى اجتماعيا أشمل إلى أن ظفر بدراسات "ليفي بريل" [2] عن ثقافات المجتمعات البدائية[3]. وهكذا ضمت أوربا القرن 19 في رحابها الواقع الاجتماعي الذي يتجاوزها أي العبقرية الإنسانية، ومنها ثقافات الشرق وثقافات المجتمعات البدائية [4].

ذلك هو المحيط الفكري، الثقافي والاجتماعي، وكذا السياق الذي نشأت فيه ظاهرة الاستشراق الأوربي المعاصر على العموم، والفرنسي على الخصوص. وقد كانت المهمة التي ألقاها المستشرقون الأوربيون على عواتقهم كبيرة وشاقة. ذلك أنه لما بدأت نهضة الآداب في أوربا في إطار البحث عن الذات لم يكن أمام الباحثين سوى لغتين وأدبين، ومع ذلك استغرقت مهمة تعميقهما ثلاثة قرون.

لكن الدراسات الاستشراقية عند انطلاقها، وجدت نفسها أمام عدد هائل من اللغات، وأربعة إلى خمسة آداب كبرى محاطة بعدد أكبر من الآداب الثانوية، صارت دراستها ضرورية. وأخيرا كان على المستشرقين فك رموز عدد هائل من نقوش لغات يعود بعضها إلى آلاف السنين، وكتبت أحيانا بأحرف غير معلومة[5]. ذلك هو تراث الشرق، وموضوع الاستشراق.

---

[1] – ابن نبي، مشكلة الثقافة، **مصدر سابق**، ص : 28-29.

[2] - Lucien, LEVY-BRUHL., (1857-1939).

[3] - **نفس المصدر السابق** ، ص: 28-29.

[4] - **نفس المصدر**، ص : 28.

[5] - Rapport annuel du 28/ 06/ 1865, **J. A.**, 6 ᵐᵉ série, T : 6, 1865, P : 101.

ومنذ أن أوجد علم "اللغة المقارن"(La philologie comparée) أصنافا جديدة من الدراسات، فإن فصل أوربا عن الشرق لم يعد سوى أمر سطحي. إذ صارت أوربا فرعا من فروع شجرة ضخمة عروقها في الشرق وسوقها وفروعها متقاربة[1].

أضحت جل فروع التاريخ والآداب الشرقية عرضة للنقد الأوربي تدريجيا، وبرزت فروع بأكملها لم يبذل فيها جهدٌ من قبل، في مجال الآداب، كما في مجال الدراسات العرقية واللغوية وغيرها[2].

إن الأعمال التي أنجزت بالنسبة للتاريخ العالمي، هي بمثابة المجهر بالنسبة للعلوم الطبيعية. فهي تشكل بديلا لدراسات سابقة ضعيفة وسطحية. لقد تأثرت من جراء الدراسات الاستشراقية الجديدة كل العلوم، التاريخية، العقدية، اللغوية، الفلسفية وحتى الآداب، ولو بأقل سرعة وأقل عمق من علوم المعرفة المتبحرة، كما صارت بعض الأفكار تناقض أخرى، كان يفضلها الأوربيون وتصدعت بسببها نظم كانوا ينظرون إليها نظرة احترام و تقدير[3].

لقد استغرقت محاولات البحث في معرفة النفس أو الذات الأوربية قرونا ثلاثة، كما أسلفنا. وها هو عصر الاستنارة (ق: 18)، يفتح مرحلة جديدة في التاريخ الأوربي، فيولد فضولا جديدا تمثل في محولة العقل الغربي البحث عن الآخر وفهمه، فكريا وثقافيا وروحيا. وها هو البحث يولد ظاهرة ثقافية جديدة موضوعها الاستشراق.

سنحاول أن نستقرئ هذه الظاهرة الثقافية المتنامية في أوربا عامة، وعلى شساعة رقعة جغرافية الموضوع، وطول المدة المبحوثة وتنوع ميادين وقائعها. وسنقتصر على الاستشراق الفرنسي كفاعل بل وعلى الجمعية والمجلة الآسيوية الفرنسيتين. كما سنركز ما أمكن، من ناحية المحتوى، على مجال المغرب والمشرق العربيين، -لكن في سياق معين

---

(1) - Rapport annuel du 28/ 06/ 1869, **J. A.**, 6 me série, T : 14, 1869, P : 14.

(2) - Rapport annuel du 25/ 06/ 1862, **J. A.**, 5 me série, T : 20, 1862, P.31.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص :31.

تقتضيه الأمانة العلمية والتاريخية وكما بحثه المستشرقون الفرنسيون- كمسرح للوقائع والأحداث[1] إلى القرن 19م.

إن الذي يعنينا من المستشرقين الفرنسيين، هم أحفاد عصر الاستنارة، الذين تكونوا على يد رواد نهلوا المعرفة ومناهج البحث من عصر الاستنارة، فتطبعوا بطابعها وساهموا في تكوين جيل ومؤسسات مشابهة لجيل ومؤسسات عصر الاستنارة، ولكن في موضوع الاستشراق، إذ اهتموا بالتراث الفكري، الثقافي والحضاري للشرق عموما، والذي يهمنا منه بخاصة الاستشراق في المغرب والمشرق العربيين.

ينقسم هؤلاء المستشرقون إلى جيل الرواد، حين كان البحث في طوره الفردي الشخصي، ويليهم جيل الطور الاجتماعي للبحث الاستشراقي الفرنسي حين بدأوا ينتظمون في جمعيات استشراقية ومؤسسات. ومنها الجمعية الأسيوية الفرنسية ومجلتها التي تأسست عام 1822، أي قبيل احتلال الجزائر. ذلك المعلم الذي يحمل أكثر من دلالة إذ سيتولد عنه ظاهرة أخرى هي التوسع الاستعماري في بلاد المغرب، ويعدُّ الاستشراق وسيلته الفكرية-الثقافية، وأمله المعول عليه في الاحتواء والتوجيه والهيمنة.

وبالرغم من أن احتلال مدينة الجزائر قد ولد مستشرقين عسكريين فرنسيين كثّرا إلا أننا استثنيناهم من موضوعنا لعدم اختصاصهم وقلة موضوعيتهم، فلم نبق إلا على الذين اضطر مستشرقو الجمعية الآسيوية إلى التعامل معهم. لقد كان يجمع بين أولئك وهؤلاء، الاستشراق في بلاد المغرب والمشرق، ويفرق بينهم كقاعدة عامة، لاسيما الاختصاص، أي وسائل الدراسة ومناهج البحث العلمي ومنها الالتزام بالشروط الأكاديمية، التي امتاز بها مستشرقو الجمعية الأسيوية، الذين وقع عليهم اختيارنا في هذا البحث. على أن هذا لا يبرئ ساحتهم إذ ينقسمون بدورهم إلى، منتقدين أعوان أوفياء للاستعمار، ومادحين كتبوا لنصرة الحقيقة والتاريخ لأجل مجتمعهم[2] الفرنسي على الخصوص والأوربي على العموم.

---

(1) - A. HANOTEAU, "Essai de grammaire de la Langue Tamachek, Paris, 1860, 294 p., in Rapport annuel du 29/ 06/ 1861, **J. A.** 5 me série, T : 18, P : 74, 1861.

(2) - ابن نبي، إنتاج المستشرقين، **مصدر سابق**، ص: 5.

الفصل الأول

مصطلحات، مفاهيم ومناهج المستشرقين الفرنسيين من خلال المجلة الآسيوية

1- مصطلحات ومفاهيم
2- المناهج والطرق العلمية
3- الجمعية والمجلة الآسيويتان.

1- مصطلحات ومفاهيم:

المصطلحات، كما يعرفها ابن خلدون، هي الألفاظ التي تدور بين ذوي الاختصاص الواحد[1]. وهي في النص التاريخي، كما في غيره من نصوص العلوم الأخرى، كلمات مفاتيح يتوقف عليها فهم النص.

ونعني بالمصطلحات والمفاهيم، لدى مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين الفرنسيتين، تصور معاني أغراضهم التي ينقلونها في خطابهم. وسنكتفي بجملة ألفاظ، يكاد يتفق عليها فيما بينهم وهي كثيرا ما تعود في خطاباتهم. إنها ألفاظ يتوقف عليها فهم النص الاستشراقي الفرنسي.

وقد رأينا أن نستهل الموضوع بمصطلحات ومفاهيم توفر للقاري جملة معاني وأدوات أولية تهيؤه لفهم طبيعة تصور المستشرقين الفرنسيين للموضوع، واقتصرنا فيها على بعض المصطلحات المتعلقة بالمغرب العربي على سبيل المثال لا الحصر.

تتعلق بعض المصطلحات بالفعل الاستشراقي نفسه، من حيث معنى الاستشراق الفرنسي خلال الفترة المعنية بالدراسة، وبعض أدواته التي استعملها، كعلم النقوش والخطوط والآثار وعلم قراءة النصوص القديمة وعلم الاشتقاق أو أصل الكلمة والمخطوط بخط المؤلف والطباعة على الحجر وعلم خصائص الشعوب... وغيرها من المصطلحات التي ابتكرها الفعل الاستشراقي، وهي تتعلق تارة بالجغرافيا كشمال إفريقيا والمغرب وموطن البربر...الخ. كما هناك مصطلحات تتعلق بالإنسان، وأخرى بالفكر والثقافة. والمفاهيم المتعلقة بالتوزيع الجغرافي لعشائر البربر وأصلهم وتاريخ قبائلهم، والتروحات السكانية الأولى والمتأخرة على بلاد المغرب. وكذلك لسان قبائل البربر ولهجاتهم. وكالوحدانية والتوحيد في بلاد المغرب...إلى غير ذلك من المصطلحات والمفاهيم التي سنعرض لبعضها على سبيل المثال كما أسلفنا.

- **الاستشراق والمستشرقون:** إن "السين" في كلمة الاستشراق يفيد الطلب، أي طلب دراسة ما في الشرق. وهو حب الأشياء الشرقية. كما أن المستشرق هو العالم

---

[1] - عبد الرحمن، بن خلدون، **مقدمة العلامة ابن خلدون**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1991، ص: 295.

باللغات الشرقية، الذي يأخذ معارفه من مصادر الشرق[1] ويفترض فيه "التخصص". وهو من جمع بين الانقطاع إلى درس بعض أنحاء الشرق في مجال اللغة أو الأدب أو التاريخ السياسي أو تاريخ الفكر والفلسفة أو العلوم الطبيعية، وبين الوقوف على القوى الروحية الأدبية التي أثرت على تكوين الثقافة الإنسانية[2]. فالمستشرقون إذن، هم الكتاب الغربيين — من غير الشرقيين-[3] الذين كتبوا عن فكر الشرق وحضارته.

والاستشراق على إطلاقه، ظاهرة ثقافية —كما أسلفنا-[4] وحركة علمية، تهتم بدراسة كل ما يتعلق بالشرق وحضارته من قوى روحية وآثار فكرية وأدبية وفنية، وما إلى ذلك كله من أثر ظاهر شاهد على الحياة البشرية خليق بأن نحييه طباعة ونشرا.

يعود ظهور الاستشراق المعاصر —بالاصطلاح الأوربي للفترة المعاصرة— إلى عدة أسباب، يرجع بعضها إلى اعتبارات علمية محضة من توق ورغبة دفينة وعطش إلى الاستطلاع والاستكشاف، والتعرف إلى ما غمض في الأذهان عبر عصور الشرق، سواء الموغلة في القدم أو الحديثة.

لا غرابة أن جاءت هذه الحركة العلمية رديفا لتلك المحاولة التي قامت بها أوربا نفسها طوال قرون ثلاثة من الفترة الحديثة في إطار البحث عن النفس والذات الأوربية من خلال إحياء التراث الإغريقي اليوناني- الروماني، واليهودي المسيحي. فكان أن تولدت إثر فلسفة الأنوار أو حركة الاستنارة[5] (Philosophie des lumières) رغبة —مكملة للأولى- في البحث عن معرفة الآخر، فكرا وروحا وثقافة...الخ.

كان الاستشراق الفرنسي، الذي سيشغلنا في موضوعنا هذا، أحد ثمار الحركة الاستشراقية الجديدة. وقد اخترنا معرفته من خلال عينات على سبيل المثال لا الحصر.

---

(1) - Malek, BENNABI, **L'oeuvre des orientalistes,** P : 4.

(2) - يوسف سعد داغر، **مصادر الدراسة الأدبية**، ص : 771. (ضاعت منا بطاقة تعريف هذا الكتاب وسابقه).

(3) - استخدم ادوارد سعيد المصطلح بهذا المعنى؛ أنظر:

- فرنسوا، دي بلوا، "في نقد المستشرقين"، **الفكر العربي**، العدد: 32، 1983، ص: 145.

(4) - انظر التمهيد.

(5) - **حركة الاستنارة:** حركة فلسفية بدأت في القرن 18 م، تتميز بفكرة التقدم، والشك في التقاليد، ومعارضة الدين، والإيمان بالعقل، والدعوة إلى التفكير الذاتي، والتفاؤل بتأثير التعليم في الإصلاح الأخلاقي، انظر:

- صليبا، المعجم الفلسفي، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 511.

فوقع اختيارنا علـــــى مؤسسة رائدة من مؤسساته هي "الجمعية الآسيوية الفرنسية" [1] و"مجلتها الآسيوية" [2] بوجه خاص. كما اخترنا المغرب والمشرق العربيين كموضوع وعينة في سياق انتمائه لرقعة الشرق الواسعة لاسيما وقد التقى خلال الفترة المعنية الدافع العلمي للاستشراق -والمتمثل في الكشف عن تاريخ المنطقة منذ العصور القديمة إلى القرن التاسع عشر- بالدافع الاستعماري.

ومن تلك الأسباب ما يرجع إلى اعتبارات دينية قضت بدرس وتمحيص كل ما يتصل بالديانات الكبرى التي منشؤها الشرق، وما يتعلق بمهد هذه الديانات من أسباب وآثار، وما تحمله من طبائع الإقليم الجغرافي والوسط الطبيعي والخلقي والاجتماعي ومقومات العرق السلالي، ونسبة هذا كله إلى الشعوب التي خضعت لهذا المؤثر الديني أو نهضت للدعوة له أو للذود عن حياضه [3].

ومن أسباب ظهور الاستشراق أيضا، ما يدخل في سياسة الدول الأوربية الكبرى التي تتطلع وقتئذ إلى التوسع شرقا لغرض السيطرة والنهب، والتعرف على ما يمكن أن يكون سوقا لها في الشرق، ولبضاعتها الفكرية، ولإنتاجها الاقتصادي وميدانا لأعنة سياستها. وكانت الجزائر أولى أقاليم المغرب والعالم العربي والإسلامي عرضة للغزو والاحتلال. فكانت مناسبة التقى فيها الاستشراق بالاستعمار في فرنسا خلال التفكير والتنظير والتخطيط، ثم في الجزائر أيضا أثناء التطبيق. فكان لاحتكاك الاستشراق المتصاعد بالاستعمار أبلغ الأثر فيما سيتحكم في مصيره على المدى المتوسط والبعيد. وسنعود لبسط هذه المسألة في الفصول اللاحقة[4].

أشرف على الحركة الاستشراقية في فرنسا بين 1822 و1872، جيل من المستشرقين، منهم علماء كبار لامعين ومنهم أواسط، ومنهم موضوعيون، ومنهم

---

[1] – انظر التعريف بـــ: **La Société asiatique française** ضمن المبحث الثالث من **هذا الفصل**.

[2] – انظر التعريف بـــ: **Le Journal Asiatique** ضمن المبحث الثالث من **هذا الفصل**.

[3] – سعد داغر، **مصدر سابق**، ص: 773.

[4] – انظر المبحث الثالث من **الفصل الثاني**.

مادحون، ومنهم سطحيون ومن يمكن وصفهم بالحمقى والأغبياء، ومنهم منتقدون مشوهون للحقائق، كما سنبين ذلك لاحقا بشيء من التفصيل [1].

ومهما يكن الأمر فقد أنتجوا خطابا ورسموا صورة للشرق لا تنطبق بالضرورة على ذاته الحقيقية. كما تركوا —ولا يزالون- إنتاجا غزيرا يتسع إلى ما شاء الله من الرسائل العلمية.

-النقوش والخطوط والآثار(Inscription, épigraphie et archéologie): تهتم هذه العلوم في موضوعنا بكل النقوش والآثار السامية القديمة، لاسيما منها السابقة للفتح الإسلامي، وهو علم مساعد للدراسات الاستشراقية وبه حققت تطورات هامة. وقد ألهم هذا العلم جملة من أعضاء أكاديمية النقوش والآداب، المنتمون كلهم إلى الجمعية الآسيوية الفرنسية إلى فكرة، جمع النقوش والآثار المكتشفة في مدونة على غرار ما فعل المستشرقون الألمان في برلين بالنقوش الإغريقية وما فعلوه بالنقوش اللاتينية [2].

ومع تقدم الاستعمار في الجزائر، بدأ بعض المستشرقين، التنسيق مع باحثين في الإدارة الاستعمارية، في إقامة مؤسسات ميدانية للنقوش والآثار فكان أن قامت "جمعية قسنطينة الأثرية" التي رسمت لنفسها هدفا منذ البداية وهو استكشاف البقايا الكثيرة التي خلفتها الهيمنة القرطاجية والنوميدية والرومانية والعربية، على أرض هذا الإقليم من آثار ونقوش[3]. وقد أصدرت هذه الجمعية عام 1852 مجلة بعنوان: "مجموع ومواجيز وأبحاث الجمعية الأثرية لعمالة قسنطينة" ومن المستشرقين الذين كانوا يدعمون الجمعية والمجلة "شيربونو" CHERBONNEAU ثم "فيرو" FERAUD. وقد أبلى "جوداس" JUDAS بلاءا حسنا في دراسة النقوش البونيقية، والبونيقية الحديثة ونشر ما لم يسبق إليه. من ذلك مجموعه المزين بلوحات، لوحة بلوحة وصفحة بصفحة. فالمجموع يزخر

---

(1) - انظر **الفصل الثاني والرابع والخامس**، لاسيما، المباحث النقدية.

(2) - -Rapport annuel du 9/ 07/ 1868, **J. A.**, 6 ^{me} série, T : 12, 1868, P : 73.

(3) - -Rapport annuel, J. A., 1862, **op. Cité**, P : 29.

بروائع الآثار النوميدية والقرطاجية وكذا آثار ما قبل التاريخ التي وقف عليها المستكشفون الفرنسيون في الجزائر [1].

- **العلوم والمعارف العربية-الإسلامية:** تناولها المستشرقون الفرنسيون بشتى أقسامها وفروعها تارة بنشر نصوصها وأخرى بترجمتها والتعليق عليها وتارة ثالثة بالبحث والتنقيب والنقد والتمحيص.

- **أما أدبيات العربية (La Littérature arabe)**: فتحتوي على أثني عشر فرعا، أي أن كل العلوم التي لها علاقة بالأدب يشملها العنوان المذكور. وهي: صناعة المعاجم أو علم تأليف القواميس (Lexicographie)، وعلم الاشتقاق أو أصل الكلمة (Etymologie, linguistique)، والنحو الذي هو فرع من علم القواعد (Syntaxe, grammaticale)، وعلم البيان أو البلاغة (Rhétorique) أو فن الخطابة[2] أو الفصاحة بأقسامه الثلاثة (معاني، بيان، بديع)، وأجزائه الأربعة الأخرى التي تشكل عناصر علم العروض[3] (Prosodie). وكذلك التاريخ (L'histoire)، وعلم قراءة القرآن (Science de lecture du Koran)، وعلم المناظرة[4] [5] (Dialecte ou règle de controverse).

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 77.

(2) - **الخطابة** هي علم البلاغة. ليس الغرض منها تعليم الكلام البليغ فحسب، ولكن عرض الأفكار بأسلوب مقنع. ولها عند الأدباء ثلاثة أقسام:الأول الاختراع، وهو الكشف عن الأدلة والبراهين، والثاني الترتيب، وهو معرفة النظام الذي يجب أن تتسلسل فيه الأدلة.

والثالث البيان، وهو صياغة كل دليل من تلك الأدلة بكلام واضح بين. وقد يضاف إلى هذه الأقسام قسم رابع، وهو حسن الإشارة ودقة الأداء، وقسم خامس وهو الذاكرة. أما عند المنطقيين فالخطابة قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه، ويسمى هذا القياس خطابيا. وصاحبه يسمى خطيبا. والغرض منه ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم كما يفعله الخطباء والوعاظ. انظر:

- المعجم الفلسفي، ج 1، **مصدر سابق**.

(3) - تناول "دوتاسي" علم البيان وعلم العروض عند المسلمين ضمن أعداد المجلة الآسيوية بين 1844 و1848.

(4) - **المناظرة أو الجدل**، في الأصل فن الحوار والمناقشة. قال أفلاطون: "الجدلي هو الذي يحسن السؤال والجواب"، والغرض منه الارتقاء من تصور إلى تصور، ومن قول إلى قول، للوصول إلى أعم التصورات وأعلى المبادئ. والمجادلة مناقشة ومخاصمة وفي القرآن الكريم: "وجادلهم بالتي هي أحسن". والغرض من الجدل في اصطلاح المناطقة إلزام الخصم، وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. انظر: - **نفس المصدر السابق**.

(5) - انظر: **الفصل الرابع** من الرسالة.

- وتنقسم **العلوم الدينية** إلى ستة أقسام وهي: علم التفسير (Interprétation du Koran)، وعلم الحديث (Science des Traditions)، وعلم الفقه (Théologie pratique comprenant la Jurisprudence)، وعلم الكلام (La Théologie scolastique)، وعلم الفرائض (spéciales / partage des Science des loi) héritages، وعلم أصول الفقه[1] (Eléments de la Jurisprudence).

وأما **العلوم النظرية والطبيعية والدقيقة** فتتشكل من خمسة أقسام، هي: المنطق[2] (La Logique)، الرياضيات[3] (Les Mathématiques)، الجغرافيا وعلم الفلك (La Géographie et l'astronomie ، والطب والعلوم الطبيعية (Médecine et Science Naturelle) والفلسفة النظرية[4] (Philosophie théorique) La. وقد شملت الدراسات الاستشراقية كل هذه العلوم بشتى أقسامها وأنواعها في قليل منها أو كثير ونشرت أغلبها في المجلة الآسيوية طوال الفترة التي تعنينا. وأما أقسامها المشار إليها آنفا فمأخوذة في مجملها من مصادر عربية وإسلامية.

- **علم خصائص الشعوب** (L'Ethnographie):

الإثنوغرافيا علم اجتماعي يصف أحوال الشعوب، ويدرس أنماط حياتهم، ومختلف المظاهر المادية لنشاطهم في مؤسساتهم، وتقاليدهم، وعاداتهم، كالمأكل، والمشرب، والملبس، وغيرها[5]. وهو من العلوم التحليلية المساعدة للدراسات

---

[1] - انظر: **الفصل الثالث** من الرسالة.

[2] - **المنطق** في اللغة هو الكلام. وعند الفلاسفة:"آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن من الخطأ في الفكر"، أو هو "علم بقوانين تفيد معرفة طرق الانتقال من المعلومات إلى المجهولات وشرائطها، بحيث لا يعرض الغلط في الفكر"، أو هو حسب ابن خلدون، "قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات والحجج المفيدة للتصديقات". انظر: المعجم الفلسفي، ج 2، **مصدر سابق**.

[3] - تطلق على الحساب والجبر والهندسة ونحوها، وموضوعها الكم. فإذا كان الكم متصلا كالامتداد، سمي العلم الذي يبحث فيه بعلم الهندسة. وإذا كان منفصلا كالعدد سمي_العلم الذي يبحث فيه بعلم العدد، وهو يشمل الحساب والجبر. انظر: **نفس المصدر السابق**، ج 1.

[4] - - Mirza KAZEM BEG, Notice sur la marche et les progrès de la, jurisprudence parmi les sectes orthodoxes, **J.A.**,4[me]série, T:16, 1850, P : 159-160.

[5] - **نفس المصدر السابق**، ص: 104.

الاستشراقية. يعنى بالدراسة الوصفية للنشاطات المتعلقة بمجموعة بشرية معينة في جوانب حياها التنظيمية والاجتماعية والمادية.

إنه علم جديد، إذ يعود ابتكاره إلى الفترة التي تعنينا. وهو دعامة للتاريخ القديم وقراءة نصوصه. ذلك أن شعوب العصور القديمة لم تترك لنا إلا آثار لغتها ونقوشها التي ضاعت معانيها بضياع القدرة على قراءها. لأجل هذا أيضا، اعتبر ابتكار النحو المقارن أو اللغة المقارنة لفك رموز لغات العصور التاريخية القديمة أحد أبرز نتائج الأعمال الاستشراقية العميقة والمتنوعة في مجال اللغات[1]، وعضد قوي لعلم خصائص الشعوب.

يعود الفضل أيضا إلى الآداب الشرقية في أنها كانت السبب في ميلاد علم خصائص الشعوب الذي مكن المستشرقين من القدرة على النفاذ إلى قوانين اللسان وشرح تشوهات وشذوذ اللهجات وخروجها عن القواعد والقياس كما مكنهم من استخراج إشارات من الألسن واللغات تفيد بأحوال سلالات العهود السابقة وعاداهم وتقاليدهم التاريخية والحضارية[2].

يرى "رينان" أن النوع البشري وجد نفسه في البدء مقسما إلى عائلات تختلف كثيرا أو قليلا عن بعضها البعض في المواهب والسلبيات التي تساهم في إسعاد أو شقاء النوع البشري عند التقائه. فكان الجنس أو السلالة ضروري إذ يحل كل شيء في العلاقات الإنسانية. لأجل ذلك فإن تمايز السلالات والأعراق –في الماضي– حوى سر جل وقائع تاريخ الإنسانية.

أما الوقائع التي تترفع عن العرق والسلالة فهي التي أخذت، في نظر "رينان"، طابع العالمية أو الشمولية. وتأتي الديانات الدعوية في المقدمة كالبوذية والمسيحية والإسلام. ومنها أيضا، غزوة اسكندر الأكبر، والحضارات الغازية، كحضارة الرومان وحضارة أوربا المعاصرة.

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité,** P : 103.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 104.

وفي عهد الثورة الفرنسية استحالت كل تفرقة بين الجنس الغالي-الروماني والجرماني، ومع ذلك كان هناك صراع للعنصرين ضمن الجيل الواحد إلا أنه ترجم إلى صراع طبقي وفكري. وقد نجحت بعض البلاد الأوربية -مثل فرنسا- في إقصاء فكرة العرقية، وأسسوا رسميا نظمهم الاجتماعية وبنوها على أساس من المساواة، في شكل وحدة مهما كانت أصولهم.

لقد زحزحت في الأمثلة السابقة فكرة العرق والسلالة، في نظر "رينان"، إلى مرتبة ثانوية دون أن تختفي كلية. غير أن "رينان" نسي أو تناسى أن أوربا خارج حدودها، أي في علاقاتها بغيرها تثير وتستثير غيرها من خلال توظيفها لعامل العرق والسلالة.

لم يعد للعرق أو الدم تأثير في تركيا -على سبيل المثال- وهي تقدم في هذا المجال نموذجا صارخا، ففيها جيش ذا أصول تتارية يجدد بأعلاج من كل الأجناس. وقد بلغت تركيا مبلغا لم تعد تمثل فيه أي عنصر عرقي. وكل ما في الأمر أن جمعا من هؤلاء التتار "فتحوا" رقعة واسعة من البلدان ومنحوها اسمهم "العثمانيون"، ووضعوا أنفسهم في خدمة الفكرة السامية الخالصة للهيمنة العالمية للإسلام.

ظل علم الخصائص البشرية، إلى نهاية الفترة التي تعنينا، مرتبطا بالدراسات الشرقية ولم يكن بعد قد طبق بعناية إلا على اللغات الآرية والسامية. ومثلما طبقه "هامبولت"[1] Humboldt على اللغات الأطلسية، توقع المستشرقون أن سيُكْشَف يوما ما على أثنية أمريكا وإفريقيا.

كانت السلالات البشرية، في العهود السابقة، أصل الوقائع التاريخية -كما أسلفنا- غير أنها تتجه أكثر فأكثر إلى أن تتحول إلى وقائع تاريخية لا دخل للدم فيها.

وعلم الخصائص البشرية علم كسائر العلوم الأخرى من حيث فيه الخير والشر. وإذا غلب شره خيره بالنسبة لشعوب الشرق فمرده لا إلى العلم في ذاته بقدر ما هو في

---

[1] - **هامبولت:** (1767ـــ 1835)، رجل سياسة وعالم بروسي، زار فرنسا عدة مرات، ساهم في الإصلاحات التي أدخلتها بروسيا على عديد من المؤسسات بعد غزو نابليون، من ذلك إنشاء جامعة برلين التي شغل أول عميد لها. ساهم في تحرير عدة نصوص ومواثيق، كما ترك عدة مؤلفات رائدة في مجال اللسانيات الحديثة. انظر:

- Dictionnaire encyclopédique d'histoire, **op. Cité.**

تطبيقاته التي غالبا ما تستثمر لأغراض سياسية وغير سياسية من طرف المطبق لهذا العلم سواء أكان الغربيون أمن سار على نهجهم من شعوب الشرق أنفسهم. وسنعود إلى مسألة التطبيق في أكثر من فصل من الفصول اللاحقة[1] إن شاء الله.

- **إفريقيا /إفريقية والمغرب:** [2]من الصعب تحديد الزمن والأسباب التي أطلق فيها مفهوم إفريقيا على قارة ذات امتداد جغرافي شاسع وكذا على ساحل قطر واسع جمعت جل أجزائه تحت تسمية إفريقيا. فهذا "مارتيانوس"[3] Martianus الذي امتثل ربما لحجج عهد قديم يذكر أن إفريقيا أخذت التسمية من "لوبيّ" ما لعله ابن "هرقل" (Hercule)، البطل "أفار"[4] [5](Afer).

أما العرب فيشتقون اسم إفريقية من "افريقش" (Afrikis)، ملك الحميريين، الذي أخضع شعوب إفريقيا لسلطته[6]. وكانت إفريقية -الإقليم- تسمى كذلك عند الفتح الإسلامي والدليل على ذلك ما جاءت به الروايات "إفريقية المفرقة"، في كتاب الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- إلى عمرو بن العاص حين رغب الأخير في إرسال جيش لفتح بلاد المغرب[7].

---

(1) - انظر على الخصوص المبحث الثالث من **الفصل الثاني**، وكذلك المبحث الرابع من **الفصل السادس**.

(2) ــ **لفظ افريقية** تحريف للفظ اللاتيني أفريك Africa الذي أطلقه الرومان أول الأمر على الإقليم الذي نظموا شؤونه بعد تخريبهم لقرطاجة وشملت هذه التسمية بعد ذلك بلاد البربر ثم أطلقت آخر الأمر على جميع القارة. ويقول البكري إن افريقية تحد شرقا ببرقة وغربا بطنجة. وهي تمتد من الشمال إلى الجنوب، من شواطئ البحر الأبيض المتوسط (بحر الروم) إلى الرمال التي في أول بلاد السودان. وعلى ذلك فإن إفريقية تشمل إلى جانب افريقية الرومان بلاد طرابلس والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى. انظر:- دائرة **المعارف الإسلامية**، ج 2 ، د. م. ط.، د. ت.، من مادة افريقية.

(3) - "**مارتيانوس** كابيلا": مؤلف لاتيني يعود إلى القرن الخامس الميلادي.

ــ انظر: - ROBERT 2, **op. Cité.**

(4) - و"**أفار**" اسم لشعب إفريقيا الشرقية، المعروف لاسيما باسم "الدناقيل" وهو اسم أطلقه عليهم العرب. انظر:- دائرة **المعارف الإسلامية**، ج 9، نقلها إلى العربية أحمد الشنتناوي وآخرون، ج 7، د.م.ط.، د.ت.ط، ص: 298-301. وكذلك: - La Grande Encyclopédie, T : 1, **op. Cité.**

(5) - - E. JACQUET, "Sur l'origine de la dénomination de l'Afrique", **N. J. A.**, 2éme série, T: 13, 1834, P: 193.

(6) - **نفس المصدر السابق**، ص: 193.

(7) - وعند ابن خلدون نقلا عن ابن حزم أن أَفْرِيقش هو الذي ذهب بقبائل العرب إلى إفريقية وبه سميت، وساق البربر إليها من أرض كنعان عندما غلبهم يوشع. - انظر: ابن خلدون، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 172.

أما القسم الأكبر من إفريقيا المعروف من القدماء فكانت تقطنه شعوب أخذت تسميات بمعنى أَسْوَد داكن، أي 'مسمّر بالشمس، ومعنى السمرة أكثر المعاني قربا إلى الحقيقة [1].

هناك أيضا تسمية "شمال إفريقيا"، وهو الإقليم الممتد من المحيط الأطلسي إلى النيل ومن البحر الأبيض المتوسط إلى نهر النيجر[2]، أي بين خط طول 17 و36 درجة وخط عرض 30 درجة شرقا و16 غربا.

وأما مفهوم أو مصطلح "المغرب" فيعني الغروب. والغرب يستعمل عند الجغرافيين والمؤرخين العرب للدلالة على البلاد الإسلامية التي تقع إلى الغرب من مصر بمعنى إفريقيا الشمالية والأندلس.

ويرى بعضهم أن المغرب يبدأ من سرت الكبرى، بينما يجعل ابن خلدون بداية المغرب من خط طول بجاية، ويسمي مقاطعتي تونس وطرابلس "إفريقية" [3].

وقد سمى "بلين" Pline "المغربي"(Machrebi) (كذا)، منذ القرن الأول الميلادي. وسمى "غالان" [4] Galland في القرن السابع عشر ومن بعده "كاردون" Cardonne "المغاربة" (Mogrébins) والمغربي (Mograbis) ويعنون بهم سكان المغرب "البرابر" [5] (Barbaresque).

---

(1) - **نفس المصدر**، ص: 218.

(2) - REINAUD, "Sur le système primitif de la numération Chez la race Berbère", lu devant l'académie des inscriptions et Belles-lettres dans la séance du 27/ 07/ 1860 , **J. A.** ,5ème série ,T :16 , 1860, P :107.

(3) - Description de l'Afrique septentrionale, **J. A.**, 5ème série, T : 12, 1858, P : 414.

(4) - **انطوان غالون**: (1646 ــ 1715)، مستشرق فرنسي. تعلم العربية والتركية والفارسية أثناء رحلاته إلى القسطنطينية (1670 ــ 1675) رفقة السفير "نوانتيل" الأمر الذي خول له تعيينه كأستاذ للغة العربية بكوليج فرنسا. ومن الكتب المترجمة التي اشتهر بها:القرآن، أصل وتطور القهوة، ولاسيما قصة ألف ليلة وليلة. انظر:
- ROBERT 2, **op. Cité.**

(5) - بلاد البربر أو الدويلات البربرية ، اسم أطلق منذ نهاية العصور الوسطى حتى القرن 19م على إقليم شمال افريقية الذي يشتمل على طرابلس، تونس، الجزائر والمغرب.
- انظر: - Dictionnaire encyclopédique d'histoire, **op. Cité.**

وأما مستشرقو المجلة الآسيوية فيختلفون في رسم كلمة "مغرب" إذ، يكتبها (Maghreb) كلا من "مونك" MUNKS و"بارجيس" BARGES، ويسجلها (Magreb) كلا من "رينو" REINAUD و"رينان" RENAN، فيما يفضل "شيربونو" CHERBONNEAU كتابتها [1] (Mogreb). ويذهب البعض إلى أن "الأفارقة" (Africains) أخذوا هذا الاسم لأنهم أبناء "فارق أو فريق" (Faric) بن "بيسر أو بيزر" (Biser) الذي امتلك البلاد الممتدة بين "برقة" (Barca) و"إفريقية" (Ifrikiya) وبعد "الأفارقة" (السكان) و"إفريقية" (المكان)، أخذت "إفريقيا" (L'Afrique) التسمية[2].

– **العنصر اللّوبي وعنصر البتر:** يعرف العنصر اللوبي قديما وعلى العموم "باللّيبي" (Libye /Libyque) أو "اللوبي" نسبة إلى "لوبية" (Loubiya). كان هذا العنصر يسكن -في زمن ما- كل شمال إفريقيا من المحيط الأطلسي إلى حوض النيل، ومن البحر الأبيض المتوسط إلى نهر النيجر. ولعل هذا العنصر هو نفسه عنصر "البرانس" (Baranes) ، الذين ينحدرون من "برنس" (Bernes) عن طريق "مازيغ"، حسب ابن خلدون[3].

– **عنصر "البترّ"**: هو أكثر عراقة أيضا. وكان يحتل، في العصور القديمة، كل مناطق المغرب. ويبدو أن بربر "البتر" -كما يسميه المستشرقون- (Botr) كانوا موزعين في بلاد المغرب على النحو الآتي: "هوارة" (Haouara)، في تونس. "الكتاميون" (Ketamiens)، في المنطقة المعروفة حاليا بقسنطينة. "عجيسة" (Adjiça)، في إقليم التيطري. "زاتيمة" (Zatima)، في المنطقة التي يغمرها نهر

---

(1) — P. GUERRIER DE DUMAST, "Sur la vraie prononciation du chez les Arabes", Lettre a M. GARCIN DE TASSY, **J.A.,** 5ème série, T : 9, 1857, P442.

(2) — Lettre à M. HASE de M. de SLANE, **J. A.,** 4ème série, T : 4, 1844, P : 364.

(3) — Général, FAIDHERBE, "Inscriptions numidiques", **J. A.,** 7 ime série, T : 5, 75, P : 576.18

– يقول ابن خلدون: "والظاهر أن البربر من هؤلاء المنتقلين أولا وآخرا، إلا أن المحققين من نسابتهم على أنهم من وُلد مازيغ بن كنعان". – انظر: ابن خلدون، **مصدر سابق**، ج 4، ص: 21.

الشلف. "أزداجة" (Azdaja)، فيما وراء نهر ملوية. "المصامدة" (Masmouda)، في المغرب الأقصى[1].

– **صنهاجة**: جاؤوا من ضفاف السنغال، في هجرتهم الأولى، وفي عهد جد متقدم وراء العصور التاريخية الأولى. وارتموا كأمواج البحر على المغربين الأوسط والأقصى. واستقروا بين المصامدة والكتاميين، حيث تقيم "أزداجة" و"زاتيمة" و"عجيسة". وأفنوا هؤلاء و لم يتركوا إلا بعض بقاياهم بسهل وهران والظهرة وجبال شمال الحضنة[2].

قال ابن خلدون: " ولما رجع أفريقش من غزو المغرب ترك هنالك من قبائل حمير صَنْهَاجَةَ وكَتَامَةَ فهم إلى الآن بها، وليسوا من نسب البربر، قاله: الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين[3].

– **عنصر مضر**: يبدو أن هذا العنصر أصله بربر فلسطين، وكان ملكهم جالوت (Goliath)، الذي قتله النبي داوود، عليه السلام، فهاجروا نحو الغرب (El-maghrib)، وجاءوا حتى أرض "لوبية"[4] (Libye / Loubiya).

لقد كانوا ضعفاء في البداية، يتكونون من عائلات ثم بدؤوا يتشكلون في إقليم طرابلس (Tripolitaine). وبعد قرون من الهجرة الأولى لصنهاجة، فاضت قبائل عنصر "مضر" (Madr'es) عددا وقوة ووجدت نفسها في ضيق في جزئها الأصلي فشرعت في التحرك، وبدأت الغزوات المتتالية من الشرق إلى الغرب مما جعل بلاد المغرب تتحول إلى ميدان معارك وتمازج طوال أجيال بين قبائل "مضر" وقبائل

---

(1) - Henri, TAUXIER, "Etude sur les migrations des nations Berbères avant l'islamisme", **J. A.**, 5ème série, T : 20,1862, P : 346-347.

(2) - يقول ابن خلدون: "ولما رجع أفريقش من غزو المغرب ترك هنالك من قبائل حمير صَنْهَاجَةَ وكَتَامَةَ فهم إلى الآن بها، وليسوا من نسب البربر، قاله: الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي والسهيلي وجميع النسابين.
- انظر: ابن خلدون، **مصدر سابق**، ج 4، ص: 96.

(3) - ابن خلدون، **نفس المصدر**، ج 4،، ص: 96.

(4) - C. B, DE MEYNARD,"Le livre des routes et des provinces par Ibn Khordad beh", **J. A.**, 6me série, T : 5,1865, P : 462.

"صنهاجة". وانتهت بتقسيم كتلة السكان الصنهاجيين إلى اثنين، جزء رمي به نحو تخوم بلاد السودان، والجزء الآخر نحو تل المغربين (الأوسط والأقصى) [1].

وكانت أهم القبائل التي تشكلت من عنصر "مضر" هي: "زوارة" (Zouara)، و"نفزاوة" (Nefzaoua)، و"فاتن" (Faten)، و"مكناسة" (Meknaça)، و"لواته" (Louata).

ويظهر أن **"لواته"** هم أول من تحرك من الإقليم الطرابلسي وتقدمت طليعتهم حتى المغرب الأوسط ولكنهم تركوا في طريقهم عددا من العائلات التي أقامت أساسا في مراعي إفريقية والبلاد المحيطة بالأوراس.

أما **"نفزاوة"** فجاءوا بعد "لواته"، أو في نفس الوقت، وأقاموا في المغربين، لكن على الخصوص في المغرب الأوسط، وتعرضوا فيما بعد لهجمات شعوب من عنصرهم وهم" بنوفاتن". وبتغلب الأواخر على الأوائل لجأ هؤلاء إلى الجبال والساحل بين الشلف وملوية. كما لجأ مرافقوهم إلى حوض ملوية.

– **زناتة:** ظهروا فيما بعد وشكلوا التروح الأخير لعنصر "مضر" وللعائلات المضرية من أولاد مدغاسن (Medr'aciennes). فكانوا بذلك آخر من وصل إلى المنطقة قبل الإسلام.

وقال ابن خلدون: "زناته من أمم البربر، قبل عرب المغرب[2].

وأبناء "مضر" من "زناتة" أربع قبائل هي: "مغراوة" (Mar'raoua)، و"إفرن" و"أوجديجن" (Oudjedidjen) و"أواسين" (Ouacin). استولوا على مناطق نفوذ "بني فاتن"، لكنهم اقتصروا على التعامل معهم كتابعين، ولم يترعوا منهم ملكيتهم كاملة، فتقاسموا منطقة النفوذ وبدأوا يجوبون المراعي بقطعاهم. أما "مغراوة" ففي الأراضي الفلاحية الممتدة من الشلف إلى ملوية. وأما "أوجديجن" ففي هضاب منداس وملوية. وكانت الأراضي المرتفعة التي تمتد بين وادي ملوية ورافده الشرقي "الزا" من نصيب "بني واسين" الذين جاؤوا بعد إخوالهم.

---

(1) – TAUXIER, **op. Cité**, P : 347.

(2) – ابن خلدون، **نفس المصدر**، ج 4، ص: 28.

كل هذا التروح "لزناتة" المضرية تتبع الصحراء الصغرى وإذا لم يصل إلى بلاد كتامة، فربما، لأنها كانت محمية بالاحتلال الروماني، وكذلك جبل الأوراس . [1]على أن هذا لا يعني أن الكتاميين ليسوا مضريين حسب "البارون أوكابتان" Aucapitaine، نقلا عن ابن خلدون [2].

التوزيع الجغرافي لعشائر البربر عشية الفتح الإسلامي:

- أمة **"مصمودة" الكبرى**: كانت أقسامها المتنوعة منحصرة في أقصى الغرب من المغرب وتتشكل من ثلاث عائلات أساسية وهي: "مصمودة" "دران" بأطلس المغرب الأقصى، و"برغواطة"، و"غمارة" الريف.

- **صنهاجة**: توجد إلى الشرق من أمة "مصمودة". وتحتل إلى جانب الصحراء الكبرى وتخوم السودان، وفي الهضاب والبلاد الممتدة إلى الشمال من هذه المنطقة، وفي الريف الشرقي، أين تتداخل قبائلهم دون أن تمتزج بغمارة.

- أقسام **"نفزاوة"**: تعيش على الجبال القليلة الارتفاع التي تمتد إلى الجزائر، في الريف المغربي وفي غيرها... كانت في أغلبها حضر، وبعضها لم تقطع حياة الترحال.

- **عشائر القبيلة الكبرى "لفاتن"**: كانت موزعة في تجمعات كبرى بين فاس وتونس. نصفهم حضر والنصف الآخر بدو، يجوبون بلاد الرعي بعيدا بقطيع الغنم. وكانوا يبحثون عن ملجأ في حالة الخطر في بعض الجبال لأقاليمهم، أين أقاموا قصورا أو مدنا محصنة.

- **"أزداجة"**: يجوبون سهل وهران.

- **"أوريبة"** [3] **(Aureba) وبعض السكان المصامدة**: في أقصى الغرب، وهم

---

[1] - **نفس المصدر السابق**، ص: 347-349.

[2] - - Le Baron Henri AUCAPITAINE, "Etude sur l'origine et l'histoire des tribus Berbères de la Haute Kabylie", **J.A.**, 5ème série, T : 14, 1859, P : 284.

[3] - لعلها أوريغة، كما ورد عند ابن خلدون. انظر: **تاريخ العلامة ابن خلدون**، ج 12، دار موفم للنشر، الجزائر، 1996.

ـــ انظر كذلك: دائرة المعارف الإسلامية، ج 2 ، **مصدر سابق**، مادة افريقية.

قوم رحل مهيمنون على البلد.

- **"المغراويون" و"الإيفران" وقبائل "زناتية" كبرى**: إحداها تجوب التل من الشلف إلى فاس. والأخرى الهضاب العليا من تيهرت إلى ملوية. وفي تنقلهم الشتوي يدفع هذان الجمعان قطعان غنمهم إلى ما هو أبعد من الجريد التونسي، مهدهم الأصل، أين يعيش أيضا عدد كبير من أقسامهم.

- **"الصنهاجيون"**: كانوا أسياد التيطري ويمتدون في الشمال إلى متيجة، وفي الجنوب إلى الهضاب العليا المتاخمة لمرتفع التيطري.

- **"العجيسيون"**: يقطنون أكثر إلى الشرق. وهم يحتلون، فضلا عن ذلك السلسلة الجبلية التي تفصل سهول قسنطينة بحوض الحضنة.

- **"الكتاميون"**: يقطنون إقليم البربر (La Berberie) الشرقي المحدود بالسلسلة البحرية الممتدة من دلس إلى مجردة. ويستوطن بدوهم السهول الممتدة إلى الجنوب، في التل، وعلى امتداد جبالهم الوعرة.

- **بدو "هوارة"**: يجوبون تونس.

- **"اللواتيون" وهم مختلطون ببعض "الزناتيين"**: يحتلون أساسا الأوراس.

- **عائلات "زناتية" كثيرة**: تجوب في كل اتجاه مراعي الرمال، عبر الصحراء الصغرى، من ملوية إلى إقليم طرابلس. وفي الغرب كانوا يختلطون بأقسام كثيرة من عنصر "زوارة"[1].

هذا وقد استقى مستشرقو المجلة الآسيوية معلوماتهم، حول عناصر سكان بلاد المغرب من مصادر عربية–إسلامية من مثل عبد الحكم (ق: 3 هـ/ 9 م)، وابن خرداذبيه (ق: 3 هـ/ 9 م)، والبكري (ق: 5 هـ/ 11 م)، وابن خلدون (ق: 8 هـ/ 14 م)، وغيرهم. كما اعتمدوا أيضا على مصادر أخرى لرحالة وجغرافيين إغريق

---

(1) - TAUXIER, **op. Cité**, P : 343- 346.

ورومان ولاتين من مثل "هيومبسال" Hiempsal و"هيرودوت" (ق: 5 ق. م.)[1] Hérodote و"سترابون" (ق: 1 ق.م.) Strabon و"بلين" (ق: 1-2 م) Pline و"بطليموس" (ق: 2 م)[2] Ptolemée وغيرهم[3].

اللسان البربري: يعود البحث في اللسان البربري إلى حوالي منتصف القرن الثامن عشر. وكان مستشرقو الجمعية والمجلة الآسيويتين يعتبرون البحث في هذا المجال حديث العهد كذلك. وبالرغم من الجهود الميدانية التي بذلت في الجزائر طوال جيل من الاحتلال (1830-1870)، إلا أن المعطيات التي جمعت، حتى نهاية الفترة التي تعنينا، كانت لا تزال — في رأيهم— جد محدودة[4].

كان السؤال المطروح منذ البداية هو: بأي عائلة أو عنصر لغوي معين يرتبط اللسان البربري؟ وكانت الأعناق مشرئبة نحو الجزائر حيث كان البحث جاريا والأحكام تستخلص من تلك الأدوات المصنوعة من حجر الصوان التي تواصل استعمالها إلى وقت قريب. وكانت الشخصية البربرية مرسومة بوضوح —في رأي "رينان" RENAN

---

(1) - **هيرودوت:** مؤرخ إغريقي عاش بين (484 ق. م.- 425 ق. م.). زار بلادا كثيرة، وكتب عن الصراع بين الإغريق والفرس، ورجع في تتبع العداء بين أوربا وآسيا إلى أقدم العصور. كان كاتبا موهوبا، شامل الثقافة، شغوفا بتسجيل الطريف والغريب، بارعا في الوصف. لكنه لم يوجه قدرا كافيا من العناية إلى دقة التفاصيل، وتواريخ الحوادث، وتحليل الأخبار ونقدها، والتفريق بين الحقائق والأساطير. ومع ذلك هو جدير بمكان ملحوظ في تاريخ الإنسان والحضارة، فقد وصفه شيشرون: "أبو التاريخ"، لأنه أول من عالج التاريخ لا باعتباره موضوع مجموعة حكايات مشوقة عن الآلهة والبشر، بل باعتباره موضوع بحث علمي، ولأنه هو الذي أوجد فلسفة التاريخ، وإن كانت فلسفته بدائية ترجع إلى أصداء الأفكار السائدة بين أوساط الناس في عصره. انظر:

- عبد الوهاب، الكيالي، **موسوعة السياسة**، ج 7 ، ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994.

(2) - كلوديوس **بطليموس:** توفي بعد 161 م، عالم فلك، وجغرافيا، وفيزياء، ومؤرخ، يوناني— مصري. له مكانة في تاريخ العلوم ناقدا ومفسرا. أما أعماله الجغرافية فهي أقرب إلى الفلك، إذ يشمل معظمها جداول لخطوط الطول والعرض للبلدان المختلفة، وقد اعتمد في ذلك على أعمال مارينوس ، ولكن مواقع تلك البلدان غير دقيقة، لأنه اقتبس تقدير بوسيدونيوس عن حجم الأرض. انظر:

- **الموسوعة العربية الميسرة**، ج 1، الطبعة 2 المحدثة، دار الجيل، بيروت، 2001.

(3) - انظر كذلك، عن صنهاجة وزناتة: دائرة المعارف الإسلامية، ج 4 وج 7، **مصدر سابق.**

(4) - REINAUD, "Sur le système primitif berbère", J. A., 1860, **op. Cité**, P : 109.

وأمثاله ربما نتيجة الاحتلال واحتكاك الفرنسيين بالجزائريين– خارج الإسهامات البونيقية والرومانية والوندالية والبيزنطية والعربية والتركية[1].

تفيد المعلومات المتاحة وقتئذ أن اللسان البربري من قبائلية وميزانية وشلحية، وزناتية إقليم قسنطينة وترقية "أهير"، تختلف كثيرا عن بعضها إذا ما حكمنا عليها من خلال مفرداتها، ولكنها تخضع كلها لنظام نحوي (لغوي) لا يتغير، يحكم كل اللسان البربري. وهو غير النظام النحوي الذي اخترعه "دي بارادي" De Paradis والذي بدا لـــ "رينو" REINAUD منذ أول وهلة خاطئا من بدايته إلى نهايته. ومع ذلك فقد نشره "جوبير" JAUBERT دون أن يصحح إلا قليله[2].

التارقية: تختلف قليلا عن بربرية بلاد القبائل[3]. وكان "جوبير" و"بروسلار" BROSSELARD و"دولابورت" DELAPORTE، قد نشروا مفردات لها بالعربية. ثم جاء إطلاع "بواسوني" BOISSONNET على لسان التوارق عن طريق "الحاج عبد القادر بن أبي بكر التواتي". وقد سأل "بروسلار" التواتي ما إذا لم يكن للسان التوارق كتابة خاصة، تختلف عن العربية، فأجابه بالإيجاب، فترجاه أن يرسل إليه الحروف التي يذكرها. وهكذا أرسل إليه اثني عشر حرفا، أرسلها "بروسلار" بدوره إلى "دوسوسي" DE SAULCY في سبتمبر 1845[4].

ويبدو أن اللسان الترقي هو أكثر الألسن البربرية صفاء ضمن عائلة الألسن الممتدة بين مصر والسنغال. العائلة التي بقيت إلى القرن التاسع عشر معزولة، ومن الممكن أن يوجد لها جذع أو فروع ضمن الألسن الأخرى المعروفة منذ العهود السابقة

---

(1) - Rapport annuel du 27/ 06/ 1872, **J. A.**, 6^me série, T : 20, 1872, P : 45.

(2) - DE SLANE, extrait d'une lettre à REINAUD, Alger le 14/ 09/ 1855, **J. A.**, 5^me série, T : 6, 1855, P : 471.

(3) - BOISSONET, extrait d'une lettre à DE SAULCY, Constantine le 27/ 07/ 1845, **J. A.**, 4 ^me série, T : 6, 1845, P : 165.

(4) -Note sur l'alphabet berbère usité chez les Touaregs, et ses rapports avec l'antique alphabet des Libyens. **J. A.** 4 ^me série T : 9, 1847, P : 455-461.

ولعل أبرز الأعمال معقولية وجدية مما صدر في هذا المجال هو عمل العقيد "هانوتو" HANOTAU[1].

– **القبائلية أو الشلحية (Chleux)**: يتحدث بها من شواطئ الأطلسي إلى ضفاف وادي النيل، وعبر سلاسل الأطلسي أين توجد مقسمة إلى عدة لهجات (Dialectes).

وقد أدخل أهل هذا اللسان في لهجاتهم كثيرا أو قليلا من الألفاظ والعبارات العربية خاصة ما يتعلق منها بالدين والفنون. ومع ذلك ظل اللسان القبائلي أو الشلحي محدود الانتشار، وغير مكتوب، أو بالأحرى لا توجد حروف خاصة بألفاظه، ولذلك فهم في حاجة إلى الاستعانة بالحروف العربية وهي الوسيلة نفسها التي لجأ إليها "دولابورت". وإذا ما استثني المنجد الكامل لـــ"دي بارادي" المنتظر طبعه وقتذاك، لا يوجد سوى مقتطفات مبعثرة هنا وهناك ومبثوثة في مؤلفات شتى لا تمنح اللسان القبائلي سوى مفاهيم ومعارف محدودة[2].

ليس للسان القبائلي (Kabyle)، نصوص مكتوبة –وقتئذ– خارجة عن المؤلفات العربية. ولديهم أشعار الأميين، يغنيها ويرويها محترفو القصائد الملحمية القديمة، في الأعراس والحفلات وهي غالبا من اختصاص النساء اللواتي يؤدينها رقصا أو الأغاني الممزوجة بطقوس دينية[3].

– **لسان "أهكيلي أوالمُهْرة" (Ehkili ou mahri)**: قام "جوزيف هاليفي" HALEVY بدراسة العدد الصغير من المعطيات التي يتوفر عليها لسان "أهكيلي أوالمهرة". وأعتقد أنه توصل إلى البرهنة على أن لسان القوم هذا هو بربري، وخلص إلى أن شعوب البربر كانت إقامتهم الأولى جنوب شبه الجزيرة العربية لا لسبب إلا لأنه من المستحيل أن يكون لسان قوم عائلة افريقية كبيرة قد مر إلى "حضرموت". وتبقى

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 121.

(2) - J. H., DELAPORTE fils, "Vocabulaire Berbère", **J. A.**, 3 ^{me} série, T : 1, P : 98-122, 1836.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 122.

- انظر الأشعار القبائلية: HANOTAU, **Poésies Kabyles du Djurdjura**, texte Kabyle et trad., Paris, 1867.

النتيجة يكتنفها الغموض والشكوك. وفي ظل ندرة الوثائق لم يكن من الممكن مواصلة الحديث بثقة عن هذا اللسان [1].

لقد كان مستشرقو الجمعية والمجلة الآسيويتين يطرحون المسائل، وأمام عجزهم عن إيجاد الحلول يمنون أنفسهم بالانتظار والصبر[2].

[1] - Rapport annuel du 29/ 06/ 1871, **J. A.**, 6 ^{me} série, T : 18, 1871, P : 30-31.

[2] - بعد قرن من الأبحاث المتعلقة باللغات واللهجات العالمية عموما ولغات ولهجات بلاد المغرب على الخصوص، وضع الفرنسيون في تصنيفهم لها، البربرية ضمن اللغات السامية. انظر:

- **Dictionnaire Quillet de la Langue Française**, Librairie aristide quillet, Paris, 1975.

2- المناهج والطرق العلمية للمستشرقين الفرنسيين من خلال المجلة:

من السهل إثارة المسائل المتعلقة بظاهرة من الظواهر البشرية، لكنه من الصعب إعادة رسم هذه المسائل وترتيبها وفق المعطيات والمقتضيات التي تشكل خطواتها في النهاية ما يمكن الاصطلاح على تسميته بالمناهج والطرق العلمية، فهل كان للمستشرقين الفرنسيين الذين مارسوا الفعل الاستشراقي ضمن دائرتي الجمعية الآسيوية ومجلتها، مناهج وطرق علمية سلكوها خلال الفترة الممتدة بين 1822 و 1872 ؟ ذلك ما سنحاول اقتفاء آثاره.

ليس من الممكن دعم حكم يتعلق بقضية من قضايا الشرق دون اللجوء إلى مصادره الأصلية، فاقتباس المستشرقين من النصوص الشرقية معارف دقيقة تتعلق بقضايا الشرقيين أمر لا يقبل المنازعة، لاسيما في ظل وجود كثير من المحاولات التي أنجزها مستشرقون سابقون يتمتعون بشهرة عالية، لكنه في غياب التسلح بالنقد، سمحوا لأنفسهم بخلط فرضياتهم وأحكامهم المسبقة وإثارتهم مشكلات كان من الممكن الاكتفاء بحلها اعتمادا على معطيات ونصوص أكيدة[1].

حدد المستشرقون الفرنسيون، دور المؤرخين منهم، وهو يقتضي القيام بابتعاث وقائع الماضي اعتمادا على المخطوطات، وإعادة الحقيقة إليها بواسطة النقد. على أن جمع مصادر التاريخ يكون بجمع المخطوطات وترجمتها والتعليق عليها قبل القيام بإعادة بناء وقائعها، وهذه القناعة هي التي جعلت مستشرقين في منتصف الخمسينيات من القرن 19م أمثال "ديفريمري" DEFREMERY يرون أن تاريخ الشرق لم يصل بعد إلى مرحلة التركيب والتجانس[2]، وأن ترجمة مخطوط شرقي تعد في حد ذاتها

---

(1) - Fr.Ed. SCHULZ, sur le grand ouvrage historique d'Ibn KHALDUN appelé Kitab al ibar wa divan-ol- maquetter wel khaber (sic)… J. A., T : 7, 1825, P :125.

(2) - Rapport annuel du 23/ 06/ 1856, **J. A.,** 5 me série, T: 8, 1856, P: 55.

نقدا، لأن الملاحظات الضرورية لفهم النص المترجم، ولو كانت قليلة، ستجد مكانها ضمن فهارس النص المترجم(1).

يعد فقه لغات الشرق -أداة آثارهم المكتوبة وغير المكتوبة- أوجب واجبات مستشرقي المرحلة التي تعنينا، إذ لم يكن بالوسع استخلاص كنوز المعرفة الإنسانية وإرساء حكم يتعلق بقضايا الشرق دون اللجوء إلى دراسة معمقة للغاتهم التي تحوي تلك الثروات الأدبية والمصادر الأصلية، المحدودة الانتشار في أوربا آنذاك.

كانت قناعة المستشرقين أنه محال أن يصلوا إلى حكم حول عبقرية شعب دون أن يكونوا قد درسوا لغته وآدابه(2). وكم من أفكار وآراء خاطئة، حول النظم الفلسفية والدينية للعرب وغيرهم من الشعوب، أدلى بها مستشرقون، فولدت تصورات وهمية عند بعضهم، وخرافات عند بعضهم الآخر، لانعدام معارف لغوية صحيحة (3).

إن الرغبة التي كانت تحدو باحثين مستشرقين في احتواء كل شيء، كانت ستؤدي إلى عدم التعمق في أي شيء، مما يلزم المستشرق أن لا يزيد من التوسع في اهتمامه، ولا يمنعه ذلك مرحليا أن يحذو حذو أولئك الذين أنكبوا على دراسة الآداب الإغريقية والرومانية، فبلغوا فيها ما بلغوا، ولا غرو إن لم يأخذ المستشرق كهدف لأعماله سوى دراسة علم اشتقاق الكلم والنحو للغات وشعوب الشرق المختلفة.

إن آداب الشرق التي تعاطاها مستشرقو بداية المرحلة، منحت نفس التقدير للشعر الأكثر غموضا، وللتاريخ الأهم معرفة، وللقصة الخيالية الأقل إثارة، وللأدب الجدير بالاهتمام من ذوي الفكر التأملي العميق (4).

إن المهمة التي ألقيت على عاتق المستشرق وقتذاك في ميداني العلوم والآداب، مهمة مضاعفة، فهي من ناحية اقتضت منه اكتساب المعارف وتنسيقها، ومن ناحية

---

(1) - Rapport annuel (1850 – 1851). **J. A.**, 4 ème série, T: 18, 1851, P: 116.

(2) - SCHULZ, **op. Cité**, P: 125.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 216.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 214.

أخرى ترويج هذه المعارف ذات العلاقة المباشرة بألسن الشرق، لاسيما القسم اللغوي منها وهو مهمة المستشرق الأولى(1)، المهمة التي ستوظف في تفسير التوراة(2).

ومهما كان أمر اللغات فإن الأرضية كانت متوفرة للتحكم فيها، بفضل مؤسسات كمعهد اللغات الشرقية بباريس وكراسي تدريس اللغات، وبوجود مقبلين على هذه اللغات منذ نهاية القرن 18 ومطلع القرن 19 م، ولا يمكن إلا أن نذكر جهود "دو ساسي" عميد المستشرقين الفرنسيين والأوربيين -على سبيل المثال لا الحصر- في هذا المجال بالذات.

كان المستشرقون وحدهم مطالبين بفتح باب النقاش في كل ميادين المعرفة الاستشراقية على أن يأتي النقاش في المرتبة الثانية بعد اللغات واللسانيات، لأنه من خلال النقاش يمكن ولوج باب النقد الذي سنعود إلى كيفيته بعد حين.

وكان التوجه العام في مطلع الجيل (العشرينيات ومطلع الثلاثينيات من القرن 19) متجها نحو شعر الشرق، فكان الاهتمام والدراسة منصبين على لغتي العرب والفرس وثقافتيهما. وقد حكم بعض المستشرقين على أنهما من أغنى لغات وثقافات الشرق، لا بل إن حضارتهما من أكثر الحضارات شهرة في آسيا، وقد أبلى آل "شولتنز" SCHULTENS و"جون" JONES و"دساسي" DE SACY بلاء حسنا في هذا المجال إذ فتحوا بأعمالهم، لكل الجادين، المدخل إلى علوم الشرق وفنونه ودياناته(3).

وفي ظل انتظار جمهور المثقفين الفرنسيين إنتاجا وافرا للمعارف الشرقية الأكثر تنوعا، بدأت أصوات بعض المستشرقين أمثال "شولتنز" ترتفع وتتساءل فيما إذا لبوا رغبات جمهورهم بالشعر العربي والفارسي الذي أصدروه حتى ذلك الحين.

إن التأمل والنظر إلى ما حققه المستشرقون من ترجمات لأشعار وشروح لها، تركتهم يتساءلون أيضا عما إذا كانت الآداب عند العرب وغيرهم تقتصر على المعلقات والغزل، وفيما إذا كان لمعان شعرهم لم يكن قد بهر نظر عشاقه في أوربا، إلى درجة

---

(1) - **نفس المصدر**، ص: 213.

(2) - Rapport de la séance du 30/ 05/ 1842, **J.A.**, 3ème série, T : 13, 1842, P : 475.

(3) - SCHULZ, **op. Cité,** P : 217.

أن بيتا للمتنبي أضحى يتراءى لهم أنفس من قطعة نثرية لهذا المؤرخ العربي أو ذاك الفيلسوف ولو كانت أقل غنى، في مجال الحقيقة، لقد ملأ الشعر الأعمال والمطبوعات العلمية(1).

لا بد من الإشارة أيضا إلى أن هذه النزعة العامة نحو شعر الشرق، لا بل نحو تزويقه وتجميله أو بمفهوم آخر نحو تزوير الحقيقة على الطريقة الأوربية قد أثارت في نفوس بعض المستشرقين تساؤلا عما إذا كانت هذه الطريقة ليست مضرة بآداب الشرق، حتى في أوساط رأي عام يمتاز بالنزاهة والذكاء(2).

بدأت هذه النظرة المتأملة تتعمق وتنضج أكثر وتتسع دائرة وأفقا، وتستطرد في تساؤلات مستثيرة غيرها حول ما أنتج وهل بوسع المعطيات المتوفرة أن تمنح حلا لكثير من المشكلات الهامة المتعلقة بتاريخ الإنسان والطبيعة بصفة عامة ؟ (3).

إنها نظرة واعية، تلك التي تستخلص العبرة من جهود الأجيال السابقة، حين تقارن -بما تكون لديها من تراكم وخبرة- العهود والجهود، وحين نتساءل فيما إذا كان -على سبيل المثال- ضمن علماء النهضة الذين استغلوا آداب روما القديمة، من لم يعثر إلا على هواة غرباء للورود المختلسة في حدائق "هوراس" (4) أو "كاتول".

هذا التوجه، وهذه النزعة هي التي جعلت الأحداث العظمى مثل مواهب "السيزاريين" (Des Césars) و"الشيشيريين" (5) (Des Cicerons) ليست جديرة

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 217. نشير هنا إلى أننا نتحدث عن عهد الرومانسية.

(2) - **نفس المصدر**، ص:218.

(3) - **نفس المصدر**، ص:219.

(4) - **"هوراس"**: (65 – 8 ق. م.). من أشهر الشعراء في روما القديمة. كان أكثر شهرة لنظمه قصائد الشعر الغنائي، وهي مجموعة من قصائد قصيرة، تشبه الأغاني. بعضها قصائد شخصية عن الحب، والصداقة والجمال الطبيعي. والبعض الأخر كان يوضح حب هوراس لوطنه ودينه، بكتابته أساطير وحكايات عن الأبطال القوميين.

- **الموسوعة العربية العالمية**، ج 30/26، ط 1، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1996.

(5) - نسبة إلى **شِيْشَرون** ماركوس توليوس (106 – 43 ق. م.). خطيب روماني ورجل دولة جعلته خطبه المكتوبة ومقالاته الفلسفية والدينية من أكثر الكتاب تأثيرا في الأدب اللاتيني. قام في كتاباته بترجمة أفكار ومصطلحات علمية من اللغة اليونانية إلى اللغة اللاتينية، وطور بذلك اللغة اللاتينية حتى أصبحت تستخدم لغة عالمية للاتصال الفكري على مدى قرون عديدة. **نفس المصدر السابق**، ج 14.

وكذلك، موسوعة السياسة، ج 3، **مصدر سابق**.

بالاهتمام، ولكن الأهم منها رشاقة القامة، والانحطاط الشهواني "لليـــديين"[1] (Des Lydiies) و"الليسبيين" (Des Lesbies) التي ترسمها الثقافة الرومانية التي وضعت بـــين أيدي بعض مترجمي عصر النهضة، فكذلك الشأن بالنسبة للشعر العربي(2).

كانت هذه النزعة تطمح إلى رفع مستوى جمهور المثقفين الأوربيين، والسمو بـــه إلى رتبة يثمن فيها العبقرية الخالدة للعرب ويتعرف من خلالها على "حماقتـــهم" في آن واحد، ذلك الشعب العربي الذي انتصر على العالم بفتوحاته وحافظ على العلوم. وقـــد خلص المستشرق "شولتز" إلى أن شعبا كهذا لجدير أن يعرف عنه شـــيء آخـــر غـــير الترديد باستمرار لقوافي المعلقات ومبالغات المتنبي.

هذه بالطبع نفحة من نفحات مستشرقي المرحلة، ونوع من أنواع الصدوع بالحق لصالح الحقيقة، بدلا من التحفظ في قولها محافظة على مشاعر ما مغرورة(3).

قد يتساءل المرء عن سر هذه الجرأة والتحدي لمشاعر الرأي العام الأوربي الـــذي ألف نزعة عدم الاكتراث بالشعر، لكن الغرابة تزول حين ندرك بأن الشيء من معدنـــه لا يستغرب، ذلك أن هذه الأفكار وغيرها كثير مما سيأتي، هي ثمرة التقاء بين فكر ابن خلدون وفكر عصر الاستنارة في مرحلة عودة النظام الملكـــي (La Restauration) إلى فرنسا، نعم! لقد استلهم SCHULZ هذه الأفكار بالفعل من قراءته المتأنيـــة لكتـــاب تأسف على عدم نشر نصه آنذاك، و لم يترجم "دو ساسي" إلا مقتطفات منه، إنه مقدمة ابن خلدون[4]. كما لا ينبغي أن ننسى بأن المرحلة الـــتي تعنينـــا مطبوعـــة بطـــابع الرومانسية.

لقد فُسّرَ بَعْضُ هذا التوجه فيما بعد على أنه صراع أولويـــة بـــين تيـــارين أو مدرستين، مدرسة أدبية وأخرى تاريخية، وكان "دوقا" DUGAT هو أول مـــن تنبـــه لصراع المدرستين فيما نفى البعض أن يكون هناك صراع أصلا بحجـــة أن الدراســـات

---

[1] – أبناء **ليديا**.وهي مملكة قديمة في الجزء الغربي من آسيا الصغرى. ازدهرت نحوا من قرن. امتدت من منتصف القرن 7 إلى منتصف القرن 6 ق. م. قضى عليها الفرس عام 546 ق. م. بعد أن هزموا آخر ملوكها كريسوس الذي يدعوه العرب قارون، في معركة سارديس. ـــ منير البعلبكي، **موسوعة المورد**، ج 6، بيروت، 1981.

[2] – SCHULZ, **op. Cité**, P : 219.

[3] – **نفس المصدر السابق**، ص: 219.

[4] – **نفس المصدر**، ص: 219.

الاستشراقية انتهت إلى تفنيد هذا التقسيم لصعوبة الفصل بين التاريخ والأدب ما دام كل منهما يخدم الآخر ويكمله. فلا يمكن عندئذ أن يسبق أحدها الآخر ولا يفوقه، وقد انتهت بدايات الصراع إلى شبه إجماع وتوفيق وتكامل عبر عنه "مول" MOHL في جلسة من جلسات الجمعية الآسيوية، كما بدا التوافق واضحا في خط سير المجلة الآسيوية واتجاهها خلال الفترة التي تعنينا على الأقل(1).

ومهما كان أمر التقسيم والمدارس، فإن الاهتمام بأمر الشرق ظل يزداد ضمن أعمال العلماء لا بل ضمن أعمال الساسة أيضا، وقد شمل الاهتمام التاريخ بمفهومه الواسع أفقيا وعموديا سواء منه الممزوج بالخرافات والأساطير، أم تاريخ الفلسفة وأصولها وتطوراتها، أم تاريخ التشريع وغيره(2). وموازاة لهذا هناك اهتمام أيضا بتاريخ الرياضيات والفلك والجبر والهندسة، وفن العمارة الذي يدعو إلى معرفة تاريخ النصب التذكارية، والنحت الذي يكشف محاولاته الأولى، وكذا الزراعة التي تدرس نظم الري ومختلف المزروعات، وحتى الكيمياء والفنون التطبيقية التي تُشبع فضولها بمناهج الشرق القديمة(3).

وفي ظل تطور التاريخ والعلوم المختلفة، بقي المستشرقون يفتقرون للإجابة على المتطلبات الكبرى، لأن الجمهور الأوربي لم يهتم بعد كما يجب بآداب الشرق، وحتى الحكومات لم تكن مساعدتها لهذه الآداب كافية، ومن الممكن أن يكون مرد ذلك إلى كون الحكومات لا تستجيب إلا للعلوم التي يفرضها الرأي العام، فكان على المستشرقين والحالة هذه إثارة الاهتمام عن طريق الأبحاث الجادة ورجال الفكر لابتكار رأي عام أكثر إجماعا وأكثر قوة واهتماما بمواضيع المستشرقين المدروسة.

كان للاستشراق، كغيره من العلوم الأوربية الأخرى، القدرة الكافية على صنع احتياجاته، وكان مخيرا بين إسراع الخطى وتفعيل التطور أو ترك الوقت ومقتضيات

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1856, **op. Cité**, P : 49.

(2) - Rapport annuel du 2/ 07/ 1860, **J. A.**, 5me série, T : 16, 1860, P : 38.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 39.

الضرورة تفعل فعلها، غير أن ترك العلوم تنتظر له مخاطر، في نظرهم، وهو أن تبقى أوربا عرضة للتخلف(1)، ومنها تخلف الاستشراق في فرنسا.

موازاة لهذه الجهود العلمية، لا ينفك تأثير أوربا على الشرق يتزايد يوما بعد يوم طوال الفترة، سواء عن طريق الحروب والاحتلال أو الدبلوماسية أو التجارة أو العلم. ومع نهاية ستينيات القرن 19، لم يعد هناك دولة شرقية ذات سيادة فعلية.

وإذا كان المستشرقون الفرنسيون خلال هذه الفترة "مجمعين" على أنه ما من دولة في الشرق إلا وهي تخضع إما للاحتلال وإما للقهر، فإنهم يختلفون حول الاحتلال، فبينما يراه البعض مفيدا لهذه الشعوب، يراه البعض الآخر بداية لهضم حقوق الكثير منها، وإهانة لمشاعر هذه الشعوب واستغلال لضعفها، ومن شأن الأحداث أن تؤيد هذه الرؤية أو تلك بحسب استعمال أوربا لهيمنتها. ويبدو أن الاتفاق الحاصل بين المستشرقين، هو أن نظم أوربا تمارس تأثيرا لا يقاوم على الشرق، ولهم الاستعداد لإسداء النصح إليهم، فإذا كان النظام الفرنسي مثلا يرغب في أن النتائج تبرر استعماله للقوة، ينبغي عليه أن يستعد لمعرفة الشرق، ومنه جزء كبير من شمال إفريقيا(2).

وهكذا فإن الاستشراق الفرنسي يتفق مع فعل الاحتلال، ولكنه يختلف معه حول الوسائل التي يتمناها المستشرقون أن تكون أنجع، ولذلك فهم يميلون إلى الاحتلال العلمي والمنهجي[3]، ويذهبون في هذا إلى حد الشعور بأنهم طرف -تصريحا لا تلميحا-: "ينبغي أن نتعلم كيف نعرف الشرق، بمعرفة لغاته وتاريخه وقوانينه"، لأجل ذلك فهم يسدون النصح إلى الضمير الجمعي، حاثين كلا حسب استطاعته، بتشجيع دراسة الآداب الشرقية، وتوسيع وسائل تعلمها عن طريق مضاعفة المدارس وتشجيع الرحلات نحو الشرق، وتسهيل طبع الكتب. والحكومات من ناحيتها تفعل ما بوسعها لنشر المعارف التي تقتضي الظروف توظيفها مستقبلا، وهم يرفعون من شأن عمل الحكومات إلى المرتبة والمسؤولية الحضارية، فلن يكتمل شرف الأمم الأوربية

---

(1) - **نفس المصدر**، ص: 40.

(2) - **نفس المصدر**، ص: 41.

(3) - انظر في هذا الشأن **الفصل الثاني** المبحث الثالث من هذه الرسالة.

المتحضرة -في رأيهم- إلا بتنوير أوربا نفسها في مجال الدور الذي تعتزم القيام به والمسؤولية الخطيرة التي أناطت بها نفسها أمام المستقبل وأمام التاريخ!![1]

انصب اهتمام مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين على المخطوط العربي على الخصوص وغير العربي، وقد وجه "مول" أكثر من مرة نداء إلى المكتبات الأوربية التي تحتوي على مخطوطات عربية ولو قليلة حاثا إياها على طبع فهارس متقنة لها على النحو الذي قام به "تورنبيرغ" TORENBERG، وكان يرى أنه من فائدة الدراسات الاستشراقية أن يعرف في أي مكان في أوربا يختبئ مخطوط ما قد يتوقف عليه عمل مهم، وكانت جل المكتبات الأوربية موافقة على إعارة مخطوطات وفق ضمانات معينة[2].

ولما كان الاعتقاد سائدا بأن الغرب وحده هو "موطن العلم"، فقد كان المستشرقون يرون أن كل الجمعيات والمؤلفين والكتاب الذين يصدرون مؤلفات علمية في الشرق، عليهم أن يوصلوها إلى أوربا لأن في نظرهم أن الكتاب الذي يظهر في أي مكان من العالم لا يمكن أن يكون مكسبا للعلم إلا إذا دخل في حوزة ومجال أوربا "العالمة"[3].

وإذا كان مستشرقو الجمعية والمجلة قد نشروا الكثير من النصوص الشرقية، فإن تضاعف نشرها في مطلع الخمسينيات، قد دفع بعضهم إلى الدعوة بضرورة إرفاق كل نص شرقي يستأهل النشر بترجمة له لتسهيل استعماله على الجميع، باستثناء النصوص الموجهة خصيصا إلى المدارس أو رجال الاختصاص، وقد كانوا يرون أن نشر نصوص شرقية دون ترجمات، لها سلبياتها، لأن ذلك من شأنه أن يقلص كثيرا عدد الأشخاص المستفيدين من النص المنشور، حتى العلماء، مما يساهم في بقاء حاجز يفصل -في نظرهم- الشرق عن باقي البشرية مما يشكل خسارة للعلم وللعالم. أما الترجمة فمن شأنها أن تسترعي انتباه كل الذين لهم رغبة في الوقائع التاريخية مهما

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1860, **op. Cité**, P : 38.

(2) - Rapport annuel du 30/ 07/ 1849, **J. A.**, 4 me série, T : 14, 1849, P : 31.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 14.

كانت طبيعتها، وتعويدهم على تخصيص مكانة للدراسات الشرقية، ضمن الفكر الإنساني[1].

وقف مستشرقو الجمعية والمجلة من طبيعة ومصادر التشريع الإسلامي، موقفا يختلف مع غيرهم من الكتاب الفرنسيين التقليديين، خاصة منهم المسيحيين المعروفين بميلهم ميلا تقليديا إلى التعرض -على سبيل المثال- لشخص النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ والإساءة إليه. فكُتّابٌ أمثال "أوكلي" OCKLEY و"جاجنيي" GAGNIER و"سال" SALE ردوا شهادات هؤلاء الكتاب المسيحيين.

ومن الإنصاف القول أن احترام شخص النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ صار قاعدة عند مستشرقي الجمعية والمجلة الفرنسيين وغيره هو الاستثناء. وهنا لا بد أن نسجل أيضا أن المستشرقين المحدثين لم يعودوا يتجاسرون على الإساءة إلى شخص النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ ولا يسمحون بذلك، حتى أن مقالا أصدره "ويل" WEIL في المجلة الآسيوية بغرور، وممارسة تقليدية، معتبرا إياه اكتشافا، وأن ما كان يصاب به النبي محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ من نزول الوحي عليه، هو داء الصرع (الإيبيلبسي) غير أن المستشرقين استقبلوا هذا الرأي ببرودة ووقفوا منه موقف اللامبالاة[2]، بل نقدوه واعتبروه نشازا. وإذا كان المستشرقون يعترفون بنبوءة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ إلا أنها نبوءة داخلية، أي ذكاءا ونبوغا وعبقرية وليس وحيا، مما يلتقي ونبوءة أدعياء النبوة، أما النبوءة الخارجية فهي التي تلتقي مع الرسالة أو مع كونه مرسلا من الله سبحانه وتعالى، وهو ما لم يكن مشاعا في أدبيات المستشرقين، وهذا تحديدا هو الفرق بين فهم المسلمين لما كان يصيب النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ من جراء تأثير الوحي تأثيرا خارجيا وما يصيبه في فهم بعض المستشرقين ويؤثر عليه تأثيرا داخليا فيسمونه صرعا.

---

(1) - Rapport annuel du 13/ 06/ 1853, **J. A.**, 5 ^me^ série, T : 2, 1853, P : 123-124.

ـــ انظر أيضا: - Rapport annuel, J. A, 1856, **op. Cité**, P : 33.

- Rapport annuel du 29/ 06/ 1859, **J. A.**, 5 ^me^ série, T : 14, 1859, P : 47.

(2) - G. WEIL, "Sur le fait relatif à Mahomet", **J. A.**, 3 ^me^ série, T : 14, 1842, P : 108-112.

وسواء تمثلت كيفيات الوحي إلى النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ في الرؤيا الصادقة التي تأتيه مثل فلق الصبح، أم في ما يلقيه المَلَك في روع النبي وقلبه من غير أن يـــراه، أم رؤية النبي المَلَك جبريل في صورته الحقيقية التي خُلق عليها وكذلك رؤية الصحابة لـــه عينا، أم صلصلة الجرس وكان أشد مراتب الوحي على النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، فإن هذه الكيفيات كلها تبرهن على الصورة المعتمدة للوحي وعلى النبـــوءة الخارجيـــة للنبي محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ [1].

وأما القرآن الكريم سواء نظروا إليه كمصدر تشريع، أو مجال لتدوينه، فهم يرون أنه لم يكن أثرا مقتصرا على محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ ، لأن الشرع، في نظرهم، لم يكن موجودا في حياته، لا كاملا ولا مرتبا مثلما صار عليه بعد وفاته ﴿صـــلى الله عليه وسلم﴾، وقد كان يشتمل على قطع منفصلة عن بعضها البعض كما كان يشتمل على الإذن أو الأمر أو اللوم أو العتاب أو النص أو التذكير أو التحذير. وقد صمم لحل مشكلات آنية، وأن بعضه كان مكتوبا على أوراق مشتتة والبعض الآخر محفوظـــا في ذاكرة الصحابة والتابعين.

وبعد وفاة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ خشي الخليفة أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) ضياع هذا الأثر أو تلفه أو تزويره أو تزييفه أو تحريفه أو تـــشويهه، فـــأمر بجمعه، وكون منه مصحفا بأقسام تفتقر إلى التنظيم والترتيب التاريخي والموضـــوعي، ومن ثم فإن المجموع يشكل كلا غير متجانس، وهذا الاضطراب كما يصفه المستشرق الدكتور "وورمز" هو الذي مثل ذريعة للنقد القاسي الذي تعرض له قانون التـــشريع الإسلامي [2].

والواقع أن جمع القرآن في عهد النبوة إنما يعني كتابته في وسائل بدائية، أما جمعـــه في عهد أبي بكر (رضي الله عنه)، فقد حدث من خلال جمع زيد بن ثابت

---

(1) - أمير عبد العزيز، **دراسات في علوم القرآن**، ط 2، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1988، ص: 45 - 50.

(2) - Docteur WORMS, "Recherches sur la constitution de la propriété territoriale dans les pays musulmans, et subsidiairement en Algérie" **J. A.**, 3 [me] série, T : 14, 1842, P : 236.

الآيات والسور المنتشرة لتكون كلها قرآنا تاما غير منقوص بين دفتين لمصحف واحد مرتب الآيات. أما في عهد الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، فإنما يعني "أن تنسخ صحائف أبي بكر في مصحف منسق الآيات والسور وذلك على نحو من الترتيب التوقيفي وليس على أساس التزول. أي على أساس من الكيفية التي شرعها النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ في وضع كل آية أو سورة في موضعها المقدور من القرآن. حتى إذا تم له ذلك ألزم المسلمين جميعا بأن يقتصروا على هذا المصحف دون غيره[1].

يتضح من كلام المستشرقين أيضا، أنهم يتعرضون لنقد القرآن وكأنه كتاب بشري يفتقر إلى قواعد البحث العلمي المتخصص الذي كان سائدا في أذهانهم آنئذ ناسين أنه كتاب مقدس لا يخضع لقوانين وقواعد البشر التي هي مجرد اتفاقات تخضع للتجربة والتعديل باستمرار، أي تخضع لقانون الزمن البشري من ميلاد وتطور وانحطاط.

وسجل الدكتور "وورمز" انطباعه من القرآن، أنه مليء بالأوامر والوصفات الوعظية والإرشادات الأخلاقية، في صور شعرية مؤثرة، إلى جانب عقيدة التوحيد وخلود الروح، والحض على العدل والإنصاف والاستقامة على الحق والرحمة والإحسان والصدقة[2].

والسنة في نظر "وورمز"، تتعلق بأقوال النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ وأفعاله وتقريراته التي جُمعت وحُفظت سواء عن طريق الخلفاء أو الصحابة، أو التابعين، وتعالج مسائل وتفاصيل فقهية تشريعية تتعلق بالأخلاق والعبادات التي تعرض لها القرآن ولم تشرح بالقدر الكافي. وهي بسط وشرح لنصوص القرآن بالأمثلة والقصص، طبقها المسلمون بعد وفاة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ للفصل في مسائل أو منع حدوث وقائع بالإشارة إلى موافقتها أو مخالفتها للسنة[3].

---

[1] – عبد العزيز، **مصدر سابق**، ص: 106 – 107. انظر كذلك: أبو الفضل مير محمد، **بحوث في تاريخ القرآن وعلومه**، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1980، ص: 124 – 137.

[2] – WORMS, **op. Cité**, P : 237.

[3] – **نفس المصدر السابق**، ص: 238.

وقد جرت أول محاولة لتدوين السنة على ما ذهب إليه "وورمـــز" في شـــكل كتاب في عهد الخليفة الرابع علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)[1]، وأعقـــب هـــذا المجموع سلاسل أخرى كثيرة أخذت أسماء متعددة، وكان أشهرها وأصحها سلـــسلة صحيح البخاري التي تأتي بعد القرآن مباشرة، وعلـــى صـــحيح البخـــاري يُقْـــسم الأشخاص في شمال إفريقيا على يد القضاة والفقهاء، وعلى غرار القرآن جمعت السنة في نظر "وورمز" -وكما أسلفنا- بدون منهجية، مما يصعب عملية البحث فيها، على حد قوله[2].

ينظر العرب والمسلمون إلى الأسانيد نظرة فأل وتعلق شديدين على أنها أدوات النقد التاريخي الوحيدة، فيما يهملها الأوربيون، لا بل يعتبرونها تافهة، وقـــد صـــار المستشرقون بعدهم ومنهم مستشرقو الجمعية والمجلة الأسيويتين، يعـــودون إلى أقـــدم المصادر ويتقصون الأخبار والأحاديث بعناية فائقة، مع إدخال عوامل النقـــد علـــى الأسانيد، مثل سلاسل نسب المُحَدّثين التي يضعها كل مؤرخ عربي على رأس كـــل واقعة لاسيما وقائع العهد الذهبي[3]، أي عهد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين.

ولا بد من الإشارة إلى أنه منذ أعمال "ســـبنجر"، صـــارت الأســـانيد، عنـــد المستشرقين، تُعْتَمَد ليس بالثقة اللامتناهية التي يضعها فيها المسلمون، ولكنهم أضـــحوا يرون فيها علامات وأعراضا ومعالم ودلائل ووسائل للوصول إلى الحقائق[4]، هذا بعد أن أدرك المستشرقون أن ثقة المسلمين في هؤلاء الرواة مردها إلى أنهم تعرضوا إلى قواعد النقد والتمحيص مما يطلق عليه المسلون مذهب الجرح والتعديل[5].

وما دمنا نتحدث عن الأخبار والأسانيد، فلا يفوتنا الحديث بهذه المناســـبة عـــن موضوع شديد الصلة به، وهو أخبار ووقائع فتح المسلمين شمال إفريقيا الـــذي يجمـــع مستشرقو الجمعية والمجلة أنه من العهود الأكثر غموضا في الخلافة الإسلامية،

---

(1) – سنحاول مناقشة تدوين السنة النبوية في **الفصل الثالث** المبحث الثاني.

(2) – WORMS, **op. Cité**, P : 239.

(3) – Rapport annuel du 26/ 06/ 1861, **J. A.**, 5 me série, T : 18, 1861, P : 31

(4) – **نفس المصدر السابق**، ص: 32.

(5) – انظر مراجع في الجرح والتعديل، **الفصل الثالث**، ص: 184.

وحجتهم في ذلك تناقض الأحاديث والتواريخ، بل ويذهبون إلى أن التناقض يكتنف حتى الوقائع الأكثر شهرة[1]، وقد طرح "مول" هذه المسألة في تقرير من تقارير الجمعية في أواخر العهد الذي نحن بصدده، مشيرا إلى محاولات "ويل"، و"جونس" JONES، "فورنيل" FOURNEL و"دوسلان" DE SLANE، كل من ناحيته، في إيجاد حل لأسرار الغموض، بلا جدوى، كما أشار التقرير إلى أن عالما شابا من "جوتينج" Goettingue هو "روث" ROTH، حاول من ناحيته إيجاد حل للنقاط الغامضة لهذه المرحلة المعقدة من تاريخ المنطقة في مقال افتتاحي بعنوان "عقبة غازي شمال إفريقيا" دون الإعلان عن النتائج المتوصل إليها[2].

وقد اعتبر المستشرقون الفرنسيون أن تاريخ العنصر العربي من المسائل الغامضة أيضا لكثرة الأنساب والقبائل. وكانت محاولة حل غموضه من نصيب المستشرق "كوسان دي برسفال" CAUSSIN DE PERCEVAL، الذي تتبع مصير مجمل القبائل العربية قبل أن تشكل أمة، ووجد أن لها حولياتها تتكون من سلاسل أنساب وعادات شعبية ومقاطع شعرية مرتجلة ومحفوظة في ذاكرة العائلات، فكان عليه أن ينسق ويربط بين هذه الوقائع الناقصة، ويحكم على صدقها وأصالتها ويستخلص ما تحتويه من حقائق، ومقارنة بعضها ببعض وتكملتها بشهادات مبعثرة تمنحه إياها حوليات الشعوب التي كانت في علاقة بالعرب قبل محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾.

وفي الأخير، كان على "دي برسفال" أن يجمع بين الخطوط المعزولة في جدول يعطيه تصورا عن حالة الجنس العربي في الوقت الذي شكل أمة موحدة غازية، تأخذ مكانها في التاريخ العالمي[3].

سعى "دي برسفال" إلى تحقيق هذا المشروع[4] وكلفه جهدا استغرق عشر

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 30.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 31.

(3) - Rapport annuel du 17/ 08/ 1848, **J. A.**, 4 me série, T : 12, 1848, P : 101.

(4) - A.P. CAUSSIN DE PERCEVAL, **Essai sur l'histoire des Arabes**, Vol. 1+2. Paris, 1847.

سنوات، وقدم ذلك في كل متكامل، مثل قاعدة لكل الأعمال اللاحقة وساعد على اكتشاف المزيد من المخطوطات الجديدة ودراسة النقوش الحميرية وتوضيح نقاطها الغامضة[1].

اهتم مستشرقو الجمعية والمجلة الآسيويتين بالتاريخ القديم أيضا، مع تزايد الاهتمام بالنقوش والميداليات، من ذلك النقوش التي عاد بها "رينان" RENAN من فينيقيا على سبيل المثال أو التي عاد إليها بمعية "بارجيس" BARGES أثمرت مقالات صدرت ضمن أعداد المجلة الآسيوية مطلع الستينيات[2].

كما اهتم البعض الآخر بالآثار الدينية ومنها آثار الأضرحة وشواهد القبور.. الخ، قصد فهم النقوش الإسلامية[3]، كما فعل "شيربونو" CHERBONNEAU بشواهد إحدى مقابر قسنطينة.

انصب اهتمام مستشرقي الجمعية والمجلة على نقد كتابات المؤلفين المسلمين، ومؤاخذتهم على جملة من الأمور، فقد آخذوا مؤلفي الحروب الصليبية على صيغ معينة من مثل "لعن الله" الكفار والملاحدة، عندما يتعلق الأمر بأسماء مسيحية، ونعت المسلمين أنفسهم "بجنود الله" و"المؤمنون" و"الشهداء"، وهو ما اعتبره هؤلاء المستشرقون قلة إنصاف ونزاهة[4]. ولكنهم يعترفون للمسلمين بعرضهم الوقائع على العموم وتقديمها دون تحريف ولا تردد، أي كما حدثت، وكمثال على ذلك حصار "سان جون داكر" [5] Saint Jean d'Acre تحت حكم صلاح الدين، فقد بينت المقارنة بين العهود والوقائع التي تتوفر للمسيحيين والمسلمين على السواء بأن الكتاب المسلمين يتفقون تماما مع غيرهم، وقد تأخذ نزاهتهم مدى بعيدا، لاسيما عندما يتعامل المسلمون

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 102.

(2) - Rapport Annuel du 29/ 06/ 1864, **J. A.**, 6ème série, T : 4, 1864, P : 27.

(3) - Lettre de DEFREMERY Constantine le 12/06/1858, **J.A.**, 5ème série, T : 12, 1858, P : 594-595.

(4) - REINAUD, "Notice sur les chroniques orientales qui doivent trouver, place dans le recueil général des croisades", **J. A.**, 2 me série, T : 13, 1834, P : 561.

(5) - الأصل في كلمة آكر بالعربية هي مدينة عكة بسوريا، المطلة على البحر المتوسط. انظر:

- La Grande Encyclopédie, T : 1, **op. Cité.**

مع الأحداث ببرودة، ودون إبداء مشاعرهم[1] وذهب المستشرقون إلى أن الكلام الأكثر تأثيرا في مشاعرهم هو القرآن الكريم، كما يفعل المسيحيون مع كتبهم المقدسة. وأما الحكم على الوقائع، فإن الشرقيين عديمو الحس العقلي الفلسفي، فهم في نظر المستشرقين أقل استعدادا لذلك لأن آراءهم شوهها الحكم المسبق والانحياز والتعصب[2].

أما معلومات ووقائع ما قبل الإسلام التي يسوقها ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين، فإنها لا تستأهل إلا القليل من الاحترام على ما يذهب إليه "دو سلان" لجهل العرب بالموضوع مما يجعلهم عرضة لاتباع أعمى لقصص يروونها عن المجوس واليهود والنصارى، وهنا يجزم "دوسلان" أن معلومات المثقفين المسلمين عن التاريخ القديم، مأخوذة من كتاب "أوروز"(3) Orose أو التوراة(4).

وأما الحكم والمقولات المسندة إلى الخلفاء الراشدين التي أوردها المسعودي في الجزء الرابع من "مروج الذهب" فإنها تشكل في رأي "ديرنبورغ" أحد أقسام الكتاب الأكثر أهمية ولكنها الأكثر صعوبة، ولسنا ندري ما الذي يجعل الصعوبة تتحول إلى غموض مثلها مثل الشعر العربي(5)، ذلك أنه ليس كل صعب غامض لأن الغموض يتعلق بالمستوعب له ولأن جلاء الغموض يحتاج إلى الارتفاع إلى مستوى معين من المعرفة والموهبة.

---

(1) - REINAUD, "Notice sur les chroniques" , J. A., 1834, **op. Cité**, P : 562.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 563.

(3) - **بول أوروز**: ولد بطرخونة بإقليم كاتالونيا (إسبانيا) حوالي 390 م. مؤرخ اسباني، وقس مدافع عن العقيدة النصرانية. عاش مدة طويلة "هيبون" (عنابة القديمة)، بالقرب من القديس أوغسطين، الذي نصحه بكتابة الكتب الستة لتاريخه ضد الكفار. انظر:

-Robert 2, **op. Cité** :وكذلك — - La Grande Encyclopédie, T : 25, **op. Cité.**

(4) - Le Baron Mac Guckin DE SLANE, "Histoire de la province d'Afrique et du Maghrib, Trad. De l'arabe d'En- Noweiri, Invasion de l'Espagne " , **J.A.**, 3[me] série, T : 11, 1841, P : 564 – 565.

(5) - Joseph, DERENBOURG, "Deux passages dans le VI volume des Prairies .D'Or de Masoudi, **J. A.**, 6 [me] série, T : 9, 1867, P : 253 – 254.

إن كتابات المشارقة التاريخية، تشوبها الأساطير وامتزاج الحق بالباطل والمعقول بغير المعقول، فكثيرا ما ترافق الوقائع الخوارق المثيرة للضحك، مما يضع حتى الوقائع المعلومة أو الأكثر أصالة وواقعية في نظرهم، موضع شك، على أن ذلك ليس مدعاة لدفع روايات المشارقة أو الاستخفاف بها واحتقارها لأن النقد المتزن الحكيم والمتنور كفيل باستخلاص قسم كبير من حقائق الماضي، فبالرغم من أن جل هذه القصص الغريبة هي ثمرة تخيل جامح مطلق العنان، فإن الكثير منها هو نتاج تركيب لبقايا وقائع موغلة في القدم، غامضة كي تدخل في الميدان الإيجابي للتاريخ. والبعض الآخر هو مجازات واستعارات أو صور منحوتة رمزية ضاعت أسرارها مع مرور الزمن [1].

إن رفض قصص وروايات من هذا النوع دون تمحيص، هو في رأي بعض مستشرقي الجمعية والمجلة، تصرف بلا روية لأنهم بذلك سيحرمون بغير وجه حق بزوغ شمس يوم ستساهم فيه هذه الروايات في إجلاء ظلام العصور القديمة، وسيتحملون يومئذ نفس اللوم الذي وجه لكتاب (أوربا) في القرن 18، حينما نبذوا ببساطة مبالغ فيها وبتهاون أيضا، كل ما في التاريخ من روايات لا تحمل علامات بينة واضحة وصريحة أصالة وصدقا وواقعية.

إن الوفي للحقيقة في نظر بعضهم لا يرفض هذه الروايات ولا يبتعد عنها بقدر ما يعمل على إيجاد تفسير لها وتعليق على كل "سخيف" منها ومعنى لكل أسطورة.

فهذا الاعوجاج الذي يبدو عاديا لذوي الفكر المنهجي، يشكل خطرا نظرا للأخطاء التي يمكن أن يحدثها، ذلك أنه ينحو طبيعيا نحو توسيع علم الوقائع بالاكتشافات التي تولدها التخمينات والظنون واستقراء الوقائع والبراهين التي تنقل من العام إلى الخاص ومن الجزئي إلى الكلي.

---

(1) - L'abbé BARGES, "Tradition musulmane sur les magiciens de Pharaon… extraite du livre des charmes…, Par Djelal-eddin el-Soyouthii", **J. A.**, 4 me série, T : 2, 1843, P : 73.

كان هذا منحى الحركة الاستشراقية في نهاية الثلاثينيات من القرن 19م والتي تدفع العقول نحو الأبحاث العلمية، بتلهف وحماسة في معرفة كل شيء، وهي الرغبة النهمة في تعميق وتوضيح كل شيء بدءا بالظاهرة الطبيعية غير المرئية إلى الكتابات التاريخية. فهي برهان ساطع بأن العقل يشتغل ويتوسع، وأن الفكر هو الغذاء الضروري لحياته وأن العلم لا يتطور إلا بالتفكير (1).

وقد اقترح بعض المستشرقين منهجية في التعامل مع الكتابات التاريخية الشرقية. مفادها أن لا يأخذ المستشرق من الروايات إلا ما يدعم الوقائع المعروفة غير المختلف فيها، وأن لا تُتَبنّى الشكوك إلا إذا كانت مبنية على الاحتمال، هذه المبادئ في نظرهم، يمكن للمستشرق أن ينطلق منها لدراسة الكتّاب الأصلاء لتاريخ الحقب الماضية على أمل الوقوف على اكتشافات سارة، وإعطاء تفسيرات معقولة ومستساغة لمجمل الروايات الشرقية وتقاليدهم التي ظل المستشرقون السابقون يستخفون بها إلى القرن 19، لجهلهم معناها ومرماها. وعلى المستشرقين أن يجدوا تفسيرات إيجابية للأساطير التي تخفي أصل الشعوب الأولى، وأن يُخْرِجوا من كنف النسيان، حشدا من الوقائع ظلت تختبئ وراء روايات وأساطير، تدين في استمرارها، ربما إلى العنصر السحري الخارق الذي كثيرا ما يميل إليه الإنسان[2].

في عام 1831 نشر "دوكاترومير" DE QUATREMERE ترجمة لمخطوط عربي وجده في المكتبة الإمبراطورية بباريس، ويتضمن موجزا طوبوغرافيا وتاريخيا لإفريقيا الشمالية، ألفه أبو عبيد البكري الأندلسي عام 1068 م. وكان البكري يتمتع بشهرة كبيرة في أوساط مسلمي شمال إفريقيا، وقد وفر بتأليفه هذا للمؤرخين والجغرافيين معلومات تمتاز بالدقة والأهمية.

---

(1) ـــ تعرض "دو سلان" مطولا في المقدمة إلى النص العربي للجغرافي البكري .وسيجد القارئ موجزا لسيرة البكري المولود في عائلة شهيرة حوالي 1028م، ضمن الصفحتين: 341 و456 من هذا البحث. — انظر أيضا:

- DE SLANE, Trad., "Description de l'Afrique Septentrionale par El-Bekri " , J.A., 5 me série, T : 12, 1858, P : 413.

(2) - BARGES, "Tradition musulmane...", J. A., 1843, **op. Cité**, P : 73.

وقد مكنت ترجمة "دوكاترومير" لنص البكري من اطلاع "أوروبا العالمة" على أهمية هذا الكتاب العربي بالرغم من عيوبه الكثيرة[1]، كالأخطاء التي يعثر عليها في كل صفحة والتي لم ينتبه إليها "دوكاترومير"، أخطاء تستأهل التصحيح ومسائل تحتاج إلى توضيح، كل ذلك مرده إلى اعتماده على نسخة واحدة.

أما مخطوط باريس من نفس الكتاب فمكتوب بخط قديم وجميل، ومجرد من الحركات (الشكل) حتى الضروري منها، وأسماء الأماكن والأعلام البربرية التي يصعب فكها في أغلب الأحيان، إلا إذا كان القارئ متعودا عليها مسبقا.

وقد أعاب بعض المستشرقين على "دوكاترومير" نتائج عمله، من ذلك أن عددا كبيرا من الكلمات بقيت غير مقروءة، وبالرغم من أن السبب في ذلك يعود إلى الناسخ العربي، كان من الممكن إصلاح هذه العيوب بالاستنجاد بنسخة أخرى من المخطوط، إضافة إلى معرفة أحوال إفريقيا الشمالية، مما كان متوفرا في فرنسا نفسها حين كان المستشرق البارز "دوكاترومير" يضع اللمسات الأخيرة على ترجمته للكتاب(2).

فمن المجازفة القيام بمحاولة ترجمة كتاب عربي اعتمادا على مخطوط واحد، إلا في حالة ما إذا كان المخطوط منسوخا أو مصححا من المؤلف نفسه، واعتمادا على هذا المبدأ قام "دوسلان" بمقارنة بين أربع نسخ من مؤلف البكري مما مكنه من تحسين النص وذلك بإبعاد كل نقص أو فجوة، وتصحيح الكثير من الأخطاء، ثم قدم الترجمة للجمعية الآسيوية الفرنسية لتصدره في مجلتها الآسيوية.

ولعل مقارنة ترجمة "دوكاترومير" بترجمة "دوسلان" تثبت أن ترجمة هذا الأخير أكثر توسعا وأكثر دقة، لأن "دوسلان" استفاد في ترجمته لكتاب البكري بجملة من العوامل منها حيازته أعمالا واسعة وشاملة، وتمكنه من تسهيلات تلقاها أثناء إقامته بالجزائر فضبط أسماء الأعلام والكلمات البربرية، كما استفاد أيضا من عمل "دوكاترومير" الذي سبقه به فحافظ على عدد من المقتطفات التي بفضلها قدم النص

---

(1) - DE SLANE, "Description de l'Afrique", J. A., **op. Cité**, 1858, P : 412.

(2) ـــ **نفس المصدر السابق**، ص: 413

العربي في حالة وضوح كاملة، فيما وجدنا "دوكاترومير" لم يفهم بعض المقتطفات بالرغم من وضوحها[1].

ومن الممكن أن لا يكون هناك كتاب تاريخ استرعى اهتمام وفضول وتقدير مستشرقي الجمعية الآسيوية الفرنسية وكتّاب مجلتها وكذلك الساسة في فرنسا على حد سواء كمقدمة ابن خلدون وكتابه العبر، فقد ظل يسترعي الاهتمام طوال الفترة التي تعنينا، ولم يهدأ للمستشرقين والساسة بال حتى رأوه في الستينيات وقد نشر نصه العربي كاملا، وترجم إلى الفرنسية كاملا أيضا، فضلا عن الكثير من المقالات التي تعرضت له بالتحليل والنقد سواء من حيث النص العربي أم الترجمة الفرنسية، أم المحتوى، وسواء كفكر أو كمنهجية. وكان "دوساسي" من أوائل من عرف ببعض فصول الكتاب نشرا وترجمة(2).

يعتبر ابن خلدون أكبر المؤرخين العرب في نظر المستشرقين الفرنسيين، الذين اهتموا به كما أسلفنا[3]، عاش في زمن تجاوزت فيه الحضارة الإسلامية أوجها وأنتجت ما عليها، وقد اتجه ابن خلدون نحو عمق هذه الحضارة واشتغل فيه، فهو لا يعرف من التاريخ القديم سوى كتب أرسطو التي كانت قد ترجمت إلى العربية، كما لا يعرف من أوروبا المعاصرة إلا ما تعلّمه من الاحتكاك بمسيحيي أسبانيا، وكان شيئا قليلا، ولكنه درس كل علوم العرب وعرف بعمق تاريخ الإمبراطوريات الإسلامية. وتعلم من حياته التي اتسمت بكثير من الاضطراب، وكان يتسم بعقل فلسفي في جوهره، ودقة الملاحظة، فهو من جنس "أرسطو" و"مونتيسكيو"، لا بل أدنى من أرسطو بكثير، على ما يذهب إليه "مول". ولكي يملأ ابن خلدون فراغه عندما اضطر إلى الإقامة في قلعة بني سلامة، شرع في كتابة تاريخ عالمي تتقدمه فلسفة في التاريخ تحت عنوان: المقدمة، وكان يهدف من ورائها إلى إعطاء قرائه أسباب وقوانين الوقائع التي

---

(1) - نفس المصدر، ص: 414.

(2) - Reinhardt DOZY, "Prolégomènes d'Ibn khaldoun, texte arabe publié D'après les manuscrits de la bibliothèque impériale par QUATREMERE, Examen de texte et trad., **J. A.**, 6 me série, T : 14, 1869, P : 133.

(3) - Rapport annuel du 30/ 06/ 1863, **J. A.**, 6 me série, T : 2, 1863, P : 46

سيجد لها تفصيلا في تاريخه الطويل، وتاريخ البربر لابن خلدون هو أحـــد أروع الكتب التي وضعتها الآداب الشرقية بين أيدي العلماء والدارسين[1].

يعود الفضل إذن في امتلاك المستشرقين لنص وترجمة المقدمـــة لابـــن خلـــدون، لاسيما إلى حماسة عضوين من أعضاء الهيئة العلمية "لأكاديمية النقوش" وهما "كاترومير" و"دوسلان"[2].

يقدر "دوزي" DOZY العلم الواسع والسحر المعـــرفي الخـــارق لعـــالم شـــهير "كدوكاترومير"، العلم الذي كان يبثه في رحلاته، ولاسيما تعليقاته التي أرفقها تـــاريخ السلاطين المماليك، لكنه يتأسف فيما يتعلق بنشر "دوكاترومير" لمقدمة ابن خلـــدون، فهو لم يستجب بما فيه الكفاية للطموحات التي وضعت فيه، وهو لم ينجز العمل بعناية كافية، بالرغم من حيازته أربعة مخطوطات، واحد منها يملكه شخصيا، والثلاثة الباقيـــة ملك المكتبة الإمبراطورية، قام "دوكاترومير" بطبع واحد مع تغييرات طفيفة، واقتـــصر على العودة -بين الحين والآخر- إلى النسخ الأخرى، يضاف إلى ذلك أن النص كـــان حافلا بالأخطاء والتفسيرات المعكوسة في نظر "دوزي".

وكانت طبعة "دوكاترومير" رديئة أيضا، ومليئة بالأخطاء المطبعية وهي أحيانـــا فادحة، مع سقوط أسطر وتكرار أخرى، كما أن الأخطاء الإملائية كـــثيرة ومـــشوهة للطبعة.

وإذا كان من تفسير لجل لهذه النقائص، فإن بعضها يعود إلى أنه عمل شـــيخوخة وبعضها الآخر لأن النص طبع في إحدى المطابع الباريسية التي لم تكن مهيأة لطبع كتب شرقية بهذه الضخامة، هذا فضلا عن عدم تـــوفر مـــصحح خـــاص، وقـــد تفـــادى "دوكـــاترومير" مطبعـــة الإمبراطوريـــة لمـــضايقات صـــدرت مـــن "والكـــنير" WALCKENAER إلى بيت الأكاديمية[3]. كان على "دوكاترومير" أن يضيف ترجمة

---

(1) - نفس المصدر السابق، ص: 46.

(2) - DOZY, "Prolégomènes", J. A., 1869, **op. Cité**, P : 133.

(3) - نفس المصدر السابق، ص: 134.

كاملة وشرحا وتعليقا، لكن وفاته أتت لتوقف إنجاز المشروع، فما كان من "أكاديمية النقوش" إلا أن أسندت المهمة إلى "دوسلان" وكانت مهمة جد صعبة.

وكانت حكومة "بيومونتي"Piémontais قد بدأت -في مطلع الأربعينيات- طبعة لكتاب العبر، الجزء المتعلق بالتاريخ القديم، بواسطة "آري" ARRI فلما توفي هذا الأخير كُلف "دوسلان" أيضا من قبل وزير الحرب بإعداد طبعة لتاريخ الإمارات البربرية بافريقية المنوّه بها، ضمن كتاب العلامة ابن خلدون.

وقد ألزم "دوسلان" نفسه بواجب القراءة المتمعنة لكتابات المؤرخين والرحالة العرب، قصد جمع معلومات عن الحالة السياسية والجغرافية لمناطق موريتانيا القديمة والسودان...الخ. وكان من الممكن أن لا يعثر على عالم طويل الباع في أسلوب خاص كأسلوب ابن خلدون، ولكتاب هام لمؤلف شهير ومؤرخ فحل(1).

كان يجب من أجل ترجمة المقدمة، توفير عالم يجمع إلى جانب عمق نادر، معارف واسعة ومتنوعة، غير أن "أكاديمية النقوش" كانت محظوظة بوجود واختيار "دوسلان" للقيام بهذا العمل، وكان من الممكن أيضا أن تبحث الأكاديمية بلا جدوى في كل أوربا عن عالم نظيف نظافة "دوسلان" لخوض عمل مضن كهذا[2].

والحق أن الذي رشح "دوسلان" إلى هذه المهمة هي جهوده في نشر وترجمة مجموعة كتب عربية هامة، وكان يجمع إلى صفاء العقل علما واسعا متينا، فضلا عن أنه متعود على تخطي الصعاب بقوة صبره ونباهته، وقد تمرس فضلا عن ذلك على أسلوب ابن خلدون الخاص بنشره وترجمته لتاريخ البربر، لأجل هذا كله استحقت ترجمته للمقدمة كل الثناء، فهو عمل رائع يمتاز بالدقة والصدق، وعلى هذا الحكم يلتقي جل المستشرقين[3].

لعل أبرز من تعرض للمقدمة وكتاب العبر بالنقد من الداخل هو "دوسلان"، أما الذين تعرضوا لنشر النص والترجمة ومن خلالها للمحتوى فهما "دوزي" و"مول".

---

(1) - DE SLANE, trad., "Voyage dans le Soudan, par Ibn-Batouta", **J. A., 4^{me}** série, T : 1, 1843, P : 181.

(2) - Rapport annuel du 29/ 06/ 1858, **J. A.**, 5 ^{me} série, T : 12, 1858, P : 34.

(3) - DE SLANE, trad., "voyage dans le Soudan "., J. A. 1843, **op. Cité**, P : 135.

يذكر "دوزي" أنه كلما درس العمل كلما أحب شجاعة العالم الأكاديمي "دوسلان"، ومعرفته العميقة للعربية وصواب نظرته، ومع ذلك، كان على "دوسلان" أن يبذل الكثير من أجل ترجمة مقاطع صعبة من المخطوطات كثيرة الأغلاط، ومع ذلك فإنه بفضل جهود "دوسلان" اكتسب المستشرقون وغير المستشرقين نصا أفضل[1].

أعجب "دوزي" إذن بعمل "دوسلان"، لأنه رائع -في رأيه- وقد تعلم منه الكثير، وفهم عنه مقاطع لم يكن ليفهمها بدونه، ولذلك فهو يعترف بأنه من النادر وجود كتاب صعب أتقنت ترجمته كمقدمة ابن خلدون، فالأمر يتعلق بأحد أصعب كتب الثقافة العربية. كتاب ألف بلغة خاصة، لغة أبعد ما تكون عن اللغة الأدبية، يصعب فهمها، حتى أن قواميس اللغة ليس بوسعها أن تنجد من يلجأ إليها إلا قليلا، إنه كتاب يتألف من ثلاثة مجلدات ومترجم ترجمة ممتازة.

لم يكن يدخل في مخطط هذا البحث إعطاء مجال للاعتبارات الفلسفية عن تاريخ وحضارة المسلمين، وأقل منها إعطاء مميزاتها والحكم عليها لأن "دوزي" من خلال "دوسلان" كان ما يزال يشك في أن الوقت قد حان -آنئذ- للقيام بعمل من هذا النوع.

ذلك أن تذوق مقدمة ابن خلدون، لهو تذوق للحضارة الإسلامية، حضارة العصور الوسطى بكل ما تحمل من جيد ورديئ، ومن عظيم ومتواضع، ومن مبادئ صحيحة وأفكار خاطئة، إنها بكلمة موجزة الشروع في عمل هو فوق طاقة المستشرقين - وقتئذ- نظرا لإمكانياتهم المادية ومعارفهم العلمية المحدودة[2].

وهكذا كان مستشرقو الجمعية والمجلة في اعتراض دائم بعضهم على بعض إثراء للمجهود المشترك ألا وهو ترقية الاستشراق الفرنسي ضمن الاستشراق الأوربي العام.

إن استمرار الجمعية وتطورها وديمومة صدور مجلتها لا يعني أنها كانت محظوظة ولكنها كانت تصارع كجمعية حرة في خضم الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أوربا على العموم وفرنسا بوجه خاص، وكان لهذه الأوضاع

---

(1) - DOZY, "Prolégomènes", J. A., 1869, **op. Cité**, P : 218.

(2) - DE SLANE, trad., "Voyage dans le Soudan", J. A. 1843, **op. Cité**, P : 137-138.

انعكاسات على العلم والدراسات الاستشراقية على حد سواء، وهناك مناسبات أثــرت على المؤسسة تأثيرا شديدا كما حدث أثناء ثورة 1848 التي سنخصها بالــذكر علــى سبيل المثال لا الحصر.

كانت سنة 1848- 1849، سنة شؤم على الآداب، ذلك أن البؤس الذي ســاد أوربا عامة، وضجيج الساحات العامة، والاهتمام بالأخطار التي ألمت بالمجتمع المــدني، كل ذلك عرقل سير العلوم وتقدمها، و لم تستثن آداب الشرق من المصائب التي ألمــت بكل الأعمال الفكرية والعقلية، وهو ما انعكس سلبا على عدد من مؤلفات الشرق التي صدرت خلال السنة المذكورة والتي تضاءل عددها مقارنة بالسنتين الفارطتين، والكثير من مشاريع الطبع التي انطلقت تم إلغاؤها، وأخرى برمجت لم تنطلق، لولا أن الدفعة التي تلقتها هذه الدراسات منذ سنين خلت كانت كبيرة. وبالرغم من الوقت العصيب الذي مر بالجمعية والمجلة فإنه لم ينل من تقدمها، واستمرت آداب الــشرق تقــدم إنجازاتهــا بافتخار[1].

ومع الخمسينيات تواصلت الجهود، لكن وسط ظروف بدأت تمــارس تأثيرهــا الشديد على مستقبل الدراسات الاستشراقية، دون أن يترك هــذا التــأثير المتــصاعد بصمات جلية في سنواته الأولى، ولكن كلما تقدم الزمن صار المستشرقون كغيرهم من المثقفين يتألمون من مرض عام، هو مرض تبلد الأذهان في أوربا، والولوع بالمنافع المادية التي تستهلك الحماسة والسخاء اللذين بدونهما تنحط دراسة العلوم.

وقد عبر "مول" عن هذه الأفكار باسم أعضاء الجمعية في الجلسة السنوية العامــة، وتمنى أن ترى ببصيرة تضاؤل احترام العلوم ولا مبالاة الجمهور، مما سيكون له أثره على روح الشباب، واندفاعه تجاه الأعمال الجليلة(2). وقد تمنى "مول" أن تكون الأزمــة عابرة وفي كل الأحوال فإن الدراسات الاستشراقية تملك معينا قويا في الوضع العــالمي العام حينئذ[3]، ولا شك أن هذه الملاحظات تعبر بصدق عن المنحى الــذي بــدأت

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1849, **op. Cité**, P : 11-12.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1856, **op. Cité**, P : 11.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 12.

تأخذه التحولات الفكرية والذهنية في أوربا مع نهاية الجيل الذي نحن بـــصدده، جيـــل مستشرقي الجمعية والمجلة على الأقل، وتحوله من العلم والفكر إلى المظاهر والأمجاد.

3 – الجمعية والمجلة الآسيويتان:

عاشت فرنسا عصر عودة النظام الملكي[1] (La Restauration) أو إعادته، منذ عام 1814 إلى ثورة 1830، فعرفت بذلك حركة ثقافية هزت العقول وأثارت الخواطر، وكان البحث جاريا بحماسة شديدة عن كل ما من شأنه أن يوسع ميدان الآداب ويساعد على إضفاء شكل جديد تهيأت لتلبسه الفلسفة والتاريخ والأدب.

فبعد زمن من الاضطهاد والجور والظلم، حلت إرادة تدفع نحو اكتشافات في مسالك وطرق جديدة، ويحدوها الأمل في العثور على كنوز في كل ما هو مجهول في العصور القديمة والوسطى، وكانت الآداب بما فيها الأجنبية، موضوع اهتمام ودراسة جادة(2).

وشارك الاستشراق الفرنسي في الدراسات الأدبية مشاركة طبيعية، وحظي باهتمام وكان أكثر المواضيع غموضا، سواء في أصوله القديمة أم في أشكاله المتنوعة، أم في صعوبة منافذه، وعوض أن تكون هذه العوامل منفرة منه، جعلته أكثر المواضيع إثارة للفضول، فأضحى جذابا وذا فائدة.

وكان المستشرقون يلمحون، لا بل يدركون غموض المشكلات التاريخية الكبرى، ولكنهم كانوا في آن واحد على يقين أنهم سيعثرون على أصول الفلسفة والأديان ومصادر تاريخ نصف النوع البشري. كان أملهم أن يعيدوا للأدب شبابه(3)،

---

(1) – **عودة النظام الملكي** في التاريخ الفرنسي تعني عودة أسرة البوربون إلى الحكم، إثر استقالة نابليون بونابرت، وارتقاء لويس 18 العرش عام 1814. وقد يطلق هذا التعبير على كامل الفترة الممتدة من عام 1814 إلى ثورة عام 1830 وبذلك يشمل عهد لويس 18 وعهد شارل 10 مجتمعين باستثناء فترة الأيام المائة التي عاد نابليون إلى التربع، خلالها، على العرش الفرنسي وذلك من 20 مارس إلى 28 يونيو 1815.

ـــ منير البعلبكي، **موسوعة المورد**، ج 8، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.

(2) – Rapport du 3/07/1850, **J.A.**, 4^{em} série, T : 16, 1850, P : 126.

(3) – **نفس المصدر السابق**، ص: 127

لاسيما في زمن يتسم بطابع الرومانسية[1].

ذلك هو المحيط العلمي العام الذي نشأت فيه الجمعية الآسيوية الفرنسية.

ولقد كانت أعمال المستشرقين مقسمة على أفراد، ودراستهم تتعلق بمختلف شعوب الشرق، وكان هناك ربط طبيعي يربط المعارف بعضها ببعض، وكان المستشرقون في أمس الحاجة إلى تنوير بعضهم، الأمر الذي دفعهم بالضرورة إلى البحث عن إطار يجمعهم ومؤسسة تتصف بتلك الشمولية والعالمية للدراسات، مما لم يعد بوسع الفرد المعزول تحقيقه، فأضحى تأسيس جمعية تقوم بهذه المهمة وتشجع الدراسات الرصينة، وتقوم على التطوع، خدمة للعلم (2)، غاية في ذاتها.

يعتبر الكونت "دولاستيري" [3] DE LASTEYRIE الفرنسي، أول من استعجل إنشاء جمعية آسيوية حرة، فاقترح عام 1821، على "ريموزا" REMUSAT و"سان

---

(1) - **الرومانسية أو الرومانتيكية**: هي حركة أدبية وفنية وفلسفية، نشأت في أواخر القرن 18 واستمرت حتى منتصف القرن 19م بوصفها رد فعل على الكلاسيكية المحدثة Néoclassicisme، التي هي إحياء للجماليات والأشكال الكلاسيكية في الفن والموسيقى والأدب ويطلق التعبير بخاصة على المحاولات التي عرفتها أوربا، في هذا الميدان، خلال القرنين 17 و 18 للميلاد، حين اكتسبت آثار الإغريق والرومان الأدبية والفنية أهمية جديدة وأخذ الأدباء والفنانون ينسجون في إنتاجهم على منوال القدامى، محاولين التزام الوضوح والبساطة والتناسب والعقلانية والسيطرة على العواطف، وكلها سمات تميز بها الفن الكلاسيكي. ويعد "كورناي" Corneille و"راسين" Racine و"موليير" Molière أبرز ممثلي "الكلاسيكية المحدثة" في الأدب. تدعى أيضا: الكلاسيكية.

وقد **تميزت الرومانسية** بالتأكيد على الخيال والعاطفة، وبالترعة إلى تصوير الخبرات الذاتية وتمجيد الإنسان العادي وبحب عارم للطبيعة الخارجية وميل إلى الكآبة. ولعل "روسو" كان أبرز من مثل روح الثورة على عالم الكلاسيكية المحدثة، وذلك بشجبه شرور المدنية وتعظيمه للطبيعة البشرية خاصة. ومن أشهر ممثلي الرومانسية في الشعر في فرنسا "هيغو" Hugo و"لامارتين" Lamartine و"موسي" Musset ، ومن أبرز ممثليها في الرسم "دولاكروا". وفي الموسيقى"برليوز" (11803- 1869) Berlioz الفرنسي و"بتهوفن" (1770- 1827) Beethoven الألماني.

- موسوعة المورد، ج 7 + 8، **مصدر سابق**.

(2) -Rapport du Conseil de la séance du 10/07/1844, **J.A**, 4^em série, T : 4, 1844, P :12.-

(3) - "شارل فيليبرت **كونت دولاستيري**" ولد "ببريف" في 4/ 11 / 1759 وتوفي بباريس في 3 / 11/ 1849. صحفي، مهندس زراعي وإنساني فرنسي. سافر طويلا بغرض دراسة الاقتصاد الزراعي. أنشا في عهد حكومة القنصلية جمعية في صالح العلماء ورجال الأدب، حلتها شرطة نابليون. وابتداء من 1812 عمل على الترويج لصناعة الطباعة الحجرية الناشأة في فرنسا. وقد تميز في النصف الثاني من حياته أحد المؤسسين وأعضاء الجمعيات الأكثر نشاطا "كالجمعية الإنسانية" و"الجمعية المركزية للمزارعين" و"الجمعية الآسيوية" وغيرها....

مارتان" SAINT- MARTIN وبعض الأصدقاء ضرورة إنشائها.

وَفِهَم هؤلاء الرجال الفطاحل[1] أبعاد المخطط، فـدأبوا علـى تنفيـذه(2)، واتصلوا بـ "دوساسي" DE SACY، الذي كانت تخصه أوربا منذ مـدة بالمكانـة الأولى بين المستشرقين، والتمسوا تعاونه، و لم يكن "دوساسي" يؤمن كثيرا باسـتمرارية الجمعيات الحرة، ومع ذلك فهو لم يبخل عليهم بوقته ولا تأثير اسمه على مؤسسة يمكن أن تكون مفيدة لدراسات استشراقية صنعت شهرته، فما كان منه إلا أن قبل رئاسـة الجمعية وأكب على خدمتها.

يعود تأسيس الجمعية إلى الفاتح من أفريل 1822(3)، إثر اجتماع فريـد مـن نوعه لبعض العلماء، حّول باريس إلى مركز ذائع الصيت للدراسات الاستشراقية، ولقي تأييدا واسعا من كل المثقفين ومن يحتلون مكانة رفيعة في المجتمع الفرنسي — رغم بعض السخط الذي أبدته الحكومة- (4) سيما أولئك الذين اهتموا باللغات الآسـيوية أو الذين اتخذوها موضوعا لدراساتهم، وكذا محبو الإطلاع الذين لم يكونوا هم أنفـسهم مهتمين باللغات الآسيوية(5).

وباختصار فإن الإطلاع على قوائم أعضاء الجمعية الآسيوية عند تأسيسها يثبـت احتواءها أسماء أكثر شهرة في السياسة وفي الآداب(6).

وقد بحثت الجمعية فضلا عن ذلك، منذ ولادتها، عن سند وحماية أمير أو نبيـل تميز بحبه للعلوم، فوجدته في "الدوق دورليـون"[7] Le DUC D'ORLEAN الـذي

- La Grande Encyclopédie, T : 21, **op. Cité.**

[1] - انظر **الفصل الثاني**.

[2] - Rapport annuel, J.A, 1842, **op. Cité**, P : 476.

[3] - **نفس المصدر السابق**، ص : 477.

[4] - Rapport annuel, J. A, 1862, **op. Cité**, P : 10.

[5] - Rapport annuel , J. A., 1850, **op. Cité**, P : 126.

[6] - **نفس المصدر السابق**، ص: 127.

[7] - "فرديناند **الدوق دورليون**" من مواليد باليرم في 3/ 10/ 1810. هو الابن الأكبر للويس فيليب. نقيب في الجيش الفرنسي منذ 1825. وقد عمل في الجزائر ابتداء من 1835، أين ساهم في احتلال معسكر وغيرها. أنشأ عام 1836 فيلق قناصة دورليون. توفي في حادث سير بنويي على نهر السين في 13/ 7/ 1842.

- Dictionnaire Encyclopédique d'Histoire, **op. Cité.**

وافق بشغف على تقلد الرئاسة الشرفية. وقد ذكر أن جده قام بتأسيس جمعية قصد تقدم وترقية الآداب الشرقية، ومد "الدوق دور ليون" يد العون للجمعية بعطاياه وثقل اسمه، فكان يرغب في المساهمة الشخصية في أعمال الجمعية، وترأس العديد من جلساتها(1).

وكان يحق لكل من له مساهمة وتأثير في الآداب، المشاركة العضوية في الجمعية أو المساهمة في أشغالها سواء من داخل فرنسا أم خارجها(2)، ويكفي لمن يرغب في المساهمة أو العضوية أن يزكيه أحد أعضاء الجمعية في جلسة من جلساتها.

وقد تضاعف عدد أعضائها منذ العام الأول إلى درجة أن مستقبلها أضحى مضمونا (3)، و لم تكن في فرنسا –وقتئذ- أية تجربة مما يمكن أن ينتظر من جمعية إستشراقية علمية حرة(4).

ولكن شيئا فشيئا بدأت الحماسة الشديدة تقل، عندما استحوذت حمى السياسة أكثر فأكثر على أوربا وتركتها أقل اهتماما بالأعمال الفكرية والعقلية، وكانت ثورة 1830 امتحانا للجمعية الآسيوية الفرنسية إذ خرجت منها سالمة وكان من الممكن أن تكون قاتلة لها، فقد اختفى فجأة رجال السياسة من قوائم أعضائها، وأما من بقي منهم أوفياء لها فلحبهم الصادق للعلم الذي لم يعد بوسع موجة الميل إلى السياسة –بدل العلم- إخفاءه، ومع ذلك صمدت الجمعية في وجه العاصفة(5).

وقد عرفت دراسة الآداب الشرقية تطورا سريعا، بعد ذلك، ربما كانت أقل مما يرضي أولئك الذين لا يطالبون إلا بالإنتاج، ولكن بلا مضاهاة، فهي أسرع وأرسخ من أي عهد مضى، إذ كانت الدراسات تنمو في عمقها والمناهج تتحسن، وبلغ مستشرقو الجمعية الآسيوية الفرنسية دقة لم يعهدوها من قبل، فالنحو المقارن (La Grammaire

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1842, **op. Cité**, P : 476.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 477.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 478.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1862, **op. Cité**, P : 10.

(5) - Rapport annuel, J. A., 1850, **op. Cité**, P : 127.

Compar) كان يشهد عهد الولادة. ومن ناحية أخرى نشأ علم الاشتقاق الـــذي لم يكن من قبل، في نظر المستشرقين، سوى سراب خادع، وظهرت أيضا الاكتـــشافات التاريخية الأكثر يقينا وأهمية، وشعر المستشرقون بقربهم من حل مشكلات بدت من قبل غير قابلة للحل، فجمعوا الوثائق الأكثر تفصيلا وأصالة وصدقا لتاريخ بـــلاد الـــشرق، فتضاعفت وسائل الدراسة، وحلت محل التخمينات، الوقائع والأحداث الـــتي أبهـــرت أذكى العقول.

وساهمت الحياة العلمية للمستشرقين في تنشيط عدد كبير من الرجال والـــشباب الذين نذروا أنفسهم –رغم كل العقبات– لخدمة الدراسات الشرقية، فأسسوا في كـــل مكان جمعيات آسيوية للتعاون على هذه الأعمال، وكانت الجمعية الآسيوية الفرنـــسية رائدة الجمعيات الآسيوية الأخرى في الحركة الاستشراقية العامة بأوربا(1).

هكذا إذن، لم توجد الجمعية الآسيوية الفرنسية إلا بالمنافسة الحرة لأعضائها، و لم يكن من وراء المنافسة –على زعم أعضاء الجمعية– سوى خدمة العلم(2).

وكانت الجمعيات الآسيوية الأوربية الأخرى، تحمل نفـــس مقـــصد الجمعيـــة الآسيوية الفرنسية المتمثل في التعرف على الشرق. والحق أن رجالها دأبوا على أعمالهم، كل وفق الخط الذي تقتضيه المصالح والاتجاهات المختلفة للدول التي تعمل فيهـــا(3)، وهو ما قد يدفعنا إلى الطعن في نوع الحرية والعلم المزعومين على حد سواء(4).

و لم يكن في نية الجمعية الآسيوية الفرنسية –حسب ما صرح بـــه أعـــضاؤها– وضع نفسها في منافسة أو سباق مع مؤسسات أخرى علمية حرة في فرنسا وأوربـــا! ولكن هدف الجمعية الفرنسية كان فقط، لغاية تسهيل النشر الذي لـــيس بوســـع أي مستشرق أن يقوم به دون مساعدة جمعية.

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص: 128.

(2) – - Rapport annuel, J. A, 1842, **op. Cité**, P : 474.

(3) – - Rapport annuel , J. A., 1864, **op. Cité**, P : 32.

(4) – سيأتي تفنيد هذا الزعم في **الفصل الثاني** المبحث الثالث وفي غيره.

ولا بأس أن ندلل على مسألة المنافسة والنشر بأمثلة ، فقـد عـدلت الجمعيـة الفرنسية عن نشر نص "الماوردي" لما علمـت أن المسـتشرق الإنجليـزي "أونجـير" ENGERS مهتم به(1)، كما علقت "منتخبات الجمعية الآسيوية الفرنـسية" طبـع سيرة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ لابن هشام لأن عالما ألمانيا "محترما" ومعروفا بنشره لمؤلفات عربية، فاتح الجمعية برغبته في نشر نص الكتاب. ونفس المجاملة الـتي أبـداها أعضاء الجمعية الفرنسية تجاه جمعيات أخرى، أبداها تجاههم المسـتشرق الألمـاني "لي" LEES الذي لم يقتصر فقط على التخلي عن طبعه لمروج الذهب للمسعودي بعد عزمه على نشره حين علم بنوايا الجمعية الآسيوية الفرنسية في نشر طبعة، بل زود الجمعيـة بالمخطوط الذي كان يشكل أساسا لعمله.

وهكذا، فمن بين خمسة مؤلفات اعتزمت الجمعية نشرها، حدث تنافس حول أربعة منها، وهو أمر غريب حين نفكر في كثرة ما تعرضه آداب الشرق من أعمـال، وفي العدد المحدود من العلماء المهتمين بها، لكن يمكن أن نقتنع بسهولة، أن في طبيعـة الأمور ونتيجة لنفس المبدأ، تمت كل الاكتشافات المتتالية من طـرف شخـصين أو ثلاثة(2).

مرت الجمعية منذ تأسيسها بأكبر المخاطر، فقد وافت المنية في آن واحد عضوين من أعضائها هما: "ري موزا" و"سان مارتان"، الوفاة التي جازفت لمدة بوجود مؤسسة برمتها، لولا قيام "دو ساسي" بمهامه بكل تفان وإخلاص(3)، وبحلول ثـورة 1830 كانت الجمعية الفرنسية قد حرمت من نصف أعضائها بمـوت الـبعض وانـسحاب آخرين، كما أسلفنا، ولكنها اجتذبت إلى صفوفها جمعا من جيل الشباب(4).

ثم اختطفت منها المنية أيضا أكثر أعضائها المؤسسين شهرة، ففقدت خلال سنين قليلـة "دو ساسـي" و"شـامبوليون" CHAMPOLLION و"شـيزي" CHEZY

---

(1) – Rapport annuel, J. A., 1857, **op. Cité**, P : 14.

(2) – Rapport annuel, J. A., 1864, **op. Cité**, P : 32.

(3) – Rapport annuel, J. A., 1842, **op. Cité**, P : 476.

(4) – **نفس المصدر السابق**، ص: 478.

و"كلابروث" CLAPROTH، لكنها استطاعت أن تصمد أمام هذه الخسائر البشرية التي لا تعوض، كما أنها أفلتت من أكبر ما كان يمكن أن يهدد مؤسسة كالجمعية الآسيوية الفرنسية، وهي الانشقاقات والاختلافات الداخلية، وهنا لا بد أن نقول بأن تلك الصعوبات لم تجعل المؤسسة تحيد أو تتحول عن الهدف، ولم تتوقف عن المضي في المخطط الذي رسمته لنفسها منذ البداية(1)!

انطلق تأسيس الجمعيات الآسيوية من أوربا، وكانت فرنسا رائدة في هذا المجال – كما أسلفنا– بتأسيسها للمجلة الآسيوية عام 1822، وكان عقد الأربعينيات أكثر العقود خصوبة، إذ سجل ميلاد نحو سبع عشرة جمعية موزعة على أوربا وآسيا من مجموع الخمسة والعشرين التي أنشئت حتى نهاية الخمسينيات، وكانت انجلترا أكثر حظا من غيرها، إذ أغلب الجمعيات كانت تابعة لها بطريقة أو بأخرى(2).

امتازت الجمعيات الآسيوية عن بعضها البعض بالمجال الجغرافي أو ميدان الاختصاص، ومن الجمعيات ما كان يشكل أيضا نقطة التقاء لمستشرقين واقتناء مؤلفات شرقية(3)، ومنها ما استغل في الحفريات لإمداد المتاحف بالقطع الأثرية(4).

ومن الجمعيات ما أسس لاستكشاف أرض حدثت فيها وقائع، وهي غنية بالذكريات والفوائد الكفيلة بأن يوجه نحوها الفضول العلمي لكل أولئك الذين يراقبون الحفريات –لحاجة في نفوسهم– كالجمعية الشرقية التي تأسست في القدس في نهاية

---

(1) – **نفس المصدر**، ص: 478.

(2) – هناك جمعية كالكوتا وتصدر أعمالا علمية لموظفين مدنيين وعسكريين لشركة الهند.

– أنظر: - Rapport annuel, J. A, 1844, **op. Cité**, P : 18.

وهناك أيضا جمعية مدراس بالهند وبومباي، والجمعية الآسيوية بلندن أنظر:

– **نفس المصدر السابق**، ص: 17-18.

وكذلك: جمعية العلوم والفنون لبتافيا (اندونيسيا)، والجمعية الأثرية لدلهي.

أنظر: - Rapport annuel du 14/06/1847, **J. A**, 4 eme série, T : 10, 1847, P : 17.

(3) – وكالجمعية الآسيوية الألمانية "بليبزيق" (Leipzig) وأخرى"دريسد" (Dresde)،

– أنظر: **نفس المصدر السابق**، ص: 18، وكذلك:

- Rapport annuel, J. A, 1853, **op. Cité**, P : 115.

(4) – كالجمعية الآسيوية لاستغلال ما بين النهرين التي تأسست في انجلترا وكان من وراء أحداثها الاكتشافات الأشورية القديمة التي بدأها "بوتا"Botta . أنظر:

– Rapport du 12/03/1854, **J. A**, 5eme série, T : 4, 1854, P : 19 – 20.

الأربعينيات بمبادرة من قنصل انجلترا "فين" FINN لاستكشاف فلسطين القديمة والحديثة(1).

وكان من وراء إحداث هذه الجمعية، الاكتشافات التي أعلن عنها "دوسولاي" DE SAULEY في رحلته إلى فلسطين(2). ويؤازر جمعية القدس هذه، جمعيات سابقة تعمل لنفس الهدف كالجمعية السورية–المصرية بلندن، والجمعيتين الأدبيتين ببيروت(3)، وأخرى لاحقة كالجمعية التي تأسست في انجلترا عام 1854 والتي حددت لنفسها غاية وهي استكشاف فلسطين باعتمادات مالية تأتي عن طريق التبرعات أو قيمة الاستكتاب، وكانت نية الذين أسسوها، وضع نتائج حفرياتهم واكتشافاتهم في المتحف البريطاني(4).

ومن الجمعيات ما تخصص في دراسة العهد القديم ومعتقدات الشعوب والآداب الآسيوية، كجمعية بوسطن الاستشراقية(5) ومنها ما اختص في نشر مؤلفات أطباء العرب(6) أو دراسات عرقية(7)، أو دراسة رقعة جغرافية معينة(8) ...الخ.

وهكذا، فقد كانت الجمعيات الآسيوية مع نهاية الخمسينيات تتأسس في قارات أوربا وأمريكا وآسيا -لكن كلها بمرجعية أوربية- ولها في كل مكان أبحاث، كما

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 122.

(2) - Rapport annuel, J. A, 1854, **op. Cité**, P : 19 – 20.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 122.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1854, **op. Cité**, P : 19 – 20.

(5) - بدأت أمريكا الشمالية تدخل أيضا حركة الآداب الآسيوية وتأتي بعدها ألمانيا في الاهتمام بدراسة العهد القديم وكل ما يتعلق به،وكان لأمريكا إرساليات تبشيرية تهتم بلغات وتاريخ ومعتقدات الشعوب التي تعمل على تحسينها، وأنجب الاستشراق الأمريكي في هذه الفترة رجالا انتشروا في مختلف بقاع العالم أمثال "بريدمان" Bridgman بكانتون و"ستيفنس" Stevenson بيومباي و"بيركنس"Perkins بأرومية؟ و"قرانت" Grant بالموصل. أنظر:

- Rapport annuel, J. A., 1844, **op. Cité**, P : 17.

(6) - Rapport annuel du14/06/1847, **J. A**, 4me série, T : 10, 1847, P : 11.

(7) - كالجمعية الاثنية الآسيوية–الأمريكية بباريس، أنظر:

- Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 20.

(8) - كجمعية كولومبو المخصصة لجزيرة سيلان وجمعية كراتشي الخاصة بالسند والبلاد المجاورة والجمعية الجغرافية لبومباي.

- انظر: - Rapport annuel, J. A., 1846, **op. Cité**, P : 16.

- Rapport annuel, J. A., 1849, **op. Cité**, P : 15.

تعرض خدماتها في مجال وسائل نشر الأعمال، حتى المعزولة وتوفر لوازم ووثائق كثيرة للتعرف على الشرق في كل أنحائه، وعوضا عن المعاناة في مجال المنافسة، فقد أكسبوا بعضهم طاقة وتشجيعا(1)، بالمراسلات الأخوية تارة والمعونة المتبادلة تارة أخرى(2).

إن العدد المتزايد للجمعيات الآسيوية لمؤشر جديد على الأهمية التي صارت تثيرها الدراسات الشرقية أكثر فأكثر(3).

ولما كانت الجمعية الآسيوية الفرنسية تمتاز بالسبق في تأسيسها وتراكم خبرتها وريادتها في مجال الدراسات الاستشراقية من حيث الاهتمام وكثافة الإنتاج وتنوعه، فقد ظلت تقيم علاقات وِدٍ مع جل الجمعيات الآسيوية وعلى الوجه الأكمل(4) وتحافظ على هذه العلاقات بتبادل الأعمال(5) والمراسلات والمعونة(6). خذ مثلا التماس الجمعية الفرنسية عام 1843، من "بيد ينقتون" Piddington الكاتب الثاني لجمعية كالكوتا، و"رام كومالسون" Ram-Comalsen التكفل بمصالحها الأدبية بالهند، وقد لبيا طلبها بتكريس وقت لكل ما من شأنه أن يكون مفيدا للجمعية الفرنسية وذلك باهتمام ونشاط، مما جعل أعضاء الجمعية يعترفون بجميلهما(7).

وكانت الجمعية الآسيوية الفرنسية من ناحيتها ترسل مطبوعاتها إلى الجمعيات الآسيوية الأخرى وتغطي احتياجاتهم، كما تعمل على مساعدة الجمعيات الحديثة العهد وتشجعها لاسيما إذا كانت هذه الجمعيات تلتقي معها في بعض مقاصدها، كما هو الشأن – مثلا- مع الجمعيات الأدبية البيروتية(8).

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 95.

(2) - Rapport du 25/06/1866, **J. A**, 6eme série, T : 8, 1866, P : 28.

(3) - Rapport du 17/06/1845, **J. A**, 4eme série, T : 6, 1845, P : 15.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1844, **op. Cité**, P : 17.

(5) - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 20 .

(6) - Rapport annuel, J. A., 1866, **op. Cité**, P : 28.

(7) - Rapport annuel, J. A., 1844, **op. Cité**, P : 17.

(8) - Rapport annuel, J. A., 1847, **op. Cité**, P : 17.

وقبل إنهاء الحديث عن علاقة الجمعية الآسيوية الفرنسية بغيرها من الجمعيات الشرقية الأخرى، لا بد أن نلاحظ أن علاقة الجمعية بمثيلاتها في الجزائر من حيث الاهتمام، يثير تساؤلات عدة، ذلك أننا في الوقت الذي نسجل فيه علاقات الجمعية الوطيدة ببعض المستشرقين النشطين بالجزائر المستعمرة كـ"دوسلان" و"شيربونو" مثلا، فإن تأسيس جمعيات في الجزائر خلال الفترة قابلته الجمعية الآسيوية الفرنسية بصمت مريب، إذ لم تعر الموضوع أدنى اهتمام ولم تعلن عنها بمجرد الإعلان كعادتها في تقاريرها السنوية التي تخص الموضوع بحيز خاص. حدث هذا مع "جمعية قسنطينة الأثرية" عام 1852 و"الجمعية التاريخية الجزائرية" عام 1856، ومجلتها الإفريقية التي لم تشر إليها المجلة الآسيوية حتى بمجرد الإشارة إلا عام 1859[1]، ولعل الأمر متعمد، والسبب في ذلك يعود -ربما- إلى الحزازات وإلى موقف مستشرقي الجمعية في فرنسا من مستشرقي الجزائر لاسيما العسكريون منهم، وسنعود إلى ملابسات هذه المسألة في حينها.

كانت علاقات الجمعية الآسيوية الفرنسية مع غيرها من الجمعيات تتم خاصة في مجال مطبوعاتها -كما أسلفنا- وكان لأغلب الجمعيات السالفة الذكر مطبوعات شهرية أو ثلاثية أو سداسية، أو سنوية، وفي أشكال عدة، كمجموعة أعمال[2]، أو كراسات[3] أو كناشات[4] أو معاملات[5] (Transaction)، أو مجلة على غرار المجلة الآسيوية الفرنسية التي نحن بصددها، أو المجلة الآسيوية القسطنطينية، التي كانت تعمل بتوجيه من "كيرول"[6] CAYROL الذي أخذ المجلة الآسيوية الفرنسية

---

[1] - كانت أول إشارة إلى المجلة الإفريقية (**R.A.**) ضمن هامش العدد :

- **J. A.**, 4 me série, T : 14, 1859, P : 279.

[2] - تصدرها "جمعية الفنون والعلوم" لبتافيا الأندونيسية، صدر منها عشرون مجلدا إلى غاية 1844. انظر:

- Rapport annuel, J. A., 1846, **op. Cité**, P : 14.

[3] - تصدرها "الجمعية الآسيوية الألمانية" التي انتظمت عام 1845. انظر: **نفس المصدر السبق**، ص: 16.

[4] - تصدرها "الجمعية السورية ــ المصرية" بلندن. **نفس المصدر**، ص: 16.

[5] ـــ تصدرها "الجمعية الآسيوية الصينية".انظر: - Rapport annuel, J. A., 1849, **op. Cité**, P : 15.

[6] - "لويس نيقولا جون جواشيم دو كيرول" ولد بباريس في 25 /06 /1775، كان نائبا بالبرلمان على مقاطعة "نييف" بين عام 1820 و1822، كما اشتغل نائب أمين بالجيش الفرنسي إلى غاية عام 1830. وقد ترك عددا معتبرا من الكتيبات. توفي عام 1859 . - La Grande Ency, T : 9, op.cité

كنموذج، وكان ينوي تخصيصها لأبحاث في آداب العهود القديمة وتاريخ الشعوب التي تكون الإمبراطورية العثمانية[1].

كانت حياة الجمعية الآسيوية -التي هي جمعية ثقافية- تتوقف على ضرورة إصدار مجلة، تتصل بواسطتها بالمحيط العالمي[2]، وعن طريقها يتم الاتصال بها أيضا.

وقد كان من مبررات إنشاء المجلة الآسيوية أيضا، مضاعفة إنتاج الدراسات الاستشراقية واتساع دائرتها[3]، لاسيما وقد أضحى من الصعوبة بمكان على الفرد الواحد تتبع حركة هذه الدراسات، كما أن مَنْ كان يسمى قديما "مستشرقا" لم يعد بوسعه الإحاطة بهذا العدد المتزايد من اللغات والآداب إلا بوجود مجلة متخصصة[4].

كان العنوان الرئيسي للمجلة المستحدثة هو: "المجلة الآسيوية"، أما العنوان الكامل فهو"مجموع أبحاث وخلاصات ومواجز تتعلق بالتاريخ، والفلسفة، والعلوم والآداب ولغات شعوب الشرق[5]، وقد اختفت من عنوان المجلة الكامل -بعد مدة- كلمة العلوم (الطبيعية والدقيقة) دون أن تختفي الأبحاث والمقالات المتعلقة بها، ويلي العنوان، تعداد أبرز محرري المجلة التي هي نصف سنوية تصدر في سلاسل ذات عشر سنوات، وكل حلقة سنوية في عددين تصدرها الجمعية الآسيوية بالمطبعة الملكية بباريس، وهي تحمل شعار الدولة الفرنسية الذي يتغير بتغير النظم السياسية (ملكية، جمهورية وأمبراطورية).

يتألف كل عدد من أعداد المجلة من كراسات بعدد شهور السنة، وحجم العدد الواحد بمعدل خمسمائة صفحة، وقد تنقص أو تزيد.

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1852, **op. Cité**, P : 19 -20.

(2) - Rappoıt annuel, J. A., 1854, **op. Cité**, P : 22.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1842, **op. Cité**, P : 474.

(4) - **Journal Asiatique ou recueil de Mémoires d'Extraits et de Notices relatif à la l'histoire à la philosophie, aux langues et à la Littérature des peuples orientaux.**

(5) - بلغ عدد المجلدات التي تعنينا في بحثنا هذا نحو المائة مجلد.

وقد عرفت الدراسات الاستشراقية حركة وتطورا عاما، ظهر في النمو المستمر للأعمال التي تقدم إلى لجنة المجلة والتي ظلت في تزايد من سنة إلى أخرى، في العدد والأهمية[1].

عرفت المقالات والأبحاث التي كانت تنشرها المجلة تعديلات وتغييرات على مر السنين، ولا شك أن القارئ، يلاحظ أن المجلة خلال الأربعينيات –مثلا– صارت تحتوي على أبحاث طويلة غير معهودة، وهي لا تليق كمقالات في مجلة متخصصة بقدر ما تشكل تآليف قائمة بذاتها، وهذا التغيير الذي طرأ لم تستجب له لجنة المجلة إلا لدافع قوي يعود سببه إلى مشاكل تعترض العلماء، تحول دون إعداد أعمالهم إعدادا لائقا، فكانت اللجنة العلمية للمجلة تتلقى أبحاثا، يمكن في ظروف أخرى، أن تنشرها نشرا خاصا، ومع ذلك فقد نجحت المجلة في نشرها، رغم المضايقات التي كان يسببها لها البطء اللاإرادي الذي تنشر به المجلة أعمالا بتلك الضخامة.

تحتوي أعداد المجلة على محاور ثلاثة، ومحور المقالات والترجمات، محور المصادر والمراجع، ومحور الأخبار والمتفرقات، أما المقالات والترجمات، فتمتاز بالكثرة والتنوع، وهي موضوع المجلة الرئيسي، وتأتي في شكل ترجمة لكتاب في حلقات، أو لرحلة، أو فصول من كتاب أو مقطع منه، وقد تكون وثيقة غير منشورة أو رسالة من فلان إلى فلان حول موضوع اكتشافاته أو دراساته، أو بحثا حول موضوع ما، وقد تكون شرحا أو توضيحا لمسألة من المسائل أو تحليلا لها، أو ملخصا أو موجزا أو مختصرا، وقد تأتي في شكل ملاحظة عن موضوع أو كتاب إلى آخره...

وأما المصادر والمراجع، فتشتمل على التعريف بالكتب، أو ملخصات لها، أو التعريف بمجلات أو مقتطفات من مراسلات حول كتاب، وقد تأتي في شكل ترجمة لشخصية أدركها الموت...الخ، وأما الأخبار والمتفرقات، فتحتوي في أغلبها على محاضر الجلسات الشهرية لأعضاء الجمعية الآسيوية وجدول المجلس الإداري وقوائم الأعضاء

---

[1] - Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 12.

المستكتبين والمشاركين الأجانب في الجمعية والمجلة، كما تحتوي قوائم الكتب سواء التي تقوم الجمعية بنشرها أم التي تتلقاها من أنحاء شتى.

كما تتعرض لصحافة الشرق التي تصدر في القسطنطينية مثلا والقاهرة، وتحتوي المتفرقات أيضا على أجزاء من رسائل تبادلها أشخاص مع إدارة المجلة أو عضو من أعضائها..

ويعتبر التقرير السنوي أو محضر الجلسة العامة للجمعية الفرنسية ومجلتها الآسيوية، من أنفس محتوياتها، نظرا للعناية التي يتم تحضيره بها ومنهجية عرضه وشمولية محتواه، وغنى معلوماته، وتتم المصادقة عليه من أعضاء الجمعية في جمعية عامة، الأمر الذي يجعله أبرز وأصدق وثيقة تعكس وجهة الجمعية الآسيوية، ومجلتها، ولذلك فقد اعتبرنا التقرير وثيقة تاريخية من الدرجة الأولى بالنسبة لموضوع الاستشراق الفرنسي في المغرب العربي اعتمادا على المجلة الآسيوية.

وبالرغم من أن التقرير أدرج في المجلة منذ سلاسلها الأولى، إلا أنه لم يعرف الاستقرار والنضج إلا أثناء العهدة الطويلة التي تولى خلالها المستشرق الألماني الأصل "جول مول"Jules MOHL منصب كاتب المجلة والذي دام ثمانية وعشرين سنة (1839 – 1867)، بل يمكن اعتبار هذه الفترة العهد الذهبي للتقرير السنوي(1).

والتقرير على العموم(2)، حوصلة عامة للجهود والدراسات الاستشراقية التي تتم عبر دوائر الاستشراق في إطاره العام على مدار السنة، بدءا من نشاطات أعضاء الجمعية الآسيوية الفرنسية وانتهاء بأقصى الأقطار والجمعيات التي ينشر أعضاؤها ورحّالتها بها.

---

(1) – يعترف "رينان" الذي احتل المنصب بعد "مول" بالكفاءة العالية لهذا لأخير في انجاز التقارير السنوية، أنظر:

- Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 11.

- Rapport annuel du 28/06/1870, **J. A**, 6ème série, T : 16, 1870, P : 10-14.

(2) – أنظر ماهية التقرير السنوي: – **نفس المصدر السابق**، ص: 10-15.

ومعلومات التقرير ومعطياته، هي حوصلة جهود كثيرة تقوم بها عناصر متعددة، من أعضاء الجمعية والمجلة وتقدم إلى كاتب المجلة في شكل قراءات أو ملاحظات أو استنتاجات، مضيفا إليها ملاحظاته واستنتاجاته الخاصة كراصد لكل قول أو فعل استشراقي من خلال مركزه ونشاطه ومراسلاته، كل ذلك يشكل في النهاية حوصلة يتم تنسيقها وتصاغ في تقرير يخضع لخطة ومنهجية مدروسة، ويقرأ في جلسة سنوية خاصة، يتم افتتاحها وترؤسها في الغالب من طرف رئيس الجمعية، وتعقد في شهر جوان من كل سنة الأمر الذي يجعل التقرير ضمن المجلد الثاني. يقرأ كاتب المجلة التقرير الذي يتجاوز أحيانا المائتي صفحة، في جلسة عامة، ويخضع لمنهجية –كما أسلفنا- تحولت إلى تقليد جدير بالمجلات المحترمة أن تحذو حذوه. يستهل التقرير عادة، بذكر المشكلات التي اعترضت سبيل صدور الأعداد ويكون ذلك مناسبة للإشارة إلى أبرز أحداث السنة –إن وجدت- سياسية أو غيرها مما كان له انعكاس على الجمعية والمجلة على حد سواء، منوها بجهود الأعضاء في مجابهة الصعوبات، وقد يُذكر أيضا بميلاد الجمعية والمجلة لاسيما في أبرز مناسباتها كمرور عقد على ميلادها أو ربع قرن أو أربعين سنة، أو نصف قرن، أو جيل، مبرزا ظروف النشأة والتطور وتخطي العراقيل واضعا بذلك لبنات التأريخ للجمعية والمجلة بحضور صانعي الحدث، ومركزا على نقاط القوة والضعف وعلى الانجازات والطموحات مع التنويه بالرموز التي تقف وراءها.

ومن المحطات المنتظمة في التقرير والجديرة بالاهتمام أيضا، ذكر وفيات أعضاء الجمعية والمجلة خلال سنة منصرمة، وخصّهم بنِبَذ عن حياتهم ومناقبهم بشكل مؤثر مما يجعل هذه النّبذ وثائق أساسية في التأريخ لمستشرقي المجلة[1].

ينتقل التقرير وبانتظام –وفق التقليد المشار إليه آنفا- إلى علاقة الجمعية الفرنسية والمجلة بالجمعيات الآسيوية الأخرى، بدءا من أوربا وانتهاء بأبعد نقطة ظهرت فيها

(1) - سيبرز ذلك في ثنايا **الفصل الثاني** من خلال استعراض حياة بعض المستشرقين.

جمعية مماثلة، مع ذكر الجديد منها وتطور العلاقات مع تلك القديمة بالمراسلة وتبادل المجلات والمنجزات في مجال الدراسات الاستشراقية.

ومع كون الجمعية الآسيوية الفرنسية خاصة، فإن ذلك لم يمنعها من إقامة علاقات تعاون مع الحكومة الفرنسية والحكومات الأوربية الأخرى لاسيما مع سفراء هذه الحكومات وقناصلها في دول الشرق، الذين كثيرا ما يعتبر الاستشراق جزءاً من اهتمامهم بل ومهمتهم، وكذلك الإرساليات التبشيرية والبعثات الاستكشافية العلمية في الشرق ورحّالة أوربا، كل ذلك يتناوله التقرير، بالطبع، في كثير أو قليل منه، كما يستعرض التقرير حصيلة المجلة الآسيوية نفسها بين الأمس واليوم، مع التركيز على دراساتها الصادرة على مدار السنة بنشرها للأبحاث والمقالات حول المواضيع الشرقية الأكثر تنوعا.

على أن حصة الأسد في التقرير، تخص تعداد أبرز ما نشر خلال سنة في مجال الدراسات الاستشراقية عبر العالم، ولذلك فإن التقرير يعد نافذة مهمة على الاستشراق الأوربي غير (الفرنسي).

ومن التقاليد التي رسخها "مول" [1] في التقرير طوال فترته، البدء باستعراض الدراسات العربية والإسلامية التي يخصها باحترام متميز مذكرا بين الحين والآخر بأهمية الحضارة العربية الإسلامية، فالدراسات المتعلقة بالدول الإسلامية الأخرى، التركية والفارسية، ثم الهندية والصينية واليابانية... الخ، وهو التقليد الذي سيتغير مع مجيء "رينان" واحتلاله منصب كاتب المجلة، إذ يجري تغييرا على أولوية الدراسات فيزحزح الدراسات العربية الإسلامية إلى مرتبة ثانوية لتحل محلها الدراسات السامية اليهودية مركزا على الدينية منها والكتاب المقدس بعهديه، وبهذا بدأت المجلة مع "رينان" تأخذ منحى أقل موضوعية(2)، انطلق من خلاله لتكسير تقاليد جيل من المستشرقين، وفرض ما كان يشكل استثناء، الأمر الذي حول على المدى البعيد الاستثناء إلى قاعدة

---

(1) – انظر تعريفا به في **الفصل الثاني**.

(2) – أنظر طريقة إعداد "رينان" للتقرير:

- Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 11 – 12.

في إطار الموجة الأوربية الاستعمارية العارمة التي اجتاحت العالم مع نهاية القرن 19م. فكانت مواقف وسلوكيات "رينان" في التقرير وفي غيره، إحدى مؤشرات تغير الجيل ومنحاه الاستشراقي الموضوعي نسبيا، مما دفعنا إلى وضع حد للموضوع لأن الاستمرار فيه يقودنا بعد حين إلى رسم معالم جديدة تمتاز بالحدة واستشراق منحاز بشكل واضح.

لم تكن الجلسة تقتصر على تلاوة التقرير والمصادقة عليه، ولكن يتم خلالها أيضا تقديم الأعضاء الجدد والتعريف بهم كي يقبلوا في صفوف الجمعية، كما تقرأ أحيانا مقتطفات من رسائل الأعضاء أو مراسليها في الداخل والخارج.

كانت غايات الجلسة السنوية العامة، فضلا عما سبق، تقديم حسابات أعضاء الجمعية بعضهم لبعض، حول المنهج الذي سلكوه خلال سنة، وقد يحتدم النقاش إلى الحد الذي يوشك أن يصل فيه إلى رفع الجلسة، على أن التعقل هو الذي يتغلب في النهاية حرصا على المصلحة العامة واستمرار الجمعية، وشعارهم في ذلك "المحافظة على الوحدة وتقسيم العمل"، كما تناقش السنة المالية من مداخيل ومصاريف.

كانت المجلة تطمح أن تحتل مكانا في المكتبة، ولا يمكنها إلا أن تكسب مكانتها بجدارة بتلك الأبحاث التي تتناول أقساما جديدة وأساسية في العلم من مثل سلاسل مقالات مستشرقين كبار أمثال "بيرنوف" BURNOUF عن نصوص الزرادشتية، و"ستانيسلاس جوليان" STANISLAS JULIEN و"دوفريمري" DEFREMERY عن الجغرافيين العرب والفرس، و"دي كوروا" DU CAURROY عن التشريع في الإسلام(1).

كان المستشرق حين إنشاء المجلة الآسيوية شبه متأكد بأنه سوف لن يلتقي في عمله حول مسألة معينة من آداب الشرق بأي كان، فكان يعمل على مهل وكأن الموضوع موضوع خاص به، لا ينازعه فيه أحد، أما خلال الأربعينيات، وبفضل الدفع

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1851, op. Cité, P : 112.

الذي تلقته الدراسات الاستشراقية، فإن المستشرق صار أكثر استعجالا للنشر، لأنه يتوقع أن نفس الأسباب العلمية التي ساقته لطرق الموضوع، تدفع علماء آخرين إلى الاهتمام به أيضا، وهذا التنافس هو علامة من علامات حياة علم الاستشراق خلال تلك الفترة(1).

وقد حصل نقاش وسط مجلس الجمعية والمجلة في السنين الأولى حول أهلية الدراسات التاريخية والدراسات الأدبية وأيهما الأولى، وكان من الممكن أن يحدث نقاش حول موضوع كهذا، فتنة داخل الجمعية يعرض وجودها بالذات للخطر، وكان يفترض أن لا تطرح المسألة على هذا النحو، لاعتبارات منها أن جل مستشرقي المجلة لا يقبلون تعارض التاريخ والأدب، ولا يرفضون أي منتوج للعقل البشري، شكلا أو موضوعا(2). فالتاريخ والأدب، كلاهما يساهم في التعريف بوقائع العصور التاريخية للشرق وحضاراته المغايرة للحضارة الأوربية.

لقد وسع التاريخ دائرته، فلم يعد يقتصر على الوقائع المادية، وتتابع الممالك السياسية، ولكنه أضحى ينشد النفاذ في عمق حياة الشعوب، وإعادة تشكيل وضعهم العقلي والاجتماعي في كل جوانبه. أضحى التاريخ إذن في حاجة إلى كل الآثار التي تركتها الأمم في حياتها الدينية والتشريعية والأدبية والفنية وحتى في لغتها. لقد صار كل شيء بالنسبة للمستشرقين وثائق تاريخية وفي غالب الأحايين وثيقة لا تقل أهمية عن أصلها ما دامت تتجه نحو رسم واقعه(3).

إن التاريخ في تطور، فهو يكبر إطاره، ويوسع وجهة نظره، ويستحوذ على كل شيء بل الكل في خدمة أهدافه(4).

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 12.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 105.

(3) - **نفس المصدر السابق**،ص: 106

(4) - **نفس المصدر**، ص: 109.

شعرت الجمعية الآسيوية منذ تأسيسها أنه من واجبها تقديم يد العون في حدود إمكانياتها، لنشر نصوص شرقية(1)، وهذه الحاجة العلمية هي التي قادت الجمعية إلى إنشاء -إلى جانب مجلتها- سلسلة جديدة لمؤلفات تحت عنوان: "مجموع مؤلفي الشرق"(2) (Collection d'Auteurs Orientaux).

كان هدف شروع الجمعية في "المجموع" هو المساهمة في جعل مؤلفات هامة غير منشورة، في المتناول، من خلال نشر نصوصها وترجمتها وتقديمها في الشكل الأكثر تواضعا، مما يسهل عملية الحصول عليها من كل المهتمين باللغة والآداب وتاريخ الشرق، بغرض انجاز دراسات على ضوئها(3).

وهكذا فقد كان تصور مجلس الجمعية عام 1851 أن الوقت مناسب للشروع في إنجاز المجموع الذي عرض مخططا له وقرر نشر رحلة ابن بطوطة وترجمتها من طرف "دوفريمري" DEFREMERY، و"مروج الذهب" للمسعودي من "سانقينيتي" SANGUINETTI ، و"السيرة النبوية" لابن هشام وكذلك، جغرافية" أبو الفداء"[4]، من "ديرمبورج" DERENBOURG و"كازيمرسكي" KAZIMIRSKI. وكان المجلس يرى أن هذه النصوص ذات ضرورة قصوى للدراسات الشرقية، ولا يعتقد أن يجد أكثر منها أولوية في هذه الفترة(5).

وفي الجلسة السنوية للجمعية والمجلة عام 1855، تقرر نشر النص العربي لمصنف الفقه الإسلامي لـ"سيدي خليل" [6] وكان "بيرون" PERRON قد نشر ترجمة مفيدة له، مرفقة بتعليقات تساعد المحاكم الاستعمارية الفرنسية في الجزائر، وقد رغب وزير الحرب في الحصول على طبعة لنص "سيدي خليل" لفائدة قضاة ورجال القانون

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 112.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 110.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 110.

(4) - سيأتي التعريف بابن بطوطة والمسعودي وابن هشام وأبو الفداء لاحقا.

(5) - Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 112 .

(6) - انظر تعريفا "بسيدي خليل"، ص: 191.

العرب في الجزائر، لأجل ذلك توجه بطلب إلى الجمعية عام 1855 للتكفل بهذه الطبعة(1). وقبل "رينو" REINAUD أن يكون على رأس المشروع(2).

وفيما رأى المجلس أيضا أن "الفهرست"(3) لابن النديم جدير بالنشر، طلب من "دوسلان" التكفل بنشره نظرا لمعرفته العميقة باللغة وتاريخ الأدب العربي – كما أسلفنا- وفيما استجاب "دوسلان" للاقتراح، علم بأن "فلوجل"(4) FLUGEL يحضر طبعة له منذ مدة ويعتزم نشرها، فقرر إلغاء العمل حتى يَثْبُت تخلي "فلوجل" عن مخططه(5)، فكان أن واصل الأخير العمل ونشره.

ظلت أدوات تحقيق المشروع، والمتمثلة في العدد الهائل من المؤلفات التي تملكها الجمعية أو التي تقدم لها باستمرار، ظلت زادا لا ينضب، وبذلت الجمعية كل إمكاناتها المتاحة لتفعيل النشر، لكن عدد المجلدات التي تصدرها الجمعية كل سنة كان يتناسب مع الفوائد التي يجنيها الجمهور والترحيب الذي يلاقيه بها، لأجل ذلك ظلت تلتمس المساعدة من العلماء والمكتبات والجمعيات الآسيوية الأخرى، فتلتمس منهم جميعا أن يساعدوها من ناحيتهم مثلما تساعدهم بتقديم أدوات لأبحاثهم، على أن أكبر مكافأة كانت تترجاها الجمعية الآسيوية الفرنسية على نجاحها في مخططها، هي أن ترى مثلها يحتذى به، عندما تبرهن لهم أنه ليس من الضرورة أن تفرض -لأجل مؤلفات شرقية- أسعار جنونية، مشكلة إحدى أبرز عراقيل الدراسات الشرقية(6).

تلك هي منهجية عمل ونشاط الجمعية الفرنسية ومجلتها الآسيوية. بقي لنا أن نشير إلى الحصيلة العلمية ومن خلالها نحكم على جهود أعضائها ودورهم في جعل

---

(1) – Rapport du 20/06/1855, **J. A.**, 5eme série, T : 6, 1855, P : 16 .

(2) – **نفس المصدر السابق**، ص: 17.

(3) – اسحق النديم، **كتاب الفَهْرَست**، ط 3، دار المسيرة، بيروت، 1988.

(4) – غوستاف ليبرخت **فلوجيل** (1802 ـــ 1870)، مستشرق ألماني. وضع فهرسا لألفاظ القرآن الكريم سماه "نجوم الفرقان في أطراف القرآن"، كما نشر عددا من كتب التراث العربي، منها "الفهرست" لابن النديم، و"كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" لحاجي خليفة مع ترجمة له باللاتينية.

ـــ موسوعة المورد، ج 4، **مصدر سابق**.

(5) – Rapport annuel, J. A., 1857, **op. Cité**, P : 14.

(6) – Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 110.

تراث الشرق جزءاً من التراث الإنساني العالمي، والبرهنة على أن الإنسانية والعالمية لا تتأتى في معناها الحقيقي إلا بإضافة تراث الشرق الأساسي إلى تراث الغرب.

لقد أدرك مستشرقو الجمعية والمجلة ثقل المهمة التي تحملوا عبئها، وتجشموا الصعاب من أجلها منذ البداية، ولكنهم خاضوا التجربة هذه المرة برصيد تجربتهم في إحياء تراثهم طوال عصر النهضة الأوربية الحديثة، وقد صرحوا أكثر من مرة أن أوربا قطعت أزيد من قرن قبل أن تأتي على طبع مجمل مخطوطات الإغريق واللاتين، ولذلك فهم في حاجة إلى وقت أطول للوصول إلى نشر أهم منتجات الآداب الشرقية، وقد ذكروا أيضا أن التأخر أو الوقت الضائع يمكن تداركه بواسطة المشارقة أنفسهم نظرا للمطابع التي انتشرت في الشرق، بالرغم من أن ما يصدر عنها لا يصل منه إلا القليل إلى أوربا ومصادفة فقط (1).

إنجازات الجمعية الآسيوية: ما الذي أنجزته الجمعية الآسيوية الفرنسية ومجلتها خلال الفترة المعنية ؟

لقد قيم المستشرقون الفرنسيون مسيرتهم بأنفسهم، من خلال جملة من المحطات، منها مرور ربع قرن على إنشاء الجمعية والمجلة إذ مرت المناسبة وقد تبوأت الجمعية في عالم العلم والمعرفة مكانة معتبرة بفضل نشاطها وإنتاجها(2) وبالرغم من أن هذه المناسبة أعقبتها مباشرة ثورة 1848 التي هزت صفوفها، فإن ذكرى مرور ثلاثين سنة (1852)، وجدتها قد استعادت مكانتها، وهي مدة طويلة في عمر جمعية آسيوية حرة، لا سند لها سوى إخلاص أعضائها ووفائهم للعلم والمعرفة، وليس لها ثروة غير التضحيات التي يرتضون القيام بها.

لقد عمرت الجمعية والمجلة بفضل جيل العلماء الذين أحيوا الآداب الشرقية في فرنسا بطريقة تبعث على الإعجاب أمام الجمعيات الآسيوية الأخرى والدول الأوربية التي تنتمي إليها، لقد شق الجيل طريقه عبر ثورتين سياسيتين، ونجا من خطر الخلافات

---

(1) -Rapport annuel, J. A., 1850, **op. Cité**, P : 131.

(2) -Rapport annuel, J. A., 1847, **op. Cité**, P : 12.

الداخلية لأعضائـــه(1)، وهذا الوجود الطويل والصمود إلى نهاية الفترة، يحمل أكثـــر من مغزى، فهو يثبت على الأقل أن الجمعية والمجلة تقفان على قاعدة صلبة، وتستجيبان لضرورة حقيقية، تتمثل في ضرورة العلم والمعرفة(2).

يصاب المرء بالدهشة والذهول عندما يقف على إنجازات مستـــشرقي الجمعيـــة الآسيوية ومجلتها منذ أن عقدوا أول اجتماع لهم قبل ثلاثين سنة، لقـــد اكتـــشفوا –لا نتحدث هنا سوى عما حققه الأدب الشرقي على امتداده وعلى نطاق جديد- اللغـــة الزرادشتية[3]، وقرأوا نقوش "داريوس"[4] Darius التي بقيت مبهمة منـــذ إســـكندر الأكبر، ونقوش "أزوكا" Azoka، كما قرؤوا المؤلفات البوذية في لغات جل الـــشعوب من بلاد التتار إلى جزيرة سيلان، وكانوا خلال الخمسينيات من القرن 19، بصدد قراءة نقوش سيناء، ونقوش سبأ، ودرسوا لغة "الكاوي" Kawi ، وجل اللهجات الماليزيـــة، وكانوا على وشك العثور على لغة الآشوريين والبابليين والميديين[5] Medés.

وكانت اليابانية عندئذ موضوع دراسات رصينة، أما النقوش الفينيقيـــة فبـــدأت تخرج من الألغاز، كما كانوا بصدد تحليل لهجات الفنلنـــديين[6] Finnois ولهجـــات

---

(1) - -Rapport annuel, J. A., 1852, **op. Cité**, P : 11-12 .

(2) - -Rapport annuel, J. A., 1866, **op. Cité**, P : 11.

(3) - انظر تعريف **الزرادشتية**، ص: 229-230..

(4) - **داريوس الأول الكبير** (550 ــ 486 ق. م.). ملك الفرس (522 ــ 486 ق.م.). يعتبر أحد أعظم ملوك الأسرة الأخيمينية. عرف بعبقريته الإدارية وولوعه بوضع المشروعات العمرانية الضخمة. أعاد تنظيم الأمبراطورية ووسع رقعتها فامتدت من مصر غربا إلى الهند شرقا حاول فتح بلاد اليونان غير مرة ولكن العواصف دمرت أسطوله عام 492 ق. م. وأنزل الأثينيون الهزيمة بجيشه في معركة ماراثون عام 490 ق. م. ــ موسوعة المورد، ج 3، **مصدر سابق**.

(5) - نسبة إلى ميديا وهي بلاد قديمة في الجزء الشمالي الغربي من إيران. كانت في القرن 8 ق. م. مقسمة ألى إمارات صغيرة، ثم شكلت بعد ذلك جزءا من الأمبراطورية الأشورية. ولكنها سرعان ما استقلت وأصبحت مملكة تمكنت عام 612 ق. م. ــ بالتحالف مع نبوبولاسّر ملك بابل— من تدمير مدينة نينوة، وبذلك قضت على الأمبراطورية الأشورية. وفي عام 550 ق. م.، هزم كورش Cyrus الكبير الميديين وضم بلادهم إلى الأمبراطورية الفارسية. – **نفس المصدر السابق**، ج 6 .

(6) - أصل هذه اللهجات الفنلندية، لغة أبناء فنلندا. تنتسب إلى أسرة اللغات الأورالية. وينطق بها أيضا في أجزاء صغيرة من النرويج والسويد وروسيا. ترقى أقدم الكتابات المدونة بها إلى القرن 16 م عندما نقل إليها القسّ اللوثري مايكل آغريقولا "العهد الجديد" من الكتاب المقدس. أصبحت لغة فنلندا الرسمية عام 1809، وكانت لغة الثقافة والدواوين الرسمية فيها، قبل ذلك، هي اللغة السويدية. - **نفس المصدر**، ج 4.

القوقاز، ويدرسون لغات "الأهالي الأصلاء" في الهند، مما شكل وسيلة لاكتشاف وقائع سابقة عن دخول الجنس البراهمي[1] إلى الهند.

وكان مستشرقو الجمعية والمجلة الآسيويتين قد نشروا كتب اللغة وقواميس التيبتيين والمغول، والبرمانيين والسنغاليين Cingalais والكوشنشينيين، والسياميين Siamois، فضلا عن جملة أخرى من اللهجات لم يسبق معرفتها(2).

لا بد أن نضيف إلى كل هذا، الأعمال التي أثرت الآداب المعلومة سابقا وكذلك كمية الكتب العربية، والفارسية، والتركية، والأرمينية، والسنسكريتية والصينية المنشورة النصوص منها والمترجمة منذ ثلاثين سنة خلت، هذا إلى جانب العديد من الأبحاث والمقالات التاريخية والجغرافية والعرقية التي تم تعميقها بإبراز مثالبها.

لا شك أن ما تم إنجازه خلال ما ينوف عن الثلاثين سنة ، يمثل مكسبا وأهمية من حيث كميته وتنوع مواضيعه، فهو قد تجاوز ما أنتجه الاستشراق خلال القرون السابقة.

لقد بدأت نتائج هذه الأعمال الضخمة تدخل التاريخ العام منذئذ، وكلما عرفت هذه النتائج عن كثب قدرت حق قدرها(3).

وإذا أردنا أن نتحدث قليلا عن الحصيلة بلغة الأرقام، يمكن أن نسجل بعد مرور أربعين سنة عن أول اجتماع لمستشرقي الجمعية والمجلة، ثمانين مجلدا من المجلة الآسيوية، وسبعة عشر مجلدا من مؤلفات متنوعة، وخمسة مجلدات من "مجموع مؤلفي الشرق"، يضاف إليها المؤلفات التي عزم المجلس على طبعها ضمن المجموع والتي كان يجري تنفيذها وقتئذ مما مجموعه اثني عشر مجلدا.

كان مستشرقو الجمعية يفتخرون بهذه النتائج التي تعبر في نظرهم، على أن الجمعية دافعت دفاعا مستميتا في فرنسا عن الدراسات الاستشراقية وكان لها حظها في

---

(1) - انظر عن البراهمية لاحقا.

(2) -Rapport annuel, J. A., 1850, **op. Cité**, P : 129.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 130.

تجديد ما عد أحد الأمجاد العلمية والمعرفية للمستشرقين الفرنسيين خلال الفتـــرة الـــتي تعنينا(1).

لم تكن هذه الحصيلة سهلة المنال بالطبع، ذلك أن أبرز معاناة الجمعية الآســـيوية ومجلتها تمثل في صعوبة رصد المبالغ المالية لمواجهة المصاريف الـــتي تتطلبـــها مختلـــف المشاريع(2)، سيما وأنها جمعية خاصة، ومادام الأمر كذلك فقد كانت الجمعية تـــولي أهمية للمحاسبة المالية وكان المجلس يخصص لها وقتا كافيا لإطلاع الأعضاء بشفافية على تطور الموارد المالية السنوية(3).

تتكون إيرادات الجمعية والمجلة وتوابعهما من تبرعات وهبات أعضاء الجمعيـــة، ومن ريع مؤلفاتهم، والهبات الممنوحة من خارج الجمعية، سواء هبات حـــرة لجمهـــور المثقفين أم هبات وتبرعات رسمية، كتبرعات الملك في عهد الملكية والقـــرض الـــسنوي الممنوح من المطبعة الملكية، ثم الإعانات، سيما الإعانة الحكومية وخاصة وزارة التعلـــيم العمومي.

يتضح أن المبلغ المالي غير منتظم، وقد قدر إجمالي الموارد (الدخل) لنهايـــة ســـنة 1841 على سبيل المثال بـــ 212.871 فرنك(4).

وليس غريبا بالنسبة لجمعية خاصة، أن تكون المعونة المالية الـــتي تتلقاهـــا مـــن الحكومة ووزارة التعليم العمومي أكثر المعونات عرضة للتوقف، فكـــم مـــرة لم تـــف الحكومة بالمعونة، وكم مرة لم تف وزارة التعليم العمومي بها أيضا، على افتراض أنهـــا معونة منتظمة(5)، وأنها حق من حقوق الجمعية التي كانت في حاجة ماســـة إليهـــا، خدمة للدراسات المنتظرة، وتشجيعا للرحلات والنشر والتوزيع، تعضيدا لحماسة وغيرة

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1862, **op. Cité**, P : 12 .

(2) - Rapport annuel, J. A., 1842, **op. Cité**, P : 483.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1852, **op. Cité**, P : 19 .

(4) - Rapport annuel, J. A., 1842, **op. Cité**, P : 483.

(5) - Rapport annuel, J. A., 1847, **op. Cité**, P : 15 .

المستشرقين على طبع مؤلفاقم، وباختصار المحافظة على مكانة الجمعية الفرنسية وسط الجمعيات الآسيوية التي تنشأ في مختلف بقاع العالم(1).

ظل رأي مستشرقي الجمعية والمجلة ثابتا –إلا في حالات استثنائية– لأن الحكومة الفرنسية لم تكن في مستوى المهمة التي حملها المستشرقون على عواتقهم والتي تُشرّف فرنسا في النهاية شعبا وحكومة، فكان خذلان الحكومة والوزارة مؤثرا فيهم لاعتقادهم أن التشجيعات المادية لن تفتقر إليها مؤسسة في مستوى جدية الجمعية الآسيوية الفرنسية(2)، وقد كان وزير العدل أيضا محل اتهام حين تأخر في المصادقة على المعونة التي وافقت لجنة المطبوعات المجانية على منحها للجمعية قصد طبع المجلدات الثلاثة لابن بطوطة حين نفدت موارد الجمعية(3).

ولعل أشد الفترات وقعا على الجمعية والمجلة في المجال المالي، فترة حدوث الثورات والاضطرابات السياسية، فكانت مع بداية كل حركة أو ثورة تقدم على تعليق جل المطبوعات التي لا تزال في بداية طبعها لأجل ضمان استمرار صدور المجلة الآسيوية، – في كل الأحوال– إذ صارت بالنسبة للمستشرقين أكثر من ضرورة كلما تقلصت موارد ووسائل النشر(4).

وبالفعل فقد عرفت موارد الجمعية تقلصا بسبب ثورة 1830 وكذلك ثورة 1848 ولم تتغلب على العجز المالي إلا بالاعتماد على عزيمة وإرادة أعضائها، وبالتعليق المؤقت للمصاريف غير الضرورية(5)، أما حرب القرم (1854)[6] فقد انتهت

---

(1) – نفس المصدر السابق، ص: 15.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 15.

(3) – نفس المصدر السابق، ص: 15 -16.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1849, **op. Cité**, P : 12 .

(5) - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 95.

(6) – **حرب القرم**: (1853-1856). اندلعت الحرب بين القوات الروسية وجيوش التحالف التي ضمت كلا من فرنسا والدولة العثمانية وسردينيا بييدمون والمملكة المتحدة. وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى شبه جزيرة القرم التي دار فيها معظم القتال. بدأت باحتلال روسيا إمارات الدانوب، وإعلان تركيا الحرب على روسيا في أكتوبر عام 1853. انظر:

– الموسوعة العربية العالمية، ج 9، **مصدر سابق**، ص: 248-249.

بممارسة تأثير قوي على تطور الدراسات الاستشراقية في أوربا ومن ثمـــة المؤســـسات المماثلة للجمعية الآسيوية، المنشأة لغرض تسهيل نشر هذه الدراسات(1).

كانت مصاريف الجمعية تشمل مستحقات المجلة الآسيوية وتكلف مبلغا معتبرا، ويليها نشر الكتب، فمصاريف الإدارة، فيما توزع مبالغ أقل بكثير على الاكتتـــاب في مواضيع شرقية، فالمكتبة، فشراء المخطوطات وكذا طباعة الصور(2).

وإلى جانب الصعوبات المالية، عانت الجمعية أيضا من صعوبة الحصول علـــى مقر محترم طوال الفترة(3)، إلى غاية عام 1872 حيث منحها مواطن وهو "ساي"[4] Say مقرا(5)، كما اضطرت إلى تغيير المكتبة التجارية لـــ "دوندي- دوبري"[6] Dondey-Dupre التي كانت دارا للنشر تودع فيها الجمعية منشوراتها قصد بيعها، واستمر ذلك إلى غاية 1846، حيث انتقلت إلى مكتبة تجارية أخرى هي مكتبة "دوبرا"[7] Duprat حتى

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1854, **op. Cité**, P : 11.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1842, **op. Cité**, P : 483.

(3) -Rapport annuel, J. A., 1866, **op. Cité**, P : 12 .

(4) - لعله "هوراس ساي" المنحدر من عائلة "ساي" البروتستانتية المشهورة بجملة من الاقتصاديين الفرنسيين. تعود العائلة في أصولها إلى مدينة نيم، التي غادرتها بعد الثورة الفرنسية، وانقسمت إلى ثلاثة فروع، استقر فرع منها في بريطانيا وآخر في الولايات المتحدة، وفرع رئيسي ثالث في جنيف. أسس "هوراس" جمعية للاقتصاديين والسياسيين عام 1842، وصار رئيسا للغرفة التجارية بباريس. ومن الممكن أيضا أن يكون ابنه "ليون ساي" هو المعني في موضوعنا هذا، وهو الذي صار عضوا ثم رئيسا لجريدة "ليديبا" Les Débats . وقد كان "ليون" من المعارضين للنظام الأمبراطوري، لاسيما في المسائل المالية. انظر:

- La Grande Encyclopédie, T : 29, **op. Cité.**

(5) - Rapport annuel, J. A., 1872, **op. Cité**, P : 10-11.

(6) - "بروسبير دوندي- دوبري": من مواليد باريس عام 1794. شاعر وأديب، مطبعي وبائع كتب. أسس بالمشاركة مع أبيه مطبعة ومكتبة تجارية خاصة باللغات الشرقية، وهي أول مؤسسة حرة من نوعها في فرنسا. توفي عام 1834. انظر: - La Grande Encyclopédie, T : 14, **op. Cité.**

(7) - "**باسكال دوبرا**": ولد بهوجيتمو ضواحي لاندز Lands (رأس في إقليم كورنوول الإنجليزي المطل على المحيط الأطلسي) بتاريخ 24/ 03/ 1815 وتوفي في 17/ 08/ 1885. شغل أستاذا للتاريخ في مدينة الجزائر، ثم تخلى عن التعليم لفائدة الصحافة. ساهم في إصلاح "مجلة المستقلة" وكذلك مجلة "الحقوق". فلما اشتهر انتخب في 23/ 04/ 1848 ممثلا لاقليم لاندز، وكان من أنشط المعارضين لانقلاب 2/ 12/ 1848، مما حدا بالسلطة إلى نفيه إلى بلجيكا. عين في 4/ 09 / 1870 كوزير مفوض لدى بلجيكا، ولكنه فضل إعادة انتخابه نائبا لإقليم لاندز. ترك عدة آثار نذكر منها:

عام 1866، وقد كان لتوقف الأخيرة حدوث اضطرا بات في مجال مراسلات الأصدقاء ومعونات الجمعيات الأخرى (1).

- **Essai historique sur les races anciennes et modernes de l'Afrique Septen trionale**, Paris ;1845.
- **Les encyclopédistes, leurs travaux, leurs doctrines et leurs influences**, Paris, 1865.
- **Les Révolutions**, Paris, 1869.
- **L'esprit des Révolutions**, Paris, 1879.

(1) ـ انظر:
- La Grande Encyclopédie, T : 15, **op. Cité.**
- Rapport annuel, J. A., 1872, **op. Cité**, P : 12 et 28.

الفصل الثاني

مستشرقوا الجمعية والمجلة الآسيوية

1 – ملامح شخصياتهم
2 – الإطار المميز والاتجاهات العامة
3 – علاقة مستشرقي الجمعية والمجلة
بالساسة ودورهم في الاستعمار.

1- ملامح شخصياتهم:

ليس من السهل الإتيان على جل ملامح شخصيات مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيوية لأسباب، منها أنه لا يتسع المقام لذلك لكثرتهم، ثم إنهم متفاوتون في الاقتراب أو الابتعاد عن الموضوع الذي نحن بصدده. ولذلك فسنقتصر على التعريف بملامح شخصيات ووجهات نظر بعضهم، دون الآخرين، مستخلصين شبه قواعد وقوانين، على سبيل المثال لا الحصر، بغية تكوين صورة ولو تقريبية عن ملامح هذه الشخصيات المتفاوتة في تفانيها وخدمتها للاستشراق الفرنسي في العالمين العربي والإسلامي، وفي بلاد المغرب على وجه الخصوص. ولنبدأ بـ:

- "دوساسي" [1] Antoine–Isaac, baron Silvestre DE SACY: ولد بباريس في 21 سبتمبر 1758. وهو الابن الثاني "لأبراهام سلفستر"، الذي كان موثقا بباريس. فقدَ أباه ولما يتجاوز السبع سنوات. وقد وفرت له أمه مؤدبا في البيت لضعف صحته، فتحصل على معارف جديدة في الآداب الكلاسيكية، وتذوق لغات الشرق منذ سن الثانية عشرة على يد "دوم بيرثيرو" [2] Dom Berthereau، وهو رجل دين تابع للقديس "سان جرمان" (380 – 448 م) [3] Saint-Germain كبر وسط مشاعر دينية عالية. كما درس العبرية وتعود عليها حتى صار يؤدي صلواته بنصوصها الأصلية. ثم انتقل إلى السُّريانية، فالسامرية، فالكلدانية، فالعربية التي تعلمها من غير معلم. فالفارسية والتركية. وقد اكتسب علم العربية والفارسية اكتسابا لا يضاهيه فيه -ربما- أحد في أوربا وقتئذ.

---

(1) - بناء على التقاليد المعمول بها في أوساط البرجوازية الباريسية، فإن الولد البكر يحافظ على اسم والده، والثاني يضيفون له "دوساسي"، كما أن "دوساسي" أيضا اسم لقرية تقع ب"بري" brie بضواحي باريس. انظر:

- **Nouvelle Biographie**, depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours T : 42, paris, M D C C C L X V I X, p : 987.

(2) – هو الراهب البندكتي بدير "سان جرمان" المقابل لمحل سكن "دوساسي". انظر:

- دانيال ريغ، **رجل الاستشراق**، ترجمة ابراهيم صحراوي، ط 1، دار الجفان والجابي للطباعة والنشر، د. م. ط.، 1997، ص: 97.

(3) – انظر ترجمة له في:

- LEUFEUVE, **Histoire de Saint-Germain**, Paris, 1863

أما اللغات الأوربية، فتعلم منها الألمانية والإنجليزية والإسبانية والإيطالية. واهتم بعلم الحقوق في نفس الأثناء، وبقي محافظا عليه حتى النهاية.

وكانت الدراسات التوراتية -خلال هذا العهد- محل اهتمام ونقد لمخطوطاتها. فضمَّن "دوساسي" عام 1780 ملاحظاته حول نسخة سريانية لسفر الملوك الرابع المحفوظ بالمكتبة الملكية، ونشرت الملاحظات في "مجموع" ألماني كان يديره "أيشهورن" Eichhorn بمدينة "ليبزيغ"[1]. كما قام "دوساسي" عام 1784 بنشر رسالتين في نفس "المجموع" بعد مراجعتهما بعناية وترجمتهما.

وقد رشحته هذه المحاولات الأولى في جانفي 1785 لأحد المناصب الثمانية للأكاديمية الحرة، والتي تم إنشاؤها داخل "أكاديمية النقوش الكتابية" L'Académie des Inscriptions. كما ألف في ذات العهد بحثين، الأول حول تاريخ العرب قبل محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾[2]، والثاني حول أصول آداب العرب قبل محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾[3]. وقد ساعد هذان البحثان كثيرا في تسليط الضوء على موضوع لم يكن بعد معروفا وأكمل هذين البحثين عام 1830 بمقال إضافي[4].

وكان "دوساسي" في نفس الأثناء يقدم ترجمات وتحليلات ومواجز ومقتطفات من مخطوطات، تمتاز بسعة البحث والفطنة، وبذهنية التحفظ، وذات نتائج مهمة، وإذا كانت هذه الأعمال لم تثر كثيرًا من الاهتمام عند صدورها، فإن أهميتها ستظهر أكثر فيما بعد، إذ صارت من ضمن أمتع التحف العلمية الفرنسية.

لم يتجاوز "دوساسي" الثلاثين من عمره، ومع ذلك فقد كان يعد عالما من الطراز الأول، فخلف "أوجير" Auger عام 1792 في العضوية الرسمية "لأكاديمية النقوش الكتابية".

---

(1)- Nouvelle Biographie, **op. Cité**, P : 987

(2)- نشر ضمن: **- Mémoire de l'académie des Inscriptions**, ancienne série, T : 18

(3)- **نفس المصدر**، ج 2. وقد سلط "دوساسي" كثيرا من الضوء، بهذين المقالين، على موضوع لم يكن قد بحث من قبل.

(4)- - Nouvelle Biographie, T : 10, **op. Cité.**

استمرت الثورة الفرنسية التي لم يكن "دوساسي" مرتاحا لأحـــداثها الأولى ولا لشعاراتها، ربما لأنها كانت ضد الملكية والدين. فلما حُلّت الهيئات العلمية عـــام 1792، اعتزل -مع عائلته- في بيت بريف منطقة "بري" Brie، إلى الشرق من باريس، وكرس وقته لأبحاث تتعلق بديانة طائفة الدروز، وترجمة كتبهم[1].

وما إن توقف رعب الثورة، وفتح المعهد ومدرسة اللغات الشرقية عـــام 1795، حتى كلف "دوساسي" بكرسي اللغة العربية. وكان من الممكن أن يحرم مـــن التعلـــيم بسبب رفضه تأدية القسم الذي يحمل عبارات كره الملكية، ومع ذلك فقـــد غـــضت الهيئات السياسية الجديدة الطرف عن "دوساسي" في النهاية ومنحته كرسي العربية.

واستأنف في نفس العام (1795)، مع "كـــامو" CAMUS و"لانجلـــس"[2] LANGLES، وأعضاء آخرين بالمعهد، تحرير "جريـــدة العلمـــاء" (Le Journal des Savants).

ألف "دوساسي" كتابا في "النحو العربي" العام -موجها لتعليم ابنـــه الأكـــبر- ظهرت أول طبعة له عام 1799. وكان أبرز كتاب صنع مجد مؤلفه، شرح فيه بوضوح قواعد وآليات العربية، وحلل الفارق الدقيق لعباراته. ثم كثرت مؤلفاته في مجال التعلـــيم فيما بعد.

أرسل عام 1805 إلى جنوة (إيطاليا) وكان الهدف من ذلك هو العثـــور علـــى مخطوطات شرقية، ولكنه عاد بخفي حنين، وكانت تلك رحلته الأولى والأخيرة خارج فرنسا طوال حياته. وعلى اثر عودته عام 1806 عين أستاذا للفارسية "بكوليج فرنسا"، بعد أن فصل كرسيها عن التركية بتاريخ 4 أفريل 1806، وهي السنة ذاتها التي ظهرت

---

(1) – كان على "دوساسي" أن يكمل هذه الأبحاث بعد عام 1792 اعتمادا على مقالات عربية بمكتبة "أوكسفورد" وغيرها وبوثائق "سوريو". ولم ينشر عمله إلا بعد وفاته عام 1838.

(2) – مستشرق فرنسي، ولد بـــ Pérennes عام 1763 وتوفي عام 1824. تذوق الاستشراق مبكرا، فترجم عام 1787 "المؤسسات السياسية" لتيمور لينك، الذي عد من أهم منشوراته. هو الذي ساهم في استصدار قرار إنشاء "المدرسة الخاصة باللغات الشرقية الحية" عام 1795 بالمكتبة الوطنية بباريس، وهي المدرسة التي صار مديرا لها وأستاذا للفارسية بها. وعند تأسيس المعهد عين عضوا بالقسم الذي تحول عام 1816 إلى أكاديمية "النقوش الكتابية والآداب الجميلة". ترك عدة مؤلفات ومكتبة ضخمة ذات فهرس مثير لفضول المستشرقين. انظر:

- La Grande Encyclopédie, T : 21, op. Cité. P : 895.

فيها "مؤلفاته العربية"[1] التي اختار فيها نصوص مؤلفين عرب مع ترجمة لها وتعـاليق، وهي موجهة لتيسير دراسة العربية. وفي عام 1810، أصدر كتاب النحـو العـربي في جزئين، وهو ثمرة جهد خمس عشرة سنة من البحث...

وبالرغم من تأييده للنظام الملكي فقد قبل "دوساسي" العضوية في برلمان باريس ضمن الهيئة القانونية لعام 1808، واستمر فيها إلى عام 1815، وقد منحه الإمبراطـور نابليون بونابارت عام 1813 لقب "بارون". وقد أثارت عودة البوربـون إلى الحكـم الشعور بالرضى والغبطة في نفس "دوساسي". ومع تقاعده أثناء المائة يوم الـشهيرة، إلا أن بداية فترة عودة الملكية مكنته من أن يصبح عنصرا في "لجنة التربية العمومية"، ثم في "المجلس الملكي للتربية العمومية".

انسحب "دوساسي" تلقائيا من "المجلس" عام 1822، فعين مـديراً "لكـوليج فرنسا ومدرسة اللغات الشرقية.

لم تكن كل هذه التعيينات لتصرفه عن أبحاثه، في مجال الاستشراق، فصدرت له عدة دراسات في "جريدة العلماء"، التي أعيد نشرها عام 1816، منها أبحاث في الشعر العـربي والفارسي، والنص العربي "لكليلة ودمنة"[2] و"مقامات الحريري" بالعربية[3]... الخ

كان "دوساسي" عضوا فاعلا إلى جانب "ريمـوزا"REMUSAT ، في تأسـيس الجمعية الآسيوية عام 1822، وأعطى دفعا كبيراً ومثمراً لدراساتها الشرقية[4].

لما تفجرت ثورة 1830[5]، وبمجرد أن رأى "دوساسي" عودة النظام مـضمونة، انضم إلى الحكومة الجديدة وإلى غرفة المجلس (الشيوخ) يوم 1832/10/11، وعـين في

---

(1) - DE SACY, **Chrestomathie arabe**, Paris, 1806.

(2) – باريس، 1816.

(3) – باريس، 1822.

(4) - Nouvelle Biographie, **op. Cité**, P : 990.

(5) – ثورة خلعت شارل العاشر وأقامت ملكية جويلية التي جلس على عرشها لويس فيليب. نجمت عن معارضة الطبقة الوسطى ذات المصالح والممتلكات والتي قادها زعماء من أمثال "تير"، والعمال الراديكاليين في باريس لمقاومة سياسة شارل 10 الرجعية. أحدثت الإجراءات والمراسيم القمعية المناصرة للملكيين التي أجازها وزارة "دي بولونياك" أزمة حادة، وانتهت الثورة في يومين وأكره الملك شارل 10 على الفرار واتخذ من انجلترا منفى له. انظر: **موسوعة السياسة**، ج 1، ، ص: 914.

نفس السنة مفتشا بالمكتبة الملكية، ثم محافظا على مخطوطاتها الشرقية عام 1833، فكاتبا مدى الحياة بأكاديمية النقوش. وقد استغلت المعارضة السياسية، فرصة توالي هذه التعيينات لتوجه إليه تهمة احتكار وظائف عدة. وفيما كانت بعض التعيينات رمزية وشرفية، كان "دوساسي" يحضر غالب جلسات غرفة المجلس كما يقوم بانتظام بدروسه إلى غاية وفاته.

وقد عكر صفو حياته وفاة زوجته (فبراير 1835) التي لازمته طوال ثماني وأربعين سنة، لولا أن إيمانه ودراساته ساهما في التخفيف عنه من ألم الفراق.

وفي يوم الثلاثاء 1838/02/20 حضر "دوساسي" جلسة بغرفة المجلس، أخذ خلالها الكلمة عن عمر يناهز 80 سنة، فلما خرج من الجلسة أصيب بسكتة دماغية، وتوفي على إثرها يوم الأربعاء 1838/02/21. وقد نعاه كل من "جومار" [1] JOMARD، و"بيرنوف" BURNOUF، و"هيز" [2] HASE، و"جوبير" JAUBERT، ووضع له نصب نصفي بمكتبة المعهد [3].

كان "دوساسي" قد أنهى في درسه يوم السبت 1838/02/17، شرح مجموع أشعار "الحماسة"، وضرب موعدا يوم السبت 1838/02/24، بداية شرح "مقامات الحريري". فلما خلفه "رينو" REINAUD في كرسي اللغة العربية رأى من الواجب

---

(1) - جغرافي وأثري فرنسي، ولد بفرساي في 17 نوفمبر 1777، وتوفي في 23 سبتمبر 1862. دخل المدرسة المتعددة التقنيات عام 1794، وشارك في الحملة على مصر عام 1798 بصفته مهندس- جغرافي. وقد صار عضوا بمعهد القاهرة، وهناك شارك بكثير من المقالات التي هي نتاج استكشافاته الطبوغرافية وأبحاثه الأثرية. رشح عضوا بأكاديمية النقوش الكتابية والآداب الجميلة خلفا لـ Ennius Visconti. كما عين محافظا بقسم المخطوطات والخرائط بالمكتبة الملكية. وقد أصدر "وصف مصر" في ستة أجزاء وكذلك دراسة جغرافية وتاريخية لشبه الجزيرة العربية (باريس، 1839)، وملاحظات عن رحلته إلى دارفور (باريس، 1845).

انظر:
- La Grande Encyclopédie, **op. Cité,** T : 21, P : 184.

(2) – لغوي فرنسي، ولد بـ Sulza قرب Weimar في 11 ماي 1780، وتوفي بباريس في 25 مارس 1864. جاء إلى باريس عام 1801، وتحصل على عمل بقسم المخطوطات الإغريقية بالمكتبة الوطنية عام 1805. كما عين أستاذا لعلم قراءة النصوص القديمة والحديثة بمدرسة اللغات الشرقية الحية، ثم اختير بعد سنوات قليلة، أستاذا لأبناء نابليون. وقد كان كثير الاطلاع على تاريخ البيزنطيين، لأجل ذلك اختص بالمؤلفين الإغريق في "مجموع مؤرخي الحروب الصليبية". كانت له مساهمات كثيرة في المجلة الآسيوية. انظر:

- La Grande Encyclopédie, **op. Cité,** T : 19, P : 901.

(3) - Nouvelle Biographie, **op. Cité,** P : 991.

مواصلة خطة أستاذه. وبالفعل فقد خصص درس السبت لمقامات الحريري، التي كان "دوساسي" قد نشرها. وفي عام 1846، كان "رينو" قد وصل إلى المجلس الرابع والأربعين من مقامات الحريري[1].

ومن الواضح أن الدراسات الاستشراقية، مدينة، في تطورها وازدهارها "لدوساسي" بعلاقاته مع الحكومة، وكثرة مراسلاته، وعلى الخصوص بتدريسه الذي لم ينقطع عنه، التدريس الذي خلف جيلا من المستشرقين اللامعين، بعضهم تتلمذ تتلمذا مباشرا عليه مثل: "لانجلس"LANGLES و"شيزي" [2] CHEZY و"كاترومير" QUATREMERE و"جوردان" JOURDAIN وغيرهم...[3] وبعضهم الآخر تتلمذ عن "دوساسي" تتلمذا غير مباشر مثل: "بيرسوفال" PERCEVAL، و"مولي" MULLET [4]. ذلك أنه في كالكوتا كما في لندن، والقسطنطينية، وسوريا، ومصر، كما في جرمانيا، وفي بطرسبورغ كما في باريس، كان "لدوساسي" عدد من الأتباع وجمع من أقطاب الثقافة[5]. كما ترك إنتاجا غزيرا من الكتب والمقالات ساهم من خلالها في الفكر الاستشراقي، وسيجدها القارئ مبثوثة في ثنايا الموضوع[6].

- "بيير أميدي جوبير" (Pierre – amedée JAUBERT (1779-1847:

---

(1) - - " Nécrologie", **J. A.**, 4 ^me^ série, T: 8, P: 563".

(2) – هو Antoine Léonard de CHEZY، مستشرق فرنسي، ولد بنويي في 15 جانفي 1773، وتوفي في 31 أوت 1832. دخل المدرسة المتعددة التقنيات عند تأسيسها، ولما كان تذوقه للعلوم محدودا فقد تركها وانهمك في دراسة اللغات الشرقية. دخل المكتبة الوطنية بباريس مهتما بالمخطوطات العربية والفارسية. استحدث له كرسيا للسانسكريتية بكوليج فرنسا عام 1814 وساهم بتدريسه الناجح في تخريج ألمع المستشرقين أمثال "بوب"، " بوب " وغيرهم. انظر:

- La Grande Encyclopédie T : 10, **op. Cité**, P : 1178.

(3) - و"دولاجرانج" De Lagrange و"دوتاسي" De Tassy و"رينو" Reinaud و"دوسلان" De Slane و"مونك" Munks و"شيربونو" Cherbonneau و"بريسني" Bresnier و"بيلان" Belin وغيرهم.

(4) – و"ديفرجس" Desvergers و"بيرون" Peron، وغيرهم كثير.

(5) - - A. JAUBERT, "Discours prononcé aux funérailles de M. le baron Silvestre DE SACY au nom de l'école spéciale des Langues Orientales et de la Société Asiatique", **J. A.**, 3 ^me^ série, T: 5, 1838; P: 395.

(6) – انظر حصرا مركزا لإنتاج "دوساسي" ضمن:

- Nouvelle Biographie, **op. Cité**, P : 988 – 993.

وكذلك: - La Grande Encyclopédie, T : **op. Cité**,

ولد "بإيكس آن بروفانس" في 3 جوان 1779، وكان والده يشتغل محاميا قبل سنين قليلة من الثورة الفرنسية التي غير رعبها مجرى كثير من الاهتمامات[1]، حينما تعرض المجتمع الفرنسي إلى هزات في أسسه. ولما شعر الوالد بعدم الأمن في مسقط رأسه، على غرار كثير من الرجال ذوي الوزن، ذهب إلى باريس وسط الشعب ينشد الأمن والعمل.

التحق الشاب "جوبير" في باريس بالمدرسة المتعددة التقنيات الحديثة النشأة والتي بدأت تدريجيا تملأ فرنسا بأعمالها ونجاحاتها. ثم ولى وجهه شطر "مدرسة اللغات الشرقية الحية"[2] التي أنشئت حديثا (1795) - أيضا- والتي كان من أساتذتها اللامعين "دوساسي" و"فونتير دوبارادي"[3] Venture De Paradis، وشرع في دراسة العربية والفارسية والتركية، التي أظهر فيها نبوغا، أهله في سن 19 لكي يصير عضوا في هيئة المترجمين.

رشح "جوبير" لتدريس اللغات بالقسطنطينية. ولما كان ينتظر الرحيل من "طولون" حدث أن أرسلت حكومة الإدارة في فرنسا، جيشا إلى مصر، وكان الجيش في حاجة إلى مترجمين للاتصال والتفاهم مع المصريين. فانضم "جوبير" إلى "فونتير دوبارادي" الذي عين على رأس المترجمين. وهكذا وجد "جوبير" نفسه ملتصقا بالجنرال "بونابارت" Bonaparte، بعد أن حاز على ثقته. وقد توفي "فونتير دوبارادي" أثناء الحملة على سوريا، فخلفه "جوبير" على رأس المترجمين[4].

---

(1) -Nécrologie, M. Pierre Amédée JAUBERT, **J. A.**, 4^{me} série, T: 9, 1847, P :80.

(2) - Ecole des langues orientales vivantes.

(3) - **"دوبارادي"** (1739- 1799)، لعب دورا معتبرا في مستقبل الاستشراق الفرنسي. كان ممارسا جيدا للعربية والتركية والفارسية. رافق البارون توت (1777- 1778) في المهمة التفتيشية إلى موانئ الشرق والتي كان الغرض منها دراسة إمكانية غزو مصر في حال تصدع الأمبراطورية العثمانية. ولما عاد "دوبارادي" إلى باريس، كلف بمهمة في المغرب قام بها أحسن قيام. عين إثرها ترجمانا بتونس التي بقي بها إلى غاية 1786. أمضى سنتين بالجزائر بغرض المساهمة في إنجاح مفاوضات تتعلق باستقرار التجارة. وأثناء إقامته بها، استكمل جمع عناصر معجمه حول البربرية الذي كان قد شرع في تأليفه بالمغرب، وكان أول من ألف معجما في البربرية. وبالجزائر أيضا ألف كتابه: الجزائر في القرن 18، نشر بعده في المجلة الإفريقية. انظر:

- ريغ، **مصدر سابق**، ص: 105- 107.

(4) - " Nécrologie", **J. A.**, 4 ^{me} série, P : 9, 1847, P : 81.

لما تحول الجنرال "بونابارت" إلى الأمبراطور "نابليون"، ولما التقــت توجهاتــه بتوجهات فرنسا، قرب إليه "جوبير"، وكلفه بعدة مهام ناجحة. فــضلا عــن تعيينــه بالترتيب، أستاذا للتركية "بمدرسة اللغات الشرقية" (1800– 1801)، وكاتبا مترجمــا للوثائق الدبلوماسية المتعلقة بالشرق لدى الحكومة، ومقدما للعرائض...الخ.

وقد كلف "جوبير" بمهمة لدى دول المغرب العربي عام 1802 والقسطنطينية عام 1804 لإبلاغهم بارتقاء وتسلم نابليون السلطة في فرنسا[1]. كما قام برحلة إلى بــلاد فارس عامي 1805 و1806، للتدارس مع الشاه في سبل مقاومة انجلترا وروســيا. وإذا كان قد نجح في مهمته هذه فقد وضع صبره على المحك حيث تعرض إلى السجن مــن طرف الباشا بيازيد ظل فترة من الزمن في سرداب، و لم يعد إلى فرنسا إلا عــام 1807. ومع ذلك فقد عاد بخبرات وتجارب ودراسة لعبقرية شعوب الشرق.

وقد تولى فيما بعد عدة مناصب منها إدارة "مدرسة اللغات الشرقية الحية" الــتي كان عميدها، ومستشاراً للدولة، وعضو المجلس الاستشاري (الشيوخ)، وأستاذ التركية "بكوليج فرنسا".

ليست غايتنا هنا رسم أو جرد مختلف أنواع النشاطات الــتي ميــزت حيــاة "جوبير"، ولكن يهمنا منها على الخصوص ما تعلق بالأعمال الشرقية والعلميــة الــتي كانت سببا في ضمه إلى الأكاديمية، والتي أعطت لدرسه في التركية طابعا وأهمية خاصة.

وقد جمع "جوبير" إلى جانب تذوقه للآثار وتراث الــشرق، تذوقــه لــلآداب والأبحاث العلمية. وأدى بترجمته الفرنسية لكتاب الجغرافيا للإدريسي خدمة معتــبرة، إذ وضع بين أيدي علماء الاستشراق كتابا أساسيا، لم يكن يعرف من قبل إلا عن طريــق مختصر صغير[2].

أما علاقة "جوبير" بالجمعية والمجلة الآسيوية فقد كانت أساسية، ذلك أنه يعتبر من مؤسسي الجمعية الرئيسيين، وهو رئيسها الثالث، وساهمت حماسته التي أظهرهــا نحــو

---

(1) - La Grande Encyclopédie, T : 21, **op. Cité**, P : 57.

(2) - "Nécrologie", J. A., 1847, **op. Cité**, P : 82.

يختارونه لخلافة "دوساسي" على رأس الجمعية و المجلة الآسيويتين. ويعترف زملاؤه بإخلاصه في إدارة شؤون الجمعية[1]، كما كان عضو مجلسها منذ نشأتها.

توفي "بيير أميدي جوبير" يوم 27 أكتوبر 1847، وشيعت جنازته وسط زحام كبير لأعضاء الجمعية الآسيوية وأساتذة معهد اللغات الشرقية، وأعضاء غرفة المجلس (الاستشاري) وممثلي الشعب (البرلمان)... وقد نعاه "رينو"، رئيس الأكاديمية الملكية للنقوش والآداب، الذي سيخلفه على رأس الجمعية والمجلة الآسيويتين[2]. وكان "لجوبير" عدة مساهمات في الاستشراق لاسيما ما يتعلق منه ببلاد فارس وتركيا، صدر البعض منها في المجلة الآسيوية[3].

- "توماس قزافيي دوبيانشي" Thomas – xavier DE BIANCHI (1783-1865):

ولد بباريس في 25 جوان 1783، من عائلة علم وعسكرية. كان والده فيزيائيا بارزا، وصاحب اختراعات عديدة أثارت اهتمام وإعجاب امبراطورة النمسا "ماري تيريز" (Marie Thérèse) وأمه هي الزوجة الثانية لأبيه، وهي فرنسية تحصل بسببها على الجنسية الفرنسية[4]. وبعد أن درس في المدرسة المركزية "لفانتينيبلو" (Fontainebleau)(بضواحي باريس)، أصبح أحد أبرز المواظبين على الاستماع لدروس "دوساسي" و"جوبير". التحق بمدرسة الشباب الفرنسية للغات بالقسطنطينية بصفته تلميذا مترجما، بعد أن أدخل إصلاحا مهما ضمن طاقم الترجمة، مرده إلى أن ممثل الملك لحقت به مذلة إثر الاتهامات التي وجهت إلى فرنسا أثناء الحملة على مصر[5]. وقد أدى إعادة تنظيم الموظفين والمستخدمين بالسفارة الفرنسية في القسطنطينية، إلى استرداد فرنسا جزءا من المكانة والتفوق الذي كان الملك "فرانسوا الأول" وضع

---

(1) - - Rapport annuel, J. A., 1847, **op. Cité**, P : 12-13.

(2) - - Nécrologie, J. A., 1847, **op. Cité**, P : 80.

(3) — انظر: - La Grande Encyclopédie, T : 21, **op. Cité**. P : 57.

(4) - - C. BARBIER DE MEYNARD, "Notice sur la vie et les travaux de M. BIANCHI", **J. A.**, 6 me série, T: 5, 1865, P: 175.

(5) - حاولت فرنسا تبييض صورتها والتكفير عن خطيئتها من خلال إيجاد مناصرين لها ومدافعين عنها في اسطنبول من خلال أداة الترجمة.

قواعده في القرن 16 م. وقد اعتمد الفرنسيون في عملية استرداد مكانتهم هذه أيضا على العنصرين اليوناني والأرمني اللذين قدما خدمات هامة لفرنسا. فكان أن صارت المهام الأساسية للترجمان من اختصاص الفرنسيين. وكانت المدرسة في القسطنطينية وعلى رأسها "دي كوروا"[1] DU CAURROY هي التي تعد المتخصصين. وكان للشباب الفرنسي الذين يدرسون الترجمة حق السير الحر داخل القسطنطينية والتحدث وإقامة علاقات يومية بالشعب، والمساهمة بمواهبهم في نجاح الدبلوماسية الفرنسية في الشرق.

كان "دوبيانشي" قد تخرج من صفوف هؤلاء، واستشعر المهام التي يمكن أن يقدمها يوما، وأعد نفسه إعدادا لائقا بالمواظبة على دراسة اللغة وعادات ومؤسسات الإمبراطورية العثمانية[2].

بعد التخرج أرسل إلى بلدة إزمير (بتركيا) عام 1811، فأدى مهام المترجم الثاني، ثم المترجم الأول بالقنصلية الفرنسية العامة، وبرز بسيرته وشجاعته أثناء وباء الطاعون الذي أودى بحياة كثير من سكان المدينة عام 1812.

وفي عام 1816 استدعي "دوبيانشي" إلى باريس كنائب لكاتب الملك المترجم للغات الشرق، وكلف بأن يكون دليلا لسفارتين أرسلتا من بلاط طهران إلى لويس الثامن عشر.

وفي سنة 1829 عندما همت فرنسا بإرسال جيشها إلى شواطئ مدينة الجزائر صار "دوبيانشي" كاتبا مترجما مكلفا بالقيام بمهمة صعبة لدى الداي.

وكانت هذه المهام والانقطاعات التي اقتضتها واجباته قد حادت به مؤقتا عن دراساته المحببة ومع ذلك فقد ظل خلال الستة والعشرين سنة (1816- 1842)، التي سبقت إحالته على التقاعد، يوزع وقته بين تأليف الكتب (القواميس) وتدريس التركية بالمدرسة المسماة "شباب اللغات بباريس" وكوليج "لويس لوجران".

---

(1) – هو De La Croie Adolphe-Marie DU CAURROY (1850-1788). انظر ترجمة له:
- La Grande Encyclopédie, T : 14, **op. Cité**, P 1179.

(2) – DE MEYNARD, "Notice sur la vie", J. A., 1865, **op. Cité**, P : 175.

أحيل على التقاعد عام (1842)، فاستغل أوقات فراغه في مساعدة دول أوربية في علاقاتها مع الإمبراطورية العثمانية بمؤلفات عديدة وإحصائيات ومعلومات عن الإدارة العثمانية، وكتب وجيزة ودلائل للحوار، وقوائم الكتب المنشورة بالقسطنطينية... إلخ. كما كانت مهمته مركزة على معرفة واقع تركيا وقتذاك، وقد مارس "دوبيانشي" تأثيرا على تبادل المعارف مع العالم الإسلامي، وشكل كل ذلك مادة معرفية أثرى بها لمدة، المجلة الآسيوية دون أن ننسى قواميسه التي بدأ نشرها عام 1831، ولم يتوقف عن تطويرها إلى غاية وفاته وكانت السبب في شهرته. هذا وقد كان أحد المؤسسين للجمعية الآسيوية وعضو مجلسها سنين عديدة[1].

وجد "دوبيانشي" في عطف ووفاء زوجته، وفي محبة ابنتيه، والتأمل في أعماله المفضلة -طوال فترة تقاعده- ما ينسيه ويعوضه عن المتاعب. وقد توسل طوال سنتين "لجوبير" بخصوص كرسي التركية بمعهد اللغات الشرقية الحية. فلما صار الكرسي شاغرا آخر سنة 1864 بوفاة "ديبو"[2] DUBEUX ، عرضه عليه بالإجماع أساتذة المدرسة وأكاديمية النقوش الكتابية. ومنح مكافأة أدبية من قبل وزير التعليم العمومي، كل ذلك أثبت له أن خدماته الطويلة بفرنسا معترف له بها وأن كفاءته مقدرة باستحقاق.

توفي "دوبيانشي" يوم 1865/04/14 إثر مرض قصير، تاركا وراءه ذكريات، وتجارة رابحة، وتلاميذ كثرا[3]. ومساهمات فكرية عديدة مبثوثة في ثنايا هذا البحث.

- "جوزيف توسان رينو" Joseph Toussain REINAUD (1867-1795)

ولد في 4 ديسمبر 1795 "بلامبيز"(Lambesc ou/ Lambese) ، بإقليم بروفانس بفرنسا، ودرس "بإيكس" أين امتاز بحماسة كبيرة نحو العمل. جاء إلى باريس

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1864, **op. Cité**, P : 27.

(2) - هو Louis DUBEUX، مستشرق فرنسي، ولد بلشبونة في 2 نوفمبر 1798. قضى شبابه بباريس أين درس. اشتغل أمينا بالمكتبة الملكية ابتداء من 1816 إلى عام 1848 حيث استدعي لشغل كرسي التركية بمدرسة اللغات الشرقية الحية إلى غاية وفاته في أكتبر 1863. كما شغل كرسي العبرية بكوليج فرنسا قبل أن يتولاه "رينان". شرع في ترجمة النسخة الفارسية من تاريخ الطبري، وقد أنهى الجزء الأول منها قبل وفاته، وواصل "زوتنبرغ" المشروع باستحقاق إلى نهايته. انظر:

- La Grande Encyclopédie, T : 14, **op. Cité**, P : 1152.

(3) - DE MEYNARD, "Notice sur la vie", J. A., 1865, **op. Cité**, P : 182.

عام 1814 لإنهاء دراسته الاكليركية[1] (Ecclésiastique) أو الكنسية ومزاولة دروس في اللغات الشرقية يمكن أن تكون عونا له فصار مثله مثل "فريتـــاق" FREYTAG[2] الألماني تلميذ "دوساسي" -الذي جاءت به حظوظ حروب نابليون إلى باريس- مما قرر مصير حياته كاملة، إذ استهواه الاستشراق فظل وفيا له طوال ما تبقى من حياته.

وفي سنة 1818، رافق "دوبورتاليس"[3] Deportalis ككاتب، إلى روما، أيـــن واصل دراساته على يد المبشرين الموارنة، وهناك اهتم بالمسكوكات الإســـلامية، علـــى وجه الخصوص، ومع عودته إلى باريس كلف "رينو" مـــن طـــرف رجـــل الـــسياسة "بلاكاس" Blacas بتحرير وصف الجزء الإسلامي من مجموعه المتعلق بالعصور القديمة والسكة، وقد بدأ التعريف به عام 1820 من خلال رسالة بعث بها إلى "دوساسي"[4]. غير أنّ العمل ككل لم يظهر إلا سنة 1828[5] في جزئين[6]، وهـــو يـــشكل مؤلفـــا حقيقيا في النقوش العربية، وأول ما ظهر منها، ولعله الوحيد -على الأقـــل- إلى غايـــة 1867 وهو أكثر مؤلفات "رينو" نفعا.

أخذ "رينو" ينجذب نحو الدراسات التاريخية منذ كلف بخزانة المخطوطات بمكتبة الملك عام 1824. فقد تخلى منذ هذا التاريخ أو كاد، عن ميوله الكنسية التي ربط بهـــا مصيره منذ الصغر، وحتى اسمه الشرفي "الأب" (L'abbé) الذي حملته مؤلفاتـــه الأولى

---

(1) – يشير مصطلح الإكليركية على العموم إلى الأشخاص والأشياء المنتمين إلى الكنيسة وكل الأشخاص الذين هم في خدمة الكنيسة من أعلى موظف إلى أدناهم. انظر:

- La Grande Encyclopédie, T : 15, **op. Cité**, P : 251

(2) – مستشرق ألماني (1788– 1861)، جاء إلى باريس عام 1815 لتعلم العربية على "دوساسي". انظر:

- **نفس المصدر السابق**، ج 18، ص: 164.

(3) – هو (Joseph-Marie Comte PORTALIS (1778- 1858. انظر: **نفس المصدر**، ج 27، ص: 357-358.

(4) - -Lettre à M. De Sacy, sur la collection de monuments Orientaux de M le comte Blacas, Paris, 1820, **J. A**, 6ème série, T : 10, 1867, P : 18.

(5) - - Rapport annuel, J. A., 1867, **op. Cité**, P : 18.

(6) - - REINAUD, **Monuments arabes, Persans et trucs**, du cabinet de M. le duc de Blacas et d'autres cabinets, …les moeurs et l' histoire des nations Musulmanes, Paris, 1828.

تخلى عنه أيضا. كما تخلى عن دراساته للمسكوكات والنقوش التي شغلته حتى ذلــك الحين، ليتفرغ كلية لتاريخ الشرق[1] .

بدأ "رينو" مؤلفاته التاريخية والجغرافية الطويلة، بنشر مقتطفات لمؤلفي الــشرق تتعلق بالحروب الصليبية، مما يدل على أنه لم يتخلص كلية من نزعته المسيحية واقترح عليه "دوساسي" سنة 1834 مشروع نشر النص العربي لجغرافيـــة أبي الفـــداء بمعيـــة "دوسلان"، وباسم الجمعية الآسيوية وبتمويل منها، اعتمادا على المخطوط الأصـــلي والأصيل، المحفوظ "بليد" (Leyde) . وقد اكتمل النشر عام 1840، فكـــان الإنجـــاز مفخرة للجمعية[2]. ثم أعقبها "رينو" بترجمة للكتاب وأصدر الجزء الأول منه وكـــذا القسم الأول من الجزء الثاني عام 1848[3]، ثم شغلته أعمال أخـــرى حالـــت دون إكماله[4].

لما توفي "دوساسي" خلفه "رينو" في كرسي العربية في مدرسة اللغات الـــشرقية الحية كما أسلفنا، ثم خلفه أيضا في إدارة المخطوطات الشرقية بالمكتبة الملكية.

أما الجمعية الآسيوية والمجلة فقد ظل على رأسهما طوال عشرين ســـنة (1847-1867)، وكان عمله بطيئا ولكنه متواصل.

توفي "رينو" سنة 1867 بسبب الإرهاق الذي لم يحترم فيه حق سنه وضعف قواه[5].

- "فولجونس فريسنال" (Fulgence FRESNEL (1795-1855:

ولد "بماثيو" (كالفادوس) في 15 أفريل 1795. وتوفي والده وهو في سن مبكرة، فجاءت به أمه إلى باريس لتعليمه هو واثنان من إخوته. وبعد دراسات لامعة بالثانوية،

---

(1)_ - Rapport annuel , J. A, **op. Cité**, P : 19-20.

(2)_ - REINAUD et DE SLANE, **"géographie d' Aboulféda"**, texte arabe publié D'après les manuscrits de Paris et de Leyde.

(3)_ - REINAUD, **géographie d'Aboulféda**, traduite de l'arabe en français et accompagnée de notes et d'éclaircissement, Vol I et II, paris, J. a, 6 6éme Série, J. A, T : 10, 1867, P : 21, 1848.

(4)_ - Rapport annuel, J. A., 1867, **op. Cité**, P : 21.

(5) - **نفس المصدر السابق**، ص: 22.

اتجه نحو العلوم الدقيقة. وترجم كتابا في كيمياء "برزيليوس". غير أن حيوية خياله وفضوله العلمي وقوة ذاكرته واستعداده لاكتساب الجديد، كل ذلك ساهم في توجيهه نحو اهتمامات أخرى[1]. فقام بمحاولات أدبية، وانجذب نحو الصينية بتأثير من "ريموزا"، ثم تركها واهتم باللغات السامية التي بقي وفيا لها طوال حياته، فدرس العربية على "دوساسي"[2].

وفي سنة 1826 توجه إلى مدينة روما أين درس على الموارنة المتعلقين بمجمع التبشير. ثم انتقل إلى القاهرة التي قرر الإقامة بها عام 1831 واتخذ الشيخ محمد الطنطاوي[3] أستاذا له في دراسة العربية.

درس "فريسنال" الشعر العربي القديم بشغف. واعتبر ذلك اكتشافا إلى حد ندم فيه على أنه اكتشف وجهته الصحيحة متأخراً وأن ما بقي من عمره القصير لا يمكّنه من التعمق أكثر في أسرار تلك الأشعار الفظة. ومع ذلك لم يحدث أن نجح واحد قبله في جمع صورة لتلك العهود الجاهلية، وإعادة الحياة لمشاعر عالم بعيد عن عالم أوربا زمانا ومكانا.

بدأ "فريسنال" نشر أول عمل عن شعر الشنفرى، بعد عدة سنوات من الدراسة. وقد كان فنانا أكثر من المتوقع[4]. كتب في الأجزاء الأولى من مؤلفه "تاريخ العرب قبل الإسلام"[5]، عن عاداتهم في الجاهلية وشعرهم، ولكنه لم ينه هذه الدراسة.

ترك القاهرة لأسباب اقتصادية، وقرر الإقامة بطنجة، ومن هناك أرسل "الشيخ محمد" إلى مكتبات فاس لنسخ كتب لم يعثر عليها في القاهرة[6]، ولم يكن للأوروبيين

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1856, **op. Cité**, P : 12.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 13.

(3) - محمد عياد الطنطاوي (1225-1278 هـ /1810 -1861 م). أديب ومدرس مصري. تعلم وعلم بالأزهر، واتصل به بعض المستشرقين، فدعي لتدريس اللغة العربية في معهد "اللغات الشرقية" بطرسبورغ (لينينغراد) فسافر سنة 1256 هـ /1840 م، واستمر إلى أن توفي بها، وقد تخرج عليه بعض المستشرقين من الروس وغيرهم. — الزركلي، ج 6، **مصدر سابق**، ص: 320.

(4) — **نفس المصدر**، ص: 14.

(5) — ظهر الجزء الأول من الرسالة لدى "دوبرا" (Duprat)، باريس، 1836. أما الموالية فضمن:

- **J. A**, 3ème série, T: 3 et T: 4.

(6) — Rapport annuel, J. A., 1856, **op. Cité**, P : 14.

الحق في الدخول إلى العاصمة فاس ولا إلى غيرها من مدن وقرى المغرب لاعتقاد المغاربة أن بلدهم أرض الأولياء والصالحين.

غير أن الإفلاس لاحق "فريسنال" إلى طنجة، مما اضطره عام 1837 إلى قبول منصب عضو بالقنصلية الفرنسية بجدة[1]. وهناك اهتم منذ وصوله بالجغرافية القديمة والحديثة لشبه الجزيرة[2] ودراسة لهجات جنوب شبه الجزيرة العربية ومنها لهجة الحضارمة "أهكيلي أو المهرة" والحميرية والتي لم يبق لها من أثر إلا عدد الكلمات التي جمعها "الفيروز آبادي"، ومعجميون آخرون. وقدم تقرير اكتشافه في دراسته الرابعة والخامسة عن "تاريخ العرب في الجاهلية"[3] وشرع في نشر لسان "أهكيلي" كلما تجمع لديه شيء منه، وكان يستعمل في ذلك سمساراً معروفاً باسم "مَحَسن"، من حضرموت، وكانت لغته، لغة حضرموت[4]، ثم اجتمعت لديه عدة وقائع وكذلك المعلومات التي عاد بها إلى فرنسا الصيدلي -لدى إمام سبأ- "آرنو"ARNAUD عن جغرافية جنوب شبه الجزيرة العربية، ومئات النقوش الحميرية بصنعاء وآثار "الخريبة" و"سد مأرب" التي ظلت تنتظر استكشافات الرحالة في بلد لا يرحب بالأجانب، فلا يمكن للأجنبي أن يدخله في أحسن الأحوال إلا بحماية. وبالرغم من أن "آرنو" عاد إلى اليمن مرات إلا أن رحلاته لم تكن مثمرة نظراً للصعوبات والمخاطر، ومحدودية الإمكانيات والوسائل، فلم تعرف مشكلة اللغة ولا النقوش اليمنية حلا خلال الفترة التي تعنينا[5].

---

(1) - عندما قام "ليون روش" برحلته إلى الحجاز بتكليف من الماريشال "بوجو" قدم "فريسنال" مساعدة كبيرة "لروش" سواء في القاهرة أو في جدة، وهو الذي مهد له الطريق للاجتماع بشريف مكة والحصول على الفتوى الشهيرة.
انظر: - أبو القاسم سعد الله، **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2003، ص ص:322ــ 344.

(2) - **J. A,** 3éme série, T : 10.

(3) - **J. A,** 3éme série, T : 5 et T : 7.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1856, **op. Cité**, P : 15.

(5) - Th. Arnaud, pièces relatives aux inscriptions himyarites, découvertes par Arnaud, **J.A.** , 4éme série, T: 5 et suivant.

- وكذلك: - Rapport annuel, J. A., 1856, **op. Cité**, p : 16.

في نفس الأثناء ظل "فريسنال" طوال عشرين سنة، يفكر في مشروع توجه قافلة الحجاج الجزائريين إلى البقاع المقدسة على غرار قوافل بلاد فارس وتركيا ومصر، تحت حماية العلم الفرنسي[1]. تنطلق القافلة -في تصوره- من الجزائر، مروراً بالصحراء إلى حدود "البورغو"[2] (Borgou) (بالنيجر) محاذاة للسودان، ومروراً بسنار، والبحر الأحمر إلى القُصَيْر وصولا إلى مكة. وفي أثناء الطريق تكون القافلة قد تضخمت بانضمام قوافل مغاربية صغيرة وزنجية إليها. وكانت أمنية "فريسنال" أن يرى فرنسا في قلب أقاليم إفريقيا الإسلامية "حامية" لعناصره، ويكون ذلك مطية لفتح طريق واسع للتجارة الفرنسية في إفريقيا الوسطى. وكانت العقبة الكبرى لتحقيق المشروع هي الصحراء الشاسعة وقلة المياه، لذلك كان يرى أن البحث عن آبار ارتوازية من شأنه أن يجذب التجارة الداخلية. وبالرغم من أن "فريسنال" قام برحلات لاستكمال المعلومات تحقيقا للمشروع، إلا أن ثورة 1848[3] في فرنسا وضعت المشروع طي النسيان[4].

وفي رحلة من رحلات "فريسنال" إلى بنغازي (ليبيا) في إطار المشروع السالف الذكر، قام بحفريات في خليج سرت، وعثر على بقايا إغريقية. ونصح قنصل فرنسا ببنغازي "دوبورفيل" De Bourville، بالقيام بحفريات أخرى، وقد فعل.

---

(1) ـــ كون الجزائر بعد 1830 (سيما في عهد بوجو 1841 – 47) أصبحت تحت الاحتلال الفرنسي.

(2) - هناك مدينتان اليوم باسم "بورغو" إحداهما في الكاميرون والثانية بالطوغو.

(3) ـــ لم تقتصر ثورة 1848 على فرنسا وحدها بل شملت عددا من الدول الأوربية للتخلص من أنظمة الحكم القائمة أو للتحرر من السلطان الأجنبي. من أبرز أسبابها، رداءة المواسم الزراعية وتدفق الفلاحين على المدن للعمل في المصانع (في فرنسا)، واختمار مبدأ القومية (في إيطاليا وألمانيا)، ونشر البيان الشيوعي.

ترجع أسباب الثورة في فرنسا على الخصوص، إلى السياسة الرجعية المتزايدة التي كان يمارسها الملك لويس فيليب "العجوز" ووزيره "غيزو" Guizot. بدأت الثورة في (22 – 24 فبراير) فتخلى الملك لويس فيليب عن العرش ونودي بـــ "لويس نابليون" رئيسا للجمهورية الفرنسية الثانية. ثم انتشر لهيب الثورة في أوربا... لكن القوات الفرنسية قضت على تلك الجمهورية وهي بعد في المهد.

ـــ موسوعة المورد، ج 8، **مصدر سابق**. انظر كذلك:

ـــ موسوعة السياسة، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 848 – 849 و 914.

- **الموسوعة العسكرية**، ج 1، ج 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1977، ص: 411 - 412.

(4) - - Raport annuel, J. A., 1856, **op. Cité**, p : 19.

انتقل "فريسنال" في مطلع الخمسينيات إلى جدة لفترة قصيرة –وكان قد قضى بها فترة كما أسلفنا– و لم تعد صحته تسمح له بالإقامة في جو حار. فعين قنصلا بالموصل ولكنه رفض المنصب وعاد إلى باريس.

وفي سنة 1852، كلف بترؤس بعثة علمية حكومية إلى بلاد ما بين النهرين، فدخلها عن طريق حلب وديار بكر، وبالرغم من الصعوبات التي تلقتها البعثة التي حاصرها عرب الصحراء إلاّ أن "فريسنال" تمكن من الوقوف على آثار بابل. ولما استدعيت البعثة، رفض "فريسنال" العودة إلى فرنسا، لأنه كان يحلم بوضع أسس مدرسة أثرية فرنسية في بغداد حيث أقام وعاش مدة، إلا أن صحته تدهورت بسبب الأتعاب التي لحقت به أثناء البعثة، وكذلك إدمانه على الأفيون، فتوفي ببغداد في 30 نوفمبر 1855 عن عمر يناهز الواحد والستين سنة.

نشرت له عدة أعمال في المجلة الآسيوية ساهمت في إعطائها قيمة خاصة[1].

– "فرانسوا ويبكي" François WOEPCKE (1826-1864):

يعتبر "ويبكي" نموذجا للمستشرقين الذين خدموا الاستشراق الأوربي باللغة الفرنسية، لأجل هذا أوردناه ضمن المستشرقين الفرنسيين بالرغم من أنه ألماني الأصل[2].

ولد "بديسو"(Dessau)، على وادي "مود" (Mude)، بألمانيا، عام 1826. وبعد دراسته "بويتنبرج" انتقل إلى جامعة برلين أين انقطع –تقريبا– في كلية للدراسات الرياضية. ومن هناك إلى "بون" أين درس العربية على "فريتاق" FREYTAG، ليؤهله ذلك لدراسة الرياضيات العربية. وكان قد رسم خطة لتاريخ الرياضيات منذئذ، الخطة التي ستملأ حياته ويداوم عليها، رغم الصعوبات العديدة.

جاء "ويبكي" إلى باريس سنة 1850 ومكث فيها إلى سنة 1855. اتبع دروسا عديدة، ودرس المخطوطات المتعلقة بالرياضيات في المكتبة الإمبراطورية. وقد نشرت

---

(1) ـــ نفس المصدر السابق، ص: 19– 20.

(2) ـــ سيأتي توضيح هذه المسألة في سياق هذا المبحث.

له عدة أعمال حول تاريخ الرياضيات عند الهنود والعرب والصينيين[1].

كان "الجبر الخيامي"[2] نصا وترجمة، أول عمل نشر له. ثم مقاطع عديدة لعلماء عرب متخصصين في الجبر. وكان هدفه هو إبراز ما أضافه العرب للنتائج التي توصل إليها "ديوفانت" Diophante فكان أن برهن على أهم توصلوا إلى البرهان المنتظم للمعادلات من الدرجة الثالثة. وأن العرب كانوا أول من طبق الجبر على الهندسة والعكس بالعكس، وهو المنهج الذي ساهم فيما بعد في تطور العلوم الرياضية.

حمل كتابه الأول، "الجبر الخيامي"، بصمات فكره وخصائص ومميزات كل أعماله اللاحقة. فقد امتاز بضمير متشكك مدقق، يخشى أن يعلن النتيجة اليقينية ذات المقدمات المنطقية. كما امتاز بفطنة اهتدى بها إلى المناهج التي توصل بها الرياضيون العرب إلى مكتشفاتهم. وكان يحب أكثر التفويض للقراء وتركهم يستخلصون بأنفسهم النتائج، مع ثقته في نتائج بحثه[3].

غادر "ويبكي" باريس سنة 1856 لأسباب عائلية، وأقام ببرلين أين كلف بتدريس الرياضيات، وهو المنصب الذي شغله مدة سنتين، قدم استقالته على إثرها سنة 1858، عاد مجددا إلى باريس واستأنف دراساته ومنشوراته. وقد تمكن خلال الخمس سنوات الموالية من إصدار عدد هائل من الأعمال، في مجال الرياضيات الصرف وحول تاريخ علم الرياضيات، نشر العديد منها في المجلة الآسيوية، نذكر من أبرزها مقاله الطويل الذي صدر في عدة حلقات حول انتشار الأرقام الهندية...

كان "ويبكي" يعاني من ضعف في الصحة، و لم يستطع مقاومة العمل المكثف الذي كان يشغله، وقد توفي منهك القوى عن عمر يناهز الثامنة والثلاثين سنة. في وقت كانت فيه الكثير من أعماله جاهزة لترى النور[4].

تلك إذن عينات من حياة بعض المستشرقين على سبيل المثال لا الحصر، وهناك غيرهم كثير لعلهم أجدر بأن نعرف بهم في موضوعنا أمثال: "شيربونو"

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1864, **op. Cité**, P : 17.

(2) - نسبة إلى عمر الخيام. انظر ترجمته ص: 422.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 18-19.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 21- 22. انظر أيضا قائمة مؤلفاته: **نفس المصدر**، ص: 22- 24.

Le baron DE [2]"البارون ديـــسلان" ،[1](1813-1882) (CHERBONNEAU SLANE (180- 1878) و"موهل"[3] MOHL (1800- 1876).

*   *   *

تعود ولادات ما يمكن الاصطلاح علـــى تـــسميتهم بـــالرواد إلى الـــستينيات والسبعينيات من القرن 18 م، بميلاد نحو من عـــشرة علمـــاء شـــكلوا رواد الظـــاهرة الاستشراقية الجديدة من حيث اهتمامهم بالدراسات الشرقية والتكوين العلمي في هـــذا المجال والمساهمة في إرساء تقاليد علمية ومؤسسات استشراقية.

أما ولادات أفراد ما يمكن الاصطلاح على تسميتهم بالجيل الأول من المستشرقين الفرنسيين المعاصرين -بالمفهوم الغربي للفترة المعاصرة[4]- على العمـــوم ومستـــشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين على الخصوص، فتعود إلى الفترة الممتدة بين 1790 و1810.

إن المتمعن في الرسم البياني[5] لولادات هؤلاء المستشرقين يتبين له تنامي ولاداتهم بشكل ملفت للانتباه إذ ولد 11 عالما بين 1790 و1800، فإذا مددنا الفتـــرة نلاحـــظ استمرار تنامي الظاهرة واطرادها إذ يرتفع عددهم إلى 21 عالما بين 1790 و1810.

كما نلاحظ بداية عطاء هؤلاء في العشرينيات من القرن 19، مما يشكل البدايـــة الفعلية للجيل الذي سيواكب انطفاء شموع الرواد واحدة بعد الأخرى. ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى انتهى الرواد، إلا ما ندر ممن طالت أعمارهم.

---

(1)- Rapport annuel du 6/ 07/ 1883, **J. A.**, 8 me série, T : 2, 1883 P : 18-19.

(2)- Rapport annuel du 28/ 06/ 1879, **J. A.**, 7 me série, T : 14, 1879, P : 16 – 19.

- انظر أيضا: سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 6، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص: 70- 72.

(3)- Rapport annuel du 28/ 06/ 1876, **J. A.**, 7 me série, T : 8, 1876, P : 12-27.

- انظر أيضا: ريغ، **مصدر سابق**، ص: 155- 156. وكذلك:

- عبد الحميد صالح حمدان، **طبقات المستشرقين**، مكتبة مدبولي، د. م. ط.، د. ت. ط.، ص: 77. (يرجح طبع الكتاب إلى نهاية التسعينيات بدليل أن مراجعه تمتد إلى 1995).

(4)ـــ تبدأ الفترة المعاصرة، كما هو معلوم، من الثورة الفرنسية عام 1789م.

(5)- انظر: الملاحق، ص: 487.

وإذا اعتمدنا نظرية ابن خلدون[1] التي مفادها أن عمر الجيل يقدر بنحو أربعين سنة من العطاء، أعني ستين سنة من امتداد العمر الكلي للفرد، نلاحظ صحة هذه النظرية مع مستشرقينا، ذلك أننا نشهد نهاية لحياة جلهم في أقل من العشرين سنة الأخيرة من موضوعنا الممتد بين 1822 و1872. ففي مدة ثماني عشرة سنة أي بين 1852 و1870 انطفأت شمعة 21 عالما من علماء الجيل ويمكن ملاحظة تسارع ظاهرة الانطفاء خلال العشر سنين الأخيرة إذ توفي تسعة علماء في ظرف أربع سنوات (1864-1867)، وأثنى عشر عالما خلال ست سنوات فقط (1864-1869).

وبذلك لم ينته عام 1872 إلا وقد انتهى عمر عطاء الجيل وتوفي حوالي أربعة وثمانين في المائة منهم، ولم يبق من أفراد الجيل إلا ما ندر، والمهم أن الحالات النادرة تجاوزت بدورها عمر العطاء أي الستين سنة. ومن الأمثلة على ذلك "سانقينيتي" (72 سنة)، و"دوسلان" (77 سنة)، و"ديرنبورغ" (84 سنة)، و"بارجيس" (86 سنة)، و"بواسوني" (91 سنة). وللإشارة فإن أعمار أفراد مستشرقي الجيل الأول تراوحت بين 38 سنة و91 سنة، كما أن نسبة الذين تجاوزت أعمارهم الستين سنة تفوق الأربعة والثمانين في المائة.

ثم لابد من الإشارة -للتوضيح- أنه من غير الممكن، فيما يتعلق بالأجيال، الاعتماد كمؤشر لبداية جيل أو نهايته، سنة بعينها، ذلك أن الأمر لا يتعلق بعلوم دقيقة، فلا مجال للجزم بالتواريخ لأننا بصدد مجايلة. والمجايلة يتداخل فيها رجال الاستشراق، فيتعايش كهول الجيل السابق مع شباب الجيل اللاحق، وتتطابق نهاية جيل مع بداية آخر بما يشبه انسلاخ الليل والنهار أو تقاطع فصول السنة.

وقد لاحظنا من مؤشرات نهاية الجيل الأول، فضلا عن الوفيات، كثرة الاستقالات لأسباب بعضها صحي والبعض الآخر من المرجح أنه تعبير ربما عن عدم انسجام الجيلين أثناء تقاطعهما.

---

[1] – ابن خلدون، المقدمة، **مصدر سابق**، ص: 94 - 95.

وإذا اعتبرنا الجيل الأول أشبه ما يكون بالجيل الأول للحضارة فهو يمتاز بـإرادة خاصة لعناصره، وحرصهم وحزمهم وتبنيهم أصول المادة الاستشراقية كقاعدة عامة، واعتمادهم الموضوعية كقاعدة أيضا. وباختصار، نحن بصدد جيل يمتاز بفعل بناء الاستشراق كاختصاص علمي وتخصص، وهو بذلك يتميز عن الجيل اللاحق المستهلك، فجيل الانحطاط الذي يليه.

ولابد من القول هنا، أنه مع مجيء "رينان" واحتلاله منصب كاتب الجمعية ثم تربعه على كرسي رئاستها، دشن مرحلة انغلاق على النفس الاستشراقية الفرنسية. فبدأ الاستشراق الفرنسي يأخذ مجرى آخر بلغ أوجه -ربما- في مناظرة كتابية بين "رينان" والشيخ جمال الدين الأفغاني، بصدد محاضرة ألقاها رينان في السربون عن الإسلام والعلم[1]، عام 1883 م.

لا شك أن خَلَف الجيل الأول لم يكن يقّدر فعل السلف البناة للاستشراق حق قدرهم، لأنهم لم يشهدوا الصعوبات الأولى، لكنهم وجدوا كل شيء ممهدا، فاستغلوا الاستشراق، ففترت إرادتهم. ولا غرابة عندئذ أن تعتريهم مظاهر الانحراف عن صميم الاستشراق خاصة مع بداية انقراض قدوتهم من عناصر الجيل الأول بالوفاة تارة أو الاستقالة -كما أسلفنا- أو التقاعد تارة أخرى. ولا سيما في ظل النزعة الاستعمارية وموجتها العارمة التي ستعرفها أوربا في الثلث الأخير من القرن 19 م، لاسيما بعد مؤتمر برلين عام 1878 [2].

---

(1) - زعم رينان في محاضرته (التي ترجمها إلى العربية فيما بعد، حسن أفندي عاصم وطبعت في القاهرة مصحوبة برد)، إن الإسلام لايشجع البحث العلمي، فرد عليه الأفغاني بمقال ظهر أولا في Journal des Débats. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ج: 7، **مصدر سابق**، ص: 95-101.

(2) - عقد المؤتمر بين قادة الدول الأوربية المهمة بغرض الوصول لقرار بشأن مناطق البلقان التي كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية. وكان على الأتراك -حسب ما نصت عليه اتفاقية سان ستيفانو عام 1878- التنازل عن معظم أراضيهم في البلقان. ولما لم تكن الدول الأوربية ترغب في أن تسيطر روسيا على البلقان، اعتمدت قرارات مؤتمر برلين على تغيير معظم ما وضعته روسيا في اتفاقية سان ستيفانو. وقد ترك المؤتمر مرارة عند بعض الدول. ويعتقد بعض الخبراء أنه قاد إلى اندلاع الحرب العالمية الأولى. انظر:

- الموسوعة العربية العالمية، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 354.

يتوزع مسقط رأس المستشرقين الفرنسيين على رقعة جغرافية واسعة، تتعدى أحيانا نطاق فرنسا. ويتركز الفرنسيون الأقحاح منهم، خاصة في العاصمة باريس وضواحيها، "كدوساسي" و"لانجلس" و"مارسيل" و"دولابورت" و"دوكاترومير" و"بيانشي" و"بواسوني" و"بيلان"، فيما يتوزع القسم الثاني منهم على الجزء الشمالي الغربي، "كدي كوروى" و"فريسنال" و"رينان". وأما القسم المتبقي الأقل عددا، فيتوزع على الجزء الجنوبي الشرقي من فرنسا، "كجوبير" و"رينو" و"دوقا" و"دي مينار"، ونسبة ضئيلة منهم تتركز في الجزء الأوسط، "كدولاستيري" و"آمبي"، فالجزء الشرقي، "ككيفر".

وهناك مستشرقون آخرون يحسبون على الاستشراق الفرنسي وعلى الجمعية والمجلة دون أن يكونوا فرنسيي المولد، ولكنهم ارتبطوا بفرنسا إما مصاهرة أو تجنسا أو تتلمذا أو عن طريق التأليف باللغة الفرنسية، أو الإقامة في فرنسا وخدمتهم لمؤسسات استشراقية فرنسية أو عن طريق المراسلة واستكتاب الجمعية والمجلة لهم أو غيرها من الطرق. ومن هؤلاء يوجد بروسيون "كفريتاق" و"بوب" و"مول" و"مونك" و"ويبكي"، ومنهم النمساوي "كرافت" والايرلندي "دوسلان" والبريطاني "كيرتون" والبرتغالي "ديبو" ذو الأصول الفرنسية، وغيرهم[1].

وقد جمع هؤلاء ككل، الاهتمام المشترك والاختصاص والتكامل والعاصمة باريس، أين يتركز معهد اللغات الشرقية والجمعية الآسيوية الفرنسية ومجلتها.

والمستشرقون الفرنسيون أصول ومعادن. "فبيانشي"، ينحدر من عائلة جمعت بين السيف والقلم[2]. وكان "بواسوني" من أصول أرستقراطية. وينحدر "دوكاترومير" من أسرة عريقة في الوجاهة والحروب وفي العلم والأدب[3]. وكذلك كان "دوتاسي"، ذا

---

(1) - انظر توزيع المستشرقين على خريطة أوربا ضمن الملاحق.

(2) - Nouvelle Biographie, T: 42, **op. Cité**, P : 987 – 992.

(3) - نجيب العقيقي، **المستشرقون**، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص: 171

نسب رفيع[1]. و"لدوبرسفال" من أبيه شهرة[2]. وكان "بلان" من الأشراف الـــذين أتت الثورة الفرنسية على ثرواهم[3].

وقد ترعرع جمع من المستشرقين في كنف آبائهم الذين امتازوا بشهرة علميـــة، ومن هؤلاء "بيانشي" الذي كان والده فيزيائيا بارزا. وكان والد "آمبير" رياضيا شهيرا. وكان والد "جوبير" محاميا، و"جودا" صيدلانيا ساميا بالجيش الفرنسي، ألهمه في ســـن مبكرة تذوق العلم. و"مارسيل" هو حفيد "غليوم مارسيل" المؤرخ الفرنسي الـــشهير. وكذلك كان "دوكاترومير" و"ديبرسفال" كل منهما كان من أسرة ذات وجاهـــة في العلم والأدب. أما "بيرنوف" فهو ابن المؤلف الشهير في "نحو الاغريق". و"جومار" ابن رجل معتبر، كان لفترة وزير الحرب.

ولا غرابة في جو مشحون بالعلم والمعرفة (لأننا في جو لصيق بعصر الاســـتنارة)، أن ينعكس ذلك إيجاباً على الحياة العامة حتى أن بعض المستشرقين نشأوا يتامى منذ سن مبكرة ولكنهم وجدوا كل الاهتمام والعناية والرعاية من أمهاهم في ظل هذا الجو. من ذلك مثلا "دوساسي" الذي فقد أباه في سن السابعة، فرعته أمه وكانت توفر له المؤدبين حتى في البيت. وكذلك "فريسنال"، الذي كفلته أمه وجاءت به إلى بـــاريس للتفـــرغ لتعليمه هو واثنان من إخوته. و"مارسيل" الذي تربى في كنف أمه أيضا.

ولم يكن هذا الجو خاصا بفرنسا ولكنه كان ظاهرة عامة في أوربا، من ذلك أن المستشرق "مونك" الألماني الأصل، الفرنسي الشهرة والإقامة كفله صديق أبيـــه. وأمـــا "كريتون" البريطاني مراسل الجمعية والمجلة الدائم، فيما بعد، فقد همت أمه ببيع أرض لها كي تصرف على دراسته، مما يوحي بأهمية العلم والاهتمام به وقتئذ.

كان الجو العلمي السائد في أوربا يغمره أيضا محيط من المشاعر الدينيـــة، بغـــض النظر عن محتواه، عمقه أو أصالته، مما انعكس على مجموعة من مستـــشرقي الجمعيـــة والمجلة الذين تأثروا تارة بأسرهم المتدينة وتارة أخرى بما تلقوه من أفكار أثناء تكوينهم.

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص : 174.

(2) – **نفس المصدر**، ص 177.

(3) – **نفس المصدر**، ص : 181.

وهكذا فقد نشأ "دوساسي" نشأة دينية متينة وتربى تربية إيمانية جعلته يصمد خلال حياته حتى أمام رياح الثورة اللائكية التي هبت على فرنسا ومن خلالها على جل قارة أوربا. فلم يكن مرتاحا لأحداث الثورة ولا متعاطفا مع شعاراتها، كما أسلفنا. وكان له موقف مناوئ لمن يقفون وراء الثورة ومن استحوذوا عليها فيما بعد. وكان بالمقابل منحازا للملكية، ومؤيداً لها حتى في أصعب الأوقات. وقد ظل ثابتا على موقفه هذا وعلى أحاسيسه الدينية الكاثوليكية واعتقاداته وممارساته لشعيرة الصلاة طوال حياته[1].

أما "رينو" فقد ارتبط بالكنيسة منذ الصغر، ثم تلقى دراسات إكليركية أو كهنوتية بباريس، وأخرى على يد الدعاة الموارنة بروما. ومنح تسمية "الأب" (L'abbé) التي حملتها مؤلفاته الأولى، غير أنه تخلى عنها فيما بعد[2].

كما انتقل "فريسنال" عام 1826 إلى روما لمتابعة دروس الموارنة المتعلقين بالمجمع التبشيري هناك. ودخل "رينان" المدارس اللاهوتية حيث برز فيها. وكان أستاذ اللغة العربية، الأب "هير" LE HIR هو أستاذ "رينان"[3]. وقد رحل الأخير إلى المشرق ونزل بلبنان أين صنف كتابه حياة يسوع في دير الآباء اليسوعيين بغزير[4].

أما "مونك" فقد تربى حتى سن الخامسة عشرة في المدرسة الربية بمسقط رأسه واغترف من التوراة والتلمود بالعبرية في المدارس الخاصة، وظل ملازما للديانة اليهودية، حتى أن وفاته كانت بعد زمن قصير من مغادرة زملائه لبيته حيث أقام طقوسا للمجمع الديني الإسرائيلي[5].

بدأت حياة المستشرقين الفرنسيين في مجال التحصيل العلمي والمعرفي بداية عادية لا يختلفون فيها كثيرا عن غير المستشرقين. فقد تلقى "دوساسي" و"بيرنوف" مثلا تكوينا في الحقوق وتخرجا بشهادات عليا ومارسا وظيفة الحقوقي قبل التحول إلى

---

(1) - Nouvelle Biographie, T: 42, **op. Cité**, P : 987-992.

(2) - Rapport annuel, J. A, 1867, **op. Cité**, P : 19-20.

(3) - Rapport annuel, J.A, 1868, **op. Cité**, P : 19.

(4) ـ العقيقي، ج1، **مصدر سابق**، ص: 191.

(5) - Rapport annuel, J. A, 1867, **op. Cité**, P : 34.

الاستشراق. وتلقى "رينو" دراسات اكليركية أو كنسية. وتخصص "بـــوب" في علـــم اللغات. وكان "جوبير" من أوائل من دخل المدرسة المتعددة التقنيات الحديثة العهـــد. وكان " فريسنال" لامعا في دراسته الثانوية واتجه نحو العلوم الدقيقة. وانقطع "ويكـــي" تقريبا، للدراسات الرياضية. وكان "دي لاستيري" موهوبا بفكر نشط، فكرّس شـــبابه لدراسة الكيمياء والفلاحة. وحاول والد "أمبير" أن يوجه ابنه نحو العلوم الطبيعية وقـــد نجح إلى حد ما. واختص كل من "إيريس" و"مارسيل" في علم الجغرافيا، فيما كانـــت بداية حياة "لانجلس" و"بواسوني" حياة عسكرية. وأما "بريسنيي" فبدأ حياتـــه منـــضد حروف.

ترى ما الذي جعل هؤلاء جميعهم يأخذون وجهة أخـــرى غـــير الانطلاقـــة، ويضحون أحيانا بجزء من حياتهم ووقتهم وتكوينهم واختصاصهم لينقطعوا طواعية عما درسوه ويبدأون اختصاصا جديدا بإرادة وعزيمة وتفان، في ميدان يكتنفـــه الغمـــوض، ميدان غريب عن المحيط الأوربي الواضح المعالم أكثر من أي وقت مضى؟ ذلـــك مـــا سنحاول الوقوف عليه من خلال المبحث اللاحق.

2 - الإطار المميز والاتجاهات العامة

هناك أكثر من عامل ساهم في ميلاد وتنامي ظـاهرة الاستـشراق الفرنـسي المعاصر، يأتي في مقدمتها الجو الذي ولده عصر الاستنارة، الذي ولد بدوره ما يعـرف بالحركة الرومانسية[1] التي سيطرت على أذهان الشباب في فرنسا وفي غيرها من الدول الأوربية، وساهمت في انتشار دراسة آداب كل الشعوب، ومنها شعوب الشرق بحثا عن أشكال أدبية جديدة[2].

وقد انبثق عن حركتي الاستنارة والرومانسية ومحيط المشاعر التدينية، رواد نذروا أنفسهم لدراسة وتحصيل لغات الشرق. ومن هؤلاء "دوساسي"[3] الـذي نشأ على يد رجال دين لهم إلمام باللغات السامية. ويعود الفضل إليه في أنه تتلمذ عليه جمهور من المستشرقين الفرنـسيين وغـير الفرنـسيين أمثـال "جـوبير" و"دوبيانشي" و"فريسنال" و"دي سلان" و"لانجلـس" و"بريـسنيي" و"فريتـاق" و"دي لاقرانج" و"مارسيل" و"دوكاترومير" و"مونك" و"شيربونو" وغيرهم. كما يعود الفضل أيضا -في هذا المجال- إلى "فونتير دوبارادي" و"شيزي" و"برسـفال" و"جوبير" و"ريموزا"، ثم إلى "رينو" فيما بعد وكذلك "فريتاق" في ألمانيا، الـذين نجحوا في تخريج جيل من الأساتذة والمترجمين[4].

وقد أثمرت جهود هؤلاء ظهور مؤسسات علميـة لتخـريج مستـشرقين محترفين، خطت بالاستشراق في فرنسا وفي أوربا أيضا خطوات هامة. ولعل أبـرز هذه المؤسسات "مدرسة اللغات الشرقية الحية" بباريس، التي أسهمت في تخـريج الجيل الأول من المستشرقين، وأيـضا "مدرسـة الـشباب للغـات والترجمـة" بالقسطنطينية وغيرهما.

---

(1) — انظر تعريفا لها ضمن الفصل السابق، ص: 67-68.

(2) — - Rapport annuel J. A, 1864, **op. Cité**, P : 16-17.

(3) — انظر عنه سابقا.

(4) — درسوا سابقا.

كان للجو العلمي وللمدرسة الرومانسية وكذلك المؤسسات الحديثة النشأة، الفضل في تغيير وجهة الكثير من المثقفين. فقد درس "جوبير" العربية والتركية والفارسية. وتلقى"دوبيانشي" تكوينا بمدرسة الشباب للغات والترجمة. ودرس "فريسنال" العربية والشعر العربي في مصر، واكتشف هوايته متأخرًا. واهتم "بيرنوف" بالدراسات الشرقية حتى وفاته. وأتقن "دوسلان" العربية والتركية، كما درس "ويبكي" العربية على "فريتاق" ليؤهله ذلك لدراسة الرياضيات العربية لأنه منذئذ رسم خطة لتاريخ الرياضيات ستملأ حياته القصيرة. وتلقى "بوب" اللغات الشرقية بباريس ولندن وقوتينج. وأخذ "نويل" دروسه العربية عن "رينو". أما "بريسنيي" فقد أظهر في تعلم العربية نبوغا حمل الحكومة على إرساله إلى الجزائر وتولى أمر دروس اللغة العربية بمدينة الجزائر عام 1836. ونشط "دولاستيري" بميونيخ لتعلم ما استجد في فن الطباعة.

وبعد أن أتقن "دولابورت" العربية، كرس السنين الأخيرة من حياته لدراسة اللسان القبطي والبربري. ولم يرض "أومبير" تحول ابنه وارتمـاءه في دراسة الآداب الشرقية. وأما "كيرتون" الموهوب في دراسة اللغات السامية، فقد أحرز تقدما كبيرًا في العربية. فيما نذر "دولاقرانج" نفسه في سن مبكرة لدراسة لغات الشرق وآدابه المختلفة قديمة وحديثة.

ومن الملاحظ -مع نهاية جيل الرواد وبداية الجيل الأول للجمعية والمجلة- أن مؤسسات تهتم بالاستشراق، نشأت منذئذ وتخرج منها مستشرقون كثّر. فلا غرابة أن يشكل هؤلاء الإطارات الجديدة المعززة للمؤسسات. وقد ألحقت مؤسسات بعض الرواد بعضاً من عناصر الجيل الأول الذين سيخلفون أساتذهم كلما امتدت يد المنية إلى أحدهم.

تنقسم المؤسسات التعليمية الاستشراقية الفرنسية أو التي فيها مواد استشراقية، إلى قديمة وحديثة العهد. "فكوليج فرنسا" مثلا، يعود تأسيسه إلى الملك فرانسوا الأول

عام 1530م(1). كما يعود "معهد لويس الكبير" و"مدرسة الشباب للغة" بباريس، الملحقة به إلى مطلع القرن 18 م. وأما مدرسة أو "معهد اللغات الشرقية الحية" فقد فتح أبوابه عام 1795. وتعود "المدرسة الشرقية التطبيقية" للتلاميذ المترجمين بالقسطنطينية إلى عام 1802.

وفيما تخرج الكثير من المستشرقين من هذه المدارس، فقد شكلوا أيضا خلفا وبديلا لأساتذهم. فقد كلّف "دوساسي" بكرسي العربية منذ فتح معهد اللغات الشرقية الحية إلى غاية وفاته عام 1838، حيث خلفه تلميذه "رينو". وكان "دي برسفال" أستاذ العربية العامية. فلما توفي، خلفه تلميذه "ديفريمري". أما "جوبير" فشغل أستاذ التركية حتى خلفه "دوسلان" عام 1848. لكن الحكومة الفرنسية عزلت الأخير، وعينت بدله "ديو"[2]. ثم رخص "لدوسلان" بتدريس العامية الجزائرية في المعهد مجددًا عام 1863. ولم يرسّم في المعهد -على كفاءته- حتى عام 1871، عند وفاة "برسفال" فخلفه في كرسيه متخليا عن تدريس العامية التي جنت على موهبته في الإنتاج والتأليف اعتمادا على مصادر العربية الفصحى. كما كان "معهد اللغات الشرقية الحية" من حظ "شيربونو" أيضا.

ودرّس بمعهد أو "كوليج فرنسا" كأستاذ للفارسية "جوبير" وخلفه "موهل" عام 1847. كما خلف "شيزي" في كرسي السانسكريتية "بيرنوف". وحاضر بمعهد اللغات الشرقية الحية أيضا، "مارسيل" بين 1817 و1820. وكذلك "برسفال" عام 1833. وعني بالعربية أيضا في نفس المعهد على التوالي، "دوكاتروسير" و"ديو"، ثم "رينان" و"دوقا".

---

[1] - شجعت البابوية الرومانية دراسة لغات الشرق من أجل التنصير، فأنشئ في سنة 946 هـ / 1539م أول كرسي للغة العربية في "كوليج دو فرانس" بباريس وشغل هذا الكرسي "قيوم بوستيل" Postel المتوفى سنة 989 هـ / 1581 م، والذي يعد من أوائل المستشرقين الحقيقيين. – انظر: دائرة سفير **للمعارف الإسلامية**، ج 15 – 16، شركة سفير، القاهرة، 1990، ص: 1106.

[2] - سيستمر "ديو" في التدريس بمعهد اللغات الشرقية الحية من 1848 حتى وفاته سنة 1864.

ومارس "دوبيانشي" مهمة تدريس اللغات الشرقية، بالمدرسة المركزية "فونتينيبلو"، ومدرسة الشباب الملحقة "بكوليج لويس الكبير"[1].

وعمل "ديكوروا" نائبا لمدير مدرسة الشباب السالفة الذكر. وقبل ذلك كان مديرًا للمدرسة التطبيقية للتلاميذ المترجمين التي فتحتها فرنسا بالقسطنطينية (1802-1814)، كما أسلفنا. ثم نائب مدير بمدرسة الشباب الملحقة "بكوليج لويس الكبير".

ولما أنشئت مدرسة لتدريس العربية الفصحى والدارجة للفرنسيين بمدينة الجزائر، كان "بريسنيي" من المساهمين الرئيسيين فيها منذ عام 1836 وطوال 33 سنة. فتخرج على يديه أساتذة وتراجمة ممتازون. وكانت الحكومة الفرنسية قد عهدت بالتعليم إلى "شيربونو"، فكان أستاذا للعربية بقسنطينة (الجزائر)، ثم استدعته لتدريس العربية أيضا بمدرسة اللغات الشرقية الحية بباريس كما سبق.

كان تدريس اللغات الشرقية في بعض البلدان الأوربية المجاورة لفرنسا من حظ المستشرقين الذين تتلمذوا على الفرنسيين أيضا. من ذلك "بوب" البروسي الذي درس بباريس واستدعي إلى جامعة برلين فساهم في تكوين جيش من التلاميذ الذين توزعوا على أوربا. كان "بوب" متخصصا في علم اللغات، وصار له منهج يعلم في كثير من كراسي اللغة بأوربا. وقد تتلمذ "فريتاج" على "دي ساسي" بين 1815 و1818. وعين عام 1818 في جامعة بون، فكرس جهده منذئذ لتدريس العربية وإدخال مناهج "دي ساسي" الدقيقة في الجامعات البروسية، وكان التعليم الشرقي فيها ضعيفا[2].

وباعتبار اللغة مفتاح الماضي، وعليها يتوقف البحث الاستشراقي، فهي مما كان ينبغي أن يطلب بإلحاح. فكان المنهاج المتبع في تدريس اللغة العربية مثلا في أحيان كثيرة كتاب "دوساسي" في النحو واللغة العربية. وتتألف نصوص الكتاب من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وحكم وأمثال عربية[3]. بالإضافة إلى المنتقيات الأدبية المعدة من

---

(1) - يقصد بلويس الكبير ملك فرنسا "لويس الرابع عشر"(1638- 1715).

(2) - Rapport annuel J. A, 1862, **op. Cité**, P : 13.

(3) - L . J. BRESNIER, "De l'enseignement de l'Arabe à Alger", **J. A, 3ème** Série, T : 5, 1838, P : 485.

مجموعة من أساتذة مدرسة اللغات الشرقية الحية، والموجهة لتعليم اللغات الـــشرقية[1]. فضلا عن المعلقات والمقامات العربية وغيرها.

ولعل ما كان يجمع فعلا كل هؤلاء المستشرقين -أكثر مـــن حرفـــة التعلـــيم وصناعته- على اختلاف أصولهم وبيئاتهم ومشاربهم وحتى جنسياتهم غـــير الفرنـــسية أحيانا، هي الجمعية الآسيوية الفرنسية ومجلتها، سواء كان عن طريق تأسيـــسها الـــذي يتفاوتون فيه بين مؤسس حقيقي "كدولاستيري" صاحب الفكرة والمبادرة، ثم "ريموزا" و"فوربيل" اللذين فاتحهما "دولاستيري" بهاجس تكوين جمعية آسيوية[2] وحاورهما في شأنها عام 1821. لينضم إليهم أعضاء آخرون على كثرتهم، ثم التفاني في خدمة هـــذه المؤسسة والوفاء لها بترؤسها كما فعل "دوساسي" بـــين (1822- 1838)، و"رينـــو" (1847-1867)، و"موهل" (1867-1876)، وغيرهـــم. أو كتابهـــا العـــامون مثـــل "بيرنوف" و"رينو" و"موهل" و"رينان" أو تقلد مهمة مـــن مهـــام أعـــضاء مجلـــسها "كدوبيانشي" و"نويل" و"إيريس" و"لاجار" و"دولاجرانج" و"لانجلـــوا" و"مارســـيل" و"دوماست" وغيرهم من المستشرقين الفرنسيين وغير الفرنسيين ممن اقتصرت خدمتـــه للجمعية والمجلة على عضويته فيها، وما أكثرهم! وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأمير عبـــد القادر نفسه كان عضوا في الجمعية الآسيوية. ومن أعضائها من كان أجنبيـــا، يجـــري اتصاله بها عن طريق الاستكتاب والمراسلة. وكان أول مشارك من المراسلين الأجانـــب، عميد آداب الشرق، النمساوي "دوهامير بورستال". وهو الذي يـــشهد أن الجمعيـــة الآسيوية الفرنسية هي أول الجمعيات الآسيوية في أوربا[3].

ارتاد مستشرقو الجمعية والمجلة مكتبة باريس الملكية (أو الإمبراطورية أو الوطنية) تارة كبحاثة، وأخرى كأمناء على مخطوطات الشرق أو نواب أمناء أو محافظين، ومنهم "دوساسي" و"رينو" و"كرافت" و"ديبو" و"دوكاترومير" وغيرهم. وكان بعضهم أعضاء "بجمعية نشر كنوز المخطوطات الشرقية" في المكتبة الوطنية نفسها كما هـــو الـــشأن

---

(1) - Les Professeurs de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes, chrestomathies Orientales, J. A, 3 me Série, T : 13, 1842, P : 6.

(2) - انظر عن ظروف وملابسات تأسيس "جمعية آسيوية" ضمن الفصل الأول المبحث الثالث.

(3) - أما أولى الجمعيات الآسيوية خارج أوربا فهي الجمعيات الآسيوية البريطانية التي مقرها في الهند.

بالنسبة "لدوساسي" الذي عمل أيضا كمفتش للطباعة الشرقية بنفس المكتبة ومن بعده "بيرنوف".

وكانت "أكاديمية النقوش والآداب" أو ما عرف أيضا "بمجمع الكتابات والآداب" من المؤسسات التي تداول عليها المستشرقون أمثال "دوساسي" و"جوبير" و"بيرنوف". وكان الأخير عضواً بالمؤسسة وكاتبا لها ابتداء من سنة 1832.

كان مستشرقو الجمعية والمجلة يؤطرون أيضا "مجلس التربية العمومية". وكذلك "المجمع اللغوي الفرنسي". ونجد ضمن تشكيلة هذين المجلسين، "بيرنوف" و"كاترومير" و"ديبرسفال" ثم "رينان" فيما بعد.

أدى المستشرقون الفرنسيون دورًا خطيرًا من خلال ربط فرنسا بغيرها من البلاد الأوربية وبلاد الشرق بصلات مختلفة، امتازت بالتنوع والتكامل. وقد بدأت صلات بعضهم بهذه البلاد أو تلك في سن مبكرة، أي في مرحلة الدراسة. فهذا "دوبيانشي" أُرسل إلى القسطنطينية كشاب لتعلم اللغة العثمانية. وذاك "فريسنال" توجه عام 1826 إلى مدينة روما لاتباع دروس الموارنة المتعلقين بمجمع التبشير، ثم انتقل إلى مصر أين قرر الإقامة بالقاهرة عام 1831. وهناك درس العربية والشعر العربي واكتشف وجهته كما أسلفنا[1]. ولما اضطر "فريسنال" إلى الانتقال من مصر والإقامة بطنجة، أرسل إلى مدينة فاس -التي لم يكن يدخلها أوربيون- الشيخ محمد لنسخ ما في مكتبات هذه المدينة من مخطوطات لا وجود لها بالقاهرة[2].

كانت المخطوطات إذن أحد مقاصد المستشرقين الفرنسيين أثناء زياراتهم خارج فرنسا، كما فعل "دوساسي" سنة 1805 حين أرسل إلى جنوة وكانت أول وآخر زيارة له إلى الخارج كما أنها كانت زيارة فاشلة حيث عاد منها بخفي حنين[3]. أما "مونك"، فقدم مصر صحبة الوزير "كريميه" و جمع مخطوطات كثيرة. وأما "دوسلان" فقد كلفته الحكومة الفرنسية بمهمة في الجزائر (1843-1845)، فقام بأدائها وأرسل إلى وزير

---

(1) - Rapport annuel J. A, 1856, **op. Cité**, P : 13.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 14.

(3) - Nouvelle Biographie, T: 42, **op. Cité**, P : 989.

المعارف العمومية تقريرًا عن مجموعة المخطوطات ذات الأهمية في المكتبات الخاصة بالجزائر (الفكون وباشترزي بقسنطينة)[1]. وساقته زيارة أخرى دامت سبعة عشر شهرًا (1845-1846) إلى عدة مكتبات أخرى بالجزائر. وكلف "فريسنال" عام 1852 برحلة علمية باسم الحكومة إلى بلاد ما بين النهرين، فمر على حلب وديار بكر فبغداد ثم إلى آثار بابل. وعاش ببغداد مدة أربع سنوات وكان يعتزم إقامة مدرسة أثرية فرنسية بها[2]، إلا أنه لقي حتفه هناك، كما أسلفنا[3].

وطاف "هاليفي" جنوب شبه الجزيرة العربية وبلاد اليمن في أسمال يهودي، وبلغ نجران وحدود مأرب وجمع في رحلته هذه ستمائة وستة وثمانين نقشا. ورحل "رينان" إلى المشرق ونزل بلبنان حيث صنف كتاب "حياة يسوع" في دير الآباء اليسوعيين بغزير. وهناك عني أيضا بالعقائد الإسلامية[4].

ومن المستشرقين من زار الشرق وزاول فيه صناعة التدريس كما فعل "بريسنيي" الذي أظهر نبوغا في العربية حمل الحكومة الفرنسية على إرساله إلى الجزائر منذ بداية الاحتلال لما أنشأت مدرسة عربية بمدينة الجزائر عام 1836. فقد تولى أمرها وظل يعلم العربية طوال ثلاث وثلاثين سنة. كذلك فعل "شيربونو" في قسنطينة كما سبق. وقام "ديكوروا" بوظيفة مدير بالمدرسة التطبيقية للتلاميذ المترجمين بالقسطنطينية. وبالموازاة مع ذلك شغل وظيفة مترجم ثاني ثم أول، فكاتب مترجمً للملك لدى السفارة الفرنسية بالقسطنطينية.

وهناك من المستشرقين من زار الشرق بمناسبة توليه لسفارة إلى بلد من بلدانه. وكذلك فعل "دوبيانشي" بعد 1816 حين كلف بقيادة سفارتين، أرسلتا من بلاط طهران إلى لويس 18. وأدى مهام ثاني مترجم بالقنصلية العامة ببلدة إزمير بتركيا سنة 1816، ثم اشتغل نائب مترجم لدى الملك في الشؤون الخارجية. وفي عام 1829 لما تعكرت العلاقات الجزائرية الفرنسية واندلعت الأزمة التي أرسل على إثرها الجيش

---

(1) - Rapport annuel, J. A, 1856, **op. Cité**, P : 21.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 21.

(3) – انظر **المبحث السابق**، ص: 107- 110.

(4) – العقيقي، ج1، **مصدر سابق**، ص: 187.

الفرنسي إلى شواطىء الجزائر، أرسل "دوبيانشي" كاتبا مترجما بتكليف للقيام لدى الداي حسين بمهمة صعبة خط أحداثها في حكاية مثيرة[1].

وكان "دولابورت" قد آثر البقاء في طرابلس -بعد الحملة على مصر- ووظف بقنصليتها، وامتزج بأهلها.

أما "فريسنال" فقد سافر للإقامة بطنجة بعد إقامته في القاهرة وإفلاسه بها، بإفلاس المؤسسة التي أودع فيها أمواله القليلة جراء أسفاره. وكان عضوا سنة 1837 م بالقنصلية الفرنسية بجدة ثم قنصلا. وزار خليج بنغازي وسرت حيث التقى قنصل فرنسا "دوبورفيل"، كما أسلفنا، ثم عين قنصلا بالموصل، ولكنه رفض المهمة وعاد إلى باريس[2].

وأرسلت الحكومة الفرنسية "نويل" كقنصل بزنجبار على الشواطئ الشرقية من قارة إفريقيا. وكلف "بوتا" بقنصلية فرنسا بالموصل، وكان له دور في مسألة البقاع المقدسة بالقدس، ثم صار قنصلا عاما لفرنسا بطرابلس (ليبيا) منذ 1858. وعمل "ديكوروا" بالسفارة الفرنسية بالقسطنطينية. وعين "دومينار" بقنصلية فرنسا بالقدس بمجرد إنهاء دروسه، واصطحبه الكونت "جوبير" سنة 1854 إلى إيران فأقام بطهران مدة سنتين أعد خلالهما كتابين في جغرافية وتاريخ وآداب بلاد فارس وما جاورها. وعمل "دولابورت" قنصلا بطرابلس، ثم طنجة وموقادور بالمغرب. وكرس "لاجار" حياته للشؤون الدبلوماسية، وارتبط بمهمة الجنرال "قاردان" إلى بلاد فارس. وعين "مولي" ترجمانا لوزارة الخارجية ولقب بالمترجم الأول للملك.

وإذا كانت الترجمة وسيلة هامة في التقريب بين الشعوب من خلال إقامة العلاقات، فإن المستشرقين الفرنسيين وظفوها أيضا في أغراض الغزو والاحتلال لما عزمت حكوماتهم على فعل ذلك. فكان "دولابورت" و"شامبوليون" مثلا من جملة العلماء الذين تبعوا "بونابارت". وقام "جوبير" بدور المترجم أثناء الحملة على مصر وسوريا، ثم صار

---

(1) - DE MEYNARD, " Notice sur la Vie", J. A., 1865, **op. Cité**, P : 176 -177.

(2) - كان "لفريسنال" علاقة "بليون روش" أثناء رحلته للحصول على الفتوى من علماء الأزهر والحجاز.

- انظر: سابقا.

على رأس المترجمين بعد وفاة "دوبارادي" أثناء الحملة نفسها، وصاحب "نابليون" وأدى عدة مهام. كما كان "مارسيل" أيضا في ركاب "نابليون".

وتاريخ المستشرقين في مجال الترجمة وكذلك دور التراجمة في احتلال الجزائر دور واسع وخطير يعود إلى ما قبل الاحتلال، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر، أن صاحب خطة احتلال مدينة الجزائر هو "كليرمونت دوتونير" الذي عرض الخطة التفصيلة لاحتلال مدينة الجزائر على البرلمان الفرنسي بحضور الملك شارل العاشر يوم 14 أكتوبر 1827. ولم يكن "دوتونير" يعرف العربية فحسب ولكنه كان يتقنها[1] وهو الذي حرر بيان فرنسا إلى الجزائريين بالفصحى، ونقله "دوساسي" إلى اللسان الدارج[2] بمعية "دوبيانشي"[3]. وإذا ما اقتصرنا هنا على الحديث عن مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين، يأتي ذكر "دوسلان" الذي سمي مترجما رئيسيا للجيش الفرنسي بالجزائر في الفاتح من سبتمبر 1846، أي في أوج عهد "بيجو" وكان له صهرا. ثم أعيد "دوسلان" إلى الجزائر سنة 1849 مترجما رئيسيا في الحكومة العامة وهو الذي أصبح يصوغ نصوص البلاغات الرسمية والمراسلات العربية لحكومة الاحتلال في الجزائر، وأصبح أسلوبه منهجا لمن جاء بعده[4]. ولا بد من الإشارة إلى أن "دوسلان" كان قد تولى جريدة "المبشر" عند ظهورها عام 1847[5].

وهذا البارون "بواسوني" تولى في قسنطينة إدارة الشؤون الأهلية (المكتب العربي)، ثم رشحته حكومته لمرافقة الأمير عبد القادر بعد اتفاق ديسمبر 1847، وقد عينه الدوق "دومال" الحاكم العام للجزائر في هذه المهمة، ورافق "بواسوني" الأمير في

---

(1) - Le Rapport du Marquis DE CLERMONT-TONNERRE Ministre" de la guerre sur une expédition à Alger (1827) " , **R. A.**, N° 70, 1929. P : 207-253.

(2) ـــ سعد الله، **أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر**، ج: 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1878، ص: 198.

(3) – ريغ، **مصدر سابق**، ص: 97.

(4) – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، **مصدر سابق**، ص: 71–72.

(5) – **نفس المصدر السابق**، ج 5، ص: 222.

فرنسا. وبقي معه في حصن (لامالق) ثم في سجن "بو" فقصر "أمبواز". ثم توجه معه إلى اسطمبول حين أطلق نابليون الثالث سراحه عام 1852[1].

وقد أوفدت الحكومة الفرنسية "دوقا" إلى الجزائر وكذلك الدكتور "جـوداس" في إطار مهامه واختصاصاته في الطب. وفي مستشفى قالمة قررت وجهته الأخيرة تحت تأثير العقيد "دوفيفيي" فاهتم باللغة ثم بالآثار البونيقية والليبية[2]. ومهما يكن من أمر، فسنعود إلى دور المستشرقين في الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال المبحث اللاحق.

لقلما وجدنا من المستشرقين الفرنسيين من تقاعد عن البحث والتحصيل العلمي والإنتاج ببلوغه سن التقاعد والشيخوخة. وبذلك فهم لم يحترموا مرحلة أرذل العمـر، فتأثرت صحة الكثير منهم بل هناك من فقد بصره في منتصف العمر بـسبب عملـه المتواصل وقراءته للمخطوطات التي ساهمت في ضعف بصره تـدريجيا كمـا حـدث "لمونك"[3]، فاضطر إلى مغادرة المكتبة، وبدت حياته الأدبية مستحيلة في الوقت الذي بدأ ينتج. غير أنه تحلى بالصبر طوال ما تبقى من حياته. واعتمد على كاتب خاص كان يقرأ له، ويكتب تحت إملائه تلك السلسلة من الأعمال المثيرة، كما قيل، والتي لم يحدث أن أنجزها ضرير[4].

ولقد تعددت أسباب وفيات مستشرقي الجمعية والمجلة وتنوعت، فمنهم مـن كان ضعيف البنية البدنية أصلا "كدوساسي" و"ويبكي" ولكن ضعف الـصحة أودت بالثاني وأبقت على الأول. ومنهم من ألمّ به مرض لازمه مدة طويلـة كمـا جـرى "لمارسيل" ولكن المرض لم يثنه عن عمله حتى النهاية. ومما يشهد على ذلك عدد الكتب التي نشرها عن لغة وتاريخ العرب. ومنهم من أودى به مرض قصير "كدوبيانشي"، أو وباء الكوليرا مثل "ديكوروا". ومنهم من أتلفت صحته بطول الإقامـة في الـشرق في

---

[1] - **نفس المصدر**، ص: 62- 63. - لبواسوني كتابات ومراسلات عديدة تبادلها مع الشاذلي القسنطيني، انظر: - أبو القاسم سعد الله، **محمد الشاذلي القسنطيني 1807 – 1877 دراسة من خلال رسائله وشعره**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.

[2] - - Lettre de M. Le baron de SLANE à M.REINAUD, Alger le 25/ 01/ 1847, J. A., 4me Série, T : 9, 1847, P : 83-84.

[3] - - Rapport annuel J. A, 1867, **op. Cité**, P : 27.

[4] - **نفس المصدر السابق**، ص: 28.

ظروف سيئة ملؤها الأتعاب والقلق مثلما جرى "لفريسنال" أثنـــاء بعثتـــه إلى بغـــداد وكذلك بسبب الأفيون الذي تداوى به في البداية ثم تحول معه إلى إدمان. ومنهم مـــن ساهمت أعماله المتواصلة في تدهور صحته تدريجيا كما جرى "لبيرنوف". ومنهم مـــن توفاه الله بسكتة دماغية[1] ينتقم المخ خلالها ممن لم يمنحه الراحة الضرورية كما حدث "لدوساسي" و"رينو" وغيرهما. ومنهم من ظل في صحة جيدة حتى سقط في عمله كما جرى "لموهل" الذي توفي وهو يصحح مقالا للمجلة الآسيوية.

ولقد صادفت المنية الكثير من المستشرقين وهم في العاصمة بـــاريس، وشـــيعت جنائزهم في مواكب مهيبة، بحضور إطارات الجمعية الآسيوية ومعهد اللغات الـــشرقية. ونعاهم الأصدقاء والتلاميذ. "فدوساسي"، على سبيل المثال، نعاه كل مـــن "هـــيس" و"بيرنوف" و"جومار" و"جوبي".

ولقلما وجدنا من المستشرقين من وضع حدًا لأعماله اقتناعا، ولذلك بقيت الكثير من الأعمال غير كاملة فتولاها الأصدقاء والزملاء بالرعاية والنشر. ومنهم من توفي وقت أن كانت الكثير من أعماله جاهزة لترى النور على غرار ما جرى "لويبكي" مثلا.

* * *

ترى ما هي أبرز خصائص مستشرقي الجمعية والمجلة وقد توفوا ؟ من الواضـــح أن خاصية العلم تميز جل هؤلاء. ولا بد أن يُفهم العلم هنا بأنـــه مجموعـــة معـــارف استشراقية مضافا إليها مجموعة الطرق المؤدية إلى اكتسابها[2]. كما يفهم أيضا من باب اختر أي علم وتَوَلَّه بالبحث بمنهج معلوم تكن عالما[3].

وقد عنى المستشرقون الفرنسيون بالشرق على العموم، واهتمـــوا بـــه في شـــتى مجالاته. وكانت لغات الشرق الأداة الأساسية للبحث إلى جانب المنهجيـــة المتطـــورة والمناهج العلمية التي ورثوها عن عصر الاستنارة. كل ذلك جرى في ظـــل الحركـــة

---

(1) ــ Attaque d'Apoplexie: سكتة دماغية، مرادفة لنزيف دماغي تعقبه غيبوبة عميقة تؤدي إلى الوفاة، وهي حالة تلحق بالمسنين نتيجة جهد ما، فكري أو عضلي أو حمى أو نتيجة ارتفاع ضغط الدم. انظر:

- **Le Dictionnaire Médical**, édit. S. A., Genève, 1974, P : 32 et 201.

(2) ــ بن نبي، انتاج المستشرقين، **مصدر سابق**، ص:

(3) ــ زكي نجيب محمود، **المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري**، ط 4، دار الشروق، بيروت، 1987، ص: 61.

الرومانسية. وساهمت هذه العوامل مجتمعة في تفتيق طاقات وقدرات وأفكار جيل من المستشرقين.

وكان رائد المستشرقين الفرنسيين المعاصرين بلا منازع "دوساسي"، الذي عد عالما في الاستشراق وهو لم يتجاوز بعد الثلاثين سنة. فالدراسات الاستشراقية مدينة له في تطورها، بتأثيره الممارس بعلاقاته مع الحكومة الفرنسية وكثرة مراسلاته وتدريسه الذي لم ينقطع وبتلامذته البارزين، حتى في الدول الأوروبية الأخرى -كتلميذه "دوهامير" النمساوي، وغيره من الذين جاءوا للتتلمذ ونيل السمعة منه ومن الاستشراق الفرنسي[1]- وكذلك بنصائحه واستشاراته وتشجيعاته وكتاباته. فهو باعث ومجدد الدراسات العربية في أوربا. وهكذا فقد امتاز "دوساسي" بمهام ثلاث هي: رئاسته للجمعية الآسيوية وأستاذيته في اللغة العربية وفي غيرها، وملازمته لمخطوطات الشرق والمكتبة الوطنية بباريس.

ولما توفي "دوساسي" أصبح "دوكاترومير" إمام الاستشراق الفرنسي، وأقل منه "رينو" ذو العمل البطيء ولكنه الدؤوب المتواصل.

وكان "دولاستيري" موهوب الفكر، ميالا بطبعه نحو التجديد، وله إيمان راسخ في قوة التجمع والاجتماع لا يثنيه في إيمانه هذا أي فشل عندما يرى إمكانية تطبيق هذا المبدأ مرة أخرى. وبهذا الإيمان ساهم في تأسيس جمعيات عديدة، وكان المؤسس الحقيقي للجمعية الآسيوية الفرنسية.

أما "دولاجرانج" فقد تعمق في العربية تعمقا لم يعرف لغيره في عصره، فأوكلت إليه حكومته تصحيح المطبوعات العربية في مطبعتها (1830) ثم عينته أمينا عاما بالمطبعة. وقد تولى رغم مهامه الكثيرة رئاسة تحرير المجلة الآسيوية طوال أربع وثلاثين سنة فبلغ بها شأوًا بعيدًا. كذلك كان دور "موهل" الذي تولى أمانة الجمعية

---

[1] – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، **مصدر سابق**، ص : 72.

الأسيوية ومن خلال تقاريره السنوية الرائعة في الجمعية الآسيوية التي كان أمينها العـــام طوال عشرين سنة.

وكان "دوبيانشي" شخصية ذات كفاءة علمية محترمة في أوساط العلماء، فهـــو مستشرق ناجح، مارس تأثيرًا على تبادل المعارف مع العالم الإسلامي. وأما "دوسلان" فقد نحا في استشراقه منحى المغرب العربي فكان له فيه صيت بعيد. وأمـــا الفيلـــسوف "اللاهوتي" "رينان" فقد بدأ يبرز في نهاية الفترة التي تعنينا ولعله يحسب علـــى الجيـــل اللاحق أكثر من الجيل السابق سواء في ذيوع صيته أو في منحاه الاستـــشراقي الأقـــل موضوعية مقارنة بالقاعدة العامة لمنحى الجيل الذي يعنينا.

ولما كان الاستشراق تأصيلا بكل ما تحمل كلمة تأصيل من أبعاد، فإنه تأصـــيل لأوربا في ذاتها بكل ما تحمل أوربا من أبعاد أيضا سواء بعدها الجنسي "الهنـــدو-أوربي" (Hindous)، أم بعدها الحضاري الإغريقي أم بعدها الفكري العقلي والديني السامي[1].

إن علما جديدًا كعلم الاستشراق يهدف إلى فهم ماضي الشرق في كل أبعاده لا يمكن أن يرى النور ولا يجد مكانا له بين باقي العلوم دون تضحيات. وهنا لا بد أن نقول إن أرضية الاستشراق تقوم على أدب الشرق وهدفه معلوم ورجاله مهيـــأون لا تنقصهم لا الإرادة الحسنة ولا النشاط ولا الحماسة[2]. ففي محيط من الأعمال المتعددة استطاع "دوساسي" على سبيل المثال أن يجد الوقت لتأليف عدد كبير مـــن المؤلفـــات وكانت تدفعه في ذلك الإرادة الحازمة وتغمره الغبطة، فليس هناك من عرف أكثر منـــه من أنداده قيمة الوقت، لذلك كان حريصا كل الحرص على توفيره والاستفادة منه[3]. وكان "فريسنال" من الأعضاء القدماء الأكثر حماسة أيضا. أما "دي سلان" فـــيرى أن مهمة الاستشراق صعبة ولكنها مشرفة. ولم يكن "شيربونو" يعرف الكلل ولا الملـــل،

---

(1) - Rapport annuel du 24/ 06/ 1857, **J. A.**, 5 me Série, T : 10, 1857, P : 11.

(2) - Rapport annuel, J. A, 1855, **op. Cité**, P : 104 -105.

(3) - GRANGERET DE LAGRANGE, "Nécrologie", **J. A.**, 3 me série, T : 5, 1838, P : 297.

وكان يغمره إحساس بالمتعة والسعادة حينما يشرع في دراسة دولة من دول بلاد المغرب مدفوعا بالفضول العلمي(1). وكذلك كان "كرافت" و"فيوريل" وغيرهما. ولقد ظلت الحيوية تلازم "دي هامير" طوال حياته وكانت وراء شقائه وسعادته في آن واحد. كما تسبب الانتظام في إصداراته كل سنة في إساءة غيره الظن به بأن هناك من يساعده من كتاب يحضرون له العمل ويقدمون له الملاحظات لولا أن "موهل" قضى بضعة أسابيع عنده بالنمسا عام 1852، فأعجب بقيامه بعمله على انفراد، ليس بجنبه أي رجل آداب. وكل ما كان يطلبه من مساعدة هو خادم يملي عليه حوالي الساعة السابعة صباحًا عندما تفشل يده في الإمساك بالقلم(2).

وهذا لا ينفي كون المستشرقين لهم هوايات يستمتعون بها في أوقات فراغ معينة. وكانت هواية "دوساسي" لعبة الشطرنج، يلعبها في الغالب مقابل شخصين فيما كانت هواية "دولاقرانج" ومتعته حتى في أوقات راحته، قراءة مؤلف محبوب بإحدى اللغات الكثيرة التي يعرفها. وكان المستشرقون يتعاونون بين الفينة والأخرى. خذ مثلا: "تاريخ المقري"(3) فقد توزعه أربعة علماء وأصدروه في "ليد". فنشر قسمه الأول "رايت" WRIGHT عام 1855 وقسمه الثاني "كريهل" KREHEL، عام 1856، والثالث "دوزي" DOZY عام 1858 أما قسمه الرابع فأصدره "دوجا" DUGAT عام 1859. فهذا مثال عن جهد منسق ومركب لأربعة علماء موزعين على أوربا كاملة، استطاعوا أن يبدأوا وينهوا في ظرف قصير نشرًا مهما، صعبا ومكلفا. وهو فضلا عن ذلك عمل مشرف للعلماء ومفيد للآداب، جدير أن يحتذى به إذ يجسد أخوة علمية أوربية(4).

غير أن طريق المستشرقين لم يكن مفروشا بالورود، فقد كانوا في حاجة ماسة إلى مساعدة وكانت العقبة تتمثل في استحالة تثمين الجمهور لجهودهم وقلة الموارد التي تخصصها لهم الحكومة الفرنسية وانتشار الوثائق والمخطوطات في مكتبات أوربا

---

(1) - HERBONNEAU, "la farésiade ou commencement de la dynastie des Beni- Hafs, 3 me extrait, Trad., et Notes, **J. A.**, 4 me Série, T: 17, 1851, P : 52.

(2) - Rapport annuel, J. A, 1857, **op. Cité**, P : 21.

(3) - المقصود به كتاب: أحمد بن محمد المقري التلمساني، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، في ثمانية أجزاء.

(4) - Rapport annuel, J. A, 1859, **op. Cité**, P : 26-27.

وآسيا. وطول الدراسات الضرورية وسعتها. وكذلك التكاليف الباهظة لنشر النصوص[1].

كان على المستشرق بادئ ذي بدء أن يتعلم لغة على الأقل من لغات الشرق، التي يهمنا منها العربية على الخصوص، وقد اكتسبها "دوساسي" اكتسابا -ربما- لا يضاهيه فيها أحد في أوربا وقتئذ، وتعلمها حسب المتواتر من أخباره من غير معلم. وكان "دي برسفال" يعرفها معرفة مثيرة للإعجاب، كما كان يتقنها أيضا كل من "دولابورت" و"مولي" و"بواسوني" و"وييكي" وغيرهم.

وقد تضلع بعضهم في العربية إلى الحد الذي أجاد فيه شرح قواعدها وآليات لساها وتحليل الفوارق الدقيقة لعباراها كما فعل "دوساسي" الذي ألف منتخبات عربية لتسهيل دراستها، كما أصدر النحو العربي الذي كان يدرس في الجزائر، وتوفي وهو يشرح بالمعهد مجموع أشعار"الحماسة" و"مقامات الحريري" التي واصلها بعده "رينو" كما أسلفنا[2].

وقد أدخل المستشرقون الفرنسيون على أسلوب اللغة العربية في القرن 19 علامات الوقف وفن اللغات الأوربية تسهيلا لتعلمها وكدليل ومرشد لمعلميها ومتعلميها. وظل بعضهم، لمدة يحث غيره على ضرورة توظيف علامات الوقف كما فعل "شيربونو"[3].

لم يكن العِلْمُ الإسلامي -منذ بداية المرحلة العصرية للاستشراق- علما "ينقل من أفواه الأساتذة مباشرة" ومن كتبهم المعاصرة، بل أصبح أشبه شيء بعلم الآثار يكتشفه الباحثون الأوربيون بحكم الصدفة ويصدقون أو لا يصدقون في نقله، ينسبونه لأصحابه من العلماء المسلمين أو ينسبونه لأنفسهم[4]. وهكذا فقد كانت المخطوطات من بين أكثر المصادر التي نهل منها المستشرقون الفرنسيون. وكانت المكتبة الملكية أو

---

(1)- Rapport annuel, J. A, 1855, **op. Cité**, P : 104-105.

(2)- "Nécrologie", **J. A.**, 4me Série, T : 8, 1846, P : 563.

(3)- J. DERENBOURG, "قصة دليلة المحتالة ,.Les Fourberies de Dalila… ", **J. A.**, 5me Série, T 8, 1856, P : 390.

(4)- ابن بي، إنتاج المستشرقين، **مصدر سابق**، ص: 9.

الإمبراطورية إحدى أبرز مظان هذه المخطوطات. وكان "دوساسي" من بين أوائل من خطا الخطوات الأولى والثابتة في مجال البحث في المخطوطات العربية وحـذا حـذوه غيره من مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيوية من أمثال "دوكاترومير" و"ديبورسـفال" و"رينو" و"دولاقرانج" و"مونك" و"ويبكي" وغيرهم. وسواء كانوا يقومون بـذلك كأمناء أو نواب أمناء المخطوطات أو منكبين عليها بحثا مفهرسين لها أو محققـين أو ناشرين لنصوصها أو مترجمين لها وباحثين في محتوياتها. وقد بلغ الاهتمام بها إلى حـد فقدان بعضهم لبصره كما حدث "لمونك". يعود الاهتمام بمخطوطات المكتبة الملكية بباريس إلى ما قبل منتصف القرن 18 وقد أسفر هذا الاهتمام عن تحرير أول سـجل مطبوع لها عام 1739. ومن الذين اعتنوا بتنظيم المخطوطات العربية عنايـة فائقـة فأعدوا لها كشوفات وفهارس نشروها على مراحل "رينو" الذي كتب عـام 1828 يقول أن العمل يشغله منذ سنين وأهميته تدخل ضمن الاهتمام الـداخلي للمكتبـة الملكية، وكان نصف العمل قد اكتمل بتاريخ 1828 فيما تواصل البـاقي ليكتمـل السجل العربي عام 1845.

تم النقل الفعلي للكثير من الكشوفات من طرف "دوفريمري" أيضا، فيما حرر بعضا منها "دوسلان" وتمت مراجعتها وأضيفت إلى نفس المجلدات. وقد ذكر "رينو" أن عدد المدخرات القديمة من مخطوطات المكتبة الملكية بلغ حوالي 1640 مؤلف، وأن السجل العربي المكمل أحصى 1960 مؤلف يتجاوز عدد أجزائها الألفـين (2000). وهكذا فإن السجل العربي لعام 1845 كان يشتمل على جميع المخطوطات العربية، و لم يبق سوى مراجعتها واحدًا واحدًا ثم إخضاع مختلف المدخرات إلى ترتيـب وتنظـيم عام. وبالرغم من أن العمل المنجز كان مفيدًا فإن طموحات المستشرقين الفرنـسيين كانت أكبر ولذلك فقد لاحظ تقرير الجمعية لعام 1846 أن السجل المطبوع بعيد عن أن يلبي الرغبة.

وكان "دولاجرانج" قد حرر ونشر فهرس مخطوطات المكتبات الذي أوصاه به أستاذه "دوساسي". وقد جمع المستشرقون الفرنسيون أثناء تنقلاتهم في العالم الإسلامي

مخطوطات أخرى أثروا بها مخطوطات المكتبة الملكية ومنهم "ديكورروا" و"دولابورت" و"دوهامير" سواء عن طريق شرائها أو التفاوض بشأنها أحيانا سنين عديدة أو نسخها خلال إقامات تستغرق منهم مددا طويلة، أو الالتفاف والتحايل أحيانا على مالكيها الذين لا يدركون قيمتها الحقيقية. وقد جمعوا بطرق شتى مخطوطات نادرة ونسخوا مخطوطات من أماكن لم يكن بوسعهم دخولها كالمغرب واليمن، أي من مشرق العالم العربي ومغربه.

وكانت المصادر التي اعتمدها المستشرقون، مصادر أصلية في أحيان كثيرة، وهي أمهات أدبية وتاريخية كشعراء الجاهلية، ومؤلفات المسعودي وابن خلدون، وابن الجوزي، وابن الأثير، والنويري، وابن الأبار، والشهرستاني، وألف ليلة وليلة وغيرها مما سيكون موضوع الفصول اللاحقة[1].

ولم يقتصر المستشرقون الفرنسيون على المخطوطات بل تعدوها إلى المسكوكات والنقوش والحفريات والأواني والتماثيل وغيرها.

وقد نتج عن هذه الأصول والمصادر المختلفة اهتمامات وفروع معرفية كثيرة ومتنوعة وبحوث كاد المستشرقون لا يستثنون منها فرعًا من فروع المعرفة الشرقية. وحاولوا أن يعرفوا كل شيء ويعمقوا كل شيء ويروضوا أقلامهم على الكثير من المواد. فمدوا أنظارهم المليئة بالفضول والانتباه إلى شعر العرب قبل محمد (صلى الله عليه وسلم) وآداب العرب. والنحو والبلاغة والألسن المحلية بحروفها وخطوطها، وعلم اللغة، والأدب اليهودي المتنور بفعل كتابته بالعربية في العصر الوسيط، والتاريخ بما فيه القرون العتيقة، وتراجم رجال الإسلام والتقارير السياسية (الأحكام السلطانية) والجغرافيا والدين من عقيدة التصوف، والفرق والقوانين الإسلامية وحياة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ اعتمادًا على روايات إسلامية وعلى الفلسفة، والعلوم الطبيعية والفلك والرياضيات وتاريخها وكذا الجبر والأرقام الهندية وعلم الفلك

---

[1] — انظر: **الفصل الثالث والرابع والخامس والسادس** من الرسالة التي بين أيدينا.

والكيمياء والفلاحة وملكية الأرض والمسكوكات والنقوش...الخ. وقد كانت دراستهم لهذه العلوم المختلفة في شكل نصوص وترجمات وشروح وتعليقات...الخ.

ومن الممكن تصنيف هذه الكتابات -حسب ما يغلب عليها من تناول- بين مدرسة أدبية وأخرى تاريخية. فكتاب المدرسة الأدبية من المستشرقين، فاقت منشوراتهم في آداب الشرق مؤلفاتهم التاريخية في وقت ما إذ كانت أكثر منها أو أضخم. كما كان الأدب أسبق من التاريخ لاعتبارات علمية ثم حدث بينهما توازن لاعتبارات أخرى سياسية لتغلب التاريخ على الأدب أو يكاد في نهاية المرحلة التي تعنينا.

وهناك عوامل متعددة ساهمت في تفشي ظاهرة الأدب، نذكر من أبرزها عصر الاستنارة. فلقد نشأ الاستشراق العلمي الأدبي حين نضبت المناظرات الدينية مع نهاية القرن 17 م، ثم تطور من دراسات نصوص بحتة إلى دراسة مجتمع والولوج في ثقافته ولغته ولوجا عميقا بعيد نهاية المرحلة[1].

وكان لظهور المدرسة الرومانسية مع نهاية القرن 18 ومطلع القرن 19 وملازمتها تحديدا للفترة التي تعنينا وسيطرتها على أذهان جل الشباب في فرنسا، ساهم كل ذلك في انتشار الدراسة والولوع بآداب كل الشعوب ولاسيما الشعوب القريبة منهم بحثا عن أشكال جديدة في فنون الأدب[2].

ثم إن الاهتمام في مجال اللغة كان منصبا في فرنسا قبيل الفترة المدروسة على ما يعرف بالنحو العام (la Grammaire générale) وهي دراسة ظلت عقيمة، إلى أن اكتشف "بوب" الألماني لمنهج علم اللغات المقارن نتائج لغوية وتاريخية مهمة كما سنبين في نهاية المبحث.

وهكذا فقد تضافرت كل هذه العوامل لتجعل الأدب يحتل مركز الصدارة، بالنسبة للمستشرقين الفرنسيين لا سيما في بداية المرحلة. وانعكس ذلك على إنتاجهم، فظهر في مجال اللغة العربية، "المنتخبات العربية" (Chrestomathies Arabes) التي

---

(1) - جان بول، شارنيه، **الفكر العربي**، العدد: 32، 1983، ص 270.

(2) - Rapport annuel J. A, 1864, **op. Cité**, P : 16-17.

اختار فيها مؤلفوها نصوصا عربية منتقاة مع ترجمة وتعاليق موجهة لتسهيل دراسة العربية. وكذلك "منتخبات النحو العربي"[1] ومؤلفات في النحو العربي.

كان المستشرقون الأدباء، الدارسون للأدب المنتجون له، يقرأون بنوع من اللامبالاة القصص والروايات التافهة، على زعمهم، والجافة لأصحاب الحوليات العربية. والقسم الأهم في التاريخ عندهم هو قسم الأفكار والأحاسيس والعادات والحياة الرسمية للأمم والتطورات الكتابية. وهم يفضلون الحياة الشخصية للإنسان ولأعماله الفكرية. وفي آرائهم أن تاريخ الشعوب ليس فقط في سلوكاتهم السياسية والحربية، ولكن على الخصوص في الأفعال الأدبية والفلسفية والعلمية للأشخاص الذين يمارسون تأثيرًا على الثقافة العقلية والفكرية والروحية لزمنهم. فهؤلاء الرجال أو بالأحرى مؤلفاتهم هي التي تولد الثورات وتغير ملامح الإمبراطوريات وتحول عادات الأمم.

وفي نظر المستشرقين الأدباء أن المؤرخ نفسه لا يمكن أن يكون ناجحا إلا إذا كان أديبا جيدًا، ولذلك فقد كانوا يولون اللغة أهمية كبيرة ويلزمون أنفسهم واجب دراستها بعمق ويكرسون لذلك وقتا كبيرًا[2].

ويعتقد المستشرقون الفرنسيون الأدباء أن علم العربية يتم من خلال دراسة الشعر على الخصوص، فبه يدرس اللسان العربي الجميل الذي أفسده المؤرخون والنحويون والشراح وشوهوه لولا أن الشعر العربي لا يزال يحافظ على صفاء اللغة العربية. واللغة سر شعبها وثروتها في رأيهم هي التي تعلم مثلها مثل التاريخ، سر الحضارة الكبرى التي بلغها المجتمع العربي في دمشق وبغداد وقرطبة واشبيلية وغرناطة. فالحضارة العربية تشهد عليها لغتها بإشراقة ماضيها كما تشهد اللغة الصينية والسانسكريتية على الحضارتين الصينية والهندية. وبناء على هذا يخلص المستشرق "دوقا" معبرًا على رأي المستشرقين الأدباء أنهم مقتنعون بأن آداب الشرق يجب دراستها لذاتها لأنها ذات قيمة جوهرية عالية، توقف على المستوى الفكري لشعوبها.

---

(1) - Biographie, T: 42, **op. Cité**, P : 989. –Nouvelle.

(2) - Gustave DUGAT, "Observation sur le mémoire d'histoire orientale de CH. DEFREMERY…", **J. A.**, 5 me Série, T : 7, 1856, P : 48-55.

والشرق على العموم والناطقون بالعربية على الخصوص هم الذين أهدوا لأوربا آدابا غنية ومتنوعة. ويضيف "دوقا" بأن أي تنكر لقيمتها أو تأسف عن الوقت المكرس لتحصيلها لدليل على ضعف في الذوق والإحساس الأدبي[1]. وكان "دوساسي" قد برهن عن أهمية الشعر والأدب في مقالات له بالمجلة الآسيوية[2] وفيما كتب على العموم في هذا المجال.

وكان ميل بعضهم إلى الأدب وحبه لذاته قد ولد لديهم أدب الفخر والتمجيد الذي نشأ اثر ما نشره علماء مستشرقون منذ هذه الفترة سواء في فرنسا أو في بروسيا أيضا[3].

أما المدرسة التاريخية فهي تميل إلى أن تاريخ الشعوب يتمثل في سلوكاتها السياسية والحربية وليس الأدب شرطا ملزما للمؤرخ وقيمة الشعر والأدب هو في كونهما وسائل للتاريخ. فالأهم عندهم هو تتالي الإمارات والأسر المالكة والمعارك والوقائع السياسية. أما الأدب والشعر واللغة -في نظرهم- فهي تكتسي أهمية بالنسبة للهواة. كما أن تعلم اللغة -في اعتقادهم- يجب أن يكون بمناسبة الرغبة في استعادة حوليات الشرق، لفهم نصوصهم التاريخية.

لكن، وبما أنهم لم يعمقوا آلية اللغة، يحدث أن يجد المستشرقون المؤرخون أنفسهم في صراع مع مصاعب الأسلوب، التي غالبا ما تعطل سيرهم، لأن نصوص مؤرخي الشرق مبثوثة بمقاطع شعرية، ومكتوبة أحيانا بأسلوب متكلف مصطنع. ومن هؤلاء المستشرقين من قاموا بدراسة جادة للغة، وكانوا يولون أهمية حقيقية للأدب، لكن فقط، عندما يساعدهم ذلك في إيضاح مسائل تاريخية[4].

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 45- 53.

(2) - Le baron S. DE SACY, "De l'utilité de l'étude de la poésie arabe", **J. A., 1re** série, T : 8, 1826, P : 321-339.

(3) - ابن نبي، إنتاج المستشرقين، **مصدر سابق**، ص: 11. من البروسيين المادحين نذكر: de Hammer Purgstall, ومن الهولنديين Dozy وغيرهما.

(4) - DUGAT, "Observations", J. A., 1856, **op. Cité**, P : 40-50.

يعود انقسام المدرستين الأدبية والتاريخية إلى الأيام الأولى للاستشراق المعاصر، إذ حدث الانقسام طبيعيا بين رجال مولعين بالأفكار، ضحوا لأجل رشاقة الأسلوب والوفاء الواجب تجاه النصوص، فكانوا أكثر دقة وصواباً، ورجال آخرين مولعين بالوقائع، تغيرت نظرتهم وصاروا أكثر اتساعا وعمقا، فأهملوا تعطشهم للنصوص لنقص الدراسات الأدبية الكافية فكانوا أقل دقة وصوابا[1].

والواقع أن هناك من يعترف بوجود المدرستين، مع إدراكه لمراحلهما وتحولاتهما واستمراريتهما إلى نهاية المرحلة التي ندرسها على الأقل ولكنه يعترض على انفصالهما وخاصة تضادهما، ويرى أن المدرسة الأدبية والتاريخية أختان وصديقتان أخذتا نفسا جديدًا قويا، وتواصلان سيرهما نحو هدف مشترك هو الإحياء والبعث الكامل للشرق[2].

وقد تزعم هذا الرأي الوسط "موهل" الذي التمس من "دوقا" أن يعيد النظر في تقسيمه هذا لاعتقاده أنه لا توجد مدرسة تاريخية استشراقية تستجيب لما ذهب إليه "دوقا" من تصنيف، مدرسة تنفي أهمية الأفكار والوقائع الروحية والأخلاقية والمعنوية والأدبية، أو تسهر على ترك علم اللغة (الفيلولوجيا) للهواة. وهكذا رد "موهل" -باسم الجمعية- على التقسيم وعلى النقاش حول أولوية التاريخ أو الأدب، بأنه نقاش عقيم سيما وأن الدراسات التاريخية والأدبية واللغوية تعتمد الواحدة على الأخرى اعتمادا تكامليا إلى الحد الذي صار فيه -تقريبا- من المستحيل أن نضع خطا فاصلا بين التاريخ والأدب سيما وأن كل الجهود تصب في هدف مشترك وهو معرفة الشرق. وقيمة الجهود المبذولة لتحقيق الهدف تتعلق بالكفاءة التي يتحلى بها الشخص في معرفة الآخر أكثر من الحرص على تصنيف المواضيع وأصحابها[3].

تناول المستشرقون شتى صنوف المعرفة اعتمادا على مصادر شرقية، واستخدموا التقنية الحديثة في البحث، بالذهنية الأوربية وتحت تأثير عوامل منها التقليدية في نظرتهم

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 50-40

(2) - عبر عن هذا الرأي على الخصوص "موهل" باسم الجمعية و في تقريره السنوي عام 1855.

(3) - - DUGAT, "Observations", J. A., 1856, **op. Cité**, P : 45-50.

للشرق، ومنها ذهنية عصر الاستنارة والرومانسية وغيرهما. فتعرضوا للوثائق والمخطوطات والنصوص بالنقد الذي امتاز بالفطنة والبصيرة النافذة والوقوف منها موقف الشك والتحفظ وأحيانا الدقة والعمق. وكان النقد منصفًا تارة، وتارة أخرى غلب عليه المدح، وثالثة الانتقاد.

ويتأتى الوقوف على اتجاهات المستشرقين الفرنسيين في كتاباتهم بطرح كل فكرة من أفكارهم الواردة، تحت المجهر، للنظر في شأنها، آخذين بعين الاعتبار مختلف زوايا الفكرة، كحقيقتها التي تصورها، وتطبيقها، ونوايا صاحبها ثم نوايا من يستخدم الفكرة ويوظفها سياسيا، سيما في عالمنا نحن، كعرب ومسلمين، مع بداية الاستشراق المعاصر المتزامن مع بداية المرحلة الاستعمارية[1].

وللحقيقة العلمية، وللموضوعية أيضا، فإن النقد المنصف كان السمة الغالبة والقاعدة العامة عند المستشرقين خلال المرحلة التي تعنينا. ولذلك نجد من هؤلاء المستشرقين من يعرض الموضوع بصدق وإخلاص وبراءة وتجرد وفق نظرة المشارقة أنفسهم، دون إقحام للمصادر الإغريقية ولا الرومانية ولا النقوش[2]. وتتميز ترجمات بعضهم للنصوص باللباقة والدقة أحيانا والصحة إلى حد ما، وهذا الأسلوب في التناول قد يدخل أصحابه في صنف المادحين. ومن الأمثلة على ذلك، المستشرق "دوبرسفال" و"ديهامير" و"ديلاجرانج" و"رينو" و"وييكي" وغيرهم. وهنا لا بد أن نقول إن المستشرقين المادحين كتبوا في الغالب لنصرة الحقيقة العلمية والتاريخ، كما كتبوا لمجتمعهم الفرنسي والأوربي[3].

لقد انطبقت المجهودات العلمية في نفوس بعض المستشرقين على مجرد الاعتراف بفضل الشعوب الإسلامية ومساهمتها في تكوين الرصيد الحضاري الإنساني. ولا شك أن مستشرقين أمثال "سيديو" يتسمون في إنتاجهم بميزة العالم الباحث والمجتهد المخلص للحقيقة العلمية[4]. وقد حدث هذا بعد أن خفت القيود اللاهوتية على البحث

---

(1) - ابن نبي، إنتاج المستشرقين، **مصدر سابق**، ص: 44- 45.

(2) - Rapport annuel, J. A, 1864, **op. Cité**, P : 16-17.

(3) - ابن نبي، إنتاج المستشرقين، **مصدر سابق**، ص: 7.

(4) - **نفس المصدر السابق**، ص: 7.

العلمي، ومحاولة المستشرقين الاقتراب من فهم الفكر الإسلامي مثلا[1]. ولا غرابة عندئذ أن نجد من المستشرقين من جاهد جهاد الأبطال لنصرة حقيقة من حقائق الشرق[2]. وهكذا، فإن هذا الاتجاه مع ما له من أخطاء، إلا أنه أكثر خصوبة وفائدة في مجال خدمة التراث والفكر العربي والإسلامي[3] الذي يهمنا في موضوعنا.

ولما كان المدح يمثل قناعة واقتناع صاحبه، فهو ليس مشينا في ذاته بقدر ما هو مشين في استعماله واستغلاله.

ولعله من السابق لأوانه القول إن إنتاج هؤلاء -وسنعود إلى الإنتاج بشيء من التفصيل- لا يجوز نكران قيمته العلمية ضمن السياق الذي جاء فيه، بل نراه أحيانا يستحق كل التقدير لاتسامه -في بعض أصنافه مثل ما خلفه أمثال "سيديو"- بالإضافة إلى طابعه العلمي، طابع أخلاقي لا يمكن نكرانه كشهادة نزيهة من طرف شهود معروفين كعلماء[4].

كان النقد سمة من سمات المستشرقين الفرنسيين -وكان البعض يسرف في توجيه النقد لهذه الفئة أو تلك- ولكن الحقيقة، أن النقد لم يكن مخطئا في كل الأحوال. والمجلة الآسيوية تزخر بنقد المستشرقين بعضهم لبعض وتصحيح أخطاء بعضهم بالاعتراف والإقناع وتبادل المعلومات...الخ. ومن المستشرقين الناقدين من تطرف إلى حد السقوط في الانتقاد، أي انتقاد بعضهم وانتقاد تراث الشرق وحضاراته انتقادًا مشوها لها، مما أدى إلى بروز تيار المنتقدين في مقابل تيار المادحين.

وإذا كان لبعض هؤلاء القلة من المنتقدين صيت في زمنهم وفي المجتمع الفرنسي، إلا أنهم كانوا أعوانا أوفياء للفئة المستعمرة. وكان بعضهم عسكريين أو متأثرين بجو الاستعمار في ما وراء البحر مثل "شيربونو" و"بريسنيي" وغيرهما. وبعضهم كانوا تراجمة، يسيرون جنبا إلى جنب مع جيوش الاحتلال، سيما وأن من غايات الاستشراق

---

(1) – اسمايلوفيتش، **الفكر العربي**، العدد: 32، 1983، ص: 209.

(2) – ابن نبي، إنتاج المستشرقين، **مصدر سابق**، ص: 9.

(3) – اسمايلوفيتش، الفكر العربي، **مصدر سابق**، ص: 209.

(4) – ابن نبي، إنتاج المستشرقين، **مصدر سابق**، ص: 42.

التعريف بالشرق وتمثيله أيضا بما يخدم مصالح الدول الأوربية في الشرق، ومخططاتهم وتطلعاتهم[1].

ومن هؤلاء المستشرقين -" شيربونو" مثلا- من كان يوجه النداء للشباب الفرنسي خاصة والأوربي عامة كي يندفعوا في غزو جديد، بحجة أنه السبيل لتمهيد الطريق للتاريخ والعلم، مستغلين في ذلك حماسة الشباب في جو الرومانسية الذي كان يسحر شباب أوربا[2].

إن التعريف بالشرق لا يعني بالضرورة، التعريف به بواسطة الانتقاد لأن هذا لا يخدم حتى المستعمر نفسه مادامت مصالحه تتطلب الصدق كي يبني على معطيات صحيحة. ومن الموضوعية القول إن من المستشرقين أنفسهم من كان يتقزز من أسلوب زملائهم الانتقادي الذي لم يبلغ بعد درجة "الموضة"، كما سيكون لاحقا. خذ مثلا انتقاد "ويل" للرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ على أنه مصاب بمرض الصرع مشيرًا في ذلك إلى الحالة التي كانت تنتابه أثناء نزول الوحي وقد تلقى مستشرقو المجلة الموضوع باستخفاف ولا مبالاة في المقال الأول فلما كتب "ويل" مقالات أخرى في نفس الموضوع ردوا عليه باستخفاف[3]. وحتى الضباط العسكريون كانوا يرفضون الانتقاد المضلل، ومن الأمثلة على ذلك رسالة بعث بها Le Vallois من المغرب، كان يراسل بانتظام وزارة الحربية الفرنسية تضمنت معلومة كاذبة مفادها أن سلطان المغرب الحسن الأول يشرب الخمر، فكانت المعلومة سببا في إقالته واستدعائه إلى فرنسا[4].

ومن الملاحظ أن فئة المنتقدين بدأ عددها يتزايد كلما تقدمت المرحلة التي تعنينا ...ويجد ذلك تفسيره في تفاقم ظاهرة الاستعمار واتساعها، واتساع قاعدتها أيضا في أوساط المستشرقين وهذا ما دفعنا إلى القول آنفا إن الاستثناء (الانتقاد) سيتحول تدريجيا

---

(1) - ادوارد سعيد، **الفكر العربي**، العدد: 32، 1983، ص 152.

(2) - A. CHERBONNEAU, "Trad. extrait de l'ouvrage intitulé : 'Traité de la conduite des Rois et Histoire des Dynasties Musulmans", **J. A.**, 4ème Série T : 7, 1846, P : 304 -305.

(3) - المجلة الآسيوية جملة أعداد.

(4) - خلافا لما كان يقول النقيب Erckmann عن الحسن الأول. انظر: وثائق فانسين بباريس H 3 4.

إلى قاعدة وتتحول القاعدة (النقد) إلى استثناء وعندئذ نحن بصدد موضوع غير موضوعنا هذا، وهو الموضوع الذي ركز عليه العرب والمسلمون في نقدهم للاستشراق وهو أيضا الذي جعلهم يتحولون من ناقدين للاستشراق إلى منتقدين له. وإذا نعتنا المستشرقين المنتقدين بغير المنصفين فلا بد أن نقول أيضا أنه من غير الإنصاف أن نضع مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيوية خلال المرحلة التي تعنينا في نفس درجة من سيأتي بعدهم. ولعل من مقتضيات الإنصاف أيضا أن نتناول علاقة مستشرقي الجمعية والمجلة بالاستعمار من خلال المبحث اللاحق.

ومهما كانت اتجاهات مستشرقي الجمعية والمجلة وتوجهاتهم فلقد نبغ بعضهم من خلال إنجاز عمل في مجال الاستشراق. والنبوغ في النهاية ليس شيئا سوى العمل. فكان "دوساسي" من أبرز الرجال الذين وضعوا فرنسا في مقدمة الأمم الأكثر دراية بعلم الاستشراق، وساهمت محاولاته المبكرة في تاريخ العرب وأدبهم قبل محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، في تسليط الضوء على موضوع غير مكتشف بعد، فكانت له القدرة بذلك على توسعة دائرة المعارف الإنسانية[1].

وإذا كانت أعمال "دوساسي" لم تثر كثيرًا من الاهتمام عند صدورها، فإن أهميتها ظهرت فيما بعد[2].

ونبغ "دولاستيري" بإيمانه بقوة التجمع والاجتماع. فساهم بهذا الإيمان في تأسيس جمعيات كانت نتائج بعضها فوق طموحاته ومنها الجمعية الآسيوية الفرنسية التي يعود الفضل إليه -كما أسلفنا- في أنه مؤسسها الحقيقي[3].

ونبغ "بوب" Bopp الذي هو من مراسلي الجمعية، في علم اللغات، العلم الذي كان قبله منصبا في فرنسا على ما يعرف باللغة العامة، وهي دراسات عقيمة، ضائعة في أفكار وهمية يكتنفها الغموض لافتقارها إلى طريقة واقتصارها على الوصف المحض دون

---

(1) - A. JAUBERT, Discours prononce aux funérailles de M. le baron Silvestre DE SACY, au nom de l'école spécial des Langues orientales, et de la Société Asiatique, J. A., 3^{me} série, T: 5, 1838, P : 394.

(2) - Nouvelle Biographie, T: 42, **op. Cité**, P : 988.

(3) - Rapport annuel, J. A, 1850, **op. Cité**, P : 111-112.

فلسفة ولا قواعد ولا قوانين. فكان أن برهن "بوب" بدراسته للألسن الهندو-أوربية، وعن طريق المقارنة على تقارب اللغة السانسكريتية والإغريقية- الرومانية. وأعطى برهنة كاملة، مسجلا أحد أروع الاكتشافات في القرن 19، إذ غير وجه علم اللغات، وحول كل فلسفة التاريخ بإدخال معطيات عملت على تحويل علم الأجناس والسلالات وتاريخ الأدب والنقد. وكان للاكتشاف أهمية وانعكاس على السياسة وتطور مجموع اللغات التي صارت توزن وتناقش وتشرح بعناية ووسائل دقيقة. فكان بذلك علما عجيبا في منهجه ونتائجه التاريخية واللغوية[1].

كما نبغ "رينو" في آثار العرب الدقيقة أي النقوش العربية من خلال مؤلف شرح فيه الوصفات الأساسية التي استعملها المسلمون العرب في حوائجهم وعلى الحجارة وفي زخرفة أسلحتهم وأوانيهم. وكان الكتاب من بين كتب "رينو" الأكثر نفعا، وأول ما ظهر من المؤلفات في النقوش العربية، كما أسلفنا.

ولم يحدث أن نجح أحد قبل "فريسنيل" في جمع صورة العهود العربية القديمة وإعادة الحياة لكلام العرب ومشاعرهم المتميزة من خلال الشعر الجاهلي، وهو عالم بعيد عن عالم أوربا وأفكارها[2]. كما خدم "بواسوني" علم اللغة بنشره للخط التيفيناغي[3] وغير هؤلاء كثير في مجالات أخرى متعددة.

-[1] -Rapport annuel J. A, 1868, **op. Cité**, P : 17-18.

-[2] - Rapport annuel J. A, 1867, **op. Cité**, P : 18.

-[3] - F. DE SAULCY, "Observation sur l'Alphabet Tifinag", **J. A.**, 4 ^{me} Série, T : 13, 1849, P : 247-248.

3- علاقة مستشرقي الجمعية والمجلة بالساسة ودورهم في الاستعمار:

تعتبر الأعمال الأدبية في الثقافة الأوربية الحديثة نتائج لقرائح الفكر الكلاسيكي، والطبائع التي جبل عليها أصحاب هذا الفكر في نمط تفكيرهم. فقد ظلت طوال الفترة حبيسة نزعات فردية أوربية تدين بمبدأ "الإنسانيات الإغريقية اللاتينية". لم تكن الثقافة الأوربية قبل موضوعنا، تضم في رحابها الواقع الاجتماعي الذي يتجاوز أوربا، أي العبقرية الإنسانية ولاسيما ثقافات الشرق. غير أن هذا النقص الفادح حاول الأوربيون تداركه ابتداء من نهاية القرن 18 ومطلع القرن 19 م، بتأثير من الإنسية المنبثقة عن النهضة، وعصر الاستنارة، وحمى الرومانسية التي تدفع بالأذهان نحو الشرق، ومغامرة التوسع الاستعماري وكذا الأفكار الجديدة التي حملها إلي الأوربيين – فيما بعد- علم النفس والاجتماع والأجناس وغيرها. ولعل فكر الاستنارة على الخصوص، هو الذي جعل الثقافة الأوربية تمتد لتشمل ما وراء حدود أوربا وتحمل بصورة عامة طابع العبقرية الإنسانية. ففي خلال القرن 19 إذن اكتشفت أوربا عامة ثقافات الشرق على يد المستشرقين، فضمت بذلك مجالا جغرافيا واسعا، ومعنى اجتماعيا أشمل[1] وتحصلت على معرفة كونية[2].

وهكذا كانت باريس منذ مطلع فترتنا قد أنتجت أغنى الدراسات الاستشراقية التي لا يمكن العثور عليها في عاصمة من عواصم أوربا، كما كانت تملك أندر المخطوطات، ومطبعة ملكية معدة لطبع أضخم المؤلفات وبكل اللغات والحروف الشرقية حتى الصينية منها. فهل كان ذلك حبا في الشرق أو في تراثه، أو بدافع العلم المحض؟. الواقع أن مدرسة اللغات الشرقية الحية نفسها مدينة في تأسيسها (30/ 03/ 1795) داخل حرم المكتبة الوطنية، إلى تطلعات سياسية أكثر منها علمية، فقد كانت تهدف من بين ما تهدف إليه بالنسبة لفرنسا، استرجاع تأثيرها ومكانتها التي فقدتها بعد

---

(1) – ابن نبي، مشكلة الثقافة، **مصدر سابق**، ص : 28- 29.

(2) – ريغ، **مصدر سابق**، ص : 141.

– لعلها المقدمة الحقيقية لما صار يعرف اليوم بالعولمة.

الحملة على مصر عام 1798 م[1]، من خلال رجال فكر وتراجمة ومراسلين وقناصل وغيرهم.

إننا في الواقع بصدد موقفين، الموقف الرسمي، أعني موقف الساسة ورجال الحكم، والموقف العلمي الأكاديمي، وهما يشكلان ثنائية تتجاذب إحداهما الأخرى، فتارة تعمل بالتوازي مستقلة عن بعضها كل يجتهد في مجاله الخاص، وتارة تتعاون وتتكامل، وثالثة تمتزج إحداهما في الأخرى حتى لا نكاد نميز بعضها عن بعض، والمهم أننا بصدد عملة ذات وجهين.

إن الاستشراق الأوربي على العموم، والفرنسي منه على الخصوص قد نشأ في ظل عقدة تفوق الإنسان الأوربي والعقل الأوربي والحضارة الأوربية[2]. وكان المثقف -ولا سيما السياسي وأقل منه المستشرق- ينظر إلى أنه سيد العالم، وأن أوربا هي أم الدنيا وأن التاريخ بدأ من أوربا، وإليها يعود[3].

كان من سوء حظ الاستشراق إذن، أن نشأته تزامنت مع نمو النزعة الاستعمارية والتوسع السياسي الاستعماري. فكان الشرق محل اهتمام رجل الاستشراق ورجل الاستعمار على حد سواء. وقد نشأ بين الطرفين اهتمام وعمل متكامل، فلا غرابة إن وجدنا دراسات استشراقية موجهة لخدمة أهداف عملية مطلوبة منهم لهذه الحكومة أو تلك، وقد ترصد الأموال لتحقيق البحوث مما يجعلها غير مبرأة الغرض. فالاستشراق إذن، هو الوجه الفكري للتوسع الاستعماري، وخطاب بعض المستشرقين ولد في أحضان الاستعمار.

ولعل المقياس الصحيح في دراستنا للاستعمار الأوربي للشرق، هو أن نبحث مُعَامِلَه بحثا علميا برؤيته في أعماق التاريخ، إذ تعود أصوله إلى روما حيث وضعت

---

(1) - NEUMANN, "Coup d'oeil Historique sur les peuples et la littérature de l'orient", **N.J.A.**, 2 ^{me} série, T : 14, 1834, P : 44.

(2) – كثيرا ما نصادف، من خلال نصوص مستشرقي المجلة الآسيوية، مصطلحات "أوربا العالمة" و"المركزية الأوربية المثالية" وغيرها.

(3) – يوسف القرضاوي، **أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة**، مطبعة المعارف، الجزائر، د. ت.، ص: 179.

المدنية الرومانية طابعها الاستعماري في سجل التاريخ، فالحكم الروماني استعمر غيره بما في هذه الكلمة من معنى مادي منحط، ومن استغلال وتفرقة سياسية وعنصرية.

وبالرغم من أن العهد الإسلامي الذي أعقب تجربة روما وكان ضمه لجنوب فرنسا وإسبانيا وإفريقيا الشمالية ضما للحضارة الإسلامية في الشام أو بغداد، وبالرغم من انعدام التفرقة السياسية في ظله ومن انتشار الإسلام كحضارة لا كدين، فإن أوربا تناست هذه التجربة في القرن 19 م بل تناست همزة الوصل في التاريخ الإنساني بين حضارة أثينا وحضارة باريس[1].

أخذت الحضارة الأوربية المعاصرة إذن من الحضارة الرومانية روحها الاستعمارية فكان المعمرون الفرنسيون في الجزائر مثلا يردون أعمالهم إلى عبقرية الرومان وحاولوا في عين المكان أن يتذكروا أمجاد أجدادهم الرومان. ومعروف عن العبقرية الرومانية التي أخذتها شعوب أوربا كمثال في القرن 19 أنها ذات روح قيصرية لا إنسانية، فأضحت شعوب أوربا متكبرة تسوم الإنسانية سوء العذاب، من غير ما ضمير يردع، ولا قانون يمنع[2]، ولعل أبرز مثال على ذلك، التجربة الاستعمارية في الجزائر خلال المرحلة التي تعنينا على الأقل[3].

والنظام في فرنسا كالنظام في أوربا، ذو صبغتين، فهو علمي واستعماري في آن واحد. فإذا ما كان في أوربا فإنه يفكر بمنطق العلم، أما إذا انساح في العالم فإنه يفكر بعقلية الاستعمار[4]، وكذلك الاستشراق.

فالمستشرقون يلبسون أردية العلم وإن بدا عملهم أكاديميا، فلكثير منهم صلات لا تخفى مع الاستعمار، وسنحاول فيما تبقى من المبحث أن نتناول أوجه هذه الصلات مركزين على ثنائية منطق العلم وعقلية الاستعمار.

* * *

---

(1) – ابن نبي، شروط، **مصدر سابق**، ص : 148.

(2) – **نفس المصدر السابق**، ص : 149.

(3) – أنظر: أبو القاسم سعد الله، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج1، قسم1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992.

(4) – ابن نبي، وجهة العالم، **مصدر سابق**، ص:131.

الواقع أن مستشرقي الفترة التي تعنينا وجدوا أنفسهم في "وضعية يسودها انجذاب رومانسي نحو الغرابة الجغرافية والثقافية لمواضع أخرى مغايرة، واهتمام متزايد بالغوص في أعماق الماضي"، لكنهم وجدوا أنفسهم في آن واحد، الضمير الحي بصورة ما "للمغامرة الاستعمارية التي وفرت لبعضهم، أو على الأقل لمن أراد منهم، إمكانيات إشباع ميولهم وتحقيق أحلامهم"[1].

كان مستشرقو الجمعية والمجلة ينظرون إلى حركة التوسع الاستعماري في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن 19 بإعجاب من حيث المبدأ ولكنهم يتحفظون على الوسائل والممارسات، فقد كانت أوربا تفيض بسياستها ونشاطها، وهي تتجه كل يوم نحو الهيمنة على الشرق وفرض سيطرتها عليه سياسيا، دينيا وعلميا.

وكان إعجاب المستشرقين بحركة التوسع الاستعماري يستوجب عليهم إسداء النصح للساسة، فقد كانوا يرون أن أوربا إذا أرادت أن تهيمن فعلا على بلاد الشرق فما عليها إلا أن تعرفه معرفة دقيقة وإلا فلن تفرض سوى رق على شعوبه وعبودية وعنف مؤقتين. فلكي تدخل أوربا على الشرق أفكارها الجديدة عليها أن تدرك واقعه وأفكاره القديمة حيث توقفت عن تطورها وهي الأفكار التي يرغب المستشرقون في ربطها بتجربة الفكر الغربي كي تزدهر علوم الشرق من جديد.

وكان المستشرقون يرون أن هذا الشرط ضروري لنجاح "رسالة الاستعمار في تحرير شعوب الشرق" وإلا كان فعل الهيمنة "فعلا بربريا"[2]، لا يختلف عن محاولات حكام الشرق تلقين شعوبهم حضارة أوربية لا يعرفونها، فلم يساهموا إلا في تسارع انهيار ما بقي محترما لديهم[3].

لم يكن مستشرقو الجمعية والمجلة مرتاحين للانطلاقة الجديدة لحركة آداب الشرق، فهم كانوا يريدونها أن تكون أنشط وأسرع وأوسع مما كانت عليه في مطلع الأربعينيات، لأن طموحاتهم كانت أكبر وتضحياتهم مضاعفة إلا أن الذي يعوزهم هو

---

(1) – ريغ، **مصدر سابق**، ص : 117.

(2) – - Rapport annuel, J. A., 1844, **op. Cité**, P : 82.

(3) – **نفس المصدر السابق**، ص : 63.

وسائل النشر. فالخطأ إذن، في نظرهم، ليس خطأهم بقدر ما هو خطأ الحكومات والشعوب الأوربية.

ومع ذلك فإن الحكومة الفرنسية مقارنة بغيرها من حكومات أوربا هي أكثر تشجيعا لآداب الشرق. فقد أحدثت كراسي لجل لغات الشرق سواء الميتة منها أم الحية، فضلا عن تشجيعها لكثير من الرحلات، كما سيأتي، وهي تضع في متناول المستشرقين من خلال المكتبة الملكية كما هائلا من المخطوطات النفيسة، تسيرها بحرية نادرة.

إن لدى الحكومة الفرنسية إذن، احتراما للعلم من شأنه أن يساعد أكثر من المعونة المادية على إحياء الأعمال العقلية. ومع ذلك كانت أمنية المستشرقين أن تهتم الحكومة بآداب الشرق في فرنسا أكثر، وأن لا ينحصر تشجيعها على العاصمة باريس، بل تنشر هذه الآداب في فرنسا عبر التربية الوطنية، وكنتيجة لهذا، ينتهي المستشرقون في موازنتهم خذلان آداب الشرق بين الحكومة والجمهور، إلى أن الجمهور لا يعير إلا اهتماما متواضعا لكل ما يتعلق بالشرق[1].

فلا الحكومة الفرنسية ولا الجمهور يشجع الدراسات الشرقية بكفاية ووفق ما تقتضيه الضرورات العلمية. لكنه من المؤكد أن تطورا فعليا كان في اطراد، فما صار ينجز في الأربعينيات كان مستحيلا قبل ذلك بعشرين سنة، كما أن مؤسسات تظهر آنئذ خيالية، كانت ستصير ممكنة التحقيق بعد عشرين سنة أخرى.

إن نتائج الأبحاث التاريخية واللغوية الشرقية تدخل ضمن المعارف التي يحتاج إليها رجل العلم في فرنسا، وستعاد كتابة تاريخ الشرق بناء على ما تكتشفه أجيال المستشرقين، وسيأخذ مكانه الطبيعي ضمن التاريخ العالمي.

كانت رؤية المستشرقين المستقبلية، خلال الفترة التي تعنينا متفائلة إذن، فهم يرون أن أعمالهم ستتسع دوائرها أكثر، وجهودهم كعلماء ستحظى بتشجيعات واهتمام واحترام الجمهور في النهاية[2].

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص : 64.

(2) – - Rapport annuel, J. A., 1844, **op. Cité**, P : 72.

غير أن التجربة سترسخ لديهم قناعة خلال الخمسينيات، مفادها أن تشجيع المطبوعات أمر غير كاف، وأن توسيع قاعدة تعليم لغات وآداب الشرق أمر ضروري، مثلها مثل إقامة نظام رحلات علمية استكشافية للشرق[1]. ولذلك فسيعول المستشرقون على الحكومة الفرنسية في هذين المجالين، أي التعليم والرحلة.

لقد تبوأت فرنسا بإحداث كراسي اللغات الشرقية في باريس، مع مطلع القرن 19، مكانة وفخرا في مجال الدراسات الشرقية، واحتفظت بمكانة مرموقة بين الدول الأوربية عقودا من الزمن، غير أنها لم تعد كذلك في الخمسينيات من القرن 19، فكان ولا بد من الدفاع عن هذه المكانة بإضفاء الطابع الوطني على الدراسات الشرقية، فلم تعد كراسي اللغات الشرقية في باريس وحدها كافية، وغدا التعليم في هذا المجال منحطا بتركيزه في نقطة واحدة وحرمان باقي أقاليم فرنسا منه. فكان النهوض باللغات الشرقية —في رأي المستشرقين— يقضي بتسهيل إدخالها تدريجيا في كليات الآداب، وتعميم تذوقها بتوفير قسط من البرامج لها في مدارس المعلمين، ويمكن أن يكون النحو المقارن مدخلا لها[2]، وهكذا يمكن إخراج العاصمة باريس من عزلتها.

كانت مصلحة فرنسا تقضي بتعليم اللغة العربية السهلة التحصيل، كما أن تعليم الإنسانيات يرافقه دراسة السانسكريتية التي تشكل مفتاحا للنحو الإغريقي، فتنور أصول الشعوب الآرية وتطبع الآداب الكلاسيكية بحيوية جديدة بإبراز تنوع الأشكال التي أعطتها مختلف الفروع لجنس واحد من البشر ولأفكار ذات عمق مشترك.

كانت ألمانيا سباقة في هذا المجال، فقد استفادت من تعميم التعليم الشرقي في جامعاتها، وأدخلت دراسات إغريقية—سانسكريتية. فكان أن طالب المستشرقون الفرنسيون بإحداث كرسي للسانسكريتية وآخر للعربية في كليات الآداب في فرنسا. واستقبلت الأقاليم الفرنسية هذه الفكرة بغبطة ودعمتها بالفعل أكاديميات "نانسي" و"ميتز"

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 105.

(2) – نفس المصدر السابق، ص : 107.

بتقارير إيجابية وصارت محل نقاش في أقاليم أخرى في فرنسا[1].

ويبدو أن طموحات مستشرقي الجمعية والمجلة في توسيع مجال الدراسات الاستشراقية وتعميمها على فرنسا باءت بالفشل، ذلك أنهم سيثيروها مجددا في مطلع الستينيات، أثناء الحديث عن تنظيم التعليم العالي وتوسعته، من خلال إحداث بعض التغييرات وإضافة كراس. وقد أكدوا، فيما يتعلق بكليات الآداب، على إحداث كرسي للسانسكريتية وآخر للعربية في كل منها[2]. وألحوا في الطلب والتأكيد على الحكومة أن تأخذ بعين الاعتبار تأييد الأقاليم في إحداث كراس بأكاديمياتها، ومن بين ما اقترحوه هذه المرة تكملة التعليم اللغوي في "كوليج فرنسا" بإحداث كراس للغة الفيدا والزرادشتية والآشورية والقبطية، كما اقترحوا إحداث كراس في مدرسة اللغات الشرقية للكوشنشينية والبربرية والباسكية والبروتونية وغيره... وتحويل تعليم العربية الجزائرية (اللسان الدارج) إلى كرسي منتظم.

وقد انتهى المستشرقون إلى أن تعلم لغات الشرق في فرنسا لا يزال غير كامل وأن غيرتهم على الدراسات الشرقية مستلهمة من حبهم للعلم ومن كون الاهتمام بآداب الشرق يشكل فخرا لفرنسا[3].

كان من سوء حظ الاستشراق والمستشرقين أيضا أن جاءت هذه الرغبات متزامنة مع اجتياح أوربا لمرض عضال تمثل في ضعف الأفكار والعقول نتيجة الاهتمام المتزايد بالمنافع المادية التي تثبط الهمم ومنها همة طلب العلم –كما أسلفنا– فانحط احترام العلم وسكنت اللامبالاة عقول الشباب وكان ذلك أحد مؤشرات نهاية جيل وبداية جيل جديد. وكانت أقاليم عديدة فيما وراء البحار تسقط أمام زحف الاستعمار الأوربي

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص : 106. كانت هذه الأفكار مستوحاة من كتاب:

- Guerrier DE DUMAST, **L'orientalisme rendu classique dans la mesure de l'utile et du possible,** 2 me édit... Augmentée de documents, et correspondances sur l'état présent de la question orientaliste, Nancy, 1854.

(2) – - J. MOHL, "sur l'enseignement supérieur tel qu'il est organisé en France, et sur le genre d'extension à y donner", par P.G. DEDUMAST Paris, 1865, **J.A.**, 6 me série, T S, 1865, P.567.

(3) – **نفس المصدر السابق**، ص : 568.

وتكالبه[1]، نظرا لاستفحال ظاهرة التوسع وطغيان الفكر المادي على حساب القيم الأخلاقية والحضارية. ثم جاءت الحرب الفرنسية البروسية عام 1870(2) وانهزام فرنسا أمام ألمانيا، وظهر نقد لاذع لتجربة التعليم في فرنسا باعتبارها السبب في الهزيمة، فوقعت مراجعة شاملة لتجربة التعليم وإدخال نظام (السيمينار) الألماني[3] وغيره مما يخرج عن مجال موضوعنا.

تعد الرحلات إلى الشرق وسيلة المستشرقين المفضلة للاستكشاف العلمي الميداني لتوفر عنصر المغامرة ولئن كانت الرحلة تعطي شرحا وتفسيرا ضروريين إلا أنها لا تشكل بديلا عن آداب الشرق التي تبقى أهم وسيلة لدراسة لغات وتاريخ وديانات وشعر العهود القديمة لشعوب الشرق.

يحتاج المستشرقون الرحلة لفهم كتاب الشرق ومعرفة الموقع الجغرافي للبلدان ووصف النصب التذكارية القديمة ونسخ النقوش واكتشاف معاني ملامح مأخوذة من التاريخ الطبيعي للبلدان، وجمع قواسم عادات من شأنها تسليط الضوء على ماض بعينه، فالرحلة مشهد حي لا يمكن أن يعطيه سواها[4].

لما كانت بغداد مركزا للحضارة الإسلامية، في عصور أوربا الوسطى، كان الخلفاء يوفدون إرساليات إلى أوربا لشراء المخطوطات الإغريقية، التي كان متوحشو أوربا يهملونها. وها هي ذي أوربا القرن 19 تبعث إرساليات أدبية لإنقاذ بقايا آداب العرب القديمة التي قامت على ما بحث عنه وجمعه أولئك الخلفاء أنفسهم[5].

ولقد جاب الفرنسيون الشرق في كل اتجاهاته، خلال المرحلة التي تعنينا، سواء في شكل إرساليات أم ضباط أم أطباء أم دبلوماسيين أم تجار أم رحالة مكلفين بمهمات

---

(1)_ - Rapport annuel, J. A., 1856, **op. Cité**, P : 11-12.

(2) – كانت فرنسا تخشى من تعاظم نفوذ البروسيين ومن قدرة الاتحاد الألماني تحت الزعامة البروسية على قلب ميزان القوى في أوربا وبعد عدد من التراعات أعلنت فرنسا الحرب على بروسيا سنة 1870 وهزمت فرنسا على إثرها واضطرت إلى التنازل عن منطقة الألزاس وجانب من منطقة اللورين للإمبراطورية الألمانية الجديدة. انظر:

- الموسوعة العربية العالمية، ج 17، **مصدر سابق**، ص: 327.

(3) – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، **مصدر سابق**، ص : 13.

(4) – - Rapport annuel, J. A., 1847, **op. Cité**, P : 18.

(5) __ - Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 28.

علمية في بلدان الشرق على خطورتها أحيانا، فزاروا النصب والآثار ونبشوها وفتشوها، ونقلوا بعضها إلى فرنسا فأجروا عليها بحوثا وفحوصات وتحقيقات علمية واستنتجوا منها نتائج.

أنجز الرحالة المستشرقون الكثير، بعلم وشجاعة، ومع ذلك فلم يكن فن الرحلة إلا في بدايته، إذ ليس هناك بلد استكشف بما فيه الكفاية، فلا تزال هناك، مع نهاية الفترة التي تعنينا، نصب وآثار لا حصر لها، وكان لا يزال الاستشراق وقتئذ أبعد ما يكون عن المعرفة الحقيقية للنظم الاجتماعية السائدة في الشرق وغيرها كثير من النقاط الغامضة. كما أن مكتبات الشرق لا تزال تحتوي عددا هائلا من الكتب التي يهم المستشرقون استخراجها وإنقاذها من التلف الوشيك، وإخضاعها للنقد والتمحيص[1].

إن تاريخ الشعوب كتاريخ الطبيعة، كلما درسه مستكشفوه تبين لهم جهلهم به أكثر، فهذا "موهل" يعترف للرحالة "فريسنال" بأن شرحه لحياة العرب قبل الإسلام جد مفيد لأن ملاحظاته الميدانية عن عادات وطبائع العنصر العربي ذكية، وهو رجل يعرف كيف يرى ويحسن خاصة الاهتمام بما يرى[2].

سجل مستشرقو الجمعية والمجلة إيجابية وملاءمة زمنهم للرحلة واستكشاف بلاد الشرق أكثر من أي وقت مضى، والسبب في ذلك يعود في رأيهم إلى سهولة دخول هذه البلاد لأن كل شيء صار مفتوحا أمام قوة أوربا حتى البلاد التي كان يستحيل دخولها لتعصب أهلها ضد الأوربيين أصابها رعب وهمي جراء صلتها بأوربا، ومع ذلك كانت لا تزال الرحلة محفوفة بالمخاطر.

لم يكن الرحالة مرتاحين تماما لتزايد ضغط أوربا على بلاد الشرق لأن ذلك ينعكس سلبا –أحيانا– على مجال اهتمامهم، فالضغط يتلف كثيرا من الأشياء عند الشعوب التي يمارس عليها، إذ يمحي ذكريات قديمة كما يذهب الروائع التي حافظت عليها "غفلة وخشونة" السكان إلى القرن 19[3].

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1847, **op. Cité**, P : 19.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص : 20-21.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 23-24.

يذكر مستشرقو الجمعية والمجلة بإعجاب جملة من الرحالة الأوروبيين المعاصرين أمثال: "ماسون"MASSON ، و"وولف"WOLF ، و"وود" WOOD، و"آرنو" ARNAUD و"لايار" LAYARD ، و"وريد" WREDE ، و"بود" BODE وغيرهم، الذين عرضوا حياتهم للخطر ليضيفوا شيئا إلى المعارف الاستشراقية. ونجح بعضهم في زيارة الأماكن نفسها التي قتل فيها "شولز" [1] CHULZ.

ظلت مؤسسة الرحلة معزولة لمدة ومرتبطة بعالم الأشخاص إذ لا تنفذ مهامها إلا عندما يهتم أمير أو وزير فرنسي صدفة بعالم أو فرع من فروع البحث الاستشراقي[2]. وبقيت الحكومة الفرنسية لا تجرؤ على تقديم يد العون للرحالة إلا نادرا، ومن الأمثلة على ذلك رحلة "شامبوليون" إلى مصر التي استغرقت الوقت الكثير ومورست ضغوط على حكومة النظام الملكي الفرنسي العائد، وكذلك رحلة "شولز" إلى بلاد فارس.

توسعت الرحلات العلمية بعد ذلك، وانتظمت، وبدأت الحكومة الفرنسية تدرك قيمة الرحلة وأهميتها في سبيل التقدم العلمي، وكان ذلك سلوكا مشرفا يعبر عن اهتمام متنورٍ للبلاد في اتجاه تطور المعارف الإنسانية مما سينعكس تأثيره على تطور الدراسات الشرقية على الخصوص[3].

يعود اهتمام مستشرقي الجمعية والمجلة بالرحلة المنظمة إلى نهاية الأربعينيات. وقد بذلت جهود لرسم أهداف متوخاة من الرحلة إلى الشرق وبتدعيم وأمر من الحكومة الفرنسية، كما رسمت لها قواعد وقوانين، يأتي في مقدمتها حصر مجال الرحلات التي تنجز لأغراض التاريخ والأدب -دون تلك التي يتم فيها دراسة الجيولوجيا، أو النباتات أو علوم أخرى- وهي الرحلات التي تحتاج إلى قطع مسافات طويلة. ذلك أن الحكومات كانت تعيب على برامج الرحلات إلى الشرق، المساحة الشاسعة التي يقترحونها، وهو أمر طبيعي لدى الرحالة أو المستشرق الذي غالبا ما يمتلئ خياله بأسماء

---

(1) – **نفس المصدر**، ص : 25.

(2) – **نفس المصدر**، ص : 26.

(3) – **نفس المصدر** ، ص : 27.

مدن أو بلدان ذات شهرة تاريخية لغنى نصبه وروائعها وذكرياتها، لكن اتساع هذه التصورات والخطط حال دون الحصول على النتائج المتوخاة.

كان المستشرقون الفرنسيون في حاجة إلى توضيح مسائل عديدة عن أصول وعادات ولغات القبائل التي تقطن وقتئذ بلادا كانت قديما تتمتع بشهرة، وكانت رغبتهم، هي معرفة مؤسساتهم المدنية والدينية، وقوانينهم القطرية وتنظيماتهم الإدارية، وكذلك الحصول على الكتب التي لا تزال تقبع في ركن ما من أركان مدن الشرق والتي تفتقر إليها مكتباتهم.

كانت الرحلة الناجحة في تصورهم تقتضي الإقامة في مقاطعة ما للتغلب على الصعوبات التي يفرضها "الجهل والتحفظ أو وحشية" سكان الشرق. وكان ذلك يستوجب انتظار الوقت حتى تحين الفرصة لدخول مقاطعة خطيرة، ثم أخذ الوقت اللازم والارتباط برجال البلد كي يتسنى للرحالة مراقبة مؤسساتهم والتعلم منهم عن كثب، على أن ذلك كله مشروط بمعرفة مسبقة لتاريخ ولغة وأدب شعب ذلك البلد لإدراك ما هو جدير بالاهتمام، وإيجاد المساعدة العلمية اللازمة من أطراف الشعب العلمية المحترمة حتى تمكنه وتساعده على تعميق البحث والاكتشاف[1].

ولعل من التجارب الرائدة التي تفاءل بها مستشرقو الجمعية والمجلة -وقتئذ- الرحلة الثانية لزميلهم "آرنو" إلى سبإ، وهي الرحلة التي يقف وراءها كل من وزير التعليم العمومي ووزير الشؤون الخارجية، فقد تمكن "آرنو" من زيارة سبأ طوال ثلاث سنوات، فأعطوه الوقت الكافي لنقل الكثير من النقوش التي تغطي آثار الخريبة ومدن أخرى قديمة لم يتمكن من زيارتها خلال رحلته الأولى[2].

كان من قواعد الرحلة الناجحة أيضا -في نظر مستشرقي الجمعية والمجلة- إرسال الرحالة على التوالي، إلى نقاط أكثر إثارة للاهتمام في الشرق، ولتكن إحدى المدن الكبرى التي شكلت أو لا تزال تشكل مركزا حضاريا، وتحديد مجال كاف له، ومع إحاطته المبدئية باللغة والظروف التاريخية والسياسية للبلد، يطلب منه القيام بجرد

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1847, **op. Cité**, P : 27-28.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص : 31.

ووصف وتعريف وشرح وبيان لكل ما يتعلق بالقطر، عهوده القديمة، مكتباته، تنظيمه ومؤسساته الآنية. كما لا بد من إعطائه مدة كافية، ولتكن ست سنوات أو سبعا، تمكنه من القيام بالحفريات والاستئناس بعلماء البلد وقادها كي يأخذ منهم الإذن للدخول إلى كل مكان. ويمكن أن يطلب من الرحالة ترجمة تاريخ محلي إن وجد أو كتاب يعتمد فيه على مصادر البلد.

وقد وقع اختيار مستشرقي الجمعية والمجلة، على جملة من رحلات ذات أولوية، واحدة إلى بغداد، يتم التركيز فيها على بابل القديمة، وأخرى إلى دمشق، يركز فيها على مكتباها، وكذلك لبنان والقبائل العربية التابعة لدمشق. ورحلة ثالثة إلى همدان حيث تنتشر اللهجات.

وقد تم التنصيص على إمكانية الكشف عن قادة آسيا، في نفس الأثناء، مع التحلي بالحيطة والصبر الذي تتطلبه هذه الرحلات[1].

كان رأي المستشرقين في نهاية الأربعينيات قد استقر على أن الأصعب قد أنجز وأنه مرحليا يكفي إرسال رحالة في كل سنة. وعندما يكتمل توفير شروط الرحلة الناجحة يمكن إرسال ستَّة رَحَّالَة في نفس الوقت.

إن التخطيط العلمي للرحلة يساعد على إيجاد حل في نفس الوقت للمسألة الصعبة —وقتئذ– والمتمثلة في اختيار الأشخاص والتنافس على الرحلة التي تتفق عليها الحكومة. فشروط الإقصاء والترشيح مرسومة في المخطط نفسه، من ذلك معرفة اللغات العلمية للبلد المعني بالرحلة، وكذلك تاريخها. وهكذا فإن تلاميذ مدارس الشرق بباريس، سيجدون المبرر والحافز الذي سيصعد من فضولهم ويمنحهم الفرصة الغالية لترقية جهودهم وتحسينها في البلد نفسه الذي هو هدف أعمالهم[2].

كان مستشرقو الجمعية والمجلة يعولون على إتباع مخطط صارم يجني النتائج المفيدة في المجال العلمي، المشرّف لفرنسا. كما يمكّن المخطط رجالا أكفاء من زيارة الشرق والوقوف على الكنوز غير المعروفة للعصور القديمة، الكنوز التي ستثري متاحف فرنسا.

---

(1) – **نفس المصدر السابق،** ص : 32– 33.

(2) – - Rapport annuel, J. A., 1847, **op. Cité**, P : 33-34.

كما أن العديد من جواهر الكتب التي كان يظن أنها ستكشف وتسد فجوات مكتبات فرنسا، مما سيمكن المستشرقين من دراسة أفضل للغـات وتـاريخ شعوب الـشرق ونظمها[1].

لقد نشرت الحكومة الفرنسية عددا هائلا من الـرحلات البحريـة تـشرف مقاصدها واحترامها للعلم في نظرها، فلم يحدث في بلد أوربي ما حدث من مـساعدة الحكومة الفرنسية للعلم، بقي على المستشرقين أن يحسنوا تسيير المـوارد الموضـوعة في خدمة العلم وتصريفها بطريقة تجني أكثر الفوائد الممكنة.

إن عدد الرحلات التي نشرت على حساب الحكومة مثيرة للاهتمـام، ولكـن ارتفاع سعرها يحرم العلماء من اقتنائها وهي أغلى أيضا مقارنة بما ينجـز في الـدول الأوربية المجاورة، ومن الواضح أن كتابا لا تقتنيه سوى المكتبات المركزية لا يحقق هدفه. ومن الواضح أيضا أن الأسباب تعود إلى ضخامة العمل وكثرة الصور والألوان وجمـال العمل وباختصار إلى التكلفة الباهظة. خذ مثلا رحلـة "دورفيـل"DURVILLE إلى القطب الجنوبي فقـد قـدر سـعرها بـــ 1.450 فرنـك، وكـذلك رحـلات "تيكسيي"[2] TEXIER، و"فلاندان"FLANDIN ، و"كوست" COSTE، وهـي كتب يتعذر شراؤها حتى على مكتبات أوربا.

صحيح أن الحكومة والوزارات تهدي بعض كتب الرحلات إلى العلماء، ولكـن المستشرقين لا يعتبرون ذلك كافيا، وأن توزيع الكتب يعتريه خلل لأنه يطال الأغنيـاء بينما يحرم الفقراء. ومن الواضح أن الوسيلة الوحيدة لتعميم فوائد نشر كتاب هـو أن يوضع له سعر يستطيع تسديده الذين هم في أمس الحاجة إليه[3].

كانت خلاصة رأي مستشرقي الجمعية والمجلة، حول الوسائل الواجب اتباعها، في مجال الرحلة، للوصول إلى الهدف يقضي بتعيين لجنة واحدة مصغرة ودائمة تكلـف

---

[1] – **نفس المصدر السابق**، ص : 34- 35.

[2] – أثري فرنسي (1802– 1871). خريج مدرسة الفنون الجميلة (1823)، قام بعدة رحلات إلى بلاد الشرق (1835– 1839). ترك عدة مقالات أثرية، تاريخية وجغرافية.

– انظر: - La Grande Encyclopédie, T : 30, **op. Cité**, P : 1145.

[3] – - Rapport annuel, J. A., 1847, **op. Cité**, P : 39-40.

بالاقتراحات، ولهذه اللجنة أن تعطي رأيها في مخططات الإرساليات العلمية واختيار الرحالة وتشجيعهم باقتراحاتها وتتبع أعمالهم وطبعها مع إيجاد حلول للطباعة وتعضيد ما من شأنه أن يسهم في تأصيل علم الاستشراق، ذلك أن العلاقة الوطيدة التي تربط الدراسات الاستشراقية بالرحلة إلى الشرق هي ضرورة تكاملهما.

* * *

قبل أن نواصل اقتفاء آثار ثنائية منطق العلم وعقلية الاستعمار التي كانت تطبع جهود المستشرقين –كما أسلفنا– وعلاقتهم بالساسة، وقبل أن ننتقل بهم إلى الممارسة الميدانية، في بلاد الشرق ومنها بلاد المغرب ومخالطتهم للمستعمرين وتعاونهم معهم، يجدر بنا أن نشير، ولو باختصار شديد، لواقع هذا الشرق –المُستعمَر– من الناحية الحضارية، ومن خلال عينة، ولتكن الجزائر، العربية اللغة، الإسلامية الفكر والثقافة والعقيدة والتصور، وباعتبارها أول موضوع للاستعمار. صحيح أن الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر، اكتمل فيها كيان الجزائريين، وعرفت البلاد خلالها مقومات الدولة الخاصة، من اختيار عاصمة قارة، ورسم حدود معينة، ووضع أجهزة إدارية، وإقرار أوضاع اجتماعية، وانتهاج علاقات سياسية خارجية[1]، إلا أنه صحيح أيضا "أن الجزائر قبل سنة 1830، مثل كل البلاد العربية والإسلامية كانت تعاني مرض التخلف والجهل، والجمود الفكري الذي اتفق الحكام والعلماء عندئذ على تأبيده"[2] ثم جاء الاحتلال ليعمقه أكثر. فهذا "شيربونو" يتحدث لنا عام 1864 عن الصعاب التي تواجه في مجال تعليم أبناء الجزائريين الذين وصفهم بالجهل والكسل والمتشبعين بالخرافات والتمائم، فهم يجهلون أهمية العمل، وقليل منهم يفكر في المستقبل... ولا أحد قادر على تفسير القرآن...الخ[3]. "لكن التخلف والجهل والجمود لا يناقض وحدة التفكير والشعور فكان الناس يعيشون أنماط من العيش يحدوهم فيها فكر واحد، يتبادلون مشاعر مشتركة...

---

[1] – ناصر الدين سعيدوني، "الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر"، **الثقافة**، ع: 45، يوليو 1978. ص : 26.

[2] – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، **مصدر سابق**، ص : 8.

[3] – - CHERBONNEAU, " Extrait d'une lettre adressée à M.REINAUD", Alger le 20/ 04/ 1864, **J.A.**, 6 ^{me} série, T4, 1864, P : 298.

و(لهم) مقاييس ثقافية وضعوها لأنفسهم يباركها اللسان الواحد والـدين والانتماء الواحد... وهو معنى الثقافة الأصلية المشتركة بينهم وبين المغاربة والمشارقة، ويظهر ذلك في توجه الآلاف منهم نحو المغرب والمشرق عندما ادلهم الخطب وغزا العـدو بلادهم ونكبوا في دينهم وأموالهم وأهليهم"[1].

يبنى على هذا أن "حركة تاريخية ينبغي ألا تغيب عن أنظارنا، وإلا غابت عنا جواهر الأشياء فلا نرى منها إلا الظواهر، هذه الحركة لا تبدأ بالاستعمار، بل بالقابلية له، فهي التي تدعوه"، كما أن المخلوق القابل للاستعمار لا يدرك قابليته إلا إذا استعمر وعندئذ يجد المستعمر نفسه مضطرا ليحركها ولكنه يجيء ليشلها كما يشل العنكبوت ضحيته"[2]. أما وأن المستعمر يغير ظروف حياة المستعمَر من جذورها، فيساعده بذلك على تغيير نفسه، فتلك مسألة خارجة عن موضوعنا.

تنبعث القابلية للاستعمار من باطن الفرد فيرضى بصيغة نموذج الكائن المغلوب على أمره، فلا همة ولا نشاط ولكن بطالة وتقاعد، ولا علم ولا تفكير ولكن جهل وأمية، ولا وحدة ولا توحد ولكن تشتت وتفرق وفشل في الناحيتين الأدبية والاجتماعية. وبذلك فإن القابلية للاستعمار حطت من كرامة أصحابها بأيديهم، قبل حلول الاستعمار بديارهم. ولا داعي للتذكير بأن الاستعمار الأوربي درس أوضاع المستعمرين من قبل، ثقافيا ونفسيا وأدرك منها مواطن الضعف، وكان عونه في ذلك الاستشراق والدراسات الاستشراقية سواء بالبحث والتنقيب في مكتبات أوربا أم بالبحث الميداني من خلال رحلات المستكشفين.

ترى ما موقف مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين إذن، من ظاهرة الاستعمار الأوربي للشرق، سيما بعد أن تقدمت الهيمنة عقودا من الزمن؟.

إن النفس المسيحية خارج إطارها، أعني في صلاتها الواقعية بالعالم الإسلامي، تنقلب إلى نفس مستعمرة، غذت طموحها —قبل إبحارها إلى شواطئ الجزائر والشرق

---

[1] — سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 3، **مصدر سابق**، ص : 8.

[2] — ابن نبي، وجهة العالم، **مصدر سابق**، ص : 93- 94.

عموما– بأحاديث سمر عن منطقة كنوز خيالية[1]، سيما وأن الدول الغربية صارت من القوة بمكان بممارسة الحريات العامة[2]، والثروات التي اكتسبوها من تطور العلوم الطبيعية والرياضية، مما جعل إمبراطوريات الشرق غير مؤهلة لمقاومة هذا الزحف، وأضحى من المؤكد، في نظر المستشرقين، أنه بعد وقت معين (الثلث الأخير من القرن 19) ، سيحكم الأوربيون بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، كل شمال إفريقيا وبلاد الشرق[3].

إن قوة مماثلة –في نظر المستشرقين– تفرض مسؤولية كبيرة وواجبات أكبر، فلكي تحسن حكم الشرق عليها أن تعرف أو تعلم، فلا تكفي النوايا الحسنة ولا الحكم العادل إذا كان الحاكم أجنبيا ولا تكفي النظريات الأكثر تنورا كي تكون الحكومة الغازية متسامحة. يجب –في نظر المستشرقين– إذن احترام البلد الذي ترغب القوة الأوربية في السيطرة عليه، لأجل هذا لا بد أن تعرف لغته ومعتقداته وتاريخه وأفكاره وقوانينه. لقد أثبتت التجربة أن الغلبة تتوقف على معارف الغالب[4]، فإذا رغبت أوربا في بسط تأثيرها أو هيمنتها على الشرق، عليها أن تتكفل بواجبات أخرى إضافة إلى الحكم الجيد.

لقد أضحى الشرق في تلاش لغياب العلم. صحيح أن له علما قديما وغير كامل، ولكنه علم واقعي وعملي، وقد انحط تحت نير الاستبداد والتعصب، فيستوجب على أوربا أن تنهض هذه الثقافة القديمة، على زعمهم المستشرقين، كي تجد مبررا لهيمنتها، ولا يكون حضورها مجرد استغلال لقوتها وعملا غير إنساني كما حدث في احتلال أمريكا[5].

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص : 47.

(2) – - Rapport annuel, J. A., 1857, **op. Cité**, P : 30.

(3) – جرى احتمال المستشرقين وشوك هيمنة الغرب على الشرق عام 1857–1858، تزامنا مع قيام ثورة السيبويز في الهند، وبعد أزيد من ربع قرن من احتلال الجزائر (1830) وأقل من ذلك قبل احتلال تونس (1881) و قبل أزيد بقليل من نصف قرن على احتلال المغرب الأقصى (1912).

(4) – **نفس المصدر السابق** ، ص : 31.

(5) – **نفس المصدر**، ص : 33.

لقد حاولت إنجلترا نشر تعليم في الهند لكن دون ثمار إلى غاية ثورة السيبويز عام 1858. حاولت فرنسا وقتئذ تقديم تعليم في الجزائر. وهي مهمة، في نظر المستشرقين جد صعبة ولا يمكن تطبيقها إلا بمعرفة جيدة لما كان يتمتع به الشرق من علوم كي يتسنى لحكومات أوربا إعطاؤه الحياة اعتمادا على هذه العلوم، ثم تمنحهم علوم أوربا. لا بد من دراسة عميقة لماضي الشرق لأن من خلاله يتعلم احترام العادات والحفاظ على الجيد منها، كما يتعلم الاعتدال في الأحكام المسبقة، والقبول بما هو أفضل.

كان على أوربا إذن، أن تتهيأ لهذا –في نظر مستشرقي الجمعية– لأنها إن تأخرت فسيأتي اليوم الذي لا تعالج فيه الأمور إلا بالقوة، وحينها يقضى على ما تبقى من صالح مؤسسات بلاد الشرق، وينجم عن ذلك ضرر غير قابل للعلاج.

كان تخوف مستشرقي الجمعية والمجلة كبيرا –وفق هذا المنظور– في أن الحكومات الأوربية لا تكترث بمقتضيات مستقبل جد قريب، وكانوا يشكون في انعدام حتى رأي عام متنور من شأنه أن يمارس تأثيره. ثم هم ينحون باللائمة على أنفسهم ويحملونها واجبا ليس فقط تجاه علم الاستشراق ولكن تجاه الإنسانية أيضا بمواصلة هذه المهمة الشاقة[1]. وفي هذا المجال اعتبر المستشرقون اللغة العربية، على سبيل المثال، من أهم اللغات لأنها تمد أوربا بالمعونة في شرح وتفسير التوراة من ناحية، ومن ناحية أخرى لمجاورة البلاد العربية لأوربا التي تربطها بها علاقات احتكاك يتطلب منها معرفة خاصة بلغتهم وتاريخهم وأفكارهم[2].

يثمن المستشرقون جهود الإرساليات المسيحية الأوربية التي تمارس مهمتها منذ سنين عديدة في بلاد الشرق سواء الكاثوليكية منها أم البروتستانتية لغرض نشر الحضارة والتعليم في أوساط الشعوب العربية. وهم يعيدون الفضل إلى هذه الإرساليات في فتح عهد جديد واستفاقة مسيحيي الشرق من خمولهم ولا مبالاتهم القديمة بإظهارهم رغبة في التعلم يمكن اعتبارها الضمانة الحقيقية لجيل جديد، ولكنهم في نفس الوفت يسجلون

---

(1) – **نفس المصدر**، ص : 34.

(2) – - Rapport annuel, J. A., 1858, **op. Cité**, P : 23.

عدم كفاية إنشاء المدارس وفتح حلقات (إكليركية) للمعلمين ورجال الدين فكـان ولا بد –في رأيهم– من توزيع كتب على هذه المدارس والحلقات لإعطائهم معارف في لغة الأم التي هي ضرورية للتجارة والقيام بالواجبات المقدسة[1].

كان ضغط أوربا على الشرق في تزايد بالدبلوماسية، والتجـارة، والاحـتلال، والأسلحة والعلم، وبكل الوسائل المتاحة، بغرض إذلال وإخضاع شـعوب الـشرق. فكانت قناعة المستشرقين أنه لم يعد هناك –تقريبا– في نهاية الخمسينيات بلد في الشرق يمتلك سيادة حقيقية[2]. وكان بعضهم ينظر إلى هذه الحالة على أنها هيمنـة ثمينـة للحضارة والدين الأوربيين، فيما يرى البعض الأخر أنها بداية عهد انتهاك حقوق كثير من الشعوب وإهانة لمشاعرهم بممارسة تأثير لا يقاوم على مـصيرهم. ولـذلك فـإن الأخيرين يرون أنه إذا كانت أوربا ترغب، في أن الغايات تبرر استعمالها للقوة، فلا بد لها أن تعد نفسها لمعرفة آسيا وشمال إفريقيا، بمعرفة لغاتها وتاريخها وقوانينـها[2]. ولـن يتحقق هذا الغرض إلا بتشجيع الدراسات الشرقية وتوسيع وسائل التعلـيم بمـضاعفة المدارس وإدخال نظام رحلات وتسهيل نشر المؤلفات الشرقية. فعلى الحكومـات، في نظر هؤلاء، أن تقوم بما يستوجب عليها قصد نشر المعارف الـتي تحتاجهـا الوقـائع والظروف اللاحقة وأن شرف الأمم المتحضرة يفرض عليها أن تتنور في مجال الدور الذي تتهيأ للقيام به، والمسؤولية الخطيرة التي ألقتها على كاهلها أمام المستقبل، وأمام التاريخ[4].

إن التطور أو الاندثار المستقبلي لنصف البشرية يتوقف على الطريقة التي يمـارس الأوربيون بها تأثيرهم على الشرق.

هل كان المستشرقون مهيئين للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقهم، تفاديا لما كـانوا يرون فيه خطرا داهما على الشرق على العموم وبلاد المغرب علـى الخـصوص؟ هنـا يتأسف المستشرقون عن تلك الكلمات الرنانة التي تتداول في أوساطهم وتجري دائمـا

---

(1) – Jules FERRETTE, "Méthode simplifiée pour imprimer l'Arabe avec les points voyelles", **J.A.** 5 ^{me} série, T : 14, 1859, P : 303.

(2) – Rapport annuel, J. A., 1860, **op. Cité**, P : 40.

(3) – **نفس المصدر السابق**، ص : 41.

(4) – **نفس المصدر**، ص : 42.

على ألسنتهم كالحضارة والدين، فيما الحكومات الأوربية تتصرف في الأغلب وكأن الجشع والطمع مبرراته الوحيدة. وهكذا فإن فعل الغرب للشرق كان دائما عنيفا، في نظر المستشرقين، وعملا تخريبيا على العموم[1]. والأمثلة على ذلك كثيرة، ولعل أبرزها وقتذاك ما كان يجري من ممارسات لجيش الاحتلال الفرنسي وأعوانه من المستشرقين، وعلى كثير من الأصعدة، في الجزائر بالذات.

لقد توقع المستشرقون أن تسيء أوربا، في المرحلة اللاحقة، لكل عمل يبعث على الحياة ، كما توقعوا إمكانية "تنمية شعوب الشرق" ما دامت بحضرة حضارات عميقة وعلوم توقفت عن التطور، مثلما كانت علوم أوربا العصور الوسطى، وآداب واسعة أثرت في عادات أهلها ومشاعرهم ومنحتهم خلال علاقات معينة رقة وعاطفة غير معروفتين لدى أوربا تترجمهما اللباقة والأدب الرهيف الذي هو مؤشر على ما تبقى من ثقافة قديمة.

يرى مستشرقو الجمعية والمجلة أنه بإمكان أوربا أن تعطي لهذه الشعوب العلم الذي ينقصها وحرية التفكير التي يقتضيها دائما البحث عن الحقيقة. لكن ذلك يتوقف على معرفة أوربا لتاريخ الشرق وطبيعة ابتكار مؤسساته. ولعل التطور الذي أنشأه الشرقيون من قبل لهو مؤشر على عبقريتهم. فعلى أوربا أن تحترم أحاسيسهم الرهيفة التي لا تقل قيمة عن أحاسيس الأوربيين.

يجب على أوربا، في نظر المستشرقين، أن تستلهم من ماضي الشرقيين ما يجعلها تكسب ودهم. وإن جهود المستشرقين من شأنها أن تفشي هذا الود تجاههم بعرض ما ابتكرته هذه الشعوب، وإبراز المكانة التي تبوؤوها في التاريخ وتطور فكرهم، وما يملكون من قدرات مماثلة للأوربيين أو يتفوقون بها عنهم أحيانا. لقد رأى المستشرقون أن من واجبهم أن يعرفوا النقاط التي توقف عندها المشارقة والتي تخلفوا فيها عن الأوربيين كي يتسنى لهم ربط التعليم الذي يساعدهم على تخطي الحواجز التي أوقفت سيرهم وحالت دون تقدمهم. لأجل هذا يرى مستشرقو الجمعية والمجلة أن أعمالهم

(1) - Rapport annuel, J. A., 1862, **op. Cité**, P :32-33.

يجب أن تنفذ في أوساط الشرائح المثقفة، ولا تبقى ملكا خاصا للعلماء. كما لا يمكنهم القيام بعمل ينقذ الشرقيين إلا عن طريق الضغط على الرأي العام الأوربي المسيطر على العالم. وفي المقابل يجب على الحكومات أن تقدم يد المساعدة أكثر من قبل.

كان الوعي بالشرق في أوساط الرأي العام في فرنسا في نمو مما كان يبعث على سرور المستشرقين ومن مؤشرات ذلك ما كانوا يرون بين الحين والآخر من أصوات هيئات علماء تطالب بإحداث كراس للسانسكريتية وأخرى للعربية في كل مراكز التعليم العالي كما حدث وأن طالبت به من جديد أكاديمية "نانسي". وهي أصوات تؤشر على تطور في الرأي العام الفرنسي.

لقد تساءل المستشرقون عن مجيب لأصواتهم؟ ولكنهم في انتظار الاستجابة حثوا بعضهم البعض على عدم التراخي لأن الهدف لا يزال بعيدا، في نظرهم، ويحتاج إلى تضحيات جسام[1].

كان تركيز المستشرقين قائما على أن نظم أوربا لا تعرف شعوب الشرق، وهي ليست رحيمة تجاه شعوب متخلفة تمتاز، في نظرهم، بالتوحش. والواقع أنها تمر عندهم بالحالة التي كان الأوربيون عليها منذ بضعة قرون. وفي رأي المستشرقين أيضا، أن جهل الأوربيين بأوضاع هذه الشعوب لا يمكنهم من نقل حضارتهم إليها بل على العكس من ذلك فهم يهدمون ما تبقى لديهما من حضارة. وبهذا فإن الشرق يضعف كل يوم تحت تأثير علاقة عنيفة وجائرة.

في الواقع أن أمم الشرق لا ينقصها لا العبقرية، ولا الفطرة الحضارية، ولا الثقافة، ولكنها في نظر الجمعية والمجلة أكثر موهبة وقابلية للتطور مما يظنون. غير أنهم ظلوا طوال قرون في عزلة فتشكلت لديهم عادات خاصة وذهنيات كرستها قوانين ومعتقدات شكلت حواجز ضيقة اختنقت فيها حياتهم. ففي البلاد الإسلامية أدى ربط علم الكلام أو الفلسفة المدرسية (السكولاستيكية) بعلم العقيدة إلى أن خلعوا عن العقل

---

[1] – **نفس المصدر السابق،** ص : 35- 36.

حرية تفكيره. وكان الأمر كذلك في أوربا العصور الوسطى، فلم تتمكن الأخيرة من استرجاع مواهبها إلا بعد أن تمكن العلم في القرن 17 من تحطيم عادات التفكير التي ظلت تكبل العقل الأوربي طوال قرون[1].

لقد حاول الأوربيون –في نظر المستشرقين– إنهاض الشرق عن طريق التبشير لكن النتائج كانت مخيبة لآمالهم، ومرد ذلك إلى الجهل الذي هو أقوى سند للاعتقادات الخاطئة وبذلك فهم ينتهون إلى تقرير أن الوسيلة التي نجحت في أوربا تكون السبيل الأنجح في الشرق، إنه العلم الذي سيثبت للمسلمين بأن علم الكلام ما هو إلا "وسيلة منحطة"، في نظرهم، وهي ليست جوهرا لثقافة العقل، وأن الحقيقة هي خارج الدائرة الضيقة لمدارس علم الكلام. وهم يرون بأن هذا هو السبيل لإصلاح الشرق كي يستعيد الحركة وحرية الفكر الغائبين.

وقد حاول مستشرقو الجمعية والمجلة تدعيم حججهم هذه بإعطاء أمثلة عن محاولات إصلاح بعض بلدان أوربا في الشرق كإصلاح مدارس "دلهي" و"بناريس" و"كلكوتا" و"بونا"، بإدخال العلوم الأوربية إليها كتدريس علم الفلك للشباب البوذي بسيلان من طرف المبشرين وكذلك تدريس الطب للطلبة الصينيين بشنغهاي[2]، والعمل مع علماء الرياضيات في الصين لنشر مؤلفات، وفي اعتقادهم أن هذا هو الطريق الصحيح لاكتساب علوم الغرب، وهناك محاولات أخرى كثيرة مماثلة ولكنها محدودة، ويعود المستشرقون للتذكير أن هذه المساعي تتوقف على تنوير أوربا واستمالتها لأشياء الشرق، وإحداث رأي عام من شأنه أن لا يسمح بنسيان أن الحضارة نبل ملزم وموجب للغرب تجاه الشرق[3].

يرى مستشرقو الجمعية والمجلة أن عيب الشرقيين يتمثل في تبنيهم نظريات جاهزة ونظرتهم إلى علومهم أنها كاملة، وإهمالهم للنقد وطرق الملاحظة، واقتناعهم بصور وصيغ معينة واعتقادهم فيها بأنها نهائية ولذلك فهم يستصعبون من هذه الناحية نقل

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, PP : 137-140.

(2) – **نفس المصدر السابق**، ص : 139.

(3) – **نفس المصدر** ، ص : 140.

علوم أوربا إليهم مباشرة لأنها بعيدة عن نقطة انطلاقتهم. والحل أن لا مناص من أنهم يسلكون الطريق الذي سلكه الأوربيون بمساعدة الآخرين. ولعل أول جهد في هذا السبيل هو أن يبعثوا فيهم رغبة التعلم والتحصيل العلمي واستعمال الملاحظات والطرق التي يهتم بها الأوربيون في نصوصهم المقدسة وفي تاريخهم وعلومهم. فيتعلمون من خلالها المنهج النقدي وفوائد المعارف الجديدة. فإذا تمكنت مناهج أوربا من النفاذ إلى مدارسهم فإن أكبر خطوة في سبيل بعث الشرق تكون قد تحققت. على أن الإصلاح —في نظرهم— لا يمكن أن يتأتى إلا من داخل هذه الأمم نفسها[1]، فلا تأثير عليهم إلا عن طريق شرائحهم العلمية التي تعودوا على احترامها[2].

هل بوسع الشرق أن ينهض في يوم من الأيام؟ وهل الإسلام يشكل دائما عقبة في وجه التطور؟ هكذا طُرح التساؤل على صفحات المجلة الآسيوية نفسها لاعتقاد صاحبه — وهو من الشرق— أن هكذا أيضا يتحدث ويفكر أصحاب الحضارة الأوربية. وقد جاء رأي السائل متطابقا مع مستشرقي الجمعية والمجلة الذين يرون بأن الغرب لا يمكن أن يبعث الحضارة في الشرق بسياسته المنتهجة وأن باستطاعته المساهمة على أكثر تقدير في التعاون على تطويره التدريجي، وفي كل بلد من بلاد الشرق يجب أن يلد المجد. إلا أن المتسائل يختلف مع المستشرقين لأن الإسلام لا يشكل عقبة أمام التطور، ويعطي لذلك مثالا أنه في العهد العباسي نقلت كل حضارة اليونان إلى عاصمة الإسلام، ومن هناك تفرعت مختلف العلوم والفنون وسلكت طريقها إلى أوربا عبر شواطئ شمال إفريقيا والأندلس سواء عن طريق البر أم البحر، وسواء بواسطة الحرب أم التجارة. وفي القرن 19 لم تشعر الطبقة العليا في تركيا الأوربية أنها غريبة عن الحضارة الأوربية[3]. ومنذ السلطان محمود اكتسبت

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 111.

(2) — **نفس المصدر السابق**، ص : 112.

(3) — - Mirza KAZEM- BEG, "Bâb et les Babis ou le soulèvement politique et religieux en Perse de 1845 à 1853", **J.A.**, 6 me série, T :7, 1866, P : 329.

— انظر تعريفا "**بميرزا كاظم بك**" ضمن هامش الصفحة 173 من هذا البحث.

— **البابية**: دين ظهر في إيران نحو سنة 1863 بدعوة سيد علي محمد، جمع بين اعتقادات إسلامية = = (الشيعة الإمامية) ونصرانية ويهودية ووثنية. وادعى أنه المهدي. أوقع تابعوه في قلوب الناس رعبا وخوفا. اشتد خطب البابيين على الحكومة فحاولت كبحهم فقاوموها إلى أن قبض على سيد محمد علي وقتل بالرصاص في تبريز... — انظر:

الحضارة الكثير من العناصر. ولذلك ينتهي السائل إلى أن الإسـلام الـصحيح لا يشكل عقبة في وجه الحضارة ولكن التعصب والتمذهب والجهل هو الذي يخنـق كل تطور [1].

* * *

ساند بعض المستشرقين ساسة أوربا ورجال الاستعمار للوهلـة الأولى. فقـد كانوا يجمعون المعلومات عن سلاطين وأمراء آسيا وشمال إفريقيا المعاصـرين لهـم فيقدمون قوائم تتضمن معلومات عامة وتاريخية عن كل بلد، مع نبذة عن الحيـاة السياسية للإمارة وأسماء الأمراء وتواريخ الميلاد والأصول وتوليهم الحكـم...الخ. ويدعمون هذه المعلومات بالتصحيح والإثراء من سنة إلى أخرى عبر أعـداد المجلـة الآسيوية واعتمادا على بعضهم البعض[2]. كما أن المستـشرقين يـشيرون علـى حكوماتهم بأهمية هذا البلد أو ذاك في ربط العلاقات معه[3]، من باب النصح. وإذا ما همت الحكومة الفرنسية بغزو بلد وقف بعضهم إلى جانب الجيش الغازي، خذ مثلا احتلال مدينة الجزائر ودور "دوساسي" الذي نقل بيان فرنـسا إلى الجزائـريين إلى اللسان الدارج بمساعدة "دوبيانشي". وكذلك بيان "دوبورمونت" إلى جيش إفريقيا (الفرنسي) الذي ترجمه "أصلان ريش" RICHE إلى العربية الدارجة، ونشر في المجلة الآسيوية[4].

وإذا انطلقت الجيوش من فرنسا، سار عِلْمُ الاستشراق وراء الجيـوش الغازيـة وكذلك وراء السفن التجارية، منيرا سبيلها وباحثا عن فهم الشعوب المُهَيْمَن عليهـا.

---

(1) – بطرس البستاني، **دائرة المعارف**، ج 5، دار المعرفة، بيروت، د. ت. ط. ، ص: 26-28.
- KAZEM- BEG, "Bâb et les Babis, J.A., 1866, **op. Cité**, P : 330.

(2) – - J.SAINT MARTIN, "Notice historique, chronologique et génialogique, des principaux Souverains de l'Asie et de l'Afrique septentrionale. pour l'année 1828", **N.J.A.**, 2 me Série, T :1, 1828, PP : 3-11

(3) – SEDILLOT, "Notice sur l'ouvrage intitulé: Etudes géographiques, et Historiques sur l'Arabie, par JOMARD", **J.A.**, 3 me Série, T : 9 PP : 184-185 ,1840

(4) – - "Proclamation adressée par le Comte DE BOURMONT à L'armée, d'Afrique" traduite en arabe par, Asselin RICHE **N.J.A.**, 2 me Série, T : 5, 1830, PP :397-400.

وهكذا فقد ساهم غزو الأوربيين لبعض بلاد الشرق خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر في حصول أوربا ولحساب الاستشراق على كميات هائلة من المصادر المعرفية المتعلقة بهذا الجزء من العالم[1].

اصطحب الغازي الأوربي -سواء الفرنسي أو غيره- أثناء الحملة على ما وراء البحر استعدادات نفس طيبة، كما قال ابن نبي، باعتبار هذه النفس كانت مجمعا للفضائل في أوربا ولكنها مغلقة تجاه المسلمين. وقد أشار سابقا إلى أن النفس المسيحية خارج إطارها، أي في صلاتها بالعالم الإسلامي وحتى غيره، تنقلب إلى نفس مستعمرة. ولذلك فإن الفرنسيين حين اكتشفوا العالم الإسلامي ومنه الجزائر، لم يؤتوه حضارتهم باعتراف المستشرقين الفرنسيين أنفسهم -كما أسلفنا- إنما اصطحبوا معهم أدوات رفاهيتهم وكذلك مدرسة لأبناء المستعمرة لكن وفق نظرتهم إليها[2]. جاء ضمن الحملة على الجزائر إذن، مستشرقون مترجمون وكتاب ومهتمون بحياة الشرق احتاجت إليهم إدارة الاحتلال كوسطاء، ومع تقدم الاحتلال شرعوا في حركة جمع للمعلومات وتأليف للكتب وإنشاء المكتبات والقيام بحفريات، وأساتذة كراسي اللغة العربية. كما اشتغلوا في اللجان العلمية والجمعيات المختصة ونشزوا أبحاثهم بعضها ضمن المجلة الآسيوية. كما زار الجزائر أثناء ذلك جمع من الأدباء والمفكرين والفنانين ومنهم أعضاء في الجمعية الآسيوية[3].

ولقد بذلت جهود علمية جماعية خلال الأربعينيات في إطار مشروع اكتشاف الجزائر الذي تكونت له لجنة، وخصصت له ميزانية وصدر عنه عدة مجلدات[4].

ولقد ظل سائدا اعتبار الجزائر جزءا من الشرق الذي تتحدث عنه ألف ليلة وليلة، وظهر ذلك في أعمال الفنانين الفرنسيين بصفة فردية أو على نفقة الحكومة الفرنسية. وفتحت المجلة الآسيوية صدرها للدراسات والمقالات والمذكرات والأخبار القادمة من

---

(1) - NEUMANN, "Coup d'oeil d'histoire " **N.J.A.**, 1834, **op. Cité**, P : 45.

(2) – ابن نبي، وجهة العالم، **مصدر سابق**، ص : 47 و63.

(3) – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، **مصدر سابق**، ص : 10-13.

(4) – **نفس المصدر السابق**، ص : 50.

الجزائر من مستشرقين نشطين أمثال "شيربونو" و"فانسان" وغيرهما... [1]. كما كانت أعداد المجلة الآسيوية تصل إلى الجزائر وتوزع على بعض ضباط الجيش الفرنسي[2].

وأما خلال الستينيات فقد شهدت الجزائر معركة ساخنة بين أنصار مـــا سمـــي بالمملكة العربية وخصومها، مهدت الطريق لوقائع السبعينيات، أي بعد سقوط نابليون الثالث (1870) وظهور الجمهورية الثالثة[3] التي أخذت فيها حركة الاستـــشراق دورة جديدة في فرنسا وفي الجزائر معا[4]، كما أسلفنا.

لقد تداخلت أدوار المستشرقين ورجال الاستعمار في المستعمرات حتى تطابقـــت أو تكاملت. وكانت خدمة بعض المستشرقين للاستعمار متنوعة، فمنهم من خدمه من خلال التدريس. وكانت مهمة التدريس نفسها مهمة سياسية تجري تحت قيادة وزيـــر الحرب حتى أن مفتشي التعليم كانوا ضباطا[5]. ومن المستشرقين من خدم الاســـتعمار من خلال البحث فكانوا يرون ذلك واجبا وطنيا، وأنه من غير المسموح لأحد الوقوف موقف اللامبالاة لاسيما من يملكون أدوات البحث في المستعمرة، من ذلك أداة اللغـــة العربية في الجزائر[6]، وكذلك البربرية[7]. ومن المستشرقين أيضا من رافـــق جـــيش الاحتلال أثناء العمليات العسكرية، وقد كان يرى في ذلك فرصة للتزهة وزيارة مناطق للدراسة والتوغل فيها دون خطر[8].

---

(1) – **نفس المصدر**، ص : 50-51.

(2) – - Procès Verbal de séance du 10/ 12/ 1852, **J.A.**, 5 me Série, T : 1, 1853, P : 92.

(3) – على إثر هزيمة فرنسا في حربها مع بروسيا ثار الفرنسيون ضد النظام المهزوم وتأسست الجمهورية الثالثة وتم إعداد دستور جديد.

(4) – سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، **مصدر سابق**، ص : 50.

(5) – - CHERBONNEAU, "Extrait d'une lettre", J. A., 1864, **op. Cité**, P : 298.

(6) – -WORMS, "Recherche sur la constitution de la propriété territoriale en Algérie….", **J. A.**, 3 me Série, T : 1, 1864, P : 98.

(7) – - J. DE LAPORTE fils, "vocabulaire Berbère", J. A., 1836, **op. Cité**, P : 98

(8) – BARGES, "Excursion à Sebdou, poste français sur les frontière du de Maroc", Extraite Souvenirs de la province d'Oran, ou voyage à Tlemcen, **J. A.**, 4 me série, T : 14, 1849, P : 273.

وهناك من العسكريين من قام بدور المستشرق حين كان يستغل أوقات فراغه أثناء الحملات العسكرية أو مقيما بالحامية، في البحث عن شتى المعلومات التاريخية التي تفيده في إعادة تركيب ماضي سكان إقليم من أقاليم الجزائر، فإذا ما أراد نشر بحثه وجد المجلة الآسيوية في خدمته[1].

إن التوسع أكثر وبسط علاقة الاستشراق والمستشرقين بالاحتلال في الجزائر سيخرجنا لا محالة عن موضوعنا لاعتبارين إثنين على الأقل، الاعتبار الأول هو التناقض مع أنفسنا، ذلك أننا ذكرنا من قبل أن مستشرقي الجمعية والمجلة الذين يتميزون بالاختصاص والعلمية (الأكاديمية) لا يتفقون إلا مع القلة القليلة من المستشرقين العاملين في الجزائر، كما أنهم لم يعنوا بالجزائر قدر عنايتهم وتركيزهم على الخط العام، أي الجزائر في سياقها المغربي-العربي-الإسلامي خلافا للمستشرقين العاملين في الجزائر، وأما الاعتبار الثاني فمناقض للأول لأن مستشرقي الجزائر يغلب عليهم عدم الاختصاص لكونهم عسكريين كقاعدة عامة وكانوا يركزون على الجزائر، ولذلك فإن التعرض إليهم هو طرق لموضوع غير موضوعنا.

ولكي نزيل هذا اللبس بين النوعين من المستشرقين، فيما يتعلق بعلاقتهما بالسياسة ورجال الاستعمار، لابد أن نقول، إن مستشرقي الجمعية والمجلة على العموم، حكمهم حكم من يدخل في دين معين ويكون إيمانه مبنيا على أساس معرفي، لم يكن يهمه مكان المعبد. فلم يكن هؤلاء النحويون وفقهاء اللغة وعلماء الآثار وغيرهم، يتساءلون عما إذا كانت أعمالهم ستستعمل لأغراض سياسية في سياق توسع استعماري كان يستغل مختلف الوسائل، وكانت طموحاته تتأكد يوما بعد يوم. فهؤلاء المستشرقون كانوا إنسانيين، يشتغلون في إطار تقاليد علمية ثقافية ترسخت منذ قرنين أو ثلاثة حتى داخل بعض عائلات[2] المستشرقين الذين استعرضناهم في سياق هذا الفصل بالذات.

---

(1) - AUCAPITAINE, "Etude sur l'origine ", J. A., 1859, **op. Cité**, P : 273.

(2) - ريغ، **مصدر سابق**، ص : 157.

الفصل الثالث

اهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في المجال الديني

1 – الاهتمامات

2 – المحتوى الفكري–الثقافي والعلمي

3 – نظرة نقدية (منهجية النقد لدى المستشرقين ونقدها).

1- الاهتمامات:

يهدف الفصل الذي بين أيدينا إلى الإحاطة باهتمامات المستشرقين الفرنسيين وتوجهاتهم في المجال الديني، أي الإلمام بمختلف مناحي الحياة الدينية الإسلامية على الخصوص، كما صورها الفعل الاستشراقي، من قرآن وحديث وتفسير وعقيدة وتوحيد وسيرة نبوية وخلفاء وتصوف وأصول وفقه ومذاهب وغيرها... في المغرب العربي والمشرق على حد سواء.

ومن الممكن جدا أن لا يجد بعض قراء هذا الفصل، اقتصار الحياة الدينية على بلاد المغرب فقط. كما من الممكن أيضا أن يعتبر البعض الآخر تناول الإنتاج الديني المشرقي خروجا عن الموضوع. ويجد هذا تفسيره في تغير النظرة والتصورات والمفاهيم، في ظل استفحال فكرة القوميات بدءا بالقرن التاسع عشر إلى اليوم، كما سيأتي الحديث عنه أيضا في الفصلين اللاحقين الأدبي والتاريخي.

الواقع أننا لم نفعل أكثر من التزامنا وحرصنا على أن نعكس ما قام به المستشرقون من جهود في هذا المجال، وليس هذا خروجا عن الموضوع من جانب المستشرقين أنفسهم، ولكنه تأصيل للدين الإسلامي ببلاد المغرب ذي المنطلقات المشرقية. فمنذ وصول الإسلام إلى بلاد المغرب وحتى بداية الدراسات الاستشراقية في القرن 19 م، لم يكن بالوسع التمييز في الثقافة الإسلامية وفي الآداب العربية أيضا -كما سيأتي- بين المشرق والمغرب، لاسيما في بلاد المغرب التي ظلت المقررات التعليمية فيها تعتمد على أمهات المصادر الدينية الإسلامية ذات الأصول المشرقية. لأجل هذا كان المشرق ولا يزال بعدا أساسيا في مجال الثقافة العربية-الإسلامية.

* * *

ظهرت الترجمة اللاتينية للقرآن الكريم إلى الوجود، في (اسبانيا) عام 538 هـ/ 1143 م، وقد نشرت فيما بعد من طرف (Bibliander)(1). أما أول طبعة بالعربية للمصحف الشريف في أوربا (Les Heures de Fano)، فتعود إلى عام 948 هـ

---

(1) - Garçin DE TASSY, **Roman de Mahomet, en vers du 13me Siècle**, par Alexandre DUPONT, et **livre de la loi au Sarazin, en prose du 14me Siècle**, par Raymond LULLE, publié pour la 1re fois et accompagné de notes, par REINAUD, Paris, s. d., **J. A.**, 2 me série, T: 9, 1832, P: 270.

للمصحف الشريف في أوربا (Les Heures de Fano)، فتعود إلى عـــام 948 هــــ /1541 م. وقد جرت محاولة لطبع القرآن، طبعة عربية-لاتينية من طرف (Dantzius) عام 1104 هـــ /1692 م(1).

لفت DE TASSY انتباه المستشرقين بنشره، لأول مرة عام 1842، ما يــسميه السورة المجهولة في القرآن الكريم، وكان ذلك بفضل "ميرزا اسكندر كاظم بيــك"(2)، على حد تعبيره، الذي أرسل منها نسختين مشكولتين، إحداهما إلى مكتبـــة الجمعيـــة الآسيوية، والأخرى إلى "دوتاسي". وقد نشر الأخير صورة للنص في صفحتين وترجمة له في أربع صفحات، مع مقدمة وتعليقات(3).

وفي إطار الاهتمام بالقرآن وتفسيره، نشر FLEISCHER "بليبـــزيج" تفـــسيرا لأحد كبار النحويين والمفسرين العرب وهو البيضاوي(4) (613-685 هـــــ /1226-1286 م) "أنوار التتريل وأسرار التأويل"(5). ولعله لم يكن من السهل العثور على ناشر

Paris, s. d., **J. A.**, 2 me série, T: 9, 1832, P: 270.

(1) - Bibliographie, "Bibliothèque de DE SACY, Impr. Royale, Paris, 1842" (catalogue), **J. A.**, 4 me série, T : 1, 1843, P : 180.

(2) - كاظم ميرزا، من أساتذة كلية بطرسبرج. من تصانيفه: مفتاح كنوز القرآن في الكشف عن كلمات القرآن، طبع ببطرسبرج سنة 1859. انظر:
- عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، تراجم مصنفي الكتب العربية، الجزء 8، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.، ص: 139.

(3) - Garçin de TASSY, "Chapitre inconnu du CORAN", publié et traduit pour la 1re fois, **J. A.**, 3 me série, T : 13, 1842, P : 427.

(4) - هو عبد الله بن عمر بن علي **البيضاوي** الشيرازي (نسبة إلى البيضا قرية من عمل شيراز)، الشافعي (ناصر الدين، أبو سعيد)، قاض عالم بالفقه والتفسير والأصلين والعربية والمنطق والحديث. توفي بتبريز. من مصنفاته: منهاج الوصول إلى علم الأصول، شرح المطالع في المنطق، الغاية القصوى في دراية الفتوى في فروع الفقه الشافعي، أنوار التتريل وأسرار التأويل في التفسير، وشرح مصابيح السنة للبغوي سماه تحفة الأبرار. أنظر:
ــــ رضا كحالة، **مصدر سابق**، ص: 97 - 98.

(5) - أهم تصانيف البيضاوي "أنوار التتريل وأسرار التأويل" اعتمد فيه على تفسير الزمخشري "الكشاف" ولكنه توسع فيه كثيرا مستعينا في ذلك بمصادر أخرى. ويعتبر أهل السنة تفسير البيضاوي أحسن التفاسير جميعا. ويمتاز البيضاوي في مصنفاته بتركيز الكثير من المعلومات في أسلوب مقتضب لا إسهاب فيه وإن كان لم يتحر الدقة أو يلم إلماما تاما بفروع العلم التي اشتغل بها وهي التفسير التاريخي وتصنيف المعاجم والنحو واللهجات والقراءات المختلفة. وطبع تفسير البيضاوي عدة مرات في الشرق نذكر منها الطبعات القريبة من فترتنا: بولاق (1282-1283 هــ)، اسطنبول (1285-1305 هــ)، فارس طبعة حجرية (1283 هــ)، لكنوه (1869-1873 م)، بومباي (1869 م). انظر:

-لكتاب صعب ومهم- لرجل حي الضمير، متقن العمل ومتحكم في الموضوع من مثل "فليشر"، الذي ظل مخلصا لعمل جبار طوال سنين عديدة [1]، ولم تمض سنتان عن الإصدار الأول (1844) حتى اكتسب شهرة وظهر الإصدار الرابع عام 1846 [2].

ونشر WEIL "بهدلبرج" كتيبين، لهما علاقة بدراسة القرآن الكريم، الأول بمثابة مقدمة تاريخية ونقدية، ويشكل في جزء منه أيضا مقتطفا من حياة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾. والمهم في الموضوع هو الفصل الذي يتناول فيه نقد القرآن، تدوينه، والترتيب الزمني لسوره ونقل البعض من آياته [3]. أما الكتيب الثاني الذي هو بعنوان: "الأساطير التوراتية لدى المسلمين"، فقد اعتمد فيه على مصادر عربية قارنها بالتقاليد اليهودية، ومن يقرأ القرآن يقف على أن كتاب "ويل" مليء بالإسرائيليات لاسيما ما يتعلق منها بشخصيات العهد القديم... [4].

وحول مصحف الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، كتب BELIN مقالا عن المصحف المحتفظ به وقتذاك، في مسجد السلطان قونصوه الغوري [5] (الملك الأشرف) -الذي هزمه السلطان سليم في 25 رجب 922 هـ /1516 م "بمرج دابق" قرب حلب- في جهة المقام الذي أعده الملك الأشرف مدفنا له، وقد ذكر "بيلان" أنه مصحف ضخم، يدعي إمام المسجد أنه بخط يد الخليفة عثمان نفسه، ويزعم أن آثار دم الخليفة لا تزال على بعض أوراق المصحف [6].

- دائرة المعارف الإسلامية، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 418-419.

(1) - Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 24.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1846, **op. Cité**, P : 30-31.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 24.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 25.

(5) تولى الأمير **قونصوه الغوري** وتلقب بالملك الأشرف في مستهل شوال 906 هـ / 20 أفريل 1501 م. حصلت موقعة هائلة بين عساكر الغوري والعثمانيين بمرج دابق بجوار حلب في 25 رجب 922 هـ / 24 أوت 1516، فانتصر العثمانيون وقتل الغوري أثناء القتال، ودخل السلطان سليم مصر عقب ذلك في أوائل محرم 923 هـ، وعقب واقعة مرج دابق أخذ أمير المؤمنين المتوكل ضمن الأسرى، فأكرمه السلطان سليم، وبقي معه إلى أن أرسله إلى الآستانة وهناك حصلت المبايعة منه إلى السلطان سليم العثماني، فانتقلت الخلافة الإسلامية إلى ملوك بني عثمان من ذلك التاريخ.

- محمد فريد بك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، ط 2، دار النفائس، بيروت، 1983، ص: 96.

(6) -BELIN, "Lettre a M. REINAUD, sur un document Arabe relatif a Mahomet", **J. A.**, 5 ^{me} série, T : 4, 1854, P : 492.

وأصدر NOELDEKE "بجوتانج" مقالا حول أصول القرآن وتشكيل سوره، وقدم خلاله ملخصا حول النتائج التي تم التوصل إليها في هذا المجال إلى عام 1856.

وفي نفس الأثناء عكف مستشرقون على إعداد وسائل جديدة لتسهيل فهم القرآن الكريم. من ذلك فقد شرع LEES "بكالكوتا" في نشرة لتفسير الكشاف للزمخشري[1] (رجب 467 - ذي الحجة 538 / مارس 1075 – جوان 1144 م)، المعروف في أوربا خاصة من خلال اعتماد المراكشي[2] (Maracci) عليه[3]. وبمناسبة صدور الجزء الثاني من تفسير الكشاف[4] عام 1858 عاد مستشرقو الجمعية والمجلة ليعلنوا عن الحدث في تقريرهم السنوي، وقد أشار التقرير إلى أنه من غير الضروري الحديث مطولا عن تفسير الكشاف بحجة أنه صار معروفا من جل علماء أوربا آنذاك[5]، وقد أنهى "ليس" نشر تفسير الكشاف عام 1861 [6].

وأصدر CHWOLSOHN "بسان بطرسبرغ" كتابا مثيرا لفضول المستشرقين، يسلط الضوء على جانب غامض -في نظرهم- من تاريخ الأجناس السامية، ويتعلق

---

(1) - أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي، **الزمخشري**. مفسر، محدث، متكلم، نحوي، بياني، أديب، ناظم، ناثر مشارك في عدة علوم. ولد بزمخشر من قرى خوارزم في رجب، قدم بغداد، وسمع الحديث وتفقه، ورحل إلى مكة فجاورها وسمي جار الله، وتوفي بجرجانية خوارزم ليلة عرفة بعد رجوعه من مكة. من تصانيفه الكثيرة: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، الفائق في غريب الحديث، المفصل في صنعة الإعراب، الكشاف عن حقائق التنزيل وديوان شعر. انظر:

ـــ رضا كحالة، ج 12، **مصدر سابق**، ص: 186. انظر كذلك:

- دائرة المعرف الإسلامية، ج 10، **مصدر سابق**، ص: 403-410.

(2) - اعتمادا على معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة هناك أزيد من خمسة وعشرين مؤلفا باسم المراكشي، ومن المرجح أن يكون المعني هنا، عبد الواحد المراكشي (581 - 647 هـ / 1185 – 1249 م) صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، أو أحمد بن البناء المراكشي (654 - 721 هـ / 1256 – 1321 م)، الذي من تصانيفه: اللوازم العقلية في مدارك العلوم والروض المنيع في صناعة البديع ومنتهى السيول في علم الأصول والأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة. انظر:

- **نفس المصدر السابق**، ج 2، ص: 126- 127، وكذلك: ج 6، ص: 210.

(3) - Rapport annuel, J. A., **op. Cité**, 1856, P : 30.

(4) - W. Nassau LEES, **The Qoran with the commentary of Zamarkhshari**, Volume 1, Calcutta.

(5) - Rapport annuel, J. A., 1858, **op. Cité**, P : 30.

(6) - Rapport annuel, **J. A.**, 1863, **op. Cité**, P : 28.

الأمر بالسبئيين الذين وردوا في القرآن الكريم[1].

وقامت أكاديمية النقوش الفرنسية عام 1859- 1860 بلفت انتباه المستشرقين الأوربيين عموما إلى مسألة تتعلق بتاريخ القرآن الكريم، كيف تم تدوينه؟ وكيف جمعت أجزاؤه؟، واقترحت في هذا الشأن مسابقة وجائزة لأحسن الأبحاث، واشترطت أن لا تقبل الأبحاث إلا إذا ألفت أو ترجمت إلى اللاتينية أو الفرنسية. وتحصلت الأكاديمية على ثلاثة كتيبات أنجزها مستشرقون سيقتسمون الجائزة، وهم: AMARI وSPRENGER وNOELDEKE. وكان تأليف المستشرق الأخير بعنوان: "تاريخ القرآن"، وقد اضطر بصفته ألمانيا إلى نشره بالألمانية، واستحسن المستشرقون ذلك بحجة أن اللاتينية وقتذاك قد تخلى عنها عالم المثقفين يوما بعد يوم [2].

ومن الأعمال التي كانت لها علاقة وطيدة بالأبحاث الدينية الجارية آنذاك عمل KREHL حول ديانة العرب قبل محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾[3].

وفي مجال التوحيد، جذب انتباه المستشرقين منذ بداية الفترة المعاصرة مذهب الوهابيين[4]

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1858, **op. Cité,** P : 52.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité,** P : 25.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité,** P : 28.

(4) - تعتبر **الوهابية** أولى حركات الإصلاح الديني في الوطن العربي في العصر الحديث، وهي في الفكر الديني، بعث للاتجاه السلفي المحافظ في الفكر الإسلامي، وهو الاتجاه الذي يأخذ بظواهر النصوص الأصلية ويرفض البدع وينفر من الفلسفة والتأويل. ومن أهم أعلامه أحمد بن حنبل ومذهبه، وابن تيمية. أما في السياسة، فالوهابية واحدة من حركات اليقظة العربية المناوئة للعثمانيين، تناقضت معهم فكريا لسلفيتها ولإغراقهم في البدع والخرافات، اصطدمت بهم لسيطرتهم على مقدرات العالم العربي والإسلامي، ودارت بين الفريقين حرب استعان السلطان العثماني فيها بوالي مصر محمد علي الذي هزم جيش الوهابيين وسيطر على مناطقهم بعد اقتحام عاصمتهم "الدرعية"... تأثر بالحركة الوهابية رجال الإصلاح في الهند ومصر والعراق والشام وغيرها، فظهر الآلوسي الكبير في بغداد، وجمال الدين الأفغاني بأفغانستان، ومحمد عبده بمصر، وجمال الدين القاسمي بالشام، وخير الدين التونسي بتونس، وصديق حسن خان بيهوبال، وأمير علي في كلكوتا، ولمعت أسماء آخرين. وعرف من والاه وشد أزره في قلب الجزيرة بأهل التوحيد "إخوان من أطاع الله" وسماهم خصومهم بالوهابيين (نسبة إليه) = =وشاعت التسمية الأخيرة عند الأوربيين فدخلت معجمياتهم الحديثة، وأخطأ بعضهم فجعلها "مذهبا" جديدا في الإسلام، تبعا لما افتراه خصومه، ولاسيما دعاة من كانوا يتلقبون بالخلفاء من العثمانيين.

- موسوعة السياسة، ج 7، **مصدر سابق**، ص: 357. وكذلك: =

التوحيدي، لاسيما وأن بعضهم أعتبر الشيخ محمد بن عبد الوهاب[1] (1115 – 1206 هـ/ 1703 – 1792 م) هو لوثر الإسلام[2]. وكان أول من تعرض للمذهب الوهابي بالحديث NIEBUHR، كما صنف فيه القنصلان الفرنسيان، ROUSSEAU ببغداد وCORANCEZ بحلب، وقد رويا وقائع الوهابيين الأساسية إلى عام 1810. وقصة BURCKHADT كشاهد على عز أيام قوة الوهابيين، تتوقف عند سنة 1815. وأما مقال "عقيدة الوهابيين المشروحة منهم" لميرزا محمد علي خان، فقد حرره عام 1818 اعتمادا على القصص الشفهية التي جمعها أثناء قطعه المسافة الفاصلة بين بندر بوشهر (إيران) وبومباي (الهند). ونشر النص العربي للرسالة وترجمة له إلى الفرنسية [3].

وضمن التوحيد، هناك (La Théologie)، أو ما تطلق عليه العرب علم الكلام[4]، الذي ظل إلى مطلع الستينيات من القرن 19 م تجمع وسائله التي لا يمكن الاستغناء عنها [5]. ومع ذلك بقي المستشرقون الأوربيون ولاسيما الفرنسيون منهم يشتكون من قلة عثورهم على عمل مهم يتعلق بعلم الكلام الإسلامي [6].

---

(1) – خير الدين الزركلي، **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ج 6، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، ص: 257.
– **محمد بن عبد الوهاب** بن سليمان التميمي النجدي. ولد ونشأ في العيينة (بنجد) ورحل مرتين إلى الحجاز، فمكث في المدينة مدة قرأ بها على بعض أعلامها. وزار الشام، وحل بالبصرة فأوذي فيها. وعاد إلى نجد، فسكن حريملاء وكان أبوه قاضيها بعد العيينة، ناهجا منهج السلف الصالح، داعيا إلى التوحيد الخالص ونبذ البدع وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام. وارتاح أمير العيينة عثمان ابن محمد بن معمر إلى دعوته فناصره، ثم خذله فقصد الدرعية (بنجد) سنة 1157 هـ، فتلقاه أميرها محمد بن سعود بالإكرام، وقبل دعوته وآزره كما آزره من بعده ابنه عبد العزيز ثم سعود بن عبد العزيز وقاتلوا من خالفه ، واتسع نطاق ملكهم فاستولوا على شرق الجزيرة كله...
– **نفس المصدر السابق**، ج 6، ص: 257.

(2) – FRESNEL, "Lettre sur le récit de Fathh-Allah Sayegh ", **J. A., 6ème** série, T : 17, 1871, P : 166.

(3) – Alexandre CHODZKO, Trad."Le Déisme des WAHHABI, expliqué par eux-mêmes", **J. A.**, 4 ème série, T 11, 1848, PP : 168-186.

(4) – انظر تعريفا لعلم الكلام ضمن: – أحمد محمود صبحي، **في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين**، ج 1+2+3، دار النهضة العربية، بيروت، 1985.

(5) – Rapport annuel, J. A., 1860, **op. Cité**, P : 37.

(6) – Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 107.

وكان قد ظهر في علم الكلام كتابان في ألمانيا. أصدر "وولف" WOLF طبعة جديدة لنص كتاب: "العناصر الفلسفية"[1] للسنوسي[2](823-895 هـ /1428-1490 م)، وترجمة له إلى الألمانية. وكانت قد ظهرت له طبعة في القاهرة، وهو يبرز الطريقة المتبعة في "الكلام السكولاستيكي"[3]. وأما الكتاب الثاني لعضد الدين الإيجي[4] (708-756 هـ /1308-1355 م) فعنوانه: "الرسالة العضدية" "Des stations d'Adhadeddin-el-Idji"، وهو مشهور في المدارس الإسلامية. وقد طبعه SOERENSEN مرفقا بشرح الجرجاني[5]، واقتصر فيه على الفصلين المتضمنين تطبيق مبادئ علم الكلام على طبيعة الله ﴿عز وجل﴾ ضمن العقيدة الإسلامية واعتمد في نشره على جملة من المخطوطات[6].

---

[1] - من المرجح أن المقصود من "العناصر الفلسفية" هي "عقيدة أهل التوحيد الصغرى" أو "أم البراهين"، ويعرف باسم السنوسية. انظر: - دائرة المعارف الإسلامية، ج 12، **مصدر سابق**، ص: 290.

[2] - محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي التلمساني، فقيه أشعري من متكلمي تلمسان. درس العلوم الإسلامية والحساب وعلم الهيئة في مسقط رأسه على شيوخ مثل أبيه أبي يعقوب يوسف وشقيقه التلوتي، وأبي عبد الله الحباك، وأبي الحسن القلصادي، وابن مرزوق المشهور، وقاسم العقباني وغيرهم، وقيل إنه ارتحل إلى الجزائر حيث تلقى العلم على عبد الرحمن الثعالبي، ويجمع علماء المغرب على الثناء على السنوسي، فقد كان في نظرهم محي الإسلام في مستهل القرن التاسع الهجري، ويشيدون بعلمه وخاصة تفقهه في علم الكلام، كما ينوهون بخشيته الله. له عدة مصنفات أصبح بعضها من الكتب المعتمدة في بلاد المغرب ومنها: عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة الجهل وربقة التقليد أو العقيدة الكبرى، عمدة أهل التوفيق والتسديد وهو شرح على كتابه العقيدة الكبرى، عقيدة أهل التوحيد الصغرى أو أم البراهين، العقيدة الوسطى أو السنوسية الوسطى، المنهج السديد في شرح كفاية المريد وهو شرح على القصيدة التعليمية المعروفة باسم القاصد في علم التوحيد لأبي العباس أحمد بن عبد الله الجزائري، صغرى الصغرى، المقدمات المطبوع على هامش صغرى الصغرى مع شرح البناني، مختصر في علم المنطق، شرح صحيح البخاري...الخ. انظر: - **نفس المصدر السابق**، ص: 290-291.

[3] - انظر عن السكولاستيكية **الفصل التمهيدي** من الرسالة، ص: 20.

[4] - عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار بن أحمد (عضد الدين) الإيجي الشيرازي (إيران)، الشافعي، عالم مشارك في العلوم العقلية والأصلين والمعاني والبيان والنحو والفقه وعلم الكلام. من مؤلفاته: الرسالة العضدية في الوضع، الفوائد الغيائية في المعاني والبيان، شرح منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل، المواقف في علم الكلام، تحقيق التفسير في تكثير التنوير. انظر:

- رضا كحالة، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 119.

[5] - لعله "شرح فرائض الجرجاني" لقاسم بن أحمد بن محمد الجمالي قوام الدين الرومي الحنفي القاضي بالقسطنطينية المتوفى سنة 901 هـ /1495 م. انظر:

- إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، ج 5، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت. ص: 831.

[6] - - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 118-119.

ولما كانت الاشتراكية إحدى مواضيع الساعة وتمتّ للاعتقاد بصلة، فقد ذهب فضول المستشرق HAMMER-PURGSTALL إلى البحث عن جذور لها في الإسلام [1].

بقيت الإشارة، ونحن في مجال التوحيد، إلى كتاب يكتسي أهمية كبيرة لكنه في التوحيد بصفة عامة، ونعني به كتاب "رينان": "تأملات جديدة حول الطبيعة العامة للشعوب السامية لاسيما منحاهم نحو التوحيد" [2].

لم يكن في متناول المستشرقين، موضوع الحديث الشريف والسنة النبوية والسيرة وتدوينها، إلى مطلع الخمسينيات إلا ترجمة "مشكاة المصابيح" لـ MATTHEWS فهي المجموع الوحيد في الحديث والسيرة والسنة النبوية المطبوع آنذاك في أوربا. وقد علم مستشرقو المجلة الآسيوية عن طريق المستشرق SPRENGER بطباعة كتب الصحاح الستة طباعة حجرية "بلوكنو" (شمال الهند)، دلهي وكالكوتا، وهي: صحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري[3] (13 شوال 194 – 30 رمضان 256 هـ /21 جويلية

---

(1) - HAMMER-PURGSTALL, "Sur le Socialisme en orient", **J. A.,** 4^{me} série, T : 15, 1850, P : 344 -345.

(2) - RENAN, "Nouvelles considérations sur le caractère général des peuples Sémitiques et en particulier sur leur tendance au Monothéisme **J. A.**, 5^{me}série, T : 13, 1859, P : 214.

(3) - **البخاري:** هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي. مصنف عربي ولد بمدينة بخارى (أوزبكستان)، جده بردزبه فارسي. بدأ دراسة الحديث في سن مبكرة إذ لم يكن يتجاوز الحادية عشر من عمره. ولما بلغ السادسة عشر حج إلى مكة وحضر على أشهر شيوخ الحديث في مكة والمدينة ثم رحل إلى مصر في طلب العلم، وأنفق الستة عشر عاما الثانية – منها خمسة في البصرة– في التجوال بين ربوع آسيا، ثم عاد إلى مسقط رأسه. تعتمد شهرة البخاري على جامعه في الحديث وعنوانه "الجامع الصحيح" وقد رتبه على أبواب الفقه، واصطنع لذلك طريقة كاملة. أظهر في اختياره للأحاديث براعة فائقة ومحصها تمحيصا دقيقا، كما أنه كان عظيم الأمانة في إيراد المتن وبذل جهدا لا يبارى لكي يصل إلى أضبط ما يمكن الوصول إليه. ولم يتردد البخاري في تفصيل المواد بتعليقات موجزة متميزة عن النصوص. وكانت نصوص الصحيح منذ أول الأمر محل عناية كبيرة. من تصانيف البخاري نذكر أيضا: التاريخ الكبير، السنن في الفقه، الأسماء والكنى، وخلق أفعال العباد. انظر: – دائرة المعارف الإسلامية، ج 3، **مصدر سابق**، ص: 419. وكذلك:

– كحالة، معجم المؤلفين، ج 9، **مصدر سابق**، ص: 53.

810 – 31 أوت 870 م)، وصحيح أبي الحسين مسلم النيسبوري [1](204 – 261 هـ /820 – 875 م)، وسنن أبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجة القزويني[2] (209 – 274 هـ /824 – 887 م)، وسنن أبي داود سليمان السجستاني[3] (202 – 275 هـ /817 – 889 م)، وجامع أبي عيسى محمد الترمذي[4] (209 – 279 هـ /824 – 892 م)، وجامع أبي عبد الرحمن أحمد النسائي[5] (215–303 هـ/830–915 م). كما أخبر DE CHANIKOFF بتيفليس (Tiflis) (بفلاديكافكاز شمال القوقاز) عن طبعة حجرية بتبريز (أذربيجان) لمجموع "حديث الشيعة". وصارت أمنية المستشرقين

---

[1] - الإمام مسلم بن الحجاج بن **مسلم القشيري** النيسابوري. حافظ من أئمة المحدثين. ولد بنيسابور، ورحل إلى الحجاز ومصر والشام والعراق. من تصانيفه: "صحيح مسلم" أشهر كتبه جمع فيه اثني عشر ألف حديث، كتبها في 15 سنة، وهو أحد الصحيحين المعول عليهما عند أهل السنة في الحديث، وقد شرحه كثيرون. ومن كتبه "المسند الكبير" رتبه على الرجال، و"الجامع" مرتب على الأبواب، و"الكنى والأسماء"، و"الأفراد والوحدان"، و"الأقران"، و"مشايخ الثوري"، و"تسمية شيوخ مالك وسفيان وشعبة"، و"كتاب المخضرمين"، و"كتاب أولاد الصحابة"، و"أوهام المحدثين"،و"الطبقات"، و"أفراد الشاميين"، و"التمييز"، و"العلل". انظر:
- الزركلي، الأعلام، ج 7، **مصدر سابق**، ص: 221–222.

[2] - أبو عبد الله محمد بن يزيد **بن ماجة** الربعي بالولاء، القزويني (نسبة إلى بحر قزوين، شمال غرب إيران). محدث، حافظ، عارف بعلوم الحديث، مفسر ومؤرخ. ارتحل إلى بغداد والبصرة والكوفة ومكة والشام ومصر والري وسمع الكثير. من تصانيفه: تفسير القرآن، التاريخ، السنن في الحديث. انظر:
- رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 12، **مصدر سابق**، ص: 115.

[3] - **أبو داود** سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير بن شداد الأزدي، السجستاني. محدث، حافظ وفقيه. رحل وطاف وجمع وصنف وخرج، وسمع الكثير من مشايخ الشام ومصر والجزيرة والعراق وخراسان، وتوفي بالبصرة. من تصانيفه: كتاب السنن. انظر:
- **نفس المصدر السابق**، ج 4، ص: 255.

[4] - أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن شداد الترمذي (نسبة إلى ترمذ وهي أقصى جنوب أوزباكستان). كانت له رحلات واسعة في خراسان والعراق والحجاز في طلب الأحاديث. ومن شيوخه البخاري وأبو داود. تعرف بمجموعته في الأحاديث باسم الصحيح كما تعرف بالجامع الصحيح لأنه يجمع إلى أبواب الأحكام أبوابا أخرى في المسائل الكلامية مثل القدر والقيامة والجنة وجهنم والإيمان والقرآن، وفي العبادات مثل الزهد ...الخ. يمتاز جامع الترمذي بخاصتين: الأولى ملاحظاته النقدية على رجال الإسناد والثانية تبيينه مواضع الخلاف بين المذاهب عقب كل حديث. ويعتبر الكتاب من هذه الناحية أقدم مصنف وصل إلينا عن أوجه الخلاف. وتنسب المصادر العربية كتبا أخرى للترمذي في موضوعات شتى: في الزهد والأسماء والكنى والفقه والتاريخ، و لم يصلنا فيما يبدو شيء منها.
- دائرة المعارف الإسلامية، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 228–230.

[5] - أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النسائي. محدث، حافظ. ولد بنسا، وسمع الكثير ورحل إلى نيسابور، والعراق، والشام، ومصر، والحجاز. وتوفي بمكة. من تصانيفه: السنن الكبرى والصغرى، الخصائص في فضل علي ابن أبي طالب وأهل البيت، كتاب الضعفاء والمتروكين، مناسك النسائي، وجمع مسند مالك بن أنس ومسند علي بن أبي طالب.
- رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 244.

الحصول على هذه المصادر ووضعها تحت تصرف علماء أوربا [1]، مما سيفقد "مشكاة المصابيح" جزءا من أهميته [2].

كما سيتكفل محمد كتاح ومحمد رحوي بإصدار طبعة كاملة ولكنـــها رديئـــة لصحيح البخاري بمطبعة بولاق عام 1280 هـــ /1863 م، وقد تزامنت مع طبعة أخرى لـــ KREHL بليد [3]، صدر الجزء الثاني منها عام 1864 [4].

يعتبر الزهري[5] (58 – 124 هـــ /678 – 742 م) أحد كبار رواة الحـــديث النبوي الشريف في نهاية القرن الهجري الأول. كما كان أحد الأوائل الـــذين وضـــعوا ترتيبا كرونولوجيا للوازم الحديث، وقد نقل علمه وروايته إلى ابن اسحق[6] الذي أسند إلى سيده كل ما يتعلق بغزوات محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾. وابن اسحق هذا هـــو الذي صنف كتابا بعنوان: "حياة وغزوات النبي"[7] ﴿صلى الله عليه وسلم﴾. الكتاب الذي سيكتسب شهرة عالمية جديرا بها، غير أنه لم يصل إلى أوربا في شكله الأصـــلي، لأن ابن هشام[8] (توفي 213 هـــ /828 م) أضاف إلى أصوله قواعد النحـــو، ومـــن الممكن أن يكون قد أضاف إليه مواد جديدة وأجرى عليه حذفا مؤسفا، على ما يذهب إليه المستشرقون.

---

(1) – Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 132.

(2) – Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 31.

(3) – Rapport annuel, J. A., 1864, **op. Cité**, P : 50-51.

(4) – انظر: **Le recueil des Traditions Mahométanes par El-Bokhari,** publié par KREHL, T:2, Leyde, 1864.

- Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 36.

(5) – أبو بكر محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب **الزهري**. محدث، حافظ، فقيه ومؤرخ، من أهل المدينة. نزل الشام واستقر بها. له تصنيف في مغازي الرسول (صلى الله عليه وسلم).

– رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 12، **مصدر سابق**، ص: 21.

(6) – أبو عبد الله محمد **بن اسحاق** المطلبي المدني. محدث، حافظ، أخباري عارف بأيام العرب وأخبارهم وأنسابهم. توفي ببغداد. من تصانيفه: السيرة النبوية، الخلفاء، المبدأ.

– **نفس المصدر السابق**، ج 9، ص: 44.

(7) – اشتهر كتابه بالمغازي.

(8) – أبو محمد عبد الملك **ابن هشام** بن أيوب الحميري. أخباري، نسابة، أديب، لغوي ونحوي. قدم مصر وحدث بها، وتوفي بها. من آثاره: تهذيب السيرة النبوية الذي اشتهر بالسيرة، مصنف في أنساب حمير وملوكها، كتاب في شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب.

– **نفس المصدر السابق**، ج 6، ص: 192.

وقد هم مستشرقو المجلة بطبع كتاب ابن اسحق، وكلفوا KAZIMIRSKI للقيام بذلك لولا أنه اكتشف أن WUSTENFELD قد قطع فيه شوطا، فتخلى الأول عنه لفائدة الثاني.

جمع "واستنفيلد"، في سبيل نشر نص كتاب ابن اسحق، جل المخطوطات التي تحتوي عليها مكتبات ألمانيا، واعتنى في نشر الكتاب بإضافة الحركات (أو الشكل) كلما رأى ضرورة إلى ذلك، وأرفق النص بتشكيلة وافرة لنصوص مختلفة عن النص المعروف بناء على تعدد المخطوطات[1]. وسيقوم WEIL فيما بعد بـ (Heidelberg) بترجمة كاملة للكتاب [2].

عاصر ابن هشام تقريبا في بغداد، أبا عبد الله محمد الواقدي[3] (130 - 207 هـ/747 - 822 م)، وهو غزير العلم، صاحب عدة مؤلفات. ولقد كانت هذه المؤلفات للواقدي في عداد المفقودة، غير أن DE KREMER قنصل النمسا بالأسكندرية، أفلح في العثور بدمشق على مخطوطات نفيسة هي غزوات محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ والتي طبعها بمكتبة (Indica) للشركة الآسيوية بكالكوتا، وقد صدر الكراس الأول منها قبل القرارات المشؤومة لشركة الهند الشرقية، على إثر ثورة السيبويز (1858)، بإيقاف طبع الكتب الإسلامية التي من ضمنها هذا المجموع [4].

وقد بعث اكتشاف DE KREMER الأمل في العثور على مؤلفات أخرى للواقدي، مثل تاريخه "حروب الردة". وهناك مصادر أخرى لتاريخ العهود الأولى للإسلام يمكن

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1858, **op. Cité**, P : 27-28.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 37.

(3) - **الواقدي**: (130 ـ 207 هـ/747 ـ 823 م)، ولد بالمدينة، وكان حناطا (تاجر حنطة) بها. ضاعت ثروته، فانتقل إلى العراق سنة 180 هـ، في أيام الرشيد، واتصل بيحي بن خالد البرمكي فأفاض عليه عطاياه وقربه من الخليفة، فولي القضاء ببغداد، واستمر إلى أن توفي فيها. هو من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث. ترك عدة مؤلفات منها: "المغازي النبوية" و"فتح افريقية" جزآن، و"فتح العجم"، و"فتح مصر والإسكندرية"، و"تفسير القرآن"، و"تفسير القرآن"، و"فتح مكة"، و"تاريخ الفقهاء"، و"كتاب صفين"، وغيره. وأكثره مما لا تصح نسبته إليه، وينسب إليه كتاب "فتح الشام".
ـ الزركلي، الأعلام، ج: 6، **مصدر سابق**، ص: 311.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 2.

أن يساهم الكشف عنها في بعث الحياة على مسرح فترة مهمة جدا في تـــاريخ الإنسانية، مثل سير الصحابة [1] في خمسة أجزاء لابن حجر العـــسقلاني[2] (773 – 852 هـــ /1372 – 1449 م) الذي أصدر SPRENGER الدفتر الثالث عشر منه قبل أن تعلق مكتبة (Indica) طباعته [3].

واستأنف LEES عام 1864 نشرة لحياة الصحابة، كان قد بدأها بكالكوتا [4].

لعله من الصعب أن نعثر على نموذج من تأليف أو تـــدوين الكتـــب بالطريقـــة التقليدية مثلما يقدمه "تاريخ مكة" للأزرقي، ذلك أن بقاء سكنى عائلة الأزرقي بمكـــة كونت لدى عناصر هذه العائلة عادة وسيرة لتاريخ هذه المدينة، ثم نقلت ابنا عـــن أب إلى أن حررت في رواية من طرف أحمد الأزرقي (المتوفى عام 219 هـــ/834 م). وقـــد واصل الرواية ابنه أبو الوليد الأزرقي[5] وحررها قبيل وفاته عام 244 هـــــ/858 م. ثم استأنفها أحد المريدين وهو اسحق الخزاعي الذي واظب عليها إلى غاية زمانه، ثم مررها إلى ابن أخيه أبي الحسن الخزاعي[6] الذي أضاف لها بعض التعليقات، وهو الذي وصل إلى المستشرقين مخطوطه الذي تولى WUSTENFELD نـــشره. ويمكـــن الملاحظـــة بوضوح مختلف الطبقات التي يتشكل منها الكتاب والتي احترمها من الناحيـــة الدينيـــة الأتباع والمريدون والأوفياء إلى التوكيل والتفويض أو النيابة [7].

---

[1] – المعروف بالإصابة في تمييز الصحابة.

[2] – أبو الفضل أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد الكناني **العسقلاني**. المصري المنشأ والدار والوفاة. شافعي، محدث، مؤرخ، أديب وشاعر. زادت تصانيفه على مائة وخمسين، معظمها في الحديث والتاريخ والأدب والفقه والأصول، منها: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الإصابة في تمييز الصحابة، الدرر الكامنة في أخبار المائة الثامنة، شرح على الإرشاد في فروع الفقه الشافعي،وديوان شعر. – رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 20-21.

[3] – - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité,** P : 30.

[4] – **نفس المصدر السابق**، ص: 36.

[5] – أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق المكي الأزرقي (توفي عام 244 هـــ /858 م). يماني الأصل من أهل مكة. مؤرخ وجغرافي، من تصانيفه: مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها.
– رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 10، **مصدر سابق**، ص: 198.

[6] – أبو الحسن علي بن عبد الله بن طاهر الخزاعي الأصفهاني (كان حيا عام 750 هـــ /1349 م).
– **نفس المصدر السابق**، ج 7، ص: 136.

[7] – - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité,** P : 23-24.

عثر WUSTENFELD بليد على مجلد من حوليات مكة [1] للفقيهي[2] (982 هـ /1574 م) وقد اكتشف أنه ليس إلا الطبعة الأولى لحوليات الأزرقي، وأن منتحله اقتصر على حذف اسم مختلف الأزارقة ونسبه لنفسه، وحافظ على النص ووضع قناعا له من خلال أبيات شعرية وبعض الشروح أخلطها بالنص الأصلي[3].

اعتنى المسلمون بعلم الحديث، وابتكروا له علم الجرح والتعديل [4] فصاغوا لـه قواعد ومبادئ وأشكالا تقنية واضحة ودقيقة. ألف LEES بكالكوتا كتيبـا في هـذا العلم، الذي يحتل مكانة فائقة في المدارس الإسلامية، وفي الكتيب عرض وجيز لنظـام هذا العلم مرفقا بشرح [5].

علم مستشرقو الجمعية والمجلة بظهور طبعة لصحيح البخاري بدلهي، ولكنهم تأسفوا لكون الكتب التي تنشر بالبلاد الداخلية للهند لا تصل إلى أوربا [6].

وفي موضوع السيرة النبوية والخلفاء الراشدين، هناك مؤلفان فرنسيان غـير معروفين كانا يرقدان ضمن مخطوطات العصر الوسيط، بمكتبة الملك بباريس: أولهما تاريخ قديم عن محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، كُتب نظما في القرن 13 م من طرف

---

(1) – أصل العنوان: مكة وأخبارها وجبالها وأوديتها.

(2) – عبد القاهر بن أحمد بن علي **الفقيهي** المالكي. من آثاره: منهج الأخلاق السنية في مناهج الأخلاق السنية.
– رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 308.

(3) – Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 25.

(4) – أهم المؤلفات التي تناولت قواعد الجرح والتعديل والكلام على الرواة وفق تلك القواعد:
– **الطبقات الكبرى** لابن سعد المتوفى (230 هـ /845 م).
– **التاريخ** ليحي بن معين المتوفى (233 هـ /847 م).
– **في علم الجرح والتعديل** لعبد الملك الاستراباذي الجرجاني (242 – 323 هـ /856 – 935 م).
– **التاريخ الكبير** للبخاري المتوفى (256 هـ /810 م).
– **الجرح والتعديل** لابن أبي حاتم المتوفى (327 هـ /939 م).
– **الرفع والتكميل في الجرح والتعديل** لأبي الحسنات محمد عبد الحي اللكني المتوفى (1304 هـ /1887 م).
– عدة رسائل في الجرح والتعديل من كتب الأئمة جمعها في كتاب وطبعها عبد الفتاح أبو غدة المتوفى (1418 هـ /1997 م). أنظر:
– دائرة سفير للمعارف الإسلامية، ج 45-46، **مصدر سابق**، ص: 3549-3551. وكذلك:
– رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج 6، **مصدر سابق**، ص: 191.

(5) – Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 33.

(6) – **نفس المصدر السابق**، ص: 34.

شخص يدعى (Dupont)، ومؤلف آخر عن عقيدة المسلمين، كتب نثرا عام 1307 م من طرف شخص يدعى (Lulle). اطلع صاحب الكتاب الأول على إنتاج المؤلفين العرب، وكان يتقن العربية، بخلاف المؤلف الثاني. وقد رغب المستشرقان REINAUD وMICHEL في إخراج الكتابين السالفين من طي النسيان والتعريف بماهية الأفكار التي شاعت عند تأليف الكتابين عن محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ والديانة التي جاء بها. ولعل الشاهد في إيراد الكتابين أنهما يحويان أغلب الأخطاء المنتشرة في أوربا إلى القرن 18 م، في حق النبي محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، من ذلك على سبيل المثال ما أشيع عنه "من أنه مصاب بمرض الصرع" أو قصة "الصندوق الحديدي الذي يحوي جثمانه (الطاهر) المرفوع في الهواء"...الخ [1].

أرفق REINAUD وMICHEL مطبوعهما بمقدمة تعرضا فيها إلى الأعمال المماثلة لما عرفوا به قراءهما، ووضعوا تنبيهات خاصة على رأس كل كتاب، وبسطوا الكلام فيما يستحق الشرح، كما استخرجوا الأخطاء المسيئة لقصة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾. ولم يوجه المستشرقان منشورهما إلا لعدد محدود من القراء لأنهما لم يطبعا أكثر من مائتي نسخة، ذات جمال ملفت [2]، على ما يذكر "دو تاسي".

ونشر DE PERCEVAL مقالا حول غزوة بدر اعتمد فيه على جملة من المصادر العربية كمؤلفات أبي الفداء وكتاب الأغاني، ولاسيما سيرة ابن هشام التي اتبعها خطوة خطوة مع احتفاظه بخطوط السرد التاريخي التي بدت له أنها تصبغ عادات ذلك العهد [3].

وكتب WEIL -أمين مكتبة Heidelberg والذي قضى مدة بالقاهرة- مقالا في المجلة الآسيوية، حول ادعائه إصابة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ بمرض الصرع

---

(1) - DE TASSY, **Roman de Mahomet, J. A.**, 2 me série, T : 9, 1832. P : 271-273.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 273.

(3) - DE PERCEVAL, "Le combat de Bedr, épisode de la vie de Mahomet" **J. A.**, 3 me série T : 7, 1839, P : 97-98.

قاصدا بذلك ما ينتابه حين نزول الوحي [1]، ومن الواضح أنه أراد بذلك بعث تلك الفرية التي أشرنا إلى مصدرها آنفا. كما ألف كتابا تحت عنوان: "النبي محمد حياته وعقيدته" [2].

وأصدر SPRENGER كتابا في عدة أجزاء حول حياة محمد، كان هدفه الأساسي منها دراسة شخص النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ من حيث عقليته وذهنيته بغرض الكشف عن أصول أفكاره، وكذا التأثيرات التي مورست عليه، والتغيرات التي طرأت على الوسائل التي نجح بها [3].

من الممكن أن لا يكون أحد من المستشرقين الأوربيين قد تتبع بحماس ومثابرة حياة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ أكثر من SPRENGER، الذي نشر الجزء الثالث من "سيرة محمد" عام 1865، وتناول فيه مقام النبي بالمدينة المنورة، وأول تنظيم ديني وسياسي ومالي في الإسلام، وكذا غزواته ومنها فتح مكة وإخضاعه جزءا كبيرا من شبه الجزيرة العربية للعقيدة الإسلامية الجديدة، منهيا كتابه بوفاته ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ [4].

صدر "سبرينجر" الجزء الثالث بمقدمة تناول فيها مصادر سيرة النبي وقسمها إلى ستة أصناف هي: الوثائق الرسمية ذات العدد القليل، والقرآن، والسير، والسنة، والتفاسير، وعلم الأنساب...الخ[5].

أما التصوف فقد سجل المستشرقون الفرنسيون تأخرا في الإلمام به، إذ لم تبرز مواضيعه تقريبا إلا في الستينيات. فقد تضمنت رسالة CHERBONNEAU إلى RENAN جملة من كتب التصوف عثر عليها الأول لدى سي حمودة بن الفقون والحاج

---

(1) - G. WEIL, "Sur un fait relatif à Mahomet", J. A., 1842, **op. Cité**, P :10.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1844, **op. Cité**, P : 20.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 26 -27.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 32.

(5) - **نفس المصدر السابق**، ص: 35.

أحمد المبارك بقسنطينة. واستفاد لاسيما من كتاب شـــرح أحمـــد زروق[1] لحكَـــم التصوف[2] لابن عطاء الله[3] (709 هـــ /1309 م) الإسكندري، الجـــذامي المولـــد، المالكي المذهب، الشاذلي الطريقة، وقد تضمنت الرسالة قائمة طويلة لكتب التـــصوف نذكر منها: الأفكار الدينية لسيدي عبد الرحمن الثعالبي[4] (785 – 875 هـــ /1383 – 1470 م)، والغنية[5] لعبد القـــادر الجـــيلاني[6] (470 – 561 هـــــ /1077 – 1166م)، وواجبات الصوفي[7]

---

[1] - أبو الفضل أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي، الفاسي، المالكي، الشهير بزروق (846 – 899 هـــ /1442 ــ 1493 م). صوفي، فقيه ومحدث. من مؤلفاته: شرح الحكم العطائية، قواعد التصوف على وجه يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة، اغتنام الفوائد في التنبيه على معاني قواعد العقائد للغزالي، شرح مختصر خليل في فروع الفقه المالكي، تأسيس القواعد والأصول وتحصيل الفوائد لذوي الوصول في التصوف وله نظم. رضا كحالة. معجم المؤلفين، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 155.

[2] - العنوان الأصلي للكتاب هو: شرح الحكم العطائية.

[3] - أحمد بن محمد بن عبد الكريم **بن عطاء الله** الإسكندري، الجذامي، الشاذلي. توفي بالقاهرة. صوفي، مشارك في أنواع من العلوم كالتفسير والحديث والفقه والنحو والأصول. من مصنفاته: التنوير في إسقاط التدبير في التصوف، مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح في ذكر الله الكريم الفتاح، لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن، أصول مقدمات الوصول، المرقى إلى القدير الأبقى.

- **نفس المصدر السابق**، ج 2، ص: 121.

[4] - أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن **مخلوف الثعالبي**، الجزائري المالكي. درس في بجاية وتونس والقاهرة. مفسر، فقيه، صوفي ومتكلم. من تصانيفه: الجواهر الحسان في تفسير القرآن ويعرف بتفسير الثعالبي، الذهب الإبريز في غرائب القرآن العزيز، جامع الأمهات في أحكام العبادات في فروع الفقه المالكي، العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة، قطب العارفين ومقامات الأبرار والأصفياء والصديقين في التصوف، نفايس المرجان في قصص القرآن ورسالة في التعريفات.

- **نفس المصدر السابق**، ج 5، ص: 192. وكذلك: كحالة، **المستدرك على معجم المؤلفين**، ط 2 ، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988، ص: 365. وكذلك: دائرة المعارف الإسلامية، ج 6، **مصدر سابق** ، ص: 199-200.

[5] - العنوان الأصلي هو: الغنية لطلبي طريق الحق. انظر: **الهامش الموالي**.

[6] - محي الدين عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن يحي بن محمد **الكيلاني** (نسبة إلى بلدة كيلان وعربت بالجيلان). صوفي تنسب إليه الطريقة القادرية. ولد بكيلان، ودخل بغداد فسمع الحديث وتفقه، وتوفي ودفن بها. من مصنفاته: جلاء الخاطر في الباطن والظاهر،الفتح الرباني والفيض الرحماني، الغنية لطالبي طريق الحق، سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، آداب السلوك والتوصل إلى منازل الملوك، أوراد الجيلاني، إغاثة العرفين وغاية مني الواصلين، دعاء أوراد الفتحية، دعاء البسملة، الحزب الكبير، كتاب في الفقه والتصوف، أوراد الأيام والأوقات، رسالة في الأسماء العظيمة للطريق إلى الله. - رضا كحالة، معجم المؤلفين، **مصدر سابق**، ج 5، ص: 307-308.

وكذلك: كحالة، المستدرك، **مصدر سابق**، ص: 401-402.

[7] - ليس لأبي حامد الغزالي رسالة بهذا العنوان، لعل المقصود هنا هي رسالته: "منهاج العارفين".

لأبي حامد الغزالي[1] (450 – 505 هـ /1058 – 1111 م)، وواجبات الإخوان لسيدي بومدين[2] (589 هـ /1193 م)، وغيرها كثير...[3].

ولما كان الأديب المصري الشعراني[4] (898 – 973 هـ /1493 – 1565م)، أحد آخر ممثلي المدرسة الصوفية، ومارس تأثيرا كبيرا على ذهنية الشعوب الإسلامية، فقد خصه DE KREMER بمقال مطول[5]، وكمله PERRON من خلال مقدمة

---

(1) – أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الشافعي، المعروف **بالغزالي**، حجة الإسلام. توفي بالطبران. حكيم، متكلم، فقيه، أصولي وصوفي. مشارك في أنواع من العلوم. من تصانيفه الكثيرة: إحياء علوم الدين، الحصن الحصين في التجريد والتجويد، تهافت الفلاسفة، الوجيز في فروع الفقه الشافعي والمستصفى في أصول الفقه، مشكاة الأنوار، فضائح الباطنية، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، المعارف العقلية، ميزان العمل، فتاوى مقاصد الفلاسفة، منهاج العابدين، روضة الطالبين وعمدة السائلين، رسالة العلم اللدني، الرسالة القدسية، رسالة في بيان ماهية الروح، بداية الهداية، البسيط، التبرك المسبوك، في نصيحة الملوك، رسالة أيها الولد، منهاج العابدين، إلجام العوام عن الخوض في علم الكلام، آداب الشريعة...، المنخول في الأصول، القسطاس المستقيم، الدرة الفاخرة في الكشف عن علوم الآخرة، الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين، فرض الدين، الوسيط، الرسالة اللدنية، مشكاة الأنوار في لطائف الأخبار في الموعظة، المضنون الصغير على غير أهله، المنقذ من الضلال، ونتائج الخلوة ولوائح الجلوة.
– رضا كحالة، معجم المؤلفين، **مصدر سابق**، ج 11، ص: 266-269. وكذلك: كحالة، المستدرك، **مصدر سابق**، ص: 739-740.

(2) – **أبو مدين شعيب** بن الحسن التلمساني. أصله من الأندلس، أقام بفاس، وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور. توفي بتلمسان وقد قارب الثمانين أو تجاوزها. له: أنس الوحيد ونزهة المريد في علم التوحيد، والحكم. – **نفس المصدر** السابق، ج 4، ص: 302.

(3) - Lettre de M. CHERBONNEAU à M. RENAN, Constantine le 29/ 11/1859 **J. A.**, 5 me série, T : 15, 1860, P : 436-438.

(4) – أبو عبد الرحمن عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد **بن موسى الشعراني**، الأنصاري، الشافعي، الشاذلي، المصري. ولد بقلقشنده وتوفي بالقاهرة. فقيه، أصولي، محدث، صوفي. مشارك في أنواع من العلوم. من تصانيفه الكثيرة: الجوهر المصون والسر المرقوم فيما تنتجه الخلوة من الأسرار والعلوم، الدرر المنثورة في زبد العلوم المشهورة، لواقح النوار في طبقات الأخيار، المقدمة النحوية في علوم العربية، شرح جمع الجوامع للسبكي في أصول الفقه، الميزان الشعرانية...، كشف الغمة عن جميع الأمة، إرشاد الطالبين إلى مراتب العلماء العاملين في التصوف، لطائف المنن والأخلاق...، رسالة في آداب تلقين الذكر، ذيل طبقات الصوفيين، درة الغواص على فتاوى على الخواص، الجواهر والدرر الصغرى، تعليق على وصية إبراهيم المتبولي، بهجة النفوس...، البحر المورود في المواثيق والعهود، كشف الحجاب...، المنن والأخلاق، الكبريت الأحمر...، تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس، رسالة في العقائد، رسالة في التسليك، الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية، إرشاد السالكين أو موازين القاصرين. – كحالة، معجم المؤلفين، **مصدر سابق**، ج 6، ص: 218. وكذلك: كحالة، المستدرك، **مصدر سابق**، ص: 453.

(5) - A. DE KREMER, "Notice sur Sha'Rany ", **J. A.**, 6 me série, T : 11, 1868. P : 253.

لترجمة كتاب الميزان [1]للشعراني. وللأخير قائمة من المؤلفات أوردها FLUGEL ضمن المجلة الشرقية بليبزيج، ولعل من أبرزها "البحر المورود في المواثيق والعهود" [2].

وللشعراني كتاب آخر مهم أيضا، يعالج من ضمنه أصول الفقه[3]، أصدره PERRON في نهاية الفترة التي تعنينا [4]. كما تعرض WORMS لبعض قواعد التشريع الإسلامي -التي هي من صميم علم أصول الفقه- لاسيما منها القرآن والسنة[5]، وكذلك تعريفات لجملة من المصطلحات والمفاهيم في الشريعة الإسلامية، كالمسلمين والمؤمنين والكافرين والمشركين، وكدار الإسلام ودار الحرب والجزية وغيرها[6].

ونشر "ميرزا كاظم بك" مقالا حول سير وتطور أصول الفقه ضمن المذاهب السنية الإسلامية، ضمنها قوانين ومبادئ المسلمين السنة ومنها أن الله تعالى هو المشرع الوحيد، وأن القرآن والسنة هما مصدرا الأحكام، وأن أحكام الشريعة تتعلق بأعمال المكلفين ...الخ[7]. كما تناول قيام المذاهب الفقهية الأربعة [8]، وعلاقات الأئمة بعضهم ببعض في مجال الاجتهاد[9]. وكذلك قيمة القوانين الفقهية وأهميتها، وتقسيم المسلمين لفروعهم العلمية ومعارفهم، وعلاقة الشريعة بالسياسة، وبعض قوانين أصول الفقه، فالاجتهاد ودرجاته [10].

كان موضوع الفقه والمذاهب الفقهية محل اهتمام أكثر، ولعل تجربة الفرنسيين على العموم والمستشرقين على الخصوص مع الفقه الإسلامي ليست جديدة، فمن

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1870, **op. Cité**, P : 72 -73.

(2) - DE KREMER., J. A., 1868, **op. Cité**, P :271.

(3) - لعله شرح الشعراني لجمع الجوامع للسبكي الذي هو في أصول الفقه.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1871, **op. Cité**, P : 37.

(5) -WORMS, "Recherche sur la constitution de la propriété, J. A., 1842, **op. Cité**, P : 236-238.

(6) - **نفس المصدر السابق**، ص: 253-256.

(7) - KAZEM BEG, "Notice sur la marche et les progrès", J. A., 1850, **op. Cité**, P : 160-162.

(8) - **نفس المصدر السابق**، ص: 168- 172.

(9) - **نفس المصدر**، ص: 172- 175

(10) - **نفس المصدر**، ص : 176- 214.

المعلوم، كما تذكر بعض المصادر أن قوانين نابليون مستمدة من القوانين الرومانية ومن الشريعة الإسلامية التي تعرف عليها نابليون أثناء حملته على مصر[1]، لأجل هـذا ذكرت قوانين نابليون والشريعة الإسلامية في مواطن عديدة من كتابات المستـشرقين مقترنة ببعضها، واستفيد من ذلك أن الشعبين العربي والروماني هما أكثر الشعوب توفرا على القوانين[2].

تناول WORMS في قسم من مقال سابق، المذاهب والأئمة الأربعة[3]، غير أن المذهب الحنفي حظي باهتمام ومعرفة أكثر من الأوربيين[4]، وأشهر كتب الأحناف في المرحلة المتأخرة "الهداية في الفروع"[5] و"ملتقى الأبحر"[6]، وقد تبنت الدولة العثمانية الكتاب الأخير لاتباعها المذهب الحنفي، وقام D'OHSSON بترجمة كتـاب "ملتقـى الأبحر"[7].

وأصدر مستشرقو المجلة الآسيوية عملا مطولا يتعلق بالشريعة الإسلامية مـن منظور أهل السنة، وتحديدا المذهب الحنفي، ووقفوا من خلاله على حكم المـذهب من قضايا الحياة الاجتماعية المتعددة، أو ما يسمونه قانون النظام المدني، كتوزيع الماء

---

(1) - ابن نبي، الظاهرة القرآنية، **مصدر سابق**، ص: 68.

(2) - وكذلك: -Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P: 42-43. **"Droit Romain et sources de la législation Mahométane", J. A.**, 6 me Série, T : 13, 1869, P : 200.

(3) - - WORMS, "Recherche sur la constitution", J. A., 1842, **op. Cité,** P : 239-243.

(4) - - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 139-141.

(5) - هناك "حاشية على الهداية في فروع الحنفية" لشمس الدين أحمد بن محمود الأدرنوي المعروف بقاضي زاده الرومي المتوفى سنة 988 هـ. انظر:

- حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج 4، دار الفكر، بيروت، 1990، ص: 721.

(6) - هناك عدة شروح "للملتقى الأبحر" من ذلك: شرح ملتقى الأبحر في الفروع الحنفية لمصطفى بن محمد العشاقي المدرس الرومي المتوفى سنة 1101 هـ، وغيره... انظر: **نفس المصدر السابق**، ص: 551.

(7) - WORMS, "Recherche sur la constitution" , . J. A., 1842, **op. Cité,** P : 257-244.-

الشروب[1]، ومفاهيم أخرى متعددة تتعلق بدار الإسلام ودار الحرب، وأهل الإسلام وأهـــل الذمة، والإمامة والجهاد والموادعة، والسلم والأمان، والغنيمة وغيرها...[2].

وأما المذهب المالكي، مذهب بلاد المغرب[3]، فقد اعتنى به المستشرقون الفرنسيون والـــساسة والعسكريون على حد سواء، لاسيما "مختصر سيدي خليل"[4] كما سبق[5] وكما ســـيأتي أيضا.

ونشر SOLVET وBRESNIER كتيبا في الجزائر، حول المواريث في الإسلام[6].
كما طبع في الجزائر وباريس بعـــض الفصول المتعلقة بالـــزواج استلت من كتـــاب

---

(1) - - Législation Musulmane Sunnite, rite Hanéfi, Code civil, **J. A.**, 4 me série, T: 13, 1849, P: 120-121.

(2) - - Législation Musulmane Sunnite, rite Hanéfi, Code civil, **J. A.**, 4 me série, T: 17, 1851,PP: 218-229 et 568.
- Législation Musulmane Sunnite, rite Hanéfi, Code civil, **J. A.**, 5 me série, T : 1, 1853, PP: 39-91.
- انظر كذلك فيما يتعلق بالجهاد والغنائم وغيرها كثير، تعريفات في منتهى الدقة والوضوح:
- Etude sur la propriété foncière en pays Musulmans et spécialement. En Turquie, rite Hanéfite, **J. A.** ,5 me série T: 18, 1861, PP: 400 à 509.
- انظر أيضا عن الأوقاف:
- BELIN, Extrait d'un mémoire sur l'origine et la constitution des biens de main-morte, en pays Musulman, **J. A.**, 5 me série; T : 2, 1853, P: 377-379.
- انظر كذلك فتوى عن أهل الذمة، لاسيما المسيحيون:
- Fetoua relatif à la condition des Zimmis et particulièrement des Chrétiens en pays Musulmans depuis l'établissement de l'Islamisme, jusqu'au milieu du 8me Siècle de l'Hégire , par BELIN, **J. A.**, 4 me série, T : 18 , 1851, PP : 124-140 et 20-427. 4

(3) - Rapport annuel, J. A., 1843, **op. Cité**, P : 507-508.

(4) - **خليل**: هو ابن اسحاق بن موسى بن شعيب المالكي، المعروف بالجندي والشهير في بلاد المغرب "**بسيدي خليل**". فقيه مشارك في علوم العربية والحديث والفرائض والأصول والجدل. أقام بالقاهرة، وجاور المالكي، مناقب الشيخ عبد الله المنوفي، مناسك الحج، شرح ابن الحاجب في 6 مجلدات، شرح على المدونة لم يكمل. أما "المختصر" فهو اختصار للمدونة في الفقه المالكي لعبد السلام سحنون (160 – 240 هـــ /777 – 854 م)، الحمصي، المغربي القيرواني. ولمختصر خليل عدة شروح. انظر:
- كحالة، **معجم المؤلفين**، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 155، وكذلك: ج 5، ص: 224. وأيضا:
- خليفة، **كشف الظنون**، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 449-450.

(5) - انظر، ص: 84.

(6) - - SOLVET et BRESNIER, **Notice sur les successions musulmanes,** Alger, 1846.
- انظر: - Rapport annuel du 17/08/1846, **J. A.**, 4 me série, T : 12, 1848, P : 121.

"تحفة العروس" للشيخ محمد التجاني[1]. كما أرسل الأب BARGES إلى المجلة الآسيوية مجموعة من النصوص التوثيقية -نشرت مترجمة- وهي عبارة عن وصف لأحكام قضائية [2].

وفي مجال فقه العبادات أصدر DE HAMMER كتيبا بالعربية والألمانية في مواقيت الصلاة [3]، كما أصدر D'AVRIL كتابا في مناسك الحج [4].

---

(1) - Cheikh Mohammed-ben Ahmed-al-Tidjani, **Touhfat al Arous**, ou le cadeaux des époux, Paris et Alger, 1848.

- انظر: - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 121.

(2) - Actes Notariés, Traduites de l'arabe par l'abbé BARGES, **J. A.**, 4 me Série, T : 2, 1843, PP : 215-225.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 27-28.

(4) - Adolphe D'AVRIL, **L'Arabie contemporaine, avec la description du Pèlerinage de la Mecque**, Paris, 1868.

- انظر: - BARBIER DE MEYNARD, "L'Arabie contemporaine..", **J. A.**, 6 me série, T : 12, 1868, P : 517-516.

2- المحتوى الفكري-الثقافي والعلمي:

اهتَمّ بالديانات في أوربا القرن 19 م، ولاسيما المثقفون اليهود، الـــذين انـــصب اهتمامهم على الديانة اليهودية والكتابات المقدسة المسيحية. كما اهتم بها أيضا أصدقاء اللسانيات، وأنجزوا أعدادا هائلة لترجمات التوراة والشعائر الدينية المسيحية ذات الأهمية في دراسات فلسفة الأديان[1].

وكان الإسلام أو "الديانة المحمدية" (Mahométisme)، كما يحلو للمستشرقين الفرنسيين تسميتها، محل عناية فائقة. ويأتي في مقدمة مواضيعها القرآن الكريم.

والقرآن كما هو معروف لدى المسلمين، جمعه الخليفة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وجمعت النسخ التي تختلف عن نسخته، سواء بالإقناع أو بالقوة، وأحرقت. وكان القرآن قبل ذلك يقرأ بروايات مختلفة انتشرت في شبه الجزيرة العربية والـــشام والعراق ومصر. وقد زعم غلاة الشيعة أن عثمان قد حذف منه بعضا من المقـــاطع، وهو ما ينفيه السنة (نفيا قاطعا). وتدعي الشيعة، في هذا المجال أيضا، أن للإمام علـــي (رضي الله عنه) نسخته الخاصة من القرآن، وهي النسخة التي تتبناها الشيعة. وهكـــذا فقد زعموا أن آيات أو سورة تكون قد سقطت أو حذفت من طرف عثمان، كمـــا ذكر "ميرزا"، صاحب الوثيقة التي أرسل بها إلى DE TASSY، كما أسلفنا. وتدعي الشيعة -الغلاة منهم على الأقل- أن هذه المسألة لا يعلمها إلا الأئمـــة، وأن الإمـــام المهدي حين يعود، سيعيد للقرآن صفاءه. ففي ظل هذه الفلسفة إذن، تبدو الوثيقة التي نشرها "دو تاسي" قليلة الذيوع، ولا غرابة أن عثر عليها "كاظم" بعد ثماني عشرة سنة من البحث[2].

ولعل أهم ما ورد في الوثيقة هو ما يوحي بمن يقف وراء وضع "الآيات". مـــن ذلك ورود كلمة (النورين) التي علق عليها الناشر بأن المقصود بها هو محمد ﴿صلى

---

(1) - **J. A.**, 4 ^{me} série, T : 1, 1843, P : 180.

(2) - DE TASSY, "Chapitre inconnu du Coran", J. A, 1842, **op. Cité**, P : 427.

الله عليه وسلم﴾ وعلي (رضي الله عنه)، وكذلك عبارة (الذرية الصالحين) إشارة إلى الأئمة الإثني عشر، وأما عبارة (الأحياء والأموات) فإشارة إلى الإمام المهدي[1].

وفي موضوع مصحف عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، يذكر QUATREMERE اعتمادا على ابن إياس، أن السلطان الغوري كان يحيط به أربعون شريفا في "معركة مرج دابق"، وكان بحوزة كل منهم مصحف ملفوف في علبة حرير، وضمنها توجد النسخة الأصلية للمصحف المنسوخ بيد الخليفة عثمان، ضاعت أثناء الهزيمة، ثم عثر عليها مجددا. وقد ادعى المستشرق BELIN أنه رأى المصحف المعني عدة مرات، ولكنه يرجح أن آثار الدم التي على المصحف لا تعود إلى الخليفة عثمان الذي سفك دمه بالمدينة المنورة، ولكنه دم الشريف الذي تكفل به ودافع عنه إلى حد الموت.

وقد وضع المصحف العثماني الشريف، بالمسجد الذي بناه الغوري والذي يحمل اسمه، وهو في صندوق خشبي مرصع، مغلق في شكل غلاف كتاب مختوم، ومغلق عليه في خزانة بجانب المقام أين دفنت بقايا السلطان الغوري. وكان الجزء الأمامي للصندوق مزخرفا بفن الزخرفة العربي وهو الوحيد الذي يحمل بصمات قديمة، وعليه يقرأ: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، باسم الله الرحمن الرحيم". وفي الأسفل: "أمر بعمل هذا الصندوق المكرم برسم المصحف الشريف المعظم"[2].

سجلت دراسة القرآن الكريم تطورا بنشر تفسير البيضاوي. وقد كان الأخير أحد كبار النحويين العرب. وتفسيره: "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" منجم لا ينفد في الأبحاث النحوية والأحاديث النبوية (3). اعتمد فيه على تفسير الزمخشري[4] "الكشاف" ولكنه توسع فيه كثيرا مستعينا في ذلك بمصادر أخرى. ويعتبر أهل السنة تفسير البيضاوي أحسن التفاسير جميعا. ويمتاز البيضاوي في مصنفاته بتركيز الكثير من

---

(1) - نفس المصدر السابق، ص: 439.

(2) - BELIN, "Lettre a M. REINAUD", J. A., 1854, **op. Cité**, P : 492.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 24.

(4) - انظر تعريفا بالزمخشري ضمن **المبحث السابق**، ص: 175، (الهامش).

المعلومات في أسلوب مقتضب لا إسهاب فيه وإن كان لم يتحر الدقـة أو يلـم إلماما تاما بفروع العلم التي اشتغل بها وهي تفسير التاريخ وتصنيف المعـاجم والنحـو واللهجات والقراءات المختلفة. وكذلك تفسير الزمخشري، وكان أعلم علماء العـرب، إذ كانت له مصنفات متعددة الاختصاصات، على عادات وقتئذ. اشـتهر الزمخـشري بتفسيره "الكشاف"، واتهامه بالبدعة لم يزعزع شهرته [1].

كان الزمخشري ينتمي إلى فرقة المعتزلة ذات الأفكار الأقـل وهميـة، في نظـر المستشرقين، من أهل السنة في مجال تدوين القرآن، مما مكنه من تقـديم معطيـات لا نجدها عند غيره[2]. ومن المحتمل أن نتائج آخر الأبحاث حول النص القرآني سـتنتهي إلى قناعة حول صدق وأصالة ونوايا عثمان (رضي الله عنه) الخالصة في مجال التدوين الرسمي للقرآن الكريم، وأن الأمر لا يتعلق إلا بترتيب السور مما يشكل أهمية في المجال العلمي [3].

اهتم الزمخشري في تفسيره المعروف بالكشاف بالجوانب التاريخية والبلاغيـة في القرآن على الخصوص، ولذلك فقد غلب على تفسيره الطابع التاريخي والعقدي من بقية الجوانب، مقارنة بتفسير البيضاوي، كما تعرض للسير التي أشار إليها النبي محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾. وقد عرف الكشاف في أوربا معرفة محدودة [4].

وفي كتـاب WEIL: Légende biblique des Musulmans اعتمـد علـى مصادر عربية وقابلها بالتقاليد اليهودية (الإسرائيليات)[5]، وكل من قرأ القرآن يـصل

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P :22.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 28.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 30.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 22-23.

(5) - عظم شغف بعض المفسرين المسلمين **بالإسرائيليات** بعد عصر التابعين وأفرطوا في الأخذ منها. وتنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة: القسم الأول: ما يعلم صحته بأنه نقل عن النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ نقلا صحيحا، فهو صحيح مقبول. القسم الثاني: ما يعلم كذبه بأنه يناقض ما عرف من شرعنا أو كان لا يتفق مع العقل، فلا يصح قبوله ولا روايته. القسم الثالث: ما هو مسكوت عنه ، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نكذبه وتجوز حكايته، لما تقدم من قوله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ "لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا...".

- محمد حسين الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج 1، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1961، ص: 179.

إلى استنتاج مفاده أن الكتاب مليء بالتلميحات للأساطير اليهودية[1] حول شخصيات كتاب العهد القديم، كما أسلفنا. وهذه الأساطير ليس لها قيمة، في نظر "ويل"، غير أن معرفتها ضرورية لفهم القرآن، وبذلك فإن الكاتب أدى خدمات إلى قراء القرآن من الأوربيين الذين لا يمكنهم الرجوع إلى التفاسير الإسلامية الأصلية، لاستخراجها من كتب الأحاديث والسير العربية وجمعها في كتيب موجز[2].

وتجدر الإشارة إلى أن النشاط الديني (العقدي) اتجه قبل كل شيء، في نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات، نحو نقد الكتب المقدسة[3]. وفي هذا الإطار بالذات يأتي كتاب "رينان": "تأملات جديدة حول الطبيعة العامة للشعوب السامية لاسيما منحاهم نحو التوحيد".

كان منطلق "رينان" في تأملاته، أن الحكم على طبيعة أمة يمر عبر النظر فيما أحسنت صنعه في هذا الوجود، وماذا تركت من آثار في التاريخ، أي فيما نجحت فيه؟ من هذا المنطلق طرح التساؤل التالي: ما هو ابرز ما تركه العنصر السامي عبر التاريخ ؟ وقد أجاب على ذلك بقوله إنه هو التوحيد والوعظ والإرشاد [4].

ترى ما هي الأرضية التي قام عليها الإسلام نفسه في نظر المستشرقين ؟ أو

---

(1) – انظر: عاطف عبد الغني، **أساطير التوراة**، ط 1، مركز الحضارة العربية، د. ط.، 1999.

(2) – Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 25.

(3) – Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 65.

– انظر في موضوع الكتب المقدسة:

– محمد عبده (الإمام)، **الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.

– محمد عبد الله الشرقاوي، في **مقارنة الأديان، بحوث ودراسات**، ط 2، دار الجيل، بيروت، 1990.

– سليمان مظهر، **قصة الديانات**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.

– حسني يوسف الأطير، **عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية**، ط 2، مكتبة الزهراء، القاهرة، 2000.

(4) – RENAN, "Nouvelles considérations sur le caractère général des peuples Sémitiques et en particulier sur leur tendance au Monothéisme, **J. A.**, 5 me série, T : 13, 1859, P : 214.

ماذا عن عبادة العرب للأصنام[1] قبل رسالة النبي محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ ؟ لقد كان لكل قبيلة بعض التماثيل غير المتقنة الصنع ولكنها مفضلة، في وقت لم يكن هناك نظام يقف على مجموعة أركان من عقائد يدافع عنها رجال دين ذوو معارف وتأثير يمكن أن تشكل مقاومة حقيقية، وهي حالة أو وضعية لا تتفق والذهنية أو العقلية العربية. وخلافا لما يقره واقع العرب قبل الإسلام وكذلك التوراة والإنجيل[2]، يرى المستشرقون أن السرعة التي كانت تنتشر بها اليهودية (؟)[3] وبعض المذاهب المسيحية (؟)، كانت إرهاصا واضحا على أن عهدا تبشيريا جديدا على وشك الوقوع، بحيث لو لم يظهر محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ لكان من الممكن أن تنتشر اليهودية في كل شبه الجزيرة العربية. ومهما يكن من أمر، فإن المصادر التي يمتلكها المستشرقون وقتذاك عن ديانة العرب قبل الإسلام محدودة، والمؤرخون المسلمون، على زعم المستشرقين، لا يفضلون الحديث عنها[4].

يقر المؤلفون المسلمون[5]، أن عبادة العرب الأولى تمثلت في التوحيد الخالص، لأنها نتيجة لما أقره النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ والذي مفاده أن الإسلام ليس إلا

---

(1) - كان الوثنيون هم أكثرية العرب. وهم عبدة الأصنام والأوثان، حيث كان لهذه الأصنام والأوثان بيوت مقدسة توضع فيها ويطاف حولها. وقد كثرت معبودات الأصنام لدى العرب كما كان للقبيلة الواحدة أكثر من صنم (أورد المؤرخون أعداد أصنام مختلفة كانت بالجزيرة العربية، منهم من قال بأنها 30 صنما وآخر قال بأنها تقارب المائة وثالث أورد الرقم 360 صنما في مكة فقط). واعتمادا على كثرة الآلهة وتعددها بالجزيرة العربية فقد قيل إنه كان لأهل كل دار بمكة صنم يعبدونه وقيل كذلك بأنه كان يطاف بالأسواق لبيعها. انظر:

- حسن نعمة، **موسوعة الأديان السماوية والوضعية، موسوعة ميتولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة**، ج 1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994، ص: 85.

(2) - أحمد حجازي السقّا، **البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل**، ج 1+2، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1989.

(3) - كانت اليهودية معروفة في الجزيرة العربية خاصة في يثرب وخيبر ووادي القرى. واليهود من عدة قبائل منهم بنو النضير وبنو كنانة الحارث بن كعب. **نفس المصدر السابق**، ص: 85.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 31.

(5) - يستعمل المستشرقون الفرنسيون مصطلح "المؤلفون العرب" تارة وتارة أخرى "المؤلفون المسلمون" وقد حاولنا استعمال "المؤلفون المسلمون".

عودة إلى ديانة إبراهيم الخليل (الدين الحنيف)[1]. كما أن الفرضيات التي يشرح بها المؤلفون العرب كيف تحولت عبادة الآباء إلى شرك، شرح لبق ومتقارب مع الأدوات التي كونها النقد العلمي، ذلك أن كثيرا من المؤرخين المسلمين يتفقون على أن نهاية ديانة الآباء وبداية الشرك عند العرب تزامنت مع نهاية مملكة جرهم الثانية، أي حوالي عام 200 ميلادية [2]، والنقوش تؤيد هذه النتيجة بشكل ملحوظ. صحيح أن المستشرق DE PERCEVAL قد تعرف من بين أسماء جرهم اللاحقين على مشركين اثنين معاصرين للعهد المسيحي، لكن ذلك غير مستغرب عندما نعرف المنحى الذي ساق الساميين البدو -غير المرتبطين بالمؤسسات الدينية المحافظة- إلى تبني عبادات أجنبية، مادامت جد سهلة وتمكنهم من الثبات أمام الديانات المعقدة التي تمارس من حواليهم. ونجد في نفس المملكة (مملكة جرهم) الاسم المسيحي "عبد المسيح" [3]، مما يدل، لا على أن المملكة كانت تدين كلها بالمسيحية، ولكن على أن المسيح، على حد زعم "رينان"، كان من ضمن العبادات المحترمة في الحجاز. وأكد "رينان"، دون الإفصاح عن المصدر، أن صورة المسيح ومريم العذراء كانت ضمن أوثان الكعبة [4].

---

(1) - تعددت **المعتقدات الدينية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام** وكان منها: الموحدون، الوثنيون، اليهود، النصارى، المجوس، الزنادقة والصائبة.

الموحدون وكان منهم (ورقة بن نوفل، خالد بن سنان العبسي، قس بن ساعدة الأيادي، زهير بن أبي سلمى، أمية بن أبي الصلت، النابغة الذبياني الجعدي). والموحدون هم أتباع دين النبي إبراهيم الخليل (وقد وفد من مدينة أور في بلاد ما بين النهرين إلى بلاد كنعان مارا بمدينة حران)، والمعروف أن إبراهيم الخليل حارب الأصنام دون مخافة قومه ودعا إلى عبادة الله الواحد الأحد خالق الكون وكل ما فيه، وفي القرآن الكريم أكثر من آية تثبت ذلك. ولم يقتنع النبي إبراهيم بعبادة الكواكب التي عبدها آباؤه وأجداده وبنو قومه إنما نادى بوحدانية الله الخالق وانتشرت تعاليمه وعرفت بالدين الحنيف (هكذا يسميه القرآن الكريم) كما آمنوا بالقضاء والقدر والتسليم لله.

- موسوعة الأديان السماوية والوضعية، **مصدر سابق**، ص: 84-85. انظر كذلك تعريفا للتوحيد وتعاليق بعض المسلمين عليه، ضمن:

- دائرة المعارف الإسلامية، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 528-542.

(2) - RENAN, "Nouvelles considérations", **op. Cité**, P : 237.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 237.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 238.

وفي إطار اهتمام المستشرقين بالعقيدة التوحيدية تناولوا الوهابية[1] تناولا متميزا، ونشروا بعضا من نصوصها. وقد أرخوا لجهود الشيخ محمد بن عبد الوهاب في نشر عقيدة التوحيد منذ عاد من الدراسة إلى مسقط رأسه حوالي عام 1171 هـ /1757 م. كان منطلقه مذهب الإمام أبو حنيفة، الذي أخذ عنه الجانب النظري من فقهه، أما الجانب التطبيقي فقد كلف نفسه بشرحه وتعليمه بنفسه. وشيئا فشيئا، لوحظ عليه تطاوله على المذهب الحنفي على الصعيد النظري، إلى أن انتهى به الأمر إلى معارضة الإمام الجليل أبو حنيفة جهارا. كما جاهر بعقيدته التوحيدية التي هو صاحبها والداعي إليها، وملخصها، أن المسلمين واليهود والمسيحيين وكل شعوب المعتقدات الأخرى، وثنيون وكفار بحكم عبادتهم للصور. ودليله على ذلك، فيما يتعلق بالمسلمين، أن حجاجهم يقدسون تارة قبر الرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، وتارة أماكن الدفن والقباب التي تحيط بها بركة الإمام علي، فضلا عن أئمة آخرين، والتبرك بالأولياء وروائعهم المقدسة الطاهرة[2]... إنهم يتنافسون على تقديم الصلوات والقرابين... ويسجدون، ويذلون أنفسهم كعلامات خضوع، وهم يلطخون جباههم بالرماد أو يكسرونها على ضريح، فما عساهم أن يكونوا -كما يقول الشيخ- إن لم يكونوا وثنيين بالمعنى العام للكلمة ؟[3]... كذلك الشأن بالنسبة لليهود والمسيحيين، الذين يغطون جدران كنائسهم وبيعهم بصور عيسى وموسى (عليهما السلام)... الخ. فهم يحبونهم ويتضرعون إليهم بالتوسط والشفاعة يوم الحساب.

إن أفضل طريقة لمحبة الله تعالى تكمن في -نظر الشيخ محمد بن عبد الوهاب- أن نقف ساجدين لله، وإجلاله حق قدره، دون أن نضع له شريكا أو وسيطا ما. فهذه الآراء أرضت الكثير من المسلمين. كما أن شهرة صاحبها في العلم والتقوى كانت

---

(1) - انظر تعريفا للوهاية ضمن **المبحث السابق**، هامش ص: 176-177. وكذلك:
- دائرة المعارف الإسلامية، ج 10، **مصدر سابق**، ص ص: 403-410.

(2) - CHODZKO, "Le déisme des WAHHABIS", J. A., 1848, **op. Cité**, P : 170.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 171.

تجري من قرية إلى أخرى، في كل إقليم نجد أين بدأت قوة الوهابيين تتوطد أكثر فأكثر [1].

ورسالته مبنية على خمس قواعد، وهو يعطي لكل قاعدة دلائل من القرآن، ومفاد الأولى: أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ يقرون أن الله هو المدبر لجميع الأمور، ومفاد الثانية: أنهم يقولون ما نرجو من الوسطاء إلا الشفاعة عند الله، والثالثة: أن منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ومنهم من تعلق بالصالحين، والرابعة: أنهم يخلصون لله في الشدائد، والخامسة: أن المشركين في زمن النبي أخف شركا من عقلاء مشركي القرن 12 هـ /17 م[2].

لم يتوقف جزء من العالم عن ممارسة الكفر أو عبادة الأصنام إلا عندما بلغته الديانات الثلاث. وإلى منتصف القرن 19 م، لم تصل عقيدة التوحيد إلى الصين وإفريقيا كنتيجة للتطور العقلي، لكن بفعل المبشرين المسيحيين والوعاظ المسلمين. والإنجيل الذي نقل خفية بفعل المبشرين البروتستانتيين إلى المجتمع الصيني، هو الذي ولد تلك الحركة الدينية، التي بدت آنذاك، في نظر "رينان"، وكأنها تتجه إلى نوع من الإسلام. وفي القارة الإفريقية، ينطلق الوعظ والإرشاد الإسلامي من القاهرة ومسقط، ليجوب القارة من أقصاها إلى أقصاها محدثا تطورا مذهلا، في وقت بدأت تبرز ما يمكن تسميته بديانة الاعتقاد في الطبيعة[3] (La Religion Naturelle)، والتي أضحت تلقن بغير حق [4].

نشأ علم الكلام[5] من احتكاك العرب بالمدارس الفلسفية الإغريقية. وقد منحت هذه المدارس للفرق الإسلامية المنشقة أسلحة ضد كلام أهل السنة، واضطر أهل السنة

---

(1) – **نفس المصدر**، ص: 172.

(2) – **نفس المصدر**، ص: 180-182.

(3) – محمد عبده (الشيخ)، **جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين**، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، د. ت.

(4) – - CHODZKO, "Le déisme des Wahhabis", J. A., 1848, **op. Cité**, P : 215.

(5) – مزيد من التوسع في موضوع علم الكلام لدى المسلمين، انظر:

– محمود صبحي، **في علم الكلام**، **مصدر سابق**.

من جهتهم، إلى استعمال الفلسفة للدفاع عن تفسير القرآن. مما ولد فلسفة دينية مشابهة لسكولاستيكية[1] أوربا العصور الوسطى.

وقد لاحظ المستشرقون، من خلال علاقات الإرساليات التبشيرية المسيحية مع المسلمين المتنورين، وكذلك من خلال قوائم الكتب التي تطبع في القاهرة والقسطنطينية لفائدة مدارس التعليم، الحدة والحساسية التي يدرس بها خليط من الجدل والكلام. وهكذا فقد كان يناقش في منتصف القرن 19 م في دمشق ودلهي، الوجود والعدم، الجوهر والسببية التي كانت تناقش في باريس، منذ خمسة قرون [2].

كانت حاجة المستشرقين لعلم الكلام ملحة، أكثر من العلوم الأخرى، بغرض فهم وتفسير وتعليل نصوص آداب الشرق، وكذلك فهم الفرق المسيحية وتاريخ الديانات وما يطرأ عليها من هجوم أو دفاع في معارك متجددة ومتنوعة. من هنا يتأتى الاستنجاد بعلم الكلام، الذي يقتضي دراسة تاريخ الشرق القديم، ونشر الكتب المقدسة والأعمال اللغوية الواسعة والعميقة، وهي وسائل لا يمكن أن يستغني عنها لا علم الكلام ولا التاريخ ولا السياسة [3].

وعادة ما يحدث، بعد وفاة المبشر بديانة ما، أن صحابته يبذلون جهدا لجمع وضبط ذكرياتهم معه وتسجيلها باستقصاء وتحر وتعليم وإرشاد لأن كلام المعلم سيشكل لاحقا قاعدة للدين والعقيدة. وقد تصرف أتباع الديانات بطرق مختلفة، حسب الأزمنة وعادات وعبقريات الشعوب. وهكذا فقد عرف المستشرقون بالتقريب كيف ضبط وسجل أتباع "ساكياموني"[4] (Sakyamouni) مذهب أو عقيدة المعلم

---

(1) - انظر تعريفا للسكولاستيكية، ضمن **التمهيد**، ص: 20.

(2) - - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 118.

(3) - - Rapport annuel, J. A., 1860, **op. Cité**, P : 37-38.

(4) - تذهب تقاليد الفكر والممارسة المرتبطة بالسكياموني، إلى أن البوذا قد عاش في القرن 5 /6 ق.م. ويشار إليه أحيانا باسم عشيرته غوتاما. وتدل التقاليد التي تؤدي إلى التبصر في البودغايا ورحلاته التالية في شمال الهند كواحد من الفلاسفة الهائمين الزاهدين في يومها. وتضمنت تعاليمه الحقائق النبيلة على نحو ثلاثي: الأخلاق، التأمل والحكمة. انظر:

- **المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق** والطوائف والنحل في العالم منذ فجر التاريخ حتى العصر الحالي، تعريب وتصنيف وتقديم د./ سهيل زكار، ج 1، 201-202.

في مجمعهم الديني الأول، بعد وفاة "بوذا"[1] (Bouddha)، غير أنه، وعلى العموم، فإن ذكريات هذه الوقائع ضاعت، الأمر الذي دفع المستشرقين لمعرفة السبب في وجود التفاصيل العديدة والمعلومات الدقيقة التي بحوزهم حول ضبط الحديث والسنة النبوية لدى المسلمين[2]. فكان أن وقفوا على السبب، والمتمثل في علم الجرح والتعديل[3].

وما زاد المستشرقين شغفا بعلم الحديث، ما انتهى إلى علمهم، أن ليس هناك في التأريخ لأصول الإسلام وتطور عقيدهم أهم، بعد القرآن الكريم، من الحديث الشريف. كما أن المستشرقين الفرنسيين لم يعثروا لدى من جاؤوا بالديانات من الأنبياء، على مؤسسة مماثلة، لما تكون بعد وفاة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، ذات شراهة ونهم في جمع جل أقوال وأفعال[4] وتقريرات المشرع في الدين الإسلامي.

انتهى إلى اعتقاد المستشرقين أنه بعد وفاة النبي محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، اشتغل القسم الأوفر حظا من المسلمين في العلم والعقل بجمع ذكريات السنة النبوية وتدوين أقوال النبي. وقد وقف المستشرقون على بعض من أكثر الصحابة حميمية لمحمد، وهم يمتنعون عن نقل ما سمعوه خوفا من الخطأ ولو بكلمة واحدة، لأنهم يقترفون بذلك محرما، وفي نفس الأثناء يدلي الأغلب منهم بذكرياته ويحفظها عن ظهر قلب للآخرين، ويجيزونهم تواترها تحت ضمانتهم. وبهذه الكيفية بدأ يتجمع فيض من الأحاديث[5].

وقد كان لبعض المذاهب السياسية دور في تزييف أو وضع قسم من الأحاديث لأغراض ذاتية. وبلغ الاضطراب والخلل والريبة حدا، دفع علماء المسلمين إلى وضع نوع من النقد، ومحاولة إيجاد قانون لتصحيح وتمحيص وتأصيل الأحاديث، وإخضاع الكم الهائل منها ضمن السيرة النبوية بغثها وسمينها، فنشأ بذلك علم الجرح والتعديل.

---

[1] – انظر عن بوذا والبوذية: **موسوعة الأديان في العالم**، الديانات القديمة، بيروت، د. ت.، ص ص: 173-215.

[2] - Rapport annuel, J. A., 1858, **op. Cité**, P : 26.

[3] – انظر قائمة بعناوين كتب تتعلق بهذا العلم ضمن **المبحث السابق**، ص: 184(الهامش).

[4] - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 31.

[5] - Rapport annuel, J. A., 1858, **op. Cité**, P : 126-127.

فلما اضمحل كل الجيل المعاصر للنبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ من الصحابة، ولم يعد بالوسع أن يظهر حديث واحد صحيحا، وجد المسلمون أنفسهم أمام كم هائل من القصص يرويها أناس بدرجات من الصدق، في ظل المنافع السلطوية، والطموحات التي مارست تأثيرها الكبير على العقول من أجل التشكيك في بواعث ودوافع ومصداقية المحدثين. فكان عليهم الاختيار والفرز والتمييز، وإقامة قواعد لهذا الغرض، مستقلة عن محتوى الحديث لكي لا يترك للطامحين وقتذاك الاختيار بين قاعدة الشريعة وقاعدة العقيدة، فعزموا على إخضاع كل حديث إلى حكم، حسب السند أو سلسلة رواية الحديث التي يبذل فيها الوسع لتحديد درجة الصدق. وحينما يكون السند حسب الأصول المطلوبة، وتتضمن كل سلسلة شهود محدثين موثوقا فيهم، يقبل الحديث، فيما يرفض في حالة ما إذا كان شكل الإسناد غير قياسي، أي شاذا أو عندما يتخلله نقص أو فجوة أو حلقات مشكوك فيها ضمن سلسلة الرواة.

فكان أن شكلوا قانونا يعتمد على مكانة وسمعة وشهرة وصدق أول راو لكل حديث، ولذلك فإن الرواة الأوائل مضبوطة أسماؤهم ومتفق عليهم، فإذا حدث وأن الراوي الثاني الناقل للحديث بالترتيب لا يشك فيه فإن الحديث يقبل، وهكذا.

ولما كان الإسلام لا يعرف "رجال دين" خلافا لما عند المسيحيين، فلا يمارس هذا النقد من مجمع أو سلطة دينية، ولكن من علماء وفي مدارس، بواسطة النقاش الحر وبالثقة التي تمكن بعض الأساتذة أن يستلهموها بضمائرهم وعلمهم وبصائرهم [1].

ساهمت هذه القواعد والقوانين في إطار علم الجرح والتعديل في إلغاء جزء كبير من الأحاديث المروية، ولكنها لا تعطي ضمانة حقيقية لصحة المقبول أو خطأ المرفوض. ومع ذلك فإن القواعد والقوانين، ساهمت في جمع أقوال وأفعال النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، مهما كانت قيمتها وأهميتها.

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 31.

جمعت الأحاديث بواسطة الحفظ أولا، ثم بالتعليم والتلقين الشفهي، ثم في نهاية القرن الأول الهجري، ولاسيما بعده، تم تدوينها من البعض في شكل حكايات صغيرة أو سيرة أو ترجمة حياة أو غيرها [1].

شكل حفظ القرآن الكريم ودراسته، ودراسة السيرة النبوية أول تعليم أقيم وانتشر في أوساط المسلمين. ولما تطور علم الكلام وعلوم الشريعة (الفقه والأصول) والتاريخ وعلم الرياضيات، طبق عليهم المنهج الذي ابتكره رجال الحديث (الجرح والتعديل)، ثم إن كل تعليم أخذ في منهجه شكل الحديث والسيرة. وخلال بضعة قرون ظل كل علم يدرس شفهيا ويحفظ عن ظهر قلب من المريدين. وكان الأساتذة يجيزون النابغين من حفاظ الحديث إجازة مكتوبة تمنحهم حق التدريس، باسم الأستاذ المانح للإجازة وبضمانة منه. وبقي الأمر كذلك حتى القرن الثالث والرابع الهجريين، حيث بدأ التعليم التقليدي لعلم الحديث ينحو نحو الكتابة، وكان ذلك حين بدأت طبقة العلماء تكبر عددا وتأثيرا، وبدأ الإحساس والرغبة في المفاضلة بين العلماء، لكن دون أن يتوقف التلقين الشفهي ومنح الإجازات، رغم العدد المتزايد للمؤلفات[2].

هناك من المحدثين من أجاز نحوا من 70 ألف طالب في حياته. وقد ذكر هذا الرقم باستغراب في الجلسة السنوية العامة للجمعية والمجلة، وعلق المقرر باستحالة قيام معشر الأوربيين بجهد مماثل، بحجة أن للأوربيين ذاكرة شاردة، متعبة بتنوع القراءات وسرعتها[3].

وكان الأساتذة الأكثر شهرة يقتصرون في تعليمهم على ما صنفوه في مجال الحديث مما يعتقدون صحته. ويعتبر مصنف البخاري أهم الكتب الستة الصحاح التي اكتسبت نفوذا خاصا، وهو ليس أقدمها ولكنه الأكثر شهرة واحتراما، لاسيما في بلاد المغرب. وجامعه هو الإمام أبو عبد الله البخاري من مواليد "بوخارى" عام

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1858, **op. Cité**, P : 127.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 23.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 34.

194 هـ /809 م. قضى حياته في البحث والتدقيق وتعليم الحديث. وقد ظل طوال 16 سنة ينتقي السبعة أو الثمانية آلاف حديث من بين 600 ألف التي يعرفها، وأدى ذلك بعلم وضمير حي إلى الحد الذي اكتسب فيه مصنفه نفوذ كتاب شرعي، إذ لا يكاد يشك مسلم في حديث تبناه البخاري[1].

وقد اختار مستشرقون الخوض في بعض النواحي من شخص النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، كالأزمة التي كانت تلم به أحيانا، على حد زعمهم، والتي من أعراضها "الارتعاش والضعف"، والتي حملت بعض الكتاب المسيحيين على الاعتقاد أنه عرضة لمرض الصرع (Epilepsie)، وما هي في الحقيقة إلا الحالة التي ترافق نزول الوحي، قال زيد بن ثابت: "حينما يترل الوحي على النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ يصير مثقلا..." [2].

كما أثار البعض جملة من القضايا الأخرى كحادثة الإفك [3]، والسحر والرقى[4]...الخ، ولكنهم انقسموا حولها بين مكتف بنقل نصوص السيرة، لاسيما ابن اسحق وابن هشام، وبين مستغل لها للتعبير عن نزوات ذاتية وتقويل النصوص وتأويلها[5]، بغير موضوعية ولا حياد. كما أن ما ذهب إليه الفريق الثاني هو تكرار أطروحات سابقة لكتّاب سيأتي ذكرهم في المبحث اللاحق، ففقدت بذلك الكثير من الأنصار في أوساط أجيال ما بعد الاستنارة، ناهيك عن المستشرقين.

كان الهدف الأساسي لجل المستشرقين الذين ألفوا في حياة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، هو دراسة عقلية وذهنية شخصه، بغرض كشف أصول أفكاره ودوافعها، قصد الوقوف على التأثيرات التي مورست عليه، والتغيرات التي طرأت على الوسائل التي

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 34.

(2) - G. WEIL, "Sur un fait relatif à Mahomet", J. A., 1842, **op. Cité,** P :110.

(3) - DE PERCEVAL, "Le combat de Bedr", J. A., 1839, **op. Cité,** P : 139-140.

(4) - WEIL, "Sur un fait relatif à Mahomet", J. A., 1842, **op. Cité**, 1842, P: 109-110.

(5) - **نفس المصدر السابق**، ص: 109-110.

استعملها للنجاح فيما كان يدعو إليه[1]، وكانت غايتهم في ذلك، إلى جانب إشباع فضولهم العلمي، إن لم يكن نفي نبوة النبي ورسالته، فعلى الأقل التشكيك فيها. ومع ذلك فقد وجدنا من المستشرقين من صار ينعت محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ بالنبي تارة والرسول تارة أخرى، ومن الممكن أن يكون الوفاء للنصوص الأصلية ومقتضيات الأمانة العلمية على الأقل هو الذي يعلل هذا الاستعمال حتى في الجلسات العامة للجمعية الآسيوية الفرنسية، وتدوينه في التقرير السنوي الرسمي، أحيانا. وللتذكير فإن المسلمين أفاضوا في البرهنة على نبوة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ من ذلك، على سبيل المثال لا الحصر، أن أبا بكر أحمد بن الحسين البيهقي[2] (384 – 458 هـ/994 – 1066 م) ألف كتابا في الموضوع سماه "دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة"[3]، هو في سبعة مجلدات، قال فيه الحافظ ابن كثير: "دلائل النبوة لأبي بكر البيهقي من عيون ما صنف في السيرة والشمائل"[4].

اعتبر المستشرقون ما توصلوا إليه من تطور، خلال الستينيات، في معرفة حياة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ وزمانه أمرا مذهلا. وقد زعموا أنهم كونوا فكرة كافية عن القوم الذين نشأ في وسطهم، وكذلك الحالة الاجتماعية والسياسية التي عاش في ظلها. ولاحظوا تحديدا، فيما يخص شخص النبي، ذلك التطور التدريجي المثابر لعقل

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 27.

(2) - **البيهقي**: أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر: من أئمة الحديث. ولد في حسروجرد (من قرى بيهق، بنيسابور)، ونشأ في بيهق ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما، وعاد إلى نيسابور فلم يزل فيها إلى أن مات. صنف زهاء ألف جزء، منها: "السنن الكبرى" في 10 مجلدات، "السنن الصغرى"، "المعارف"، "الأسماء والصفات"، "دلائل النبوة"، "الآداب" في الحديث، "الترغيب والترهيب"، "المبسوط"، "الجامع المصنف في شعب الإيمان"، "مناقب الإمام الشافعي"، "معرفة السنن والآثار"، "القراءة خلف الإمام"، "البعث والنشور"، "الاعتقاد"، "فضائل الصحابة" وبين هذه الكتب ما هو في 10 مجلدات كالمبسوط.

- الزركلي، الأعلام، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 116.

(3) - أبو بكر البيهقي، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، 7 أجزاء، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985. (وثق أصوله وخرج حديثه وعلق عليه الدكتور عبد المعطي قلعجي. يطبع الكتاب لأول مرة عن عشر نسخ خطية).

(4) - **نفس المصدر السابق**، ج 1، ص: 7.

بطيء، وضمير حي، نجح بصعوبة، في نظرهم، في إعداد الفكرة الوحيدة التي كانت تملؤه، وإيجاد العبارات التي تستطيع تحقيقها، ودمج المعارف التي تحصل عليها[1].

وهكذا، فقد شكلت السيرة النبوية الدراسات الأكثر فضولية، واعتبرت مادتها التاريخية فريدة من نوعها، لاسيما وأنها لم تبرز وتحفظ إلا في ظروف خاصة، كان يمر بها قوم أميون هزتهم السيرة بكل البواعث المثيرة للطبيعة البشرية. كما وأن من شأن السير أيضا، توفير نصيب من المعطيات التاريخية التي تشكل عاملا مهما، لتثبيت ورسم كرونولوجيا الأحداث وتحري الأحاديث لأنها تأتي من مصادر مختلفة عن الأحاديث المألوفة [2].

وقد ذهب بعض المستشرقين إلى ما ذهبت إليه الشيعة، فيما يتعلق بعدم تعيين النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ خلفا له قبل وفاته، وأن ذلك يعني أن الخلافة ستؤول طبيعيا إلى الإمام علي (رضي الله عنه)...الخ [3].

يعتبر القرآن الكريم والسنة النبوية المصدرين الأساسيين للتشريع الإسلامي، لكن الفقهاء المسلمين يرون أن قواعد التشريع أو الأدلة الشرعية أربعة ينبغي على الفقهاء والأصوليين معرفتها وهي: القرآن [4]، والسنة [5]، والإجماع أي معرفة نقاط القواعد التي أجمع الخلفاء الأوائل على قبولها أو رفضها، والقياس أي نصوص الأحكام التي لا تخرج عن روح مبادئ القرآن والسنة مما لم يتم البت فيه [6].

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 32.

(2) - نفس المصدر السابق، ص: 36-37.

(3) - WORMS, "Recherches sur la constitution", J. A., 1842, **op. Cité**, P : 239- 240.

(4) - نفس المصدر السابق، ص: 236-238.

- KAZEM BEG, " Notice sur la marche et les progrès…", J. A., 1850 **op. Cité**, P : 161-162.

(5) - WORMS, "Recherche sur la constitution…", **J. A.**, 1842, **op. Cité**, P : 238-239.

(6) - نفس المصدر السابق، ص : 236.

ظل المسلمون إلى منتصف القرن الهجري الثاني، يفتقرون إلى تدريس علم بعينه تدريسا تلقائيا و لم يكن المسلمون -في فروع معارفهم العلمية المختلفة- يتوفرون على كتب تساعدهم على التعليم. غير أن الأمور لم تلبث أن تغيرت، إذ ظهر إلى الوجود النعمان بن ثابت المعروف بأبي حنيفة أحد كبار المؤسسين لأصول الفقه الإسلامي[1]. كانت المعارف إلى هذا العهد، المتمثلة في تفسير القرآن وجمع الحديث والفقه، يقتصر التعليم فيها على الحفظ عن ظهر قلب، مما يقتضي من الرجل كي يصير عالما في الأصول والفقه، أن يتوفر على مخيلة وذاكرة قويتين. وكثير من العلماء وقتذاك كانوا يحفظون القرآن كاملا عن ظهر قلب مع كل تفسيرات النبي وفهوم الصحابة، وكل الأحاديث بشروحها، وكل الأحكام المستمدة من القرآن والسنة وعناصر أصول الفقه الأخرى كالاجتهاد والقياس...الخ. فهؤلاء العلماء يتمتعون بحق الاجتهاد، وينقلون اجتهادهم إلى تلامذتهم مشافهة. ولعل من ابرز مجتهدي نهاية القرن الهجري الأول وبداية الثاني، زرارة بن أوفى (ت 93 هـ) وسعيد بن المسيب[2] وأبو بكر بن عبدالرحمن(3) وعروة بن الزبير(4) وإبراهيم النخعي(5) وعبيد الله بن

---

(1) - A.J.DU CAURROY, Législation Hanéfi, J.A., 4^{me}, série, T :12, 1848, P: 5-44.

(2) - أبو محمد **سعيد بن المسيب** بن حَزْن بن أبي وهب المخزومي القرشي (13 – 94 هـ /634 م)، سيد التابعين وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع ين الحديث والفقه والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءا. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمي رواية عمر، توفي بالمدينة. – الزركلي، الأعلام، ج 3، **مصدر سابق**، ص: 102

(3) - **أبو بكر بن عبد الرحمن** بن الحارث بن هشام المخزومي القرشي، ولد في خلافة عمر، وتوفي في المدينة عام (94 هـ /713 م). أحد الفقهاء السبعة بالمدينة (والبقية: سعيد بن المسيب، وعروة، والقاسم، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار). كان من سادات التابعين، ويلقب براهب قريش. وكان مكفوفا. – **نفس المصدر السابق**، ج 2، ص: 65.

(4) - أبو عبد الله، **عروة بن الزبير** بن العوام الأسدي القرشي (22 – 93 هـ /643 – 712 م). أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. كان عالما بالدين، صالحا، كريما، لم يدخل في شيء من الفتن. وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر فتزوج وأقام بها سبع سنين. وعاد إلى المدينة فتوفي فيها. وهو أخو عبد الله بن الزبير لأبيه وأمه. و"بئر عروة" بالمدينة منسوبة إليه. – **نفس المصدر السابق**، ج 4، ص: 226.

(5) - إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود، أبو عمران **النخعي** (46 – 96 هـ /666 – 715 م)، من مذحج: من أكابر التابعين صلاحا وصدق رواية وحفظا للحديث. من أهل الكوفة. مات مختفيا من الحجاج. قال فيه الصلاح الصفدي: فقيه العراق، كان إماما مجتهدا له مذهب. ولما بلغ الشعبي موته قال: والله ما ترك بعده مثله. – **نفس المصدر السابق**، ج 1، ص: 80.

عبد الله(1) وخارجة بن زيد[2] وعامر الشعبي(3) وحماد(4) (كذا) (هناك عدة أسماء حماد رواة وثقاة وغيرهم) وسليمان بن يسار(5) والحسن البصري(6) ونافع (7) وغيرهم(8).

ولما بدأ التدوين وكتابة المصنفات في مختلف فروع الشريعة، نبغ سبعة علماء مجتهدين، في نفس الوقت ولكنهم في أماكن مختلفة، في تفسير القرآن وعلم الحديث

---

(1) - أبو عبد الله، **عبيد الله بن عتبة** بن مسعود الهذلي (توفي 98 هـ /716 م). مفتي المدينة، وأحد الفقهاء السبعة فيها. من أعلام التابعين. هو مؤدب الخليفة عمر بن عبد العزيز. قال ابن سعد: كان ثقة، عالما فقيها، كثير الحديث والعلم بالشعر. وقد ذهب بصره. مات بالمدينة. **نفس المصدر السابق**، ج 4، ص: 195.

(2) - **خارجة بن زيد** بن ثابت الأنصاري، أبو زيد (29 – 99 هـ /650 – 717 م). من بني النجار، أحد الفقهاء السبعة في المدينة، أدرك زمان عثمان وتوفي بالمدينة. - **نفس المصدر السابق**، ج 2، ص: 293.

(3) - **عامر بن شراحيل** بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري، أبو عمران (19 – 103 هـ /640 – 721 م).
محدث، راوية، فقيه وشاعر. ولد ونشأ بالكوفة. استقضاه الخليفة عمر بن عبد العزيز، وتوفي فجأة بالكوفة. له: الكفاية في العبادة والطاعة. - كحالة، معجم المؤلفين، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 54.

(4) - **حماد بن زيد** بن درهم الأزدي الجهضمي البصري، أبو إسماعيل (98 – 179 هـ /717 – 795 م). يعرف بالأزرق. أصله من سبي سجستان، ومولده ووفاته في البصرة. من حفاظ الحديث المجودين. يحفظ أربعة آلاف حديث. شيخ العراق في عصره. خرج حديثه الأئمة الستة. طرأ عليه العمى.
- الزركلي، الأعلام، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 271.

(5) - أبو أيوب، **سليمان بن يسار** (34 – 108 هـ /654 – 725 م)، ولد في خلافة عثمان، وكان أبوه فارسيا. مولى أم ميمونة أم المؤمنين. أحد الفقهاء السبعة بالمدينة. ثقة، عالم كثير الحديث.
- **نفس المصدر السابق**، ج 3، ص: 138.

(6) - **الحسن بن يسار البصرى**، أبو سعيد (21 – 110 هـ /642 – 728 م). ولد بالمدينة، وشب في كنف علي بن أبي طالب، واستكتبه الربيع بن زياد والي خراسان في عهد معاوية، وسكن البصرة. تابعي، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة في زمنه. وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. عظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، يخاف في الحق لومة. كان غاية في الفصاحة، تتصبب الحكمة من فيه. وله مع الحجاج بن يوسف مواقف. ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إليه: إني قد ابتليت بهذا الأمر فانظر لي أعوانا يعينوني عليه، فأجابه الحسن: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستعن بالله. توفي بالبصرة. له كتاب في "فضائل مكة"، ولإحسان عباس كتاب "الحسن البصري". - **نفس المصدر السابق**، ج 2، ص: 226.

(7) - **نافع** المدني، أبو عبد الله (توفي 117 هـ /735 م)، ديلمي الأصل، مجهول النسب. نشأ في المدينة. من أئمة التابعين بالمدينة. كان علامة في الفقه، متفقا على رياسته، كثير الرواية للحديث، ثقة، لا يعرف له خطأ في جميع ما رواه. أرسله عمر بن عبد العزيز إلى مصر ليعلم أهلها السنن.
- **نفس المصدر السابق**، ج 8، ص: 5.

(8) - KAZEM BEG, "Notice sur la marche et les progrès…", J.A., 1850, **op. Cité**, P : 166-167.

والأصول منهم: ابن جريج[1] بمكة، ومالك[2] بالمدينة، والأوزاعي[3] بدمشق، وابن مسلمه[4] بالبصرة، ومعمار باليمن، وسفيان الثوري وأبو حنيفة بالكوفة، بالإضافة إلى الربيع بن صباح بالرَّيْ (Réi)، وابن شهاب[5] وابن مبارك[6] بخراسان[7].

في هذا العهد إذن وبعده بدأ عصر من الأنوار ينتشر ويتوزع على المشرق بشكل صارخ ومثير، يرفع هذه البلاد فوق غيرها من بلاد العالم الأخرى، وكان قد انقضى زمن على قوة الخلفاء الذين كانوا قد نشروا العقيدة ولغة العرب خارج آسيا.

وقد عرف المشرق بروز عدة فرق ومذاهب متصارعة، وكان السبب في ظهورها طموح أصحابها أكثر من تعصبهم. ولم يكن بالوسع خوض الصراع إلا بقوة إقناع العلماء بعضهم بعضا، أي بالمجادلة التي كانت تتطلب معرفة عميقة باللغة العربية الأمر الذي ساهم كثيرا في تطورها[8].

ولعل الذي يهمنا أكثر في سياق الموضوع، هي المذاهب أو المدارس الفقهية على الخصوص:

---

[1] - عبد الملك بن **عبد العزيز بن جريج** (80 - 150 هـ /699 - 767 م). فقيه الحرم المكي. كان إمام أهل الحجاز في عصره. وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكة. رومي الأصل، من موالي قريش. مكي المولد والوفاة. قال الذهبي: كان ثبتا، لكنه يدلس.

- الزركلي، الأعلام، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 160.

[2] - انظر تعريفا له ضمن هامش الصفحة الموالية من هذا البحث: (211).

[3] ـــ عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، الدمشقي (88 - 157 هـ /707 - 774 م). من فقهاء المحدثين. ولد ببغداد وأقام بدمشق، ثم تحول إلى بيروت فسكنها مرابط إلى أن توفي بها. من آثاره: كتاب السنن في الفقه، والمسائل في الفقه.

[4] - **بشر بن مسلمة** الكوفي (كان حيا قبل 148 هـ /765 م). من رجال الشيعة. روى عن جعفر الصادق.

- كحالة، معجم المؤلفين، ج 3، **مصدر سابق**، ص: 46.

[5] - إبراهيم بن **محمد بن شهاب**، أبو الطيب (توفي بعد 350 هـ /961 م). من علماء الكلام، من أهل بغداد. له: "مجالس الفقهاء ومناظراتهم". - **نفس المصدر السابق**، ج 1، ص: 61.

[6] - أبو عبد الرحمن، عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي مولاهم، المروزي، التركي الأب، الخوارزمي الأم. عالم، فقيه، محدث، مفسر، مؤرخ، نحوي، لغوي وصوفي. رحل رحلات شاسعة، وتوفي بهيت (على الفرات فوق الأنبار). من تصانيفه الكثيرة: كتاب الزهد، السنن في الفقه، كتاب التفسير، التأريخ، البر والصلة. - **نفس المصدر السابق**، ج 6، ص: 106.

[7] - -KAZEM BEG, "Notice sur la marche et les progrès…", J.A., 1850, **op. Cité**, P : 167-168.

[8] - **نفس المصدر السابق**، ص: 168-169.

وإن شئت أركان الشريعة فاستمع   وأحفظ لتعرفهم إذا كنت سامعا

محمد والنعمان، مالك وأحـــمـــد   وسفيان واذكر بعد داود تابعـــا

وكان أبرز زعمائها، النعمان بن ثابت المعروف بأبي حنيفة[1] (80 – 150 هـــ /699 –767 م) ويلقب أيضا الإمام الأعظم [2]، وسفيان الثـــوري [3] (97 - 161 هـــ /716 – 777 م)، والإمام مالك[4] (93 - 179 هـــ/812 - 795 م)، والإمـــام محمد الشافعي[5] (150 - 204 هـــ/761 – 820 م)،

---

(1) – النعمان بن ثابت، التيمي الكوفي، **أبو حنيفة**: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل أصله من أبناء فارس. ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء. من تصانيفه: "مسند أبي حنيفة" في الحديث، و"المخارج لأبي حنيفة" في الفقه، وتنسب إليه رسالة "الفقه الأكبر لأبي حنيفة". ولغيره عنه عدة مؤلفات منها: "أخبار أبي حنيفة" لابن عقدة أحمد بن محمد، ومثله لابن همام محمد بن عبد الله الشيباني، و"قلائد عقود الدرر في مناقب الإمام أبي حنيفة النعمان" لأبي القاسم بن عبد العليم، وللموفق بن أحمد المكي "مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة"، ومثله لإبن بزار الكردي. وللشيخ محمد أبي زهرة "أبو حنيفة: حياته وعصره وآراؤه وفقهه"، ولسيد عفيفي "حياة الإمام أبي حنيفة"، ولعبد الحليم الجندي "أبو حنيفة".

– الزركلي، الأعلام، ج 8، **مصدر سابق**، ص: 36. وكذلك: كحالة، معجم المؤلفين، ج 13، **مصدر سابق**، ص: 104.

(2) – انظر حياة أبي حنيفة: - WORMS, "Recherche sur la propriété", J. A., 1842, **pp. Cité**, P : 243-244.

(3) – سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الكوفي. محدث وفقيه. توفي بالبصرة. له عدة كتب: الجامع الكبير، الجامع الصغير، الفرائض، رسالة إلى عباد بن عباد الأرسوفي.

– كحالة، **معجم المؤلفين**، مصدر سابق، ج 4، ص: 234.

(4) – **مالك بن أنس** بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله: إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تنسب المالكية. مولده ووفاته في المدينة. كان صلبا في دينه، بعيدا عن الأمراء والملوك، وشي به إلى جعفر عم المنصور العباسي، فضربه سياطا انخلعت لها كتفه. ووجه إليه الرشيد العباسي ليأتيه فيحدثه، فقال: العلم يؤتى، فقصد الرشيد مترله. وسأله المنصور أن يضع كتابا للناس يحملهم على العمل به، فصنف "الموطأ". وله رسالة في "الوعظ" وكتاب في "المسائل" ورسالة في الرد على القدرية" وكتاب في "النجوم" و"تفسير غريب القرآن". وللجلال الدين السيوطي "تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك"، ولمحمد أبي زهرة كتاب "مالك بن أنس: حياته، عصره"، ولأمين الخولي "ترجمة محررة لمالك بن أنس". – الزركلي، الأعلام، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 257-258. وكذلك: كحالة، معجم المؤلفين، ج 8، **مصدر سابق**، ص: 168.

(5) – **محمد بن إدريس** بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبد الله: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة (بفلسطين) وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين. وزار بغداد مرتين. وقصد مصر سنة 199 هـــ فتوفي بها، وقبره معروف في القاهرة. قال المبرد: كان الشافعي أشعر الناس وأدبهم-

والإمام أحمد بن حنبل[1] (164 - 241 هـ/780 - 855 م)، والإمام داود الظاهري (توفي عام 270 هـ/883 م)[2].

والجدير بالملاحظة أن نجاح كل هذه المدارس يتوقف على تأثير عناصرها ونشاطهم ثم تلامذتهم فيما بعد، ومن هذا المنطلق يصير ترتيب المدارس كالآتي: مدرسة الأحناف، فالشافعية، فالحنابلة، فالمالكية. وقد ظلت هذه المدارس الأربعة تشكل المذاهب السنية الأساسية حتى القرن 13 هـ/ 19 م. أما المدرستان الثورية والظاهرية فقد اندمجتا كليا تقريبا في غيرهما، بحيث لم يعد لهما في القرن 8 هـ/14م، غير عدد قليل من الأتباع[3].

تقسم الشريعة الإسلامية أمم وشعوب الأرض -كما وقف عليها المستشرقون في مصادرها ونشروها في المجلة الآسيوية- إلى هيئتين أو قسمين "سياسيين" كبيرين هما:

=وأعرفهم بالفقه والقراءات. برع في الشعر واللغة وأيام العرب، ثم أقبل على الفقه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنة. وكان ذكيا مفرطا له تصانيف كثيرة أشهرها كتاب "الأم" في الفقه، سبع مجلدات، جمعه البويطي وبوبه البيع بن سليمان، ومن كتبه "المسند" في الحديث، و"أحكام القرآن" و"السنن" و"الرسالة" في أصول الفقه، و"اختلاف الحديث" و"السبق والرمي" و"فضائل قريش" و"أدب القاضي" و"المواريث". ولغيره فيه كتب أيضا منها: لابن حجر العسقلاني "توالي التأسيس بمعالي بن إدريس" في سيرته، وللحافظ عبد الرعوف المناوي كتاب "مناقب الإمام الشافعي" في سيرته، وللشيخ مصطفى عبد الرازق رسالة "الإمام الشافعي" في سيرته، ولحسين الرفاعي "تاريخ الإمام الشافعي"، ولمحمد أبي زهرة كتاب "الشافعي".

- **نفس المصدر السابق**، ج 6، ص: 26.

(1) - أحمد بن **محمد بن حنبل** أبو عبد الله ، الشيباني الوائلي، إمام المذهب الحنبلي وأحد الأئمة الأربعة. أصله من مرو، كان أبوه والي سرخس. ولد ببغداد، ونشأ منكبا على العلم، وسافر في سبيله أسفارا كبيرة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والثغور والمغرب والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجبال والأطراف. من تصانيفه: "المسند" في 6 مجلدات، يحتوي على ثلاثين ألف حديث. وله كتب في "التاريخ"، و"الناسخ والمنسوخ"، و"الرد على الزنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن"، و"التفسير"، و"فضائل الصحابة"، و"المناسك"، و"الزهد"، و"الأشربة"، و"المسائل"، و"العلل والرجال". ومما صنف في سيرته: "مناقب الإمام أحمد" لابن الجوزي، و"ابن حنبل" لمحمد أبي زهرة المعاصر لنا. انظر: الزركلي، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 203.

(2) - KAZEM BEG, "Notice sur la marche et les progrès…",J.A., 1850, **op. Cité**, P : 170-171.

- انظر كذلك عن تاريخ التشريع الإسلامي وعن المذاهب والأئمة الأربعة:

- WORMS, "Recherche sur la propriété", **J. A.**, 1842, **op. Cité**, P : 239 et 243-242

(3) - KAZEM BEG, "Notice sur la marche et les progrès…" , J.A., 1850, **op. Cité**, P : 171-172.

المسلمون أو المحمديون أو المؤمنون من جهة، والكفار أو المشركون من جهة أخـــرى. كما يقسم العالم إلى دار إسلام ودار حرب، وأما الشعوب فإلى عرب وعجم [1].

أما شعوب البلاد الإسلامية، فتقسم من الوجهة السياسية إلى ثلاثة أقسام: هناك المواطنون المسلمون الذين ينتمي البعض منهم إلى الفئة الحاكمة أو الرعـــاة، والأغلبيـــة المتبقية إلى المحكومين أو الرعية، وهناك أهل الذمة الـــذين يـــدفعون الجزيـــة، وهنـــاك المستأمنون المقيمون مؤقتا في البلاد الإسلامية [2].

وأما من الوجهة الدينية، فتنقسم الشعوب الإسلامية إلى عدة أصناف: المسلمون بمن فيهم من سنة وشيعة، وأهل الكتاب بمن فيهم من يهود ونصارى، والمجوس من عبدة النار والأوثان، وأخيرا هناك المرتدون. وإذا أخذنا عامل الولادة والوضعية الطبيعية، فإما أن يكون الناس أحرارا أو عبيدا [3].

تنقسم مبادئ الفقه الإسلامي إلى شعائر دينية (Rites religieux)، ومدنيـــة أو سياسية (Civils ou Politique). أول هذين القسمين يتضمن مجمل المبادئ أو القواعد (Préceptes) التي لها علاقة بالأشكال الخارجية للدين، كالطهارة وأداء الصلاة والزكاة والحج...الخ. أما القسم الثاني فيتضمن المبادئ التي لها علاقة بالحالة المدنية والـــسياسية للمسلمين، كالجهاد ضد الكفار والفرق الخارجة على السلطة، وكل الشؤون المنبثقـــة عن السلطات المدنية.

تستمد مجمل مبادئ الفقه الإسلامي من أحكام القرآن والسنة النبوية، مما يجعلها فوق سلطة البشر، كما صنفها الأئمة الأوائل وقسموها حسب الأولوية والأهمية [4].

وكان الفقه الحنفي، وكذلك المالكي -وفق مصنف ســيدي خليـــل- أكثـــر المذاهب السنية استرعاء لاهتمام المستشرقين والساسة الفرنسيين أيضا.

---

(1) - WORMS, "Recherche sur ", **J. A.**, 3 ^me^ série, T : 14, 1842, P : 253- 254.

(2) - نفس المصدر السابق، ص: 254.

(3) - نفس المصدر السابق، ص: 255.

(4) - KAZEM BEG, "Notice sur la marche et les progrès…", J.A., 1850, **op. Cité**, P : 176-177.

أما الفقه الحنفي فقد اهتموا به كثيرا، كما أسلفنا، ولعل السبب في ذلك يعـــود لكونه أكثر المذاهب استجابة لحياة التمدن والاجتماع البشري ومنه العلاقـــات بـــين الأشخاص والجماعات. ومن دلائل الاهتمام أنهم ظلوا ينشرون منه أبوابـــا وفـــصولا بكاملها، في المجلة الآسيوية، على امتداد الفترة بين 1849-1853[1] ثم عـــام 1861-1862[2].

وأما الفقه المالكي، اعتمادا على مصنف سيدي خليل، الذي انتـــشر في بـــلاد المغرب والأندلس فكان الاهتمام به على امتداد فترة لا تقل عن العشرين سنة، لأغراض سياسية[3] على الخصوص كما سيأتي في المبحث اللاحق.

لقد جر "الفضول العلمي" جملة من رجال الاستشراق الفرنـــسي، أمثـــال: DE SACY، DE PERCEVAL، DE FREMERY، CHERBONNEAU، وغيرهم، إلى دراسة موضوع الانشقاق والمنشقين في تاريخ الخلافة الإسلامية، منذ عهدها الأول، واعتبروا ثورة المتنبئين -الذين أغوتهم السهولة التي بها "فرض" محمد ﴿صلى الله عليـــه وسلم﴾ عقيدته على قبائل بلاد العرب- بمثابة طرح للإسلام ثانية على بساط البحث. ومن الأحداث التي يشيرون إليها، اعتراف نجد واليمن واليمامة، بسلطة طليحـــة بـــن خويلد، والأسود الأنسي ومسيلمة الكذاب. فكان أن حث مالك بن نويرة أمير يربـــو،

---

(1) – وكذلك: - Législation Musulmane; Rite Hanéfi, J. A., 1849, **op. Cité/** -1850, PP : 6-519/ -1851, PP : 211-255 et 568-591. -1851, PP : 290-321/-1852,47 PP : 519-550/. -1853, PP : 39. -1853, PP : 471-528 , 1852

(2) – - BELIN, Etude sur la propriété foncière en pays Musulmans, Rite Hanéfi, **J. A.**, 1861, PP : 390-431 et 477-517/ -J. A., 1862, PP : 156-212 et 257-357.

(3) – - Rapport annuel, J. A., 1843, **op. Cité**, P : 507-508.

- Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 119-121.
- Rapport annuel, J. A., 1849, **op. Cité**, P : 29-30.
- Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 136.
- Procès Verbal oct.-nov. 1854, **J. A.**, 5 me série, T : 4, 1854, P : 432.
- Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 16-17.
- Procès Verbal, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 290.
- Rapport annuel, J. A., 1857, **op. Cité**, P : 12-13.
- Rapport annuel, J. A, 1858, **op. Cité**, P : 17-18.

قبائل الصحراء على رفض تأدية الزكاة والعشر لأبي بكر الصديق (رضـي الله عنـه)، ووقعت حروب الردة التي قمعت بشدة بقيادة خالد بن الوليد[1].

وكان عبد الله بن وهب، المعروف بابن السوداء السبئي، سببا في الثـورة علـى عثمان (رضي الله عنه)، وهو الذي سيظهر مجددا في عهد علي (رضي الله عنه)، واعتبر أول من ادعى أن محمدا ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ أوصى بالإمامة لعلي، وأن عليا سيعود إلى الدنيا بعد مقتله. ومن ابن سبأ هذا أخذت جل فرق الروافض أصلها، وإليه تعـود عقيدة اختفاء الإمام، وتناسخ الأرواح، ومسألة عـصمة الأئمـة...الخ[2] وينتـسب الكماليون إلى أبي الكامل الذي يصم الإمام علي (رضي الله عنه) بالكفر "لأنه لم يرفـع السلاح للدفاع عن حقوقه ضد الخلفاء الثلاثة الأوائل"[3].

وفوق هذا وذاك، تحول الإمام علي (رضي الله عنه) في حياتـه، إلى موضـوع إجلال من طائفة الشيعة الذين تبنوا –على حسابه– آراء مبالغا فيها، فلما علـم بهـا غضب عليهم، وأحرق كثيرا ممن كانوا يعتقدون بهذه المعتقدات المخالفة للصواب[4].

وفي هذه الفترة ظهر الخوارج أيضا، وهم يكفرون صاحب الخطيئة أو المعـصية ويجيزون الخروج على الإمام ومقاتلته. وطبقوا عقيدتهم هذه أول ما طبقوها مع الإمـام علي (رضي الله عنه)، حين رضي بالتحكيم لآبي موسى الأشعري، وعمرو بن العاص. وحاربهم الإمام علي وقضى على نحو من الأربعة آلاف بنهروان على ضفاف دجلة، ولم يخمد انشقاقهم، كما لم يهدأ بال من تبقى من الناجين منهم، حتى تمكن أحدهم مـن الانتقام لأصحابه بقتل الإمام علي بمسجد الكوفة، كما هو معلوم[5].

وفي حياة الصحابة (رضوان الله عليهم)، بدأ تعاطي عقيدة القدر، مما سيولد فيما بعد، مذهب أو فرقة المعتزلة، والفروع العديدة التي تفرعت عنها، وهم يتفقون علـى

---

(1) - CAUSSIN DE PERCEVAL, **Essai sur l'histoire des Arabes**, T:3, : 30 à313.

(2) - C. DE FREMERY, "Essai sur l'Histoire des Ismaéliens….", **J.A.**, 5me série, T 8, 1856, P : 355.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 355.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 355.

(5) - **نفس المصدر**، ص: 355.

العموم في تتريه الله عن الصفات، ويركزون على إبعاد كل ما من شأنه أن يمس بعقيدة التوحيد... وفي مقالاتهم أيضا، الاعتقاد بخلق القرآن...الخ[1].

ومع نهاية القرن الهجري الأول، تظهر فرقة الجهمية، نسبة إلى جهم بن صفوان الترمذي، الذي يرفض أي صفة لله، ويؤمن بخلق القرآن، وعدم رؤية الله يوم القيامة. وظهرت فكرة التجسيم في نهاية القرن الهجري الثاني، وصاحبها محمد بن كرام، ضد المعتزلة الذين يؤولون الصفات. وأما في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، فظهرت فرقة القرامطة، وامتازت بسرعة تطورها والنجاحات التي حققتها على حساب خلفاء بني العباس، بالرغم من أنها فرقة إسماعيلية[2].

كانت هذه إذن، أرضية الخلاف والانشقاق، وهي خلفيات لابد منها لفهم مجريات الأحداث والوقائع اللاحقة، إذ بدأت دينية، ولكنها سرعان ما طالت الحياة السياسية، وأدى التضييق على أصحابها في المشرق إلى انتقالهم أو انتقال أفكارهم إلى مناطق بعيدة عن الخلافة الإسلامية، فجاء إلى بلاد المغرب تارة بعض المنشقين، وتارة أخرى تبنى غيرهم أفكارهم، وشجعوا على شق عصى الطاعة على الخلافة ببغداد، أو على الولاة ببلاد المغرب.

---

(1) - نفس المصدر، ص: 354.

(2) - نفس المصدر، ص: 357.

3 - نظرة نقدية (منهجية النقد لدى المستشرقين ونقدها):

لقد نهل مستشرقو الجمعية والمجلة الفرنسية الآسيويتين، كما أسلفنا، من الأصول وأمهات المصادر الدينية، سواء من النصوص المقدسة كالقرآن الكريم والحديث الشريف، أو ما قام على أساسها من تفاسير وشروح وغيرها، أنجزها تارة فطاحل وأساطين الفكر الإسلامي، وأخرى فقهاء ومنتحلون، ومعلقون، أو كتاب حواشي وشراح.

وقد عملوا في ذلك كله بفكرهم الذي هو نتاج عصر الاستنارة، بالرأي والتفكير.

وكان من المستشرقين الفرنسيين، المستقيم النزيه، والمخلص الصادق. ولهم حججهم وذرائعهم، ومستلزماتهم ومقتضياتهم، وآراؤهم المخالفة والمعاكسة، ومذاهبهم ومناهجهم، وفق مقتضيات النقد الأوربي. فنقدوا باللوم والإعابة والانتقاد.

وهكذا، فقد غلب على أعمال المستشرقين، في المجال الديني، الفائدة والمنفعة، والتثقيف والتنوير، بآراء غير مغرضة تارة، وفكر ثابت وهمّ وانشغال، وآراء مسبقة ومتحيزة، تارة أخرى.

وقد بالغ بعضهم، وخرج آخرون عن اللياقة، وعن الأخلاق العلمية. والحقيقة، أن لهم زعما وادعاء وشذوذا، وكيدا وخديعة، وتحيزا ومحاباة وتغرضا، وانحيازا وتحاملا أحيانا، ورأيا مسبقا، غير مبني على استدلال صريح، واحتقار واستخفاف، وانفعال وهوى. فكان منهم الدجال، والخس الدنيء ومنهم من كان يرد ويطرح ويستبعد، كل ما يتعلق بالروحانيات، لاسيما الإسلامية منها، من عناية إلهية، ومعجزات وخوارق، وكرامات، وعلى رأسها ككل الوحي والتنزيل والرؤيا...الخ

وتجدر الملاحظة أن قراءة المستشرقين الفرنسيين لديانة بلاد المغرب العربي تم في نطاق انتمائه العربي-الإسلامي والشرقي. لكن وفق مقتضيات ووسائل النقد الذي توصل إليه الأوربيون في القرن 19 م، أي من منظور عصر الاستنارة، مما جعل أحكامهم على الأشخاص والمؤلفات والأفكار والمناهج، بقدر ما هي علمية، بحكم استفادتها من النهضة، لاسيما إحياء التراث الإغريقي-اليوناني-الروماني، بقدر ما هي

قاسية أحيانا، لأنها فاقت القدرات والإمكانيات. على أنه بقدر ما اتصف به هذا المنهج من قساوة وسلبيات أحيانا، في النظرة والتصور، والتعامل والتطرق، فإن من إيجابياته تفعيل الدين الإسلامي، من خلال إخضاعه لقراءة حديثة، على عيوبها...

* * *

شكك DE TASSY نفسه في صحة وأصالة الوثيقة التي نشرها بعنوان: "فصل غير معروف في القرآن"، مدعيا اقتناعه في ذلك بسكوت مؤلفي القرون الأولى للإسلام. واستبعد أن تكون "آيات" الوثيقة المشار إليها من القرآن الكريم، لأن أسباب قبولها غير كافية في نظره أيضا، وأسلوب عباراتها لا يتفق والأسلوب العام للقرآن الكريم. وفيما نفى "دو تاسي" أن يكون قد قال ما يوحي بقبولها أو الإيمان بها، اعتبر في نفس الوقت أن الأسباب السابقة ليست كافية لرفضها، وانتهى إلى أنه لو اقتصر المغزى من نشرها على مجرد فضول علمي لهنأ نفسه على أنه أخرجها من طي النسيان (؟)[1].

وهكذا فإن وثائق مزعومة من هذا النوع يقتصر مقصد بعض المستشرقين من نشرها، على مجرد الفضول العلمي، دون أن نستبعد أغراض البعض الآخر في إحياء خلافات إسلامية، من شأن الحركة الاستعمارية والتبشيرية توظيفها واستغلالها فيما بعد، بإثارة نزعات ونعرات مذهبية وطائفية -عرفتها أجيال المسلمين الأولى ولو كانت في فترات استثنائية- في أوساط أجيال لاحقة، لاسيما المغفلة منها.

عوجلت المسائل المتعلقة بالقرآن في أوربا، قبل القرن 19 م، معالجة سطحية، إلا أنه مع نشر التفاسير كالكشاف للزمخشري، إلى جانب النقد التاريخي المهتم بالقرآن برؤى جديدة، أضحت المسائل تطرح بمسؤولية علمية[2].

وقد تناول NOELDEKE في كتابه "تاريخ القرآن"، دور محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ كنبي وفلسفته التي -حسب زعمه- عرفت تحولات، والطريقة التي تشكل بها

---

(1) - DE TASSY, "Chapitre inconnu", J. A., 1842, **op. Cité**, P : 427.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 23.

القرآن بعد وفاة النبي، وتطوره منذئذ. وقد زعم زملاؤه المستشرقون، أنـــه أثـــار بنجاح نقاطا عديدة وأنجز عمله بمعرفة دقيقة ونقد منصف، الأمر الذي جعل عمله مفيدا [1].

وقد اتجه النشاط الديني العقدي في نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات نحو نقـــد الكتب المقدسة قبل كل شيء [2].

قدم LEES خدمة ثمينة للمستشرقين بمنشوره الضخم والذي أنجزه بموارده الخاصة وتضحياته الجسام وهو "شرح الزمخشري". [3]

حين طرح DU MAST مسألة إدخال علامات الوقف على نـــصوص اللغـــة العربية، استثنى منها نصوص القرآن الكريم[4]، ورأى أنه لا ينبغي حتى مجرد المحاولـــة لأن حرص (المسلمين) على ثبات جوهر القرآن ومحتواه يستنتج منه تلقائيا اســـتقرار وثبات الشكل، لأجل ذلك فإن المساس بعادات ينظر إليها على أنها مقدسة من شأنها أن تدخل أهلها في خصومة مع علامات الوقف ويفوت الفرصة على دخولهـــا علـــى النصوص غير المقدسة أيضا[5]. ولعل هذا الموقف دليل قاطع على التقدم الذي أحرزه المستشرقون في فهم ذهنية وطريقة تفكير المسلمين وتقدير هذا التفكير واحترامه.

وقد احتمل "رينان" أن يعترض عليه باعتراضات اليهود التي مفادها أن اليهوديـــة والمسيحية محصلة لنفس القبيلة، أي للشعب اليهودي والعنصر اليهودي وهـــو نتيجـــة للهبات الخاصة التي منحت لهذا الشعب[6]، إلى ما هنالك من أطروحـــات اليهـــود،

---

(1) – نفس المصدر السابق، ص: 25-26.

(2) – نفس المصدر، ص: 65.

(3) - W. Nassau LEES, **The Qoran with the commentary of Zamarkhshari**, Volume 1, Calcutta Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 29.

(4) – الواقع أن هذا ادع عار من الصحة، ذلك أن القرآن الكريم مشكول منذ ماقبل القرن 19، وأقل ما يقال في هذا االشأن أن المكتبة الوطنية (الجزائرية) تتوفر على مصحف مشكول، اطلعنا عليه، وهو محفوظ بقسم المخطوطات، ويعود إلى القرن 7 هـــ /13 م.

(5) - Le baron P. G. DU MAST, "Ponctuer les phrases dans les langues Musul-manes", **J. A.**, 7 ^ime^ série, T : 1, 1873, P : 302.

(6) - RENAN, "Nouvelles considérations…", J.A., 1859, **op. Cité,** P : 215-216 .

"شعب الله المختار!". بينما الإسلام هو تقليد لليهودية والمسيحية ممزوج بفظاظة، وبالتالي غير مطلوب أن ينظر إليه على أنه إنتاج كل العنصر السامي.

غير أن "رينان" يلاحظ أنه في نفس الوقت الذي كان فيه التوحيد الخالص النقي ضمن الشعب اليهودي[1]، كان أيضا السمة العامة للعنصر السامي. ذلك أن الطابع العام لعنصر ما، في نظر "رينان" هو محصلة تصور لمختلف العناصر التي تمثله إجمالا في النهاية. ويضرب لذلك مثلا في مجال السبق الفني، الفلسفي، العلمي في العنصر الهندو-أوربي الذي كان دائما فن بلاد اليونان. فقد لعب اليونان دائما دورا مشابها لدور الأمة اليهودية ضمن العنصر السامي. ويضيف "رينان"، أنه في الحالة هذه إذا أراد أن يرسم مشهدا عاما لأهالي العنصر الهندو-أوربي، فإنه مجبر على أخذ عدة قسمات للمشهد في المثال الذي تقدمه اليونان. فلكي يرسم الدور العام لليونان نفسها، من الواضح أن الذي يتبادر هو أثينا، إيونيا وأكثر منهما سبارطا والديريان (Dériens). لأجل هذا فإن الحكم على عنصر ما يجب أن يكون المحصلة النهائية لما أدرج ضمن النسيج الإنساني. وقد استنتج "رينان" دون تحيز للعنصر اليهودي، أنه حتى لو لم يكن هناك علم بالعصور القديمة للعنصر السامي، فلا يمكن إلا أن يكون عنصر التوحيد سمته الأساسية، مادامت الأهمية القصوى لدور فروع العنصر السامي تمثلت في التأسيس لعقيدة التوحيد التي دانت بها البشرية[2] في النهاية.

---

[1] - إن النظريات القائلة بأن اليهود كانوا أول من نادي بالتوحيد ليس لها أساس، ذلك أن أول من نادى بالتوحيد هو أبو الأنبياء إبراهيم الخليل و لم يكن يهوديا، بالنص القرآني: "ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين. آل عمران، الآية: 67.

أخذ اليهود أفكارا من الملحمة البابلية (إينومايليش) حيث يرد تشابها مع التكوين التوراتي، كما تأثر اليهود بجيرالهم الكنعانيين، حيث ترد أسماء آلهة كنعانية في الميتولوجيا (دراسة وتفسير الأساطير) اليهودية. كما لم يتخلص اليهود نهائيا من التأثيرات الفرعونية، لأجل ذلك فإن من درس التوراة دراسة مقارنة، يصادفه التناقض والتساؤل والارتياب، ولا غرابة في ذلك فهم عايشوا الكلدان خلال حضارتهم المزدهرة ، كما عايشوا الكنعانيين بنظرتهم إلى الطبيعة وتفاعلوا معهم، وعايشوا الفرعونية المصرية وتداخلوا مع الكهنوت الفرعوني في تعبدهم لآمون كما عرفوا (الأتونية) زمن أخناتون ومن كل ذلك صاغوا أفكارهم وميتولوجيتهم.

حاول النبي موسى إبعادهم عن كل معتقد غريب ووثني، ورغم كل ما أتى به من محاولات إصلاح الفكر التوحيدي عند اليهود، بقيت الوثنية لاصقة بقلوبهم، فعبدوا عجلا ذهبيا صنعه لهم السامري وكانوا يمارسون الرقص عراة حوله. - موسوعة الأديان، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 105-106.

[2] - **نفس المصدر السابق**، ص: 216.

وهكذا فإن "رينان" يدافع عن كون التوحيد ظاهرة سامية، و لم يكن التوحيد في العنصر السامي، واقعة معزولة منحصرة في اليهود، كما يدعيه هؤلاء، ذلك أن العنـــصر السامي ينقسم، في نظر "رينان"، بالنسبة للدين والأشكال الخارجية للحضارة إلى فرعين متميزين:

1- فرع البدو الذي من ضمنه العرب، والعبرانيين والشعوب المرتبطة بـــTerach، المحاذين لفلسطين.

2- الشعوب المتمدنة (الحضر)، التي تشكل المجتمعات الأكثر تنظيمـــا كفينيقيـــا وسوريا وبلاد ما بين النهرين واليمن [1].

إن الأطروحة التي تبناها "رينان" بالنسبة لقبائل Térachites المحاذية لفلـــسطين، تبناها بالنسبة للعرب القدماء المرتبطين أيضا بإبراهيم عن طريق إسماعيل. وأسم إسماعيل يدخل ضمن عالم الموحدين، وشجرة القبائل العربية القديمة، بني قدامـــه أو Saracènes الذين يقطنون إقليم شبه الجزيرة العربية، وهم يرتبطون -كما تنص على ذلك مـــصادر "رينان" (كتاب يعقوب)- بالأمم الأبوية (Patriarcales) [2] ويعرفون بالحكمة.

وكانت المعلومات المتعلقة بالحياة الدينية -منذ العهود التوراتية إلى العهد اللـــصيق بظهور الإسلام- في تاريخ جزيرة العرب، أكبر فجوة واجهت "رينان"، حاول ســـدها بالمعلومات المتناثرة التي أمده بها الكتاب الإغريق والنقوش، والتي حملته على الاعتقاد أن ديانة العرب تختلف قليلا عن ديانة الآباء (المسيحية)(؟) [3].

وإذا كان لفظ "الله تعالى" قد عرف منذ (Procke)، فإن جل المستشرقين الـــذين اهتموا بالنقوش الحميرية -أمثـــال: FRESNEL، ROEDIGER، OSIANDER- يتفقون على اسم مؤنث مبهم هو "إله". والاسم العربي إله جمعه آلهة، ومن الممكن أن

---

[1] - **نفس المصدر**، ص: 217.

[2] - من الأب: Patriarche.

[3] - **نفس المصدر السابق**، ص: 234.

اسم الآلهة هو "اللات"[1] (Lat) -التي لا تكتب إلا معرفة- تكون من نفس الأصل أو الاشتقاق[2].

ويعتقد DE PERCEVAL الذي درس شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، أن هناك ألوهية أعلى من الألوهيات الخاصة بكل قبيلة، إنها ألوهية الله التي لا تشكل الألوهيات الأخرى إلا ملائكة أو أشخاصا ينتمون إلى الحضرة الإلهية (بنات الله)، كما عند اليهود[3].

يقر المؤلفون العرب أن عبادتهم الأولى كانت توحيدا خالصا، مما تبناه النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، ولذلك اعتبر الإسلام عودة إلى ديانة إبراهيم الخليل، بيد أن "رينان" لم يركز على هذه الشهادة التي اعتبرها ادعاء ليس مستحيلا، على زعمه، أنه يختبئ وراء التقاليد التي تتحدث عنها بعض الحقائق التاريخية. غير أنه في نفس الوقت، يعترف أن الفرضيات التي يشرح بها المؤلفون العرب كيف تحولت عبادة الآباء إلى شرك، شرح لبق ومتقارب من الأدوات التي أوجدها النقد العلمي الأوربي[4].

إن القاعدة التي كونها الأوربيون عن احتكاك الديانات والثقافات ببعضها والنتائج التي تترتب عن ذلك الاحتكاك هي التي انتهت بهم إلى الفرضية التي مفادها أن: "التوحيد عند العرب لم يكن إلا ردة فعل لليهودية والمسيحية"[5]. غير أن "رينان" يدعي أنه لا يصدق هذه الفرضية بل يحاربها. لأن الإسلام، في نظره، كان في الحقيقة إصلاحا أكثر منه ثورة جذرية، ولذلك لم يخطئ محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ عندما عرض الإسلام على أنه عودة إلى الديانة الإبراهيمية أو الحنفية الأولى. وانتهى "رينان"

---

(1) - "اللات" اسم للشمس، احتلت مكانة سامية في ديانة العرب، وفي النقوش النبطية دعيت بأم الآلهة.
- موسوعة الأديان، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 88. أنظر كذلك عن غيرها من الأوثان العربية:
- موفق فوزي الجبر، **معجم الأوثان والأصنام عند العرب**، ط 1، دار الفكر العربي، دمشق، 1997.

(2) - RENAN, "Nouvelles considérations…", **J.A.**, 1859, **op. Cité**, P : 235.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 236.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 237.

(5) - أشرنا من قبل إلى استبعاد هذه الفرية الصارخة، لاسيما وأنها تصدر من "رينان" الذي يعد قطبا من أقطاب الفكر في فرنسا وقتذاك.

إلى أن الإسلام في القرن الهجري الأول /7 م، لم يكن أقل داع للتوحيد من اليهودية والمسيحية، بل هو أكبر داع له [1].

ففي كل مرة في تاريخ الإسلام الطويل، شارك العنصر العربي في محاولة إبعاد الشوائب التي ربطتها الشعوب بالمعتقدات الإسلامية، كما حاولوا إعادة هذه المعتقدات إلى صفائها الأول. كثورة الموحدين في بلاد المغرب، ومحاولات الوهابيين بشبه الجزيرة العربية[2] وغيرهما.

هذه المحاولات لتجديد الإسلام تأتي، في نظر "رينان"، من ذاك النوع من الحلزون السري الذي يحمل العنصر السامي إلى رد الفعل باستمرار في اتجاه التوحيد الصحيح. وإذا كانت الوهابية لم تنجح، في نظره، فلأنها وجدت العالم في حالة مختلفة تماما عما كان عليه زمن الهجرة النبوية. وفي نظر "رينان" أيضا، كان سيحدث للإسلام ما حدث للوهابية، لو وجد المسلمون الأوائل إلى جانبهم إمبراطورية الإغريق وإمبراطورية الساسانيين وهي لا تزال تتمتع بنظام قوي.

يتساءل "رينان"، هل الوهابية ردة فعل عن اليهودية والمسيحية ؟ ويجيب، بالتأكيد لا، مبررا ذلك بأن عقيدتها التوحيدية أكثر نقاء وصفاء من الديانتين المذكورتين.

لقد كان الإسلام ثمرة الفطرة الأصيلة لشبه الجزيرة العربية. وللوهابية أيضا علاقة وطيدة بجوهر طبيعة البدو، لاسيما تلك العزة التي يشعر بها البدوي في علاقته بالعبادة، التي يتعامل معها بطريقة الفروسية. وهي العقلية التي كانت سائدة زمن "رينان" في شبه الجزيرة العربية كما في أوساط الأعيان الشرفاء الذين انتقلوا إلى بلاد المغرب. فإما أن البدوي لا يبالي بالدين، وإما أنه متدين وعندئذ فهو موحد. ولكنه في نفس الوقت مبسط للدين، في نظر "رينان"، حتى يكاد يلغيه لأنه أقل تصوفا وأقل ورعا، فالله في باطن البدوي هو الله.

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 250-251.

(2) - **نفس المصدر**، ص : 251.

غير أن هذه الفرضيات والاستنتاجات، يستخلص منها "رينان" قانونه الصارم وربما المغرض أيضا، وهي كون الإسلام يبقى على صفائه ما بقي في أوساط العنصر العربي، مما قاده إلى القول إن الإسلام هو الصيغة المناسبة للعقل والذهن العربيين وفي مفهوم أوسع للعقل والذهن الساميين [1] مستبعدا بذلك أو مشككا في عالمية الإسلام، وفي كونه الدين الخاتم والمرسل إلى البشرية كافة.

وإذا كان لابد من نتيجة انتهى إليها "رينان" فهي أن العنصر السامي كالعنصر الآري فهما يقتسمان نوعا من اللغة ونوعا آخر من الديانة. والفكرة الأساسية لهذه الديانة هي السيادة المطلقة لسيد واحد، هو خالق السماوات والأرض. فكل الشعوب السامية كانت موحدة [2].

والأحاديث الشريفة، كما أسلفنا في المبحث السابق، نصوص استنبط منها المشرعون وعلماء الكلام والأصوليون، قواعد وقوانين السنة التي تحكم العالم الإسلامي، إلى القرن 13 هـ /19 م على الأقل. وقد ابتكر المسلمون علم الحديث، وهو علم يقر المستشرقون أنه، حقيقي قائم بذاته، بمبادئه وقواعده وأشكاله التقنية الواضحة الدقيقة[3]، وإن كان النقد الأوربي لا يعترف بعصمة القواعد التي اعتمدها البخاري في مصنفه. لكن وفي كل الأحوال، هم يقرون أيضا، أنه كتاب لا يمكن الاستغناء عنه، بل كل الناس توافق عليه [4].

والأسانيد هي أسماء الرجال الذين نقلوا الأحاديث شفاهة قبل أن تضبط وتدون كتابة، كما في صحيح البخاري. ولعل المسلمين العرب في هذا المجال، هم الشعب الوحيد الذي أحاط ذكرياته الثمينة (Souvenirs) بهذا النوع من الرقابة والضبط (Contrôle)، مما يعرف عند علماء الحديث بقواعد الجرح والتعديل، كما أسلفنا،

(1) - نفس المصدر السابق، ص : 253-254.

(2) - نفس المصدر، ص: 417.

(3) -Rapport annuel, J.A., 1863, **op. Cité**, P : 32.

(4) - نفس المصدر السابق، ص: 34.

والتي بدونها لا يمكن قبول حديث من طرفهم، وعليها تتوقف درجة صحة أو ضعف نص الحديث الشريف، وفق قيمة الراوي أو صدقه [1].

يكاد يجمع المستشرقون الفرنسيون على أن حركة المحدثين العرب، تشكل إحدى الظواهر النادرة في تاريخ العالم ككل والأكثر تثقيفا وتنويرا [2]. لاسيما وأنها تتعلق بتدقيق وضبط شهادات غزيرة، ضبطا لا تضاهيه إلا الحوليات القضائية.

ومنذ أن شرع العرب المسلمون في إجراءات التحري، ارتبطوا بمبدأ صحيح، من خلال محاولتهم الرجوع في كل واقعة، مهما كان شأنها، إلى التشبث بحرفية النص الذي تلفظ به راوي الحديث، مادام هو الوحيد الذي يملك الحجة. ولعل ابرز من يدرك قيمة هذه المسألة هم رجال القانون. أما المؤرخون، فلم ينشغلوا، في عمومهم بالمسألة إلا خلال القرن 19 م[3].

لم تكن الطرق التي سلكها العرب في تحري الأحاديث دائما هي الأحسن، في نظر المستشرقين، ومع ذلك فإنهم لم ينكروا على العرب أنهم قاموا بجهود عظيمة في سبيل الوصول إلى الحقيقة، وهي تقريبا دائما مكللة بالنجاح. ثم إن مظنتهم في الشهود المشتبه في مقاصدهم الشخصية، سواء السياسية أو العقدية، بلغت مدى بعيدا، ومن المحتمل أن تكون قد أقصت عددا من الأحاديث القطعية، وأن أحداثا لم يكن قد نص عليها إلا هؤلاء المقصون. وليس مستبعدا في نظر هؤلاء المستشرقين، أن أحاديث مقصاة تكون قد حافظت عليها مثلا مجاميع الشيعة[4].

اهتم المسلمون كثيرا وبالضرورة، بضبط وترتيب رواة الحديث، وجاء دور المستشرقين، مدفوعين بزعمهم، بضرورات النقد الأوربي الحديث، لإخضاع أحكام العرب المسلمين في هذا المجال المهم للنقد، وطبقوا عليها نقدهم المتسم بقواعد وقوانين

---

(1) –Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 32-33.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1858, **op. Cité**, P : 25-26

(3) –Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 20.

(4) - **نفس المصدر السابق**، ص: 21.

أكثر صرامة وتجربة مما استعمله علماء المسلمين، وقد اعتبروا عملهم هذا في ذاته مؤشرا على التطور الذي تحقق في دراسة تاريخ العهود الإسلامية الأولى .[1]

أغلب الأجيال الفرنسية، على الأقل، التي عرفت محمدا ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، قبل الفترة التي تعنينا، لم تعرفه إلا من خلال مأساة (Voltaire) التي قدم فيها العرب في أقبح صورة. فهو قد مثل النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ في صور وأشكال مشينة، وكان ذلك من باب كرهه لديانة العرب والمسلمين. فليس في مأساة "فولتير" إذن، كما يقول DE TASSY، البحث عن وصف لصورة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ [2]. وليس أيضا ضمن الكتب التي خصصها الفرنسيون، قبل القرن 19 م، لهذا الرجل الفذ، لأن ((Prideaux، Boulainvilliers))، وكذلك (Gagnier) –رغم أنهم كتبوا اعتمادا على المؤلفين المسلمين- فإن جميعهم أثقل كاهل كتاباته بأساطير المسلمين المتحمسين أو سخريات المسيحيين الحاقدين.

لقد كان من الممكن أن ترسم حياة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ اعتمادا على مصادر أصلية منذ زمن بعيد – يشير "دو تاسي" إلى زمن ظهور أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم عام 538 هـ/ 1143 م بالأندلس- غير أن وقائع ملفقة بقيت تملأ كل التواريخ عن النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ إلى عهد (Bayle) و(Roland).

ومهما يكن الأمر، فإن الكتب المعادية للديانة الإسلامية، التي ألفت في أوربا هي على العموم من الضعف الذي بلغ حد السخرية، لأن أصحابها يفندون عقائد هي ليست عقائد المسلمين، ويتجاهلون كلية عقائدهم الصحيحة التي ظلت لمدة طويلة تهدد باجتياح أوربا قاطبة[3].

ويمكن أن نجمل أخطاء الكتاب الأوربيين، لاسيما المتدينون منهم، التي تتعلق بشخص النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، الشائعة في أوربا إلى القرن 12 هـ /18 م، في

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 32-33.

(2) - DE TASSY "Roman de Mahomet", J. A., 1832, **op. Cité**, P : 268-270.

- ليس من المستبعد أن يكون صحيحا ما قيل إن هدف "فولتير" لم يكن إلا نقد التقاليد الدينية (المسيحية) لفرنسا والأوربيين عن طريق نقد الديانة الإسلامية.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 270.

كون "نبي العرب مصابا بمرض الصرع"، على زعمهم، لكنهم يختلفون حول ما إذا كان السبب يعود إلى افتعال وسوء نية، أم أن مصدره الحماسة الدينية -أي ما ينتابه ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ أثناء نزول الوحي، الذي لا يعترفون له به حسدا من عند أنفسهم- أم "الانخطاف والذهول" (Extase) الذي يبدو وكأنه مرض صرع، في نظر الذين يصفونه أيضا "بالخداع والدجال" (Imposteur)، وهي إشارة أو علامة عـن اسـم "مـرض القديس يوحنا" (Saint-Jean)، الذي كان يصاب بمثل هذا، وكان الشعب يعتقد أنـه مصاب بالصرع، وهي الأوقات التي كان يحدث فيها "للقديس يوحنا" هذه الـرؤى أو التجليات أو الوحي(؟). وتعرف رؤيـا "القـديس يوحنـا" في الإغريقيـة بـــ[1] (Apocalypse).

لم يتجرأ المؤرخون المحدثون، دون أن نستثني أيضا المستشرقين، على مجرد الإشارة إلى مرض الصرع بشهادة WEIL نفسه، الذي أثار الموضوع من جديـد [2]، بحقـد وسخرية واستهتار.

ويؤكد بعض المستشرقين الترهاء أن الكتاب المسلمين لا يـذكرون كلمـة واحدة تبعث على التفكير أو الاعتقاد أن محمدا ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ كان عرضة لهذه العاهة[3]. ونص الوحي يبين أن غشيان أو إغماءات النبي ﴿صـلى الله عليـه وسلم﴾ لم تكن نادرة، وصحابته كانوا متعودين على النظر إليها على أنها حالة يجد النبي فيها نفسه في اتصال وعلاقة مع السماء[4] وهناك سخافات أخـرى عديـدة كررها قلة قليلة من المستشرقين[5] واستخف بها بعضهم صراحة علـى صـفحات المجلة الآسيوية، ولم يعبأ بها البعض الآخر، ولا ندري ما إذا كانت أراؤهـم هـذه تناقش علنا في الجلسات.

---

(1) - نفس المصدر السابق، ص: 272.

(2) - WEIL, "Sur un fait…", J. A., 1842, **op. Cité**, P : 108.

(3) - DE TASSY, "Roman de Mahomet", J. A., 1832, **op. Cité**, P : 272-273.

(4) - DE PERCEVAL, " Le combat de Bedr…", J. A., 1839, **op. Cité**, P : 139-140.

(5) — من مثل حادثة الإفك، وقصة الصندوق الحديدي الذي يحوي جثمان النبي﴿صلى الله عليه وسلم﴾، واليمامة المدربة على الاقتراب من أذنه...الخ.

ليس كتاب ابن اسحق مصدرا حديث الاكتشاف، لكن طبعه من شأنه أن يغير الملامح العامة لسيرة الرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾. لقد استعمل هذا الكتاب في وقت ما، كقاعدة لكتابات المؤرخين المسلمين، كما أن علماء أوربا، لاسيما المستشرقون منهم، قد سجلوا تقدما كبيرا، مع منتصف القرن 19 م، باعتمادهم عليه ووقوفهم من خلاله على زمن النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾. غير أن التطور ذاته أحدث فضولا أكبر ونقدا أشد صرامة للوقائع التي أمست أحداثا كبرى لميلاد الإسلام وتطوره، مما استوجب نشر جل الوثائق الأصلية التي يعتمد عليها التاريخ وقتذاك. ومع كل عمل جديد فإن طبع النبي، وهدفه، ودرجة تعلمه، والسهولة والصعوبة التي تثيرها المؤسسات الجديدة، وتسيير الأمور، كل ذلك مكن المستشرقين من دراسة السمات الأكثر حيوية لشخصية النبي البارزة، والدوافع التي بموجبها تحرك أو تكلم[1].

لم يكن المستشرقون الفرنسيون ينتظرون أن سيرة جديدة لمحمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ ستأتي لتغير أفكارهم عن السمات الأساسية لحياته وشخصيته، ولكن ميلاد الديانات، في نظرهم، يعد حدثا كبيرا وخطيرا في التاريخ، وأن أصغر الأحداث المتعلقة به لها من النتائج الخطيرة والدائمة ما يستوجب معرفتها بتفصيل أكثر من أية قصة أخرى.

إن تاريخ بدايات الإسلام، لذو فائدة خاصة، في نظرهم، لأن محمدا ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ هو أحدث وأقرب وأكبر المشرعين الدينيين. و لم يستبعد المستشرقون إمكانية الوصول إلى نتائج دقيقة عن حياته الداخلية، لاسيما حول الطريقة التي تشكلت بها سيرته، مما لا يمكن الوصول إليه في حالة "زرادشت"[2]

---

(1) - Rapport annuel, J.A., 1859, **op. Cité**, P : 22-23.

(2) - ولد **زرادشت** عام 599 أو 598 ق. م. وتوفي عام 522 أو 521 ق. م. في (إيران). وقد تزامن تقريبا مع ظهور "بوذا" في (الهند)، و"كنفوشيوس" في (الصين)، وظهور الفلاسفة (الإغريق). كان "زارا" (وهو تخفيف اسم زرادشت) ملخصا للإله (أهورامزادا) وقد تجلى له واضحا بين يديه كتاب "الإفستا" Avesta مجمع العلم والحكمة. استمرت دعوة زرادشت دون أن تنتشر بشكل واسع حتى زمن الملك الإيراني (فيشتاسبا) والد الملك داريوس الأول. والزرادشتية بشكل عام تدعو إلى التناسل والتعمير والعمل المخلص. ومن تعاليمها أن عالم الأرض يتصل بالعالم الآخر بواسطة جسر أو قنطرة في طرفها الأعلى عذراء جميلة تقود الروح الخيرة إلى حيث الإله الأعظم والسعادة، ومن كانت روحه شريرة تسقط إلى الجحيم لدى مروره على القنطرة، والنعيم والجحيم في خلود دائم. يرى بعض المؤرخين بأن زرادشت مصلح ديني، جاء من ميديا، وأول من دان بدياناته التي بشر بها=

أو "بوذا"[1].

وقد اعتبر المستشرقون نتائج هذه الدراسات بمثابة "غنيمة ثمينة" في التاريخ، لأن الأمر يتعلق بأصول ديانة رتبت، خلال 12 قرنا، معتقدات وقوانين وأفكارا كثيرة من الشعوب ذات الأصول المختلفة، ولها مائة مليون من الأتباع في القرن 19 م.

كان المستشرقون الفرنسيون راضين عن النتائج التي تحققت على أيدي علماء يمتازون بجهود لا تعرف الكلل ولا الملل، وتوفير مجموعة أعمال ومصادر حقيقية في التاريخ الإسلامي[2].

وفيما يتعلق بعلاقات مختلف المدارس الأصولية والفقهية الإسلامية، سجل المستشرقون بإعجاب أخلاق أئمتها، فقد اتصفوا بالإنصاف والنزاهة والتجرد

هي السلالة الساسانية، وقد لَفّت حياته الأسرار والغموض والأساطير، وكان لأفكاره جذور عميقة في المعتقدات الشعبية الإيرانية (شبيهة بمعتقدات الهنود الشعبية).

تعتبر "الإفستا"، وهي كتاب الزرادشتية من أقدم الكتب المقدسة في بلاد فارس. وهي مجموعة أقوال دينية لزرادشت ترتل عند تقديم الذبائح، وشرائع كهنوتية وصلوات وطقوس عبادة.

- موسوعة الأديان، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 63-64.

(1) - Rapport annuel, J. A., 1864, **op. Cité**, P : 25.

ـــ "**بوذا**" (563 – 483 ق. م.)، ولد في أسرة عريقة، توفيت والدته بعد ولادته فربته خالته. في سنين شبابه شاهد آلام الناس وحرمانهم ومآسيهم مما حرك مشاعره وجعله يفكر ويتأمل في الحياة وفي الخلاص من مآسيها.

يعني اسم "بوذا" في اللغة الهندية الحكيم. كان في أول شبابه معلما، ثم أصبح رجلا مقدسا، وبعد وفاته صار إلها يعبد. عمل "بوذا" على تخليص العالم من المرض والشيخوخة والموت (؟)، وقد وصف بالمستنير. ومن أقواله: "إن القداسة وسلامة النفس لا تكمن في معرفة الله والكون، بل في نكران الذات وتقديم الصالحات". واعتقد البعض أن روح الله حالة في "بوذا"، كما اعتقد البعض الآخر أنه كائن إلهي أتى لينقذ العالم من الشرور، وقال بعضهم إنه لم يتكلم عن الله لأنه هو الله نفسه" !!

- موسوعة الأديان، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 59. أنظر أيضا عن بوذا:

- دايساكم إكيدا، **حياة البوذا سيرة مفسرة**، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الأوقاف، سوريا، 2002. أنظر كذلك:

- هنري أرقون، **البوذية**، ترجمة هنري زغيب، المنشورات العربية، المطبعة البوليسية، 1975.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 33.

- هناك دراسة أخلاقية جيدة، في نظر المستشرقين، عن النبي محمد(صلى الله عليه وسلم)، وحكم عادل منصف، ضمن كتاب: "**محمد والقرآن**" أرفقه بمقدمة عن الواجبات المشتركة، وعن الفلسفة والدين، لصاحبه: BARTHELEMY SAINT-HILAIRE، باريس، 1865، (348 ص).

(Impartialité)، والخلق الرضي والطبع الوديع، والتبحر في علوم الشريعة، يحترم ويوقر بعضهم بعضا، فلا يتطاولون لا بالكلام ولا بالأفعال[1].

وأما عن علاقة العلماء بالسلطة، فقد لبست الأخيرة قناع التقوى وحدث نوع من الانفصال بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية، ويعود تغلب الأولى لما كان لها من تأثير سياسي على القوانين. و لم يكن إجماع العلماء قد عرف -وقتذاك- انقساما بعد. فكان أكثرهم حماسة ينعتون الحكام الجدد بالظلمة، وكانوا يسهرون على عدم المساس بالقوانين وضوابط الشرع.

لم يكن بوسع مغتصبي سلطة الخلافة أن يمدوا أيديهم إلى التشريع، وكانت خشيتهم التعدي علانية على مبادئ القرآن والسنة، وتركزت جهودهم السياسية في المحافظة على استقلالهم وسلطة القوانين، التي بها يمكنهم المحافظة على مظهرهم، وعلى الأشكال الخارجية للحكومة. وهناك كثير من هؤلاء الحكام المناصرين للسلم والوئام، الذين تخلوا ليس فقط عن حقهم في اتخاذ القرارات في الشؤون القضائية لرعاياهم، ولكنهم خولوها إلى علماء الفقه. وبهذه الكيفية فإن الشريعة بقيت بين أيدي الفقهاء، الذين يختار الخلفاء من ضمنهم القضاة، وكانوا يتوفرون على سلطة خاصة بهم، هي سلطة الاجتهاد[2].

والاجتهاد درجة ومقدار من حرية الرأي، أو سلطة في مجال التشريع، ويعني في الفقه بلوغ درجة عالية معينة في الأبحاث الفقهية، فمن بلغها يسمى المجتهد. والاجتهاد درجات ثلاث:

1- الاجتهاد في الأصول، أو الاجتهاد المطلق غير المنتسب.

2- الاجتهاد في المذهب، أو الاجتهاد المنتسب.

3- الاجتهاد في المسائل أو النوازل، أو الاجتهاد في الفتاوى، المعروف أيضا بالاجتهاد الفرعي[3].

---

(1) - KAZEM BEG, "Notice sur la marche et les progrès", J. A., 1850, **op. Cité**, P : 172-173.

(2) – **نفس المصدر السابق**، ص : 178-179.

(3) — **نفس المصدر**، ص : 181.

لقد أعد نظام لكل المدارس الفقهية بشكل مدروس، والدليل على ذلك أن الفقه فاز عن باقي العلوم الأخرى، إذ صمد الفقه من ضمن العلوم حتى القرن 19 م، على الأقل. وقد ساهم في إرساء وتطوير مذهب كل إمام من أئمة المذاهب، تلامذهم وتلامذة التلامذة. فكانت من التمام والكمال ما جعلها تستقر على نحو معين لم يعرف أدنى تغيير منذ أغلق باب الاجتهاد سياسيا. ومع ذلك بقي لكل فقيه الحق في معالجة - في كتب خاصة- المسائل الشائكة، والتصنيف في الفقه. لأجل هذا بقيت المدارس الإسلامية غنية بكتب الفقه، التي يستعين بها المفتون والقضاة على العموم.

بدأ الفقه الإسلامي يزدهر في العراق، وبلاد فارس وبوخارى، ثم انتقل مع بداية القرن 8 هـ /14 م، إلى تركيا أين سيأخذ شهرة كبيرة، بينما انحط في البلاد التي نشأ فيها أولا[1]. واعتنقت بلاد المغرب المذهب المالكي منذ عهوده الأولى.

لعل أهم ما ميز الحضارة العربية الإسلامية، تشريعاها التي انبثقت عن المذاهب الفقهية، والتي بقيت مهملة في أوربا. فمن المعلوم أن المذاهب الأربعة تتميز عن بعضها البعض في الفروع (Dogmes) وليس في الأصول والتشريع (Législation). فكل مذهب ابتكر نظاما كاملا من القوانين، التي رغم القاعدة الأصولية المشتركة يتميز كل منها بفوارق هامة، وهو الأمر الذي جعل التشريعات الفقهية تتميز عن بعضها أحيانا في المناطق المطبقة فيها.

لقد أولت فرنسا اهتماما خاصا بمبادئ الفقه المالكي المطبق في كل بلاد المغرب. وأخذ المستشرق VINCENT على نفسه التعريف به[2]. كما أسلفنا في المبحث الأول من هذا الفصل. لكن اهتمامهم انصب على رسالة ابن أبي زيد محمد القيرواني ومختصر خليل المصري[3]. وكانت حجتهم في ذلك أن الصعوبة التي واجهتها فرنسا

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص: 175.

(2) – - B. VINCENT, **Etude sur la loi Musulmane (rite Malékite)**, Législation criminelle, Paris, 1842 (124 p).

(3) – - Rapport annuel, **J A.**, 1843, **op. Cité**, P : 507-508.

– انظر تعريفا بالشيخ خليل، ص: 191.

في تهدئة وتسكين المستعمرة وإلحاق سكان الجزائر بها تستدعي معرفة القوانين والتشريعات التي اعتاد عليها السكان[1].

لقد صار التشريع الإسلامي، بالنسبة للإدارة الاستعمارية في الجزائر، موضوع دراسة على غرار ما فعلته الإدارة الانجليزية بالهند، وسينتهز العلم فرصة اهتمام الحكومات ليكسب في النهاية، لاسيما وأن العرب كان لهم دائما عبقريتهم في التشريع، أكثر من أية أمة أخرى، باستثناء الرومان، على حد زعم المستشرقين. ولعل المعرفة العميقة لتشريعات العرب والمسلمين كانت ضرورية لفهم تاريخهم وعاداتهم وحياتهم الداخلية[2]. ومن هنا جاء تكليف وزير الحرب للدكتور PERRON بترجمة وطبع مختصر سيدي خليل الموجه إلى المحاكم في الجزائر[3].

ومع حلول سنة 1855، كان قد صدر مرسوم تنظيم المحاكم في الجزائر، وأرسل النص العربي التجريبي لطبعة سيدي خليل إلى محكمة مدينة الجزائر، وتمت الموافقة عليه مع إرفاقه بجملة من التعديلات[4].

* * *

كان الإسلام إذن، محل اهتمام وعناية فائقين من المستشرقين، وإلمام بمختلف مناحيه، من قرآن وحديث وتفسير وعقيدة وتوحيد وسيرة نبوية وخلفاء وتصوف وأصول وفقه ومذاهب وغيرها... في المغرب العربي والمشرق على حد سواء. وكذلك كان اهتمامهم بالديانة اليهودية والكتابات المسيحية المقدسة.

وقد تقاطع اهتمام رجل الاستشراق بالبحث في تراث الشرق مع اهتمام رجل الاستعمار في المستعمرات. ونشأ بينهما عمل متكامل، من خلال اللجان العلمية والجمعيات المختصة، فلا غرابة إن وجدنا دراسات استشراقية موجهة لخدمة أهداف عملية مطلوبة منهم لإدارة هذه المستعمرة أو تلك. ومن هذه الناحية إذن شكل

---

(1) - نفس المصدر السابق، ص: 508.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 119-120.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1849, **op. Cité**, P : 29.

(4) - Procès Verbal, J. A., 1855, **op. Cité**. P : 290.

الاستشراق الوجه الفكري للتوسع الاستعماري. وخدم كل منهما الآخر. فكان أن وفر المستشرقون لرجال الاستعمار حاجتهم لنصوص الشرق، وفي هذا الإطار يـأتي تلبيـة المستشرقين اهتمامات الإدارة الاستعمارية في الجزائر في مجال التشريع الإسلامي، كمـا يأتي تكليف وزير الحرب الفرنسي للدكتور PERRON بترجمة وطبع مختصر سـيدي خليل الموجه إلى المحاكم في الجزائر، كما أسلفنا.

ولما كان مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة، وهي بلغة العـرب، وكانت علوم اللسان العربي ضرورية على أهل الشريعة، كما يقول ابن خلـدون[1]، فهي تليها من حيث الأهمية، إذ تدخل فيما لا يتم الواجب إلا به. فما هـي مجـالات اهتمام المستشرقين في مجال علوم اللسان العربي ذلك ما سيشغلنا في الفصل الموالي.

---

(1) - مقدمة العلامة، **مصدر سابق**، ص: 339.

الفصل الرابع

اهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في مجال الأدب

1- الاهتمامات

2- المحتوى الفكري-الثقافي والعلمي

3- نظرة نقدية (منهجية النقد لدى المستشرقين ونقد منهجيتهم).

1- الاهتمامات

يهدف الفصل الذي بين أيدينا إلى الإحاطة باهتمامات المستشرقين الفرنسيين وتوجهاهم في مجال الأدب ببلاد المغرب والمشرق العربيين.

الواقع أننا لم نفعل أكثر من التزامنا وحرصنا على أن نعكس ما قام به المستشرقون من جهود في هذا المجال، من تأصيل لأدب بلاد المغرب ذي الأصول المشرقية، سواء في حروفه العربية أو لغته أو نحوه أو نثره أو شعره...الخ. فمنذ وصول الإسلام إلى بلاد المغرب ومعه اللغة العربية، وحتى بداية الدراسات الاستشراقية في القرن 19 م، والثقافة العربية الإسلامية ومن ضمنها الآداب العربية، لم يكن بالوسع التمييز فيهما بين المشرق والمغرب، لاسيما بلاد المغرب التي ظلت المقررات التعليمية فيها تعتمد على أمهات المصادر الأدبية ذات الأصول المشرقية. لأجل هذا كان المشرق ولا يزال بعدا أساسيا في مجال الثقافة العربية والإسلامية، وما هذه الثقافة سوى جذع شجرة امتدت غصونها إلى بلاد المغرب والأندلس. وتعد قصة "العقد الفريد" [1] شهيرة في تاريخ الأدب العربي، ذلك أنه رغم كون "العقد" إنتاجا أندلسيا، إلا أنه اعتبر بضاعة مشرقية ردت إليه.

كتب المستشرقون إذن، بهذه الروح وبهذا الحس، أو تحت تأثير هذا الهاجس، كقاعدة عامة على الأقل، تأصيلا للأمور وإنصافا للحق والحقيقة، لاسيما وأنهم كانوا يكتبون لأنفسهم، مما جعلهم يلتقون، بل ويتطابقون تماما ومفهوم عروبة المنطقة، أو مفهوم الأمة العربية، العربية بلسانها، وكذا مفهوم المغرب العربي. وأكثر من هذا فقد سبق المستشرقون الفرنسيون، رواد النهضة في العالم الإسلامي، إلى مفهوم الجامعة الإسلامية حين كانوا لا يعتبرون اللغة العربية هي لغة الإسلام فقط، وإنما يضيفون إليها

---

[1] - أحمد بن عبد ربه الأندلسي، **العقد الفريد**، (8 أجزاء + جزء الفهارس)، ط 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

- ابن عبد ربه الأندلسي (246- 328 هـ /860- 939 م)، هو أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم أبو عمر. الأديب الإمام صاحب العقد الفريد، من أهل قرطبة. كان جده الأعلى سالم مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية. وكان بن عبد ربه شاعرا مذكورا فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. له شعر كثير منه ما سماه الممحصات، وهي قصائد ومقاطع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسيب. وكانت له في عصره شهرة واسعة، وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر.

أما كتابه العقد الفريد، فمن أشهر كتب الأدب سماه العقد وأضف النساخ المتأخرون لفظ الفريد.

- انظر: الموسوعة العالمية للشعر العربي: **www.adab.com/** -

الفارسية [1] والتركية [2] (أو العثمانية)، لاسيما وأن هاتين اللغتين كانتا تكتبان بالحروف العربية (3)، وأن ما يكتب كان وفق التصور والتفكير الإسلاميين. ولذلك فقد كانوا يسمون اللغات الثلاث، اللغات الإسلامية.

والواقع أن هذه المسألة ليست ظاهرة خاصة بالثقافة والآداب العربية، ذلك أن الأمر ينسحب أيضا على الثقافة والآداب الأوربية. إذ لا يمكن الحديث عن الثقافة الأوربية بمعزل عن أصولها الإغريقية-اليونانية-الرومانية، ورغم تعدد أو تنوع أو ابتعاد وتقارب اللغات الأوربية، إلا أنه لا يزال يجمع بينها الحرف اللاتيني.

* * *

لقد أحاط المستشرقون الفرنسيون وغير الفرنسيين إحاطة شاملة بموضوع الأدب عامة، سواء من الناحية الفكرية والنظرية أو من الناحية العلمية أو غيرها. من ذلك أن

---

(1) - منذ حل الإسلام بأرض إيران (ومعها أفغانستان وخراسان وأجزاء من تركستان)، بدَّل الفرس ألف بائهم فكتبوها بألف باء القرآن، وسرعان ما أقبل الناس على كتابة لغتهم بها. وتابعوا تعلمهم للغة العربية، وقراءة الأدب العربي القديم عدة قرون فتعلموه وحفظوا شعره وقواعده وعروضه. فلما ظهرت الدولة السامانية في خراسان في القرن 4 هـ، ترجمت المؤلفات العربية التي كتبها علماء فرس، كمؤلفات الطبري في التاريخ والتفسير. وظهر الرازي وحمزة الأصفهاني فكتبا بالفارسية، ولكنها كانت فارسية مشبعة بالكلمات العربية والمصطلحات الفنية والدينية... حتى بلغ عدد المفردات العربية حدا معادلا لعدد المفردات الفارسية. وشعر الفرس على العروض العربي والأغراض العربية من مدح وهجاء وفخر، لكنهم تميزوا بالوصف، والغزل، والقصص الشعري. وظهر أدباء فرس يكتبون بالعربية كبديع الزمان، وابن سينا، والثعالبي، والباخري، لأنهم رأوا أن العربية تمنحهم شهرة أكثر لاسيما في عهد السلاجقة الذين حكموهم وكانوا أتراكا.

- محمد التونجي، **المعجم المفصل في الأدب**، ج: 1، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999، ص: 64-65.

(2) - لم يكن للشعوب التركية أدب خاص بهم قبل أن يدخلوا في الإسلام. وحتى حين دخلوا في الإسلام لم ينبغ عندهم أحد. ولم يظهر أدب الترك إلا حين احتكوا بالفرس والعرب. والعثمانية ذات الأصل السلجوقي هي اللغة التركية الوحيدة غربا. غدت عند العثمانيين، اللغة الفارسية، لغة الأدب والبلاط، واللغة العربية، لغة الدين وأصول الأدب. والألف باء العربية غدت ألف باء التركية، والقرآن الكريم والحديث النبوي منطلق آدابهم. بلغ الأدب التركي العثماني أوجه في عهد السلطان سليمان القانوني حيث بدأ عصر الترجمة والتأليف الأدبي واللغوي والشروح. وكان سليمان القانوني نفسه شاعرا.

- **نفس المصدر السابق**، ج: 1، ص: 51-53.

(3) - لا تزال الفارسية إلى اليوم تكتب بالحروف العربية، وأما العثمانية فقد استبدل كمال أتاتورك حروفها العربية بحروف لاتينية وهي التي تعرف اليوم بالتركية.

المستشرق DE DUMAST عالج مسألة وحدة اللغات ومفتاح سر هيكل اللغة (1)، وانقسام المذاهب فيها بين دعاة وحدة اللغات في الأصل وأنصار تعددها.

وصدر "لإرنست رينان" بمطبعة "بنيامين دوبرا" DUPRAT، كتاب ضخم في التاريخ العام والنظام المقارن للغات السامية، ويقع في خمسة أجزاء. عالج في الجزء الأول منه الأصول المرتبطة بتاريخ العنصر السامي، وخصص الأجزاء الثاني والثالث والرابع، للعهود الثلاثة الكبرى لتطور اللغات السامية، وهي العبري والآرامي والعهد العربي (2). ويطرح "رينان"، في جزئه الخامس القواعد العامة التي قادت إلى تحولات اللغات السامية، ومقارنتها بألسن العائلات الأخرى، لاسيما العائلة الهندو-أوربية (3).

وكان "رينان" قد استفاد من أبحاث ونشرات من سبقه في هذا المجال من مستشرقين وغير مستشرقين، لاسيما الألمان منهم أمثال: DILLMANN وOSIANDER وSPIEGEL و CHWOLSOHN و LASSEN وآخرين. وكانت ألمانيا، خلال الفترة التي تعنينا، مركز اهتمام ما فتئ يتطور أكثر فأكثر، في مجال الدراسات اللغوية والتوراتية (4).

وقد ترك كتاب "رينان" ارتياحا في أوساط المستشرقين، على اعتبار أنه عالج مسائل شائكة وهامة،تتضمن معارف علمية دقيقة، وأحكاما معتدلة وحذرة وصياغة موفقة (5).

وجرى الاهتمام بلهجات اللغات الإسلامية، التركية والفارسية (6). لكن احتلال مدينة الجزائر، سيمكن جملة من المستشرقين، وخاصة الضباط العسكريين من نقل أولوياتهم وتركيزها على دراسات ميدانية علمية ومنهجية في مجال الألسن المنتشرة

---

(1) - P.G. DE DUMAST, "Mémoire sur la question de l'unité des langues" **J. A.** 4me série, T 7, 1846, P : 292.

(2) - Joseph DERENBOURG, "Histoire générale et système comparé des Langues Sémitiques" Par RENAN, **J. A.**, 5 me série, T 6,1855, P : 292.

(3) – **نفس المصدر السابق**، ص: 296.

(4) - **J. A.**, 5me série, T : 12, 1858, T : 606.

(5) - DERENBOURG, "Histoire générale...", J. A., 1855, **op. Cité**, P : 296.

(6) - REINAUD, "Recherche sur les dialectes Musulmans", par E. Berezine. **J. A.**, 5me série, T : 14, 1859, P : 259.

في بلاد المغرب، لاسيما اللسان البربري، سواء من حيث أصل انتمائه (1)، أو الحروف المتوفرة لدى التوارق وعلاقتها بالليبية القديمة (2)، أو من خلال جمع المفردات البربرية وعباراتها (3)، أو إعداد قواميس لها، "كقاموس بربر بجاية" الذي حث وزير الحرب الفرنسي بنفسه على نشره، فصدر الجزء الأول منه عام 1844 (4). والجدير بالملاحظة أن مصادر هذه الأعمال والمعلومات شفهية (5).

وقد قام DELAPORTE بطباعة حجرية لحوارات بربرية مدونة بالخط العربي المغربي (6).

كما تناول المستشرقون اللسان العربي الدارج، لكن باهتمام أقل، وصدرت في الموضوع جملة من المحاولات، أبرزها ما نشره CHERBONNEAU في المجلة الآسيوية (7) واهتموا بالخطوط العربية، والمشرقية والمغاربية، ولاسيما رسم الحروف العربية

---

(1) - REINAUD,"Sur le système primitif de la numérotation chez les Berbère " **J. A.**, 5me série, T : 16, 1860, P : 108.

(2) -BOISSONNET, "Note sur l'alphabet Berbère usité chez les Touareg et ses rapports avec l'antique alphabet des Libyens; **J. A.**, 4 me série; T: 9,1847, P :455-456.
- وكذلك: F. DE SAULCY, "Observations sur l'alphabet Tifinag", **J. A.**, 4 me série, T : 13, 1849, P : 247.

(3) -DELAPORTE (fils), "vocabulaire Berbère", J. A., 1836, **op. Cité**, P : 98-99.

(4) - **Dictionnaire français-bérbère**, dialecte écrit et parlé par les kabiles (sic) de la division d'Alger, Ouvrage composé par ordre du ministère de la guerre, Paris, 1844 (656 p.)
- Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 31

(5) -Extrait d'une lettre de M. BOISSONNET, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 165.

(6) -J. D. DELAPORTE, "**Spécimen de la langue berbère**, Paris, (57 p. thographié)", Rapport annuel du 16/06/1846, **J. A.** ,4me série, T : 8, 1846, P : 37.

(7) - CHERBONNEAU, "Lettre à M. DEFREMERY sur le paradigme d'une huitième forme usité dans l'Arabe parlé", Constantine, le 22/09/1851, **J. A.** , 4me série, T : 19, 1852, P : 379-380.
- CHERBONNEAU, "Observations sur l'origine et la formation du langage Arabe Africain, **J. A.** ,5me série, T : 6,1855, P : 549-551.
- CHERBONNEAU, "Nouvelles observations sur le dialecte Arabe de l'Algérie, **J. A.**, 5me série, T: 18, 1861, P: 357-369.

بغرض طباعة المخطوطات(1). وكذلك حركات الحروف العربية أو التشكيل(2)، فضلا عن علامات الوقف المستعملة حينذاك في أوربا (3).

وقد أولى المستشرقون الفرنسيون أهمية لتعليم العربية من خلال إعداد مناهج خاصة لتعليم القراءة وتيسير تعليمها للفرنسيين. وقد تكون المناهج موجهة أحيانا في نفس الأثناء لتسهيل تعليم الفرنسية للعرب، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر، عناصر الجملة وترجمتها إلى العربية الدارجة، وتمارين في قراءة المخطوطات العربية، ودروس في القراءة العربية...الخ (4).

هذا إضافة إلى المنتقيات الأدبية العربية التي نشرها أساتذة مدرسة اللغات الشرقية الحية، التي توفر نصوصا عربية أصلية وأصيلة للدارسين[5].

أما المؤلفات الخاصة، التي تأتي في نظر العرب أنفسهم، في مقدمة الترتيب المنطقي أو النظام التسلسلي للعلوم، فهي الموجهة إلى إتقان اللغة (النحو)، وهي كثيرة وتشهد على التوسع المتنامي في دراسة واهتمام المستشرقين باللغة العربية. من ذلك ما نشر DE

---

(1) - HALEVY, "Etudes Sabéennes,langues et écritures des anciens populations de l'Arabie", **J. A.**, 7^{me} Série, T : 1, 1873, P : 441.

(2) - FERRETTE, "Méthode simplifiée pour imprimer l'Arabe, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 304-306.

(3) - Le baron P. G. DU MAST,"Ponctuer les phrases dans les langues Musulmanes", à M.jules MOHL, président de la société asiatique, Nancy le 15/10/1872, **J. A.**, 7^{me} série, T : 1, 1873, PP : 297-304.

(4) - **Elément de la phraséologie française, avec une traduction en arabe vulgaire (idiome africain), à l'usage des indigènes**, Constantine, 1851.

- **Exercices pour la lecture des manuscrits arabes, comprenant des actes, des circulaires, des lettres et des historiettes**, Paris, 1851.
- **Leçons de lecture arabe, comprenant l'alphabet, la lecture courante, les Nombres et les chiffres arabes**, Paris, 1852.
- **Histoire de Nour-ed-dine, tirée des Milles et une nuit, le texte arabe, ponctué à la manière française, et suivi d'une appendice ou l'on à expliqué les difficultés grammaticales, les arabismes et les étymologies**, Paris.

- انظر: - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 126.

(5) - A. BELIN, Bibliographie, "Chrestomathie orientales vivantes", **J. A.**, 3^{me} Série, T : 13, 1842, P : 67.

PERCEVAL من طبعة ثالثة لنحو العربيـــة الدارجـــة (1). ونـــشر BLED DE BRAINE درس العربية المؤلف من النحو والتمارين الموجهة إلى الأوربيين المقـــيمين بالجزائر وباقي أقطار شمال إفريقيا(2).

وظهرت عدة كتب في مختلف الدرجات والمستويات التعليمية، حـــتى الـــذين لا يرغبون في إجهاد أنفسهم لدراسة الحروف العربية يمكنهم أن يصلوا إلى معرفتها مـــن خلال كتاب MARTIN، حوارات عربية-فرنسية، على سبيل المثال، وهو يشتمل على جمل وعبارات تستعمل في اللهجات المغاربية(3). وكتاب BRESNIER: منتقيـــات عربية (4)، وCHERBONNEAU وLEON: حكم لقمان (5). وكذلك نوادر إسلامية لـــ(6) CHERBONNEAU.

وأما الذين يرغبون في دراسة النحو العربي بناء على القواعـــد العربيـــة نفـــسها، فيمكنهم العودة إلى نشرة الآجرومية لابن آجروم[7] (672 – 723 هـــــ /1273 –

---

(1) – - DE PERCEVAL, **Grammaire Arabe vulgaire**, pour les dialectes d'orient et de barbarie, Paris, 1844, (175 p).

(2) -- - J. F. BLED DE BRAINE, **Cours synthétique et pratique de la langue arabe, ou les dialectes vulgaire Africains d'Alger, de Maroc, de Tunisie et d'Egypte sont enseignés sans maître**, Dondey-Dupré, Paris, 1844.
- Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 28.

(3) – - A. MARTIN, **Dialogue arabe-français**, avec la prononciation figuré en, caractère français, Paris, 1846.

(4) - - BRESNIER, **Chrestomathie d' arabe vulgaire**,recueil d'écrits divers, lettres et actes de différents styles, Alger, 1845.

(5) - LEON et H. HELIOT, **Fables de Lokman**, surnommé le sage, en arabe et en français, Paris, 1846 70145420.

(6) – -CHERBONNEAU, **Anecdotes musulmanes, ou cours d'arabe élémentaire**, suivi d'un dictionnaire analytique des mots, des formes et des idiomes contenus dans le texte, Paris, 1847 (149 p.).

(7) – **ابن آجروم**، هو محمد بن داود، الصنهاجي، الفاسي ولادة وإقامة ووفاة، أبو عبد الله: نحويّ. اشتهر برسالة "الآجُرُّومية" وقد شرحها كثيرون. و"فوائد المعاني في شرح حرز الأماني" مجلدان منه ويعرف بشرح الشاطبية لقب بابن آجُرُّوم. وآجُرُّوم كلمة بربرية معناها: الفقير الصوفي.
– فؤاد صالح السيد، **معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العربي والإسلامي**، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1990، ص : 17.

1323 م)، التي طبعت مرفقة بترجمة لها من (1) BRESNIER). والآجرومية مختصر في النحو، يحفظه التلاميذ -عن ظهر قلب- في مدارس المشرق والمغرب، وهو وسيلة معارف لأهم المفردات الفنية أو قواعد النحو العربي (2).

وطبعت ألفية ابن مالك[3] (600 - 672 هـ /1203 - 1273 م)، عدة مرات بالقسطنطينية، وباريس برعاية DE SACY ، وفي بولاق بمصر. والألفية نظم (أرجوزة) في اللغة (النحو والصرف)، اجتهد صاحبه في جمع جل القواعد، حتى دقائق النحو العربي في ألف بيت شعري، مساعد للذاكرة. وقد حظيت الألفية بنجاح كبير في المعاهد العلمية بالشرق أين بقيت مقررا مدرسيا إلى القرن 19 م على الأقل، يحفظ عن ظهر قلب، ويشرح ويناقش. كما حظيت الألفية بعدة شروح أشهرها شرح ابن عقيل (4) (694 – 769 هـ /1294 – 1367 م).

---

(1) - -BRESNIER, "Med Ben Daoud-el-Sanhadjy, **grammaire arabe élémentaire**", texte arabe et traduction, Alger, 1846.

يعتبر كتاب الآجرومية من الكتب الأولى التي لفتت الانتباه في أوربا، حين اهتم الأوربيون بلغات الشرق بعد نهضة الآداب والفنون:

- **La Djaroumia, grammaire arabe**, Boulac, 1824 (1239).

- انظر كذلك شرح الآجرومية بالعربية:

- **Commentaire de la Djaroumia, en arabe**, Boulac, 1826 (1242), **N. J. A., T: 8,1831, P: 334.**

- Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 123.

(2) - - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 148.

(3) - محمد بن عبد الله، **ابن مالك**، الطائي الجياني، أبو عبد الله جمال الدين: أحد الأئمة في علوم العربية. ولد بجيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. أشهر كتبه "الألفية" في النحو، وله "تسهيل الفوائد" نحو و"شرحه" و"الضرب في معرفة لسان العرب" و"الكافية الشافية" و"وسبك المنظوم وفك المختوم" و"لامية الأفعال" و"إيجاز التعريف" و"شواهد التوضيح" و"إكمال الأعلام في مثلث الكلام" و"تحفة المودود في المقصور والممدود" و"العروض" و"الاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد" وغير ذلك.

- الزركلي، الأعلام، ج: 6، **مصدر سابق**، ص: 233.

(4) - - Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 140-141.

- **ابن عقيل**: هو عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد القرشي الهاشمي بهاء الدين. من أئمة النحاة. من نسل عقيل بن أبي طالب. مولده ووفاته بالقاهرة. قال ابن حيان: ما تحت أديم السماء أنحى من ابن عقيل. له "شرح ألفية ابن مالك" في النحو، و"التعليق الوجيز على الكتاب العزيز" تفسير، و"الجامع النفيس" في فقه الشافعية، و"المساعد" في شرح التسهيل، نحو، و"تيسير الاستعداد لرتبة الاجتهاد" وهو تلخيص الجامع النفيس، وغير ذلك.

- الزركلي، **مصدر سابق**، ج: 4، ص: 96.

وأما الأب GLAIRE، فقد أخرج مبادئ النحو العربي الذي عكف عليه مـدة طويلة (1).

ونشر BELLERMAN، نحو عرب الجزائر (2).

وإذا كان كتاب "قطر الندى وبل الصدى" لأبي عبد الله بن يوسف بن هشام(3) (708 – 761 هـ /1309 – 1360 م)، جديرا أكثر من غيره من كتب النحو بالاهتمام، فإن معرفة المستشرقين به تأخرت، وسبقهم إلى نشره المشارقة عام 1865م، مع شرح سيدي حسن الشريف (4).

والنحاة طبقات، ألف فيهم النحوي اللغوي أبو منصور الجـوالقي(5) (466 – 540 هـ /1073 – 1145 م) "كتاب طبقات النحاة"، وكان إماما في فنـون الأدب، وفي اللغة أجود منه في النحو، روى عنه الكنـدي(6) (640 – 716 هـ /1242 –

---

(1) - J. B. GLAIRE, **Principes de grammaire arabe**, Paris, 1861.

(2) - BELLERMAN, **Grammaire arabe, idiome d'Algérie, à l'usage de l'armée et des employés civils de l'Algérie**, 4me Edition, Paris, 1860 (210p.).

- انظر: - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 56.

(3) - هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، جمال الدين **بن هشام**، من أئمة العربية. مولده ووفاته بمصر. من تصانيفه: "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" و"عمدة الطالب في تحقيق تصريف بن الحاجب" مجلدان، و"رفع الخصاصة عن قراء الخلاصة" أربع مجلدات، و"الجامع الصغير" نحو، و"الجامع الكبير" نحو، و"شذور الذهب" و"الإعراب عن قواعد الإعراب" و"قطر الندى وبل الصدى" و"التذكرة" 15 جزءا، و"التحصيل والتفصيل لكتاب التذييل" و"أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك" و"نزهة الطرف في علم الصرف" و"موقد الأذهان" في الألغاز النحوية.

- الزركلي، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 147.

(4) - Nouvelles et mélanges, **J. A.**, 6me série, T : 15, 1870, P : 153.

(5) - موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسين، أبو منصور **بن الجوالقي**: عالم بالأدب واللغة، مولده ووفاته ببغداد. من كتبه: "المعرّب" في ما تكلمت به العرب من الكلام الأعجمي، و"تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة" و"أسماء خيل العرب وفرسانها" و"شرح أدب الكاتب" و"العروض" وغيره.

- الزركلي، ج: 7، **مصدر سابق**، ص: 335.

(6) - علي بن المظفر بن إبراهيم **الكندي** الوداعي، علاء الدين، ويقال له **ابن عرفة**: أديب متفنن شاعر، عارف بالحديث والقراءات. من أهل الإسكندرية. أقام بدمشق وتوفي فيها. له: "التذكرة الكندية" 50 جزءا، أدب وأخبار وعلوم، و"ديوان شعر" في ثلاثة مجلدات.

- الزركلي،الأعلام، ج: 5، **مصدر سابق**، ص: 23.

1316 م) وابن الجوزي[1] (508 -597 هـ /1114 – 1201 م)، والجوالقي أيضا، هو صاحب شرح "أدب الكاتب" لابن قتيبة (2) (213 – 276 هـ /828 – 889 م).

ورغم التطور الهائل الذي حدث في الأدب العربي منذ مطلع القرن 19 م، إلا أن القواميس والمعاجم اللغوية العربية لم تعرف ثراء بنفس النسبة التي حققتها فروع الأدب الأخرى. فإلى غاية الأربعينيات، لم يكن المستشرقون يملكون بعد منجدا عربيا جيدا، لقلة الإمكانيات والأدوات التي بحوزتهم في هذا المجال.

واشتهر في الشرق، القاموس العربي للفيروزآبادي[3] (729 – 817 هـ /1329 – 1415 م)، المعروف أكثر بالقاموس المحيط، وقد نشر بكالكوتا حوالي عام 1233 هـ /1817 م، ويحتوي على جل ألفاظ العربية –وهي اللغة التي يعتبرها المستشرقون الأكثر ثراء في العالم– وقبل هذا التاريخ، لم يكن القاموس سوى مخطوط، نادر حتى في الشرق. وأما النسخ المخطوطة من القاموس المحيط، التي اكتشفها الأوربيون، فقد كانت باهظة التكاليف.

---

(1) – عبد الرحمن بن علي بن **محمد الجوزي** القرشي البغدادي، أبو الفرج. مولده ووفاته ببغداد. علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف، منها: "تلقيح فهوم أهل الآثار في مختصر السير والأخبار"، و"الأذكار وأخبارهم"، ومناقب عمر بن عبد العزيز"، و"روح الأرواح"، و"شذور العقود في تاريخ العهود"، و"المدهش في المواعظ وغرائب الأخبار"، و"المقيم المقعد" في دقائق العربية، و"صولة العقل على الهوى" في الأخلاق، و"الناسخ والمنسوخ"، و"تلبيس إبليس"، و"فنون الأفنان في عيون علوم القرآن"، و"لقط المنافع في الطب والفراسة عند العرب، و"المنتظم في تاريخ الملوك والأمم" في ستة أجزاء، و"الذهب المسبوك في تاريخ الملوك"، و"عجائب البدائع"، و"كتاب الحمقى والمغفلين"، و"صيد الخاطر"، و"نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر"، و"تقويم اللسان" وغيره. – **نفس المصدر السابق**، ج: 3، ص: 316-317.

(2) – - DERENBOURG, "Lexicographie arabe", **J. A.**, 6ème série, T : 10, 1867, P : 341 et 343.

– **ابن قتيبة:** هو عبد الله بن مسلم الدينوري، أبو محمد. ولد ببغداد وسكن الكوفة. من أئمة الأدب والمصنفين المكثرين. من كتبه: "أدب الكاتب"، و"تأويل مختلف الحديث"، و"المعارف"، وكتاب"المعاني" ثلاث مجلدات، و"عيون الأخبار"، و"الشعر والشعراء"، و"الإمامة والسياسة"، و"العرب وعلومها"، وغيره. – الزركلي،الأعلام، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 137.

(3) – محمد يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طالب، مجد الدين الشيرازي **الفيروزآبادي**. ولد بكارزين (شيراز)، وانتقل إلى العراق وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند. ورحل إلى زبيد سنة 796 هـ فسكنها وولي قضاءها، وتوفي فيها. من أئمة اللغة والأدب، انتشر اسمه في الآفاق. أشهر كتبه: "القاموس المحيط" في أربعة أجزاء، و"البلغة في تاريخ أئمة اللغة" و"الإشارات إلى ما في كتب الفقه من الأسماء والأماكن واللغات"، وغيره.

– **نفس المصدر السابق**، ج: 7، ص: 146-147.

وكان DE SACY يملك نسخة من هذا القاموس، ونسخة أخرى كانت بحوزة DOM GABRIEL TAOUIL اقتناها من أستاذه في العربية الدارجة بمرسيليا(1).

كان المستشرقون الفرنسيون يقتفون آثار المكتبات والكتب، في أوربا وفي العالم الإسلامي، ولذلك فقد علموا بواسطة المستشرق الدكتور PERRON، الأستاذ بمدرسة الطب بالقاهرة، بمشروع طباعة القاموس المحيط للفيروزآبادي. وكان المشروع يقضي بطبع 1500 نسخة، توزع على مصر والحجاز وسوريا وباقي البلاد الإسلامية الأخرى كالقسطنطينية والهند وبلاد المغرب.

اعتبر PERRON طباعة القاموس فرصة لا تعوض، ولذلك راسل رئيس تحرير المجلة الآسيوية MOHL، مقترحا عليه التعريف بالمشروع في المجلة وطلب عدد معين من النسخ بواسطة القنصل الفرنسي، اعتقادا منه أنها ستباع بسرعة في أوربا. ومن ضمن ما جاء في تفاصيل الرسالة أن مراجعة طباعة القاموس تتم من طرف شيخ PERRON في اللغة العربية وهو الشيخ محمد بن عمر التونسي[2] (1204 – 1274 هـ /1789 – 1858 م)، المعروف بتمكنه من العربية، والذي سيقابل النسخة التي بحوزته، المراجعة والمصححة اعتمادا على 7 أو 8 نسخ، بنسخة القاموس المطبوعة بكالكوتا، كما أسلفنا (3).

---

(1) – L. BARGES, "Note sur un nouveau dictionnaire arabe", publié à Marseille, par, MM. Rochaid et Simon Dahdah, **J. A.**, 4me série, T : 11, 1848, P : 96.

(2) – محمد بن عمر بن سليمان التونسي. ولد في تونس، ورحل إلى السودان ومصر، فاختير مصححا للكتب في مدرسة أبي زعبل بمصر. عالم بمفردات اللغة واصطلاحاتها، ترجمت في أيامه كتب كثيرة في الكيمياء والطب والنبات، فكان يحررها ويهذب لغتها ويأتي لمصطلحاتها بصحيح الألفاظ. توفي بالقاهرة. من كتبه: "الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية"، و"تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد المغرب والسودان"، و"الدر اللامع في النبات وما فيه من الخواص والمنافع" وغيره. وكان على صلة وطيدة بالبعثة الفرنسية في مصر.

– الزركلي، ج: 6، **مصدر سابق**، ص: 318. وكذلك: أبو القاسم سعد الله، بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، بيروت، 2002، ص

(3) – QUATREMERE,"Extrait d'une lettre de M.PERRON, professeur à l'école de médecine au Caire, à M.MOHL, **J. A.**, 3me série, T : 5, 1838, T : 199-200.

ومن القواميس التي تمكن المستشرقون الفرنسيون من نشرها القـــاموس العـــربي- الفارسي-التركي، الذي يعود إلى حوالي عام 1838 (1).

ونشر ROUSSEAU الابن بالجزائر العاصمة، قاموس سير أهم الشعراء العرب، الفرس والأتراك. وكان قد أعده والد الناشر ROUSSEAU، عشرين سنة من قبـــل، أثناء إقامته كقنصل بحلب (2).

وفي حدود سنة 1845، شرع أمـــين مكتبـــة الجمعيـــة الآســـيوية الفرنـــسية KAZIMIRSKI في نشر قاموس ضخم، عربي- فرنسي يتضمن جل ما هو ضـــروري لفهم النصوص العربية القديمة والحديثة (3).

وأصدر DOZY المعجم المفصل لأسماء الألبسة عند العرب، وهو معجم ضـــخم، بحث فيه المؤلف عن المعنى الدقيق للألفاظ التي يستعملها العرب لأي جزء من ملابسهم. وقد توصل في أغلب الحالات إلى إبراز وتوضيح أصل الكلمة، والشكل الدقيق للبـــاس، والبلد وزمن الاستعمال (4). واعتمد "دوزي" في معجمه على اللغويين العرب أمثال الجواهري والفيروزآبادي وابن فارس[5] (329 – 395 هـــ /941 – 1004 م) وغيرهـم.

---

(1) - QUATREMERE, "Publication d'un lexique trilingue Arabe Persan Turc oriental", **J. A.** 3me série, T : 5, 1838, T : 201.

(2) - Le baron ROUSSEAU, "Parnasse oriental, ou **Dictionnaire des meilleurs poètes de l'orient**", Alger, 1841. Rapport annuel, J. A., 1842, **op. Cité, P** : 504.

- انظر أيضا حول الشعراء العرب:
- عفيف عبد الرحمن، **معجم الشعراء**، من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، **معجم** بيليوغرافي يعرف بالشعراء ومراجع دراستهم، ط 1، دار المناهل للطباعة والنشر، بيروت، 1996.
- لويس شيخو، **شعراء النصرانية قبل الإسلام**، ط 2، دار المشرق، بيروت، 1986.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 28.

- De biberstein KAZIMIRSKI, **Dictionnaire arabe-français**, Paris, 1845.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1846, **op. Cité**, P : 33.

(5) - **أحمد بن فارس** بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسن. أصله من قزوين، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الريّ فتوفي فيها وإليها نسبته. من أعيان البيان. ترك عدة تآليف منها: "مقاييس اللغة" في ستة أجزاء، و"الصاحبي" في علم اللغة، و"جامع التأويل في تفسير القرآن" في أربع مجلدات، و"الفصيح" و"تمام الفصيح" و"متخير الألفاظ" و"ذم الخطأ في الشعر" وغيره. ـــ **الزركلي، مصدر سابق**، ج: 1، ص: 193.

وحمل المعجم تفاصيل مثيرة لفضول المستشرقين في مجالات التاريخ والأخلاق وعـــادات الشعوب الإسلامية...الخ (1).

ولعل الكتاب الوحيد، من كتب الجرجـــاني[2](740 – 816 هـــ /1340 – 1413 م)، الذي حافظ على شهرته، هو كتاب التعريفات. وقـــد تـــرك DE SACY مقالا عن الكتاب ومقتطفات منه، برهن فيها على أهميته في مجال اللغة والنحو العربيين.

وظهرت طبعة رديئة لكتاب التعريفات بالقسطنطينية، خـــلال الأربعينيـــات، ولكنها مع ذلك نفدت بسرعة. كما ظهرت طبعة أجود منها لـــ FLUGEL، المهتم أيضا بكتاب الجرجاني، اعتمد فيها على مخطوطي باريس وفينا. ثم فوض مستـــشرقو الجمعية والمجلة الآسيويتين للمستشرق DERENBOURG طبع كتـــاب التعريفـــات وترجمة فرنسية للنص العربي مع شرح وتعاليق(3).

ونشر بمرسيليا رُشيد[4] والماروني سيمون دحداح، علـــى نفقتـــهما، قـــاموس الفيروزآبادي. وكان قد اختصره البحاثة المطران المـــاروني جيرمـــانوس فرحـــات[5]، أسقف حلب المتوفى بجبل لبنان حوالي منتصف القرن 18 م، وقد أضاف إلى المختـــصر ملاحظات خاصة ومفـــردات متعلقة بالديانـــة المسيحية مما لا أثر له في الأصـــل .

---

(1) - R. P. A. DOZY, "Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845", **J. A.**, 4^{me} série, T: 8, 1846, P: 365-368.

(2) - علي بن محمد بن علي، المعروف **بالجرجاني**. ولد في تاكو (قرب استراباد) ودرس في شيراز. ولما دخلها تيمور سنة 789 هـــ فر الجرجاني إلى سمرقند، ثم عاد إلى شيراز بعد موت تيمور، فأقام إلى أن توفي. ترك نحو الخمسين مصنفا منها: "التعريفات" و"مقاليد العلوم" و"تحقيق الكليات" و"الكبرى والصغرى في المنطق" ورسالة في "تقسيم العلوم" و"رسالة في فن أصول الحديث"وغيره.
- الزركلي، الأعلام، ج: 5، **مصدر سابق**، ص: 7.

(3) - Rapport annuel, J.A., 1846, **op. Cité**, P : 31-32.

(4) - **رُشَيْد** بن غالب بن سلوم (1228 – 1306 هـــ /1813 – 1889 م). ولد في عرموس من قرى كروان بلبنان. فهو من مسيحيي لبنان. اتخذه الأمير بشير الشهابي كاتبا لأسراره، فلما خلع الأخير، رحل رشيد إلى مرسيليا وتعاطى التجارة. منحه البابا بيوس التاسع لقب "كونت" وعظمت ثروته. له عدة كتب منها: "طرب المسامع" في الأدب، و"شرح ديوان ابن الفارض".
- الزركلي، الأعلام، ج: 3، **مصدر سابق**، ص: 25.

(5) - جبرائيل بن فرحات (1081 – 1145 هـــ /1670 – 1732 م)، ودعي باسم **جرمانوس**. أصله من حصرون بلبنان، ومولده ووفاته بحلب. مطران ماروني، أتقن اللغات العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية، ودرس علوم اللاهوت، وترهب سنة 1693 م، وأقام في دير بقرب "إدهن" بلبنان. من كتبه: "بحث المطالب" في النحو والصرف، و"الأجوبة الجليلة في الأصول النحوية" و"أحكام باب الإعراب" في اللغة، و"ديوان شعر" و"بلوغ الأرب" وغيره. - **نفس المصدر السابق**، ج: 3، ص: 109- 110.

كما استفاد الناشران من جل القواميس الأصلية التي سبقتهما، وجعلا بين قوسين الإضافات القائمة على أبحاثهما، وأشارا إلى الكلمات التي ليست ذات أصل عربي، فوفرا بذلك وسيلة عمل أكثر جدة، وأسهل اقتناء، في نظر المستشرقين، من شأنها أن تشكل بديلا لقاموس الفيروزبادي، فضلا عن أنها طبعت بحروف جديدة وعلى ورق جميل وفي حجم صغير(1). وحمل القاموس الجديد عنوانا بالعربية: "باب الإعراب عن لغة الأعراب"، وجاء في 723 صفحة، بنص عربي، مسبوق بفاتحة القاموس بالفرنسية، وينتهي بمختصر في النحو (2).

كان للفرنسيين في لغتهم عدد من المفردات ذات اشتقاق -لأسباب مختلفة- من العربية، الفارسية والتركية. وهي أصول لم يحدث أن جمعت أو نشرت من قبل. فقام المستشرق PIHAN بإعدادها ونشرها في معجم (Glossaire)، جمع فيه كل الكلمات ذات الأصول الشرقية الموزعة على كتب شتى، وفوق ذلك أثراها بعدد آخر من المفردات ذات الشبه القريب بمفردات اللغات الشرقية الإسلامية الثلاث. وقد لاحظ المستشرقون الفرنسيون، بعد صدور المعجم، أن المفردات الفرنسية المأخوذة من العربية، هي أكثر بكثير مما كانوا يتصورون. وكان قد سبق PIHAN لعمل مماثل، كل من ALDRETE بالنسبة للغة الإسبانية و JEAN DE SOUSSA بالنسبة للبرتغالية (3).

ورغم ما ذكر من قواميس ومعاجم ضرورية لدراسة المصادر العربية، إلا أنها غير كافية، في نظر CHERBONNEAU ما دامت لا توضح بعضا من الألفاظ المتداولة على لسان الجزائريين، وهو ما حاول "شيربونو" سده منذ أن أقام بقسنطينة،

---

(1) - L'Abbé BARGES, "Note sur un nouveau Dictionnaire arabe", Marseille J. A., 1848, **op. Cité**, P : 96-97.

(2) - L'Abbé BARGES, Bibliographie, Dictionnaire arabe de Germanos Farhat, revu, corrigé et augmenté, par Rochaid. Marseille, 1849, **J. A.**, 4me série, T : 14, 1849, P: 7-89.8

(3) - GRANGERET DE LAGRANGE, Bibliographie, Glossaire des mots français tirés de l'arabe du persan et du turc, A.P. PIHAN, Duprat. Paris, 1847, (312p.), **J. A.**, 4me série, T : 9, 1847, P : 283-284.

- وكذلك: - Rapport annuel, J.A., 1848, **op. Cité**, P : 123.

بجمع العبارات وتقديم تعاريف لها. وقد قسم عمله هذا إلى عدة أقسام، تضمن الأول منها أكثر من مائتي اسم، منها 125 موصوفا، ومشروح بترتيب على الحروف. وتضمن القسم الثاني أسماء النعت والأفعال، والثالث بعضا من الجمل والعبارات الاصطلاحية(1).

بقي لنا في ختام استعراضنا لاهتمامات المستشرقين، في مجال المعاجم والقواميس اللغوية، إشارة إلى معجم من نوع خاص، يتعلق بالبيبليوغرافيا كمعين للمعارف العلمية، لاسيما حينما يتعلق الأمر بأدب متطور تضاعف عدد كتبه إلى حد لم يعد بوسع شخص أن يعرف كل ما نشر في مجال من مجالاته، إلا بمساعدة كتب البيبليوغرافيا(2).

وكان أبرز وأهم قاموس بيبليوغرافي -خاص باللغات الإسلامية وعلى رأسها العربية- استرعى اهتمام المستشرقين، بل وأثار إعجابهم، هو قاموس حاجي خليفة[3] (1017 – 1067 هـ /1609 – 1657 م) الذي تضمن 15 ألف كتاب عربي، فارسي وتركي، ولاسيما الكتب العربية منها على الخصوص[4].

---

(1) - CHERBONNEAU, "Définition lexicographique de plusieurs mots usités dans dans le langage de l'Afrique septentrionale, **J. A.**, 4 me série, T : 13, 1849, P :63.

(2) - REINAUD, Hadji-Khalfa (sic), Léxicum…, **J. A.**, 5me série, T : 14, 1859, P : 240.

(3) - **حاجي خليفة**: مصطفى بن عبد الله، التركي أصلا، القسطنطيني ولادة ووفاة، الحنفي مذهبا: مؤرخ، بحاثة، مستعرب، عالم، ومن أكابر أصحاب الموسوعات. انقطع في السنوات الأخيرة من حياته إلى تدريس العلوم واهتم بتدوين أسماء الكتب التي يجدها عند الوراقين الكتبيين وفي خزائن الآستانة، وكان يقتني المؤلفات. من أشهر مؤلفاته: "كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" ذكر فيه أكثر من 15000 كتابا وأحوال مؤلفيها، رتبه على حروف الأبجدية، و"سلم الوصول إلى طبقات الفحول" جمع فيه تراجم أساطين الأوائل والأواخر، و"ميزان الحق في اختيار الأحق" في العقائد والتصوف. لقب عند أهل الديوان بحاجي خليفة لأنه صحب والي حلب الصدر الأعظم محمد باشا إلى مكة فحج وسمي من ذلك الحين حاجي... ولقب خليفة منذ كان معاونا أو وكيلا في مصلحة المؤونة في الآستانة، والمعاون عندهم يسمى خليفة. انظر أيضا: كاتب چلبي. - السيد، معجم الألقاب، **مصدر سابق**، ص: 68.

(4) - انظر: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج: 1+2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.

- هناك كتاب مكمل "لكشف الظنون" لإسماعيل باشا البغدادي، وهو بعنوان :

- **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار العلوم الحديثة، بيروت، د.ت.

قام FLUGEL بمقابلة مخطوطات فينا وباريس وبرلين بالقاموس البيبليوغرافي لحاجي خالفة، واستعان بأعمال المستشرقين والعلماء ومخطوطات المكتبات العمومية قصد استرجاع عناوين الكتب وأسماء الأعلام، التي ظلت في كتاب ضخم كهذا تعاني إهمال النساخ، وتمكن FLUGEL من تحرير النص ونقله إلى اللاتينية، ثم طبعه بمساعدة لجنة الترجمة بلندن، والتي تكفلت بنفقات الطبع(1). وفيما ظهر المجلد الأول من الطبعة عام 1835، لم يتوقف الناشر عن مراجعة عمله طوال 25 سنة.

والمستشرق FLUGEL نفسه هو الذي صار فيما بعد يحضر طبعة لكتاب في البيبليوغرافيا، لعله الأول من نوعه في تاريخ البيبليوغرافيا، إنه كتاب الفهرست لابن النديم(2) (توفي عام 438 هـ /1047 م).

وفي مجال البلاغة العربية، فقد نشر DE TASSY كتابا حول بلاغة الأمم الإسلامية، والعربية منها على الخصوص، اعتمادا على كتاب: "حدائق البلاغة" للسيد مير شمس الدين الدهلوي[3] (توفي عام 1180 هـ /1766 م)، وهو كتاب يتمتع بشهرة كبيرة في الشرق، أدق من كتاب "مختصر المعاني"، الذي يعد تطويرا لكتاب "تلخيص المعاني" لجلال الدين محمد (4).

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 44-45.

(2) - **ابن النديم** البغدادي: محمد بن إسحاق، أبو الفرج بن أبي يعقوب النديم. كان وراقا أي بائعا للكتب. كما كان معتزليا متشيعا. عاش قرابة التسعين سنة. له كتاب آخر غير "الفهرست" سماه "التشبيهات".

- الزركلي، ج: 6، **مصدر سابق**، ص: 29.

- كتاب "الفهرست" من أقدم كتب التراجم وأفضلها. ألفه ابن النديم في شبابه وعاود النظر فيه في كهولته.

- انظر: النديم، **كتاب الفهرست**، تحقيق رضا المازني، ط 3، دار المسيرة، د.م.ط.، 1988.

يبدأ بالفن الأول: وصف لغات الأمم، من العرب والعجم، ونعوت أقلامها وأنواع خطوطها، وأشكال كتابتها.

الفن الثاني: في أسماء كتب الشرائع المنزلة على مذهب المسلمين ومذاهب أهلها. ...الخ.

- REINAUD, Hadji-Khalfa (sic), J. A., 1859, **op. Cité**, P: 245.

(3) - هو مير شمس الدين محمد الدهلوي، الشاعر. له ديوان كليات أشعاره قريب من عشرة آلاف بيت فارسي. انظر:

- إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، 1955، ص: 336.

(4) - Garçin DE TASSY, "La Rhétorique des nations Musulmanes", **J. A.**, 4^{me} série, T : 4, 1844, P : 366.

وينقسم كتاب حدائق البلاغة إلى عدة أقسام، هي: البيان (Exposition) والبديع (Figure) والعروض (Métrique) والقافية (Rime) ...الخ(1). وقد أجاد DE TASSY في اختياره الكتاب في موضوعه، ذلك أن الكتاب في غاية الدقة والبيان والوضوح.

ومادمنا بصدد كتب البلاغة، يذكر ابن خلدون ما نصه: «سمعنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة دواوين وهي: "أدب الكاتب" لابن قتيبة و"كتاب الكامل" للمبرد[2] (210 – 286 هـ /826 – 899 م) و"كتاب البيان والتبيين" للجاحظ[3] (163 – 255 هـ /780 – 869 م) و"كتاب النوادر" لأبي علي القالي البغدادي[4] (288 – 356 هـ /901 – 967 م) وما سوى هذه الأربعة فتبع لها

---

[1] – **نفس المصدر السابق**، ص: 367.

[2] – **المبرد:** محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، البصري ولادة، البغدادي إقامة ووفاة. لقبه المازني المُبرد (بكسر الراء)، أي المثبت للحق فعيره الكوفيون وفتحوا الراء وجعلوه بمعنى البارد. إمام العربية والنحو في زمنه، وأحد أئمة الأدب. كان يمثل مذهب البصريين في النحو. أشهر مؤلفاته: "الكامل في اللغة والأدب و"طبقات النحاة البصريين" و"إعراب القرآن" و"المقتضب".

– فؤاد صالح السيد، **معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العربي والإسلامي**، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1990.

وكتاب الكامل في اللغة والأدب: يجمع فنون الآداب بين كلام منثور وشعر مرصوف ومثل سائر وموعظة بالغة واختيار من خطب شريفة ورسائل لطيفة، والنية فيه أن يفسر المبرد كل ما وقع في كتاب الكامل من كلام غريب أو معنى مستغلق وأن يشرح ما يعرض فيه من الإعراب شرحا شافيا حتى يكون الكتاب بنفسه مكتفيا وعن أن يرجع إلى أحد في تفسيره مستغنيا.

– خليفة، كشف الظنون، ج: 2، **مصدر سابق**، ص: 1382. انظر أيضا الكتاب مطبوعا:

– **الكامل**، حققه وعلق عليه محمد أحمد الدالي،الأجزاء: 1+2+3+4 (فهارس)، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.

[3] – **الجاحظ:** عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان، البصري ولادة ووفاة، البغدادي إقامة. كبير أئمة الفكر والثقافة، وكبير شيوخ اللغة والأدب والنقد والبيان. مؤسس فرقة من المعتزلة "الجاحظية". من أشهر كتبه: "الحيوان" في سبعة أجزاء، و"البيان والتبيين" في ثلاثة أجزاء، و"البخلاء" كتاب في النقد الاجتماعي والخلقي. – السيد، **مصدر سابق**، ص : 68.

[4] – **أبو علي القالي:** إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سليمان، والقالي نسبة إلى "قالي قلا" بين طرابزون ومناز جرد حيث ولد (على الفرات الشرقي قرب بحيرة وان). وأهل المغرب هم الذين يلقبونه بالبغدادي لمجيئه إليهم من بغداد. تعلم في بغداد وأقام 25 سنة، ثم رحل إلى المغرب سنة 328 هـ /939 م، فدخل قرطبة أيام عبد الرحمن الناصر واستوطنها، وأحبه الحكم المستنصر بن الناصر. يقال إنه هو الذي كتب إليه ورغبه في الوفود عليه. وكان الحكم قبل ولايته الأمر، وبعد توليه، ينشطه على التأليف بواسع العطاء، ويشرح صدره بوافر الإكرام. ومات أبو علي في أيامه بقرطبة. من أشهر تصانيفه: "كتاب النوادر" ويسمى "أمالي القالي في الأخبار والأشعار، و"البارع" من أوسع كتب اللغة، و"المقصور والممدود والمهموز" و"الأمثال".

وفروع عنها»(1). إلا أن المستشرقين الفرنسيين، وإلى نهاية الفترة التي تعنينا، لم يكونوا قد أفلحوا في طبع واحد من هذه الأمهات أو المظان، التي تشكل دوائر معارف في فـــن الأدب.

ومن المستشرقين الأوربيين الذين اهتموا بالموضوع، نجـــد الألمـــاني WRIGHT بليدن، الذي طبع كتاب الكامل للمبرد بتكليف من الجمعية الآسيوية الألمانية، وصدرت نشرته الأولى عام 1866 م(2).

وكانت قصة ألف ليلة وليلة[3] من القصص التي نشرت منذ بدايـــة المرحلـــة، وشغلت مستشرقي الجمعية الآسيوية الفرنسية بداية من أول عدد من أعداد المجلة(4). وأما ترجمتها، فتمت على يد المستشرق LANE وقد أرفقها بشروح ضافية وعميقـــة، في نظر المستشرقين(5). وواصل FLEISCHER نشرة أخرى لألف ليلة وليلة، كان قد بدأها HABICHT قبل وفاته(6). كما نشر RAT، عضو الجمعيـــة الآســـيوية بطولون، مقتطفات من الكتاب عام 1869، وكان يعتزم القيام بترجمة كاملة له(7).

وفي سياق اهتمام المستشرقين بالقصص العربية، نشر DE SACY قصة كليلـــة ودمنة(8)، كما نشر PERRON بالجزائر ترجمة لقصة بعنوان: "سيف التيجان"، يصفها في التمهيد على أنها عينة لقسم كبير من روايات الفروسية المنتشرة لدى العـــرب، وغـــير

- الزركلي، الأعلام، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 321-322.

(1) – ابن خلدون، مقدمة العلامة، **مصدر سابق**، ص: 343.

(2) – - Rapport annuel, J.A., 1864, **op. Cité**, P: 45.

- Hartwig DERENBOURG, "The Kamil of El Mubarrad…" , **J. A.**, 6me série, T: 8, 1866, P: 259.

(3) – انظر لاحقا.

(4) – - "Edition des milles et une nuit", **J. A.**, T: 1, 1822.

(5) – - Rapport annuel, J. A., 1841, **op. Cité**, P: 27.

(6) – - Rapport annuel, J. A., 1842, **op. Cité**, P: 496.

(7) – - Procès Verbal de la Société, **J. A.**, 6me série, T: 14, 1869, P: 132.

– وكذلك: - Rapport annuel, J. A., 1870, **op. Cité**, P : 74.

(8) – - KOSEGARTEN, Lettre du 19/ 07/ 1849 a REINAUD, **J. A.**, 4me série, T : 14, 1849, P : 256.

المفهومة لدى الأوربيين. وقد تساءل الناشر ما إذا كانت هذه الروايات تتوجه إلى نفس قـــراء ألف ليلة وليلة ورواية عنترة(1).

وأما كتاب الأغاني[2] لأبي علي بن حسين الأصبهاني[3] (284-356 هـــــ /897-967 م)، فقد عرف منذ الحملة الفرنسية على مصر، إذ عـــاد RAIGE أثنـــاء الانـــسحاب بمخطوط له، فاقتنته منه المكتبة الملكية، وكان يتشكل من أربعة أجـــزاء(4). عـــرف بـــه QUATREMERE قراء المجلة الآسيوية بدءا من 1835 م، وكان يرى في ترجمتـــه الكاملـــة مشروعا ضخما يستحيل تحقيقه دون الاستغناء عن أمور عديدة منه(5).

إلا أن المستشرق الألماني KOSEGARTEN بادر بنشر كتاب الأغاني بعناية فائقة، وتم صدوره عام 1840 م، وأرفقه بمقال مثير لفضول المستشرقين الفرنسيين عن الموسيقى العربية.

وكتاب الأغاني مجموعة ضخمة من القصائد والأشـــعار، وتفاصـــيل في الـــسير والقصص الأدبية والتاريخ العربي(6). ولم يكن الكتاب قد اكتمل نشره بعد، عام

---

(1) - Dr. PERRON, **Glaive des Couronnes (Seif-el-Tidjan)**, Roman traduit de l'arabe, Paris, 1862, 334p.

- انظر: - J. A., 1863, **op. Cité**, P : 57-58. Rapport annuel.

(2) - هو كتاب في 21 جزءا لم يؤلف مثله اتفاقا، جمعه في خمسين سنة. كان مشحونا بالمحاسن المنتخبة والفقر الغريبة، فهو للزاهد فكاهة، وللعالم مادة وزيادة، وللكاتب والمتأدب بضاعة وتجارة، وللبطل رجلة وشجاعة، وللمضطرب رياضة وصناعة، وللملك طيبة ولذاذة.

- خليفة، كشف الظنون، **مصدر سابق**، ج: 1، ص: 129.

(3) - **أبو الفرج الأصبهاني**: علي بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم، أبو الفرج. ولد في أصبهان، ونشأ وتوفي في بغداد. أموي شيعي، على ما يذكر الذهبي. كان يبعث بتصانيفه سرا إلى الأندلس الأموي فيأتيه إنعامه. أحد أئمة الأدب، الأعلام في معرفة التاريخ والأنساب والسير والآثار واللغة والمغازي. من كتبه: "الأغاني"، و"مقاتل الطالبيين"، و"الإماء الشواعر"، و"أيام العرب" ذكر فيه 1700 يوم، و"التعديل والإنصاف" في مآثر العرب ومثالبها، و"جمهرة النسب"، و"مجرد الأغاني"، و"آداب الغرباء"، وغيرها. - الزركلي، الأعلام، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 278.

(4) – حجم الجزء الأول من كتاب الأغاني:390 ص، والثاني: 369 ص، والثالث: 493 ص، والرابع: 374 ص.
QUATREMERE, "Mémoire sur l'ouvrage intitulé" كتاب الأغاني **N. J. A.**, 2me série, T : 16, P : 395.

(5) - **نفس المصدر السابق**، ص: 394.

(6) - DE PERCEVAL, "Ces poèmes fameux…", **N.J.A.**, 2me série, T : 12, 1833, P : 98.

1867 م، بل توقف نشره، إما بسبب وفاة KOZEGARTEN أو لسبب آخر، فيما عقد AHLWARDT النية على استئنافه(1).

كان الشعر العربي أكثر ميادين الأدب التي أسالت حبرا كثيرا على صفحات المجلة الآسيوية، سواء من المستشرقين الفرنسيين أنفسهم، أو من غيرهم من الأوربيين ممن كان يعرف بأعمالهم أيضا. فنشر MUNK مقالا مطولا حول "تاريخ الشعر أو القصيدة العربية" (2). ونشر RUCKERT ببرلين سيرة لأمرؤ القيس(3)(نحو 130 – 80 ق.هـ. /497 -545 م) مقتبسة من أشعاره، التي طبع من خلالها مشاعره، لاسيما وأن حياته كانت متنوعة، بصفته محاربا شارك في جل المعارك لأكثر الأوقات اضطرابا في تاريخ شبه الجزيرة العربية(4).

وتردد FRESNEL طويلا قبل نشره فعلا، ترجمة جديدة لشعر الشنفرى(5) (توفي حوالي 70 ق.هـ. /525 م)، بعنوان: "لامية العرب"، مما يعني خشيته إعادة ما قام به "دو ساسي" قبله مرتين في أول وثاني نشر لمنتقياته الأدبية(6).

أما شرح الزمخشري لشعر الشنفرى المشكل من 136 بيتا، والذي هو عبارة عن حواشي وتعاليق الزمخشري عن "لامية العرب"، فلم يكن المستشرقون الأوربيون يملكون

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1867, **op. Cité**, P : 39.

(2) - MUNK, "Histoire de la poésie arabe", **N.J. A.**, 2me série, T : 14, 1834, PP : 541-556.

(3) - **امرؤ القيس**: بن حُجْر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار: أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يماني الأصل، مولده بنجد. لقب بامرئ القيس واختلف في سبب ذلك على وجهين:
- الأول: أنه لقب بذلك لشدته. والقيس لغة: الشدة.
- الثاني: أنه لقب بذلك لجماله، وذلك لأن الناس"قيسو" إليه في زمانه فكان أفضلهم.
- السيد، **مصدر سابق**، ص: 41.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1843, **op. Cité**, P : 498.

(5) - **الشنفرى**: عمرو بن مالك الأزدي، من قحطان: شاعر جاهلي يماني. لقب بالشنفرى لأنه كان غليظ الشفتين. من فحول الطبقة الثانية، ومن الشعراء الصعاليك. كان من فتاك العرب وعدائيهم، علمه خاله "تأبط شرا" اللصوصية وضمه إلى جماعته، وهو أحد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائرهم. قتله بنو سلامة.
- السيد، **مصدر سابق**، ص: 184.

(6) - F. FRESNEL, "Lamiyat Al-Arab, poème de Schanfara" traduction nouvelle, Lettre : le Caire, 22/10/1833, à M. Watson, savant Ecossais, **N. J. A.**, 2me série, T: 14, 1834, P: 250.

منه إلا نسخة واحدة وهي المحفوظة في مكتبة الأسكوريال، التي عكف FRESNEL على دراستها طوال أشهر(1).

ونشر DERENBOURG لأول مرة، نص ديوان النابغة الذبياني[2] (توفي حوالي 18 ق.هـ. / 605 م)، اعتمادا على مجموعة من المخطوطات(3). وكان الشاعر قد عاش في الحيرة ثم في غسان، مادحا الملوك والأمراء، الخاضعين لهيمنة الفرس أو البيزنطيين. كان ذلك في القرن الذي سبق ظهور الإسلام، والذي كان فيه النابغة أحد آخر الشعراء المتميزين. ذلك أنه لم يحدث أن أحدا، استأهل أن يعد من الفحول كما استأهل الذبياني، لاشتمال ديوانه على عدد هائل من الحكم. ففكره النبيه ورزانته دفعاه إلى استخلاص العبر من الأحداث والوقائع وتعميمها(4).

كتب النابغة ديوانه شمال شبه الجزيرة العربية، ولم يعد متوفرا في بلاد الشام في خلافة عبد الملك بن مروان، بينما عثر عليه، في نفس الفترة تقريبا، في خراسان ببلاد فارس عند أحد القراء وهو الجنيد بن عبد الرحمن[5] (توفي عام 115 هـ /733 م)، وسيجد الديوان في الأندلس، قراء له ونساخا وشراحا(6).

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 253-254.

(2) - **النابغة الذبياني**: زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني، المضري، أبو أمامة: من فحول شعراء الجاهلية ومن الطبقة الأولى فيها، وأحد الأشراف. كانت له حظوة عند ملك الحيرة النعمان بن المنذر. من أشهر شعره "الغسانيات" وهي القصائد التي نظمها في مدح ملوك الغساسنة، و"الاعتذاريات" وهي القصائد التي نظمها النعمان بن المنذر يعتذر إليه. اختلف في سبب تلقيه بالنابغة منها: لأنه نظم الشعر بعدما كبرت سنه، ومنه "المنشد" وهو ما يطلق على الشاعر عندما ينشد شعره الآخرين نظرا لنبوغه في شعره وتفوقه فيه. - السيد، **مصدر سابق**، ص: 321.

(3) - H. DERENBOURG, "Le Diwan Nabigha Dhobyani, texte arabe, introduction historique, **J. A.**, 6me série, T: 12, 1868, P: 197.

(4) - **نفس المصدر السابق**، ص:203 و209.

(5) - **الجنيد بن عبد الرحمن** بن عمرو بن الحارث المري الدمشقي: أمير خراسان، وأحد الشجعان الأجواد الممدوحين. ولاه هشام بن عبد الملك سنة 111 هـ فثبت في الولاية إلى أن مات في خراسان.
- الزركلي، الأعلام، ج: 2، **مصدر سابق**، ص: 140.

(6) -DERENBOURG, "Le Diwan Nabigha", J. A., 1868, **op. Cité**, P : 266.

ونشر المستشرق BOUCHER مقالا عن عروة بن الــورد[1] (تــوفي نحــو 30 ق.هــ. /594 م) وذي الإصبع العدواني (توفي حوالي 22 ق.هــ. /600 م) (2).

أما ذو العصبة، فلم يسبق أن تناوله أحد من المستشرقين من قبل. فهو حرثان بــن حارث أقدم من عروة بن الورد، وينحدر من مضر عن طريق قيس بن عيلان. وكانــت سلطة قبيلة عدوان التي ينتمي إليها ذو العصبة بمنى وضواحيها، واستمرت قوة وازدهــار قبيلته حتى القرن 5 م.

وأما عروة بن الورد من الصعاليك، فهو من قبيلة عبس، عاش سنوات قليلة قبل بعثة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾. حاز شهرة، رغم فقره، بعبقريته الشعرية وفروسيته وتحرره. وقد عرفه المستشرقون بما فيه الكفاية، من خلال مقتطفات من شعره ومقال عــن حياتــه. وكان BOUCHER قد استخرج أشعار وقصائد عروة وذي العصبة من كتاب الأغاني(3).

ويعتبر ديوان أو رواية عنترة بن شداد[4] (توفي حوالي 22 ق.هــ. /600 م) من الروايات النادرة في مصر، وأقل منها في سوريا، خلال الفترة التي تعنينا، غير أنها متوفرة في مكتبات أوربا. وهناك نسختان حديثتان نُسِختا بالقــسطنطينية لــصالح البــارون

---

(1) – **عروة بن الورد**: بن زيد، العبسي، من غطفان: شاعر من شعراء الجاهلية، وفارس من فرسانها، وصعلوك من صعاليكها المعدودين المقدمين من الأجواد، له ديوان شعر. لقب بعروة الصعاليك لجمعه الصعاليك وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم، و لم يكن لهم معاش ولا مغزى.

– السيد، **مصدر سابق**، ص: 196.

(2) – **ذو الإصْبَع العَدْوَاني**: حُرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة، من عدوان، ينتهي نسبه إلى مضر: شاعر حكيم شجاع جاهلي. لقب بذي الإصبع لأن حية نهشت إصبع رجله فقطعها، ويقال كانت له إصبع زائدة. عاش طويلا حتى عد من المعمرين. له حروب ووقائع وأخبار. وشعره مليء بالحكمة والعظة والفخر، قليل الغزل والمديح. – الزركلي، الأعلام، ج: 2، **مصدر سابق**، ص: 173.

- R. BOUCHER, "Deux poètes Anté-Islamiques, Notice sur Orwa Ben El Ward…", **J. A.**, 6me série, T : 9, 1867, P : 121-123.

(3) – **نفس المصدر السابق**، ص: 121-123.

(4) – **عنترة بن شداد**: بن عمرو بن معاوية بن قراد العبسي: أشهر فرسان العرب في الجاهلية، ومن شعراء الطبقة الأولى. من أهل نجد. كان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفسا، يوصف بالحلم على شدة بطشه، وفي شعره رقة وعذوبة. ينسب إليه "ديوان شعر" أكثر ما فيه مصنوع. و"قصة عنترة" خيالية يعدها المستشرقون من بدائع آداب العرب، وقد ترجموها إلى الفرنسية والألمانية، و لم يعرف واضعها. وللمستشرق الألماني Thorbecke كتاب عن "عنترة" طبع في هيدلبرج سنة 1868، ولمحمد فريد أبي حديد "أبو الفوارس عنترة بن شداد" ولفؤاد البستاني "عنترة بن شداد". – الزركلي، الأعلام، ج: 5، **مصدر سابق**، ص: 92.

D'ITALINSKI والمترجم الفرنسي CARDIN. وتؤكد الروايـــات الـــشعبية الـــتي استقاها المستشرقون، شهادات بعض المخطوطات التي تميز بين مصدرين، مختلفين قليلا، لرواية عنترة وهما: السيرة العراقية والسيرة الحجازية. ومن المفترض أنهمـــا حررتـــا في القطرين كل على حدة.

ولعل المستشرق Will JONES هو أول من لفت انتباه غيره من المستـــشرقين الأوربيين إلى رواية عنترة. وقد قدم للنص وترجم منه مقطعا من النوع الغزلي. كمـــا نشر KOSEGARTEN ضمن مختاراته الأدبية العربية مقطعا لعنترة، وهي المقـــاطع الوحيدة في علم DE PERCEVAL، التي كانت قد ظهرت من الروايـــة إلى غايـــة 1833 م.

وأثنى DE HAMMER على الرواية منذ أن قام HAMILTON بترجمة انجليزية للثلث الأول من الكتاب وطبعه بباريس(1).

وأصدر DE PERCEVAL ضمن منتقياته العربية العامة مقاطع من رواية عنترة، التي تؤرخ للشخصية الأكثر شهرة في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، وهي الرواية التي نهل منها رواة مصر وسوريا.

يبدأ المجلد الأول من رواية عنترة، بغزوة للأمير شداد يستولي أثناءها على زنجيـــة هي زبيبة[2]، أم عنترة. ثم يأخذ الكاتب بطله منذ ولادته ويتتبع خطاه حتى وفاته.

يتصدر الكتاب مقدمة طويلة، جاءت في شكل ملخص لوقائع شبه الجزيـــرة العربية قبل ظهور عنترة. إنها نظرة عامة أسطورية شاهدة على تفرق أبناء نزار، مـــن أبناء نوح، والمغامرات العجيبة لنمرود، وتاريخ إبراهيم وإسماعيل، فمـــيلاد القبائـــل العربية.

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص: 107.

(2) – لقب عنترة بن شداد **بابن زبيبة** أيضا، وهي أمه وكانت جارية حبشية سوداء.

– السيد، **مصدر سابق**، ص: 150.

مؤلف رواية عنترة غير معروف على العموم، لدى المشارقة أنفسهم. لكن مخطوطا نشره DUGAT، يفيد أنه سيد يوسف بن إسماعيـــل(1). ولا يعـــرف المستـــشرقون الكتاب إلا في نَسْخه الأخير، الذي يبدو أنه يعود إلى القرن 10 هـــ / 16 م.

ومنذ أن حاول HAMILTON عام 1820 دمج عنتـــرة في الثقافـــة الأوربيـــة بشروعه في نشر ترجمة للأجزاء الأربعة من روايته، اســـتخرج منـــه كـــل مـــن DE PERCEVAL وCHERBONNEAU وDUGAT بعض المراحل الأكثر إثارة.

ورسم DUGAT خطة لنشر الكتاب. وقام سليمان الحريري التونسي[2] بعـــد هؤلاء المستشرقين بنشر نص الكتاب في جريدة "برجيس باريس" التي أنشأها. وجـــاء دور DEVIC حين رأى ضرورة تخفيف الكتاب بإزالة جزء كبير من القطع الـــشعرية المحلية للقصص العربية الكثيرة بالنسبة للقارئ الأوربي(3).وحين أوشكت المرحلة التي تعنينا على نهايتها، كان BOUCHER قد شرع في نشر ديوان شاعر القرن الهجـــري الأول الفرزدق[4] (توفي عام 110 هـــ /728 م)، المشهور في أوساط النحويين.

---

(1) - G. DUGAT, "Notice sur un manuscrit du roman d'Antar", **J. A.**, 5me Série, T : 7, 1856, P : 258-259.

- لعله يوسف بن إسماعيل بن علي (562 – 635 هـــ /1166 – 1237 م)، أبو المحاسن، شهاب الدين، المعروف بالشواء: شاعر من الأدباء. له "ديوان شعر" في أربعة أجزاء.

- الزركلي، الأعلام، ج: 8، **مصدر سابق**، ص: 217.

(2) - **الحرائري التونسي** (1240 – 1292 هـــ /1824 – 1875 م): سليمان بن علي الحرائري الحسني. ولد بتونس وأتقن الفرنسية، واضطلع في الطب والطبيعيات والرياضيات. ولاه باي تونس رئاسة الكتاب في إيالته سنة 1840. ثم رحل إلى باريس وشغل أستاذا بمدرسة اللغات الشرقية، كما تولى إنشاء جريدة "برجيس باريس" وكان يصدرها رشيد الدحداح. وصنف رسالة في "حوادث الجو" وكتاب "عرض البضائع العام" وصف به أحد معارض باريس، وترجم كثيرا من الفرنسية.

- **المصدر السابق**، ج: 3، ص: 131.

(3) - L. Marcel DEVIC, Trad., **Les aventures d'Antar, fils de Cheddad,** Roman arabe des temps anté-islamique, Paris, S.D. ,(369p).

- Rapport annuel, J. A., 1864, **op. Cité**, P : 47-48.

(4) - **الفرزدق**: همام بن غالب بن صعصعة التميمي، أبو فراس، الدارمي البصري ولادة ونشأة. شاعر. عاش حياته متنقلا بين الأمراء والولاة يمدح واحدهم ثم يهجوه ثم يمدحه. هو واحد من ثلاثة (الأخطل وجرير والفرزدق) كانوا يشكلون ما دعي بالثالوث الأموي، قام على مناكبهم صرح الشعر العربي في عصر بني أمية. وللفرزدق ديوان شعر. لقب بالفرزدق إما تشبيها له بالرغيف الضخم، أو القطعة من العجين لأن وجهه كان غليظا.

- السيد، **مصدر سابق**، ص : 245 – 246.

يتضمن ديوان الفرزدق المدح والإطراء للخلفاء والفاتحين، وفيه أيضا الأهاجي وقدح الثوار والخوارج والقادة المستبدين وأعداء الفرزدق(1).

كما نشر ENGELMEN بليدن، ديوان حضيرة[2]، شاعر العهد النبوي. وقد أرفق الأشعار بشرح اليازدي، وملاحظات نقدية وترجمة لاتينية(3). فيما نشر AHLWARDT قطعا من أشعار أبي نواس[4] (146 – 198 هـ /763 – 814 م) وعددها 71 بيتا(5).

ويعود تأليف "الحماسة" إلى مطلع القرن 3 هـ/ 9 م، والمقصود بها هنا حماسة[6] الشاعر أبي تمام[7] (188–231 هـ /804–846م). جمعها حين كان بهمدان أين أوقفته الثلوج وهو راجع من خراسان، وهناك راح يملأ فراغه المفروض عليه في مكتبة أبي الوفاء الغنية. فكانت الحماسة مختارات من عدد من المجموعات الشعرية.

---

(1) - BOUCHER, **Diwan de FERAZDAK**, récits de Mohammad ben Habib, d'après Ibn el-Arabi, publié en arabe sur le manuscrit de Sainte Sophie, avec une traduction française et des notes, Paris, 1870, (154p).
- Rapport annuel, J. A., 1870, **op. Cité**, P : 72.

(2) – لعله الحضرمي بن عامر بن مؤله. انظر: الزركلي، **مصدر سابق**، ج: 2، ص: 263.

(3) – Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 31.

(4) – **أبو نواس**: الحسن بن هانئ بن عبد الأول بن الصباح، أبو علي، الأهوازي ولادة، البصري نشأة، البغدادي إقامة ووفاة. شاعر العصر العباسي الأول. عاشر مجان عصره وخلعاءه في البصرة والكوفة أمثال: والبة بن الحباب الأسدي ومطيع بن إياس فتأثر بهم وتخرج على مذهبهم في الفسق والتهتك والفجور. فكان أبو نواس رأس شعراء الخمر عند العرب على الإطلاق. من آثاره "ديوان شعر". لقب بأبي نواس لذؤابتين من الشعر كانتا تنوسان(أي تتحركان) على عاتقيه.
– السيد، **مصدر سابق**، ص : 331.

(5) – Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 41.

(6) – "**الحماسة**": جمع فيها أبو تمام ما اختاره من أشعار العرب العرباء، ورتب على أبواب عشرة: الحماسة والمراثي والأدب والنسيب والهجاء والإضافات والصفات والسير والملح ومذمة النساء، واشتهر ببابه الأول. والحماسة شجاعة العرب. – خليفة، كشف الظنون، ج : 1، **مصدر سابق**، ص : 691.

(7) – **أبو تمام**: حبيب بن أوس بن الحارث الطائي. ولد في جاسم (من قرى حوران بسوريا) ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق. ثم ولي بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتى توفي بها. شاعر وأديب، وأحد أمراء البيان. ترك عدة تصانيف منها: "فحول الشعراء" و"ديوان الحماسة" و"مختار أشعار القبائل" و"الوحشيات" وهو ديوان الحماسة الصغرى، و"ديوان شعره. ومما كتب في سيرته: "أخبار أبي تمام" لأبي بكر بن يحي الصولي، و"أبو تمام الطائي: حياته وشعره" لنجيب محمد البهبيتي المصري. وغيره كثير.
– الزركلي، الأعلام، ج: 2، **مصدر سابق**، ص: 165.

ألف أبو تمام خمسة مختارات، وكانت "الحماسة" أكثرها شهرة. وهي تتألف من قطع شعرية كاملة أو مجزأة، لـ515 شاعرا كلهم إما شعراء ما قبل الإسلام أو معاصرون لمحمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ أو هم من الجيل الذي تلاه. وستحظى "الحماسة" بإقبال العديد من الشراح. كما جلبت إقبال المستشرقين بمجرد أن بدأ الاهتمام بالآداب العربية.

نشر FREYTAG عام 1828 طبعة كاملة "للحماسة" مع شرح المرزوقي (1) (Merkioui). وأبدى FREYTAG عناية بإضافة شرح التبريزي كاملا، وكذا ترجمة التعاليق العلمية الثمينة، في نظر الناشر، التي لا يمكن الاستغناء عنها(2).

وللقارئ أن يسأل: لمن توجه هذه النصوص الشعرية وترجمتها؟ والجواب أنها توجه إلى قراء أوربا الذين يتذوقون الشعر العربي، وإلى المثقفين والبحاثة، لاسيما وأن العصر، عصر الحركة الرومانسية ومن خصائصها الاعتناء بالآداب الغربية، والشرقية على السواء، أما FREYTAG فيوجه ديوان "الحماسة" إلى شريحة خاصة، هم العلماء الذين يرغبون في دراسة هذا النوع من الشعر العربي الصعب أصلا(3)، في نظر المستشرقين أنفسهم.

ويعتبر اسم المتنبي[4] (303 – 354 هـ /915 – 965 م) من الأسماء الشائعة

---

(1) – من شراح الحماسة على كثرتهم نذكر أيضا: الميكالي (توفي عام 475 هـ /1082 م)، و العكبري (توفي عام 616 هـ /1219 م). انظر:

– **نفس المصدر السابق**، ج: 1، ص: 691 – 693. وكذلك:

– إسماعيل باشا، **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج: 3، دار العلوم الحديثة، بيروت، د. ت.، ص: 421 – 422.

(2) – - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 143.

(3) – - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 143.

(4) – **المتنبي**: أحمد بن الحسين، الجعفي، الكوفي، الكندي، أبو الطيب. نشأ بالشام ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية. وكان ممن لقيهم وأخذ عنهم، الأخفش والزجاج وابن السراج وابن دريد. صار المتنبي من كبار شعراء العربية، وأحد الثلاثة الذين كانوا من أشعر أبناء عصرهم، وهم: المتنبي وأبو تمام والبحتري. اتصل بسيف الدولة بحلب فبقي عنده تسع سنوات، ورحل إلى كافور الأخشيدي في مصر حيث مكث أربع سنوات ونصف يطمع بولاية ويلح في طلبها. ورحل إلى أرَّجان فمدح فيها ابن العميد وزير ركن الدولة وكانت له معه مساجلات ثم رحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة ابن بُويه الدَّيلمي ثم قفل عائدا إلى الكوفة حيث قتلة فاتك بن

والمتداولة في أوساط علماء أوربا قبل جيل المستشرقين الذي يعنينـــا. إذ منـــذ حـــوالي منتصف القرن 18 م، نشر REISKE بعض المقاطع من ديوان المتـــنبي. وكـــان DE SACY قد عرف ببعض منها أيضا ضمن مختاراته العربية. ونشر الديوان بالعربية كاملا بكالكوتا عام 1814 م. كما نشر DE HAMMER ترجمة ألمانية له عام 1822م(1).

وشرع DIETIRICI في نشر ديوان المتنبي عام 1859، وكانت النـــسخة الـــتي استعملت في هذه النشرة قد أعدها في القاهرة عشر سنوات قبل التاريخ المـــذكور، و لم يتوقف منذئذ عن مراجعة وتطوير نصه من خلال التوضيحات التي استقاها من مكتبات فينا، جوتا، ليدن، برلين وباريس. لأجل هذا جاء النص سليما والطباعة واضحة(2). وكان نشر الديوان مرفقا بشرح الواحدي، أحسن شـــروح ديـــوان المتـــنبي الكـــثيرة وأوكدها. وقدم الناشر بهذا خدمة للعلم ودليلا لفهم الشعر العربي(3).

ونشر DOZY قصيدة ابن عبدون لأول مرة، مع شـــرح وملاحظـــات نقديـــة وتاريخية، وهو الكتاب الأول ضمن سلسلة كتب عربية كان الناشـــر قـــد شـــرع في إصدارها(4). تحتوي النشرة الأولى إذن، على قصيدة ابن عبدون التي ألفها في مطلـــع القرن 7 هـــ /13 م بمناسبة سقوط الأمراء الأفطاسيين ببادجوز[5] (Aphtasides de Badajoz)، وهي تتضمن مختصرا في تاريخ سقوط أولائك الأمراء والملوك بالأنـــدلس. ومع كون القصيدة باردة ومصطنعة، فقد اكتسبت شهرة كـــبيرة، بفعـــل الأســـلوب المفضل للكاتب، وذوق عهد الانحطاط السيئ، وكذلك الشرح العلمي الـــذي أضـــافه

أبي جهل الأسدي. لقب بالمتنبي، إما لأنه ادعى= =النبوة في بادية السَّماوة، أو لفطنته وعبقريته، أو لأنه قال: "أنا أول من تنبأ بالشعر، وادعى النبوة في بني الفصيص". - السيد، **مصدر سابق**، ص : 285.

(1) — -REINAUD, "Bibliographie: texte arabe des poésies de Motenabbi, Commentaire de Ouahidi", Edit. et publ. par Dietirici, **J. A.**, 5^{me} série, T : 13, 59, P :287.18

(2) — **نفس المصدر السابق**، ص: 289.

(3) — - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 37.

(4) — - DOZY, **Ouvrages arabes**, Leyde, 1846-7, T : 1 (322p.), et T : 2 (128 p.).

- Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 105.

(5) - ضمن إقليم قواديانا أين قامت إمارة إسلامية في القرن 5 هـــ /11 م. وقد استولى عليها المرابطون ثم الموحدون. وابتداء من عام 626 هـــ /1228 م سيطرت عليها ملوك ليونة.

كاتب عربي (أندلسي)، هو ابن بدرون[1] (توفي بعد عام 608 هـ /1211 م)، ففي هذا الشرح تكمن الأهمية الحقيقية للكتاب، إذ يعثر فيه على جمع من الوقائع والنوادر التاريخية، جعلت الكتاب مطلوبا من قراء المشرق والمغرب وعلماء الغرب أيضا[2].

والغريب أننا لم نعثر في مجمل ما تناولناه من شعر وشعراء طيلة الفترة التي تعنينا على شاعر فحل واحد، في بلاد المغرب عامة، خلد اسمه أو رفع قومه. فلا نملك إذن إلا أن نورد ما عثرنا عليه، ولو كان متواضعا أو ضعيفا، وفاء منا للعلمية والموضوعية.

هناك قصيدتان نشرتا في المجلة الآسيوية، الأولى لأحد أعيان الجزائر، هو محمد الشاذلي، قاضي قسنطينة، ذهب في نزهة إلى فرنسا تحت رعاية الحكومة لمؤانسة الأمير عبد القادر الذي كان معتقلا في فرنسا. وفي هذه الأثناء كتب الشاذلي قصيدة هي أقرب ما تكون إلى اللسان الدارج، يمدح فيها العاصمة الفرنسية باريس[3].

والقصيدة الثانية لمحمد بن الشاهد، شاعر الجزائر العاصمة البصير المحترم، ذي المعارف الواسعة في مجال اللغة والفقه. لم تمر المناسبة الأليمة لاحتلال مدينة الجزائر دون أن تلهمه شعرا وراية فرنسا قد رفرفت على معقل من معاقل الإسلام. إنما قصيدة بكاء ونحيب نقترح منها جملة من الأبيات:

فآه على جهدي وما به منعـــة   وآه على دار يسود بها غيـــري

أموت وما تدري البواكي بقصتي   وكيف يطيب العيش والأنس في الكفر

فيا عين جودي بالدموع سماحـة   ويا حزن شيد في الفؤاد ولا تســر

---

(1) - **ابن بدرون:** عبد الملك بن عبد الله، أبو تمام القاسم الحضرمي. أديب أندلسي، اشتهر بكتابه "شرح قصيدة ابن بدرون" سماه "كمامة الزهر وفريدة الدهر".

- الزركلي، الأعلام، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 161.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 106.

(3) - REINAUD, "Vers arabes sur Paris", **J. A.**, 4me série, T : 5, 1845, P : 116-118.

- انظر القصيدة ضمن:

- أبو القاسم سعد الله، **محمد الشاذلي القسنطيني 1807 – 1877 دراسة من خلال رسائله وشعره**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص: 103- 104.

ويا صاح تدبير الأمور لخالقـــــــي   فصبرا عسى عسر يبدل باليسر (1)

اهتم مستشرقو الجمعية والمجلة الآسيويتين أيضا بالمقامـــات، وأبرزهـــا مقامـــات الحريري، فخص DE SACY الحريري بنشرة تم الإعلان عنها على صفحات المجلة(2)، في عددها الأول، ثم أردفها بمقال آخر عام 1833. وقد أعيد نشرها عـــام 1846 مـــع شرح مختار من DE SACY في طبعة ثانية، في جزئين، مراجعة بعناية اعتمـــادا علـــى المخطوطات، ومزيدة بملاحظات وشـــروح بالفرنـــسية مـــن طـــرف REINAUD وDERENBOURG عضوي الجمعية الآسيوية.

وقد طبعت مقامات الحريري للمرة الخامسة عام 1853 بعد الوقوف على وثـــائق جديدة، مما يدل على الحرص المتزايد عليها والفائدة المتواصلة لها والإقبال الكبير عليها(3).

بقي علينا أن نشير في نهاية اهتمامات المستشرقين الفرنسيين، في مجال الأدب، إلى كتاب جمع فاستوعب مجمل ما يؤرخ للأدب العربي، وهو كتاب "تاريخ الأدب العربي" لـــ DE HAMMER الذي صدر عام 1853 في أربعة أجزاء، ثم الجـــزآن الخـــامس والسادس عام 1855.

يتناول القسم الأول منه أصول الأدب العربي وتطوره إلى عام 333 هـــ /944م، ويحتوي على مواجيز ولمحات عن سير نحو من أربعة آلاف كاتب.

---

(1) - B. VINCENT, "Vers sur la conquête d'Alger", **J. A.**, 3me série, T : 8, 1839 PP : 503-509.

- انظر حياة ابن الشاهد وقصيدته كاملة ضمن:
- أبو القاسم سعد الله، **تجارب في الأدب والرحلة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 113-114.

(2) - DE SACY, Edition de HARIRI, **J. A.**, T : 1, 1822.

- انظر مضمون المقامات أو المخطط الذي بنا عليه الحريري مقاماته الخمس:

- MUNK, "Histoire…", **N. J. A.**, 2me série, T : 14, 1834, P : 552.

(3) - DE SACY, **Les Séances de Hariri**, publiées en arabe, avec un commentaire choisie par DE SACY, 2me Edit. Revue sur les Manuscrits et augmentée de notes historiques et explicatives par REINAUD et DURENBOURG, Paris, 1853, (780 et 216p).

- Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 121.

يقسم DE HAMMER كل قسم من أقسام الأدب العربي إلى ثلاثة عهود كبرى(1). ويقسم هذه العهود بدورها، ثم يوزع المؤلفين الذين يدخلون ضمن هذه الأقسام الزمنية من خلال عدد كبير من الفصول حسب المواد التي يعالجها الكاتب. وجل الأقسام والفصول تتصدرها مقدمات، يعطي فيها نظرة عن تيارات الأدب لعهد أو قسم من المؤلفين، المرفقين بترجمات مختارة عندما يتعلق الأمر بشاعر، مما يجعل الكتاب يحوي فعلا تاريخ الأدب العربي، وسيرة عامة للمؤلفين والمختارات الشعرية...الخ(2).

أما الجزآن الخامس والسادس فيتضمنان، الفترة الممتدة بين 338 – 530 هـ /949 - 1135 م، وهي المدة التي ضربت في مطلعها الخلافة الإسلامية في الصميم، وبدأ انحطاطها الداخلي، لكن قوتها الخارجية وحركتها استمرت في التوسع لمدة أطول، فكان العالم الإسلامي بذلك يزداد قوة واتساعا. ولقد كان الأمر كذلك بالنسبة للأدب العربي. ففي حين فقد أصالته ومذاقه وحيويته الأولى في قلب العالم الإسلامي، صار أكثر علمية وكمالا، وهو يمارس تأثيره أكثر على الشعوب الأجنبية، غير العربية.

لم يعد مركز الخلافة الإسلامية في بغداد لماعا على النحو الذي كان عليه في عهد الرشيد والمأمون العباسيين، ولكن تشكلت مراكز فكرية وعلمية أخرى في الأطراف الشرقية والغربية للخلافة الإسلامية ونفذت أكثر في أوساط مختلف طبقات المجتمع(3)..

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص: 118.

(2) – **نفس المصدر**، ص: 119.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 22-23.

2- المحتوى الفكري-الثقافي والعلمي:

يذهب المستشرقون الفرنسيون إلى أن العلماء المشتغلين بعلم اللغة المقارن يقسمونها إلى قسمين: يعيد الأول منها، كل اللغات التي يتكلم بها الناس في العالم إلى أصل واحد، أو أُمّ ضاعت منذ أمد بعيد على وجه المعمورة، لكن عناصرها تتوزع على كل اللغات اللاحقة، التي ما هي إلا لهجات تقترب أو تبتعد. فيما يذهب القسم الآخر من العلماء إلى أن مختلف الألسن تنقسم إلى عائلات، منها في الغالب من ليست لها أدنى قرابة فيما بينها(1).

أما المدافعون عن العقيدة المسيحية فهم يعتنقون المذهب الأول، كبرهان على وحدة الأصل للنوع البشري التي دل عليها الوحي، مدعين أن وحدة اللغات (Monoglottisme) كما يسميها DE DUMAST، حدث مبرهن عليه(2)، ولكن الأخير يذهب إلى أن اعتقاد هؤلاء أنهم فعلوا كل شيء -برسمهم جداول ضخمة قارنوا فيها بين كلمات وألفاظ تنتمي إلى بضعة وخمسين من اللغات المختلفة، أين تجد السانسكريتية[3] والزردشتية[4] والإغريقية[5]

---

(1) - DE DUMAST, "Mémoire sur la question ", J. A., 1846, **op. Cité**, P : 292.

(2) – **نفس المصدر السابق**، ص: 292.

(3) – اللغة **السانسكريتية**: من أبرز اللغات الهندو-أوربية، اكتشف علماء الغرب العلاقة بينها وبين لغاتهم في عصر الاستعمار. وهي أبرز اللغات الهندية الكثيرة، وبها كتب أغلب الأدب الهندي. على أنهم كتبوا بلغة الفيدا أولا (وهي أصل السانسكريتية) ثلاثة عشر قرنا قبل الميلاد، ثم تبعتها السانسكريتية ودونت آدابهم بها. ومن أبرز إنتاج مرحلة الفيدا "البراهمانا" وهي تفسيرات للديانة البرهمية، أشهر دياناتهم. أما الأدب الكلاسيكي فقد اشتهر بملاحمه الشعرية، وأهمها ملحمة "الماهبهارتا" وملحمة "الرامايانا" وهما أكبر الملاحم العالمية. ترجم كثير من الأدب الهندي إلى الفارسية والعربية، وأثر فيهما. ومن ذلك "البنجا تنقرا" القصص الخمس، أصل "كليلة ودمنة"، وحكايات من "ألف ليلة وليلة"، وكثير من القصص والمواعظ والعبر. على أن العرب لم يعرفوا ملاحمهم وإن عرفوا كثيرا من حكمهم.

– التونجي، المعجم المفصل، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 55 – 56.

(4) – انظر الفارسية ضمن المبحث **السابق**.

(5) – **الإغريقية أو اليونانية**: يعد الأدب اليوناني منبع الإلهام للآداب الغربية والأصول التي ينتهجها الأدباء الكلاسيكيون. ولم يصل شيء ذو أهمية في الأدب اليوناني قبل ملحمتي أبي الشعر "هوميروس" (الإلياذة والأوديسة) في القرن 10 ق.م.، تماما كالأدب الجاهلي عند العرب. وإن كان النقاد اليوم يميلون إلى أنها صناعة متأخرة. قسم النقاد مراحل الأدب الإغريقي– اليوناني إلى:

1– العصر الكلاسيكي/ الذي امتد من 850 – 350 ق.م.، وتميز العصر بالإبداع وعُدَّ الفترة الذهبية.=

واللاتينية[1] مع ما يتفرع عنها، إلى جانب لغة التو ديـــسك (Tudesque) والـــسلتية والسلافية التي لا تقل فروعها- هي دائما تقدم مقارنة دائمة تقريبا. والواقع أن الـــذين فعلوا هذا سقطوا في عائلة مقربة، شائعة ومألوفة، تشكل شبكة واسعة تمتد من وســط آسيا وتلقي بظلها على كل قارة أوربا تقريبا. فلو أن هؤلاء ألصقوا بمخططهم أعمـــدة أخرى تتعلق بالـــصينية[2] والتتاريـــة والقبطيـــة والبانبـــارا (Banbara) والجـــواراني (Guarani) والآلجونكين (Algonquin) وغيرها... لما انتهوا إلى نفس النتيجـــة. بـــل يذهب DE DUMAST إلى أن لغات على أبواب أوربا، كلغة الباسك أو الأســـدوارا (Esduara)، أظهرت بعدها عن عائلة اللغات محل المقارنة. منتهيا إلى أن وجود بـــضعة ألفاظ في لغتين منفصلتين ليست دليل على تماثلها أو اشتراكها في جذع واحد(3).

وهكذا فإن نفس الدراسة تظهر أن 422 لغة معروفة في أمريكا، كلها متنـــافرة فيما بينها، تنافر الروسية مع الفرنسية.

واستكمالا لمناقشة المذهبين (القسمين) يـــستدرك عليهمـــا DE DUMAST أن مذهب تعدد اللغات في أصلها لا يتعارض والوحي، لأن أنصار وحدة اللغات الأصـــلية

= 2 – العصر السكندري أو الهيلينيستي/ بدءا من عصر الإسكندر وبلغ الإسكندرية، وامتد حتى القرن الأول للميلاد. وتميز هذا العصر بظهور النقاد والأدباء والفلاسفة بدراساتهم الرصينة والتي غدت أساس الدراسات فيما بعد.

3 – عصر النهضة / طرأ تحول كبير على انتاج العصر السكندري بعد انتشار المسيحية، لتدخل تعاليم الديانة في كل انتاجهم، وامتد هذا حتى عصر النهضة...

– التونجي، المعجم المفصل، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 73 – 74.

[1] – **اللاتينية**: لم تبدأ بشق طريقها إلا إثر احتكاك روما بالحضارة اليونانية. ولم يصل من العهد **السابق** إلا نصوص دينية متفرقة، ونقوش أثرية، ونتف من القوانين، ولوائح القضاة، وما يشبهها. وكان احتلال بلاد اليونان فاتحة عهد جديد للرومانيين فتعرفوا إلى عالم مدهش في نظمه وعاداته ومعارفه. وما كان منهم إلا أن أقبلوا على ما بهر أنظارهم، محاولين محاكاته.

– جبور عبد النور، **المعجم الأدبي**، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984، ص: 564.

[2] – **الصينية**: تعود أقدم الآثار الصينية المكتوبة إلى عهد أسرة "تشو"(حكمت من 1027 – 256 ق.م.)، ويعرف أدب هذه الحقبة بالأدب الكونفوشي، بعضه كَتَبَه كونفوشيوس نفسه، وبعضه حول تعاليمه، ومنها 305 قصيدة كتبها بأسلوب سهل مقفى يصف فيها حياة الفلاحين وحروب الإقطاعيين.. وظهر عدد من الكتاب في هذه الحقبة. وزاد من انتشار الأدب اختراع الطباعة بالحفر على الخشب. ويعد عصر "تانك" T'ang (618 – 907) أزهر عصور الأدب الصيني.

– **نفس المصدر السابق**، ج: 1، ص: 58 – 59.

[3] – DE DUMAST, "Mémoire sur la question ", J. A, 1846, **op. Cité**, P: 292-293.

اعتمدوا على آية من "سفر التكوين" (La Génèse)، دون أن يتنبهوا إلى أن الكـلام المقدس يعتمد على هذا الحدث تحديدا للإشارة إلى عهد انقسام اللغات، العهد الـذي تباينت فيه الأفكار إلى حد أن الرجال الذين استحال عليهم التفاهم، فكروا أن يتفرقوا للتو(1).

وقد جاء المستشرق RENAN ليخطو بالموضوع خطوات أخرى إلى الأمام مـن خلال "تاريخه العام والنظام المقارن للغات السامية".

يتشكل النظام العلمي لنظام اللغات في نظر "رينان" من قسمين أساسـيين، يـشتمل القسم الأول على التاريخ الخارجي للألسن التي تكونه ودورهـم في الزمـان والمكـان، جغرافيتهم ، وتسلسلهم الزماني فالترتيب وطبيعة الآثار المكتوبة التي تعرفنا به وأما قسمه الثاني فيتضمن تاريخ الألسن الداخلي والتطور العضوي لأساليبهم، أي لنحوهم المقارن(2).

وهكذا فقد عالج "رينان" كخطوة أولى، مختلف المسائل ذات الأصول المرتبطـة بتاريخ اللغات والعنصر السامي، في الحدود الأولى للغات الـسامية -آسـيا الـصغرى ضواحي دجلة ومضيق السويس- ثم عالج أصل اللهجات (Dialectes) اعتمادا علـى مبادئ اللغات العامة، وناقش فرضية وجود لغة سامية أصلية تفرعت عنها كل اللغـات السامية الأخرى. ثم راح "رينان" يسيح في العهود الثلاثة الكبرى لتطور اللغات السامية وهي: العهد العبري والعهد الآرامي والعهد العربي(3).

ولعل العهد العربي من هذه العهود هو الذي يهمنا على الخصوص، والذي قسمه "رينان" إلى فرعين متميزين هما: فرع الجنوبيين ممثلا في الحميريين والغز، وفرع معاد أو إسماعيل، ذي اللسان العربي الذي امتص كل إخوته من اللغات والألسن واللـهجات، وأضحى إلى القرن 13 هـ /19 م يمثل وحده العائلة السامية.

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص: 294-295.

(2) - J. DERENBOURG, "L'Histoire générale et système comparé", J. A., 1855, **op. Cité**, P : 295.

(3) – **نفس المصدر السابق**، ص: 295.

ومن خلال عرضه لمصير مختلف اللغات السامية خلال كل عهد من العهود السابقة، يقص "رينان" قصة تجوال هذه اللغات خارج مجالها الخاص مسجلا عناصر التأثير والتأثر بالعائلات اللغوية المجاورة(1).

* * *

لقد انصب اهتمام المستشرقين الفرنسيين (وغير الفرنسيين)، على لغات الشرق باختلاف أنواعها وتفرعاتها وبلا استثناء، طيلة الفترة التي تعنينا، فكان أن درسوا السانسكريتية بلهجاتها القديمة والحديثة، والبالية (Pali) والكاوية (Kawi) والهندستانية (Hindoustani) والمهراتية (Mahratti)والبنغالية (Bengali) والجوزوراتية (Guzzurati). كما أنجزوا أعمالا كثيرة في ألسن التامول (Tamoul) والكامارا (Camara) والتلينجا (Telinga)، بما فيها لهجات القبائل المتوحشة(2).

ولقد أنجز المستشرقون ما لم يحدث أن أنجزوه، في مجال اللغة العربية وكل اللهجات السامية التي تم تداولها من قبل في الرقعة الممتدة بين الحبشة أو أثيوبيا (Abyssimie) ووادي الرافدين (Mésopotamie). كما اهتموا بالفارسية (Parsi) ولهجاتها، فكان أن اكتشفوا البهلوية (Pehlewi) والزردشتية (Zend)، كما درسوا الأرمينية (Arménien) والجورجية (Géorgien) والأفغانية (Afghan) وكل اللهجات التي تتكلم من القسطنطينية إلى بكين(3). وكذلك الفلندية (Finnois) التي لم تكن توفر إلا عناصر أدب قليلة، صارت محل أعمال ضخمة.

واهتموا أيضا بلغات جزر السوند (Sonde) والماليزية (Malais). وكانوا في نهاية المرحلة بصدد دراسة التيبتية (Tibétain) ولغات شبه جزيرة ما بعد نهر الجانج، من برمانية (Birmanais) وكوشنشينية (Cochinchinois). ومهدوا الصينية فأضحت

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 296.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1865, **op. Cité**, P : 6, P : 102.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 103.

سهلة على الدارسين. كما كانت اللغة اليابانيــة[1] (Japonais) محــل اهتمــام جــاد منهم(2).

كل هذه الجهود والأعمال التي تدخل في مجال علم اللغة، لم تكــن إلا تحــضيرا وتمهيدا للدراسات الفعلية والميدانية لآداب الشرق(3).

ولقد اعتبر المستشرقون الفرنسيون، فضلا عن اللغة العربيــة، اللغــتين التركيــة والفارسية ونظم لهجاتها لغات إسلامية(4).

كما اعتبروا احتلال فرنسا الجزائر قد ورثهم بها ثلاث لغات، هي التركية كلغــة حكومة، وقد أخذت مكانها الفرنسية، والعربية التي اعتبروها لغة العرب الفاتحين وهــي تتركز على الخصوص في السهول، وأما في الجبال فهناك البربرية التي يسمونها بهذا الاسم تارة أو القبائلية تارة أخرى أو الشلحية تارة ثالثة(5).

بناء على ما تقدم، سينصب تركيزنا واهتمامنا على تركيز واهتمام المستــشرقين في المنطقة على اللغة العربية واللسان البربري في شتى مناحيهما، واعتمادا على ما توصل إليه المستشرقون من جهود في هذا المجال، بدءا بالحزوف والخط، والشكل والحركــات وعلامات الوقف ونقل أو نسخ الحروف العربية إلى اللاتينية، وطباعة الحروف، ومرورا بالمفردات وسائر الألسن، فضلا عن اللغة والنحو والقواميس والبلاغة والشعر والمقامات وغيرها.

---

(1) - **اليابانية:** تنتمي إلى اللغات الألتيّة،أي إلى المجموعة التي تشمل المغولية والتركية وما تشعب منهما. غير أن معرفة المراحل الأولى من ظهورها وتطورها ليست ميسورة حتى الوقت الحاضر، لأن النصوص التي وصلت منها ترقى فقط إلى القرن الثامن الميلادي. والمعروف أن الكتاب كانوا يستعملون البونغو، وهي اللغة التراثية البطيئة التطور. وفي عام 1868 م، بعد انفتاح اليابان على الحضارة الغربية، أهملت هذه اللغة، وقامت مكانها عامية طوكيو بحيث أصبحت قراءة النصوص القديمة وفهمها من الأمور العسيرة على الجيل الحاضر. والمعروف أيضا أن الخط الياباني مقتبس من الخط الصيني، الذي استعار منه اليابانيون 51 قطعة لإخراج الأصوات الشائعة لديهم.

- جبور، **مصدر سابق**، ص: 607.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1865, **op. Cité**, P : 6, P : 103.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 104-105.

(4) - REINAUD, "Recherche sur les dialectes ", J. A., 1859, **op. Cité, P** : 259.

(5) - DELAPORTE fils, "Vocabulaire berbère", J. A, 1846, **op. Cité**, P: 97.

يعود اهتمام الأوربيين عموما والفرنسيين بوجه خاص بالبربرية، إلى حوالي منتصف القرن 12 هـ /18 م. ولذلك فقد كانوا -مع نهاية موضوع بحثنا- قد تجاوزوا القرن من البحث فيها. وقد تساءل علماء اللغة، في أي صنف من أصناف اللغة يمكن وضع البربرية ؟ هل هي تشكل لسانا خاصا ؟ أم يمكن ربطها بالقبطية مثلا؟ أم أنها لسان خاص مثلها مثل الأقطار التي كان المستشرقون لا يزالون يبحثون على بقايا ألسنتها ؟

وهكذا فقد ظل التساؤل قائما، وأصل البربرية يكتنفه الغموض، حتى نهاية الفترة التي تعنينا على الأقل. فيما راح بعض المستشرقين يبحثون أو يوجدون لها قواعد لغوية(1)، كما فعلوا مع المئات من مثيلاتها في العالم، كما أسلفنا.

أدى احتلال مدينة الجزائر إلى إثارة شهية البحث لدى بعض المستشرقين الفرنسيين، ولاسيما لدى بعض الضباط العسكريين، فتشجعوا بوجود جيش الاحتلال وقاموا بدراسات وأعمال علمية، مستفيدين من مناهج البحث الميدانية، فاكتشفوا كتابات لوبية أو ليبية كثيرة بتيفاش (Tiffech) وحوشير عين الحشمة قرب قالمة. كما تحصلوا على بعض الحروف المنتشرة في أوساط التوارق والتي اعتبرها البعض مماثلة للحروف الليبية، ولاسيما منها النصب التذكاري المزدوج اللغة بـ"التوجة" (Thugga) (2)، ذي الحروف الشبيهة بالحرف التيفيناغي(3). غير أن المستشرق DE SAULCY يخلص إلى ملاحظة مفادها أن الحرف التيفيناغي الذي نقش على نصب "التوجة" لا يشكل وحدة مع الحروف التيفيناغية المتداولة لدى التوارق في القرن 19 م، معللا ذلك كون تغييرات محلية كثيرة طرأت عليه، لاسيما منذ الفتح الإسلامي(4).

---

(1) - REINAUD, "Sur le système primitif de la numérotation", J. A., 1860, **op. Cité**, P : 108.

(2) - BOISSONNET, "Note sur l'alphabet berbère ", **J. A.**, 1847. P : 455-456.

(3) - F. DE SAULCY, "Observations sur l'alphabet Tifinag", **J. A**, 1849, **op. Cité**, P : 247

(4) - **نفس المصدر السابق**، ص: 264.

يعود التأثير في اللسان البربري، حسب بعض المستشرقين، إلى عهد الملك "ماسينسا"، ويعنون بذلك التأثير أو الإلهام القرطاجي[1]. وأما التأثير الحديث، فهو الذي جرى منذ الفتح الإسلامي. وبالفعل فإذا كانت المفردات البربرية سامية في أصلها فهي عربية في شكلها وكتابتها(2) طيلة الفترة الإسلامية. ولعله من تحصيل الحاصل القول إنه في العهود التي عرف فيها السكان الحضارة، أدخلوا على لسانهم كلمات وأشكال تَمُتُّ صلة بلغة من ساهموا في تحضيرهم(3)، من الفينيقيين.

أدخل البربر أو الشلوح إذن، على ألسنتهم قليلا أو كثيرا من المفردات والعبارات العربية التي غيروها بغرض ضمها إلى لسانهم، وبالنتيجة فإننا نصادف عددا كبيرا من المفردات، لا سيما عندما يتعلق الأمر بالدين والفنون، منذ الفتح الإسلامي.

وفيما ظل اللسان القبائلي، البربري أو الشلحي محدود المعرفة والاستعمال، ظل أيضا غير مكتوب، أو بالأحرى، لا توجد حروف وحركات تعبر عن منطوقه أو ألفاظه. لأجل هذا، حينما جاء الفرنسيون إلى الجزائر، بمستشرقيهم وضباطهم العسكريين لتدوين بعض آثار هذا اللسان، اضطروا إلى الاستنجاد بالحروف العربية، كما فعل DELAPORTE مثلا. وباستثناء القاموس الذي ألفه VENTURE DE PARADIS، وغير المنشور حتى الثلاثينيات من القرن 19 م، لم تكن توجد آنذاك إلا قطع متناثرة موزعة على كتب شتى، لا تعطي من لسان القبائل إلا مبادئ غير كافية، بعضها مدفونة في حافظات جمعها أشخاص(4). وقد لاحظ المستشرقون أن لسان التوارق يختلف قليلا عن لسان بربر القبائل(5).

---

[1] - هناك من يرى أن النطق تافيناغ مشتق من الفينيقية. انظر:
- أبو القاسم سعد الله، **أفكار جامحة**،
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، **مصدر سابق**،

[2] - REINAUD, "Sur le système primitif de la numérotation", J. A.,1860, **op. Cité**, p :113

[3] - **نفس المصدر** السابق، ص: 113.

[4] - DELAPORTE fils, ,"Vocabulaire berbère" J. A., 1836, **op. Cité**, P : 98.

- انظر مثلا: حوارات بربرية مدونة بخط مغربي ومنقولة إلى الحرف اللاتيني ومرفقة بترجمة بين السطور إلى الفرنسية.
- Rapport annuel, J. A., 1846, **op. Cité**, P : 37.

[5] - BOISSONET, extrait d'une lettre à DE SAULCY. DE SAULCY, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 165.

وكما اهتم المستشرقون الفرنسيون باللسان البربري، اهتموا أيضا باللسان العربي الدارج، أي كلام الشارع أو الخطاب السوقي. إذ بعد فترة وجيزة من الاحتكاك بالسكان، إثر الاحتلال، اكتشفوا أن هناك لسانا دارجا متميزا، أكثر استعمالا في الجزائر مثلا من العربية الفصحى (L'Arabe Littéraire)(1) يملك نظاما من الألفاظ المصنوعة أو المبتكرة خارج لهجات شبه الجزيرة العربية، مصر وسوريا. وهو يشكل عملا كبيرا إذا ما حاولوا وضع قائمة لألفاظه ومفرداته.

خذ مثلا الفعل "وَشْحَلْ"، فهو من الصعب، في نظر المستشرقين، أن نجد له تكوينا مماثلا خارج بلاد المغرب أو الجزائر على الأقل، وأصل الفعل "وَاشْ حَالَك"، أي كيف حالك، وهو محصلة إضافة حرف أو عدة حروف إلى جذر الكلمة مثل: "لَعْبَنْ" من الجذر أو الأصل لَعبَ، و"تَمَلْصَقْ" من الجذر لَصَقَ، و"نَيْشَنْ" من الجذر "نيشان"...الخ(2).

وفي الجزائر أيضا هناك أوساط لها ميل إلى البحث عن ترخيم الصوت (Euphonie)، أي حذف الصوت أو المقطع الأخير من الكلمة مثل: "نُصْ" عوض عن "نصف" و"مْشَا" عوض عن "مشي". أو مضاعفة بعض الحروف من الفعل مثل: "اَستَنَ" التي هي تشويه للفعل "استأنى"، و"اَتبَنَا" عوض عن "ابتنا" ...الخ(3).

ولعل السؤال الجدير بالطرح في هذا المجال هو، هل معرفة الفصحى كافية لفهم لسان الجزائريين العامي؟ أم هل معرفة لهجات سوريا من شأنها أن تعطيا مفتاح العامية المستعملة بقسنطينة أو الجزائر أو تلمسان؟ ربما العكس هو المبرهن عليه بعدد من قوائم الألفاظ والتعابير الجديدة وكذلك بالميكانيكية التي تدير حركتها(4).

---

(1) - CHERBONNEAU, "Lettre à M. DEFREMERY sur le paradigme…. dans l'Arabe parlé", J. A., 1852, **op. Cité**, P : 379.

(2) - CHERBONNEAU, "Nouvelles observations sur le dialecte Arabe" J. A., 1861, **op. Cité**, PP: 358-369.

(3) - CHERBONNEAU, "Lettre à M. DEFREMERY sur le paradigme… dans l'Arabe parlé ", J. A., 1852, **op. Cité**, P: 379.

(4) - **نفس المصدر** السابق، ص: 369.

ودفاع عن اللسان الدارج أورد CHERBONNEAU كلام ابن خلدون ونصه: "أن عرف التخاطب في الأمصار وبين الحضر ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجيل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعيدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجيل العربي الـــذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد. فأما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهرة يشهد لها ما فيـــه من التغاير الذي يعد عند صناعة أهل النحو لحناً، وهي مع ذلك تختلـــف بـــاختلاف الأمصار في اصطلاحاتهم، فلغة أهل المشرق مباينة بعض الشيء للغة أهل المغرب، وكذا أهل الأندلس معهما، كل منهم متوصل بلغته إلى الإبانة عما في نفسه، وهـــذا معـــنى اللسان واللغة"(1). وقد اعتبر "شيربونو" كلام ابن خلدون وحكمه في هذه المسألة ذا قيمة بليغة من باب أنه أقام في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي، ودرس بجد لهجات كل ناحية.

ومن الممكن اعتبار "شيربونو" نفسه ذا خبرة بالجزائر إذ كان عـــام 1855 قـــد أمضى تسع سنوات بها، لاسيما وأن موضوع اللهجات كان أحد همومه، ذلك أنه تعلم الفصحى ولكنه اضطر إلى الحديث باللسان المحلي الدارج، لسان المحيط الجزائري. وهو نفسه الذي ذهب إلى أن لغة إفريقيا (الجزائر) هي اللغة العربية التي انصهر فيها العـــرب والبربر والأتراك، انصهارا تدريجيا(2).

كانت اللغة العربية الفصحى أو العربية الأدبية (L'Arabe Littéraire)، هي اللغة العلمية (Langue Savante) التي تحتل مركز الـــصدارة ضـــمن اللغـــات الإســـلامية الأخرى، في أبحاث المستشرقين، كما أسلفنا. ولذلك فقد شغلت اهتمام المستـــشرقين الفرنسيين عموما، ومستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين علـــى الخـــصوص، وظـــل استعراض أدبياتها ومستكشفاتها -ضمن غيره الكثير من تراث الشرق- يحتـــل مركـــز الصدارة في التقرير السنوي الهام للجمعية والمجلة طيلة عشرين سنة قـــضاها (MOHL 1848-1868) في رئاسة تحرير المجلة الآسيوية.

---

(1) – ابن خلدون، مقدمة العلامة، **مصدر سابق**، ص: 346.

(2) – - CHERBONNEAU, "Observation sur l'origine et la formation", J. A., 1855, **op. Cité**, P : 550.

يعتبر الخط المسند أحد الخطوط العربية المناسبة لإحدى قوائم الألسن المـــستحدثة في شبه الجزيرة العربية. وقد استعمل هذا الخط لغة وكتابة من طـــرف قـــوم "عـــاد" و"العمالقة" و"جُرْهُمْ" السابقين. فلما انقرضت هذه الأقوام، تبنته "حمير" و"سبأ" وهـــو نفسه تقريبا الذي ظل خط الكتابة العربية إلى القرن 13 هـــ /19 م(1).

والخط النسخي أيضا، خط المؤلفات المخطوطة والمطبوعـــة. وكـــان الوســـيلة الأساسية المناسبة للتعليم في جل البلاد العربية.

أما بخصوص طبع المخطوطات العربية(2)، فإن LANGLES قد نقش حروفـــا عربية وحافظ عليها الناشرون الفرنسيون مدة طويلة. لكن مستشرقي المجلة الآســـيوية اعتبروها من الخطوط العربية الأكثر عيوب، ولذلك اجتهـــد كـــل مـــن VIBIRAL وCASTEIN بمرسيليا في نقش حروف عربية جديدة أرقى من حـــروف "لانجلـــس"، وعرضوها خصيصا على مستشرقي المجلة الآسيوية الذين اطلعوا عليها خلال جلـــستهم السنوية عام 1851 وهي السنة نفسها التي ظهر فيها أول كتاب مطبـــوع بـــالحروف المغاربية، التي نقشت وذوبت بالمطبعة الوطنية الفرنسية، برعاية الناظر بالمطبعة الـــشرقية PIHAN، اعتمادا على مخطوط مغاربي محفوظ بالمكتبة الوطنيـــة ببـــاريس، وكـــذلك استفسار واستشارة بض الجزائريين المتعلمين. وقد ذكر المســـتشرق ROUSSEAU أن الحروف جاءت متماسكة ومتراصة بشكل ملفت(3). وسيستعمل الخط المغـــاربي، لا سيما في طباعة الكتب التي ألفت في الجزائر أو الموجهة من الأوربيين إلى الجزائريين(4).

---

(1) - - HALEVY, "Etude Sabéennes, langue et écriture", J. A., 1873, **op. Cité**, P: 441-442.

(2) - انظر حول الطباعة والنشر في الشرق:
- Rapport annuel du, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 190-191.

(3) - **نفس المصدر** السابق، ص: 140.
- وكذلك: - A. ROUSSEAU, "Tableau des Lettres arabes et leur valeur adoptée par les orientalistes français", **J. A.**, 4^me série, T : 20, 1852, P: 59-60.

(4) - - DE LAGRANGE , **J.A.**, 4^me série, T : 17, 1851, P: 493.

كان تحريك الحروف العربية أو الشكل، من المسائل التي شغلت المستشرقين الذين وجدوا صعوبة في قراءة النصوص غير المشكولة. ورغم أن موضوع الــشكل لم يكــن جديدا لدى العرب والمسلمين -وهو ما كانوا في حاجة إليه لاسيما في ضبط مفــردات القرآن الكريم الذي كان يملك جهازا كاملا من العلامــات الإملائيــة(1)- إلا أن استعماله خارج هذا الإطار كان محدودا، بل لاحــظ المستــشرق MARCEL خلــو مصحف كوفي -عثر عليه في مسجد عمرو بن العاص في القاهرة القديمة- من الحركات أو الشكل، وهو مخطوط يعود إلى الفتوحات الإسلامية(2).

كانت أمنية المستشرقين إذن، رؤية إدخال الحركات أو الشكل علــى الكتــب العربية التي ينوون طباعتها، ولاسيما الموجهة منها إلى المطالعة العمومية وإلى التعليم العام والديني. وكان يشاطرهم في هذه الأمنية كل العلماء الذين يرغبون في تعلــم العربيــة، وكذلك المبشرون الذين كانت تحت مسؤوليتهم التفتيشية مدارس تدرس العربية مــن ضمن موادها. وتضامن هؤلاء جميعهم بغرض سد هذا النقص في الكتابــة والطباعــة العربيين(3).

كما كان يروق للمستشرقين رؤية النصوص العربية مزودة بكل ما مــن شــأنه تسهيل قراءتها واستيعابها، كعلامات الوقف، كما في النصوص الأوربية. وكــان هــذا الاهتمام يظهر لأول مرة في تاريخ النصوص العربية. وقد أرسل المستشرق DUMAST -في هذا الشأن بالذات- رسالة مطولة وجديرة بالاهتمام بتاريخ 15 أكتوبر 1872 إلى MOHL الذي صار مديرا للجمعية والمجلة الآسيوية(4). وكانت قد جرت

---

(1) - J. FERRETTE,"Méthode simplifiée pour imprimer l'Arabe", J.A., 1859, **op. Cité**, P: 304-306.

(2) - BELIN, "Document relatif à MAHOMET", J. A., 1854, **op. Cité,** P: 491-492.

(3) - FERRETTE, "Méthode simplifiée pour imprimer l'Arabe", J. A., 1859, **op. Cité**, P: 304.

(4) - DU MAST, "Ponctuer les phrases dans les langues musulmanes" J. A., 1873, **op. Cité**, PP: 297-304.

محاولات لاستعمال علامات الوقف من قبل المستشرقين، قبل هذا التاريخ، لكن في مجال تعليم العربية(1).

وفي مسعى المستشرقين تعليم العربية وتقريبها إلى المهتمين بها نشروا كتبا كثيرة في اللغة والنحو العربيين، كما أسلفنا. وكان الهدف من نشرها اكتساب تقنية لغة النحويين التي تعد معرفتها ضرورية، ليس فقط لفهم مستويات مؤلفات في التفسير والحديث...الخ، ولكن أيضا لفهم النصوص والمقاطع المبثوثة عبر مؤلفات تاريخية من كل نوع(2).

ودراسة النحو والنحويين العرب فيه فوائد جمة، ذلك أنه لم يحدث أن اهتم شعب بدراسة النحو واللغة كما فعل العرب. ومن المرجح أن يكونوا قد ضحوا في سبيل النحو بوقت كبير لم يخصوا به علما آخر من العلوم. فكان أن أسفرت هذه الجهود عن نظرية في النحو، لا يضاهيها إلا النحو السانسكريتي، الذي تشكل بنفس الطريقة ولكن انطلاقا من نظرة أخرى. لأجل هذا، لا يمكن للذين اهتموا بفلسفة اللغات، في القرن 19م، الاستغناء عن دراسة هذين النظامين اللغويين الأكثر فلسفة، الأدق والأجمل مما أنتج في العالم(3).

لقد تحول النحو العربي إلى موضوع دراسات واهتمامات العرب أنفسهم بمجرد أن ربطت الفتوحات الأولى العرب بالشعوب المجاورة غير العربية، والتي طبقت تعاليم القرآن الكريم. وتكونت تدريجيا المدارس النحوية في المدن التي أقامها الخلفاء على أطراف الأقاليم التي تتحدث العربية كالكوفة والبصرة ثم بغداد. وأولوا أهمية لتفسير القرآن، وتحمس متعلموه للمحافظة عليه بمحاكاة لغة أهل البادية وكتابته كتابة سليمة. كل ذلك أعطى الدراسات النحوية أهمية لم يسبق لها مثيلا. وأضحى من الضروري لكل من يرغب في البروز كعالم كلام أو عقيدة أو فقه أو شاعر أن يبدأ

---

(1) - "**Histoire de Nour-ed-dine, tirée des Milles et une nuit,** le texte arabe", Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 126.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 147.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 147-148.

بمصنف في النحو ليثبت به دراساته العلمية. لأجل هذا فإن قائمة النحويين العرب جمعت قسما كبيرا من الرجال الأكثر شهرة في مجمل فروع المعرفة(1).

سجلت دراسة اللغات الإسلامية، العربية والفارسية والتركية خـــلال العقـــود الأخيرة من موضوعنا تقدما هاما في أوربا، إلا أن المستشرقين الفرنسيين ظلوا في مجـــال اللغة، إلى عقد الثلاثينيات، لا يملكون قاموسا علميا كاملا واحدا، يمكن وضعه بالمقارنة مع الأعمال المماثلة، التي أنجزت في المجال الإغريقي، اللاتيني وأهم اللغات الأوربية.

فالقواميس التي نشرت خلال عهود مختلفة لم تكن مرضية، في نظر المستشرقين، ولا كافية لأنها تحمل الكثير من العيوب، وهي بعيدة عن أنها تعرض كل التطورات التي تتطلبها معارف مستشرقي المرحلة، والتي من حق القارئ أن ينتظرها منها.

كان من المفيد إذن، أن يجمع المستشرقون وينسقوا كل ما يعرفونه عن العربيـــة، فيرتبوا مفرداتها، ويدعموا كل شرح بشهادات النحويين والمعلقين القدماء، وتبريـــرات مأخوذة من كتب النثر والشعر(2).

ويعتبر مجموع حاجي خليفة، الذي حرره حوالي منتـــصف القـــرن 17 م /11 هـــ، أول وأقدم وآخر مجموع بيبليوغرافي لدى العرب والفرس والأتراك. وقد صـــيغ وفق الشروط التي يتطلبها الأوربيون في القرن 19 م. وبذلك لم يسبق حاجي خليفـــة أحد في أمته. كما أنه أخذ أحـــسن مـــا عنـــد GESNER، DUMAINE، DE LACROIX و DUVERDIER (3) .

وفيما يتعلق بموضوع البلاغة في الأدب العربي، الذي سيشغلنا فيما تبقـــى مـــن المبحث، يعتبر المستشرق DE TASSY أول من عرف بالبيان والبديع في المجلة الآسيوية في الأربعينيات، على اعتبار أنهما لم يثيرا انتباه أو اهتمام مستشرقين

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P: 59-60.

(2) -"Publication d'un lexique trilingue Arabe-Persan-Turc oriental", J.A., 3 me série, T : 5, 1838, P : 201.

(3) - EINAUD, Hadji-Khalfa (sic), J. A., 1859, **op. Cité**, P : 242-243.

من قبل، مما جعلهما موضوعين جديدين بالنسبة لقراء المجلة الآسيوية، على الأقل.
وأما العروض والقافية، فقد سبق أن عرف بهمـــا CLERICUS، DE SACY، DE GLADWIN ثم DE TASSY (1) .

كان الخليل بن أحمد[2] (100 – 170 هـــ /718 – 786 م) أول من حـــرر، اعتمادا على الشعر العربي القديم، قواعد البحور (Métrique) التي تبنتها كـــل الأمـــم الإسلامية الأخرى. ولهذه البحور قوانين تساعد على حفظها، كالأركـــان والأصـــول والأجزاء والتفعيلة(3).

وكان أبو العباس محمد المعروف بالمبرد (ولد عام 207 هـــ /822 م) أكثر نحويي القرن 3 هـــ /9 م شهرة، قضى حياته ببغداد أين كتب عددا من المؤلفات أهمها كتاب الكامل في اللغة والأدب(4).

وقد نقل المستشرق REISKE تعريفا بكتاب الكامل[5] اعتمادا على المبرد نفسه فهو: "يعالج ويحيط بأنواع شتى من الآداب، إذ نجد فيه أبسط النثر، الأبيات الموزونـــة، الأحاديث والحكم الشائعة، التعليم المثمر، وأخيرا انتقاء أنبل المـــواعظ، الأدب البليـــغ المؤثر". وكانت غاية المبرد من تأليف الكتاب: "إيضاح كل صعوبة تفرضـــها نـــدرة عبارة، أو غموض معنى، وإعطاء شرح كاف لكل التعابير العربية المتضمنة، بحيث

---

(2) – **الخليل بن أحمد**: بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمن. ولد ومات في البصرة. وعاش فقيرا صابرا. وكان شعث الرأس، شاحب اللون، قشف الهيئة، متمزق الثياب، مغمورا في الناس لا يُعْرَف من أئمة اللغة والأدب. واضع علم العروض، أخذه من الموسيقى وكان عارفا بها. وهو أستاذ سيبويه النحوي. ترك الخليل عدة مؤلفات منها: كتاب "العين" في اللغة، و"معاني الحروف"، و"جملة آلات العرب"، وتفسير حروف اللغة"، و"كتاب العروض"، و"النقط والشكل"، و"النغم"، وغيرها.

– الزركلي، الأعلام، ج: 2، **مصدر سابق**، ص: 314.

(3) – **نفس المصدر** السابق، ص: 107.

ـــ انظر كذلك تفاصيل الموضوع: – **نفس المصدر** السابق، ص: 108-121.

(4) – - Rapport annuel, J. A., 1864, **op. Cité**, P : 46.

(5) – المبرد، الكامل، **مصدر سابق**.

إن كتاب الكامل كاف نفسه بنفسه، فهو يغني عن الاستعانة بكتاب آخر بحثا عن شرح ضروري"(1).

وخلال القرن 3 هـ /9 م بالذات، كانت دقة وصرامة البصريين قد بدأت تخف في معارضتها تيار اللسان العامي، الذي سعوا لمدة طويلة في احتوائه. وحل التساهل والتسامح محل التباعد والتعارض الذي كان قائما بين النظري والتطبيقي.

وكان نحويو الكوفة يقفون موقفا نقيضا، إذ كانوا مهيئين لقبول كل جديد، وهم يعشقون، ما يسميه المستشرقون، شذوذ اللسان، فيستقبلون بكل ترحيب الشوائب وما يتسرب كل يوم إلى اللسان العربي القديم، بل يستعملون نفوذهم في نشره والترويج له.

لم يعد إفراط أولئك وهؤلاء يستجيب لمتطلبات الوقت، فكان المطلوب من ناحية البصريين إبداء أكثر تسامح وأقل صلابة، ومن الكوفيين ضرورة الوقوف في وجه الغزو المستمر لشذوذ اللسان الذي قد يجهز على العربية الفصحى. وكان المبرد أحد الأوائل الذين شعروا ضرورة هذا النوع من المصالحة. ومع كونه بقي مرتبطا بنظريات أساتذته المتشددين، وتأثره الشديد، ورغبته الملحة في إنقاذ العربية من الفوضى التي تهددها، وضع الأسس الأولى لـ"المدرسة المزيج" (Ecole mêlée) أو مدرسة النخبة التي ستحيى أكثر من المدرستين السابقتين، البصرية والكوفية(2).

بقيت الإشارة إلى حكايات ألف ليلة وليلة،[3] التي كان تحريرها سبق تحرير الفهرست لابن النديم بنحو من الماءتي سنة، أي بعيد منتصف القرن 2 هـ /8 م، بناء على آراء موثوقة أبداها المستشرق DE SACY (4) .

يطلق العرب اسم الشعر على الخطاب الموزون أو ذي القافية، وعلى طريقة نظم الشعر الخاضع لنظام العروض الخليلي. ولقد كان الخليل بن أحمد الذي عاش في نهاية القرن 2 هـ /9 م، أول من دون، بناء على الشعر العربي القديم، قواعد علم العروض

---

(1) - H. DERENBOURG, "The kamel of El Moubarrad", J. A., 1866, **Cité**, P: 263.

(2) – **نفس المصدر** السابق، ص: 259.

(3) – انظر أقوال المستشرقين فيها: – دائرة المعارف الإسلامية، ج: 2، **مصدر سابق**، ص: 518.

(4) - DE PERCEVAL, "Ces poèmes fameux nommés Moallacat", **N. J. A.,** 2me série, T : 12, 1833, P : 101.

الذي تبنته كل الأمم الإسلامية. وهو الذي وضع البحور الستة عشر الأصلية. والبحور نماذج خاصة تسهل على الذاكرة حفظها، وتتكون من عدد من الكلمات أو الألفـاظ تمثل أجزاء البيت الشعري، وتسمى الركن، الجزء، الأصل أو التفعيلة(1).

وقد اعتمد المستشرقون الفرنسيون، في موضوع العـروض (Prosodie)، علـى كتاب "حدائق البلاغة" لمير شمس الدين الدهلوى، من خلال دراسة DE TASSY له، لاسيما وأنه وجد ضالته فيه لما يتوفر عليه من رسومات بيانية للتفعـيلات وغيرهـا، ولشروح ضافية(2).

وكتاب الأغاني[3]، من الكتب التي يعتد بها، في فن الشعر. كان صاحبه أبي الفرج الأصفهاني ضمن تسعين عالما عاصروه، وهو أكثرهم استظهارا للشعر عـن ظهر قلب، وكذلك الأغاني وتاريخ الوقائع والأحاديث الـصحيحة والأنـساب، بالإضافة أن له معرفة جيدة بالنحو والقواميس والسير وتاريخ الغزوات وما يتعلـق بالولائم، كما لم يكن غريبا عن تربية الصقور، وفن البيطرة والطب والفلك وفـن تحضير المشروبات(4).

كان للعرب في الأصل القليل من الأغاني، وهي بمثابة مقاطع شعرية موجهـة إلى التغني. مقاطع بعضها طويلة وبعضها الآخر قصيرة، أخذت من قصائد الشعراء القدماء، أي ما قبل الإسلام وما بعده، لحنهم موسيقيون وفق أنغام جميلة أو قبيحة(5).

أخذ الأصفهاني على نفسه واجب جمع كل ما يمكن جمعه من الأغاني العربيـة، سواء القديمة منها أو الحديثة. وقد بحث لكل أغنية عن مؤلف أبياتها وموسيقاها،

---

(1) - DE TASSY, "Prosodie des Langues de l'Orient Musulman..", **J. A.**, 4me Série, T : 11, 1848, P : 107.

(2) – **نفس المصدر** السابق، ص: 106.

(3) – انظر تعريفا سابقا للكتاب، خليفة، **كشف الظنون**، ج: 1، ص: 129.

(4) – انظر سابقا، وكذلك:

كتاب الأغاني : - QUATREMERE, "Mémoire sur l'ouvrage intitulé **N. J. A.**, 2 me série, T : 16, 1835, P : 391.

(5) – **نفس المصدر** السابق، ص: 392.

وشرح الكلمات الصعبة فيها والقواعد النحوية وقواعد الوزن -التي تعد معرفتها ضرورية- للوصول إلى التمييز بين القافية الشعرية وقاعدة نغمها(1).

قصائد الأصفهاني وأشعاره تقتضي معارف متينة وأسلوبا رائقا(2). وكتابه الأغاني، هو أهم كتبه وأشهرها وأضخمها، قضى فيه 50 سنة. يُجْمع الدارسون للأدب على أنه أحسن كتاب ظهر في مادته. وقد قيل إنه مذ تحصل الوزير الصاحب بن عباد[3] عليه صار يقتصر على اصطحابه(4).

هناك قرن -ينحصر بين العهود القديمة لشبه الجزيرة العربية والعهد الإسلامي المشرق بالقوة والحضارة- بدأت ترتسم فيه وقائع وصور شخصيات عربية ضمن تقاليد معينة. قرن لم يخل من الأمجاد، ولدت فيه الأشعار الشهيرة، لاسيما منها المعروفة بالمعلقات، التي دفعت شباب البادية الولوع بها إلى تعليقها على جدران الكعبة، الأشعار التي بقيت حتى القرن 13 هـ /19 م -على الأقل- في عداد أمتع روائع الأدب العربي(5)، وبعضها من أهم المنتجات الأدبية للعقل البشري، كما سيأتي(6).

---

(1) – **نفس المصدر**، ص: 400.

(2) – **نفس المصدر**، ص: 391.

(3) – **الصاحب بن عباد**: إسماعيل بن عباد بن العباس، أبو القاسم الطالقاني. ولد بالطالقان (من أعمال قزوين) وإليها نسبته، وتوفي بالري ونقل إلى اصبهان ودفن فيها. وزير غلب عليه الأدب، فكان من نوادر الدهر علما وفضلا وتدبيرا وجودة رأي. استوزره مؤيد الدولة ابن بويه الديلمي ثم أخوه فخر الدولة. ولقب بالصاحب لصحبته مؤيد الدولة من صباه، فكان يدعوه بذلك.. له تصانيف كثيرة منها: "المحيط" في مجلدين في اللغة، و"كتاب الوزراء"، و"الكشف عن مساوئ شعر المتنبي"، و"الإقناعفي العروض وتخريج القوافي"، وله شعر في "ديوان".

– الزركلي، الأعلام، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 316.

(4) – **نفس المصدر** السابق، ص:386-387.

(5) – - DE PERCEVAL, "Ces poèmes fameux, nommés Moallacat", N. J. A., 1833, **op. Cité**, P : 97.

– انظر حول شعراء المعلقات: الشيخ مصطفى الغلاييني، **رجال المعلقات العشر**، المكتبة العصرية، بيروت، 1990.

(6) – انظر لاحقا، **فصل التاريخ**، ص: 258. وكذلك:

- G. DUGAT, "Le Roi Noman, ses jour de bien et ses jours de mal, Extrait du Roman d'Antar...", **J. A.**, 5^{me} série, T : 1, 1853, P : 9.

بدأ العرب إذن، قبل وقت قليل من ميلاد النبي ﴿صـــلى الله عليـــه وســـلم﴾ يستيقظون من سباهم. كما بدأ يحضر لهم حدث كبير. لم يأت هذا الحدث من بـــاب الصدفة، بل كان له أساس في مقتضيات ذلك الوقت، وفي الحاجة التي كانت تشعر بها هذه الشعوب في أن تولي وجهها وتفكيرها أخيرا نحو شيء أكثر نبل من اقتتال القبائل، والثأر من بعضها البعض. كانت هذه الرغبة إحساس غامض، وكان لابد من انتظـــار منقذ من الخارج، فأهدي لهم ذلك بواسطة الدين الإسلامي.

كان للعرب بعض من الميول الشعرية، لكنها لم تكن لتخرجها من الدائرة الضيقة لأفكارها. فجمل جميل، وفرس شهم، ورمح مصيب، وسهم سريع، وســيف بـــراق، وامرأة جميلة، تلك هي تقريبا كل الأشياء التي يتقن العرب وصفها. وكان الكرم لـــدى العربي فضيلته، والثأر شغفه، والقيمة فخره. وهي الأفكار المبثوثة باستمرار في القـــصائد التي سبقت مجيء محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، والتي يمكن النظر إليها على أنها بـــشير أو نذير للقرآن الكريم(1).

كانت جل القصائد العربية إذن، تدور حول القيمة أو القدر، لكن القيمـــة مـــن باب الوصول إلى الشرف أو الكرم أو النسب، فهي تحتاج إلى غاية نبيلة، بينما الـــذي يشرف أكثر في نظر MUNK هو الوطنية أو حب الوطن، وهي فضيلة غير معلومة من العرب القدماء. فوطن العربي هو خيمته، عائلته أو قبيلته. والقبائل تتقاتل أحيانا لأبسط الأشياء(2)، والنصر المحقق في غزوة سلب ونهب، هو أنسب وأليق موضوع قصائدهم الحربية وملاحمهم. ولا يهمهم أن يكون الانتصار شريفا في نفسه، فالعرب لا تحتفـــل بالقيمة كفضيلة إذ هي ليست في كبريائهم سوى مناسبة تفاخر جاف.

والحقيقة أن هذه الملاحظة لم تغب عن المفكرين العرب، فابن رشد في مقال لـــه عن أرسطو، ذكر: "أن القصائد العربية، كما قال الفارابي، لا تتناول في معظمهـــا إلا نزوات شهوانية، لأن النوع الذي يسمونه غزل ليس سوى إثارة للرذيلة، يجب إبعـــاد

---

(1) - S. MUNK, "Essai d'une traduction des Séances de Hariri, précédé de quelques observations sur la poésie arabe", N. J. A., 2me série, T : 14, 1834, P : 542-543.

(2) - نفس المصدر السابق، ص: 543.

الشباب وحديثي السن عنه، وعدم تركهم يقرؤون إلا ما يشجع على القيم كـالفخر والمجد، لأن العرب لم يحتفوا في قصائدهم إلا بهذين الفضيلتين، وهم لا يتحدثون عنـها لتشجيع الآخرين عليها، إنما تفاخرا بها لا غير"(1).

وهذا لبيد أحد أشهر شعراء المعلقات، شهد ظهور الـنبي ﴿صـلى الله عليـه وسلم﴾، الذي أرهب الشعوب التي اشترت الضلالة بالهدى ويوم الحساب الأكبر. فلما سمع لبيد بهذه المعاني المدوية، كسر ربابته، أسلم وقال: "الحمد لله الذي لم تأت ساعتي قبل أن ألبس رداء الإسلام" (2). وقيل إنه لم ينظم بيتا شعريا بعد إسلامه إلا البيـت التالي:

مَا عاتَبَ المَرْءَ الكريمَ كنفْسه والمرْءُ يُصْلحُهُ القَرينُ الصَالحُ(3)

مرت دراسة المستشرقين للشعر العربي بأطوار ومراحـل. امتـاز الطـور الأول بخصوصية البحث عن مقارنات بكتاب العهد القديم، وشرح الألفـاظ التوراتيـة. ثم صاروا يدرسون الشعر لأهداف وأغراض فنية جمالية، ومحبة في شعر أصيل يمتاز بالجزالة والحيوية والمشاعر الإنسانية المشتركة. أما في الطور الأخير فقـد صـار المستـشرقون يبحثون في الشعر عن عادات العرب، ومشاعرهم المتميزة، وعن ذكريات تاريخهم.

إن طبيعة الشعر العربي القديم تتلاءم جيدا وهذا الأسلوب في النظر، لأنه طـوال قرون ظل العمل الفكري العربي يقتصر ويتلخص في أبيات من الشعر. فكل واقعة ينتج عنها قطعة شعرية، وكل زعيم يتغنى بمواقفه ووقائع قبيلته، ولكل قبيلة ديـوان يحـوي عناوين فخرها في الحرب وفي السلم(4).

---

(1) - **نفس المصدر** السابق، ص: 544.

(2) - **نفس المصدر** السابق، ص:545. انظر كذلك كتاب:

- DE SACY, **"Fables de Bidpai suivies de la moallaka de Lebid"**, P : 122.

(3) - الحسن بن أحمد الزوزني، **شرح المعلقات السبع**، تحقيق محمد الفاضلي، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، 1998، ص: 129.

(4) - - apport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 112.

كان للنابغة الجعدي[1] (توفي نحو 50 هـ /670 م) إحساس وإدراك بعبقريته، وكان يعرف أن ليس في استطاعة شاعر أن يضاهيه في عكاظ. ففي كل سنة كانت تنصب له خيمة من الجلد في سوق عكاظ، حيث يجلس والشعراء الأكثر نبوغا يبحثون عن موافقته ورضاه. فهناك الأعشى[2](توفي عام 7 هـ /629 م) وحسان بن ثابت[3] (توفي عام 54 هـ /674 م) والخنساء[4] (توفيت عام 24 هـ /645 م)، يأتون ليستظهروا قصائدهم وينحنون أمام حكمه(5).

ومن الشعراء الذين يعترفون بأفضلية النابغة على معاصريه، جرير[6] والأخطل[7] (19 – 90 هـ /640 – 708 م)، دون أن ننسى النحوي أبو الأسود

---

(1) – **النابغة الجعدي:** قيس بن عبد الله، الجعدي، العامري، أبو ليلى: شاعر مخضرم، وصحابي، من المعمرين، وهو ممن فكر في الجاهلية فأنكر الخمر. قدم وهو سيد قومه مع وفدهم على النبي (صلى الله عليه وسلم) سنة 9 هـ /630 م، فأسلم وشهد فتح فارس. جمعت المستشرقة مارية نللينو ما وجدت من متفرق شعره في "ديوان" مع ترجمة إلى الإيطالية وتحقيقات.

– السيد، **معجم** الألقاب، **مصدر سابق**، ص: 321.

(2) – **الأعشى الكبير:** ميمون بن قيس بن جندل، من بني قيس بن ثعلبة، الوائلي، اليمامي إقامة ووفاة، أبوبصير. من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية ، وأحد أصحاب المعلقات. كان كثير الوفود على الملوك من العرب والفرس، وهو أول من سأل بشعره. له ديوان كبير أكثره في المدح مع شيء من الغزل والخمريات. لقب بالأعشى لضعف بصره. – **نفس المصدر السابق**، ص: 32-33.

(3) – **حسان بن ثابت:** بن المنذر بن حرام، الأنصاري الخزرجي النجّاري، المدني ولادة وإقامة ووفاة. صحابي وشاعر النبي (صلى الله عليه وسلم) وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. وله ديوان شعر. أروع شعره ما كان في الفخر والمدح والهجاء. نصر الإسلام بشعره، سلاحه الوحيد الذي شهره على أعداء النبي (صلى الله عليه وسلم) فصار بذلك شاعر النبي يمدحه ويرد على من يهجوه من شعراء قريش.

– **نفس المصدر السابق**، ص: 86 و 175-176.

– عبد الرحمن البرقوقي، **شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990.

(4) – **الخنساء:** تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد، الرّياحية السُّلمية: أشهر شواعر العرب على الإطلاق. من أهل نجد، عاشت أكثر عمرها في العصر الجاهلي، وأدركت الإسلام فأسلمت. ووفدت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مع قومها بني سليمان. وكان النبي يعجبه شعرها.

– السيد، **معجم** الألقاب، **مصدر سابق**، ص: 106.

– ابن الجوزي، **أخبار الخنساء**، هذبه وحققه إيهاب كريم، دار النديم، بيروت، 1991.

(5) - DERENBOURG, "Le Diwan de Nabigha…", J. A., 1868, **op. Cité,** P : 247-248.

(6) – انظر: تاج الدين شلق، **شرح ديوان جرير**، ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994.

(7) – **الأخطل:** غياث بن غوث بن الصلت التغلبي، الحيري ولادة. شاعر أموي، اتصل ببني أمية وخصوصا بعبد الملك بن مروان ـــ فأصبح شاعرهم الناطق باسمهم، والمروج لسياستهم، هو أحد شعراء المثلث الأموي المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير، والفرزدق، والأخطل. له ديوان شعر.

– السيد، **معجم** الألقاب، **مصدر سابق**، ص: 22.=

الدؤلي[1] (1 ق.هـ. – 69 هـ /640 – 688 م).

ومهما كان الإعجاب متنوعا، فهناك إجماع على جعل النابغة في الطبقة الأولى من الشعراء العظماء، يضاف إليه أحيانا إمرؤ القيس وطرفة، أو امرؤ القيس والأعشى، أو امرؤ القيس وزهير.

وعادة ما ترتب قائمة الشعراء في الأسبقية على النحو الآتي: أمرؤ القيس فالنابغة فزهير فالأعشى.

وحتى قصائد المعلقات، تلك المدونات التي تبرهن على اختيار عقلي، يمكن أيضا أنها تفضل قصائد النابغة(2).

ويذكر أن الخليفة عمر (رضي الله عنه)، كان من المعجبين أيضا بالنابغة(3).

ويعتبر أبو سعيد عبد الملك بن كريب البهيلي البصري[4] -لعله الباهلي- المعروف بالأصمعي (122 – 216 هـ /740 – 831 م) أول ناشر لشعر النابغة، المحتوي على 24 قصيدة -وكان الأصمعي قد عاش في بلاط الخليفة هارون الرشيد- كما جمع القصائد الست أو مجموع الشعراء الستة، وساعده في ذلك تلميذه أبو حاتم

= - الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، **شعر الأخطل**، ط 2، دار المشرق، بيروت، 1986.

(1) - **أبو الأسود الدُّؤَلي**: ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل الدؤلي الكناني. سكن البصرة في خلافة عمر ومات بها. ولي إمارتها في أيام عليّ (رضي الله عنه)، استخلفه عليها عبد الله بن عباس لما شخص إلى أن قتل علي، وكان قد شهد معه "صفين". كان معدودا من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب، من التابعين. رسم له عليّ بن أبي طالب شيئا من أصول النحو، فكتب فيه الأسود وأخذه عنه جماعة. وفي صبح الأعشى أن أبا الأسود وضع الحركات والتنوين لا غير. هو في أكثر الأقوال، أول من نقط المصحف.
- السيد، **معجم** الألقاب، **مصدر سابق**، ص: 236-237.

(2) - DERENBOURG, "Le Diwan de Nabigha…", J. A., 1868, **op. Cité** P : 249-250.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 251.

(4) - **الباهلي أو الأصمعي**: عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي، نسبته إلى جده أصمع. مولده ووفاته بالبصرة. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. وكان الرشيد يسميه "شيطان الشعر". تصانيفه كثيرة منها: "الإبل" و"الأضداد" و"خلق الإنسان" و"المترادف" و"الفرق" و"الشاه" و"شرح ذي الرمة" وغيره. - الزركلي، الأعلام، ج: 4، **مصدر سابق**،ص: 162.

السجستاني[1] (توفي عام 248 هـ /862 م). ويستحيل مع ذلك التدقيق في آخر من حرر ديوان الشعراء الستة(2).

والنابغة المتوفى (حوالي 562 م) سنوات قليلة قبل بعثة النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، هو أحد الأواخر الذين مثلوا الثقافة العربية لما قبل الإسلام.

كان لشعر النابغة عدة مقلدين أو منتحلين نذكر منهم، ابن قتيبة وربيعة بن مقروم الضبي[3] (توفي بعد 16 هـ /638 م) وعدي بن زيد[4] (توفي نحو 35 ق.هـ. /590 م) وأبو نواس وابن الرومي، وعلى رأس هؤلاء جميعا الشاعر حسان ابن ثابت(5).

وعاش عنترة بن شداد حوالي القرن 5 م، وقيل عقود قليلة قبل ميلاد النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾. وهو بطل تلك المرحلة أو العهد الانتقالي، كما كان (Achille) ابن (Pelée) بطلا للعهد الإغريقي القديم الذي لم يكن فيه أسطورة و لم يكن بعد قد تحول إلى رمز تاريخي، واقتصر على القصص الخيالية. أما عنترة فهو حقيقة تاريخية لا شك فيها. عرف بعبقريته الشعرية وشجاعته في الحرب، فهو الذي تغنى بانتصاراته وحبه العاطفي.

---

(1) - **أبو حاتم السجستاني**: سهل بن محمد بن عثمان الجشمي. من أهل البصرة، كان المبرد يلازم القراءة عليه، فهو من كبار العلماء باللغة والشعر. له نيف وثلاثون كتابا، منها: كتاب"المعمرين" و"النخلة" و"ما تلحن فيه العامة" و"الشجر والنبات" و"الطير" و"الأضداد" وغيرهم.
- **نفس المصدر السابق**، ج: 3، ص: 143.

(2) - DERENBOURG, "Le Diwan de Nabigha...", J. A., 1868, **op. Cité**, P : 259-261.

(3) - **ربيعة بن مقروم الضبي**: من شعراء الحماسة، ومخضرمي الجاهلية والإسلام. وفد على كسرى في الجاهلية، وشهد بعض الفتوح في الإسلام، وحضر وقعة القادسية.
- **نفس المصدر السابق**، ج: 3، ص: 17.

(4) - **عدي بن زيد**: بن حماد بن زيد العبادي التميمي: شاعر من دهاة الجاهليين. كان قرويا، من أهل الحيرة، يحسن العربية والفارسية. وهو ، اتخذه في خاصته وجعله ترجمانا بينه وبين العرب. جمع ما بقي من شعره في "ديوان".
- **نفس المصدر السابق**، ج: 4، ص: 220.

(5) - DERENBOURG, "Le Diwan de Nabigha...", J. A., 1868, **op. Cité**, P : 26.

ومن المؤكد أن شهرة عنترة الكبيرة في قومه، هي التي أوحت لمحمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، أن يتأسف لكونه لم يعرف عنترة، فقد روي عنه ما معناه: أنه ما وصف له أعرابي قط فأحب رؤيته إلا عنترة(1).

والأصمعي، المتبحر في الأدب وأصول الدين وأستاذ هارون الرشيد، هو مؤلف رواية عنترة لقد تجول الأصمعي في مختلف أرجاء الخلافة كي يجمع من هنا وهناك أجزاء الشعر العربي القديم الذي توزع بالرواية(2). وقد صور تصويرا طبيعيا العادات الأصلية لعرب الصحراء وطبائع البدو. فمن الرغبة في نهب الجيران والحمية من أجل الخصومة والقتال، إلى السخاء والكرم وحسن الضيافة، والذكاء الحاد، والشجاعة النادرة، وحساسية الثأر للشرف، واحترام النساء... الخ. لأجل هذا، فإن رواية عنترة كتاب للرجال، يجدون فيه دروس الفصاحة والبلاغة. فيما كانت قصة ألف ليلة وليلة مثلا، تسلية للنساء ومتعة للشباب(3).

ولعل أغلب التقاليد التاريخية للعرب قبل محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، توجد ضمن رواية عنترة(4).

وأما في عهد الخلفاء فقد أوحت عادات بلاطاتهم إلى الشعر والشعراء أشكال أكثر ملاءمة للعادات الجديدة، من تلك التي اكتفت بها حياة التقشف ورتابة الصحراء. ولعل أبا نواس هو أحد المجددين في هذا المجال، فهو شاعر زمانه وقليلا شاعر هارون الرشيد. إنه رجل عادات منحلة، وإيمان مشكوك فيه، لأجل هذا كان يتفادى المجتمع تأدبا معه. و لم ينقذه من حكم الإعدام سوى عقله الحاد والسفيه. ومع ذلك فقد كان يسحر ويبهر محيط البلاط اللبق، بأناقة وخفة أشعاره(5).

---

(1) - DE PERCEVAL, "Ces poèmes fameux, nommés Moallacat", **N. J. A.**, 1833, P : 98.

- انظر: **كتاب الأغاني**، ج: 2.

(2) - BELIN, "Chrestomathies orientales", J. A., 1842, **op. Cité**, P : 103.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 104.

(4) - DUGAT, "Le Roi Noman, ses jours de bien et ses jours de mal", J. A., 1853, **op. Cité**, P : 5.

(5) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 40-41.

وأبو تمام حبيب بن أوس، شاعر يعود إلى بدايات القرن 3 هـ /9 م. ولم يكن وقتذاك رجال الأدب علماء عقيدة ولا فقه، كما لم يكن لهم جمهور لشراء كتبهم، فكانوا يقتصرون على بيع الثناء والمدح لكبار الشخصيات، الأمر الذي ولد طبقة من الشعراء تصانع وتداهن وتتملق لولاة الأمر، حين يحصلون على جود وسخاء، ويرسلون الهجاء والقدح والنقد اللاذع عندما تتوقف عنهم النقود.

ينتمي أبو تمام إلى هذه الطبقة، و"الحماسة" هي التي بقيت إلى أن أنقذت اسمه من النسيان. إنها الفترة الزاهية للعرب(1) والمسلمين، الفترة التي كانت فيها الأمة حديثة فتية، مليئة بالآمال، في ازدهار ونمو ذهني، طاله التعصب فيما بعد، في نظر المستشرقين.

كان نمو الثقافة العربية الإسلامية بدراسة العلوم الإغريقية والهندية، وكذلك بذوقها ولسانها، وعن طريق شعر البادية القديم الذي كانت تعبر به ومن خلاله اللغة الأكثر انسجاما وتعبيرا عن الأحاسيس الوطنية. وقد اعتنى العرب بالبحث بعناية فائقة عن قصائد مختلف القبائل، وحققوا نجاحا في مجموعات من مثل حماسة أبي تمام، التي تتكون في جزئها الأكبر من قصائد سابقة لعهد محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، وأخرى معاصرة له.

كان لهذه المنتخبات عيب واحد وهو أنها أدخلت طي النسيان أكثر المجموعات الأصلية التي اقتبست منها، ولكنها مع ذلك تشكل بالنسبة إلى المستشرقين الأوربيين المصادر الثمينة لدراسة اللغة والحالة الاجتماعية للعرب قبل الإسلام(2).

والمتنبي[3] من مواليد الكوفة عام 303 هـ /915 م. وهو ابن رجل سقاء، قضى شبابه في البادية، ومنها عاد بمعرفة جيدة للغة العربية الجميلة، كما عاد بعادات سكانها من فخر وشهامة وشجاعة وإقدام. كون جماعة وادعى النبوة فأودع السجن، ثم

---

(1) – Rapport annuel, J.A., 1853, **op. Cité**, P : 142.

(2) – **نفس المصدر السابق**، ص: 143.

(3) – انظر تعريفا به ضمن **المبحث السابق**، وكذلك:

– حسن الإمراني، **المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين**، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1994.

عاد عن ادعائه مقتصرا على كونه رجل حرب وشاعر بلاط، وهو ما بقي عليه حتى وفاته، مقاتلا من أجل الأمراء، محتفيا بأعمالهم وجميل صنائعهم، ومختلفا معهم أحيانا، يثأر لنفسه تارة بنقده اللاذع، وأخرى بالعودة عن المديح الذي أسداه لهم من قبل. وينتهي المتنبي بعد الثروة الطائلة والمتنوعة بالتضحية بنفسه كي لا يناقض أو يكذب بيتا شعريا كتبه لمجده الخاص(1).

بقيت الإشارة في ختام هذا المبحث إلى فن آخر من فنون الأدب العربي، يقف بين الشعر والنثر، كان الأدباء يتعاطونه في جلسات أو لقاءات، وقد اصطلح على تسميته بالمقامات، وهو فن جديد مما يحظى في هذه اللقاءات(2).

والمقامات نثر مقفى وممزوج أحيانا بأبيات، أين تجد كل خصائص الشعر العربي القديم، أو هو قطع شعرية لها نفس القافية من البداية إلى النهاية(3).

ولعل أشهر كتّاب المقامات هو أبو محمد القاسم الحريري (توفي عام 516 هـ /1122 م)، ظهر بالبصرة، وأبدى منذ سن مبكرة ذوقا حادا تجاه الأدب العربي من نحو وشعر وسجع، وتمرس على عدد كبير من الفنون الأدبية.

ومقامات الحريري هي أنواع من المآسي والفواجع أو الدراما، وعددها خمسون، أين نفس الشخص يقوم بتعدد الأدوار في الحياة(4). وكان ذلك في الوقت الذي حملت فيه كل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها من الأمم المسيحية بغرض "تحرير" البقاع المقدسة. وفجأة بلغ الخبر إلى البصرة أن المحاربين الغربيين بقيادة BAUDOUIN أخ GODEFROY DE BOUILLON مدينة سروج ببلاد الرافدين وأنه خربها. وقد وصل من سروج رجل يدعى "أبو زيد"، أرغم على ترك بيته وأمتعته، وكان رجل أدب، متمرس في كل فنون الأسلوب، فأشركه الحريري في تأليف المقامات(5).

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 35.

(2) - MUNK, "Essai d'une traduction des Séances de Hariri ", **N. J. A., 1834, op. Cité**, P : 550.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 555.

(4) - DE SACY, "Les séances de Hariri", 2me Edit., par REINAUD et DERENBOURG, **J. A.**, 4me série, T : 8, 1846, P : 561.

(5) - **نفس المصدر السابق**، ص: 561.

انتهز الحريري الفرصة في المقامات، لإبراز العبارات الأكثر أناقة في اللغة العربية، والصيغ المتكلفة الأكثر ندرة، والتعابير المأثورة الأكثر استعمالا. وهكذا فقد أعطى لمكوناته الأشكال الأكثر أناقة، وعرف كيف يرقى بهذه الأشكال، بذهن متوقد، وخيال حي، وعمل رائع بليغ ومؤثر، رسم أغنى لوحة لعادات وتقاليد زمنه وللحقل الثقافي العربي الإسلامي لعصره.

وقد ذاع صيت الحريري حتى الأندلس، ودخل المدارس اليهودية التي كانت تشكل جزءا من حركة الدراسات الإسلامية. وأسالت مقاماته حبر كثير من المستشرقين الفرنسيين وغير الفرنسيين، وعلى صفحات المجلة الآسيوية بالذات، فاكتسب بمقاماته أكبر عنوان للمجد والخلود (1).

---

(1) - MUNK, "Essai d'une traduction des Séances de Hariri", **N. J. A.**, 1834, **op. Cité**, P : 550.

3- نظرة نقدية (منهجية النقد لدى المستشرقين ونقدها).

اتضح من المبحث السابق الذي أوردنا فيه جملة من القضايا التي شغلت اهتمام المستشرقين، والتي طالت رقعة جغرافية واسعة، كما شملت فترة زمنية طويلة، فضلا عن تعدد الاهتمامات، وتنوع المواضيع، المتفاوتة المشارب، رغم كوننا لازلنا في جيل المستشرقين الأول.

إن إمعان النظر في الفعل الاستشراقي في مجال اللغات واللهجات على العموم والأدب العربي على الخصوص[1]، يخلص إلى أن مردوده ضخم. وقد شمل الأشخاص والأفكار والأشياء، أي النخب الفكرية بإنتاجها وتأليفها وكذا المضمون الفكري للإنتاج وطرق ووسائل الإنتاج.

وبعد أن عرفنا بعضا من مجمل القناعات التي خرج بها مستشرقو الجيل الأول، يجدر بنا أن نعرف كيف تمت قراءتهم لهذا التراث، وما هي أدوات فهمهم له؟ وهل كانت لديهم خلفيات أثناء قراءته؟ إلى غير ذلك من الاستفهامات النقدية الكثيرة.

لقد نهل مستشرقو الجمعية والمجلة الآسيويتين من الأصول والأمهات في شتى المواضيع، انطلاقا من مناقشة قضية وحدة اللغات أو عدمها، فالألسن واللهجات المتفرعة عنها، ومن ضمنها في بلاد المغرب اللسان البربري الذي يشمل القبائلية والترقية والشلحية، وهي في الأغلب تتكلم ولا تكتب وبالتالي فهي لم تدون. وهناك على الخصوص، اللغة العربية الفصحى التي ظلت تكتب وتدون بها آداب وعلوم المشرق والمغرب العربيين، لأجل هذا سماها المستشرقون أيضا اللغة العلمية. وقد اهتموا بحروفها وطباعتها طباعة حجرية وغير حجرية، والخط المسند والنسخي والمغربي، وعمدوا إلى تحريك الحروف العربية فأدخلوا الشكل على الكتابة التي طبعوا

---

[1] - للمزيد من التوسع في **تاريخ الأدب العربي** المنجز من طرف المستشرقين، انظر:
- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، 3 أجزاء، ط 5، دار المعارف، القاهرة، 1991.
- رجيس بلاشير، **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ط 2، دار الفكر، دمشق، 1984.
- الأب لويس شيخو، **تاريخ الآداب العربية** (1800 – 1925)، ط 3، منشورات دار المشرق، بيروت، 1991.

مخطوطاتها لصعوبة قراءة النصوص غير المشكولة، كما أدخلوا أيضا علامات الوقف تسهيلا لقراءة النصوص واستيعابها كما في النصوص الأوربية، وكان ذلك لأول مرة في تاريخ النصوص العربية.

وقد نشروا الكثير من أمهات المصادر في كل فن من فنون الأدب العربي، من ذلك أنهم اهتموا بعلم الاشتقاق وأصل ألفاظ بعض لهجات بلاد المغرب وترخيم أصواتهم، كما نشروا مخطوطات وألفوا كتبا عديدة في قواعد النحو والصرف، وكذلك القواميس والمعاجم. ولتوفير النصوص الأصلية تسهيلا لدراسة العربية، صنفوا ونشروا المنتقيات الأدبية والمختارات، وفن النثر وما يحويه من فني البيان والبلاغة وما يتفرع عنهما من بديع واستعارة ومجاز وسجع وتقفية، فضلا عن فن الحكاية، القصة والرواية. وفن الشعر والقصائد وما يشتملان عليه من عروض وقافية وقواعد البحور وقصائد غنائية وغزلية والرثاء وفي القدح والهجاء والمدح والتقريظ، المتضمنة للمبادئ والمعاني المختلفة، كالانتقام والثأر والتباهي والتفاخر والمجد والفخر والكرم والجود والسخاء والفضيلة ...الخ. وقد تضمن الشعر أيضا أدوات الحرب ووسائلها، كالفرس والرمح والسهم والسيف وغيرها. وكانت بعض من هذه الأشعار تحفا وروائع، تنم عن معرفة وتبحر وحكمة. تغنى بها عن موهبة وعبقرية وجدارة وهمة وارتجال ناظمو الشعر. ومنهم أيضا النحويون والفقهاء والمقلدون والمنتحلون.

وقد تعامل المستشرقون الفرنسيون مع التراث الأدبي العربي بعد الاطلاع عليه في شكل أبحاث ورسائل، أو إسهامات، وبالنقل والنسخ أحيانا، والمقارنة أو المقابلة بين نصوصه، وأحيانا أخرى، جاء في شكل ملخصات ومواجيز، وباقتطاع أجزاء، أو مقتطفات أدبية، وخلاصات، وقصص وحكايات، تعرضوا لها بالشرح والتعليق والنقد والتثريب، وبالتوطئة لها والتمهيد.

وقد عملوا في ذلك كله بفكرهم الذي هو نتاج عصر الاستنارة، بالرأي والتفكير والملاحظات، والجدل، والشك، فحاكموا التراث الأدبي عقليا بالاستحسان تارة وبالذم أخرى.

وكان من المستشرقين الفرنسيين، المنصف، والمخلص. واتصف بعضهم بالنزاهة والصدق والانتقاد. وكانت لهم حججهم وذرائعهم، ومستلزماتهم ومقتضياتهم، وآراؤهم المخالفة، ومذاهبهم ومناهجهم، وفق مقتضيات النقد الأوربي. فنقدوا باللوم والإعابة والانتقاد، والشجب والاستهجان، والاقتناع والإقناع. كل ذلك في دأب البحث، والنقد الحصيف أحيانا، وبالبحث والتقصي، وبالانكباب على الدروس والانقطاع الكلي، وبحماسة وشوق، وعدل وإنصاف، ونزاهة وموضوعية، والاعتراف والنقل المدقق. فكانوا مستكشفين فعليين، من خلال التحقيق والتدقيق، والفحص والبحث وبالحس النقدي، والمراجعة والتثبت، بعقلية المغامرة الحالمة، فقدروا واحترموا، وبضمير حي نصف دقيق، بطريقة منهج عقلانيين يراجعون المعاجم، ويستشيرون.

وهكذا، فقد غلب على أعمال المستشرقين –في مجال الأدب– الفائدة والمنفعة، والتثقيف والتنوير، بآراء غير مغرضة تارة، وبفكر ثابت وهمّ وانشغال، وآراء مسبقة ومتحيزة، تارة أخرى.

وقد أطلقوا على الكتاب العرب والمسلمين نعوتا. فوصفوهم بالإطناب والهذر، والتعصب والتزمت، والانتحال والسرقة الأدبية من بعضهم البعض، والغموض والارتباك والتشويه، والنقص والضعف وزعموا أن في أعمالهم فجوات.

ومع هذا، فإن الفضل يعود إلى المستشرقين، في أنهم أنقذوا، بل خلصوا وحافظوا، على كثير من النصوص الأصلية والأصلية. كما أن إثارتهم لقضايا اللغات والألسن واللهجات على العموم، واللغة العربية على الخصوص، قد جعلتهم يساهمون في بعثها وتجديدها بإثارة نصوصها الأصلية وإلقائها إلى الساحة الفكرية والأدبية والثقافية الأوربية سواء في شكل كتب مطبوعة طباعة عصرية أو مقالات على صفحات مجلات فكرية عامة أو متخصصة ومستقلة بتراث الشرق بالذات كما هو شأن المجلة الآسيوية.

لقد تعامل المستشرقون، فيما يتعلق باللغة والأدب العربيين كما تعاملوا مع أنفسهم حين اعتبروا التراث الإغريقي–اليوناني–الروماني تراث كل الدول الأوربية مجتمعة أو

متفرقة. فكذلك تراث الأدب العربي بمختلف فنونه، ليس ملكا خاصا بسكان شبه الجزيرة العربية ولا بلاد ما بين النهرين والشام ولا مصر ولا بلاد المغرب والأندلس، ولكنه ملكية جماعية مشتركة منذ أمضت أجيال الفتوحات الإسلامية الأولى عقد الشراكة في أن يستظلوا بمظلة الحضارة العربية-الإسلامية الواحدة التي ساهم الجميع بقليل أو كثير من الجهد في رفع سقفها على سرايا: الإسلام والعروبة والماضي المشترك وعلى الرقعة الجغرافية ذات الامتداد المشترك أيضا. فلم يتبن سكان بلاد المغرب، عن طواعية، إلا اللغة العربية كلغة رسمية ولغة التدوين العلمي والثقافي فأضفوا على المنطقة طابع العروبة فضلا عن الإسلام. فيما آثرت شعوب إسلامية أخرى عن طواعية أيضا الاحتفاظ بلغتها مع كتابتها بالحرف العربي كما جرى في الهند وبلاد فارس وبلاد آل عثمان. لأجل هذا ظل الحرف العربي إلى القرن 13 هـ /19 م سائدا على الرقعة الجغرافية الممتدة من المغرب الأقصى إلى تخوم الصين.

كانت الحضارة الإسلامية لا تزال إلى القرن 13 هـ /19 م، في سبات منذ قرون خلت، كما كانت لا تزال أعراض مجدها التليد مجسدة في البرامج التعليمية المشتركة، في المشرق والمغرب في مجال اللغة والأدب على الخصوص، من خلال أمهات المصادر التي يعود بعضها إلى عصر التدوين العربي. ولا غرابة إن وجدنا المطابع في العالم الإسلامي ككل –حتى غير العربية منها- خلال الفترة التي تعنينا بالذات، لا تعترف بحدود لأمهات المصادر، وهكذا فقد طبع صحيح مسلم (؟) لأول مرة بكالكوتا (الهند)، وكذلك القاموس المحيط للفيروزآبادي بكالكوتا والقاهرة، ومقدمة ابن خلدون بإسطمبول والقاهرة..الخ. وكان من بين أهم دروس الشيخ محمد عبده -بعد الفترة التي تعنينا بقليل- مقدمة ابن خلدون نفسها.

* * *

إن المستشرقين الذين عرضوا مسألة وحدة اللغات، أشاروا إلى أنها كانت لا تزال في الأربعينيات محل بحث محدود، حتى أنه خارج الفرع الهندو-أوربي، لم

يحدث أن قام الأوربيون آنذاك بدراسات مقارنة جادة وأن مجموعة من اللغات كانت لا تزال غير معروفة تماما.

كان أمل المستشرقين إذن، وطموحهم قائما على ضرورة القيام بدراسات جادة وعميقة، في هذا المجال، لاسيما وأن هناك من الشعوب من لم يحدث أن كانت لها لغة مكتوبة –ذات قاعدة نحوية– مما كان ينطبق مثلا على جل الشعوب الأمريكية وأغلبية الأفارقة(1). ويعود السر في ذلك ربما لكونها شعوبا لم تعرف حضارات، أو على الأقل حياة ترقى إلى مستوى الكتابة.

إن كتاب "رينان" أو تاريخه العام والنظام المقارن للغات السامية، مس جملة من المسائل الشائكة والهامة في نفس الوقت، وهو يتطلب فحصا معمقا، ومع ذلك فإن قارئ الكتاب يعثر للوهلة الأولى على خصائص الكاتب القوية المتمثلة في معارفه العلمية الدقيقة من خلال أبحاثه المنجزة، وعرض مختلف آرائه الواضحة، وأحكامه المعتدلة وهو أمر نادر في الأبحاث اللغوية(2).

يذهب المستشرق DELAPORTE إلى أنه في الوقت الذي كانت تحرز فيه الأسلحة الفرنسية انتصارات في الجزائر أضحى مهما الانشغال باللغات المستعملة في الإيالة السابقة، وهي التركية والعربية والبربرية(3). وكان اعتبار "دولابورت" أن اللغة التركية لم تعد لغة الحكومة، من تحصيل الحاصل، لأن الفرنسية أخذت مكانها بالقوة. وأما اعتباره العربية لغة غزاة سابقين فهي مغالطة من عدة أوجه: الوجه الأول ما ذهبنا إليه آنفا من كون سكان المنطقة هم الذين تبنوا العربية عن طواعية رسميا وعلميا وثقافيا، والوجه الثاني أنه حتى لو افترضنا جدلا أن العرب المسلمين الأوائل فرضوها بالسيف، ألم يكن بوسع حكام المنطقة من البربر أن يتخلوا عنها وقد حكموا قرونا عديدة بعد الفتح الإسلامي وكان الكثير منهم مستقلا عن الخلافة الإسلامية في

---

(1) - P.G. DE DUMAST, "Mémoire sur la question ", J. A., 1846, pp. **Cité**, P : 292.

(2) - J. DERENBOURG, " Histoire générale et système", J. A., 1855, P : 292.

(3) - DELAPORTE fils, " vocabulaire Berbère", J. A., 1836, **op. Cité**, P : 97.

المشرق؟. أما الوجه الثالث فهو أن بلاد المغرب عرفت انقساما جغرافيا إلى مغرب أقصى وأوسط وأدنى[1]، أي إلى حكم إقليمي ضيق ومتقوقع أحيانا، ومع ذلك لم يرد تاريخيا أن حاول أمير أو حركة التخلي عن اللغة العربية. وأما الوجه الرابع فهو أن الجزائريين عاشوا تجربة خاصة خلال الفترة العثمانية التي دامت ثلاثة قرون كاملة، تحت حكم الأتراك العثمانيين، وكان هؤلاء يتبنون اللغة العثمانية كلغة رسمية، ومع ذلك لم يتبن سكان الجزائر لغة الحكام العثمانيين و لم يتخلوا عن العربية رغم كونها فرصة مواتية مادامت السلطة لا تناصر العربية ولا تعاديها. فهل يتصور بعد هذه التجربة الطويلة أن يقبل الجزائريون بالفرنسية كلغة بديلة عن العربية مع كونهم لا زالوا في بدايات الاحتلال و لم يذوقوا بعد سيف قانون الأهالي؟ وهل يعقل أن يتبنوا اللسان البربري ولو كان لسان الأم، والذي يحدث أن حررت به الأجيال السابقة، وبمحض إرادتها ومن تلقاء نفسها، ولو بضعة كتيبات، طوال عشرين قرنا أو أكثر؟

أفاد بعض المستشرقين بني جلدتهم من قادة وجنود الاحتلال الفرنسي في الجزائر، بأن وفروا لهم وسائل الاتصال بالأهالي. من ذلك ما قام به DELAPORTE نفسه من خلال اهتمامه، أثناء العلاقات التي يوفرها لها عمله ولقاءاته اليومية بقبائل البربر أو الشلح بجمع مفردات وعبارات لسانهم، ثم إرسالها إلى المجلة الآسيوية لنشرها للفرنسيين الذين تربطهم علاقات بذوي اللسان البربري، وكذلك إلى هواة الألسن القديمة، لا سيما وأن اللسان البربري قل من يعرفه في أوساط النخبة الفرنسية(2).

وبعد طول بحث ميداني، من طرف المستشرقين والضباط العسكريين، في الألسن البربرية، عجزوا عن إيجاد جذع لها ضمن لغات العالم، واعترفوا قبيل نهاية الفترة التي تعنينا، على الأقل، أن الأبحاث في مجال الألسن البربرية يعد من الإنجازات العلمية الأكثر صعوبة(3).

---

(1) – هذا التقسيم اصطلاحي وليس سياسي إذ لم يقم نظام سياسي على هذا التقسيم.

(2) – - DELAPORTE fils, " vocabulaire Berbère"; **J. A.**, 1836, **op. Cité**, P: 98-99.

(3) – - Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 121.

ورغم محاولات CHERBONNEAU التأسيس لقواعد لسان عـــربي دارج، إلا أنه من خلال معايشته الجزائريين ودراسته الفصحى ثم الدارجة أو العامية، انتهى إلى أن الأخيرة تجد أصولها في اللغة العربية الفصحى، التي ذاب فيهـــا، في نظـــر "شـــيربونو"، العرب والبربر والأتراك ذوبانا تدريجيا(1).

لما طرح المستشرق DE DUMAST على مدير المجلة الآسيوية MOHL، فكـــرة إدخال علامات الوقف على النصوص العربية، استثنى إدخالها علـــى القـــرآن الكـــريم. وكانت حجته في ذلك أن المحافظة التامة على جوهر القرآن يستنتج منه المحافظة علـــى الشكل، وأن لا أحد يملك قليلا من علم النفوس يجرؤ ببساطة على تكـــسير العـــادات المنظور إليها على أنها مقدسة. فقوة التطور محكوم عليها بالفشل أمام قوة المقاومة الـــتي تفرضها حواجز الطقوس والشعائر الدينية، التي إن تجرأت على تكـــسيرها فستنكـــسر عوضا عنها(2).

يعتبر المستشرقون علامات الوقف وسائل توضيح في خدمـــة العقـــل والفكـــر البشريين، وهي آلية مفيدة موجهة إلى المجتمعات المتحضرة، دون تمييز، مقصدها الوحيد توضيح أشكال الكتابة للعقل البشري. وقد كانت أمنية المستشرقين رؤيتهم المهـــتمين بالأدب العربي يوظفون علامات الوقف في الكتابة والنشر. وكـــان DE DUMAST متفائلا في هذا المجال، إذ لاحظ –في مطلع السبعينيات- أن النخب في العالم الإسلامي مستنيرة ولذلك توقع أن لا يمر وقت كبير حتى تـــشرع دور الطباعـــة بالقـــسطنطينية وبولاق وطهران في نقل وسائل وطرق أوربا في الطباعة ومنها علامات الوقف(3).

كانت الشعوب والبلاد التي تتعاطى مع اللغة العربية، إلى منتصف القـــرن 19 م على الأقل، تمتد من خليج البنغال إلى المحيط الأطلسي، ومن ضفاف نهر الفولجا إلى

---

(1) - CHERBONNEAU, "Observations sur l'origine", **J. A.**, 1855, **op. Cité,** P : 549-551.

(2) - DU MAST, "Ponctuer les phrases", **J. A.**, 1873, **op. Cité**, PP : 297-304.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 302 و 304.

ضفاف نهر النيجر[1]. ومن هنا يأتي الاهتمام المتزايد باللغة العربية، ويجد هذا تأكيـده وتفسيره في تقرير أرسله HOURY في أكتوبر 1834 إلى المـشرفين علـى جامعـة بروكسل، وتضمن جملة من الهموم عرضت للبحث، مفادها ضرورة تحول العلاقـات السياسية والتجارية للشعوب الأوربية مع شعوب آسيا وإفريقيا إلى علاقات أكثر وديـة (؟). وقد استشعر التقرير مسؤولي الجامعة بضرورة الاهتمام أكثر بلغات وآداب الشرق متنبئا بعهد قادم قريب لن تعود فيه هذه اللغات والآداب تقتصر معرفتها على الـوكلاء التجاريين والقناصل والمترجمين الدبلوماسيين، ولكنها ستصير أيضا ضمن اهتمام العـالم والأديب يمكنهما بواسطتها أن يسألا ويختبرا حكمة الشرق القديم، الذي لم يكشف منه الإغريق للأوربيين إلا القليل. ويحث التقرير على أنه شرف للعبقرية الأوربية أن تـدرس آداب الشرق، موطن الحضارات البشرية الأولى.

ويذكر التقرير بإنجاز فرنسا المتمثل في احتلالها الجزائر وعزمها علـى تعميرهـا، ومشروع ربط النيل بالبحر الأحمر، وإقامة السكك الحديدية لـربط المـدن التجاريـة الكبرى ببعضها البعض، هذا في وقت تتقدم فيه الحضارة الأوربية كل يوم، مما يهيـئ العالم الصناعي ويفتح أمامه حركة تجارية كبرى بين أوربا وآسيا وإفريقيا[2].

ولما كان التكلم بالعربية يمر عبر مفتاحها وهو القراءة، فقد أعد المستـشرقون عددا كبيرا من منهج تعلم القراءة، كما أسلفنا، إلى جانب المنتخبات الكثيرة، والتي نشرها أساتذة المدرسة الخاصة للغات الشرقية الحية. وكان من مقاصد هذه المنتقيات أيضا، ممارسة تأثيرها على علاقات فرنسا بالعرب على العموم، ولاسيما الجزائريون الذين صار بوسعهم الحصول عليها بسهولة لتوفرها في الجزائر، وهو ما من شأنه أن يعمل على مضاعفة عدد الطلبة المتمدرسين، مما سيـضع تحـت تـصرف الإدارة الاستعمارية، في نظر المستشرقين، أعوانا يخدمونها ويؤازرون جهـودها في السيطرة

---

(1) - REINAUD, "De l'état de la littérature chez les populations chrétiennes Arabes", **J. A.**, 5 ^{me} série, T : 9, 1857, P : 473.

(2) - C.B. HOURY, "Extraits d'un mémoire sur les langues orientales adressé (Par le G ^{NT} de Bruxelles) à MM les Administrateurs de l'université de Bruxelles, en Octobre 1834, **J. A.**, 3 ^{me} série, T: 1, 1836, P: 301.

على الجزائر. ومن دلائل تطابق هذه السياسة التعليمية، أن وزير الحرب الفرنسي "المتنور" وضع المنشورات التعليمية تحت مسؤولياته[1].

ظل المستشرقون الفرنسيون يقتفون أخبار الكتب، ويعرفون بما يطبع منها في العالم الإسلامي وفي أوربا، ضمن أعداد المجلة الآسيوية، ولذلك فقد علموا، على سبيل المثال، بطبع قاموس "الفيروزآبادي" بمطبعة بولاق، كما أسلفنا. وعلموا أيضا بطبع المعجم المفصل لأسماء الألبسة عند العرب بأمستردام، الذي يعد نموذجا من نماذج المعاجم وقتذاك، ولذلك فلا بأس من الوقوف على طريقة تأليفه على سبيل المثال لا الحصر.

يقوم المعجم على القراءات الأكثر تنوعا واتساعا وشساعة. فالمؤلف لا يتقدم في كل خطوة إلا اعتمادا على حجج الشعراء والمؤرخين والرحالة واللغويين والفقهاء والشراح وغيرهم. لقد اطلع على الكل، وأشركهم في طلب ما يريد. ومن ضمن اللغويين العرب الذين أثار شهادتهم نجد: الجوهري والفيروزآبادي وابن فارس[2]، ومن المؤرخين: ابن خلدون وابن إياس والنويري والمقري والمقريزي والسيوطي، ومن الرحالة: ابن بطوطة وابن جبير، ومن النقاد والأدباء: ابن جني[3] والواحدي[4]

(1) - -A. BELIN, "Chrestomathie orientales vivantes", J. A., 1842, **op. Cité**, P: 67.

(2) - انظر التعريف بهم ضمن **المبحث السابق**.

(3) - خليل **بن جني** الموصلي، أبو الفتح (توفي حوالي 392 هـ /1002 م)، ولد بالموصل وتوفي ببغداد. من أئمة الأدب والنحو. ترك تصانيف كثيرة منها: "شرح ديوان المتنبي، وكان المتنبي يقول: ابن جني أعرف بشعري مني. و"المحتسب" في شواذ القراءات، و"سر الصناعة" الأول منه في اللغة، و"الخصائص" ثلاثة أجزاء في اللغة، و"اللمع" في النحو، و"التنبيه" في شرح ديوان الحماسة، وغيره كثير.

- الزركلي، الأعلام، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 204.

(4) - **الواحدي**: علي بن أحمد بن محمد بن علي بن مُتُّوية، أبو الحسن، (توفي عام 468 هـ /1076 م) أصله من ساوة (بين الري وهمذان) ومولده ووفاته بنيسابور. مفسر وعالم بالأدب، نعته الذهبي بإمام علماء التأويل. من تصانيفه: "البسيط" و"الوسيط" و"الوجيز" كلها في التفسير، وقد أخذ الغزالي هذه الأسماء وسمى تصانيفه. وشرح "ديوان المتنبي"، وغيره.

- **نفس المصدر السابق**، ج: 4، ص: 255.

والتبريزي[1].

غير أن اعتماده انصب أكثر على النص العربي لألف ليلة وليلة[2]. وأما الرحالة الأوربيون الذين اعتمد عليهم أيضا فهم كُثّر[3]، نذكر منهم: VAN GHISTELE، KAEMPFER، HELLFRICH، COTORIE، MARMOL، DIEGO DE HAEDO، TEGAZZA، MAN، WILD. وأخيرا، نقل DOZY من القواميس غير العربية، لاسيما الإسبانية منها لـ PEDRO DE ALCALA، DE CESAR OUDIN، Victor DE HIECOSME، DE CABA RRUVIAS.

وقد ذكر DOZY، مختلف التغيرات التي طرأت على هذا اللباس العربي أو ذاك – موضوع المعجم– في مختلف الأقطار الإسلامية، كالأندلس والمغرب والجزائر (العاصمة) وتونس (العاصمة)، وفي سوريا ومصر وشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس وغيرها. واحتاجت هذه الطريقة إلى تفاصيل مثيرة للفضول في التاريخ والأخلاق وعادات الشعوب الإسلامية[4].

---

[1] – **الخطيب التبريزي:** يحي بن علي بن محمد الشيباني، أبو زكرياء (421 – 502 هـ /1030 – 1109 م). أصله من تبريز، نشأ ببغداد ورحل إلى بلاد الشام، فقرأ "تهذيب اللغة" للأزهري، على أبي العلاء المعري. من كتبه: "شرح ديوان الحماسة لأبي تمام" اربعة أجزاء، و"تهذيب اصلاح المنطق لإبن السكيت"، و"الوافي في العروض والقوافي"، و"شرح القصائد العشر"، و"الملخص في إعرات القرآن"، و"شرح شعر المتنبي"، و"شرح اللمع لابن جني"، وغيرها كثير.

– **نفس المصدر السابق**، ج: 8، ص: 157 – 158.

[2] – **ألف ليلة وليلة:** حين توقفت الفتوحات الإسلامية، وشاع بين الخلفاء والأمراء حياة الدعة والخلاعة، الأدباء على تسجيل تلك الحكايات الشعبية التي ألفها العرب: "قصة عنترة" و"ذات الهمة" و"سيف بن ذي يزن" و"حمزة والبهلوان" والتي ترجموها وأضافوا عليها "قصة ألف ليلة وليلة"، إلى جانب قصص صغيرة رويت كما هي أو أقحمت داخل ألف ليلة وليلة، وقصص "كليلة ودمنة" وغيرها. وللإشارة فإن مصادر هذا النوع من الأدب عديدة، أهمها:

1– الحياة الجاهلية وأيام العرب، وما جرى بها من مغامرات وحروب.

2– الحياة في صدر الإسلام والعصر الأموي، وما عم فيها من حروب وفتوح، أو مجون وانغماس بالملذات، فظهرت أقاصيص الحب كقصص المجون، بل قصص المجانين الذين وقعوا في الهوى.

3– الحياة في العصر العباسي، وما انتشر فيها من حضارة وترجمات فارسية، ووضع وتأليف.

– التونجي، **المعجم** المفصل، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 57.

[3] – - DOZY, "Dictionnaire détaillé", J. A., 1846, **op. Cité**, P : 365.

[4] – **نفس المصدر السابق**، ص: 366.

ولا يخلو معجم DOZY من النقائص التفصيلية، التي لا يمكن تفاديها في عمل ضخم كهذا، كبعض الأخطاء في القراءة أو الترجمات، ولاسيما في معجم استشهد فيه ببضعة آلاف من النصوص العربية، المأخوذة في أغلبها من مخطوطات[1].

ورغم استحقاق الجرجاني للتنويه وقيمة كتابه التعريفات، فهو في نظر المستشرقين، ليس سوى جامع ومصنف استعار أغلب تعريفاته من مؤلفات قديمة، ولا يبدو أنه نقل عنها دائما بأمانة، فكان من المفيد، في نظرهم، العثور على هذه الأصول والاستعانة بها في التحقق من كتاب التعريفات. وقد عثر FLUGEL بالفعل على واحد منها، هو كتاب صغير لابن عربي أعطى فيه مائتي تعريف لألفاظ تخص المتصوفة. كما عثر SPRENGER على كتاب آخر، هو معجم الألفاظ التقنية الصوفية، لمؤلف يدعى عبد الرزاق الذي يبدو أنه عاش في بداية القرن 8 هـ /14 م[2].

كان من الممكن تطوير علم المعاجم، في نظر المستشرقين الفرنسيين، بثلاث كيفيات أو طرق: تتمثل الأولى في إعطاء مدونات في علم اللغة، في شكل شروح عن كتاب أو مجموعة من الكتب. ولعل النماذج في هذا المجال قد قدمت، في نظرهم، من طرف DE SACY في ترجمته أو نقله إلى الفرنسية لكتاب منسوب إلى "عبد اللطيف" وكذلك QUATREMERE في ترجمته لتاريخ المماليك للمقريزي. أما الكيفية الثانية فتتمثل في جمع المفردات المتعلقة بهذا الفرع من المعارف أو ذاك. فيما تقتصر الكيفية الثالثة، على لغة أو لسان قرن واحد.

و لم تكن الكيفيتان الأخيرتان قد بدأتا آنذاك في فرنسا على الأقل. غير أن المستشرقين أضحوا يملكون نموذجا محققا للطريقة الثانية بفضل DOZY، في قاموسه المفصل، كما كانوا ينتظرون منه أيضا، نموذجا للطريقة الثالثة في قاموس لغة عرب الأندلس وموريتانيا الذي كان قد جمع له آنذاك عدة أدوات[3].

---

(1) - نفس المصدر، ص: 368.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1846, **op. Cité**, P : 32.

(3) - DOZY, "Dictionnaire détaillé", J. A., 1846, **op. Cité**, P : 365.

وكان النموذج المتبع في القاموس العربي-الفرنسي لـ KAZIMIRSKI، هو نقل أدق التعاريف من خلال قراءة عدد كبير من المؤلفين العرب، وتوضيح معاني المفردات الغامضة أو المبهمة، واستخلاص جذور الكلمات دون أن تغيب عن عينيه معاني وصيغ الكلمة.

يذكر "كازيميرسكي" جذر الكلمة، ثم يجمع بالترتيب مركباتها ومشتقاتها. ويشير الكاتب أيضا إلى مرادفات الكلمة وإلى ضدها، متبعا في ذلك القواميس العربية. وبذلك فإن نظرة بسيطة تكون كافية للإلمام بمجمل قائمة الكلمات التي لها نفس الأصل، وتتطلب بحوثا عديدة، إن أخذت على حدة.

هذه الطريقة المعتمدة على التحليل، لها إيجابياتها، لكونها واضحة، دقيقة، منطقية، مختزلة وتسهل مهمة الطالب[1].

وكانت أسباب ودواعي تطوير قاموس "جيرمانوس"، الذي راجعه رشيد الدحداح، هو توفير عدد كاف من نسخ مخطوطات المراجعة والتصحيح وهي خمسة. ثم تفحص وبحث كل المفردات كلمة كلمة، وراجع كثيرا من كتب الأدب، وإضافة ما هو ضروري، مع ترتيب أبجدي ضمن الجسم العام للمفردات، كي يكون هناك انسجام بين شروح المحقق وشروح المؤلف الأصلي. مع وضع كل ما أضيف بين قوسين. وكذلك فعل بالنسبة للشروح اللغوية (النحوية) حيث وسع فصل النحو، وحاول أن يتوسع فيما كان غير كاف في الأصل. وكذلك الأمثال وأسماء الأعلام الذين اشتهروا عند العرب سواء بآثارهم وأريحيتهم أو بغيرهما[2].

وأما القاموس البيبليوغرافي لحاجي خليفة، فقد اعتبره المستشرقون تحفة عجيبة تدل على معارفه الواسعة وعقله النير، ولو أن لجنة الترجمة بلندن لم تقدم إلا هذه الطبعة، لأثبتت بها وجودها[3].

---

(1) - CHERBONNEAU, Dictionnaire Arabe-Français, **J. A.**, 4 ème série, T : 8, 1846, P : 564.

(2) - BARGES, Dictionnaire arabe de Germanos, J. A., 1849, **op. Cité,** P : 87 – 88.

(3) -REINAUD, Hadji Khalfa (sic), Léxicun …, J. A., 1859, **op. Cité,** P :44.

ما هو مجهود FLUGEL في نشر موسوعة حاجي خليفة ؟ لقد وضع على رأس كل مجلد —في الأصل- جملة من الملاحظات، أعاد النظر فيها بشكل مطول، وتتعلق تارة بعنوان كتاب أو اسم مؤلف، لم يدون بشكل صحيح، أو تاريخ ناقص أو فيه خطأ، وتارة ثالثة بعنوان كتاب لم يدون بشكل صحيح باللاتينية، ومراجعته لضبطه بدقة.

ظهر المجلد الأول من طبعة FLUGEL عام 1835، و لم يتوقف الناشر طوال عشرين سنة عن مراجعة عمله، بيد أنه رأى من الواجب ملاحظة أن نقاطا عدة بقيت دون توضيح. وقد بدا لـ REINAUD بالفعل أن FLUGEL لم يستمكن من استخلاص كل الفوائد من المعطيات التي وضعت بين يديه، كبقاء تاريخ وفاة بعض المؤلفين أبيض، في الموسوعة مثلا، و لم يقل شيئا عن هذا النقص أثناء ملاحظته ...الخ[1].

وإذا كان FLUGEL قد وفق في مهمته، فإن الفضل في ذلك يعود إلى سخاء "اللجنة الإنجليزية لترجمة مؤلفات الشرق إلى اللغات الأوربية"[2].

اعتبر بعض المستشرقين كتاب "الكامل" للمبرد، كلاما مقتضبا ومرتجلا حول مواضيع شديدة التنوع[3]، كما اعتبر البعض الآخر أن ليس في كتاب الكامل فصل لا يتوفر على موضوع يتلخص في العبارة الأولى، ولكن من الصعب العثور عليه في الغالب وسط الاستطرادات الطويلة التي يستدرج إليها المؤلف سواء من خلال بيت شعري يذكره بأبيات أخرى، أو بعبارة نادرة يشعر بضرورة شرحها، وملاحظة تعقبها، ثم فجأة يعود الكاتب إلى الموضوع الرئيسي في الوقت الذي يكون فيه قد أوشك على نسيانه. وقد تساءل البعض ما إذا كان أصل كتاب "الكامل" هو ملخص لدروس كان المبرد يلقيها على تلامذته، لاسيما وأن الكتاب يحمل مؤشرات تعليم شفهي. ثم أليس الأخفش (المتوفى عام 315 أو 316 هـ /928 م) هو أحد هؤلاء التلاميذ الذين احتفظوا ببعض ملاحظات أستاذهم، مادام يورد دائما العبارة: "قال أبو العباس..."[4].

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 257.

(2) - **نفس المصدر**، ص: 258.

(3) - DERENBOURG, "The Kamil ...", J. A., 1866, **op. Cité**, P : 263.

(4) - **نفس المصدر السابق**، ص: 264. انظر: المبرد، **مصدر سابق**.

لأجل هذا يكاد يتفق المستشرقون الفرنسيون على أن كتاب "الكامل"، هو كدس من المفاهيم والمعلومات والمعارف، تتداخل فيه المواضيع بخلفية تعليمية[1].

وإذا كان المبرد يرى أن كتاب "الكامل" لا يحتاج إلى غيره، كما أسلفنا وكما يستفاد من العنوان (الكامل)، فإن الأخفش يرى غير ذلك، إذ يعتقد أنه من الضروري إضافة شرح يجد فيه قارئ الكامل رأس خيط فكرة المبرد التي أراد معالجتها في الكتاب. ويرى DERENBOURG أن الأخفش هو الذي أنقذ كتاب "الكامل"، لأن شرحه فقط هو الذي وصل المستشرقين[2].

وقد قارن DE SACY نشرة كليلة ودمنة بالمخطوطات الهندية، وغالبا ما تفاجأ لأن الكثير من الحكم والأمثال الهندية، توجد في كليلة ودمنة، وهي مأخوذة أحيانا بدقة. ولعل ما يستحق العناية والانتباه هو أن كليلة ودمنة نفسها ليست إلا ترجمة عربية للترجمة الفارسية للنص الأصلي السانسكريتي[3].

والقصص العربية الجميلة، كألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة، لاتقدر بثمن، في نظر المستشرقين أنفسهم، وقصة ألف ليلة على الخصوص، كانت إلى عام 1841 الكتاب الوحيد الذي وصل إلى أوربا وكان الأكثر إقبالا عليه في أوساط الأوربيين. ولاشك أن هذه القصص هي التي منحت أفكار عموم الناس في الشرق، ذلك التمجيد للشعر الذي يلهم كثيرا من العقول، ويغذي الفضول نحو المزيد من المعرفة[4].

اقتنع المستشرقون بما ذهب إليه من أن معرفة قواعد علم العروض، ضرورية لفهم القصائد في اللغات الإسلامية، وكوسيلة نقد أيضا، إما للتأكد من المعنى –ما دام يخضع في العادة إلى الطريقة التي بها نتلفظ الكلمات التي تدخل في تكوين البيت الشعري- أو لتصحيح أخطاء النساخ، التي هي في العادة مشتركة في الشعر كما في النثر، بسبب الغموض الذي يسود غالبا –في نظر المستشرقين- الشعر الشرقي

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 103.

(2) - DERENBOURG," The Kamil …", J. A., 1866, **op. Cité**, P : 264.

(3) - KOSEGARTEN, "Lettre a M.REINAUD", J. A., 1849, **op. Cité**, P : 256.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1841, **op. Cité**, P : 27.

كنتيجة للاستعارة أو المجاز الذي يكثر في العبارات قليلة الاستعمال التي يستدعيها وزن البيت والقافية.

ولأن المستشرقين تهاونوا في أول الأمر في الاهتمام بالعروض، واقترف بارزون منهم أحيانا، بعض الأخطاء الخطيرة في النصوص التي نشروها، ويكفي للدلالة على هذا ذكر W. JONES [1].

أدرك المستشرق QUATREMERE أن كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أنجز بعناية، من مؤلف عالم وأنيق، كما أسلفنا. وقد تضمن الكتاب كما هائلا من المعلومات القيمة عن التاريخ الاجتماعي والأدبي للعرب، ولاسيما الأحداث المتعلقة بحياة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ والعهود التي أعقبته.

يقدم كتاب الأغاني عددا من الأدوات المفيدة[2]. ولعل الثقة في مواضيعه متوفرة، لأن الكاتب عاش في بدايات القرن 4 هـ /10 م، وبالنتيجة فإن ذاكرة الأحداث كانت لا تزال حيوية، ويتوفر لدى المؤرخ إمكانيات التحقيق الأكثر وثوقا. وإذا كانت هناك أحداث لم يعد لها قيمة، فلا بد من التذكير أن كتاب الأغاني، وتحديدا بسبب الشهرة التي كان يتمتع بها، كان ينظر إليه على أنه كنز، بقدر ما هو خصب فهو ثمين، اقتبس منه الكتب المتأخرون بتوسع دون حيرة ولا تردد.

ومن المؤكد أن أهمية الكتاب لا نزاع فيها، فموضوعه غني، متنوع ومؤثر، لأن النكت المعروضة فيه إنسانية متنوعة. غير أن الطريقة التي حرر بها الكتاب أقل تلاؤما مع أذواق الأوربيين[3].

حاول KOSEGARTEN -من خلال المقال المرفق بنشرة الجزء الأول من نص كتاب الأغاني حول الموسيقى العربية- أن يبرهن على أن الموسيقى العربية اقتبست من الإغريق، وهي قضية فاجأت جل القراء. ومن الممكن أن لا يكون هناك كتاب عربي، في نظر المستشرقين، أكثر جدارة منه في موضوعه، إذ هو أحد الوثائق الأكثر إثارة في التاريخ

---

(1) - DE TASSY, "Prosodie des langues de l'orient", J. A., 1848, **op. Cité**, P : 106.

(2) - QUATREMERE, "Mémoire sur l'ouvrage" N. J. A., 1835, **op. Cité**, P : 392.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 393.

السياسي والأدبي للعرب، لأن الجميع يعرف الحد الذي بلغه الشعر عنـــدهم إذ امتـــزج بحياتهم، وكل ما له صلة بحياتهم الاجتماعية والأخلاقية قبل الإسلام، مأخوذ تقريبا مـــن شعرهم[1].

لقد ظل الأدب العربي –لأسباب مختلفة وقوية لمدة أطول- الفرع الأكثر إقبـــالا عليه من المستشرقين، ضمن آداب الشرق، على الأقل في فرنسا وألمانيا، ولذلك تكـــاثر نشره ونقده والتعريف به تكاثرا ملفتا للانتباه[2].

وفي مجال الشعر، تأسف المستشرقون في مناسبات عديدة، لضياع قصائد شـــعرية عربية قديمة وكثيرة، وفي نفس الوقت، اعترفوا لعلماء اللغة العربية بجميل صنعهم، لأنهم جمعوا وحافظو على تراث أنتجه قوم بدو، فأنقذوا هذه القطع النفيسة من التاريخ العربي القديم بتدوينهم لها[3].

فالنابغة الذي توفي سنوات قليلة قبل بعثة النبي ﴿صلى الله علية وسلم﴾، هو أحد الشعراء الأواخر الذين مثلوا الثقافة العربية لما قبل الإسلام[4]. وكما قال حبيب عـــن شاعر آخر: "لو لا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب"[5].

وبناء على شهادة DELECLUSE فإن عنترة كان النمـــوذج الأول لفرســـان أوربا دون أن يستطيع البرهنة على ذلك، وقد ذهب إلى أن مغامرات عنترة يمكـــن أن تكون قد عرفت من بعض الأوربيين، وبتأثير من الحروب الصليبية، في حدود القـــرن 3 أو 4 هـــ /9 أو 10 م. ومن المحتمل أن يكون الأوربيون قد اقتبسوا منه كـــل جهـــاز فروسيتهم. غير أن هناك من المستشرقين من يرى أن المغامرات المشار إليهـــا تعـــود إلى حوالي القرن 9 هـــ /15 م[6].

---

(1) - Rapport annuel du, J. A., 1841, **op. Cité**, P : 28.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1843, op. **Cité**, P : 498.

(3) - DERENBOURG, "Le Diwan …", J. A., 1868, **op. Cité**, P : 259.

(4) - **نفس المصدر** السابق، ص: 265.

(5) - REINAUD, "Notice sur les chroniques orientales", N. J. A., 1834, **op. Cité**, P: 552.

(6) - DE PERCEVAL, "Ces fameux poèmes", N. J. A., 1833, **op. Cité**, P : 106.

ويرى HAMMER أن شعر عنترة، ضمن روايته، ليستأهل أن يعد من أهم منتجات العقل البشري(1).

إن عنترة لتشخيص لعبقرية العرب قبل الإسلام، فهو محارب، شاعر وفارس بدوي، ونموذج في التضحية ونكران الذات، كرم ومروءة، شجاعة وحب. إنه يشكل بالنسبة للعرب طرازا أخلاقيا، يؤازر الضعفاء ويرفق بهم، ينتقم للمظلومين، ويعاقب الأشرار، ويلوي رؤوس المستبدين المغرورين. إنه شخصية نبيلة، حكيم وشجاع، ومع ذلك فله نقاط ضعفه(2).

لمن توجه النصوص الشعرية العربية وترجماتها؟ إلى الذين يتتبعونها بذوق من المثقفين والبحاثة، وإلى الذين تستهويهم المشاعر الحماسية كما في الشعر العربي. أما المستشرق FREYTAG مثلا، فهو يقترح إرضاء رغبات العلماء الذين يرغبون في دراسة الدواوين الصعبة كديوان الحماسة لأبي تمام(3).

ويأتي المتنبي شخصية مثيرة لفضول المستشرقين أيضا، لا تنقصه كرامة ولا عزة نفس وشرف، ولو أنه مشوه بسلبيات أتته من مواقفه التي عفّى عنها الزمن.

أحصيت للمتنبي ما يقرب من ثلاثمائة قصيدة، بقيت طوال القرون الخوالي محل إعجاب من نقاد وشراح كثيرين. كما كانت موضوع مناقشات في مناسبات عديدة في الشرق، وكذا موضوع جدال في أوربا، وحول مسألة جدارة وأهلية الشعر العربي على العموم. ولم تجد المسألة حلا لها، على الأقل بالطريقة التي طرحت بها. والسبب في ذلك أن ما يؤاخذ عليه المستشرقون قصائد المتنبي، وجل شعراء الشرق، هو تحديدا الشعر الذي يطرب ويسحر الذين كتب من أجلهم. وبالاستطاعة تقريبا، فهم وإدراك شعبية شاعر في حاجة إلى شرح شعره لمعاصريه، وكان المتنبي بكل تأكيد في أمس الحاجة إلى شرح، ما دام قد وجد أربعين شارحا قبل نهاية قرن(4).

---

(1) - HAMMER-PURGSTALL, Bibliographie, **J. A.**, 5 me série, T: 1, 1853, P : 9.

(2) - DUGAT, "Notice sur un manuscrit", J. A., 1856, **op. Cité**, P : 256 – 257.

(3) -Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité,** P : 113-114.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité,** P : 35-36.

يتمتع المتنبي بشهرة كبيرة في أمته، لأجل هذا، فلا يحق للمستشرقين أن يستهينوا به، لاسيما وأنه قد ساهم ربما أكثر من غيره، في إحياء القصيدة العربية القديمة، أو المحافظة عليها. وكان المتنبي يتمتع بذهنية البدوي، ولو أنها ذهنية أضعفت وأفسدت بآفات وعلل القصور والبلاطات[1].

وهناك ناحية ربما لم تلفت اهتمام المستشرقين عند المتنبي وهي أنه شاعر قومي، بمعنى أنه كان غاضبا على أمته لخضوعها لغير العرب وكان ذلك زمن الانحطاط والترهل.

لم يكن الحريري الوحيد الذي كتب المقامات، بل هم كثر، وأحد هؤلاء وأشهرهم، الهمداني الملقب ببديع الزمان (أعجوبة العصر)، والذي نظم نحوا من أربعمائة مقامة، حكم عليها المستشرقون الفرنسيون من خلال المقاطع المنشورة من طرف DE SACY، DE LAGRANGE، بأنها أضعف من مقامات الحريري، إذ أن أسلوب الهمداني يقل عنه من الناحية الفنية. كما أن أشخاص الحريري أكثر تأثيرا وأصالة، سواء من الناحية الروحية أو العقلية.

من التواضع إذن، أن يسمي الحريري نفسه الأعرج[2]، الذي لا يقوى على اللحاق بالقوي السليم (الهمداني). وقد حاول المستشرقون تدعيم ما يذهبون إليه من واقع تعامل العرب مع كليهما. ففي وقت كادت مقامات الهمداني أن تنسى، وجدت مقامات الحريري جمعا من الشراح[3].

حاول MUNK أن يبحث عن استعارة أو رمز لشخص أبي زيد في مقامات الحريري، فاعتقد أنها العبقرية العربية المجسدة، في كل اتجاهاتها وتنوعاتها وأشكالها المتعددة، ملك يديها الإمبراطورية العالمية (العربية). وهذه العبقرية تجمع كل الخصائص الفكرية، ملمة بكل العلوم والفنون، بعد أن اكتشفت راحتها وعزاءها الحقيقيين في الدين الإسلامي[4].

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 40.

(2) - لا يقصد هنا العرج الفعلي ولكنه العرج المعنوي (المجازي).

(3) - MUNK, "Histoire…", N. J. A., 1834, **op. Cité**, P : 551.

(4) - **نفس المصدر السابق**، ص: 553- 554.

والمقامات أنواع من المآسي والفواجع أو الدراما، أين يقوم نفس الشخص بأدوار متعددة. أبرز الحريري في مقاماته دوريا العبارات الأكثر أناقة في اللغة العربية، والصيغ الأكثر ندرة، والتعابير المأثورة الأكثر استعمالا. فهي بمثابة جرد أو بيان لخصب وغنى اللغة العربية. والعرب أنفسهم ينظرون إلى مقامات الحريري على أنها أحسن موضوع للدراسة أو التعمق في عبقرية اللغة العربية. إنها بمثابة قاموس في المرادفات، أو بحث في الاستعارات، بالإضافة إلى قراءته الممتعة المشوقة[1].

عاش الحريري في عصر من الانحطاط السياسي والأدبي، مما أعطى أسلوبه وفكره، هذا التوجه الصافي، المقلد الذي يطبع دائما العهود المماثلة[2].

إن أسلوب الحريري، المتضمن للجناس والطباق وغيرهما من أنواع البديع والتلاعب بالألفاظ جعل فهم المقامات صعب منال، والعرب أنفسهم كانوا في حاجة إلى الاستعانة بشرح لها، فكان إذن من باب أولى إعداد شرح للأوربيين. من هنا جاءت الفكرة لـ DE SACY بإعداد شرح لمقامات الحريري، صدر له عام 1821، وكان مقصده خدمة المشارقة والأوربيين في آن واحد. وبالفعل وصلت بعض النسخ إلى مصر وسوريا، وانحنى أمام المعارف الواسعة لـ "دو ساسي"، العرب الأكثر ثقافة في المشرق[3].

إن الحركة الفكرية والثقافية التي انطبع بها العرب، من خلال دراستهم لعلوم وفلسفة الإغريق وغيرها، جعلت منهم كما هو معلوم، الشعب الأكثر حضارة في العصور الوسطى. فالرغبة في التعليم ظلت في نمو، وأنشئوا لها الجامعات والأكاديميات والجمعيات العلمية واللقاءات الأدبية ومنها المقامات، أين يظهر العقل موهبته، بارتجاله العقلي، ومعلومات سليمة وعبقرية متنوعة[4].

---

(1) - DE SACY, "**Les séance de Hariri**", J. A., 1846, **op. Cité**, P : 561-562.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 121.

(3) - DE SACY, "**Les séance de Hariri**", J. A., 1846 , **op. Cité**, P : 562.

– هناك شراح للمقامات سبقت شرح "دو ساسي"، لا ندري إلى أي حد اعتمد هو على هذه الشروح ؟

(4) - MUNK, "Histoire…", N. J. A., 1834, **op. Cité**, P : 550.

وهكذا، فحينما فكر المستشرقون الفرنسيون، علـــى لــسان DE HAMMER مثلا، في تنوع واتساع الثقافة العربية الإسلامية، التي سادت ما يقرب من ألف سنة على جزء كبير من العالم، وعلى النحو الذي عثر فيه المستــشرقون علـــى آلاف المؤلفـــات الموزعة على مكتبات أوربا، آسيا وأفريقيا، كانت صعوبة معرفة المخطوطات لا تـــزال ماثلة، كما كان يستحيل في حياة مستشرق واحد، قراءة المؤلفات التي هي في المتناول. وحينما فكروا أيضا في العدد القليل من المؤلفين العرب الذين اهتم بهم الأوربيين، خلال الفترة التي تعنينا، والذين صدرت اعتمادا عليهم أعمال نقدية خالصة، غايتها تـــسهيل مهمة الأديب والمؤرخ وغيرهما، والذين صدرت اعتمادا عليهم أعمال نقدية خالـــصة، غايتها تسهيل مهمة الأديب والمؤرخ وغيرهما، يخلص المستشرقون إلى أن هذا كله، يبرز بجلاء، أنهم لم يقوموا في أوربا وإلى غاية نهاية المرحلة التي تعنينا، إلا بمحاولات متواضعة في الأدب العربي وفي التاريخ.

لم تثن هذه النتيجة DE HAMMER عن كتابة تاريخ الأدب العربي، و لم يكـــن ييأس عندما يفشل في العثور على كتب ولكنه كان يتوجـــه إلى البيبليوغرافيـــات وإلى المكتبات، وإلى مجموعات السير والمختارات والمنتقيات الأدبية، وعلى تاريخ العواصـــم العلمية... الخ، دون كلل ولا ملل[1].

عالج DE HAMMER تاريخ الأدب العربي في ستة أجزاء، تنـــاول في الجـــزء الأول أصول الأدب العربي وتطوره إلى عام 333 هـــ /944 م. وتميز الجزء الثاني الذي حصره بين 308 - 530 هـــ /949 – 1135 م، بإفلاس الخلافة الإسلامية وانحطاطها على الصعيد الداخلي، لكن حركتها الخارجية استمرت في التوســـع لمـــدة أطـــول وازدادت قوة واتساعا، وكان الأمر كذلك بالنسبة للآداب العربية التي وإن كانت قد فقدت أصالتها ومذاقها وحيويتها الأولى، إلا أنها صارت أكثر علمية ولها تأثير لاسيما على الشعوب الأجنبية. كما تشكلت، في نفس الفترة، مراكز إشعاع أخـــرى علـــى

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1858, **op. Cité**, P : 118.

الأطراف الشرقية والغربية للخلافة الإسلامية، ونفذت أكثر في أوساط مختلف طبقات المجتمع[1].

لقد تعرض DE HAMMER في الأجزاء الستة من تاريخ الأدب العـــربي، إلى أكثر من 7 آلاف مؤلف عربي، ومن المحتمل أن تنقل الأجزاء اللاحقة هـــذا العـــدد إلى الضعف. صحيح أن آلاف من هؤلاء الكتاب لم يتركوا إلا بعض الأبيـــات الـــشعرية، والبعض الآخر، وعددهم أكبر، لم يكونوا إلا مقلدين حرفيين أو منتحلين لكتب مـــن سبقهم، وأن آخرين كثر اهتموا بمواضيع ثانوية الفائدة في نظر المستـــشرقين، إلا أنـــه ومهما كان هؤلاء المستشرقون قساة في انتقادهم، يبقى دائما عدد كبير من المؤلفين ممن دونوا وقائع هامة، وشعراء عبروا بموهبة عن الأحاسيس التي حركت أمتهم في زمنـــهم، ومفكرين أصلاء ما رسوا بأفكارهم وأعمالهم العلمية تأثيرا واضحا على جزء هام مـــن البشرية وتركوا ملاحظات ذات فائدة في خدمة العلم[2].

* * *

هكذا إذن، أحاط المستشرقون الفرنسيون إحاطة شاملة بموضوع الأدب عامـــة، سواء من الناحية الفكرية والنظرية أو من الناحية العلمية أو غيرها. كما مدوا أنظـــارهم المليئة بالفضول والانتباه إلى الألسن المحلية بحروفها وخطوطها، وعلـــم اللغـــة، والأدب وغيرها.

وتوصل المستشرقون إلى نتائج، سواء في مجال الحروف العربية والخط، والشكل والحركات وعلامات الوقف ونقل أو نسخ الحروف العربيـــة إلى اللاتينيـــة، وطباعـــة الحروف، ومرورا بالمفردات وسائر الألسن، فضلا عن اللغة والنحو والقواميس والبلاغة والشعر والمقامات وغيرها.

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 22-23.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 25.

الفصل الخامس: اهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في مجال التاريخ

1- الاهتمامات

2- المحتوى الفكري -الثقافي والعلمي

3- نظرة نقدية.

1 - الاهتمامات

يعالج الفصل الذي بين أيدينا وضمنه هذا المبحث، مسألة أو جزئية من جزئيات الإشكالية العامة للموضوع، وهي الجزئية التي تستوجب طرح جملة من الأسئلة. ومنها مثلا لماذا الاهتمام بتاريخ العرب والمسلمين ؟ ألم يهتموا به في سياق الاهتمام بتاريخ الشرق عموما ؟ وهل من حق أي كان أن يفعل ؟ وما الظروف أو الدوافع الداخلية والخارجية التي أهلتهم في هذا الوقت والجيل بالذات للقيام بذلك ؟ ومَنْ مِنْ المستشرقين الفرنسيين اهتم بتاريخ بلاد المغرب ؟ وكيف تم هذا الاهتمام ؟ وما المكاسب المحققة ؟ وهل للمغاربة والمشارقة في ظاهرة الاستشراق الجديدة كسب ومنفعة أم خسارة ؟ ذلك ما سيتضح من خلال المبحث.

إن الفصل الذي بين أيدينا هو محاولة نتطرق من خلالها لموضوع العلوم التاريخية، وكيف تناولها الاستشراق الفرنسي على الخصوص، وفي المجلة الآسيوية بصفة أخص خلال جيلها الأول. ولما كان من الصعب، إن لم نقل مستحيلا في رسالة جامعية واحدة تناول العلوم التاريخية في الشرق العربي والإسلامي عموما، فسنركز على عينة منه، ألا وهي المغرب العربي، لكن ضمن دوائر محيطه وانتمائه العربي والإسلامي الذي ظل يؤثر فيه ويتأثر به، داخل دائرة الشرق الأوسع.

يذكر بعض المستشرقين الفرنسيين، أن الفينيقيين[1] لعبوا دورا أساسيا، وكان لهم تأثير كبير في التاريخ القديم لجل شواطئ المتوسط منذ عهد متقدم، لاسيما في مجال نشر الحروف السامية [2]، ولما كانت الحروف، وبالتالي الكتابة لها علاقة بالعصور التاريخية،

---

(1) - ينتسب **الفينيقيون** فيما حققه كثير من المؤرخين إلى العنصر السامي الذي ينتمي إليه العرب والعبرانيون وغيرهم، وقد استقر الفينيقيون منذ عهد قديم في لبنان الحالية، وكان وطنهم يومئذ يدعى بفينيقيا. وسكان صور منهم هم الذين هاجروا إلى افريقية حيث أنشأوا قرطاجة بتونس وقادس بالأندلس. ولما سقطت صور في أيدي الأشوريين في القرن السادس ق.م.، تحول مركز الحضارة الفينيقية إلى قرطاجة التي نسبت إليها مدنية جديدة في الشمال الإفريقي.

- إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، ج: 1، ط 2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1984، ص: 28-29.

(2) - كما جاء في دراسة لـ François LENORMAN ، انظر :

- Rapport annuel, J.A., 1868, **op. Cité**, P : 70-71.

كان أهم حدث في تاريخ الإنسانية هو اختراع الفينيقيين الأبجدية التي تفرعت عنها مختلف الخطوط العالمية من عربية ولاتينية وعبرانية وإفريقية وغيرها. انظر: حركات، **مصدر سابق**، ص: 29.

فإنه يجوز لنا أن نقول إن الفينيقيين هم الذين أدخلوا بلاد المغرب في العصور التاريخيـــة. ولذلك فإن هؤلاء المستشرقين أيضا يعتبرون القرن الثاني عشر قبل الميلاد، ولاسيما منذ بداية العهد القرطاجي (814 ق.م.- 146 ق.م.)، بداية انتماء شمال إفريقيا إلى الشرق، ومنه بداية موضوع الاستشراق الخاص بالمنطقة[1]. كما يُعيد هؤلاء المستـــشرقون، إلى الفينيقيين أيضا، الفضل في نشر الديانة المتسمة بالعقيدة التوحيدية[2]، مفسرين مصدر تعدد أسماء الآلهة عندهم، بِتَعَدُّدِ اسم الرب الواحد المهيمن على كل شيء(3).

أما وصول العناصر البربرية الأولى وما تلاها، من جنوب غـــرب آســـيا، علـــى الأرجح[4]، فقد حاول TAUXIER معالجته من خلال دراسة عـــن نـــزوح الأمـــم البربرية قبل الإسلام (5)، معتمدا في ذلك على قليل من المـــصادر. كمـــا تنـــاول AUCAPITAINE نفس الموضوع تقريبا لكن مع التركيز على منطقة القبائل، مسجلا

---

(1) - هذا ما يذهب إليه HANOTEAU في دراسته : "محاولة في نحو التماشق" (التوارق)، انظر :
- Rapport annuel du 26/06/1861, **J.A.**, 5 me série, T 18, 1861, P : 74.

(2) - كانت عبادة الفينيقيين تدور حول تقديس مجموعة من الآلهة كبعل وعشتروت وأناة مع بعض الطقوس التي كانت تجري تحت إشراف الكهنة الذين كانوا يؤلفون طبقة خاصة.
- حركات، **مصدر سابق**، ص: 29.

(3) - - Rapport annuel, J.A, 1868, **op. Cité**, P : 73.
مع العلم أن لـــ "رينان" دراسة مستفيضة في الموضوع عنوانها **- Nouvelles : considérations sur le caractère général des peuples sémitiques et en particulier sur leur tendance au Monothéisme.**

(4) - يرى بعض المؤرخين أن الليبيين وعنصر الجيتول أو الجزوليون هم أول سكان الشمال الإفريقي الذين ينتمون إلى عصر الحجر المنحوت، وأكثرهم سمر البشرة. احتلوا المناطق الصحراوية. وعنهم تفرعت مصمودة فيما يظن، وهم جيرانهم. فالبربر ليسوا هم سكان المغرب الأولين، ولا يشكلون جنسا قائم الذات، فهم يمثلون عناصر مختلفة في شكلها وأنماط معيشها، قدمت إلى الشمال الإفريقي عن طريق مصر وليبيا مهاجرة من جنوب آسيا الغربي، بدءا من حوالي 1300 ق.م.، سواء الجاليات الكنعانية منهم أم اليمنية وهم من الوجهة الاجتماعية وثيقي الصلة بالعرب الذين لحقوا بهم فيما بعد. انظر:
- حركات، **مصدر سابق**، ص: 19-21.
- ابن خلدون، **تاريخ العلامة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج: 12، دار موفم للنشر، الجزائر، 1995، ص: 175—177.
ـــ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، ج: 1، ط 6، دار الثقافة، بيروت1983،ص: 36—37.

(5) - - TAUXIER, "Etude sur les migrations", J. A.,1862, **op. Cité**, P : 346-347.
- Rapport annuel, J.A., 1863, **op. Cité**, P : 16.

المعلومات الشحيحة لديه عن نوميديا القرن الأول قبل الميلاد، حين كان الأهالي بدوا رحلا ورعاة، وفي عهد ماسينيسا (توفي عام 149 ق.م.) الذي ربط السكان بالأرض، وقد مسح "أوكابيتان" العهود اللاحقة، الرومانية والوندالية والبيزنطية وكذلك العهد الإسلامي إلى الأتراك العثمانيين (1). واعتمد "أوكابيتان" بدوره على مصادر محدودة جدا كـ Tite-live (2)(59 ق.م. — 17 م)، وابن خلدون (3)، و Yanoski (4)، كما تبنى الروايات الشفهية المنتشرة في منطقة القبائل، فيما يتعلق بالمعلومات التاريخية المتأخرة.

لقد أورد "أوكابيتان"، فيما يتعلق بأصول قبائل البربر، كلام ابن خلدون الذي يقسمهم، على زعمه، إلى كتاميين (زواوة) منحدرين من مُضر والمنتشرين في المنحدر الشمالي لجبال جرجرة، وصنهاجيين (مليكش والتوارق) منحدرين من برنس بن بر والمنتشرين في المنحدر الجنوبي، وجنوب الصحراء. والحق أن ابن خلدون لم يخص بالكلام هذه الفئة أو تلك، كما أنه لم يذهب إلى هذا التقسيم، وفيما يلي نصه: "أما شعوب البُرانس فعند النسابين أنهم يجمعهم سبعة أجذام وهي أزداجة ومصمودة وأوربَة وعُجيسَة وكتامة وصِنهاجة وأوربة...وأما شعوب البتر..."(5).

أما العنصر العربي من سكان المغرب، فأبرز من عالجه خلال الفترة التي تعنينا، من المستشرقين الفرنسيين، واعتمادا على المجلة الآسيوية، هو CAUSSIN DE PERCEVAL، في "محاولة في تاريخ العرب قبل الإسلام في عهد محمد ﷺصلى الله

(1) — Le baron H.AUCAPITAINE, "Etude sur l'origine et", **J.A.**, 1859, **op. Cité,** P : 274-278.

(2) – **حروب ماسينيسا**. و"تيت- ليف" مؤرخ روماني وأحد مصادر المعلومات الهامة عن أصول روما. كما أنه أحد روائع الأدب اللاتيني.

(3) – كتاب العبر، انظر سابقا.

(4) – **Domination des Vandales en Afrique.**

(5) – ابن خلدون، تاريخ العلامة، ج: 12، **مصدر سابق**، ص: 176—177.

عليه وسلم﴾، وإلى خضوع كل القبائل إلى الشريعة الإسلامية"(1). وقد قسم الكتاب إلى مقدمة وثلاثة أجزاء، طرح في المقدمة صعوبات الموضوع، لاسيما تنسيق المـــصادر وتسلسل الأحداث، كما زود الدراسة بأحد عشر جدولا زمنيا أرفقها بالكتاب، وهي بمثابة وثائق إثبات التسلسل الزمني لتاريخ العرب. وفي المجلدين الأولين كثيرا ما يستشهد المؤلف بأبيات شعرية لشعراء عرب مشهورين كأمرئ القيس، وطرفة، والحارث بـــن حلّزة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة بن شداد، وزهير[2]، بل ويُهدي للقـــراء الأوربـــيين الترجمة الكاملة لمعلقاتهم كمصادر أساسية للموضوع، وهي في نفس الوقت، من ناحية أخرى، تعبـــر عـــن خفايا اللسان العربي الغني وتُعَرّف بالذهنيـــة المرحـــة وعبقريـــة وحكمة الشعراء العرب القدماء. وقد أعطى DE PERCEVAL أثناء ذلـــك شـــرحا للسنين والشهور العربية، وكان قد خص هذه المسألة بدراسة في المجلة الآســـيوية(3). وخصص الجزء الثالث والأخير كله إلى "الرجل الفذ" – كما يذكر- محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ وإلى الخليفتين أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما)، وتوحيد كـــل العـــرب تحت (امبراطوريته) حوالي عام 19 – 20 هـــ / 640 م، وينتهي الجزء بفهرس شـــامل ومتقن يعبر عن الثروة التي يحتويها الكتاب في مجمله (4).

وقد استهوى PERRON وأثار فضوله وفضول غيره من المستشرقين، موضوع: "نساء عربيات قبل وبعد الإسلام"، حاول خلاله الإحاطة بدور وطبيعة المـــرأة عنـــد

---

(1) - A.P. CAUSSIN DE PERCEVAL, **Essaie sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mahomet et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane**, Paris, 1874, vol. 1(424 p), Vol 2 (702 p.), vol. 3, **J.A.** 4 me série T 12, 1848, P : 101.

ـــ انظر: ابن خلدون، تاريخ العلامة، **مصدر سابق**، ج: 12، ص: 3 ـــ 24.

(2) - انظر تعريفا لـــ: أمرئ القيس، وطرفة، والحارث بن حلزة، وعمرو بن كلثوم، وعنترة بن شداد، وزهير، ضمن الفصل الرابع المتعلق بالأدب.

(3) - CAUSSIN DE PERCEVAL, "Mémoire sur le calendrier arabe avant l'Islamisme", **J.A.**, 4 me série, T 1, 1843, P : 342 – 377.

(4) - قدم الكتاب في المجلة الآسيوية :

- GRANGERET DE LA GRANGE, "Essai sur l'histoire des Arabes…", par CAUSSIN DE PERCEVAL, 3 volumes Firmin-Didot, Paris, 1847-48, **J.A.**, 4eme série, T 13, 1849, P : 265-267.

العرب، بدءا من ملكة سبأ ومرورا بالمرأة عند القبائل الصحراوية العربية القديمة، وضعيتها وتعليمها وتأثيرها، فالتغييرات التي أحدثها الإسلام في وضع المرأة. وأنهى الموضوع بعهد الخليفة المأمون حين بدأت المرأة العربية تنحط في أوساط المسلمين، على ما ذهب إليه PERRON . وقد اعتمد الكاتب على النوادر والقصائد الشعرية -كما أسلفنا- وعلى كتاب الأغاني الشهير -كما أسلفنا[1]- ومختلف المجاميع (2).

وكان موضوع الديانات محل اهتمام المستشرقين سواء قبل الإسلام أم بعده. إذ تناول المستشرق DOZY "ديانات العرب القدماء"، عرب محمد ﴿صلى الله علية وسلم﴾ والمذاهب الإسلامية ووضعية الإسلام إلى القرن التاسع عشر (3).

وفيما يتعلق بالديانات في بلاد المغرب، أشار "أوكابيتان" في دراسته المشار إليها سابقا، إلى اعتناق بعض سكان منطقة القبائل على التوالي: مذهب الدوناتية، فالكاثوليكية، فاليهودية (قبائل آيت بو يوسف)، فالإسلام، ويعود اعتناق سكان منطقة القبائل للإسلام، إلى كرههم المسيحية، على حد زعم الكاتب(4). فهل هذه قاعدة مطردة ؟ إذا كان الأمر كذلك، فهل يفهم منه أن الدوناتية والكاثوليكية واليهودية اعتنقت كرها لديانة أخرى ؟ وهل كان اعتناق بعض سكان المنطقة للمسيحية بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر نتيجة مساع تبشيرية أم كرها للإسلام ! ؟ واضح أن الاستنتاج غير صحيح، ناهيك أنه يشكل قاعدة.

* * *

يجدر بنا أن نلاحظ، قبل أن نشرع في عهد جديد من العهود التاريخية لاهتمامات المستشرقين الفرنسيين، ببلاد المغرب والمشرق، أن وثائق ومصادر فترة ما

---

(1) - انظر: **فصل الأدب.**

(2) - Dr. PERRON, Femmes arabes avant et depuis l'Islamisme, Paris, (611 p), **.J.A.,** 5 ^{me} série, T : 17, 1861, P : 459-465

(3) - DOZY, "**La Religion des Anciens Arabes, de Med., des sectes Musulmans**" et **de la condition de l'Islam jusqu'à nos jours.**

(4) - AUCAPITAINE, "Etude sur l'origine…", J.A., 1859, **op. Cité**, P : 285-286.

قبل الإسلام، قليلة في المشرق العربي ونادرة في بلاد المغرب مقارنة بالفترة الإسلامية، ويعود السبب في ذلك لكوننا بصدد مقارنة بين فترتين متناقضتين حضاريا، ومن جهة ثانية، لكون منطقة المغرب كانت تفتقر للغة تكتب بها. ولعل النتيجة واحدة، مع الفارق، إذا قارنا بين المشرق والمغرب خلال الفترة الإسلامية، وهذا ما تعكسه لنا الدراسات الاستشراقية نفسها المعبرة عن هذا الواقع.

وتجدر الملاحظة أيضا في هذه الدراسة، أن أحداث ووقائع الفترة الإسلامية يتداخل فيها المشرق والمغرب، اجتماعيا من خلال العنصر العربي الحاضر هنا وهناك، وكذلك الدين الإسلامي بأركانه كالحج مثلا ومذاهبه الفقهية، وثقافيا من خلال اللغة العربية والتعليم العربي، ذي الأصول والمناهج والفكر المطبوع بطابع الدين الإسلامي. ومن خلال التواصل والتكامل العلمي. فضلا عن الناحية السياسية من خلال امتداد أو انكماش الخلافة وتداخل الفرق والمذاهب السياسية. ولأن من وقائع الشرق ما وجد صدى له في بلاد المغرب وأقل منه العكس، وهكذا فإن التداخل، باختصار، تداخل حضاري.

لأجل هذا، لابد من التنبيه إلى أننا نجد أنفسنا مضطرين إلى ذكر إنتاج يليق ربما بالمشرق أو العكس فإننا نرى بأنها تشكل أسبابها ومسبباتها، منطلقاتها وجذورها أو نتائجها التي لا يمكن أن نفهمها إلا من خلال التعرض لها ولغيرها.

تأتي هذه الملاحظات أيضا، لاسيما ونحن مقبلون على فترة تزخر بإنتاج المخطوطات التي لا يعرف أصحابها الحدود والفواصل بين المشرق والمغرب، تلك الحدود والفواصل التي كانت في أذهان المستشرقين الفرنسيين في مطلع القرن 19 م، ولكنهم لم يعثروا عليها في الواقع خلال جيل المستشرقين الأول على الأقل، واعتبر ذلك اكتشافا في حد ذاته عبر عنه دبلوماسي بريطاني في مقال صدر له في المجلة الآسيوية حين زار المغرب الأقصى في نهاية العشرينيات من القرن 19 واكتشف أن اللسان الذي يتحدث به الدمشقي يفهمه المغربي والعكس بالعكس. وكان يعتقد أن انتقاله من سوريا

إلى المغرب هو كانتقاله من بريطانيا إلى فرنسا أو إيطاليا، إذ لا يفهم البريطاني العادي الفرنسي ولا الإيطالي [1].

وما دمنا في الملاحظات، نشير إلى أن المستشرقين الفرنسيين كانوا لا يرون من ناحية أخرى عائقا للغة الأوربية التي يتم بها ترجمة مخطوط شرقي من غير الفرنسية، بل يعتبرونه كسبا للوقت وعملا تكامليا في مستواهم كعلماء على الأقل ولذلك وجدناهم يعرضون عن نشر أو ترجمة مخطوط يكون أحد المستشرقين الألمان مثلا أو الإنجليز أو الهولنديين بصدد إنجازه بل يقومون أحيانا بتقديم يد العون إليه وتزويده بما يساعده على التعجيل بنشره، وهم حريصون على تتبع تقدم خطوات المشروع والإسراع إلى تعريف قراء المجلة الآسيوية به حين صدوره.

فتناول مستشرقي المجلة لهذه المخطوطات أو تلك الدراسات ولو كانت في أصلها بغير اللغة الفرنسية، اعتبرناه إذن ضمن الاستشراق الفرنسي ما داموا هم أنفسهم عرفوا به وأدرجوه ضمن اهتماماتهم.

* * *

بدأ (مسلمو) القرون الأولى للهجرة —عربا وغير عرب— يؤلفون كتبهم التاريخية اعتمادا على حكايات صغيرة. وقد حرصوا منذ البداية على ذكر مصادر هذه الحكايات، فيوردون قائمة الرواة (السند) صاعدين بهم إلى شاهد العيان [2].

ويذهب بعض المستشرقين إلى أن العرب ألفوا الكتب اقتداء باليهود الذين كانت تربطهم بهم علاقة الجوار والتأثر، وكان اليهود يملكون كتابا تاريخيا قديما (التوراة ؟)، فأراد العرب (المسلمون) أن يكون لديهم تاريخهم القديم، واتفقوا على قولبته على تاريخهم الحديث (الإسلامي)، وملاءمته قدر الإمكان مع عادات الجيران وإخوانهم من أهل الكتاب [3].

---

(1) - James Grey JACKSON, "Conformité de l'Arabe de Barbarie avec l'Arabe de Syrie", **J.A.**, T4, 1824, P : 193-199.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1848, **op. Cité**, P : 107.

(3) - FRESNEL, lettre à M. CAUSSIN DE PERCEVAL, du Caire le 27/04/1850, **J.A.**, 4 me série, T 16, 1850, P : 281-282.

لم يغفل المسلمون عن أصول تاريخهم، فجمعوا المواد والوثائق الصادقة الأصلية التي توفر لهم الأحداث والوقائع، وعصر التدوين الإسلامي معروف ومشهور، حتى أن عدد الكتب التي ألفها العرب المسلمون أثناء القرنين الهجريين الأولين يعتبر عددا ملفتا للنظر. دون أن نصدق ما ذهب إليه الواقدي[1]، وهو أنه سخَّر عبدين متعلمين وكلفهما بنسخ الكتب، فتركا له مكتبة تملأ 700 كيس، على زعمه(!) وكان الاحتفاظ بالكتب والعناية بها جادا، إلا أن جل هذه المؤلفات الأولى ضاع بإجهاز المغول، أو تخريب المدن الكبرى أثناء الحروب، أو بالكسل الذي ألم بالمسلمين حين صاروا يفضلون التصنيف والمختصرات عن الكتابة الأصلية، أي المعتمدة على المصادر والوثائق الأصلية، دون الاقتصار على المراجع. وكذلك الجهل والتعصب الذي ارتبط بالأساطير والخرافات أكثر من ارتباطه بالاعتدال والتحفظ [2]، أي الشك الذي هو أصل من أصول الكتابة التاريخية.

وما دمنا بصدد الحديث عن التدوين والتأليف، فلا بد من الإشارة، كما لاحظ المستشرقون، إلى أن سكان بلاد المغرب، خارج التدوين والتأليف بالحرف العربي، ليس لهم حوليات مكتوبة، أي باللهجات المحلية، واستمر الوضع على هذا النحو إلى الفترة التي تعنينا على الأقل وهو ما يؤكده بعض متعلميهم خلال القرن 19 م (3).

ومهما يكن الأمر، فإن التوسع الكبير (للإمبراطورية) العربية أدى إلى إنشاء مكتبات تتوزع على الرقعة الممتدة بين مضيق جبل طارق وحدود الصين(4).

---

(1) - انظر تعريفا للواقدي، ص: 182.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1856, **op. Cité**, P : 28-29.

(3) - AUCAPITAINE, "Etude sur l'origine", J.A., 1859, **op. Cité**, P : 266.

(4) - يعود الفضل في تأسيس هذه المكتبات إلى الخواص، لاسيما من طرف كبار الموظفين القدماء الذين كانوا يتذوقون الكتاب، وهم ينظرون إلى عملهم هذا على أنه بر وتقوى. كذلك كانت المعاهد ذات ارتباط بالمساجد، وجل المعاهد تحتوي على مكتبات تكبر أو تصغر، وهي في خدمة الأساتذة وشيوخ العلم والتلاميذ وعامة الناس، انظر:

- Hadji-KHALPHA, Lexicon bibliogra, Dictionnaire arabe, **J.A.**, 5 me série, T 14, 1859, P : 256.

فكيف تصرف المستشرقون الفرنسيون إذن، مع ما تركه العرب والمسلمون من تراث في المجال التاريخي، لاسيما التأليف والمصنفات التي كانت لا تزال مخطوطة إلى القرن 19 ؟

الحق أن إرادة المستشرقين كانت قوية، ولعلهم اكتسبوها من عصر الاستنارة الحديث (القرن 18 م)، ومن التفاؤل القائم أيضا منذ البداية في أوساط المستشرقين الفرنسيين حول جدوى الأبحاث والدراسات الاستشراقية. ولعل التفاؤل مستوحى أيضا من تجربتهم السابقة في الكشف عن التراث الإغريقي–اليوناني–الروماني، الذي استغرق منهم نحوا من ثلاثة قرون. كانوا يأملون في اكتشاف ما لا يحصى من الحلقات المفقودة مما كان يبدو ضائعا في ركام تآليف العرب والمسلمين. وبالفعل، بعد مضي فترة وجيزة، ومنذ أن استيقظ انتباه واهتمام المستشرقين الفرنسيين في هذا المجال، لم تعد تمر سنة دون أن يعلن عن اكتشاف جديد (1).

ويمكن التمييز في هذا المجال بين فترتين، دامت الأولى قرابة نصف الجيل الأول، أي إلى نهاية الثلاثينيات من القرن 19 م، واقتصر المستشرقون فيها على التقصي والمراجعة أو البحث في المؤلفات المنقب عنها، مثل كتاب أبي الفداء[2] والواقدي "المزيف" وغيرهما. وكاد تواصل المستشرقين في مجال المخطوطات مطلع هذه الفترة (العشرينيات) يكون مستحيلا، إذ ساد الحسد والغيرة وإخفاء قوائم المخطوطات وجحودها كما في روما والاسكوريال، ورفض الإعارة الخارجية، فكانت المخطوطات تبدو ثمينة في ذاتها مما يفسر الحرص عليها (3)، ولعل مرد هذا التنافس أيضا إلى الترعة القومية !!

---

(1) - Rapport annuel du 23/06/1856, **J.A.**, 5 me série, T 8, 1856, P : 29.

(2) - **أبو الفداء**: (672 ــ 732 هــ /1273 ــ 1331 م)، ولد ونشأ في دمشق، ورحل إلى مصر فاتصل بالملك الناصر (من دولة المماليك) فأحبه الناصر وأقامه سلطانا مستقلا في "حماة" ليس لأحد أن ينازعه السلطة، فقرب العلماء ورتب لبعضهم المرتبات، وحسنت سيرته، واستمر إلى أن توفي بها. درس التاريخ والأدب وأصول الدين، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب وعلم الهيأة، ونظم الشعر وأجاد الموشحات. غلب على تآليفه التاريخ والجغرافيا. له "المختصر في تاريخ البشر" ويعرف بتاريخ أبي الفداء، ترجم إلى الفرنسية واللاتينية وقسم منه إلى الإنجليزية. وله "تقويم البلدان" في مجلدين، ترجمه "رينو" إلى الفرنسية، وغيره. ــ الزركلي، الأعلام، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 319.

(3) - Rapport annuel, J.A., 1848, **op. Cité**, P : 102.

وأما خلال الفترة المتبقية من الجيل (أي الأربعينيات وإلى مطلع السبعينيات)، فإن مستشرقين أمثالDE HAMMER وWEIL وDE PERCEVAL وSPRENGER وLESS وMUIR وغيرهم، خرجوا عن هذه العادة القديمة وبدأوا يؤلفـون تـواريخ، كتاريخ بدايات الإسلام (؟) [1]على سبيل المثال، على قواعد علمية صحيحة بـالعودة إلى المصادر والأصول (2). وكان ذلك مع سقوط الحواجز السالفة الذكر، إذ صـار التواصل فيما بين المستشرقين وبين المكتبات جد سهل، من جراء احترام العلم والثقة بين العلماء، حتى في مكتبات Saint-Pétersbourg وBerlin وGotha (ألمانيا)، ومـن الأمثلة على ذلك أن WEIL تمكن من تأليف تاريخ للخلافة (الإسلامية) من مـصادر غنية وقائعها غير معروفة من قبل (3) ، بفعل التواصل، في مدينـة Gotha المنعدمـة المخطوطات الشرقية. ولعل مرد ذلك أيضا إلى نضج المستشرقين وإدراك قيمة التعـاون والتكامل وكذا فتور حدة الترعة القومية !

ومنذ أن احتلت فرنسا مدينة الجزائر، صار تاريخ شمال أفريقيا فيما يبدو موضوعا ذا أهمية كبرى حتى لغير الفرنسيين، فقد أُرسل المستشرق DE SLANE عام 1845 من طرف الحكومة الفرنسية إلى القسطنطينية ليستكشف أو يتحرى المكتبات بحثا عن كتب التاريخ وغيره، وليبتاع أو ينسخ في مكتبات المساجد المخطوطات العربية الـتي تفتقـد إليها المكتبة الملكية بباريس. وفي الطريق عرج على مدينة الجزائر فوقـف، في مكتبتـها البلدية، على نحو 700 مخطوط عربي من ضمنها تاريخ الطبري[4] (الحوليات) المتضمن تاريخ الدولة العباسية من بداية الخلافة إلى الخليفة الراشد[5]. كما زار مكتبة "حمـودة"

---

(1) - لا نعرف، في حدود علمنا، كتابا بهذا العنوان.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1856, **op. Cité**, P : 28-29.

(3) - Rapport annuel, J.A., 1848, **op. Cité,** P : 103.

(4) - **الطبري**: محمد بن جرير (224 ــ 310 هــ /839ــ 923 م)، ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها. عرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. هو المؤرخ والمفسر والإمام، له "أخبار الرسل والملوك" يعرف بتاريخ الطبري ف 11 جزءًا، و"جامع البيان في تفسير القرآن" يعرف بتفسير الطبري في 30 جزءًا، وغيره. هو من ثقات المؤرخين. ــ الزركلي، الأعلام، ج: 6، **مصدر سابق**، ص: 69. وكذلك: - نقولا زيادة، **قمم من الفكر العربي الإسلامي**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987، ص: 56-61. - علي أدهم، **بعض مؤرخي** الإسلام، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1974، ص: 39- 48.

(5) -DE SLANE, "Lettre à M. REINAUD", Marseille, Le 24/07/1845, J.A., 4^{me} Série, T 6, 1845, P : 162.

في قسنطينة، التي تحتوي نحوا من 3000 مجلد. إلا أنه لاحظ أن كتب التاريخ كانت نادرة فيها، خلافا لكتب العقيدة والفقه والحديث وتفسير القرآن والتصوف. كما زار مكتبة "بشترزي" بنفس المدينة [1]، فلما حل بإسطنبول زار مكتبة عاطف، فعثر على كتاب التاريخ الكبير لابن الأثير[2] غير كامل (في 7 مجلدات ضخمة...) وحوليات ابن كثير[3] ومشاهير تاريخ دمشق لابن عساكر[4] المعروف بتاريخ دمشق الكبير أو تاريخ ابن عساكر... الخ [5]. كما زار مكتبة راغب باشا ثم مكتبة مالطة (الجزيرة) [6].

وعاود DE SLANE زيارة مكتبة مدينة الجزائر عام 1847 وبحث وتفحص 650 مخطوطا عربيا جمعت برعاية وعناية (7) BERBRUGGER ، وأسفرت هذه الزيارة

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص : 163.

(2) - ابن الأثير: أبو الحسن عز الدين (555 ــ 630 هــ /1160 ــ 1233 م)، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وسكن الموصل. وتجول في البلدان وعاد إلى الموصل، فكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء، وتوفي بها. وهو المؤرخ الإمام، من العلماء بالنسب والأدب. ترك عدة مؤلفات منها "الكامل" 12 مجلدًا، مرتبا على السنين، بلغ فيه إلى سنة 630 هــ. وأكثر من جاء من بعده من المؤرخين عيال على كتابه هذا، وله أيضا "أسد الغابة في معرفة الصحابة" 5 مجلدات كبيرة، مرتب على الحروف، وغيره.
ــ الزركلي: الأعلام، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 331.

(3) - ابن كثير: إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، أبو الفداء عماد الدين (701 ــ 774 هــ /1302 ــ 1373 م)، ولد في قرية من أعمال بصرى الشام، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة 706 هــ، ورحل في طلب العلم. وتوفي بدمشق. حافظ مؤرخ وفقيه، تناقل الناس تصانيفه في حياته. ومن كتبه: "البداية والنهاية" 14 مجلدًا في التاريخ على نسق الكامل لابن الأثير انتهى فيه إلى حوادث سنة 767 هــ، و"شرح صحيح البخاري" لم يكمله، و"تفسير القرآن الكريم" 10 أجزاء، و"جامع المسانيد" في 8 مجلدات، وغيره. ــ **نفس المصدر السابق**، ج: 1، ص: 320.

(4) - **ابن عساكر**: علي بن الحسن هبة الله الدمشقي (499 ــ 571 هــ /1105 ــ 1176 م)، ولد وتوفي في دمشق. حافظ مؤرخ ورحالة. له "تاريخ دمشق الكبير" يعرف بتاريخ ابن عساكر، اختصره الشيخ عبد القادر بدران وسماه "تهذيب تاريخ ابن عساكر" في 7 أجزاء، ولابن عساكر أيضا: "كشف المغطى في فضل الموطأ" و"**معجم** الصحابة" و"**معجم** النسوان" و"**معجم** أسماء القرى والأمصار" وغيرهم.
ــ **نفس المصدر السابق**، ج: 4، ص: 273.
- نخبة من الأساتذة المصريين، **معجم أعلام الفكر الإنساني**، تصدير إبراهيم مدكور، ج: 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م.ط.، 1984، ص: 217-220.

(5) - DE SLANE, "Extraits de trois lettres écrites de Constantinople, adressée à M. MOHL", datée du 14/12/1845, **J.A.**, 4 me série, T 7, 1846, P : 100.

(6) - DE SLANE, "Lettre à M. REINAUD", , J.A,1847, **op. Cité**, P : 84.

(7) - Rapport adressé à M. Le Ministre de l'instruction publique par M. de SLANE, suivi de catalogue de manuscrits arabes les plus.
importants de la bibliothèque d'Alger, **J.A.**, 4 me série, T 9, 1847, P : 84.

عن إرسال تقرير إلى وزير التعليم العمومي مرفقا بفهرس لأهم المخطوطـــات العربيـــة بمكتبة مدينة الجزائر(1).

وقد عبر DE SLANE من باريس نفسها، عـــن ارتياحـــه لخدمتـــه زمـــلاءه المستشرقين الذين أضحى بإمكانهم معرفة ما تتوفر عليـــه مكتبـــات "راغـــب باشـــا" و"كوبرولي" و"بيازيد" و"نوري عثماني" و"أعاشير أفندي" و"آيـــا صـــوفيا" و"يـــامي جـــامي" و"عبـــد الحميـــد" و"لااليلـــي" وكـــذلك مكتبـــات الجزائـــر(2). وقـــام CHERBONNEAU بجهد مماثل، ولكنه اقتصر على مكتبات الجزائر(3) .

لقد اختارت العناية الإلهية العنصر العربي وجعلته نواة انطلاقة الـــدين الإســـلامي وانتشاره. فخص DE PERCEVAL حالة العنصر العربي ببحث حين تحـــول هـــذا العنصر إلى أمة موحدة، وخير أمة أخرجت للناس، في مؤلفه "دراسة في تاريخ العـــرب" الذي كنا قد أشرنا إليه آنفا، وهو المشروع الذي بذل فيه الكاتب جهدا معتبرا، يقـــدر بعشر سنوات (4).

وقد أثارت أحداث ووقائع الفتوحات الإسلامية اهتمام المستـــشرقين، ومنـــها الوسائل المستخدمة. و لم تثر اهتمامهم ربما العقيدة قدر ما أثارته شجاعة العرب المعترف لهم بها في فن القتال، فتناولها REINAUD من خلال مقال "فن القتال عند العـــرب في القرون الوسطى". وعالج من خلال هذه الدراسة أدوات الحرب عند المـــسلمين مـــن أسلحة وكيفية استخدامها وكذا التأليف في فن الحرب. ومما يعضد شجاعة العـــرب، فروسيتهم التي تطرق إليهـــا HAMMER-PURGSTALL في موضـــوع "حـــول

---

(1) - DE SLANE, "Lettre à M. REINAUD", Alger, Le 25/01/1847, **op. Cité, P** : 84.

– انظر أيضا: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 303ـــ 309.

(2) - DE SLANE, "Lettre à M. REINAUD", **op. Cité**, J.A., 4 ème série, T 9, 1847, P : 84.

(3) - CHERBONNEAU, Rédaction et annotation, catalogue des manuscrits arabes de Sidi Saïd Ben Bachterzi, Taleb de Constantine, **J.A.**, 5 ème série, T 4, 1854, P : 433-435.

(4) - Rapport annuel, J.A., 1855, **op. Cité,** P : 15.

الفروسية العربية السابقة للفروسية في أوربا" [1]، وعالجها من حيث المواطن معتمدا على مصادر الفروسية العربية، كالعقد الفريد لابن عبد ربه، والطبري، والمسعودي، والسيوطي[2]، في تاريخ الخلفاء، وابن الأثير، وابن كثير، وغيرهم. فضلا عن مصادر أحاسيس الفروسية، من شرف، وقدر، وفخر، وشهامة، مما حواه شعر العرب القدماء لاسيما كتابا "الحماسة" الكبير لابن تمام والصغير للبحتري [3].

وكان DE HAMMER متتبعا للموضوع في وسائل النشر المتاحة، إذ وجدناه يعقب على الأمير عبد القادر، وكان الأمير قد كتب ملاحظات في جريدة[4] Le Moniteur، تعليقا على كتاب DAUMAS "خيول الصحراء"[5].

أما عن الفتوحات الإسلامية في حد ذاتها، فنسجل "مذكرات تاريخ وجغرافية الشرق" لـ GOEJE حول غزو بلاد الشام[6]، "عقبة غازي شمال أفريقيا"[7] لـ ROTH الذي صدر بـ Goettingue عام 1859، ودرس DOZY فتوحات الأندلس من خلال تاريخ مسلمي اسبانيا، إلى غزو الأندلس من طرف الموحدين (93 – 504 هـ /711 – 1110 م) في جزأين[8].

---

(1) - HAMMER- PURGSTALL, "sur la chevalerie des arabes antérieur à celle de l'Europe", **J.A.**, 4 ^{me} série, T 13, 1849, P : 9.

(2) - انظر التعريف بهم ضمن **فصل الأدب**.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 12-13.

(4) - تاريخ 1852/04/15.

(5) - DE HAMMER-PURGSTALL, "Lettre à M. MOHL", sur les chevaux arabes, **J.A.**, 4 me série, T 20, 1852, P : 510.

(6) - **Mémoires d'histoire et de géographie orientale**, N° 3. Mémoire sur la Conquête de la Syrie, Leyde, 1864, (132p).

- انظر: - Rapport annuel, J.A., 1865, **op. Cité,** P : 39.

(7) - صدر بـ Goettingue، 7018 (59ص)، أنظر :

- Rapport annuel, J.A., 1861, **op. Cité**, P : 31.

(8) - **Histoire des musulmans d'Espagne, jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711 -1110)**, Leyde, 1861, Vol 1(392 p.), vol 2 (356 p.).

- انظر : - Rapport annuel, J.A., 1861, **op. Cité**, P : 32.

واعتنى الدكتور WEIL، الأستاذ بـ Heidelberg (ألمانيا) بتاريخ الخلافة الإسلامية، وكان الموضوع تتمة لكتابه "حياة محمد" ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ الذي كان المؤلف قد أنجزه من قبل وعالج الموضوع من حيث توسع الإمبراطورية وهدم الحضارات القديمة، على زعمه، وتغيير الحياة الاجتماعية لنصف المناطق الأكثر غنى من الناحية الثقافية. إذ اعتبر المؤلف الخلافة حدثا فريدا في تاريخ العالم، مسجلا توفر أدوات كتابة تاريخ الخلافة من خلال الأخبار التاريخية العامة للمقاطعات والمدن وسير أشهر الرجال ودواوين الشعراء وشراحهم ومجموع القوانين والقرارات الرسمية ومؤلفات العقيدة والعلم والآداب إلى غيرها من أدوات الكتابة التي لا يمر شهر في أوربا القرن 19 إلا ويظهر ما يضيف جديدا إلى هذه الأدوات، ومع ذلك فهو قليل من كثير مما هو موزع على مكتبات أوربا والشرق، لاسيما وأن WEIL اقتصر في بحثه هذا على مكتبتي باريس و Gotha (1). وطبع الكتاب بـ Stuttgart (ألمانيا).

تضمن الجزء الأول من تاريخ الخلافة الإسلامية التاريخ السياسي للخلافة من وفاة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ إلى نهاية الخلافة الأموية (2). أما الجزء الثاني فيمتد من سقوط الدولة الأموية إلى وفاة الخليفة الثاني والعشرين من خلفاء بني العباس، وتزامن ذلك مع العهد الذي بلغت فيه الثقافة والآداب العربية الإسلامية ذروتهما، ليبدأ بعدها الذبول الفكري واستقلال الأقاليم عن بغداد من الناحية السياسية (3)، أما الجزء الثالث فيتناول القرون الثلاثة الأخيرة للخلافة وتمزقاتها. واعتبر الكتاب أول تاريخ كامل في موضوع الخلافة الإسلامية (4).

---

(1) - Rapport annuel, J.A., 1846, **op. Cité**, P : 17-18.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 19. وقد طبع الكتاب.

(3) - Rapport annuel, J.A., 1848, **op. Cité**, P : 103-104.

(4) - Rapport annuel, J.A., 1851, **op. Cité**, P : 123.

أنهى WEIL "تاريخ الخلافة" بنشر الجزء الخامس المتضمن خلفاء بني العباس منذ استقرارهم بالقاهرة، حيث واصلوا المهمة الدينية للخلافة ثلاثة قرون أخرى. وقد اعتمد الكاتب، بالدرجة الأولى على أبي المحاسن بن تغري بردي[1] في حولياته [2].

وفي كتاب آخر مستقل، عادWEIL إلى الموضوع لكن من جانب مكمل وهو: "تاريخ الشعوب الإسلامية منذ محمد إلى حكم السلطان سليم"[3] العثماني[4].

هذا إذن، بعض ما ألفه المستشرقون عن أحداث ووقائع القرون الإسلامية الأربعة الأولى. مؤلفات تكمن أهميتها في اعتمادها على مصادر أصلية وأصيلة، بغض النظر عن مقياس الحكم على الوقائع، سواء العقلي المنطقي أم الأحكام الموروثة، الدينية والمادية في تفسير الأحداث مما يدخل في مقتضيات النقد الأوربي كما سيأتي لاحقا!

وسنحاول في عجالة أخرى، مكملة، أن نأتي على مخطوطات ومصنفات القرون الأربعة الأولى أو نحوها، التي كانت ثمرة عصر التدوين وما بعده، مقتصرين على الناحية التاريخية مما نَشر وتَرجم، وشَرح وعَلّق عليه المستشرقون الفرنسيون، لاسيما الجيل

---

(1) - **ابن تغري بردي**: يوسف، الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (813 ـ 874 هـ /1310 ـ 1470 م)، من أهل القاهرة مولدا ووفاة. كان أبوه من مماليك الظاهر برقوق ومن أمراء جيشه المقدمين. نشأ يوسف في حجر قاضي القضاة جلال الدين البلقيني، وتأدب وتفقه وقرأ الحديث وولع بالتاريخ وامتاز في علم النغم والإيقاع. مؤرخ وبحاثة، صنف كتبا عديدة منها: "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" و"المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي" و"مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة" و"نزهة الرائي" في التاريخ، و"حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور" 4 أجزاء، و"البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر" وغيره.

ـ الزركلي، الأعلام، ج: 8، **مصدر سابق**، ص: 222 ـ 223.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1863, **op. Cité**, P : 38-40 Vol. 2, Stuttgart, 1862 (P : 512).

(3) - **السلطان سليم**: ابن السلطان بيازيد الثاني. ولد بمدينة أماسية سنة 875 هـ /1470 م. قبض على زمام الملك بعد وفاة أبيه عام 918 هـ /1512 م. وهو أول من صارت إليه الخلافة من آل عثمان، فإنه لما فتح مصر، كان فيها من الخلفاء العباسيين محمد المتوكل على الله (الثالث) وهو الخليفة 18 من الدولة العباسية الثانية فذهب به إلى الآستانة وعين له راتبا لنفقاته فبايعه بالخلافة، فبقيت لخلفائه حتى عام 1924. وفي عهد السلطان سليم فتحت البلاد العربية، وانتمت إلى الخلافة العثمانية، ومنها بلاد المغرب، باستثناء المغرب الأقصى.

- البستاني، دائرة المعارف، ج: 10، **مصدر سابق**، ص: 9-10.

(4) - Rapport annuel, J.A, 1868, **op. Cité**, P : 115-116.

الأول من مستشرقي الجمعية ومجلتها الآسيوية. مع التنبيه مجددا إلى صعوبة التخلي عن مؤلفات الشرق العربي الإسلامي للأسباب المذكورة آنفا.

لقد حاولنا أن نعرض هذه المؤلفات وفق التسلسل الزمني لحياة أصحابها، لمقاصد عدة، منها احترام الفترات الحضارية وتمييزها عن بعضها البعض، ومنها استفادة الكتاب من بعضهم البعض، وتطور الكتابة وتكامل مواضيعها، ولكي يتسنى للقارئ أخذ فكرة واضحة عن مدى إلمام مستشرقي الجيل الأول بتراث بلاد المغرب والمشرق، وهو الجيل المتزامن مع بداية احتلال المنطقة ومحاولة التحكم فيها على جميع الأصعدة، وما يتطلب كل ذلك من معطيات لاسيما التاريخية منها.

ففيما يتعلق بالفتوحات الإسلامية، نشر LEES بكالكوتا (الهند)، لأول مرة، النص العربي لمخطوط "فتوح الشام" [1] لأبي إسماعيل محمد بن عبد الله الأزدي البصري[2] (توفي حوالي 165 هـ /782 م)، وهو بذلك يعد النص التاريخي العربي الأقدم.

وتناول DE GOEJE الكتاب نفسه من خلال دراسة نقدية تاريخية، تعرض فيها لمجمل صعوبات الموضوع، وقارنه بمؤلفات أخرى، ثم نشره بليدن (هولندا) [3]. ويعود الفضل إلى كتاب "فتوح الشام" في الاهتمام بأبي محمد الواقدي (ولد عام 130 هـ /747 م)، الذي نسب إليه الكتاب خطأ[4]، كما تذكر المصادر العربية أيضا.

ولما عزم مجلس الجمعية الآسيوية الفرنسية على نشر نصوص مخطوطات وترجمتها في إطار سلسلة مؤلفي الشرق، وقع اختياره على أول سيرة للرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، "السيرة النبوية" لأبي محمد عبد الملك بن هشام[5] (المتوفى عام 218 هـ

---

(1) – **فتوح الشام**، بكالكوتا، 1854، (207، 58، 43 ص) انظر :

- Rapport annuel, J.A., 1855, **op. Cité**, P : 33.

(2) – الأزدي: مؤرخ، ينسب إليه "فتوح الشام". الزركلي، الأعلام، ج: 6، **مصدر سابق**، ص: 221.

(3) – J. De GOEJE, **Mémoires d'histoire et de géographie orientale**, N 2, Mémoire de Foutouho's-Scham, attribué à Abou Ismaël al-Basri, Leyde, 1864.

أنظر : - Rapport annuel, J.A., 1863, **op. Cité**, P : 34-35.

– وكذلك: - Rapport annuel, J.A., 1864, **op. Cité**, P : 50-51.

(4) – كان قاضيا ببغداد في عهد المأمون. امتلك مكتبة شهيرة وألف بضعة وثلاثين كتابا أغلبها تاريخية. أنظر :

- Rapport annuel, J.A., 1855, **op. Cité**, P : 35.

(5) – انظر تعريفا لابن هشام ضمن **الفصل الثالث**.

842/ م)، كأول كتاب ينشر نصه ويترجم. فقامKAZIMIRSKI بالمهمة. واعتبر الكتاب مهما جداً للدراسات الشرقية [1].

وفيما قدم DE SLANE بعض المقتطفات من كتاب عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم[2] (182 - 257 هـ /798 - 871 م)، "فتوح مصر وافريقية والأندلس"، وهو أقدم كتاب في هذا المجال، نشر HARRIS النص العربي وترجمة للفصل الخامس الذي يتناول فتوح الأندلس، وأرفقه بمقدمة ضخمة ونقد وتعليقات تاريخية وفلسفية [3].

ونشر DE MEYNAR في المجلة الآسيوية [4] النص العربي، مع ترجمة للأصول والتروح، فالإقامة لقبائل البربر في بلاد المغرب المأخوذ من كتاب "المسالك والممالك" للجغرافي، عبيد الله بن أحمد بن خُرْدَاذْبُهْ[5] (نحو 205 - 280 هـ /820 - 893 م).

أما DE GOEJE، تلميذ DOZY، الذي يسير على خطى أستاذه، وكلاهما كان يدرس بجامعة ليدن، فنشر كتابا لأبي العباس أحمد بن يحيى البلاذري[6] (المتوفى عام 279 هـ /892 م)، حول تاريخ فتوحات المسلمين الأوائل، بمقدمة وإضافات وتصويبات، وفهارس الأعلام والأماكن. كما نشر أيضا تاريخ خلفاء بني أمية، عمر

---

(1) - Rapport annuel, J.A., 1852, **op. Cité**, P : 21.

(2) - **ابن عبد الحكم**: أبو القاسم. مصري المولد والوفاة. وهو ابن "عبد الله الفقيه صاحب سيرة "عمر بن عبد العزيز". مؤرخ من أهل العلم بالحديث. من كتبه: "فتوح مصر والمغرب والأندلس".
ـــ الزركلي، الأعلام، ج: 3، **مصدر سابق**، ص: 313.

(3) - Rapport annuel, J.A., 1859, **op. Cité**, P : 25-26.

(4) - C.B. DE MEYNARD, "Le livre des routes et des provinces", J.A., 1865, **op. Cité**, P : 462-463.

(5) - **ابن خرداذبه**: أبو القاسم، فارسي الأصل. من أهل بغداد. اتصل عبيد الله بالمعتمد العباسي، فولاه البريد والخبر بنواحي الجبل. له تصانيف منها: "المسالك والممالك" وغيره. الزركلي، الأعلام، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 190.

(6) - **البلاذري**: أحمد بن يحي، من أهل بغداد. جالس المتوكل العباسي، ومات في أيام المعتمد. مؤرخ، جغرافي ونسابة. "ç لم يتمه. ـــ **نفس المصدر السابق**، ج: 1، ص: 267
- دائرة المعارف الإسلامية، ج: 4، مصدر سابق، ص: 58-59.

الثاني ويزيد الثاني، وهو التاريخ المستل من كتاب "العيون والحدائق في أخبار الحقائق"(؟) [1] والذي لم يذكر مؤلفه [2].

ولعبد الله بن مسلم بن قتيبة (213 - 276 هـ /828 - 889 م)، كتاب: "دليل التاريخ العام"، نشره WUSTENFELD. كمساهمة في تاريخ العرب قبل الإسلام، وهو من المحاولات الأولى في التاريخ العام التي يبدو أن العرب قاموا بها، ولم يحدث أن نشر كاملا، واعتمد فيه الناشر على مخطوطة فيينا، وأنهى نشرته بجدول للأسماء التاريخية والجغرافية [3].

واهتم DE QUATREMERE بحياة ومؤلفات المؤرخ، الرحالة والجغرافي، علي بن حسين المسعودي[4] (المتوفى عام 364 هـ /957 م) [5]. ونشر دراسة ضمن أعداد المجلة الآسيوية عام 1839 م، تعرض فيها لحياة المسعودي، وتبحره العلمي، وغزارة إنتاجه وأسفاره. كما استعرض DE QUATREMERE مؤلفاته التاريخية وغير التاريخية ونقد بعضها مركزا على كتابه "مروج الذهب ومعادن الجوهر"، الذي يتألف من 120 فصلا، ناقش فيها المسعودي جملة من المسائل التاريخية الطبيعية، الفلسفية...الخ، مستعرضا إياها استعراضا غير عميق. وكان المسعودي قد صنف كتابه هذا في عهد الخليفة العباسي المعطي بالله، وفرغ منه عام 334 هـ /945 م. وتملك المكتبة الملكية بباريس نسخة من مخطوطة كتاب المروج، وهي كاملة بعد أن كانت قد جلبت من القسطنطينية خلال الثلاثينيات [6].

---

(1) - لعله كتاب "عيون الحدائق في الأدب الرائق" لشهاب الدين أحمد بن عبد الله بن حسين بن طوغان المتوفى عام 811 هـ. انظر: - خليفة، مصدر سابق، ج: 2، ص: 1186.

(2) - -Rapport annuel du 09/07/1868, **J.A.**, 6me série, T 12, 1868, P : 110-111.

(3) - -Rapport annuel du (1850-1851), **J.A.**, 4 me série, T 18, 1851, P : 125-126.

(4) - انظر فصل الأدب.

(5) - -DE QUATREMERE, "Notice sur la vie et les ouvrages de Masoudi", **J.A**, 3me série, T 7, 1839, P : 5-131.

(6) - عاش المسعودي في أروع زمن التطور العلمي للعرب والمسلمين، حين كانوا عرضة لتأثير الإغريق والهنود، انظر: -Rapport annuel du 25/06/1862, **J.A.**, 5 me série, T 20, 1862, P : 20.

ومن الممكن أن يكون مقالDE QUATREMERE الذي أشرنا إليـــه آنفـــا والذي عَرّف فيه بكتاب المروج، هو الذي ساهم في اختياره ضمن سلـــسلة مـــؤلفي الشرق، إذ قرر مجلـــس الجمعيـــة الآســـيوية، بعـــد ســـنوات، نـــشره وترجمتـــه. وكُلفDEREMBOURG بالمهمة، لكن الأخير اعتذر عن المواصلة بعد سنوات مـــن الجهد لانشغالاته المتعددة، فعين مجلس الجمعية مكانه BARBIER DE MEYNARD وPAVET DE COURTEILLE وأحرز النشر تقدما بظهور الجزء الأول من كتاب المروج عام 1861، نصا عربيا وترجمة كاملة [1]. وكانت الفكرة العامة للكتاب تقـــوم على تأليف تاريخ عام وشامل اعتمادا على الجغرافيا ومدعما بـــالرحلات والأبحـــاث الفردية في البلدان التي أتيح للمسعودي زيارها. وقد صدر الجزء الثـــاني عـــام 1863. ويتضمن تاريخ العرب القدماء، عاداهم وتقاليدهم ومعتقداهم منتهيا برزنامة الـــشعوب المختلفة [2].

ويتضمن الجزء الثالث من المروج الصادر عـــام 1864 وصـــفا لـــبلاد الزنـــوج وتاريخهم، وكذلك عادات وتقاليد العرب قبل الإسلام. وأما الجزء الرابع الذي يبلغ به المسعودي نصف الكتاب فيتضمن بقايا من التاريخ العام قبل النبي ﴿صـــلى الله عليـــه وسلم﴾ ويشتمل الجزء الخامس مواضيع عامة تتعلق بالجغرافيا الطبيعية ومراكز العبادات سيما عبادة النار وحوليات عالمية ينتهي ها إلى عهد النبي ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ ليبدأ في نفس الجزء تاريخ الإسلام في الثمانين سنة الأولى منه [3]. وأما الفترة التي تمتـــد إلى سقوط بني أمية وإلى حكم المأمون العباسي فكانت موضوع الجزء السادس الذي صدر عام 1872 [4]، هاية الفترة التي تعنينا.

---

(1) - - DE MEYNARD, et DE COURTEILLE, Collection d'ouvrages orientaux, **MACOUDI, les prairies d'or**, texte et traduction, T 1, Paris, 1861, (408 p.).

وكان ثمن الكتاب وقتذاك 50،7 فرنك، و5 فرنكات بالنسبة لأعضاء الجمعية الآسيوية والمدارس العمومية.

انظر: - **J.A.**, 6 ^{me} série, T : 20, 1862, P : 19-20.

(2) - - **J.A.**, 6 ^{me} série, T: 2, 1863, p:18.

(3) - - Rapport annuel, J.A., 1865, **op. Cité**, P : 15- 16.

(4) - - Rapport annuel, J.A., 1869, **op. Cité**, P : 28.

لعله لم يبق للعرب قبل الإسلام، خارج الشعر القديم، من ذكريات تاريخية تقريبا غير سلاسل أنساهم التي يعلقون عليها أهمية قصوى. وقد ألف الشاعر اللغوي، محمد بن الحسن بن دريد[1] (223 - 321 هـ /838- 933 م)، في أنساب القبائل والرجال (العرب) المشهورين، وعن أصل واشتقاق أسمائهم. ونشرWUSTENFELD جزءاً واحدا من نص كتاب ابن دريد عام 1854، وكان قد ألف جداول أنساب القبائل العربية عام 1852، اعتمادا على نحو من 12 مؤلفا، أرفقها بجدول أبجدي يتعلق بالقبائل العربية وهجراهم[2].

وكان PERRON، قبل ذلك، قد أعد نشرة لسلسلة أكمل لهذه الأنساب، لكن صعوبات الطبع حالت دون نشرها[3]. ونشر WUSTENFELD أيضا نص كُتيب في الموضوع، ألفه النحوي محمد بن حبيب[4] (المتوفى عام 245 هـ /860 م) اعتمادا على مخطوط محفوظ في مكتبة ليدن. وكان نشره متزامنا مع الناشر أيضا لسلاسل النسب العربية المعدة للاستعمال كسندات إثبات[5].

وظل أقدم تاريخ عام، ومصدر كل الكتابات التاريخية العربية، في حكم المفقود، وأعني بذلك تاريخ أو حوليات محمد بن جرير الطبري، إلى أن اكتشف KOSEGARTEN، أجزاء أصلية تتضمن أخباراً وحكايات عن معركة القادسية وسقوط بلاد فارس بيد المسلمين، لكنها لم تكن تشكل كتابا كاملا، لذلك بقي الأمل

---

(1) - **ابن دريد:** محمد بن الحسن الأزدي. ولد بالبصرة وانتقل إلى عُمان فأقام أثني عشر عاما، وعاد إلى البصرة، ثم بغداد فأقام إلى أن توفي. من أئمة اللغة والأدب، كانوا يقولون: ابن دريد أشعر العلماء وأعلم الشعراء. من كتبه:"الاشتقاق" في الأنساب، و"الجمهرة" في اللغة في 3 مجلدات، أضاف إليها المستشرق "كرنكو" مجلدا رابعا للفهارس، و"أدب الكاتب" و"الوشاح" و"زوار العرب" و"اللغات"، وغيره. — الزركلي، الأعلام، ج: 6، مصدر سابق، ص: 80.

(2) - Rapport annuel du 27/06/1872, **J.A.**, 6 me série, T 20, 1872, P : 36-37.

(3) - Rapport annuel du 20/06/1855, **J.A.**, 5 me série, T 6, 1855, P : 29.

(4) - **ابن حبيب:** محمد أبو جعفر البغدادي. مولده ببغداد ووفاته بسامراء. كان مؤدبا، علامة بالأنساب والأخبار واللغة والشعر. من مؤلفاته: "كتاب من نسب إلى أمه من الشعراء" و"المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام" و"مختلف القبائل ومؤتلفها" و"المنمق" في أخبار قريش، و"كتاب ما جاء اسمان أحدهما أشهر من صاحبه" و"أخبار الشعراء وطبقاتهم" و"الشعراء وأنسابهم". وغيره. — الزركلي: ج: 6، مصدر سابق، ص: 78.

(5) - Rapport annuel, J. A., 1855, **Op. Cité**, P : 28.

قائما في أن الأبحاث ستسفر يوما عن العثور على النسخة الكاملة لحوليات الطبري[1].
وموازاة مع جهود البحث عن النسخة الأصلية، سعى المستشرقون للاعتماد على النسخة الفارسية والتركية، مع اعترافهم أن النسختين لا تشكلان بديلا عن النسخة العربية الأصلية، وتكفلت الجمعية الآسيوية البريطانية بترجمتها إلى الفرنسية، اعتمادا على النسختين. وكلف ZOTENBERG بالمهمة، وصدر الجزء الأول منها عام 1867 [2] والثاني عام 1869 والثالث عام 1872[3].

وبحكم اهتمام CHERBONNEAU بتاريخ بلاد المغرب، ذات العلاقة الوطيدة بالأندلس تحت الحكم الإسلامي، نشر مقتطفات من كتاب محمد بن عمر بن القوطية[4] (المتوفى عام 367 هـ /977 م)، ثم ترجم الكتاب إلى الفرنسية، ونشره بتعاليق عام 1853[5].

واهتم DE SLANE بما كتبه محمد بن حوقل[6] (المتوفى أيضا عام 367 هـ /977 م)، في "وصفه أفريقيا"، فترجمه ونشره مقدما بذلك مسحا للخلفيات التاريخية

---

(1) - Rapport annuel, J.A., 1853, **op. Cité**, P : 135.

- لعل السبب في ضياع تاريخ الطبري أو إهماله يعود من بينه إلى ما شاع عنه وسط العوام من اعتقاده بمعتقدات الرافضة، مما جعل أصحاب هذه الإشاعات يرمونه حتى بالإلحاد (?!). انظر: أقوال بعض الكتاب العرب والمسلمين في الطبري:

- QUATREMERE, "Sur Tabari l'historien", **J.A.**, 5 me série, T : 17, 1861, P : 136-141.

(2) - Hermann ZOTENBERG, Chromique de Ibn Abou-Djafar Mohammed-ibn Djarir Yezid Tabari, traduite sur la version personne d'Abou-Ali-Mohammed- Behami, T 1, Paris, 1867, (p : 599).

(3) - Rapport annuel, J.A., 1868, **op. Cité**, P : 58-59.

(4) - **ابن القوطية**: أصله من اشبيلية، ومولده ووفاته بقرطبة. عالم في اللغة والأدب ومؤرخ. ترك عدة مؤلفات منها: "تاريخ فتح الأندلس". — الزركلي، الأعلام، ج: 6، مصدر سابق، ص: 311 — 312.

(5) - CHERBONNEAU, "Extrait du livre d'Ibn El-Koutyia, intitulé: Foutouh El andalous Lilmoslimine", **J.A.**, 5 me série, T1, 1853, P : 460-461.

(6) - **ابن حوقل**: (توفي بعد 367 هـ /977 م)، محمد بن حوقل البغدادي، أبو القاسم: رحالة من علماء البلدان. كان تاجرا. رحل من بغداد سنة 331 هـ /942 م، ودخل المغرب وصقلية، وجاب بلاد الأندلس وغيرها. له "المسالك والممالك".- الزركلي، ج 6، مصدر سابق، ص: 111. وكذلك:
- دائرة المعارف الإسلامية، ج 1، مصدر سابق، ص: 145.

لإمارات بلاد المغرب التي زارها في القرن 4 هـ /10 م[1].

كما نشر DE JONG بـ Leyde (هولندا)، كتاب الأوائل لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (350 - 430 هـ /961 - 1038 م)، الذي قدم من خلاله فكرة عن المجتمع الإسلامي حين كان يهتم بالعقول النيرة، و لم تكن أوربا وقتئذ كذلك[2].

ولعله من تحصيل الحاصل أن يأتي كتاب الفهرست لإسحاق بن النديم (المتوفى عام 438 هـ /1047 م)، الشهير، الغني بالمعلومات عن القرون الأولى للأدب العربي وتاريخ الفرق في العهد الإسلام الأول، وكذا التآليف والمؤلفين على العموم الذين سبق تناولهم في هذا المبحث بالذات باعتبارهم سابقين لابن النديم أو معاصرين له. وقد عهدت الجمعية الآسيوية إلى DE SLANE لنشر كتاب الفهرست، وقبل بالمهمة عام 56 - 1857، غير أنه علم أن FLUGEL بـ Dresde (ألمانيا) يعد منذ مدة طبعة للفهرست. وإلى عام 1863 كان لا يزال المشروع بين يديه ولذلك رأى DE SLANE من الواجب التخلي له عنه[3].

لقد وفرت هذه المخطوطات المنشورة والمترجمة والمعلق عليها، مادة شجعت المستشرقين على القيام بجملة من المؤلفات تعود إلى فترة القرون الإسلامية الأولى، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر، كتاب WEIL عن تاريخ الدويلات المستقلة عن الخلافة (الإسلامية)، وكان بمثابة تتبع للثورات على الخلافة، مادام WEIL توقف عن التأريخ لهذه الدويلات بمجرد استقلالها عنها[4]. وفي نفس السياق تقريبا، درس CHERBONNEAU تاريخ المنشقين أو خوارج الأوراس ولاسيما أبا يزيد مَخْلَد بن

---

(1) - DE SLANE, trad. "Description de l'Afrique par Ibn-Haucal", **J.A.**, 3me série, T : 13, 1842, P : 154-159.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1868, **op. Cité**, P : 114-115.

(3) - Rapport annuel, J.A., 1857, **op. Cité**, P : 114-115.

وكذلك:
- Rapport annuel, J.A., T 2, 1853, **op. Cité**, P : 135.
- Rapport annuel, J.A., 1853, **op. Cité**, P : 135.

(4) - Rapport annuel, J.A., 1848, **op. Cité**, P : 104.

كَيْدَاد[1] الثائر، وهو أحد زعماء الإباضية وأئمتهم المتوفى عـام 336 هـ/ 947 م، ونشر وثائق عنه غير منشورة، نقلها من حولية ابن حماد المتوفى [2] عـام 336 هـ/ 947 م.

ونشر DOZY الجزء الثالث من مجموعة، مؤلفات العرب غير المنشورة، محتويا على القسم الأول من تاريخ المغرب لعريب بن سعد القرطبي[3] المتوفى حوالي 369هـ/ 979 م [4]. كما نشر أبحاثا في "التاريخ السياسي والأدبي لاسبانيا خـلال العصور الوسطى" [5] وقارن فيها بين الروايات العربية والمسيحية [6].

وقدم MERCIER مقتطفا من سقوط إمارة الأغالبة وقيام إمبراطورية العبيديين [7]. وبدأ FERAUD مع نهاية فترة بحثنا جملة من الأبحاث المتعلقة بمدن الجزائر. من ذلـك "تاريخ أهم مدن إقليم قسنطينة ومنها مدينة بجاية [8]. فمدينة جيجل وتقاليد سكانها، ودراسة عن تاريخ ورقلة القديم [9]. وأخيرا تاريخ مدينة الجزائر، ومدن أخرى لكتاب آخـرين أمثـال MONNEREAUK, BERBRUGGER, DEVOULX،

---

(1) - ابن كيداد: بن سعد الله بن مغيث الزناتي النكاري، أبو يزيد. بربري الأصل. ولد ونشأ في "قسطيلة" ثم توزر، وخالط "النكّارية" وهم من الصفرية، وسافر إلى تاهرت فكان معلما للصبيان فيها. ثائر، من زعماء الإباضية وأئمتهم. أخذ نفسه بالحسبة على الناس وتغيير المنكر سنة 316 هـ/ 928 م فكثر أتباعه، ولما مات المهدي الفاطمي (سنة 322 هـ) خرج بناحية الأوراس وتلقب بشيخ المؤمنين، وقاتله عساكر القائم بأمر الله (ابن المهدي) صاحب المغرب... — الزركلي، ج: 7، **مصدر سابق**، ص: 194.
— ابن خلدون، تاريخ العلامة، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 40 — 41.

(2) - CHERBONNEAU, Trad., "Documents inédits sur l'Hérétique Abo Yezid Mokhalled Ibn-Kidad de Tademket", **J.A.**, 4 me série, T 20, 1852, P :470-510.
- Rapport annuel, J.A., 1870, **op. Cité**, P : 77.

(3) - **عريب بن سعد:** من أصل نصراني، أسلم آباؤه واستعربوا وعرفوا ببني التركي. استعمله الناصر سنة 331 هـ على كورة أشونة. واستكتبه المستنصر (الحكم). طبيب ومؤرخ. اختصر "تاريخ الطبري" وأضاف إليه أخبار افريقية والأندلس، فسمي "صلة تاريخ الطبري"، وله في الطب "كتاب خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولودين"، وغيره. — الزركلي، الأعلام، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 227.

(4) - Rapport annuel, J.A., 1849, **op. Cité**, P : 22.

(5) - R.P.A. DOZY, **Recherches sur l'Histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen-Âge**, T.I., Leyde, 1849 (711 p.).

(6) - Rapport annuel, J.A., 1851, **op. Cité**, P : 134-135.

(7) - Rapport annuel, J.A., 1872, **op. Cité**, P : 42.

(8) - Rapport annuel, J.A., 1871, **op. Cité**, P : 36-37.

(9) - Rapport annuel, J.A., 1872, **op. Cité**, P : 42.

WATBLED، وغيرهم ممن صدرت لهم أعمال في المجلة الإفريقية بالجزائر، وتم الإعلان عنها والتعريف بها في المجلة الآسيوية [1].

* * *

تزامنت القرون الهجرية الخمسة الموالية (ق: 6 – 10 هـ /12– 16 م) مع مرحلة خمول للحضارة العربية الإسلامية. فزاد خلالها إنتاج التراث الفكري والعلمي، مما يتناسب كمًّا مع ما اكتشفه المستشرقون الفرنسيون وغير الفرنسيين من تآليف ومؤلفين، يأتي في مقدمتهم، أبو الفتح محمد الشهرستاني[2] (479 – 548 هـ /1086 – 1153 م)، وكتابه الملل والنحل الذي تَرجم جزءه الأول HAARBRUCKER بـ Halles (ألمانيا). ويتضمن عقائد ومذاهب أهل الكتاب، والأمم التي تؤمن بالكتب، ويهمنا منه على الخصوص، جزءه الثاني المتضمن فلاسفة العرب، يكاد يقتصر فيه الشهرستاني على عرض مفصل لمذهب ابن رشد الذي يهواه المستشرقون لاعتبارات عديدة، منها تأثيره في بدايات النهضة الأوربية، واعتباره أكبر شارح لأرسطو، وأكبر السكولاستيكيين[3] العرب على ما يذهب إليه المستشرقون الفرنسيون أنفسهم[4].

كانت الحروب الصليبية (493 هـ /1099 م ثم 503 هـ /1109 م)، محل اهتمام المستشرقين، لاسيما المصادر العربية لهذه الحروب[5]، كالحولية العربية لابن

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص: 42.

(2) – **الشهرستاني**: محمد بن عبد الكريم بن أحمد، ولد في شهرستان (بين بنيسبور وخوارزم) وانتقل إلى بغداد سنة 510 هـ، فأقام ثلاث سنين وعاد إلى بلده، وتوفي بها. من فلاسفة الإسلام. كان إماما في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة. من كتبه "الملل والنحل" 3 أجزاء، وغيره. — الزركلي، الأعلام، ج: 6، مصدر سابق، ص: 215.

(3) – المدرسة الفلسفية الأرسطية في التدريس، أو مدرسة التفكير التقليدي الأرسطي عند اليونان، والتي يقابلها علم الكلام أو الجدل عند المسلمين.

(4) – - Rapport annuel, **J.A.**, 1853, **op. Cité**, P : 13.

(5) – - REINAUD, "Notice sur les chroniques orientales", N.J.A., 1834, o**p. Cité**, P : 552.

الأثير. والحولية العربية لابن الفرات[1] (735 – 807 هـ /1335 – 1405 م)، المتوفر منها عشرة أجزاء بالمكتبة الإمبراطورية بفيينا[2].

كان العلماء والتجار العرب والمسلمون يجدون سهولة في التجوال عبر جزء كبير من العالم. وقد دونوا قصة سياحتهم وارتحالهم. ومنهم محمد بن أحمد بن جبير الكناني البلنسي[3] (540 - 614 هـ /1145 – 1217 م). وقد قام المستشرق WRIGHT بليدن، بنشر النص العربي لرحلاته عام 1852، ووعد بترجمتها. واعتمد في نشره هذا على المخطوط الوحيد بمكتبة ليدن[4].

ومن الكتب المؤرخة للدول خلال هذه الفترة تاريخ الموحدين بإسبانيا (الأندلس) لعبد الواحد بن علي المراكشي[5] (581 – 647 هـ /1185 - 1250 م)، نشره DOZY عام 1847 بليدن على نفقة لجنة نصوص الشرق[6]. والمؤلف معاصر لجزء كبير من الوقائع التي يتحدث عنها، إذ يعود الكتاب إلى عام 621 هـ/ 1224 م،

---

(1) – **ابن الفرات:** محمد بن عبد الرحيم بن علي بن محمد. مولده ووفاته بالقاهرة. ولي خطابة "المدرسة المعزية" بالقاهرة. مؤرخ مصري، من مؤلفاته: "تاريخ ابن الفرات" في 4 مجلدات، اسمه في الأصل "الطريق الواضح المسلوك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك".

ـــ الزركلي، الأعلام، ج: 6، **مصدر سابق**، ص: 200 ـــ 201.

(2) - REINAUD, "Notice sur les chroniques orientales", N.J.A., 1834. **op. Cité**, P : 558-559.

(3) – **ابن جبير:** (450- 614 هـ /1145- 1217 م)، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين: رحالة أديب. ولد في بلنسية Valence ونزل بشاطبة. برع في الأدب، ونظم الشعر الرقيق، وحذق الإقراء. وأولع بالترحل والتنقل، فزار المشرق ثلاث مرات إحداها سنة 578- 581 هـ (1182- 1185)، وهي التي ألف فيها كتابه "رحلة ابن جبير"، وتوفي بالإسكندرية في رحلته الثالثة.

- الزركلي، ج 5، مصدر سابق، ص: 319- 320. وكذلك:

- محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج 2/ 8، دار صادر، بيروت، 1968، ص: 381- 382. ودائرة المعارف الإسلامية، ج 1، مصدر سابق، ص: 116.

(4) - Rapport annuel de 13/06/1853, **J.A.**, 5 me série, T 2, 1853, P : 124-125.

(5) – **ابن علي المراكشي:** عبد الواحد بن علي التميمي، محي الدين. ولد بمراكش وتعلم بفاس والأندلس، ورحل إلى مصر سنة 613 هـ، ربما مكرها لسبب سياسي، وحج سنة 620 وتجول في بعض بلدان المشرق. مؤرخ، أملى كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب" إجابة لطلب وزير من خاصة الناصر العباسي.

ـــ الزركلي، الأعلام، ج: 4، مصدر سابق، ص: 176. وكذلك: أدهم، مصدر سابق، ص: 135ـــ148.

(6) - Leyde 1847, (290p.).

ويتضمن سيرة ستة من أمراء الدولة، وقد ذكر الناشر أنه يتوفر على نزاهة وتجــرد نادرين [1].

وكانت ندرة بعض أجزاء أهم الحوليات العربية وهو "الكامل في التــاريخ" [2] لابن الأثير، وكذلك الرغبة في نشر الأجزاء الأهم من الكتاب، هي الــتي تحكمــت في قرار TORNBERG الشروع في نشر النص العربي للمخطوط بدءا من أجزائه الأخيرة. وهكذا فقد نشر الجزئين 11 و12 "بأوبسال" عام 1851 م ثم الأجزاء 8، 9، 10 بــ Lund بالسويد أيضا، وبمساعدة من الحكومة السويدية نفسها وكان ذلك عــام 1863 م[3] ثم الجزء 6 و7 عام 1865 م. وفي الأخير قلب TORNBERG التركيب وعاد إلى الجزء الأول المتعلق بتاريخ شعوب ما قبل الإسلام، الذي صدر عام 1867 م، فــالجزء الثاني والذي ينتهي بالعام 20 هجرية، وهكذا فلم يبق له عام 1868 إلا الأجــزاء 3، 4 و5. وقد توفرت لدى الناشر، في الأخير، عدة نسخ من المخطوط من مكتبات أوبسال، باريس وبرلين [4].

واهتم DE SLANE بترجمة قاموس السير "وفيات الأعيان" لأول جامع للتراجم العامة وهو أحمد بن محمد بن إبراهيم البرمكي المعروف بابن خَلّكان[5] (608 — 681 هــ /1211 — 1282 م)، والمحتوي على لمحات سير أزيد من 800 شخصية الأكثــر

---

(1) - Rapport annuel, J.A., 1848, **op. Cité**, P : 105.

(2) - غير معروف ما إذا كان يوجد في أوربا نسخة كاملة غير تلك التي تحصل عليها Descabe بالقسطنطينية لفائدة المكتبة الإمبراطورية بباريس انظر:

- Rapport annuel, J.A., 1853, **op. Cité**, P : 122-123.

(3) - Rapport annuel, J.A., 1863, **op. Cité**, P : 37-38.

(4) - Rapport annuel, J.A., 1868, **op. Cité**, P : 111-112.

(5) - **ابن خلكان**: أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر البرمكي الإربيليّ، أبو العباس. ولد في إربيل (بالقرب من الموصل على شاطئ دجلة الشرقي) وانتقل إلى مصر فأقام فيها مدة وتولى نيابة قضائها. وسافر إلى دمشق، فولاه الملك الظاهر قضاء الشام. وعزل بعد عشر سنين فعاد إلى مصر فأقام 7 سنين، ورد إلى عزل عنه بعد مدة. وولي التدريس في كثير من مدارس دمشق، وتوفي فيها. مؤرخ حجة وأديب ماهر. له كتاب: "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، وهو أشهر كتب التراجم ومن أحسنها ضبطا وإحكاما.

— الزركلي، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 220. وكذلك: زيادة، مصدر سابق، ص: 156—163.

بروزا في الإسلام، وفيه معلومات لا تتوفر في غيره [1]، وقد عانى الناشر من جملة صعوبات، كمراجعة التواريخ وضبط إملاء أسماء الأعلام وتصحيح المقاطع المبهمة وإعادة المقاطع الشعرية إلى أصلها... الخ [2]. وقد تحولت الإثني عشرة نسخة مختلفة من مخطوط "وفيات الأعيان" التي توفرت لدى الناشر، إلى مصدر حرج، إذ أن عددا من النسخ محررة بشكل مختلف[3]. وفي عام 1868 م تمكن DE SLANE من ترجمة ونشر الجزء الثالث من الكتاب [4].

وما دمنا في السّير، فقد طبع WUSTENFELD بـ Goettingue، على نفقة الجمعية الانجليزية للنصوص الشرقية، قاموس السّير لأبي زكريا النووي (631 - 676 هـ / 1222 – 1277 م) ويبدأ الكتاب بحياة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ ثم يتابع بترتيب أبجدي حياة كل الشخصيات التي ذكرت في بعض مصنفات الحديث (الشريف). وكان WUSTENFELD قد طبع ملزمة أولى من هذا الكتاب عام 1832 م مرفقة بترجمة لاتينية، ثم استأنف طبع النص عام 1842 م مع الاستعانة بمخطوطات جديدة [5].

وفي سياق التراجم والسّير، اقتطع CHERBONNEAU مقتطفات من كتاب "عنوان الدراية في علماء بجاية" لأبي العباس أحمد بن محمد الجبائي الغبْرِيني[6] (644 – 704 هـ /1246 -1304 م)، من بني غبري بمنطقة القبائل. وهو كتاب مفيد في دراسة الآداب المغربية، إذ يزخر القرن 7 هـ /13 م بالعلماء الذين حفل بهم القرن. وكان الكتاب ضمن مصادر ابن خلدون في تاريخ البربر. اعتمد

---

(1) - DE SLANE, Bibliographie : Kiteb Wefeyet El Ayan d'Ibn Khallikan, Firmin-Didot, Paris, 1838-39.**J.A.**, 3 me série, T 7, 1839, P : 90.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 91.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 93.

(4) - Rapport annuel, J.A., 1868, **op. Cité**, P : 112-113.

(5) - Rapport de la séance du 30/05/1843, **J. A.**, P : 504-505.

(6) - **الغبْرِيني**: أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو العباس. نسبة إلى قبائل "غبرى" من قبائل البربر في المغرب. ولد في بجاية وتولى قضاءها ومات فيها شهيدا. مؤرخ، له كتاب: "عنوان الدراية في من عرف من علماء المائة السابعة في بجاية". ـــ الزركلي، الأعلام، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 90.

CHERBONNEAU على نسخة وحيدة [1]. وقد أعطى فيه نبذة سريعة عن سير أهم العلماء كالشيخ أبي مدين شعيب[2] دفين تلمسان والشيخ أبي علي حسن بن علي بن محمد المسيلي[3] والشيخ أبي حامد عبد الحق الاشبيلي(؟) [4] ثم عرض سيرة 104 عالم خارج القرن 7 هـ، فسيرة أساتذة وشيوخ الغبريني نفسه [5]. وأخيرا قائمة موجزة لسير علماء بجاية [6].

ولما كان القرن 7 هـ /13 م قرن التكالب على العالم الإسلامي ومحاولة إحكام القبضة عليه من الشرق والغرب، فقد اهتم المستشرقون بآلات الحرب عند العرب خلال هذه الفترة [7] وبحثوا في أصول بارود الرمي أو المدافع عند العرب والفرس والصينيين [8] اعتمادا على المصادر، فكان أن تحركت عدة أقلام للكتابة في

---

(1) - CHERBONNEAU, "Notice et Extraits du Eunouan Ed-diraïa ou galerie des Littérateurs de Bougie, au 7 me siècle de l'Hégire", **J.A.**, 5 me série, T 7, 1856, P : 478.

(2) - **أبو مدين شعيب**: بن الحسن الأندلسي التلمساني.(توفي عام 594 هـ /1198 م). أصله من الأندلس. أقام بفاس، وسكن بجاية، وكثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور. توفي بتلمسان وقد قارب الثمانين أو تجاوزها. من مشاهير الصوفية. له: "مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب".
ـ الزركلي، الأعلام، ج: 3، **مصدر سابق**، ص: 166.

(3) - **المسيلي**: حسن بن علي بن محمد، أبو علي (توفي نحو 580 هـ /1185 م). من أهل بجاية، ولي قضاءها مدة، وتوفي بها. كان معاصرا للفقيه عبد الحق الأشبيلي. كان المسيلي فقيها أيضا، ينعت بأبي حامد الصغير. من تآليفه: "التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات" على نسق إحياء علوم الدين للغزالي، وكذلك: "النبراس في الرد على منكر القياس". ـ **نفس المصدر السابق**، ج: 2، ص: 203.

(4) - CHERBONNEAU, "Notice et Extraits du Eunouan Ed-diraïa" J.A., 1856, **op. Cité**, P : 479-480.

(5) - **نفس المصدر السابق**، ص: 487-488.

(6) - **نفس المصدر**، ص: 488-495.

(7) - REINAUD et FAVE, Du feu grégeois et des origines de la poudre à Canon, Paris, 1845, (287 p.) Et (17 p.).
- أنظر : - Rapport annuel, J.A., 1845, **op.Cité**, P : 26-27.
- Bibliographie, **J.A.**, 4 me série, T 7, 1846, P : 572-577.

(8) - REINAUD et FAVE, "Du feu grégeois,des feux de guerre, et des origines de la poudre à Canon, chez les Arabes, les persans et les chinois". **J.A.** 4 me série, T 14, 1849, P : 257-327.

الموضوع ضمن المجلة الآسيوية نفسها [1].

وشهد آثار هجمة التتار والصليبيين، إسماعيل أبو الفـداء، صـاحب كتـاب المختصر في أخبار البشر وكذلك جغرافيته. وقد تناولت الكتابين عدة أقلام، يهمنـا منها على الخصوص وصف بلاد المغرب المطبوعة في مدينة الجزائر عام 1839 م مـن SOLVET والمرفقة بترجمة فرنسية وملاحظات اعتمادا على نص REINAUD و DE SLANE [2].

ظل المستشرقون يعانون من "غموض" بدايات الفترة الإسلامية في بلاد المغـرب، لاسيما بعد احتلال فرنسا الجزائر إلى أن اغتنى تاريخ المنطقة في بداية الأربعينيات بجملة من المخطوطات المنشورة والمترجمة، يأتي في مقدمتها ما نشره DE SLANE في المجلـة الآسيوية عن تاريخ إقليم إفريقية والمغرب لأحمد بن عبد الوهاب القريـشي البكـري القاهري المعروف أيضا بالنويري[3] (677 - 733 هـ /1278 - 1333 م) [4]. بدأ الكتاب الذي هو أصلا شبه دائرة معارف بغزوة المسلمين الأولى لإقليم إفريقية والمغرب عام 27 هـ /647 م متتبعا الفاتحين، فولاة المنطقة، إلى عهد موسى بن نصير عـام 89 هـ /708 م ثم فتح الأندلس. كما تتبع ولاة بلاد المغرب تحت سلطة العباسيين ووصل بالأحداث إلى عام 184 هـ /800 م. وقد نص المترجمDE SLANE على أن النويري اعتمد في تاريخه على البلاذري في فتوح البلدان، وابن الأثير في الكامل في التاريخ وابن

---

(1) - QUATREMERE, "Observation sur le feu grégeois", **J.A.**, 4 me série, T : 15, 1850, P : 214-274.

وكذلك: - REINAUD, "Nouvelles observation sur le feu grégeois et les origines de poudre à Canon", **J.A.**, 4 me série, T 15, 1850, P : 371-357….

(2) - CAUSSIN DE PERCEVAL. **J.A.**, 3 me série, T 10, 1840, P : 364-365.

(3) - النويري: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين. نسبته إلى نويرة (من قرى بني سويف بمصر)، مولده ومنشأه بقوص، وتوفي بالقاهرة. عالم بحاثة غزير الاطلاع. له نظم يسير ونثر جيد. من تآليفه: مصنف "نهاية الأرب في فنون الأدب" هو أشبه بدائرة معارف لما وصل إليه العلم عند العرب في عصره. ـــ الزركلي، الأعلام، ج: 1، مصدر سابق، ص: 165.

ـــ دائرة المعارف الإسلامية، مصدر سابق، ص: 41ـــ42.

(4) - Procès Verbal de la séance du 31/05/1841, **J.A.**, 3 me série, T 12, 1841, P : 33.

الشداد [1] صاحب كتاب الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان، وابـــن الرقيـــق القيرواني[2] (توفي عام 425 هـــ /1034 م) في كتابه تاريخ إفريقية والقيروان [3].

وقد استأنف DESVERGER الأحداث من حيث انتهى DE SLANE حـــتى الأغالبة ونشرها في كتاب: "تاريخ إفريقية تحت الهيمنة الإسلامية" واعتمد علـــى ابـــن خلدون حيث جاء بنصوص وترجمات لها وأرفق ذلك بملاحظات اعتمادا على النويري وابن الأثير[4].

وفي سياق استعراضنا لمصادر تاريخ المنطقة واهتمام المستشرقين في الأربعينيـــات بتاريخ شمال إفريقية يأتي إصدار TORNBERG الأستاذ "بأوبسال" لترجمـــة لاتينيـــة لتاريخ مملكة فاس[5] والتي كان قد نشر نصها قبل سنتين. وقد بدأ المؤلـــف العـــربي عرضه بهروب إدريس[6] من شيعة علي (رضي الله عنه) من المشرق وإقامته بإفريقيـــة،

---

(1) - ورد في "**كشف الظنون**" (ج: 1، ص: 601)،أن أبا الغريب الصنهاجي هو صاحب كتاب "الجمع والبيان"، فهل هو نفسه ابن الشداد؟

(2) - **ابن الرقيق القيرواني**: إبراهيم بن القاسم، أبو إسحاق، من أهل القيروان. تولى كتابة الحضرة في الدولة الصنهاجية زهاء نصف قرن، ورحل إلى مصر سنة 388 هـــ، وعاد إلى وطنه حيث توفي على الأرجح. مؤرخ أديب، من كتبه: " تاريخ إفريقية والمغرب" و"نظم السلوك في مسامرة الملوك"، وغيره.
ـــ الزركلي، الأعلام، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 57.

(3) - - DE SLANE, trad., "Histoire de la province d'Afrique et du Maghreb, traduite de l'Arabe d'En -Noueiri", **J.A.**, 8 me série, T 11, 1841, P : 97-127 et 587-583.

(4) - - Procès Verbal de la séance du 31/05/1841, **J.A.**, 3 me série, T 12, 1841, P : 33.

(5) - أنظر: - TORENBERG, Upsal, 1845, T 2, (360 p.), Rapport, **J.A.**, 1846, **op.Cité**, P : 23.

(6) - **إدريس**: بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب) توفي عام 177 هـــ /793 م)، مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب وإليه نسبتها. كان مع الحسين بن علي بن الحسن المثلث في المدينة أيام ثورته على الهادي العباسي سنة 169 هـــ /785 م ثم قتل الحسين، فانهزم إدريس إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة 172 هـــ /788 م، ونزل بمدينة وليلي (قرب مكناس)...ومن نسله الباقي إلى الآن في المغرب الأسرة العلوية. ـــ الزركلي، الأعلام، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 279.

متتبعا الأحداث حتى عام 726 هـ /1325 م مستعرضا في نفس الأثناء تاريخ فاس والبلاد المجاورة [1].

ونشر ROUSSEAU ترجمة لرحلة الشيخ التجاني في إيالة تونس[2] خلال السنوات (706 - 708 هـ /1306 - 1308 م) ومؤلفها عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني التونسي[3]، وكتابه رواية رحلة قام بها في الأقاليم التونسية، أبو يحيي زكريا بن أحمد اللحياني[4] شيخ الموحدين وقتئذ، وفي زمن حكم الأمير أبي عبد الله محمد الحفصي[5] المستنصر بالله الذي سينادى به سلطانا فيما بعد، وكان التجاني كاتبا له. وفي الرحلة وقائع تاريخية وجغرافية وأثرية... الخ [6]. واعتمد ROUSSEAU في ترجمته على نسختين عثر عليهما في تونس [7].

وحظيت رحلات محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي الشهير بابن بطوطة(8) (702 -780 هـ /1302 - 1378 م) بإصدارين الأول

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1846, **op.Cité**, P : 23.

(2) - Alphonse ROUSSEAU, Trad., "Voyage du Scheikh Et-Tidjani dans la régence de Tunis, pendant les années 706, 707 et 708 H. (1306-1307) **J.A.**, 3 me série, T 20, 1852, P : 75.

(3) - **التجاني التونسي**: محمد بن أحمد بن محمد، أبو عبد الله (توفي بعد 711 هـ /1311 م). له: "تحفة العروس ونزهة النفوس"، وغيره. ـــ الزركلي، الأعلام، ج: 5، **مصدر سابق**، ص: 324.

(4) - **زكريا اللحياني**: الهنتاتي، أبو يحي الحفصي (650 ـــ 727 هـ /1252 ـــ 1326 م). ولد بتونس وتوفي بالإسكندرية. ودرس الفقه والعربية وتأدب. صار إليه الملك سنة 680 هـ ثم خلع.
ـــ **نفس المصدر السابق**، ج: 3، ص: 45ــ46.

(5) - **محمد الحفصي**: المستنصر الأول (625 ـــ 675 هـ /1228 ـــ 1277 م). من ملوك الدولة الحفصية بتونس. بويع له فيها بعد وفاة أبيه عام 647 هـ /1249 م. غزاه لويس IX (ملك فرنسا)، فظفر به بعد معارك طاحنة.
ـــ **نفس المصدر السابق**، ج: 7، ص: 138.

(6) - **نفس المصدر**، ص: 58.

(7) - Rapport annuel, J.A., 1853, **op.Cité**, P : 125-126.

(8) - **ابن بطوطة**: محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي، أبو عبد الله (703 ـــ 779 هـ /1304 ـــ 1377 م). ولد ونشأ بطنجة بالمغرب الأقصى. وخرج منها سنة 725 هـ /1324 م، فطاف بلاد المغرب ومصر والشام والحجاز والعراق وفارس واليمن والبحرين وتركستان وما وراء النهر وبعض الهند والصين والجاوة وبلاد التتر وأواسط إفريقيا. واتصل بكثير من الملوك والأمراء، واستعان بهباتهم على أسفاره. واستغرقت رحلته 27 سنة (1325 ـــ 1352). وعاد إلى المغرب الأقصى، فانقطع إلى السلطان أبي عنان المريني. وأملى أخبار رحلته على محمد بن جزيّ الكلبي بمدينة فاس سنة 756 هـ وسماها: "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". ـــ الزركلي، الأعلام، ج: 6، **مصدر سابق**، ص: 235 ـــ 236.

لـــCHERBONNEAU، نشر وعلق على القسم المتعلق برحلته عبر المغرب الأوســـط ومصر في مطلع القرن 8 هـــ /14 م[1]. والثاني في إطار سلسلة مؤلفي الشرق، تمكـــن DEFREMERY وSANGUINETTI من نشر النص العربي وترجمة له، مما يـــشكل الجزئين (من الخمسة) الأولين من رحلة ابن بطوطة، وضمنها طريق الكاتب عبر شمـــال إفريقيا، سوريا، مكة، بلاد ما بين النهرين، حيث زار بغداد والموصـــل. ثم عودتـــه إلى مكة، ورحلاته إلى شواطئ إفريقيا الشرقية، ووسط جزيرة العرب وأطرافهـــا، وآســـيا الصغرى وشواطئ بحر قزوين والقسطنطينية، ومنها نحو منطقة القوقاز أين نجده في الجزء الثالث من الكتاب[2]. وأما القسم المتعلق برحلته إلى بلاد السودان. فقد ترجمـــه DE SLANE في مطلع الثلاثينيات[3].

ليس من المبالغة في شيء، إذا قلنا إنه لم يحدث أن شغل مستشرقي المجلة الآسيوية كاتباً وكتاباً مثلما شغلهم عبد الرحمن بن خلدون[4] (732 – 811 هـــــ /1332 - 1408 م) وكتابه العبر ولاسيما المقدمة. فقد لفت انتباههم منذ مطلع القرن 19 ونشروا مقاطع من الكتاب. وبدأ اهتمام مستشرقي المجلة الآسيوية به منذ عددها الأول (1822) من خلال مقال لـــ[5] DE HAMMER ، قدم فيه تحليلا أوليا للخمسة أبواب الأول من المقدمة. وكان DE SACY، ربما، أول من نشر مقاطع منها أيضا [6]، كانت بمثابة

---

(1) - CHERBONNEAU, Trad. Et Notes, **Voyage du Scheikh Ibn Batouta à Travers l'Afrique septentrionale et l'Egypte au commencement du 14siècle,** Tiré de l'originale arabe, Paris, 1852 (88 p.).
ـــ أنظر: - Rapport Annuel du 13/06/1853, **J.A.,** 5 me série, T 2, 1853, P : 126.

(2) - C. DEFREMERY et Dr. B.R. SANGUINETTI, texte arabe et trad., Collection d'ouvrages Orientaux, **Voyage d'Ibn Batouta,** Paris, 1853, T 1 (443p.), T2 (465 p.).
- أنظر: - Rapport Annuel du 12/03/1854, **J.A.,** 5 me série, T 4, 1854, P : 23.

(3) - DE SLANE, Trad., "Voyage dans le Monde, par Ibn Batouta", J.A., 1843, **op. Cité,** P : 126.

(4) - انظر ترجمته بقلمه: تاريخ العلامة، ج: 15، **مصدر سابق،** ص: 195ـــ 616.

(5) - DE HAMMER, "Notice sur l'introduction à la connaissance de l'histoire, ouvrage d'Ibn-Khaldoun", **J.A.,** T 1, 1822, P : 267-278.

(6) - DE SACY, "Chrestomathie arabe", T 2, P : 393-401, **J.A.,** T 7, 1827, P : 219.

مشهيات لغيره، وتناول SCHULZ، ابن خلدون وكتابه العبر بالنقد [1]، وعرّف DE TASSY بعناوين فصول القسم السادس من المقدمة. وقدمDE MONTBRET عـــدة مقاطع منها إلى المجلة الآسيوية [2].

وفي إطار شعور الحكومة الفرنسية بأهمية تاريخ المنطقة، لاسيما بعد احتلال مدينة الجزائر، كما أسلفنا، قامت خلال الثلاثينيات بجهود في سبيل التزود بوسائل توضيحية، وامتلاك معطيات تاريخية، فجاء اهتمامها بكتاب ابن خلدون الذي خصته بكثير مـــن الجوائز [3].

شجعت حكومة Piémontais في البداية، وساعدت ARRI، الذي كان قد بدأ طبع وترجمة قسم التاريخ القديم من كتاب العبر إلى الإيطالية. ولكن الأخـــير تـــوفي. وحضّر SCHULZ نشرة لنص المقدمة، غير أن رحلته إلى بلاد فـــارس حالـــت دون طبعها[4]. وبذلك استأثر بابن خلدون وكتاب العبر مستـــشرقان فرنـــسيان بـــارزان هماQUATREMERE و DE SLANE.

أما QUATREMERE، فقد نشر نص المقدمة ضمن "سلسلة المواجيز والمقاطع" [5]، اعتمادا على مخطوطات المكتبة الإمبراطورية بباريس، بمحض إرادته، وشـــرع في ترجمتها. لكن أعمالا أخرى شغلته فأعرض عنها و لم يترك عند وفاته عام 1855 سوى بداية لمشروع الترجمة [6].

---

(1) - Fr. Ed.SCHULZ, "Sur le grand ouvrage historique d'Ibn Khaldoun, appelé Kitab-ol-iber- we diwan-d-moubteda Wel Khaber", **J.A,** T: 7, 1827 , P : 213-219.

(2) - FLEISCHER, "Remarques critiques sur le 1er tome de l'édition des Milles et une Nuit de M. Habicht", **J. A.**, T: 7, 1827, P: 220-221.

(3) - Procès Verbal, J.A., 1841, **op.Cité**, P : 41.

(4) - Rapport annuel, **J.A.**, 1845, **op.Cité**, P : 23-24.

(5) - **نفس المصدر السابق**، ص: 23-24..

(6) - Rapport annuel, **J.A.**, 1863, **op.Cité**, P : 46.

وأما DE SLANE فكان عمله بتكليف من الحكومة الفرنسية ومن وزير الحرب بالذات، ومع حلول عام 1842، كان النص العربي لتاريخ البربر لابن خلـــدون تحـت الطبع، والترجمة جارية. ورخص وزير الحرب لـــــ DE SLANE بإضـــافة بعـــض الفصول المتعلقة بوقائع إقليم المغرب الأوسط للقرون الثلاثة الأولى بعد الفتح الإسلامي. فاستخلص جملة من المقاطع من كتب النويري، وابن الأثير، وابن الآبّار[1]، ومؤرخين عرب آخرين[2]. ونشر DE SLANE حياة ابن خلدون من رحلة ابـــن خلـــدون المعروفة بالتعريف بابن خلدون عام 1844[3].

بدأت أجزاء الكتاب تصدر تباعا في نصها العربي عام 1851. فـــصدر الجـــزء الثاني، الذي يتناول التاريخ قبل بعثة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ والـــذي كـــان ARRI قد شرع في طبعه وترجمته، ثم الجزء الثالث المتضمن تاريخ الإمارات الإسلامية الكبرى وكذلك القسم الرابع الذي عالج فيه ابن خلدون الدويلات الشرقية الصغرى والملوك العرب باسبانيا. ولم يكن أحد، حتى عام 1851 قد اهتم في أوربا بهذا القسم الأخير. وأما الجزء الخامس والأخير، فيحتوي على تاريخ العرب بدءاً من قبيلة طـــي، منذ الأزمنة القديمة، حتى هجرتهم إلى شمال إفريقية وكذا الدويلات العربية والبربريـــة لبلاد المغرب[4].

---

(1) – **ابن الأبار**: محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، أبو عبد الله (595 ــ 658 هـــ/ 1199 ــ 1260 م). ولد ببلنسية (الأندلس)، ورحل عنها لما احتلها الإفرنج، واستقر بتونس فقربه صاحبها السلطان أبو زكرياء ثم ابنه المستنصر الذي قتله اتهاما له بالسخرية منه عليه في مجالسه. مؤرخ وأديب. من كتبه: "التكملة لكتاب الصلة" فتراجم علماء الأندلس، و"ال**معجم**" في التراجم، و"الحلة السيراء في تاريخ أمراء المغرب، و"إعتاب الكتاب"، و"إيماض البرق في أدباء الشرق"، وغيره. ــ الزركلي، **مصدر سابق**، ج: 6، ص: 233.

(2) - DE SLANE, Trad., "Histoire de la province d'Afrique", **J.A.**, 3^me Série, T 13, 1842, P : 64.

(3) -DE SLANE, "Autobiographie d'Ibn-Khaldoun", **J.A.**, 4 ^me série, T 13, 1842, P :64 —

– لما أنهى **ابن خلدون** حياته كان هناك مؤلف أصغر منه في القاهرة، اكتسبت مؤلفاته شهرة في أوربا إنه أول مؤرخ عالمي في الإسلام الشيخ تقي الدين **المقريزي** (المتوفى عام 870 هـــ/1465 م)، وكذلك صديق الأخير، أبو المحاسن **بن تغري بردي** (المتوفى عام 870 هـــ/1465 م) أنظر:

- Rapport annuel, J.A., 1855, **op.Cité**, P : 44.

- Rapport annuel, J.A., 1856, **op.Cité**, P : 32.

(4) - Rapport annuel, J.A., 1851, **op.Cité**, P : 133.

وأما ترجمة DE SLANE لتاريخ البربر، فقد ظهر الجزء الأول منها عـــام 1852 بمدينة الجزائر [1]، أتمّاه بملحق يتضمن نصوصا تتعلق بالفتوحات الإسلامية مستقاة من تاريخ مصر لابن عبد الحكم وكتاب النويري الكبير [2]. وظهر الجزء الثاني عام 1855 [3]. وهكذا إلى أن أتمّاها عام 1869. وقد أعقب هذه الترجمة، ترجمة وتعاليق لمقدمـــة ابن خلدون. ظهر الجزء الأول منها عام 1863 بباريس ثم الجزء الثاني والثالث والأخير عام 1865 [4] وهكذا مع نهاية الفترة التي تعنينا كان كتاب ابن خلدون بمقدمتـــه في متناول كل المستشرقين، فتعرض DOZY في دراسة نقدية للنص العربي للمقدمة الـــذي نشره [5] QUATREMERE، وترجمة [6] DE SLANE لها أيضا.

وكان المستشرقون الفرنسيون يرصدون ويترقبون كل ما ينشر حتى في مطـــابع الشرق من تراث، لاسيما العربي الإسلامي منه، ولذلك فقد كانوا على علـــم بـــأول طباعة لنص تاريخ ابن خلدون من طرف نصر الحوريني بمطبعة بولاق عام 1274 هـــــ /1857 م [7] وكذلك ترجمة خمسة فصول من مقدمة ابن خلدون إلى التركيـــة مـــن طرف شيخ الإسلام بيري زاده محمد صبحي أفندي والفصل السادس من طرف أحمـــد جودت باشا حاكم ولاية الدانوب، طبعها عام 1277 هـــ /1860 م [8].

---

(1) - DE SLANE, Trad., **histoire des berbères et dynasties musulmanes de L'Afrique septentrional par Ibn-Khaldoun,** T 1, Alger, 1852, (480 p.).

(2) - Rapport annuel, J.A., 1853, **op.Cité**, P : 128.

(3) - T 2, Alger, 1854, (635 p.).

(4) - Rapport annuel, J.A., 1865, **op.Cité**, P : 46-48.

(5) - DOZY, **prolégomènes d'Ibn-Khaldoun**, texte Arabe publié, d'après les Manuscrits de la bibliothèque impériale par QUATREMERE, Paris, 3 volumes. Examen de texte et trad., J. A., 1869, **op.Cité**, P : 133.

(6) - DOZY, Prolégomènes d'Ibn-Khaldoun, traduits en français et commentés par DE SLANE, Paris, 1863-1868. 3 volumes, **J.A., 6^{me}** série, T 14, 1869, P : 133-213.

(7) - مؤلفات عبد الرحمن بن خلدون المغربي، الجزء 1، المقدمة، بولاق، 1857، (316 ص) أنظر :
- Rapport annuel, J.A., 1859, **op.Cité**, P : 29.

(8) - BELIN, Bibliographie Ottomane, **J.A.**, 6^{me} série, T 11, 1868, P : 467-471.

ونشر DOZY بليدن الجزء 4 من السلسلة التي أعطاها عنوان "كتب عربية" [1]. ويحتوي هذا الجزء على أهم مصادر تاريخ عرب اسبانيا وإفريقيا. وهي النشرة التي تحتوي على قسم كبير من "البيان المغرب" لا بن عذاري المراكشي [2] (745 - 794 هـ /1344 - 1392 م) [3].

ولعل ذلك كان تمهيدا لنشر كتاب "البيان المغرب" نفسه بعد سنوات قليلة من طرف DOZY، الذي قدم له بمقدمة صنف من ضمنها المؤرخين العرب باسبانيا وعرض اتجاهاتهم ومساوئهم مشيرا إلى المصادر الواجب العثور عليها [4].

ونشر CHERBONNEAU النص العربي مع ترجمة إلى الفرنسية لتاريخ إمارة بني حفص لأبي العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب القسنطيني المعروف بابن قنفذ [5] (740 - 810 هـ /1339 - 1407 م) وهو من مواليد قسنطينة. عثر المترجم على المخطوط بقسنطينة بفضل الشاب الطالب سي محمد بن الشيخ العباسي وعنوانه "الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" [6]، تناول فيه تاريخ بني حفص منذ ميلاد الإمام

---

(1) - DOZY, **Ouvrages arabes**, 4 me livraison, Leyde, 1849, (202 p.).

(2) - **ابن عذاري المراكشي:** أبو عبد الله، أندلسي الأصل من أهل مراكش. مؤرخ، من تآليفه: "البيان المُغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب" في ثلاثة أجزاء، وهو من أهم المراجع وأوثقها في موضوعه. — الزركلي، الأعلام، ج: 7، **مصدر سابق**، ص: 95.

(3) - Rapport annuel **J.A.**, 1851, **op.Cité**, P : 134.

(4) - Rapport Annuel du 13/06/1853, **J.A.**, 5 me série, T 2, 1853, P : 134.

(5) - **ابن قنفذ:** أحمد بن حسين بن علي بن الخطيب، أبو العباس القسنطيني (الجزائر). اشتهر بابن قنفذ وابن الخطيب. ولي قضاء قسنطينة ثم رحل إلى المغرب الأقصى فأقام 18 عاما. باحث، له علم بالتراجم والحديث والفلك والفرائض. من كتبه: "شرح الطالب في أسني المطالب" تراجم، و"الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية" في تاريخ بني حفص ألفه للأمير أبي فارس عبد العزيز المريني ونسبه إليه، و"الوفيات" وهو مختصر ذكر فيه بعض علماء المغرب، و"أنس الفقير وعز الحقير" في ترجمة الشيخ أبي مدين وأصحابه. — الزركلي، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 117.

(6) - **نفس المصدر السابق**، ص: 239. أنظر :

- النص العربي: - **J.A.**, 4 me série, T12, 1848, P : 239-245.

- وكذلك الترجمة إلى الفرنسية: **نفس المصدر السابق**، ص: 245 وما بعدها.

المهدي (461 هـ /1069 م) إلى غاية حكم الأمير أبي فارس الحفصي (804 هـ /1401 م)[1].

وأصدر BARGES ترجمة لكتاب "تاريخ ملوك تلمسان" لأحد فقهاء وأدباء تلمسان وهو الإمام سيدي أبو عبد الله بن عبد الجليل التنسي[2](توفي عام 899 هـ /1494 م)، وهو جليس أمراء بني زيان[3]. ومن خلال دراسة الآداب ببلاد السودان، خص CHERBONNEAU محمد المغيلي[4] ذي الأصول التلمسانية (المتوفى عام 909 هـ /1503 م)، الداعية وأستاذ الشريعة الإسلامية بالسودان، بدراسة سيرته ومؤلفاته[5].

وترجم ROUSSEAU، مقتطفات من تاريخ إمارة بني حفص لأبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي الزركشي[6]. ويغطي الكتاب فترة تمتد 367 سنة، تبدأ من

---

(1) - CHERBONNEAU, (public. Et trad.), "Histoire de la Dynasties des Beni Hafs" par Aboul-Abbas Ahmed el-Khatib, **J.A.**, 4 me série, T 12, 1848, P : 237.
- CHERBONNEAU, Trad. Et Notes, "Extrait de la Faresiade, ouvrage d'Ahmed El-Khatib», J.A., 4 me série, T 13, 1839, P : 168.

(2) - **التنسي**: محمد بن عبد الله. نسبته إلى "تنس" من أعمالها. مؤرخ، من فقهاء تلمسان وأدبائها. له: "نظم الدر العقيان في دولة آل زيان" و"راح الأرواح فيما قاله أبو حمو وقيل فيه من الأمداح" و"فهرسة" بأسماء مشايخه، و"فتاوى". ـ الزركلي، الأعلام، ج: 6، **مصدر سابق**، ص: 238.

(3) - BARGES, trad., **Histoire des Beni Zeiyan, rois de Tlemcen, par l'Imam cidi Abou Abdallah Moh'ammed Ibn abd el-Djelyl et-Tenessy,** Paris, 1852, (172 p.).
- أنظر: - Rapport annuel, J.A., 1853, **op.Cité**, P : 128.
- Rapport annuel, J.A., 1853, **op.Cité**, P : 128.

(4) - **المغيلي**: محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلي، من أهل تلمسان، توفي في توات. مفسر وفقيه. اشتهر بمناوأته اليهود وهدمه كنائسهم في توات. رحل إلى السودان وبلاد التكرور، لنشر أحكام الشرع وقواعده. له عدة كتب منها: "البدر المنير في علوم التفسير" و"التعريف، فيما يجب على الملوك" لعله رسالته المسماة "تاج الدين، فيما يجب على الملوك والسلاطين" و"أحكام أهل الذمة" و"شرح مختصر خليل" و"مفتاح النظر" في علم الحديث.
ـ الزركلي، الأعلام، ج: 6، **مصدر سابق**، ص: 216.

(5) - CHERBONNEAU, "Histoire de la littérature arabe au Soudan", **J.A., 5me** série, T 6, 1855 P : 391-398.

(6) - A. ROUSSEAU, "Extrait de l'Histoire de la dynastie des Beni Hafs, par Abou-Abdellah Mohammed ben Ibrahim El-lowlowi El-Zerkeschi", **J.A.**, 4me Série, T 13, 1849, P : 272-275.
- يعرف الكتاب بتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية.
ـ **اللؤلؤي**: (894 - 932 هـ /1488 - 1536 م) محمد بن إبراهيم بن لؤلؤ، المعروف بالزركشي، من أهل تونس. مؤرخ. له: "تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية" تنتهي حوادثه سنة 932 هـ.

حكم عبد الرحمن المهدي وتنتهي بحكم السلطان أبي عمرو عثمان الأمير العشرين من أمراء بني حفص [1] أي حتى عام 882 هـ/ 1477 م.

* * *

غطت اهتمامات مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين، جملة أيضا من وقائع وأحداث تتعلق بالفترة المتأخرة من عصور الانحطاط العربي والإسلامي أو الحديثة بالمصطلح الأوربي، الفترة الممتدة بين القرن 10 - 13 هـ /16 - 19 م. واشتملت أيضا على جملة أقل من الحوليات والسّير والوثائق والمراسلات...الخ. فقد جمع ROUSSEAU وأصدر بمدينة الجزائر الحوليات التونسية، بداية من حملة شارل الخامس عام 942 هـ/1535 م إلى القرن 13 هـ/19 م، معتمدا في ذلك على مصادر عربية وأوربية. وأدرج في ختام هذه الحوليات جملة من المعاهدات التي عقدت بين تونس والدول الأوربية [2]. كما نشر REINAUD المراسلات المتعلقة بموضوع إزاحة مولاي الحسن الحفصي بتونس وتدخل الأوربيين خلال الفترة بين 941 - 954 هـ /1534 - 1547 م [3]. والتفت CHERBONNEAU مرة أخرى إلى صحراء بلاد المغرب وجنوبها من خلال تاريخ الآداب العربية لبلاد السودان واعتمادا على شخص محمد أبي بكر باريرو التُنْبُكْتي (930 - 1002 هـ /1523 - 1593 م) كرجل علم وتعليم [4]. وفي موضوع آخر مكمل تناول CHERBONNEAU أحمد بابا [5] التنبكتي المعاصر للأول فعرف بجوانب من حياته ومؤلفاته [6].

---

(1) - الزركلي، الأعلام، ج: 5، **مصدر سابق**، ص: 302.
- ROUSSEAU, Lettre à M. REINAUD, Président de la société asiatique, Tunis le 15/12/1849, **J.A.**, 4 me série, T 13, 1849, P : 270.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1864, **op.Cité**, P : 57-58.

(3) - REINAUD, "Lettre inédite", **J.A.**, 6 me série, T 8, 1866, P : 267-268.

(4) - CHERBONNEAU, "Histoire" **J.A.**, 5 me série, T 6, 1855, P : 398-406.

(5) - **أحمد بابا**: السوداني أبو العباس، (963 - 1036 هـ /1556 - 1627 م) من أهل تنبكت في إفريقية الغربية (دولة مالي اليوم)، وتوفي بها. أصله من صنهاجة. من بيت علم وصلاح. عارض احتلال المراكشيين لبلدته "تنبكت" فقبض عليه وعلى أفراد أسرته واقتيد إلى مراكش سنة 1002 هـ، وظل معتقلا إلى سنة 1004، وأذن له بالعودة إلى وطنه. كان عالما بالحديث والفقه، شديدا في الحق لا يراعي أحدا. له عدة تصانيف منها: "نيل الابتهاج بتطريز الديباج" في تراجم المالكية، و"كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج" تراجم. وغيره. ــ الزركلي، مصدر سابق، ج: 1، ص: 102.

(6) - CHERBONNEAU, "Lettre à M. DEFREMERY sur Ahmed Baba le Tomboctien", **J.A.**, 5 me série, T 1, 1853, P : 94-100.

ومن كتاب الفترة أيضا أحمد بن محمد المقري[1] ، صاحب كتاب تاريخ الدويلات الإسلامية باسبانيا وسيرة لسان الدين بن الخطيب[2] المعروف "بنفح الطيب". والكتاب يعرض التاريخ السياسي والأدبي لإسبانيا. وكان قد بدأ نشر أجزاء منهDE GAYANGOS خلال الأربعينيات [3]. لكن رغبة المستشرقين في امتلاك النص الكامل للكتاب دفعتهم إلى تشكيل جمعية لنشره في الخمسينيات، فوزع العمل على أربعة مستشرقين، وهم: DOZY بليدن (هولندا) وDUGAT بباريس و WRIGHT بأكسفورد (انجلترا) وKREHL بدريسد (ألمانيا). ومع نهاية العام 1859 أنجز العمل [4] وكان نموذجا مشرفا للمستشرقين الأوربيين في مجال التعاون والتنسيق فيما بينهم [5].

---

(1) - **أحمد المقري**: أبو العباس التلمساني. (992 - 1041 هـ /1584 - 1631 م)، والمقري نسبة إلى مَقَّرة من قرى تلمسان، وقيل من مَقَّرَة القرية من المسيلة –أصل أسرته قبل الهجرة إلى تلمسان– ولد ونشأ في تلمسان، وانتقل إلى فاس، فكان خطيبها والقاضي بها. ومنها إلى القاهرة (1027 هـ)، وتنقل في الديار المصرية والشامية والحجازية، وتوفي بمصر، وقيل بالشام. مؤرخ، أديب وحافظ، صاحب "نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب"، 4 مجلدات في تاريخ الأندلس السياسي والأدبي. وله أيضا: "أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض" 4 أجزاء، و"روضة الأنس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من علماء مراكش وفاس"، وغيره.

— الزركلي، الأعلام، ج: 1، **مصدر سابق**، ص: 237.

(2) - **لسان الدين بن الخطيب**: الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله. ولد ونشأ بغرناطة (713 — 776 هـ /1313 — 1374 م). استوزره سلطانها أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل سنة 733 هـ ثم ابنه الغني بالله محمد، من بعده. وعظمت مكانته. فلما شعر بسعي حاسديه في الوشاية به، انتقل إلى تلمسان (773 هـ) وكان السلطان عبد العزيز بها، فأكرمه واستقر مع أهله وولده بفاس. وفي عهد السلطان المستنصر أحمد بن إبراهيم، وجهت لابن الخطيب تهمة "الزندقة" و"سلوك مذهب الفلاسفة" وأفتى بعض الفقهاء بقتله...وزير، مؤرخ، أديب ونبيل. تقع مؤلفاته في نحو ستين كتابا، منها: "الإحاطة في تاريخ غرناطة"...وعلى اسمه صنف المقري كتابه "نفح الطيب...".

— **نفس المصدر السابق**، ج: 6، ص: 235.

(3) - - Rapport annuel, J.A., 1844, **op. Cité,** P : 22-23.

- أنظر كذلك ترجمة عن المقري ضمن :

- Rapport annuel, J.A., 1855, **op. Cité,** P : 44.

(4) - - DOZY, DUGAT, KRAHC et WRIGHT, public., **Analectes sur l'Histoire des Arabes d'Espagne,** par Al-Makkari, volume 2 parties, 1, Leyde, 1858, (400 p.).

(5) - - Rapport annuel, J.A., 1859, **op. Cité,** P : 26-26.

وكان تاريخ إفريقية (تونس) لمحمد القيرواني (ق 11 هـ /17 م)، محل اهتمام PELLISSIER و REMUSATعضوي لجنة الاستكشاف العلمي للجزائر، وبأمر من الحكومة الفرنسية، قاما بترجمة الكتاب الذي يعطي وصفا لتونس وشمال إفريقيا على العموم، ثم تاريخ مختلف الإمارات التي حكمت تونس حتى عام 1681 م (1). وترجم FEREAUD ترجمة مختصرة كتاب العدواني الذي تدور أحداثه في صحراء قسنطينة وتونس، لاسيما في إقليم سوف منذ نحو الأربعة قرون قبل القرن 13 هـ / 19 م ويرسم حياة البدو هناك (2). وترجم CHERBONNEAU وعلق على مقطع من كتاب حولية الحاج حمودة بن عبد العزيز (حوالي نهاية القرن 12 هـ/ 18 م) "غزوة مراد باي الموجهة ضد قسنطينة ومدينة الجزائر" عام 1112 هـ / 1700 م، كما تناول فيه تاريخ بني حفص وحكومة الأتراك، ولذلك فقط تابع "المؤنس في أخبار أفريقية وتونس" لابن أبي دينار القيرواني (3).

ونشر OTTOCAR DE SCHLECHTA النص التركي لمخطوط يتعلق باحتلال مدينة الجزائر برواية حاجي أحمد أفندي (توفي عام 1861)، مع ترجمة إلى الفرنسية ويعتبر أحمد أفندي شاهد عيان وفاعلا في كل الأحداث التي يرويها، وهو من مواليد مدينة الجزائر (4).

---

(1) - E. PELLISSIER et REMUSAT, Trad., **Mohamed Ben-El-Raïni El-Kaïrouani, Histoire de l'Afrique**, Paris, 1845, (517 p.).

– هذا الكتاب هو الجزء السابع من السلسلة التي أصدرتها لجنة الاستكشاف العلمي للجزائر. أنظر:

- Rapport annuel, J.A., 1846, **op. Cité,** P : 24-25.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1870, **op. Cité,** P : 77-78.

– حقق د. سعد الله، **تاريخ العدواني**، ونشره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996.

— انظر عن العدواني وكتابه: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج: 2، **مصدر سابق**، ص: 331—333.

(3) - CHERBONNEAU, Trad. Et notes, "Expédition Mourad-Bey contre Constantine et Algérie 1112 H (1700), Fréquent extrait la chronique Arabe d'El-Hajd Hamouda Ben Abdel-Aziz", **J.A.**, 4 me série, T 18, 1851, P : 36-50.

— ابن أبي دينار: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، أبو عبد الله المعروف بابن دينار (توفي نحو 1110 هـ /1698 م). — الزركلي، الأعلام، ج: 7، مصدر سابق، ص: 6.

(4) - OTTOCAR DE SCHLECHTA, Trad. "La prise d'Alger, raconté par un algérien, Texte turc", **J.A.**, 5 me série, T 20, 1862, P : 320-340.

ما أن جثم الاحتلال على أرض الجزائر، حتى وضع بعض المستشرقين أنفسهم بمحض إرادتهم في خدمة الاحتلال، من خلال انجاز الأبحاث قصد مساعدته في حل المشكلات التي تعترض سبيل الإدارة الاستعمارية، ومن هؤلاء، الدكتور WORMS، الذي قام ببحوث في إشكالية فهم الملكية في الجزائر، للاستحواذ على الأرض وسلبها من أهلها [1].

ودرس VAYSSETTES تاريخ قسنطينة تحت حكم الأتراك، اعتمادا على كتاب صالح العنتري، وهو الكتاب الذي طبع بقسنطينة عام 1846 [2]. كما قدم DUGAT ترجمة وتعليقات عن كتاب "ذكرى العاقل وتنبيه الغافل" للأمير عبد القادر [3].

* * *

بهذا المبحث إذن، نكون قد أجبنا على جزئية من جزئيات الإشكالية، بوقوفنا على كيفية استكشاف وجرد قسم هام من تراث المنطقة، تكمن أهمية بعضه في كونه من أمهات المصادر التاريخية العربية-الإسلامية، حتى القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كما أسلفنا.

ولعل المؤسف كون هذا التراث، أهمله أهله وظل محل نسيان وضياع، مما جعل مصيره يكتنفه الغموض إذ كان عرضة لكل الاحتمالات.

- نشره بالعربية صلاح الدين المنجد عام 1962.

(1) - Dr. WORMS, "Recherches sur la constitution de la propriété", J.A., 1842, **op. Cité,** P : 225-236.

- وكذلك: - **J.A.,** 4 me série, T 3, 1844, P : 160-180.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1870, **op. Cité,** P : 78.

(3) - G. DUGAT, Trad., **Le livre d'Abdelkader, intitulé : Rappel à l'intelligent, vis a - avis à l'indifférent, considérations philosophiques, religieuses, et historiques…** Etc., par l'Emir Abd el kader, Paris, 1858, (p. 371).

- انظر: - Rapport annuel, J.A., 1858, **op. Cité,** P : 40-42.

قام المستشرقون الفرنسيون وغير الفرنسيين من الجيل الأول، بنفض الغبار على الجزء التاريخي الذي يهمنا هنا، ووقفوا على مضامينه ثم محتواه مخطوطاً بعد مخطوط وتصفحه بصعوبة لأن محتواه أحيانا كان في حالة من التدهور تبعث على الشك في مصيره، فاستكملوا ما نقص منه بالرحلة والاستكشاف والتقصي والمراسلات، وتجشموا الصعاب والمخاطر في سبيله، في أوربا وفي العالم الإسلامي أيضا، بشراء مخطوطاته تارة ونسخها أخرى، ثم دراستها ومقارنة نصوص بعضها ببعض، والتقديم لها والتعليق على وقائعها بالإضافات، وخدمتها بالفهارس ونحوها. ثم طبعها ونشرها لأول مرة، وبالتالي إنقاذ نصوصها على الأقل من التلف والضياع، والإهمال والنسيان.

ولقد اهتموا أيضا بترجمة مخطوطات عديدة، إلى لغات أوربا ومنها الفرنسية، وشرحها والتعليق عليها. ومن العناوين ما كان عملا موسوعيا. فضحوا بوقتهم الثمين وأموالهم الخاصة وأنفسهم في سبيل التعرف على الآخر من خلال التراث التاريخي لسكان بلاد المغرب ضمن شعوب الشرق، وباعتماد المستشرقين على أنفسهم.

كان المنطق علميا، كما أسلفنا، أي أن حركة إحياء التراث التاريخي لبلاد الشرق كانت من مقتضيات التطور العلمي بأوربا الذي كان فيه حاجة للاستفادة من تراث الغير قصد أغناء تراثهم به، وتوظيفه لأغراض سياسية وغير سياسية، مادامت القضية تدخل في معرفة الآخر معرفة علمية تساهم في الوقوف على مبادئ هذا الآخر وقوانينه قصد التحكم فيه، إن اقتضى الأمر.

لقد جرى هذا، في الوقت الذي كانت لا تزال الكثير من المخطوطات على رفوف المكتبات العامة ومكتبات الخواص في العالم الإسلامي، تغطيها طبقة كثيفة من الغبار، منذ عشرات الأجيال في بعض الجهات، ويتبرك بها البعض الآخر، ويجهلها الأكثر لأنهم كانوا لا يزالون يغطون في نوم عميق. فمن تحصيل الحاصل القول إذن، إن عملية معرفة المستشرقين لسكان بلاد المغرب تمت في ظل غياب وغيبوبة أهله، خلال جيل المستشرقين الأول على الأقل.

2- المحتوى الفكري-الثقافي والعلمي:

يهدف البحث الاستشراقي في مجال التاريخ، من بين ما يهـدف، إلى كـشف الستار عن تاريخ النوع البشري منذ القدم[1] لأجل هذا فإن الدراسـات التاريخيـة، الأدبية، اللغوية وغيرها، تلتقي في مقصد مشترك ألا وهو مساعدة المستشرقين على فهم الشرق[2] في شتى مناحي حياته الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والحضارية.

وكان تاريخ أوربا في العصور القديمة لا يزال مدينا حتى القـرن 19 م إلى آداب الشرق، بعد أن كانت حقائقه قد درست وفهمت من خلال المـشاعر والأحاسـيس الأفلاطونية-الإغريقية. وهي المشاعر التي كانت لا تزال في مرحلة طفولتـها في هـذا المجال [3]. ففي أحضان الشرق، إذن، ترقد أصول الرموز، ومبادئ الأفكار، وأشـكال اللغات، وقواعد العلوم القديمة على اختلاف تنوعها وتخصصها، حتى أن التاريخ العام أو العالمي، لم يكن جديرا بهذا الاسم إلى القرن 13 هـ /19 م، أي إلى أن وسـعت آداب الشرق من قاعدته ومنحته وسائل الفهم بتوسيع إطاره الذي أضحى يطـال مختلـف الشعوب التي مارست تأثيرا ما على مصائر الإنسانية من خلال المـساهمة في تطـوير حضارة ما.

فمع تطور الدراسات الاستشراقية إذن، ما فتئت وقائع الحـضارات وطبيعـة السلالات البشرية وتطورها تحتل مكانة لائقة، وحتى الشعوب التي لم تؤثر مباشـرة في مصير أوربا، أضحت ضمن اهتمامها، وبدأت تأخذ مكانها الرسمي في التاريخ بفـضل الاستشراق، بعد أن كانت مقصاة من الأوربيين لأنهم تكونوا خارج تأثيرهم.

---

(1) - Rapport annuel, J.A. , 1849, **op. Cité,** P : 11.

(2) – هذا موقف Mohl، رئيس تحرير المجلة الآسيوية وكاتبها، ردا على مقال:

- G. DUGAT, "Observation sur les mémoires d'histoire orientale", J.A., 1855, **op. Cité,** P : 55.

(3) - Rapport annuel , J.A. , 1857, **op. Cité,** P : 27.

لقد صار من مقتضيات الدراسات الاستشراقية، أن تُدَرَّس لأوربا التنظيمات الاجتماعية لشعوب الشرق بالقدر الكافي من العناية والاهتمام(1).

هكذا إذن، أضحى من الواجب، في منطق أوربا القرن 19 م، الذي هو من وحي عصر الاستنارة لأوربا القرن 18 م، تعميم الاستفادة من مصادر آداب الشرق التي تعد عضدا أساسيا للعلوم التاريخية بالمعنى الأوسع للكلمة (2).

* * *

يعود الفضل إلى الفينيقيين الذين أدخلوا بلاد المغرب في العصور التاريخية. ولذلك فإن المستشرقين يعتبرون بداية العهد القرطاجي (814 ق.م.)، كما أسلفنا، بداية انتماء شمال إفريقيا إلى الشرق، ومنه بداية موضوع الاستشراق الخاص بالمنطقة [3]. كما أن الفضل يعود إلى الفينيقيين أيضا، في نشر الديانة المتسمة بالعقيدة التوحيدية [4].

وفيما يتعلق بوفود القبائل البربرية إلى بلاد المغرب، يتفق المستشرق HALEVY مع DE MEYNARD على مجيئهم من المشرق ولكنهما يختلفان من حيث المنطلق. ففيما يذهب الأول إلى أنهم جاؤوا من اليمن[5]، يتبنى الثاني ما ذهب إليه ابن خرداذبيه[6] ومن قبله البكري والمسعودي وابن حوقل، من أن البربر وفدوا إلى بلاد المغرب من فلسطين حيث كانوا يخضعون إلى الملك جالوت؛ فلما قَتَل داود (عليه السلام) جالوت[7]، هاجروا نحو بلاد المغرب، ووصلوا إلى أرض لوبية ومراقية، ومنها انتشروا.

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص :27-28.

(2) – **نفس المصدر**، ص: 28، وكذلك:

- Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 27.

(3) – هذا ما ذهب إليه HANOTAUX في دراسته: "محاولة في نحو التماشق" (التوارق)، انظر :

- Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 74.

(4) – - Rapport annuel , J. A., 1868, **op. Cité**, P : 73.

(5) - انظر الفصل الأول.

(6) ــ ابن خرداذبيه: عبيد الله بن أحمد، أبو القاسم (حوالي 205 ــ 280 هـ /820 ــ 893 م). فارسي الأصل، من أهل بغداد. مؤرخ وجغرافي. له عدة تصانيف منها: "المسالك والممالك".

ــ الزركلي، مصدر سابق، ج: 4، ص: 190.

(7) - القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية 251.

أما قبائل زناته[1] وضريسة فقطنوا الجبال. وتوقفت قبائل لواتة ببرقة، المدينة التي يطلق عليها الإغريق اسم انطابولوس[2]. في حين سكنت قبائل هوارة إياس أو طرابلس [3].

ثم توزع البربر إلى أن وصلوا إلى السوس الأدنى. وكانوا لا يهوون الإقامة في المدن، فاستقروا في الجبال ووسط السهول الرملية [4]، لطبيعتهم البدوية والرعوية[5].

وقد أحصى ابن خرداذبيه وكذلك المسعودي القبائل البربرية فذكرا منها: هوارة، زناتة، ضريسة، مغيلة، ورفجومة وهي فرع من نفزة، أوليتة، مطماطة، صنهاجة، وهارة، كتامة، لواتة، ميزاتة، مديونة، مصمودة، غمارة، كلماه، ورغة، أصاح، بني صخور، أركينة، بني كملان، بني مسدوران، بني ونجان، بني منحوسة (متوسة) [6].

وأما المستشرق AUCAPITAINE، فيدعي إيراد كلام ابن خلدون، وما هو بكلام ابن خلدون، ذلك أنه يقسم أصول قبائل البربر إلى كتاميين (زواوة) المنحدرين من مُضر والمنتشرين في المنحدر الشمالي لجبال جرجرة، وصنهاجيين (مليكش) المنحدرين من برنس بن بُرْ والمنتشرين في المنحدر الجنوبي، وجنوب الصحراء [7].

وبالرغم من اتفاق مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين الفرنسيتين حول الأصول الشرقية للبربر، أو على الأقل انتمائهم إلى الشرق بداية من القرن الثاني عشر قبل الميلاد –كما أسلفنا– فإن HANOTAUX يذهب إلى أن لسان التماشق، وهو الاسم الذي تطلقه قبائل الصحراء (التوارق) على لسانها البربري –أو الإيموشان وهم القسم البدوي

---

(1) - انظر عن أصل قبائل زناتة، مبحث مصطلحات ومفاهيم من هذا الكتاب.

(2) — تعني بالإغريقية المدن الخمس.

(3) — أي المدن الثلاث.

(4) — DE MEYNARD, "Le livre des routes et des provinces", J. A., 1865, **op. Cité**, P : 462-463.

(5) - AUCAPITAINE, "Etude sur l'origine et l'histoire", J. A., 1859, **op. Cité**, P : 273.

(6) - DE MEYNARD, "Le livre des routes et des provinces", J. A., 1865, **op. Cité**, P : 462.

(7) - AUCAPITAINE, "Etude sur l'origine et l'histoire", J. A., 1859 **op. Cité**, P : 274-278.

— انظر ابن خلدون، تاريخ العلامة، **مصدر سابق**، ج: 12، ص: 175— 178.

للسلالة البربرية– ليس لغة شرقية بالمفهوم الدقيق للكلمة؛ وكذلك اللسان البربري القبائلي، لقبائل الحضر الذين يشكلون القسم الثاني للسلالة البربرية.

وفيما استمر استعمال اللسانين في مجال التخاطب، يستفاد من كلام المستشرقين أن كلا اللسانين حافظ على تميزه بالرغم من احتكاكه باللغة العربية [1]. كما أن كلا اللسانين أيضا، لم يُتبن في الدوائر الرسمية، لا في الكتابة ولا في التدوين عبر العصور [2]، الأمر الذي نتج عنه انعدام تراث مكتوب باللسان البربري. وفي مقابل هذا هناك تراث مغاربي مكتوب باللغة العربية. والسبب في ذلك تبني البربر حكاما ومحكومين اللغة العربية كلغة حضارة منذ العهود الأولى للفتح الإسلامي سواء في التواصل والتخاطب بين الأفراد والجماعات، أم في الدوائر الرسمية، أو في تدوين الكتب العلمية، ومختلف الآداب الأخرى.

هكذا إذن، ظل اللسان البربري صالحا للتخاطب فيما بين العامة دون أن يرقى إلى اللغة الحضارية. ولم يحدث أن تباهى به أهله ولا أبدعوا فيه ولا به كما حدث في اللغة العربية منذ ما قبل الإسلام من خلال شعر المعلقات مثلا، التي جاء القرآن معجزا ومتحديا لأهلها المتباهين بها. وقد اعتبر ديوان عنترة لوحده مضاهيا لإبداعات أمم عبر العصور. فهو يرقى باعتراف المستشرقين الفرنسيين أنفسهم إلى مصاف المنتجات الأدبية للعقل البشري. فللإغريق الإلياذة (L'Eliade)، والأوديسة (L'Odyssée) وللآتين إنيد (L'Eneide) وللإيطاليين الكوميديا الإلهية(La Divine Comédie) ورولان الساخط (Le Roland Furieux) والقدس المحررة، وللإنجليز الجنة المفقودة (Le Paradis Perdu) وللألمان نيوبلينجن (Niebelunger) ولاميسياد (La Messiade) ، وللبرتغاليين لوسياد (La Luciade) ، وللإسبان لاروكانا (L'Araucana) وللصينيين

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité,** P : 74.

(2) - AUCAPITAINE, "Etude sur l'origine et l'histoire", J. A., 1895, **op. Cité,** P : 266.

صان كيوتشي(Le San-Koué-Tchi) ، وللهنود المهابهاراتـــا(Le Mahabharata) ، وللفرس الشاهنامه (Le Chah-nameh) ، وللعرب عنترة (1) (Antar).

هذا بالرغم من أن HANOTAUX ادعى أنه يمتلك هيكلا للسان البربري، وتنبأ أن الأبحاث الإثنية ستسفر عن نتائج في هذا المجال تخص سكان الـــصحراء [2]. إلا أن شيئا من هذا لم يتحقق، خلال الفترة التي تعنينا على الأقل.

كان العنصر العربي محل اهتمام المستشرقين أيضا، لاسيما عرب ما قبل الإســـلام، مادامو قد احتلوا الصدارة فيما بعد، وكذلك بعض البطون العربية القاطنة ببلاد القبائل خلال العصور المتأخرة. ومن المعلوم أن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء مجـــيء العـــرب المسلمين إلى بلاد المغرب، في الفتوحات الإسلامية الأولى، لم تكن دعوة الـــسكان إلى الإسلام بقدر ما كان الهدف تكسير القوة البيزنطية المهيمنة على المنطقة، حماية للحدود الغربية للدولة الإسلامية الفتية [3].

ولما كانت نفس القوة التي دخل المسلمون في حرب معها تمتد إلى بلاد المغـــرب وما وراءها، فقد امتد الصراع إلى المنطقة وجاء الفاتحون في سياق هذا الصراع بالذات. لأجل هذا لم تكن الحملة العربية-الإسلامية الأولى هي التي فرضت على قبائـــل زواوة، مثلا، المعتقدات الإسلامية، لأن هذه الحملة مرت إلى الجنوب من بـــلاد القبائـــل دون اقتحامها. فحملات عقبة بن نافع [4] وموسى بن نصير جـــرت بـــسهوب الـــصحراء

---

(1) - HAMMER-PURGSTALL , " Bibliographie ", J. A., 1853, **op. Cité,** P : 9.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité,** P : 75.

(3) – انظر حقيقة الصراع الإسلامي-البيزنطي وجوهره ضمن:

-DE SLANE, Trad.,"Histoire de la province du Maghrib d'En-Noweiri" J. A., 1841, **op. Cité,** PP : 97-131.

(4) ــ **عقبة بن نافع:** بن عبد القيس الأموي القرشي الفهري (1 ق.هـــ. – 63 هــ /621 – 683 م). فاتح من كبار القادة في صدر الإسلام. هو باني مدينة القيروان. شهد فتح مصر، وكان ابن خالة عمرو بن العاص، فوجهه عمرو إلى إفريقية عام 42 هـــ واليا، فافتتح كثيرا من تخوم السودان وكورها في طريقه. وعلا ذكره، فولاه معاوية إفريقية استقلالا سنة 50 هـــ، وسير إليه عشرة آلاف فارس... عزله معاوية سنة 55 هـــ، فعاد إلى المشرق. ولما توفي معاوية بعثه يزيد واليا على المغرب سنة 62 هـــ. فقصد القيروان ، وخرج منها بجيش كثيف، ففتح حصونا ومدنا. وصالحه أهل فزان، فسار إلى الزاب وتاهرت. وتقدم إلى المغرب الأقصى، فبلغ المحيط الأطلسي، وعاد. فلما كان في تهودة (من أرض الزاب) تقدمته العساكر إلى القيروان، وبقي في عدد قليل، فطمع به الفرنج، فأطبقوا عليه، فقتلوه ومن معه. ودفن بالزاب. ـــ الزركلي، الأعلام، ج: 4، مصدر سابق، ص: 241.

الصغرى[1] ، وكما تقتضيه أيضا طبيعة الجيوش العربية المشكلة في مجملها من الفرسان. كما أن الحاميات الأولى التي أقامها الفاتحون فيما بعد، للمحافظة على سيطرتهم على المنطقة، تدرجت أساسا عبر الإقليم الصحراوي، بسكرة، مسيلة، تيهرت، وتلمسان. وكانت سطيف المركز الوحيد الذي اقترب من جرجرة.

لأجل هذا إذن، اعتنق بربر بلاد القبائل –على سبيل المثال– الديانة الإسلامية، كما يذكر AUCAPITAINE، كرها في المسيحية، التي يدين بها البيزنطيون المهيمنون السابقون على المنطقة. لكن نفس المستشرق يرى أن تحمس السكان للإسلام كان محدودا، بدليل أن معرفتهم له كانت سطحية، إذ تقتصر، في نظره، على التعاليم الأولية للقرآن، وكان المرابطون وحدهم، خلال القرون المتأخرة، يحافظون عليه بالتعليم الديني. ويخلص إلى أن الديانة الحقيقية لهؤلاء "الجبليين"، هي العمل، والحرية والاستقلال، بسبب ذهنيتهم التحررية [2]. فحتى الذين حملوا السلاح باسم الدين (الإسلامي) أحيانا، يخفون وراء ذلك، في نظره، سببا حقيقيا آخر هو التحرر من السلطة الدينية. ويدلل على هذا بأمثلة، كحمل قواوة سلاح ثورة الخارجي أبي يزيد[3] خلال القرن 4 هـ /10 م وغيره [4].

إن انتشار المذهب الخارجي في بعض المناطق من بلاد المغرب، يعود في نظر AUCAPITAINE، إلى السبب نفسه. لأجل هذا، ينتهي إلى أن قبائل زواوة حافظت

---

[1] – **موسى بن نصير**: بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي، أبو عبد الرحمن (19 – 97 هـ /640 – 715 م)، فاتح الأندلس. أصله من وادي القرى (بالحجاز)، كان أبوه نصير على حرس معاوية. ونشأ في دمشق، وولي غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص وبنى بها حصونا. كان على خراج البصرة في عهد الحجاج، وغزا إفريقية في ولاية عبد العزيز بن مروان. ولما آلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك، ولاه إفريقية الشمالية وما وراءها من المغرب سنة 88 هـ، فأقام في القيروان، ووجه ابنيه عبد الله ومروان فأخضعا له من بأطراف البلاد من البربر. واستعمل مولاه طارق بن زياد على، وأمره بغزو شواطئ أوربا... وكان موسى شجاعا عاقلا كريما تقيا، لم يهزم له جيش قط. أما سياسته في البلاد التي تم فتحها، فكانت قائمة على إطلاق الحرية الدينية لأهلها، وإبقاء أملاكهم وقضائهم في أيديهم، ومنحهم الاستقلال الداخلي على أن يؤدوا جزية كانت تختلف بين خمس الدخل وعشره (أي أقل مما كانوا يدفعونه لحكومة القوط). ـــ **نفس المصدر السابق**، ج: 7، ص: 330– 331.

[2] ـــ لعله بهذا يبرر مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي وثوراتهم المتعددة المتزامنة مع كتابة ونشر "أوكابيتان" لمقاله هنا.

[3] ـــ انظر تعريفا له ضمن المبحث السابق.

[4] ـــ - AUCAPITAINE, "Etude sur l'origine…", J.A., 1859, **op. Cité,** P :285-286.

على استقلالها حتى وصول الأتراك (العثمانيين) [1]. والواقع أن هـذا الـزعم منـاف للحقيقة ذلك أن المذهب الخارجي على الخصوص في بلاد المغرب، لا يعكس فتورا في الدين والتدين بقدر ما يعكس ربما غلوا فيه.

أما المرابطون الذين كان لهم حضور في مناطق عديدة، في القرون المتأخرة، فقـد كانوا يمارسون تأثيرا كبيرا على البربر الذين يقطنون حواليهم. وكـان لمـشاركتهم في الانتخاب السنوي لشيوخ القبائل وزن كبير. كما كان وجودهم في مجلـس الجماعـة يخبئ تحت برانيسهم تباشير السلم أو نذر الحرب، وبذلك فهم يشكلون طبقة مرجحة، فعالة ويحظون باحترام فائق. فهم المؤتمنون، وهم الذين يأوي إليهم المـسافر، وسـط سكان يعيشون حسب هذا المصدر في نزاع دائم، فيما بينهم !! [2].

كان المرابطون يمارسون، فضلا عما سبق، دور المحافظة على الدين، من خـلال التعليم القرآني على الخصوص. و لم يكن هناك، تقريبا، اندماج بينهم وبـين العنـصر البربري. ومع ذلك فإن العنصر الأخير تغير تبعا لعلاقته بهؤلاء، وهو تغير بدا خاصة في اللسان من خلال تبنيهم للعربية كلغة اتصال وتفاهم وكتابة، لاسيما وأنها لغة العقيـدة والتدين.

لقد اهتم المستشرقون الفرنسيون بكل أسباب مجيء الإسلام، وضم بلاد المغرب إلى نطاق البلاد الإسلامية الأخرى، إلا أن السبب الاستراتيجي الذي ذكرناه آنفا، أكثر إقناعا، وتحفيزا لتتبع قوى الظلم والطغيان التي تقف في وجه انتشار الإسلام.

وحاول بعض المستشرقين التهوين من وقائع الفتوحات الإسلامية، لاسيما ما رواه المسلمون من بطولات وأمجاد، تدفعها العقيدة والإيمان في نفس المؤمن، الأمر الذي جعل المستشرقين يتحاملون على هذه الروايات ويرجعونها إلى الخرافات والأساطير التي سلى بها العرب أنفسهم فيما بعد بزخرفتها بأوهام وأباطيل وقصص من صـنع الخيـال أو مغامرات غير محتملة الوقوع، لاسيما الغزوات الأولى، التي تـشكل العهـد البطـولي،

---

[1] - نفس المصدر السابق، ص: 280-283.

[2] - نفس المصدر، ص: 265-266.

والذهبي، للفتوحات الإسلامية، التي حققت انتصارات مذهلة، في ظرف زمني قصير، وعلى امتداد قارات، وبساطة الإمكانيات.

كان من الطبيعي إذن، أن يتعلق خيال الشعوب، بأوقات المجد والانتصارات الرائعة. ولكن هؤلاء المستشرقين يعيبون على الكتاب المسلمين كونهم زينوا الحوادث وزخرفوها بقصص خيالية ووهمية. وهم مع ذلك يستثنون اعتدال ورصانة كتاب الحوليات الأوائل الذين تتصف شهادتهم بالصدق خلافا للقصص أو الروايات التي كتبت فيما بعد، وأنتجت أدبا غزيرا، موضوعه (الفتوحات) الإسلامية [1]، وهو ما يصدق على الفتوحات عموما.

وبالرغم من أن الكتاب المسلمين ذكروا مصادرهم، التي طغى عليها في البداية أسماء الرواة وخضوعهم، وفق مقتضيات عصر التدوين، إلى ما عرف بمنهج الجرح والتعديل، إلا أن المستشرقين استثقلوا قوائم الرواة، واستغربوها، وشككوا في مصداقية هذا النوع من المصادر أيضا !! [2].

ولعل قلة المصادر، ثم التشكيك في مصداقية روايات الفتوحات الإسلامية، سواء في سندها (الرواة)، أم في متنها، (أي نصوصها) المبالغ فيها، في نظرهم، هو الذي حدا ببعضهم إلى أن حكموا على فترة الفتوحات، في بلاد المغرب، أنها أكثر الفترات غموضا في تاريخ خضوع المنطقة إلى الخلافة [3].

لكن بعض المستشرقين الآخرين -دائما في نطاق الفتوحات- اهتموا بالفاتحين العرب واعترفوا بشجاعتهم وكفاءتهم في فن القتال، ودرسوا أدوات القتال الدفاعية والهجومية لديهم، كما تتبعوا التآليف العربية في فن الحرب [4]. وكما درسوا أيضا،

---

(1) - Rapport annuel, J.A., 1855, **op. Cité**, P : 33-34.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1861, **op. Cité**, P : 31.

- انظر قضية الجرح والتعديل، مدلولها ومصادرها ضمن **الفصل الثالث**، ص: 184.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 30.

(4) - REINAUD, "De l'Art militaire chez les Arabes de Moyen- Age", **J.A., 4me** série, T12, 1848, P : 193-230.

الفروسية العربية، وذهنية العرب القتالية، لاسيما خلال القرنين الهجريين الأولين [1].

لعله من الصعب التصديق أن اهتمام هؤلاء المستشرقين بالفتوحات والفاتحين، كان بريئا، أي أن مرده إلى مجرد الفضول العلمي! لأنه أثناء تناول الموضوع، كانت مقاومة الجزائريين بقيادة الأمير عبد القادر[2]، لجيش الاحتلال الفرنسي محتدمة، وهي المقاومة التي -وإن كانت أسلحتها متواضعة- إلا أن أهميتها تكمن في الصمود في وجه جيش منظم، مدرب ومسلح، يملك خبرة في الحروب والقتال، ومع ذلك فقد صمدت المقاومة قرابة نصف جيل، وهي التي أثارت مشاعر الكتاب، لاسيما المستشرقون منهم، للبحث في خلفياتها البعيدة.

كما أن من دلائل عدم التسليم ببراءة تناول هذا الموضوع بالذات، هو مساهمة ضباط عسكريين فرنسيين فيه، ومنهم، نقيب سلاح المدفعية FAVE، الذي استعان بـ REINAUD، في دراسة تاريخ بارود سلاح المدفعية، أو طلقات النار في الحرب. وقد انتهى FAVE في دراسته إلى أن ملح البارود اخترعه الصينيون، وأن العرب اقتبسوه منهم وطوروا تطبيقاته، فاخترعوا الأسلحة النارية (القاذفة)، وهي غير المدفعية، بمعنى

---

(1) - HAMMER-PURGSTALL, "Sur la chevalerie des Arabes antérieurs à celle de l'Europe", **J.A.**, 4 me série, T13, 1861, P : 9-14.

(2) ــ **الأمير عبد القادر**: بن محي الدين بن مصطفى الحسني (1222 – 1300 هـ /1807 – 1883 م). ولد بالقيطنة وتعلم بوهران. حج مع أبيه سنة 1241 هـ، فزار المدينة ودمشق وبغداد. ولما احتل الفرنسيون الجزائر عام 1246 هـ / 1830 م بايعه الجزائريون وولوه القيام بأمر الجهاد، فقاتل الفرنسيين 15 عاما، ضرب أثناءها نقودا، وأنشأ معامل للأسلحة والأدوات الحربية وملابس الجند. وكان في معاركه يتقدم جيشه ببسالة. فلما سلك الفرنسيون بقيادة بيجو سياسة الأرض المحروقة، وهادن سلطان المغرب عبد الرحمن بن هشام الفرنسيين بعد ضغوط عليه، ضعف أمر عبد القادر، فاشترط شروطا للاستسلام رضي بها الفرنسيون، وكان ذلك عام 1263 هـ /1847 م. من آثاره العلمية: "تنبيه الغافل وذكرى العاقل" رسالة في العلوم والأخلاق، و"المواقف" في علم التصوف في 3 أجزاء، و"المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد، و"ديوان شعره" وغيره. - الزركلي، **مصدر سابق**، ج: 4، ص: 54-46. أنظر كذلك: - البغدادي، هدية العارفين، **مصدر سابق**، ج: 5، ص: 605. و كذلك:

- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة د. أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس، 1974.

- محمد بن الأمير عبد القادر، **تحفة الزائر**، ط 2، دمشق، 1964.

استعمال أسلوب تفجير ملح البارود، الذي اكتشف فيما بعد في أوربا نحو نهاية القرن 7 هـ /13 م [1].

وأما أول استعمال لبارود الرمي كقوة دافعة من طرف المسلمين، فيعود إلى النصف الأول من القرن 8 هـ /14 م [2].

* * *

تُعد ظاهرة الخلافة[3] في الإسلام، في نظر المستشرقين الفرنسيين، أحد أكبر الحوادث في التاريخ الإنساني، لاعتبارات عديدة، منها: توسع (إمبراطورية) العرب، وتكسير القوى المستبدة –لا الحضارات القديمة، كما يحاول المستشرقون الفرنسيون تصويره– وبذلك فقد ساهمت الخلافة في تغيير الحالة الاجتماعية لنصف أكثر المناطق ثراء في المجال الثقافي. وبالرغم من أن الخلافة انتهت منذ نحو من ستة قرون، قبل موضوعنا، فإن الطاقة الحضارية التي تولدت عنها والتي طبعت البلاد الإسلامية، بلغت حدا جعل بقاياها تستمر إلى القرن 13 هـ /19 م.

فمن (فتوحات) إلى حكم دام ستة قرون، وتطور حضارة بأكملها من خلال ما أحدثته من تغييرات في سلوكيات وطبائع كثير من الشعوب التي شملتها، إلى معايشة الشعوب مبادئ وأشكالا إدارية جديدة مارست تأثيرها على أوضاع المقاطعات والأقاليم، وعلى نظام الملكية، والحكومة المدنية، والقوانين، وكل مصالح الشعوب التي طالتها هذه الحضارة [4].

لأجل هذا اعتبر المستشرقون الفرنسيون الخلافة، حدثا فريدا في تاريخ العالم من الصعب مقارنته من الناحية الزمنية إلا بالإمبراطورية الرومانية، ومن الناحية الروحية إلا بالبابوية. وإذا كانت المقارنة مقبولة في الشكل فإنها مرفوضة في الجوهر، بل يمكن

---

(1) - Rapport annuel, J.A., 1845, **op. Cité**, P : 26-27.

(2) - REINAUD et FAVE, "Du feu grégeois, et des feux de guerre", J.A., 1849, **op. Cité**, P : 257-327.

(3) ـ انظر عن الخلافة الإسلامية:

– ابن خلدون، مقدمة العلامة، **مصدر سابق**، ص: 130ـ166.

(4) - Rapport annuel, J.A., 1845, **op. Cité**, P : 26-27.

اعتبارها مقارنة مجحفة في حق الخلافة الإسلامية، لأن الإمبراطورية الرومانية امتازت بثقافة السيطرة والطغيان واستغلال الشعوب، بخلاف الخلافة الإسلامية التي اقتصرت في البداية على تحطيم النظم المستبدة، وتركت للشعوب الحرية في ممارسة الحياة بمجاليها الديني والدنيوي. وكذلك الشأن بالنسبة للبابوية كما أسلفنا [1].

ومهما يكن تناول المستشرقين لموضوع الخلافة، فإنهم كانوا يرون أن الصورة الحقيقية والنهائية للخلافة، لم تكتمل بعد -أثناء الفترة التي تعنينا على الأقل- رغم أن أدوات كتابة تاريخها كانت متوفرة. فهناك الأخبار التاريخية العامة، والخاصة منها بالمقاطعات والأقاليم والمدن، وهناك سير أشهر رجالها، ودواوين الشعراء وشراحهم، ومجاميع القوانين، والقرارات الرسمية، ومؤلفات العلم والعقيدة...الخ.

صحيح أن عددا من أهم النقاط تم تناولها بقليل أو كثير من التفصيل، إلا أنه لا يكاد يمر الشهر إلا ويظهر هنا وهناك في أوربا كتاب يضيف جديدا إلى أدوات كتابة تاريخ كامل وشامل للخلافة. وبالرغم من الجهود المبذولة في هذا الشأن، فلا يشكل ذلك إلا قسما صغيرا من مصادر تاريخ الخلافة الإسلامية، وما بقي منه، فقد كان لا يزال موزعا على مكتبات أوربا والشرق [2].

والجدير بالملاحظة أن المثقفين الفرنسيين خلال المرحلة التي تعنينا، كانوا غير منسجمين فيما يتعلق بتاريخ المنطقة، ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه كثير من المستشرقين الفرنسيين، ينقبون عن تاريخ الخلافة والحضارة الإسلاميتين -كما أسلفنا- كان بعض كتابهم ومثقفيهم، لاسيما الساسة منهم رافعين لواء الحضارة الأوربية، ملوحين بنشر "رسالتها"، ولكنهم كانوا يمارسون ثقافة الغزو الوحشي، ثقافة السيطرة الرومانية، ويتعاملون مع المجتمع الجزائري على أنه "مجتمع متبربر".

---

(1) - انظر : الفصل الخاص بالناحية الدينية.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1846, **op. Cité**, P : 18.

لقد عد مؤلف WEIL حول "تاريخ الخلافة ببغداد"، إلى منتصف القـــرن 19 م، أول تاريخ كامل، لاسيما وأنه تعرض لعهد ازدهار الخلافة الإسلامية وإشراقها، عهـــد بلغت فيه قوة العرب والمسلمين وثقافتهم وآدابهم ذروتها [1].

وبالرغم أن المؤلف لا يعالج إلا تاريخ وسياسة الخلافة [2]، فقد كتب اعتمـــادا على المصادر الأصلية، وقابل المؤلفين بعضهم ببعض. وانتقد الوقائع، واعتـــرض علـــى بعضها، والحجج مذكورة، لكن ذلك كله كان وفق مقتضيات النقد الأوربي.

كان المستشرقون يأملون في رؤية الخلافة وهي تعالج من جوانـــب أخـــرى، لعلها أهم في نظرهم، كالناحية الاجتماعية، ذات المؤسسات التي صمدت طـــوال عصر الانحطاط، وبقيت تمارس تأثيرا فعالا على العالم، كما أسلفنا، وكذلك إدارة الخلافة، والحياة الأدبية والمعنوية التي تركت عليها البلاد التي خضعت لها، وكـــذا علاقات السلطة الدنيوية والدينية، وتنظيم المدارس، والتعليم، وأشكال سن القوانين وإصدارها، والملل والطوائف، وكل مناحي الحياة الداخلية مما يـــشكل في مجملـــه الحضارة الخاصة بأمة عظيمة (الأمة الإسلامية) [3]. صحيح أن هناك دراســـات أحادية لبعض هذه المواضيع، إلا أنه لم يحدث أن حاول المستشرقون الفرنـــسيون انجاز عمل كامل متكامل [4].

وقد جر "الفضول العلمي" جملة من رجال الاستشراق الفرنـــسي، أمثـــال: DE SACY، DE PERCEVAL، CHERBONNEAU، FREMERY DE، وغيرهم، لدراسة موضوع الانشقاق والمنشقين في تاريخ الخلافة الإســـلامية، منـــذ عهدها الأول، واعتبروا ثورة المتنبئين –الذين أغوتهم السهولة التي بها "فرض" محمـــد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ عقيدته على قبائل بلاد العرب– بمثابة طرح للإسلام ثانيـــة على بساط البحث. ومن الأحداث التي يشيرون إليها، اعتراف نجد واليمن واليمامة،

---

(1) - Rapport annuel, J.A., 1848, **op. Cité**, P : 103-104.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1846, **op. Cité**, P : 19.

(3) - Rapport annuel, J.A., 1851 **op. Cité**, P : 124-125 .

(4) - **نفس المصدر السابق**، ص : 125.

بسلطة طليحة بن خويلد[1]، والأسود الأنسي ومسيلمة الكذاب. فكان أن حث مالك بن نويرة[2] أمير يربوع، قبائل الصحراء على رفض تأدية الزكاة والعشر لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، ووقعت حروب الردة التي قمعت بشدة بقيادة خالد بن الوليد [3].

وكان عبد الله بن وهب[4]، المعروف بابن السوداء السبئي، سببا في الثورة على عثمان (رضي الله عنه)، وهو الذي سيظهر مجددا في عهد علي، واعتبر أول من ادعى أن محمدا ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ أوصى بالإمامة لعلي، وأن عليا سيعود إلى الدنيا بعد مقتله. ومن ابن سبأ هذا أخذت جل فرق الروافض أصلها، وإليه تعود عقيدة اختفاء الإمام، وتناسخ الأرواح، ومسألة عصمة الأئمة...الخ [5] وينتسب الكماليون إلى أبي الكامل الذي يصم الإمام علي (رضي الله عنه) بالكفر "لأنه لم يرفع السلاح للدفاع عن حقوقه ضد الخلفاء الثلاثة الأوائل" [6].

وفوق هذا وذاك، تحول الإمام علي في حياته، إلى موضوع إجلال من طائفة الشيعة الذين تبنوا —على حسابه— آراء مبالغا فيها، فلما علم بها غضب عليهم، وعاقب من كانوا يعتقدون بهذه المعتقدات المخالفة للصواب[7].

---

(1) ـــ **طليحة الأسدي**: بن خويلد، من أسد خزيمة (توفي عام 21 هـ /642 م). متنبي، شجاع، من الفصحاء، يقال له "طليحة الكذاب". قدم على النبي (صلى الله عليه وسلم) في وفد بني أسد، سنة 9 هـ، وأسلموا. ولما رجعوا ارتد طليحة، وادعى النبوة، في حياة رسول الله. أسلم في عهد عمر (رضي الله عنه)، وحسن بلاؤه في الفتوح، واستشهد بنهاوند. - الزركلي، **مصدر سابق**، ج: 3، ص: 230.

(2) ـــ **مالك بن نويرة**: بن جمرة بن شداد اليربوعي التميمي، أبو حنظلة (توفي عام 12 هـ /624 م). أدرك الإسلام وأسلم وولاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صدقات قومه (بني يربوع)، ولما صارت الخلافة إلى أبي بكر (رضي الله عنه) اضطرب مال في أموال الصدقات وفرقها. وقيل ارتد، فقبض عليه خالد بن الوليد وأمر ضرار بن الأزور الأسدي، فقتله. - **نفس المصدر السابق**، ج: 5، ص: 267.

(3) - CAUSSIN DE PERCEVAL, **"Essai sur l'histoire des Arabes"**, T III, P : 30 à 313.

(4) ـــ **عبد الله بن وهب**: بن زمعة بن الأسود، الأسدي القرشي (توفي عام 35 هـ /656 م). صحابي من الشعراء، أسلم يوم الفتح (8 هـ) وقتل في المدينة، يوم حوصر الخليفة عثمان (رضي الله عنه) في داره.
- الزركلي، الأعلام، ج: 4، **مصدر سابق**، ص: 143.

(5) - C. DEFREMERY, "Essai sur l'Histoire des Ismaéliens", J. A., 5me, T : 8, P : 355.

(6) - **نفس المصدر السابق**، ص: 355.

(7) - **نفس المصدر**، ص: 355.

وفي هذه الفترة ظهر الخوارج أيضا، وهم يكفرون صاحب الخطيئة أو المعصية ويجيزون الخروج على الإمام ومقاتلته. وطبقوا عقيدتهم هذه أول ما طبقوها مع الإمام علي (رضي الله عنه)، حين رضي بالتحكيم لآبي موسى الأشعري، وعمرو بن العاص. وحاربهم الإمام علي وقضى على نحو من الأربعة آلاف بنهروان على ضفاف دجلة، و لم يخمد انشقاقهم، كما لم يهدأ بال من تبقى من الناجين منهم، حتى تمكن أحدهم من الانتقام لأصحابه بقتل الإمام علي بمسجد الكوفة، كما هو معلوم [1].

وفي حياة الصحابة (رضوان الله عليهم)، بدأ التعاطي مع عقيدة القدر، مما سيولد فيما بعد، مذهب أو فرقة المعتزلة، والفروع العديدة التي تفرعت عنها، وهم يتفقون على العموم في تتريه الله عن الصفات، ويركزون على إبعاد كل ما من شأنه أن يمس بعقيدة التوحيد... وفي مقالاتهم أيضا، الاعتقاد بخلق القرآن... الخ [2].

ومع نهاية القرن الهجري الأول، ظهرت فرقة الجهمية[3]، نسبة إلى الجهم بن صفوان الترمذي، الذي يرفض أي صفة لله، ويؤمن بخلق القرآن، وعدم رؤية الله يوم القيامة. وظهرت فكرة التجسيم في نهاية القرن الهجري الثاني، وصاحبها محمد بن كرام، ضد المعتزلة الذين يؤولون الصفات. وأما في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، فظهرت فرقة القرامطة، وامتازت بسرعة تطورها والنجاحات التي حققتها على حساب خلفاء بني العباس، بالرغم من أنها فرقة إسماعيلية مغالية [4].

كانت هذه إذن، أرضية الخلاف والانشقاق، وهي خلفيات لابد منها لفهم مجريات الأحداث والوقائع اللاحقة، إذ بدأت دينية، ولكنها سرعان ما طالت الحياة السياسية، وأدى التضييق على أصحابها في المشرق إلى انتقالهم أو انتقال أفكارهم إلى مناطق بعيدة عن الخلافة الإسلامية، فجاء إلى بلاد المغرب تارة بعض المنشقين، وتارة أخرى تبنى غيرهم أفكارهم، وشجعوا على شق عصى الطاعة على الخلافة ببغداد، أو على الولاة ببلاد المغرب.

---

(1) – **نفس المصدر**، ص: 355.

(2) – **نفس المصدر**، ص: 354.

(3) – نسبة إلى **جهم بن صفوان** السمرقندي (توفي عام 128 هـ /745 م).

(4) - DEFREMERY, "Essai sur l'histoire", 1856, **op cité**, P : 357.

فهذا جد الأغلب -على سبيل المثال- تميز بالخدمات التي قدمها للعباسيين أولا في خراسان، ثم في افريقية، و لم يكن ابنه إبراهيم أقل وفاء حين كان أميرا على إقليم الزاب، ومُعيَّنا كوال على إقليم افريقية، خدم أيضا الخليفة، ومع هذا تحولت السلطة عند الأغالبة إلى وراثية.

وأدى الصراع المذهبي مع الشيعة إلى تضييق الخناق عليهم، فانتقل أحد العلويين إلى المغرب الأقصى وأسس دولة الأدارسة. وتكونت دولة الأمويين بالأندلس [1]. ثم قيام الدولة الفاطمية، فالزيريون، فالصنهاجيون.

وبلغ مذهب الخوارج بلاد المغرب فاعتنقه بعض السكان المهيئين للتمرد والردة، على ما يذهب إليه المستشرقون، ثم تعلموا التمرد على السلطة دون الخروج عن الإسلام [2]، كما سلك خوارج الأوراس بقيادة أبي يزيد مخلد بن قداد، الذي ظل لفترة يقف في وجه الخلفاء العبيديين بجيش بلغ تعداده أحيانا، ثمانين ألف فارس، كما يثبت البكري [3].

ومن الواضح أن الانشقاق، يعد مظهرا من مظاهر ضعف الخلافة الإسلامية. ويعود السبب في ذلك إلى اعتبارات عديدة، منها امتداد رقعة الخلافة الإسلامية، الأمر الذي جعل الحكم المركزي الفعال مستحيلا. لكن الخطر الخارجي المتمثل في الحروب الصليبية، هو في اعتقادنا مظهر آخر من مظاهر الضعف، لكنه لم يكن حاسما، إذ استرد قلب العالم الإسلامي عافيته إلى حين.

وقد شكلت الحروب الصليبية اهتماما فائقا لدى المستشرقين الفرنسيين. ولا غرابة في ذلك، إذ تزامن الاهتمام مع بداية احتلال فرنسا للجزائر، فكأنها تذكير للأوربيين على العموم والفرنسيين على الخصوص بهذه الحروب، مستحثة إياهم على

---

(1) - DE SLANE, Trad., "Description de l'Afrique par Ibn-Haucal", **J.A., 3me** série, T 18, 1851, P: 124-125.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص :154.

(3) - CHERBONNEAU, Trad., "Documentation inédits sur l'Hérétique Abou Yazid Mokhalled Ibn-Kidad de Tademket", **J.A.**, 4 me série, T 20, 1852, P: 470-471.

تكرارها، لاسيما وأن الاحتلال لم يكن يغلق الباب في وجه باقي الأوربيين ممن يرغب في الاستيطان.

كان مشهد الحروب الصليبية مهيبا، وأثره في نفوس المسلمين بالغا، على اعتبار أنه تهديد مباشر لإحدى البقاع والمساجد المقدسة لدى المسلمين. بدأ ذلك باقتناع الأمم المسيحية بأوربا وإيمانها الراسخ بضرورة افتكاك هذه البقاع المقدسة لديهم أيضا، من المسلمين. واجتاحتهم النزعة العدوانية، التي لم يعودوا يتنفسون تحت وطأتها غير رائحة المعارك، وأشيع أن الأماكن التي تفجرت فيها أسرار الدين (المسيحي)، هي تحت سلطة المسلمين (الكفار).

لقد علا صوت من جبال "البيريني" إلى "الأودر"[1] ومن النرويج إلى صقلية، يحث كل القادرين على حمل السلاح أن يتهيأوا للمعركة. وقد وقف في المقدمة، الملوك والأمراء والسلاطين والسادة والأساقفة. ومن كانت لهم أموال ضحوا بها، ومنهم من ضحى بقصور أسلافه في سبيل توفير الأموال [2].

لقد روج بعضهم أن قيام الساعة آن أوانه، وأن الطريق إلى قدس الدنيا مؤداه مباشرة إلى قدس الآخرة. فرغب آلاف الصليبيين في المشاركة، من مختلف الأعمار والأجناس والمستويات، معتقدين اعتقادا جازما أن العناية السماوية ترعاهم في مسعاهم هذا. فلا الأنهار الجارية، ولا الجبال الشاهقة، ولا الغابات الكثيفة، ولا الشعوب الشرسة تقوى على إيقافهم، أو هكذا اعتقدوا. ورغم أن البرد والمجاعة وسلاح عدوهم نال منهم نيلا عظيما، إلا أن الذين عاشوا، واصلوا طريقهم، تحت راية وشعار "هذا ما أراده الله"، ونجحوا في نيل مبتغاهم إلى حين [3].

إنه لمن الإنصاف القول إن رغبة، بعض المستشرقين الفرنسيين، في نشر مؤلفات مؤرخي الحروب الصليبية العرب، رغبة علمية محضة، إذ كان غرض هؤلاء، الاطلاع على شهادات كتاب الحوليات من الشرقيين العرب، ويعود السبب في ذلك – في

---

(1) – نهر يقع بين ألمانيا وبولندا، يصب في بحر البلطيق.

(2) – REINAUD, "Notion sur les chroniques orientales", N. J. A., 1834, op. Cité, P : 553.

(3) – نفس المصدر السابق، ص : 553.

نظرهم- إلى كون كتاب الحوليات الغربيين، اهتموا بإبراز الأيام المشرقة للحروب الصليبية، ومن الممكن -في نظرهم أيضا- أن يكونوا قد أخطأوا في تدوين بعض الوقائع، في أوقات كانت العقول المتدينة في كامل قواها وتحمسها، بينما الاتصالات بين مختلف أجزاء الكرة الأرضية محدودة، بل نادرة، الأمر الذي جعل هؤلاء الكتاب عرضة لأن يكونوا قد جهلوا كثيرا من الأحداث المهمة فبقيت كتابتهم تتخللها فجوات، يمكن أن تكمل أو تصحح من خلال مؤرخي الحروب الصليبية العرب [2].

ولعل أمثال هؤلاء المستشرقين، هم منصفون أيضا من باب إقرارهم أن الكتابات العربية لا تخلو من الفوائد، لاسيما ما يتعلق بالقرون الأولى للإسلام، باعتبارها تخضع لمنهج نقل صحيح وتمحيص، مثلا في عملية تدوين الأحاديث (النبوية الشريفة) الشفهية، التي كانت تشكل إحدى قواعد الإيمان والتشريع، مما حدا بالمسلمين إلى العناية بها والسهر عليها.

فلا غرابة إذن، إن عثرنا على مؤرخين عرب، وكتاب سير متأخرين، يولون اهتماما للتعريف بالشخصيات التي كانت السبب في رواية الحديث (الشريف)، ونقله إلى الأجيال اللاحقة، وهو الاهتمام الذي اعتبروه مُتَقّفا وموسعا لاطلاع الكتاب المتأخرين، ما دام الرواة من ابرز الصحابة، الذين تحولوا في القرون الموالية إلى شيوخ وأساتذة من خلال قوائم أسمائهم الملازمة لمروياتهم (الأسانيد) [2].

لكن مستشرقين آخرين، اعتبروا منهج الإسناد في الكتابة والتدوين، عقيما إذ ظل يسيطر، في نظرهم، على فكر العرب والمسلمين لفترة طويلة، مشكلا مدرسة صارت في مجال تاريخ الأفكار مكبلة للفكر بمجموعة من الصيغ والنماذج عبروا عنها بالسكولاستيكية العربية [3].

---

(1) - نفس **المصدر السابق**، ص : 556.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1843, **op. Cité**, P : 504-505 .

(3) - انظر تعريفا سابقا ضمن **التمهيد**، ص: 20.

والواقع أنهم لا يخفون كون هذه السكولاستيكية هي إسقاط للسكولاستيكية المسيحية، ذات الطبعة العقيمة لصور ونماذج التفكير الفردي أو الشخصي، وهي شكل وحيد يسمح لهم بها زمانهم، لوضع ومناقشة مختلف المسائل والقضايا الفلسفية [1].

وفيما اعتبر المستشرقون الفرنسيون، السكولاستيكية الأوربية عقيمة، وأن أوربا تمكنت من تكسير أغلالها، وهو السر الذي قرر تفوقها، فإن العالم الإسلامي، في نظرهم، كان لا يزال إلى القرن 13 هـ /19 م أسيرا لها، وهي سر انحطاطه. وقد اعتبروا في نفس السياق، تقريبا، أن الوليد بن رشد (450 – 520 هـ /1058 – 1126 م)، هو آخر السكولاستيكيين العرب. ورغم أنه سابق لانحطاط الدراسات الفلسفية لدى المسلمين، إلا أنهم يقرون أن مؤلفاته كان لها صدى في أوربا أكثر منها في العالم الإسلامي. وقد بدأ تأثيره منذ قام إمبراطور ألمانيا "فريديريك الثاني" (1194 – 1250 م) بتعريف مسيحيي أوربا به، ثم ترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية والعبرية، وكانت حتى عصر النهضة موضع اهتمام ودراسات ومناقشات حادة في أوربا كاملها [2].

وإذا سلمنا ببعض تأثيرات "السكولاستيكية" في المجال الفكري الفلسفي على الخصوص، مما يمكن اعتباره بمثابة بذور الانحطاط، الذي انطلق فيما يبدو، منذ تخاصم المسلمون حول مسألة الأولوية بين العقل والنقل، بين الفكر والنص فإن هناك ما يكمل هذه المسالة بل ويعمقها في مجال ما يهمنا من الفكر التاريخي الذي اعتبر ابن خلدون من خلال مقدمته كفاصل بين عهدين متميزين ومتناقضين، إذ عد معلما من معالم الحضارة الإسلامية. فهو يشكل نهاية للبقية الباقية من تطورها الفكري، بعد أن كانت الحضارة العربية الإسلامية قد تجاوزت ذروتها منذ مدة، وهو في نفس الوقت يعد متقدما كثيرا عن الفكر الأوربي المعاصر، والذي في الحقيقة يشكل أسا من أسسه، ذلك أن ابن خلدون هو الذي وضع قواعد النقد التاريخي، التي من شأنها ضبط الأحداث والوقائع، كما بحث السنن والقوانين التي تحكم التطور، وتتحكم في مصير

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 136.

(2) - **نفس المصدر السابق،** ص : 137.

السلالات البشرية [1]، قبل MONTESQUIEU في "روح القوانين"(L'Esprit des lois) بقرون خلت. لأجل هذا اعتبر المستشرقون الفرنسيون فكر ابن خلدون، فكـرا أوربيا خالصا (!)، لأنه يضاهي به فكر القرن 19 م فضلا عن أنه يسبقه [2]. فهو أول محاولة في فلسفة التاريخ، لم يحدث أن كتبت قبله، فضلا عن أنه محاولة أيضا لتأسـيس علم الاجتماع، وهو بهذا يكشف عن قوة في التفكير والتأمل [3].

إن المسلمة التي مفادها أن التاريخ هو أبو العلوم، وأن الفلسفة هي أمها، متأتية، في اعتقادنا، من كون التاريخ يشمل كل العلوم على اعتبار أن دراسة كل علم لا يعدو كونه دراسة لتاريخ ذلك العلم، أي مجال طرق اكتسابه، وبذلك فإن كل العلوم تلتقي في طرق اكتسابها وتختلف في المعارف الخاصة بكل علم، مع العلم أن كـل المعـارف تلتقي في أن لها عمقا وجوهرا، وهذا العمق هو صميم الفلسفة. وهكذا إذن، ومن هذه الزاوية، يشكل التاريخ البعد الزماني للعلوم المختلفة، فيما تشكل الفلسفة بعد العمق إذ تُعنى بجوهر الأشياء. ولذلك فإن التاريخ والفلسفة، من هذه الزاوية، علمـان يكمـل أحدهما الآخر، ويعملان على ترسيخ العلوم وتعميقها في شتى أبعادها. فإذا حدث وأن غابت الفلسفة والتاريخ في مسار حضارة ما، فإن ذلك يعني أن مختلف العلوم أصيبت في أبعادها. مما ينعكس سلبا على مسار الحضارة التي ستفقد بدورها أبعادهـا، فتجـف وتتجمد وتتقلص وتنحط.

ولعل هذه الحقيقة هي التي نشهدها في العالم الإسلامي منذ أمد بعيد، لاسيما في مرحلة الانحطاط. إنها ظاهرة تولدت عن تخلي المسلمين -لأسباب أشرنا إليهـا- عـن الفلسفة وفق منهج أو مدرسة ابن رشد، وعن التاريخ لاسيما وفق مفهوم القـوانين أو المنهج الذي خطه ابن خلدون أو رسم معالمه [4].

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 47.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 23-24.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 132.

(4) - لو حدث ذلك لتنبه المسلمون ربما إلى هذين العاملين، ولجاز لنا القول إنه، حتى وإن أخفقوا في بعث حضارة راقية من جديد، منذ زمن ابن خلدون، لأمكنهم، على الأقل، توقيف الانهيار وتفادي طول ليل الانحطاط وعمقه، مما يحول منذ مدة، دون محاولات التطور عبر أجيال، ومن خلال محاولات الإصلاح والنهوض المتكررة.

ويكفي للدلالة على غياب الفلسفة والتاريخ، في عهود الانحطاط أن نعقد مقارنة بسيطة بين المعارف التي تلقاها إسماعيل أبو الفداء، على سبيل المثال، بعد تخطي مرحلة أوج الحضارة: كالفقه وأصول الفقه وتفسير القرآن والنحو واللغة، والآداب والتاريخ وعلم الفلك والمنطق والفلسفة والطب [1]، والمعارف التي تلقاها أحمد بابا التمبكتي، ومنها الفقه والأصول والحديث والسنة والعقيدة وتفسير القرآن والتصوف والنحو والعروض، والمنطق والتنجيم... الخ [2].

كانت هذه الظاهرة يتقاطع فيها المغاربة والمشارقة على حد سواء. ففي ظل المحنة التي ألمت بالمسلمين في الأندلس، وتأسفهم على ضياعها، فإن الدروس اليومية التي موضوعها أحاديث صحيح البخاري، والتي كان يلقيها أحمد المقري صاحب "نفح الطيب"، كان روادها يعدون بالآلاف. وأما أحاديثه في المساء عن الأمجاد السياسية والأدبية لعرب الأندلس، ومؤلفات الوزير والمؤرخ لسان الدين بن الخطيب فلم يكن يتجاوز روادها أصدقاءه [3].

كاد التعليم في العالم العربي إذن، أن يقتصر على المواد الدينية واللغوية. وليس هذا عيبا في ذاته، ولا منطلقه. والقرآن الكريم والسنة النبوية يزخران أيضا بالمبادئ والصور التي تستثير الانتباه وتبعث على التأمل، لكن لا ينبغي أن تشكل البداية والنهاية، لأن تاريخ المسلمين وغير المسلمين بعد نزول الوحي ووفاة الرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ مليء بالعبر، وهو جدير بالدراسة أيضا.

ولعل غياب أم العلوم (الفلسفة) وأبي العلوم (التاريخ) من البرامج، كان أحد الأسباب التي نحت بالتعليم وأصحابه نحو الدجل، وتسرب التنجيم والتصوف البدعي وغيره من عوامل الانحطاط.

---

(1) - DE PERCEVAL, "Histoire de la littérature", **J. A.**, 3 me série, T : 10, 1840, P : 360.

(2) - CHERBONNEAU, "Histoire de la littérature arabe au SoudanV, **J. A.**, 5 me série, T 6, 1855, P : 404.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 44.

إن العهد الذي جاء بعد غزو المغول للمشرق وسقوط الموحدين ببلاد المغرب، يمكن أن يقارن بعهد (Les Alexandrias)، حين كان هناك انحطاط سياسي تام في الأمة، متبوعا بشوق إلى الأدب، فلا تخلو الكتابات من النقائص أو العيوب الملازمة لعهد أدبي مماثل. ولا غرابة أن تتفشى نزعة التجميع أو التقميش والانتحال، وتهيمن على الكتابات العربية، وإذا كانت هناك خلال حميدة لهذه الذهنية فهي أن هؤلاء الكتاب حافظوا على النصوص الأصلية، المنقولة على خيرة الكتاب القدماء، الذين انقرضت أو أتلفت مؤلفاتهم في النكبة التي أعقبت غزو المغول وهيمنتهم على بلاد الشرق [1]. أو أهملت، وضاعت إثر سقوط دول وانحطاط شعوبها.

لقد بدا هذا النوع من العبقرية العربية المتأخرة والمنهكة، وكأنها تدفع ما تبقى لديها من نشاط، من خلال الميل المفرط إلى التجميع أو التصنيف أو التقميش، ومن خلال المختصرات والشروح. واحتل الذوق الرديء في الإنتاج مكانا، على حساب تقاليد الأدب المحض. كما تركت الأفكار الفلسفية العميقة مكانها إلى النقاش الفلسفي البارد. وأخيرا تخلى العلم عن الفخر المرتبط بالاختراعات الجديدة وولع بالثروات المكتسبة، والموروثة، معتقدا أنه بلغ درجة قصوى في التطور [2]. وساد قانون يكاد يحكم الجميع مفاده أن "ليس في الإمكان أبدع مما كان".

وإذا كانت هذه الأمور قد سيطرت على العقول والذهنيات منذ قرون، فلا غرابة أن يعقبها تسارع في الانحطاط خلال العهد العثماني، لأن العثمانيين لم يكونوا يهتمون لا بالعلم ولا بالثقافة، لاعتبارات عديدة [3]، ولذلك فقد حكم المستشرقون على الفترة العثمانية بأنها عهد الصمت في مجال الآداب المغاربية [4].

وقد فسر بعضهم، مقاومة الجزائريين للاحتلال الفرنسي، من زاوية "الانحطاط والتعصب الديني" الذي هب على المنطقة وأجج نار الحرب المقدسة على فرنسا،

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité**, P : 109.

(2) - BARGES, Trad., "Histoire du Nil bienfaisant", J. A., 1846, **op. Cité**, P : 485-486.

(3) - أنظر: سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، **مصدر سابق**، ص:18-19.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1870, **op. Cité**, P : 478.

واعتبروا ذلك مخالفا لذهنية السكان الذين كادوا، في نظرهم، أن يتوقفوا عـــن كـــونهم مسلمين منذ القرن 10 هـــ /16 م لما أبدوه من لامبالاة في المجال الـــديني [1]. وهـــم يلاحظون في نفس الأثناء، أن الذهنية الأفريقية القديمة الممزوجة بذهنية بداوة العرب قبل الإسلام، كانت لا تزال تتعايش، خلال القرن 19 في الجزائر، في شكلها الأصيل. أمـــا الإسلام فلم يعد، في نظرهم، يشكل سوى طبقة سطحية بلا تأثير!! [2]. والواقـــع أن هذا الزعم لفريق من المستشرقين متناقض ومحجوج، إذ لا يعقل أن تتعايش قبائل كانت أصلا قبل الإسلام، غير متعايشة، بل كانت تتصارع وتتطاحن فيما بينها، هنا وهنـــاك، ناهيك أن تتعايش في كيان واحد، بغير الإسلام.

لقد كان الإسلام ولا يزال حتى القرن 19 م، ولو كان يمارس ممارسة فطرية، هو العامل الأساسي في حياة سكان المنطقة وتعايش مختلف الأعراق فيها. وكان مبدأ الجهاد في سبيل الله (وهو مطلب شرعي) المحرك الأساسي والرئيسي للمقاومـــة منـــذ بدايـــة الاحتلال الفرنسي للجزائر، كما كان حاضرا وأساسيا في كل الثورات الـــتي أعقبـــت المقاومة.

ويذهب فريق آخر من المستشرقين، يؤازره في ذلك بعض قادة جيش الاحـــتلال ومسؤولي الإدارة الاستعمارية، من الذين وقفوا ميدانيا على واقع الجزائـــريين الـــديني والاجتماعي، إلى أن الجزائريين في مطلع الاحتلال، كانوا لا يزالون أوفياء لنبيهم محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، وكانوا يتفادون من لا يشاركهم في العقيدة الإسلامية. كما كانوا (أي الجزائريين) يموهون للتغطية على المؤسسات الدينية والسياسية لفترة ما قبـــل الاحتلال. وكان سخطهم على الأتراك، قد انتقل إلى حقد على فرنسا، لاســـيما مـــن ناحية كونها أجنبية بكفرها [3]. ويخلص المستشرق WORMS، الذي كان يعبر عـــن هذا التيار الحاقد إلى التساؤل: من أين للفرنسيين أن يستقوا معلوماتهم عـــن الجزائـــر

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص : 77.

(2) - **نفس المصدر**، ص : 78.

(3) - Dr. WORMS, "Recherche sur la constitution", J. A., 1842, **op. Cité**, P :234-235.

والسكان، في ظل هذا الحقد ؟ ويجيب على ذلك بقوله إنه لن يتأتى إلا اعتمادا على نصوص الشريعة الإسلامية ومبادئها المدونة في القرآن (الكريم) والسنة (النبوية) [1].

وكان حقد WORMS، الدكتور في الطب، شديدا على الجزائريين لمقاومتهم فرنسا، وجزعه كبيرا على سلطات الاحتلال لأنها، في اعتقاده، لم تستعمل القوة الكافية ضد الجزائريين.

لقد كان WORMS إذن، محقا بالفعل في أن الشريعة الإسلامية، على بساطة ما بقي يطبق منها، في الجزائر مطلع الاحتلال، وهي عينها، بالفعل أيضا، التي شكلت حصنا منيعا لجأ إليه الجزائريون للحيلولة دون الذوبان أو الانقراض، بالرغم من شتى وسائل الترغيب والترهيب التي جربتها معها فرنسا خلال قرن وثلث.

(1) - نفس المصدر السابق، ص: 235-236.

3- نظرة نقدية (منهجية النقد لدى المستشرقين ونقد منهجيتهم)

إن المتأمل، المتمعن في الفعل الاستشراقي في مجال التاريخ، يخلص إلى أن مردوده ضخم. وقد شمل الأشخاص والأفكار والأشياء، أي نخبا فكرية بإنتاجهم وتآليفهم وكذا المضمون الفكري للإنتاج وطرق ووسائل ومناهج إنتاجه.

لقد نهل مستشرقو الجمعية والمجلة الفرنسية الآسيويتين من الأصول وأمهات المصادر مما يسمى عندهم (Ouvrages de fonds)، المكتوبة أحيانا بخط المؤلف نفسه، وفي نُسَخ طبق الأصل، وقرؤوها، أحيانا، في خطها الغامض وحلوا رموزها. وكانت في شكل وقائع وأخبار، كتبها مدونو أخبار، أو حوليات ذات وقائع مسرودة عاما بعام كتبها مؤرخو وقائع. فوقفوا بذلك، أحيانا، على شهود عيان، تارة كانوا حتى فقهاء، أو منتحلون، أو معلقون، أو كتاب حواشي وشراح.

وقد تعاملوا مع التراث بعد الاطلاع على فهارسه، في شكل أبحاث ومحاولات، أو إسهامات، وبالنقل والنسخ أحيانا، والمقارنة أو المقابلة بين نصوصه، وأحيان أخرى، جاء في شكل ملخصات ومواجيز، وباقتطاع أجزاء أو مستندات ووثائق، أو مقتطفات تاريخية، وخلاصات، وقصص وحكايات، جلها أعمال لمؤرخين ونتاجهم، والتعرض لها بالشرح والتعليق والنقد والتعييب، وبالتوطأة لها والتمهيد. واعتمادا على علم قراءة النصوص القديمة، ومحسنات الأسلوب بإدخال علامات الوقف عليها وما إلى ذلك.

وتجدر الملاحظة في البداية إلى أن قراءة المستشرقين الفرنسيين لتاريخ بلاد المغرب العربي تم في نطاق انتمائه العربي-الإسلامي والشرقي. لكن وفق مقتضيات ووسائل النقد الذي توصل إليه الأوربيون في القرن 19 م، أي من منظور عصر الاستنارة، مما جعل أحكامهم على الأشخاص والمؤلفات والأفكار والمناهج، بقدر ما هي علمية، بحكم استفادتها من النهضة، لاسيما إحياء التراث الإغريقي-اليوناني-الروماني، هي قاسية أحيانا، لأنها فاقت القدرات والإمكانيات والتصورات، إذ لكل مقام مقال ولكل زمان رجال ولكل ظرف مقتضياته. على أنه بقدر ما اتصف به هذا المنهج من قساوة

وسلبية أحيانا، في النظرة والتصور، والتعامل والتطرق، فإن من إيجابياته تفعيل التراث التاريخي العربي الإسلامي، من خلال إخضاعه لقراءة حديثة، وفق مقتضيات بحث علمي متخصص وجديد. ولكن يجب أن يفهم ذلك على أنه مجرد محاولة قابلة للتغيير والتبديل، وأحكامها ليست نهائية، بل مجرد اجتهاد علمي، حقائقه مؤقتة، تؤخذ وترد.

لعل أول ما يعاب على الفعل الاستشراقي في مجال التاريخ، وفق النظرة الجديدة، استمرار وفائه لقاعدة تعامل الاستشراق التقليدي من حيث تغيير المصطلحات وتحديد أسماء الأعلام والأماكن.

صحيح أن عناوين المؤلفات مثلا، وردت في أصلها العربي تارة، وبأحرف لاتينية لكن مع أصلها تارة أخرى. لكنهم غيروها أثناء العرض والتعليق، والنقد والتلفيق، فأضحى اسم محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ على سبيل المثال "ماهومي"(Mahomet) ، وابن باجة "أفومباس" (Avempace)، وابن سينا "أفيسان"(Avicenne) ، وابن رشد "أفيروس"(Averroès). كما تحولت الخلافة الإسلامية، في مفهوم المستشرقين، إلى إمبراطورية عربية، والعثمانيون إلى أتراك، والأندلس إلى إسبانيا، وبلاد المغرب إلى شمال إفريقيا... الخ.

كان الفعل الاستشراقي، في بداية المرحلة التي تعنينا، يقتصر على المراجعة أو البحث في مؤلفات عربية محدودة، وغير عربية. ولكنه تطور خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن 19 م، من خلال مستشرقين أمثال: MUIR, LEES, SPRENGER, DE PERCEVAL, WEIL HAMMER DE وغيرهم، بتأليفهم كتبا عن بدايات الإسلام، وفق قواعد معينة، كما أسلفنا، وبالعودة إلى المصادر والأصول القديمة، التي كان المسلمون قد انكبوا على تأليفها خلال عصر التدوين، فجمعوا موادها ووثائقها الأصيلة وفق منهج نقدي، كان بمثابة الضمان ضد غلو الغالين وانتحال المبطلين.

ولقد شكلت مؤلفات القرون الأولى للهجرة كما هائلا، وكان الاحتفاظ بها جادا، لولا ما اعتراها من ضياع وإهمال خلال القرون اللاحقة. وكانت هذه المؤلفات

مصادر لغيرها من التصانيف والمختصرات والشروح التي تخللها التعصب والجهل، في نظر المستشرقين، اللذين ارتبطا بالأساطير والخرافات، على حساب الاعتدال والتحفظ والرصانة، ثم أعقب ذلك فساد الذوق خلال عصور الانحطاط[1].

وقد ألزم المستشرقون الفرنسيون أنفسهم، خلال الجيل الأول، على الأقل، بإنقاذ ما تبقى من هذه المؤلفات. وقد شمل مجال البحث عنها الرقعة الجغرافية التي طالتها الخلافة الإسلامية عبر العصور وتأثيرها المباشر الممتد من الأندلس والمغرب الأقصى حتى حدود الصين، حيث انتشرت المكتبات التي كان الكتاب الأساسي فيها هو الكتاب العربي.

لم تكن شساعة الرقعة الجغرافية التي طالها البحث لتثبط عزائمهم، بل كان ذلك عندهم يبعث على التفاؤل، بغرض استكشاف ما لا يحصى من الكتب، مما كان يبدو ضائعا في ركام المكتبات، التي لا حصر لها[2].

وكان المستشرقون الفرنسيون قد توقعوا أن عملية استكمال استكشاف تراث الشرق لن تقل مدتها عن قرنين إلى ثلاثة قرون، قياسا بالمدة التي استغرقوها في استكشاف التراث الإغريقي-اليوناني-الروماني، مع الفارق الكبير لأن المهمة هنا لا تقتصر على التراث العربي الإسلامي، بل تراث الشرق بمفهومه الواسع.

حاول المستشرقون تدريجيا، إخضاع تراث الشرق في عمومه، للنقد الأوربي. فبرزت فروع وأقسام دراسات لم يكن قد أنجز فيها شيء من قبل، إن لم تكن في الأدب بمعنى الكلمة، فهي على الأقل في السلالات (l'Ethnographie) وعلم اللسانيات (Science du langage) من مثل الأبحاث عن لغات سكان جزر اندونيسيا التي اقتفى أثرها الهولنديون مثلا، واللغة الفنلندية والسيبيرية التي شجع البحث فيها الحكومة الروسية[3]. وقد أوردنا هذا ليس من فضول الكلام ولا من نافلة القول، ولكن حتى لا تطغى علينا نظرية المؤامرة الموهوسين بها في غالب الأحوال، بطغيان الاعتقاد أننا

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1856, **op. Cité**, P : 28-29.

(2) – **نفس المصدر السابق**، ص: 29.

(3) - Rapport annuel, J.A., 1862, **op. Cité**, P : 31 .

الوحيدين عرضة لهذا النوع من الأبحاث التي تهدف إلى التفريق فيما بيننا وتمزيقنا دون سوانا.

وقد اعتبر المستشرقون الجهود الرامية إلى استكشاف تراث الشرق من الأهمية بمكان، إذ هي بالنسبة للتاريخ العالمي، بمثابة المرصد في علم الفلك، أو المجهر في العلوم الطبيعية. لأنها تمكن من استبدال، تصورات قديمة خاطئة، وضيقة الأفق، بوقائع جديدة أكثر دقة. فجل العلوم التاريخية والعقدية واللغوية والفلسفية وغيرها، أدركها التأثير، بما فيها الآداب، ولو بسرعة قليلة وعمق أقل.

لقد آن أوان وضع جديد لا يقاوم[1]، والعلوم ملزمة بقبوله في كل الأحوال، ولو كان المستجد يناقض الأفكار الإيجابية المقتنع بها من قبل، ولو هدم أيضا مذاهب أُعتيد النظر إليها باحترام. وكان من المحتمل أن يستمر الوضع المدة التي سيستغرقها الكشف عن وقائع وملاحظات جديدة. فالمجال واسع والطرق والوسائل اكتشفت، والفضول العلمي أستثير، ولا مناص من أن يتبع العلم المسار الذي رسم له[2].

ولما كانت الوسائل والإمكانيات، قد توفرت فقد شرع المستشرقون في إعادة تشكيل التاريخ بالمعنى الواسع للكلمة، أي التاريخ العالمي، سيما وأن تاريخ الديانات يتعلق كلية بالدراسات الشرقية، وكان في حاجة إلى أن يعاد النظر في جزئه الأكبر. وفي هذا الإطار بالذات جرت دراسات وأعمال متعلقة بالفيدا (Védas) والبرهمية (Brahmâ) في الهند وعقائد الفرس (Zend-avesta) والبوذية والكنفشيوسية. كما جرى البحث أيضا في الديانة الإسلامية، وفي شخص النبي محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ والتصوف وغيره. وقد اعتبر المستشرقون من شأن هذه الدراسات أنها تمنحهم قاعدة أكثر صلابة لتاريخ الديانات مما كانوا يملكون أو يتصورون من قبل.

وفيما بحثوا أصول الفلسفة الهندية، درسوا كذلك المدارس الميتافيزيقية والأخلاقية للصينيين، كما عثروا لدى العرب عن أساتذة السكولاستيكية الغربية، وعن تاريخ الحقوق لدى الهند والصين والعرب، وهي الشعوب الثلاثة المعروفة أساسا بالتشريعات.

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 105.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1862, **op. Cité**, P : 32.

وأما تاريخ الأدب فأخذ حصة الأسد ضمن مختلف المعارف الإنسانية، كما وأن سبق تناوله في فصل الأدب.

وأما التاريخ السياسي للشرق، فقد كان ينجز ببطء وتدرج اعتبارا من المستشرقين، أنه ليس المهم تدوين الوقائع الكبرى كالغزو والمعارك وتعاقب الدول، إنما المهم في فهم نظم شعوب الشرق من خلال الوقوف على المبادئ التي يخضعون لها والأسباب الداعية لنشاطهم، تطورهم وانحطاطهم، قصد فهم وتعليل المقاومة التي أبدوها تجاه الأوربيين، مع بداية الاحتلال والتوسع.

إن تاريخ ممالك الشرق لا يجني منه الأوربيون فوائد، في نظر المستشرقين، ولا يعدو كونه جزءا من التاريخ العالمي.

وأما ما يتعلق بتاريخ الحضارة في الشرق، فهو النقطة المركزية التي تلتقي حولها مختلف أعمال المستشرقين التي صارت تشكل مدارس تمتاز بالنضج، سيما وأنه لم يعد يغيب عن نظرها هذا الهدف بالذات. ومهما كانت أعمال المستشرقين، متنوعة أو شخصية أو خاصة، فإن جلها ستأخذ مكانها اللائق في النهاية ضمن المعلم التاريخي المتكامل.

ولا يفوتنا التذكير، أن إعادة التشكيل النظري والمعنوي، الفكري والثقافي العالمي التي قام بها المستشرقون، كانت بمثابة المقدمة النظرية، لما تزامن تشكيله أو تطبيقه ميدانيا من خلال الاستحواذ والتحكم في مصير شعوب ونظم شرقية. وهو التوجه الذي سنشهده أكثر، إذ حدث نوع من التناسب بين تطور الدراسات الشرقية وتطور الهيمنة الاستعمارية على بلاد الشرق، من ذلك على سبيل المثال، احتلال الجزائر والهند... وغيرهما، خلال المرحلة التي تعنينا، مع التذكير أنه لم يعد يفصلنا في نهاية المرحلة ذاتها عن مؤتمر برلين الشهير[1] (1878) إلا ست سنوات.

* * *

---

[1] - انظر تعريفا لمؤتمر برلين، ص: 114 من هذا البحث.

أدى نقد المستشرقين الحديث لعمل المؤرخ وصناعة تاريخ الشرق إلى إبرازهما بعمق نادر، لاسيما وأنهم حللوا المراحل التي مر بها كتاب الحوليات، ومؤرخو الوقائع المسلمين، منذ المدرسة العقدية التقليدية، التي تسلم بلا تمحيص، حتى القلة القليلة من الكتاب العلميين الأحرار الذين استشفوا التسلسل المنطقي للوقائع وارتفعوا ربما بلا إدراك منهم إلى التحليل الذي أتفق على تسميته بفلسفة التاريخ.

وفيما يتهم المستشرقون الكتاب المسلمين بعدم الميل إلى التحليل، بمقدار ما لديهم من ميل إلى التخيل، على حساب الذوق والحقيقة، يقسمونهم إلى أقسام متميزة ثلاثة:

– قسم هم كتاب الحوليات الذين اقتصر انشغالهم على البحث في أحداث الماضي المسردة عاما بعام، ودراسة المؤلفات الخاصة، إن لم يكن ببصيرة فعلى الأقل بإيمان، من مثل ابن الأثير وأبي الفداء وابن خلدون. مع ما يمتاز به هؤلاء من بيان لغوي واضح، بلا محسنات لفظية ولا استعراض بلاغي. فأسلوبهم بسيط إلى حد الجفاف، ولكن التعصب مستبد بهم. أهم ما في مؤلفاتهم الضخمة هو الدقة والوضوح.

– وأما القسم الثاني فيتشكل من أدباء لم يكتبوا لمحض الكتابة التاريخية، لأن ثروة أسلوبهم من بيان وشعر ألحقت ضررا بوفاء المؤرخ لمهنته، أي بموضوعيته. وأبرز ممثلي هذا القسم، أمثال عرب شاه، سعد الدين، ياسف[1] وغيرهم، ولعله لا يكاد يعثر على مماثل لهؤلاء ببلاد المغرب.

– وأما القسم الثالث والأخير فيشتمل على مؤرخي البلاط والخطباء والمداحون الذين رمت بهم الخسة والنذالة والطمع في المكافأة إلى ميدان التاريخ. وعند هؤلاء: التلوين بارع، والإيقاع صاخب، والمجاز هائل، ودورهم منته عند هذا الحد. وكان

(1) – **عرب شاه:** أحمد بن محمد بن عبد الله بن إبراهيم، المعروف بابن عرب شاه. ولد ونشأ في دمشق. مؤرخ ورحالة، له اشتغال بالأدب، إذ برع في الكتابة والإنشاء والنظم باللغات الثلاث: العربية والفارسية والتركية. – الزركلي، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 228.

– أما سعد الدين وياسف فلم نهتد إلى المقصود منهما، ولعل ذلك راجع إلى تحريف النطق باسميهما.

العتبي[1] من أوائل من سار في هذا الطريق المؤسف المحزن[2].

كانت مهمة المؤرخ الاستشراقي المهتم بالحوليات العربية تكمن في تكسير حدة الغلاف الجاف الذي أحاطه كتاب الحوليات بالمعلومات الجافة أيضا، حين يقصرون على منح الشخصيات التي يكتبون عنها مثلا، مرتبة ضمن السلسلة الطويلة لقرون الخلافة الإسلامية، دون المساهمة في إحيائهم في نظر الأجيال اللاحقة. إنهم يسجلون الوقائع يوما بيوم، أو سنة بسنة، دون تفاصيل للوقائع ولا تتبع للخطوات، خطوة بخطوة. وهم يقتصرون على جمع معارف مرتبة ترتيبا زمنيا، دون إبداء رأيهم فيها وتحكيمه استحسانا أو ذما[3].

يعيب المستشرقون الفرنسيون على الكتاب العرب كون حولياتهم منتحلة في مجملها، وبشكل خالص أحيانا ودون تمويه. حتى أنك لا تعثر على تدليس لاستعاراتهم، إذ يقتصرون على النقل بسذاجة[4]. فلو كانت لهم الأمانة في نقل أخبار الوقائع والصدق في ذكر المصادر التي ضاع جزء منها لكان الأمر مستحسن بكثير[5]، لأن ذلك من شأنه أن يساعد المستشرقين وغير المستشرقين في معرفة هذه المصادر واقتفاء آثارها.

وقد اعتبر المستشرقون عدم تعرض الحوليات للحياة الحقيقية للشعوب، أو ما صار يعرف في أوربا القرن 19 م، الوقائع الاجتماعية والحياة اليومية للناس، هي وجهة نظر ناقصة وطرح ضيق تميز به مؤرخو الحوليات العربية الإسلامية، لاسيما وأنهم يقتصرون على تدوين الوقائع المادية الأكثر إثارة، ولكنهم لا يهتمون مع ذلك إلا بما يمس مباشرة

---

(1) - **العُتْبي**: محمد بن عبيد الله بن عمرو، أبو عبد الرحمن الأموي (توفي عام 228 هـ /842 م)، من بني عتبة بن أبي سفيان. من أهل البصرة ووفاته فيها. أديب كثير الأخبار، حسن الشعر. له عدة تصانيف، منها: "أشعار النساء اللاتي أحببن ثم أبغضن" و"الأخلاق" و"أشعار الأعاريب" و"الخيل"، وغيره.

- الزركلي، **مصدر سابق**، ج: 6، ص: 258-259.

(2) - P. DE COURTEILLE, "Histoire de la campagne de Moharez, publiée avec la traduction française et des notes", **J.A.**, 5me série, T:15, 1860, P:440.

(3) - CHERBONNEAU, "Histoire des khalifes Abbassides, extrait de l'ouvrage intitulé : Traité de…", **J.A.**, 4me série, T : 9, 1847, P : 135.

(4) - Rapport annuel, **J.A.**, 1853, **op. Cité**, P : 22.

(5) - Rapport annuel, **J.A.**, 1856, **op. Cité**, P : 32.

مصالح الدين الإسلامي. ولا تجدهم يتحدثون إلا عرضا عن التحولات التي يحدثها الزمن في المجتمع المدني أو عادات الشعوب الخاضعة أو العدوة لهم، كما لا يتعرضون لممارسة التجارة ولا أسباب تطور أو انحطاط البلاد، أي الوقائع الاجتماعية[1]، كما أسلفنا.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه الأحكام ليست مطلقة، كما سيأتي، من جهة، ومن جهة ثانية فهم يعتبرون تاريخ الطبري من أقدم الحوليات. وله أهمية خاصة في الكتابة التاريخية، باعتباره مصدر جل الكتابات[2]. ولهذا السبب بالذات ظل المستشرقون يتحسرون على عدم عثورهم عن النسخة الأصلية العربية وفي انتظار ذلك، اعتمدوا على النسخة الفارسية المترجمة عن الأصل العربي وكذلك التركية. وظل الأمر كذلك، تقريبا إلى نهاية الفترة التي تعنينا[3].

* * *

سنحاول فيما تبقى من هذا المبحث، التركيز تارة على منهجية النقد لدى المستشرقين الفرنسيين، وتارة أخرى، على نقد منهجيتهم أثناء تناولهم للكتاب العرب وحولياتهم، آخذين نماذج حية من إنتاجهم، منتقينها عسى أن تشكل عينات يستفاد منها طريقة في النقد وتطوره خلال حقبة من الحقب التاريخية، لاسيما وأنها مأخوذة من نقد كبار المؤرخين والكتاب وأنفس كتاباتهم.

يأتي في مقدمة هؤلاء المسعودي وكتابه: "مروج الذهب ومعادن الجوهر". لقد حصل المسعودي على تكوين عميق، بمفهوم زمانه، كنتيجة لموهبته وذاكرته القوية، وتمعن بعناية في الطبيعة والأشخاص أثناء رحلاته الطويلة، وركز على تكوين وتعليم قرائه من خلال وضع وقائع مثيرة للفضول، قلما عرفت من قبل، أمام أعينهم[4].

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص: 25.

(2) – Rapport annuel, **J. A.**, 1868, **op. Cité**, P : 58.

(3) – **نفس المصدر السابق**، ص:58.

(4) – QUATREMERE, "Notice sur la vie et les ouvrages de Masoudi", **J. A., 1839 op. Cité**, P : 20.

يتناول كتاب "المروج" مجموعة من المسائل الطبيعية، الفلسفية، الأدبية والتاريخية، ويغلب عليه التاريخ الأدبي، وبه حوادث مثيرة للفضول ومفيدة. والكتـــاب يفتقـــر إلى ترتيب منهجي وانتظام مخططه. كما تبدو فيه آثار السرعة والتسرع واضـــحة، إذ هـــو ملخص لإنتاج المسعودي السابق. ومع ذلك يصعب التصديق أن الكتاب حرر في سنة واحدة[1].

يتضمن الكتاب أقوالا ومزاعم لا تقوى على الصمود أمام النقـــد الـــذكي(!)، لاسيما تفسير وتعليل الكثير من الظواهر الطبيعية، تفسيرا لا يتماشى دائما مع المبـــادئ الفيزيائية الصحيحة. تلك الظواهر التي هي في حاجة إلى عبقرية الباحـــث المتقـــصي، والمدقق الملاحظ للطبيعة وأسرارها المفاجئة. غـــير أن المستـــشرق QUATREMERE يلتمس عذرا للمسعودي مرده إلى البيئة التي ولد بها المسعودي وعاش فيها، بيئة النصف الثاني من القرن 3 هـــ /9 م[2].

أما وقائع الأقطار القريبة، مما تحدث عنه المسعودي، فيعلل المستشرقون أخطاءه، بكون شعوب هذه الأقطار حافظت على أصولها من خلال حكايات وقصص مدهشة وغير صحيحة، اعتقد المسعودي أنه ملزم بالمحافظة عليها في كتاباته، من ذلك ما يتعلق بغرائب في تاريخ الفرس القديم أو مصر القديمة أو غيرهما، وإلا فإن عدم الأمانة في نقل قصص محتوية على الأساطير تجعله عرضة للهجوم من كل جهة، بحجة، أنه كاتب معاد للحقيقة، فلا يستأهل عندئذ ثقة القراء.

والواقع أن هذه الحجج والذرائع لا يمكن التسليم بها لأن المسلمين النزهـــاء، ردوا مثل هذه المزاعم وكذبوا فيها المسعودي بل واتهموه شخصيا بالكذب وشاع هذا حتى صار قاعدة وعمم على جل المؤرخين العرب تقريبا، باستثناء مؤرخي السيرة والغزوات ممن يستندون في مروياتهم على الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. وهي مـــسألة ظـــل اختصاص التاريخ يعاني منها عبر العصور الإسلامية. ولعلها كانـــت ســـببا اســـتغله

[1] - نفس المصدر السابق، ص: 21.

[2] - نفس المصدر السابق، ص: 25.

المستشرقون، لاسيما أنه شهادة من أهله فراحوا يعممونه على باقي مناحي الحياة الإسلامية حتى أنهم اتهموا بيئتها بغير المشجعة على العلم[1].

وسواء اقتنع المستشرقون أم لم يقتنعوا، فإن وجهة المؤرخ الحقيقية هي قول الحق، سواء تعلق الأمر بالمسعودي أم بغيره، وسواء تعلق الأمر أيضا ببيئة إسلامية أم بغيرها.

ولعل الملاحظة نفسها تنطبق على وقائع الأقطار البعيدة، التي خاطر المسعودي بنفسه وسافر إليها أسفارا مضنية في سبيل تعليم وتثقيف نفسه وقرائه، فرأى منها الكثير بأم عينيه. غير أنه كان عليه أن يأخذ بشهادات غيره من التجار والرحالة العرب الذين كان دافعهم، حب الربح والفضول، في نظر المستشرقين، رغم أنهم لا يملكون الموهبة والملاحظة ومعرفة اللغات الأجنبية، وكثير من الخصائص الأخرى لكل من يرغب في السفر والرحلة طلبا للعلم ولو أن عيب هؤلاء بدورهم، هو في تزيينهم وتنميق قصصهم بوقائع مثيرة، وإعطائهم أهمية أكثر للمخاطرة التي كانوا عرضة لها. وهم يعرضون وقائع أحيانا، خاطئة ومزيفة، تتعلق بشعوب، تختلف معهم في العقيدة.

كان المسعودي إذن، مضطرا في الغالب إلى أن ينهل مما كتبه الرحالة، مما لا يُؤْمَن خطؤه. وهذا ما يفسر وجود أكثر من حادثة ضمن الوقائع التاريخية، لا يملك وسيلة لمراجعتها[2].

صحيح أن الكتَاب يتوفر على معلومات غزيرة، دون أن توضع دائما في مكانها اللائق، وكذلك دون الانتقال بهذه المعلومات من موضوع إلى آخر بصفة معقولة ومنطقية. على أن المستشرق QUATREMERE يخلص إلى أنه مهما قيل عن فوضى الكتاب إلا أنه يحتوي على معلومات لا نجدها في غيره[3].

وقد لفت المستشرق "رينان" الانتباه إلى أهم بُعْدٍ في كتاب "المروج"، وفق منظور القرن 19 م، حين اعتبر أن التاريخ الأدبي الذي احتل حيزا كبيرا من الكتاب، كأن

---

[1] - انظر عن تشجيع الحضارة الإسلامية للعلم: ابن نبي، إنتاج المستشرقين، **مصدر سابق**، ص: 26-27.

[2] - **نفس المصدر السابق**، ص: 26-27.

[3] - **نفس المصدر**، ص: 22.

المسعودي تنبأ من خلاله بأساليب النقد الحديث، وفهم إلى أي حد يمكن للمؤلفات الأدبية أن تسلط الأضواء على التاريخ السياسي والاجتماعي لعهد من العهود(1).

ورغم قيمة وأهمية ملاحظة "رينان"، وكذلك الوقائع المفيدة التي يتضمنها كتاب "المروج" وغيره من مؤلفات المسعودي الأخرى، فإن خَلَفَه من الكتاب والمؤرخين كفروا به وعَقُّوه، عوض عن أن يتخذوه والطبري كدليلين في أبحاثهم، وعوضا عن الثقة في الحوليات الخالية من الفائدة أحيانا، والتي يغلب على أصحابها الجهل، وتشويه الحقائق، وانعدام الحس النقدي، وغياب التفاصيل التي من شأنها أن تمنح الوقائع الحيوية والحركة والحياة(2).

ولما كان هناك علاقة وطيدة بين تاريخ بلاد المغرب والأندلس، رأينا من الواجب الإشارة إلى مؤلف أثار إعجاب المستشرق CHERBONNEAU، هو ابن القوطية (توفي عام 367 هـ /927 م) في كتابه تاريخ فتوح المسلمين للأندلس. صحيح أنه ليس للكتاب طريقة أو منهج ثابت ومقرر، متميز وواضح، على غرار الكتب التي كانت تعد في القرن 19 م لتدريس التاريخ، ولكن للمؤلف قيمة في دقة تواريخه ووقائعه. فهو يعرض أمام القارئ قصة مليئة بالحياة والألوان يتحرك ويتنافس في وسطها الأشخاص والوقائع، كأنها مسرح معد للمتعة الخيالية. إنه يختلف عن جل الكتابات العربية الأخرى، إذ أنه خال من الرتابة. أسلوبه يفتقر إليه حتى ابن خلدون، فهو واضح أصيل، مفرداته ثرية، يملك القدرة على اختيار العبارات الموجزة، فهو يجمع بين موهبة القصاص أو الراوي ورصانة المؤرخ. وإذا كنا لا نعثر في الكتاب على فلسفة للوقائع، فإنه يتضمن رسما أصيلا ومثيرا للإعجاب(3).

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1872, **op. Cité**, P : 37.

(2) - QUATREMERE, "Notice sur la vie", **J. A.**, 1839, **op. Cité**, P : 8.

(3) - CHERBONNEAU, "Histoire de la conquête de l'Espagne par les Musulmans", **J. A.**, 5 me série; T : 8, 1856, P : 429.

ومن المؤلفات التي اعتبرها المستشرقون نموذجا في الكتابة التاريخية العلمية سواء من حيث الشكل أم المضمون، "كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية" [1] لابن طباطبا.

تبدأ أحداث الكتاب مع الخليفة الأول (رضي الله عنه)، وتنتهي بعد "هولاكو" (القرن 7 هـ /13 م). وطريقة المؤلف سهلة ميسرة، إذ يبدأ بالأسرة الحاكمة فيحيطها بنظرة شاملة، ثم يفصل أخبار السلاطين، ويعطي جدولا إداريا لكل خليفة، فتاريخ وزرائهم وتسيير وزاراتهم. كل ذلك بنظرة واضحة سديدة.

يمتاز ابن طباطبا بأن له موهبة المؤرخ، وكتابه في التاريخ –وهو مكتوب بأسلوب الحوليات في آن واحد- يتضمن شهادات حية في التاريخ، يستحضر خلالها حجج الشعراء وتأثيرهم كشهود عيان وقضاة في الوقت نفسه، لاسيما وأن لابن طباطبا ذاكرة خارقة، مهيأة لمنحه باستمرار بيتا أو بيتين من الشعر متكاملي المعنى، أو مقطعا لتشريف أمير أو وزير.

وواضح أن ابن طباطبا قرأ كل ما عثر عليه لكتابة حولياته: التقاليد، القصص، الأدب، الشعر، ذكريات الناس والبلاط ...الخ[2].

وقد لاحظ CHERBONNEAU، كما أسلفنا، أن ابن طباطبا مؤرخ في ثوب كاتب حوليات، وأن له حسا نقديا. والغريب أنه يضيف أن الحس النقدي خاصية من خصائص الكتاب الأوربيين، لا الكتاب العرب. ولعل الغرابة تكمن في كون هذا المستشرق يعيش في القرن 19 م وينفي الحس النقدي عن المحيط أو البيئة التي ولد فيها ابن طباطبا، أي أزيد من ستة قرون خلت، في وقت كانت النهضة الأوربية لا تزال في مرحلتها الجنينية، لم تعرف بعد فلسفة ابن رشد التي كانت أحد أسبابها. ولكنه ربما الغرور والكبرياء، الذي إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده وصير صاحبه يحكم على الأشياء حكما تعسفيا.

---

(1) - نسخ عام 701 هـ /1306 م.

(2) - CHERBONNEAU, Trad., "Extrait de l'ouvrage intitulé", **J. A., 4^{me}** série, T : 7, 1846, P : 300.

وبعد أن سلى CHERBONNEAU نفسه بالملاحظة الآنفة يعود إلى صوابه، فيذكر ما كان سببا في تعليم ابن طباطبا الحس النقدي، وبالطبع لم يكن الأوربيون سبب تعلمه، ولكنها الممارسة الطبيعية للأعمال، أو هي مدرسة الحياة.

لم يكن ابن طباطبا يقبل الوقائع دون أن يكون قد عرضها على الخبرة وتجارب الأشياء، كالقواعد الأساسية للإدارة أو الطبيعة الملازمة للأحداث التي توضع ضمنها ... الخ. فهو يناقش حجج أسلافه، ولا يقتنع بنقل حولياقم وجمعها في مصنف، كما يفعل جل كتاب الحوليات، ولكنه يبحث ويتخير، ويقبل ويرفض. ولديه وسيلة بحث ومراجعة تتمثل في قيم التقاليد من خلال الشك، أداة المؤرخ الحقيقية. إنه لا يضخم ثراء الأثرياء ولا قوة الأقوياء.

ورغم كون ابن طباطبا كاتبا عربيا، في نظر المستشرقين، فإنه يحترس من الميل إلى الذهنية العربية، حتى لا تتحول وقائعه، إلى أسطورة أو إلى تعصب وتزمت. فهو يترك المآثر والملاحم البطولية للأعمال البطولية. وهو يستحضر في ذلك أنه يكتب تاريخا. وهذه صورة مخالفة في نظر "شيربونو" لصورة المؤرخين العرب الذين جعلوا من الخليفة المأمون وبعض وزرائه، ما جعل كتّاب حوليات أوربا (عصر النهضة، أليس كذلك ؟؟) من شارلمان وأهل إقطاعه، أبطال آلاف المغامرات الخرافية. وبهذا يترل "شيربونو" من عليائه ويعترف أن الأوربيين يخرفون كغيرهم ويكتبون الحوليات أيضا إلى عهد قريب بل وفي عز النهضة الأوربية.

يبحث ابن طباطبا عن أسباب للوقائع السياسية وأبعادها، كما يبحث عن بواعثها ودوافعها. وهو يقدر ويميز تصرفات الأمراء والنصائح المسداة إليهم، والتي حملتهم على التحفظ أو [illegible]س. وإذا كان يهمه التاريخ في تفاصيل السير المثيرة للفضول، فإن ما يهمه أكثر هو دراسة الأهداف والمشاريع الخفية التي توجه النظم والحكومات. ويكشف عن خط السير ببصيرة، ويفسرها بلطف ورضا بالذات، يبدو وكأنه استشير

هو نفسه في هذا الدور. و لم يكن ابن طباطبا يروم من هذا وذاك إلا قول الحقيقة بلا تحيز ولا محاباة. فهو قد كتب للجميع[1].

والتاريخ عند ابن طباطبا عملة ذات وجهين، أما وجهها الأول فهو مشاهدة الملوك وتأملهم على مسرح الأحداث، ومتابعة الأبطال عبر ميادين القتال، وحضور المناسبات السياسية الكبيرة. وأما الوجه الآخر للتاريخ، فهو الوقوف عند تفاصيل البلاط وساحته العمومية، لأننا لا نعرف الأشخاص مثلا إلا معرفة ناقصة، ما دمنا لم نرهم في حالتهم الطبيعية، الفكرية أو العفوية، أي خلال الحياة اليومية، لاسيما بعيدا عن الأبهة وحياة البذخ والتمثيل، وبعيدا عن الحياة المصطنعة. مادمنا أيضا لم نتعرف على أسرار أهوائهم وفضائلهم، ومزاجهم ونزواتهم وادعاءاتهم[2]. وهو الوجه الذي يطلعنا على أسرار الدسائس المدبرة في ظل القصور. وكذلك فضائل الأعمال الشجاعة، أو الفظاظة والغلظة، وتذمر الجمهور... الخ.

لا يفلت شيء إذن من ابن طباطبا، مما أحيا به شخصيات اقتصر كتاب الحوليات العرب على وضعهم ضمن قائمة طويلة وفي سلسلة قرون الخلافة الإسلامية اللامعة. إنه مؤرخ يبدي المعرفة بمقدار ما يبدي رأيه فيها، فيُحَكّم رأيه فيها بالتمييز، استحسانا أو استهجانا. لقد عرف ابن طباطبا كيف يؤلف بالنظرة الشاملة، الحية، الرائعة التصوير، التي يمرر أمامنا من خلالها دوريا: الحكام والوزراء والبلاط والشعب والجيش، في علاقاتهم المتناسبة، تعاطفا وانجذابا أو اشمئزازا ونفورا[3].

ولعل هذه الأمور ككل لا تكتمل إلا بالحديث عن الأسلوب الذي حررت به الحوليات. وأسلوب ابن طباطبا واضح صريح، فيه نزاهة وتجرد، صدق وأصالة في عرض الحقائق، بعيدا عن استعراض مواهبه الأدبية، إلا ما يساعد على الفهم والتوضيح. فقد ثابر على الكتابة بأسلوب أنيق لا تنقصه البساطة. متنوع في الغالب. يتخلله نقد

---

(1) - نفس المصدر السابق، ص: 301-302.

(2) - CHERBONNEAU, **J. A.**, 4 ^{me} série, T : 8, 1846, P : 317.

(3) - نفس المصدر السابق، ص: 136.

خال من أية خلفية طائفية. يجامل بلا إطراء ولا تملق. يرسم سيرة الملوك والوزراء بسياسة ذكية فيها حنكة.

وهكذا ينهي "شيربونو" نقده المفيد والمنصف في الغالب، بالاعتراف أنه من حق أهل ابن طباطبا القول عنه إنه كتب بقلم الحقيقة[1].

وفي إطار نقد المستشرقين للتراث التاريخي العربي الإسلامي، ضمن تراث الشرق على العموم، سلكوا من بين ما سلكوه وسيلة تحقيق الكتب والمخطوطات. ولعلها تختلف اختلافا كبيرا عن الوسائل التقليدية، لدى العرب والمسلمين، من شروح واختصار للمخطوطات. ولقد قام المستشرقون الفرنسيون بتحقيق الكثير من الأعمال التي حكموا عليها بالجدارة والتميز، ويمكن للمتصفح أو الدارس لها أن يخلص إلى منهج أو خطة في مجال تحقيق المخطوطات مثلا.

فمن العوامل التي رأى المستشرقون أنها ضرورية لتحقيق كتب التاريخ العربية والإسلامية، أن يتزود المحقق بثقافة عامة، ومنها معرفة جيدة بقواعد اللغة العربية، ومعرفة للعروض أو علم نظم الشعر، والشعر بشكل عام، فامتلاك ناصية علومهم، كالفقه والحديث، وأن تكون للمحقق فكرة عامة عن النظام المدني والديني للبلاد الإسلامية، وأن يكون قد ألف تاريخ المسلمين، وتصفح أهم كتبهم الأدبية، بالإضافة إلى معارف في الجغرافيا والرياضيات وغيرها.

أما ما يتعلق بالكتاب المعني بالتحقيق، فلا بد من امتلاك عدد من المخطوطات الأخرى لمراجعته، وتفريق النص الحقيقي للمؤلف عن غيره. وتصحيح المقاطع المتلفة أو المحرفة من النساخ، وإعادة المقاطع الشعرية إلى أصلها، المنسوخة بشكل غير صحيح، فمراجعة التواريخ، وضبط أسماء الأعلام، وشرح العبارات الصعبة، والتلميحات إلى الأعراف والعادات والتقاليد، فالاهتمام بتوضيح المسائل التاريخية[2].

وفي النهاية، لابد من وضع فهارس بأسماء الأعلام والأماكن[3].

---

(1) - نفس المصدر، ص: 136.

(2) - DE SLANE, "Bibliographie: Kitab Wefeyet EL Ayan", J. A., 1839, **op. Cité**, P : 91.

(3) - نفس المصدر السابق، ص: 93.

وللدلالة على هذا يمكن أن نورد نموذجا من تحقيقات المستـــشرق DE SLANE على سبيل المثال، ونعني به تحقيقه لوفيات الأعيان لابن خليكان. ففيما يتعلق بالمعلومات البيبليوغرافية، اعتمد على معجم حاجي خليفة، وتصفح في مجال المعلومـــات المتعلقـــة بالشعراء والأدباء، كتاب الأغاني لأبي الفرج، والفهرست لابن النديم، وشرح شـــواهد المغني للسيوطي، ويتيمة الدهر للثعالبي، والخريدة لعماد الدين الأصـــفهاني، ومـــسالك الأبصار لابن فضل الله[1]، بالإضافة إلى دواوين شعرية عديـــدة. وراجـــع سلاســـل الأنساب ضمن كتاب الأغاني، وأنساب العرب[2]، وقواميس الجوهري والفيروزبادي، وكتاب في الإملاء لأسماء الأعلام للذهبي، كما راجع الأحاديث النبوية اعتمادا علـــى الجامع الصحيح للبخاري ومشكاة المصابيح[3]. إلى جانب كتب العقائد والاختلاف بين المذاهب.

وفي سبيل مراجعة الوقائع التاريخية، عاد DE SLANE إلى الكامل لابن الأثـــير، ومرآة الزمان لابن الجوزي، وكتب أبي المحاسن والمقريزي... الخ. كما راجع في مجـــال تاريخ الصحابة، سيرة الرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، وسيرة السلف[4]، والتلقـــيح لابن الجوزي.

وقد تم توضيح حياة المشايخ والقراء والمحدثين، اعتمادا على طبقـــات الفقهـــاء وطبقات القراء وطبقات المحدثين. و لم يسقط المحقق من الحسبان، تاريخ الوزراء لفخـــر الدين، وتاريخ الأتابك والسلجوقيين[5].

---

(1) - هو شهاب الدين أحمد بن يحي بن محمد الكرماني العمري الشافعي المعروف **بابن فضل الله** الدمشقي المتوفى سنة 749 هـــ.

- خليفة، كشف الظنون، ج: 2، **مصدر سابق**، ص: 1662.

(2) - لعله كتاب: "القصد والأمم إلى أنساب العرب والعجم" لابن عبد البر يوسف بن عبد الله الحافظ القرطبي المتوفى سنة 463 هـــ.

- انظر: **نفس المصدر السابق**، ج: 1، ص: 180. وكذلك: ج: 2، ص: 1328.

(3) - أورد حاجي خليفة عنوان كتاب: "مشكاة المصابيح" دون ذكر صاحبه، انظر:

- **نفس المصدر السابق**، ج: 2، ص: 1695.

(4) - ليس هناك، في حدود علمنا، كتاب بعنوان "سيرة الرسول" ولا "سيرة السلف" من كتب الأوائل المعتمدة. انظر:

- ابن النديم، الفهرست، **مصدر سابق**، وكذلك: خليفة، كشف الظنون، **مصدر سابق**.

(5) - -DE SLANE, "Bibliographie: Kitab Wefeyet", J. A., 1839, **op. Cité,** P :92-93 .

وقد عاصر صاحب وفيات الأعيان كاتبا آخر في الوفيات ببلاد المغرب، إنه أحمد الغبريني صاحب كتاب عنوان الدراية في علماء بجاية. وفضلا عن أنهما يشتركان في الاهتمام، فهما يشتركان أيضا في الروح التي كتبا بها، وهي غلبة الروح الدينية على الروح العلمية، لاسيما كتاب عنوان الدراية. ويعود سبب غلبة هذه الروح، في نظر المستشرقين، إلى التعصب الديني في نهاية القرن 7 هـ /13 م، الذي كان ينحو نحو بلاد المغرب، وينمو ويتطور تناسبا مع القوة التي كان المسيحيون يقاتلون بها في المشرق، كما أسلفنا، ثم انتقال الصراع إلى الحوض الغربي من البحر المتوسط، وهو سر تضاعف عدد الزوايا في كل مدينة وقبيلة، وانتشار ظاهرة التقوى والتدين ورجال الكرامات... الخ. لأجل هذا جاء عنوان الدراية بمثابة الدفتر الشريف لذوي الكرامات وزهاد العصر [1].

وقد شغل فكر ابن خلدون اهتمام المستشرقين الفرنسيين طوال الفترة التي تعنينا، وهم يصنفونه ضمن كتاب الحوليات وكذا المغرمين بالأدب، ولكنه تميز عن غيره ببحثه السنن والقوانين التي تحكم التطور وتتحكم في مصير السلالات البشرية.

أما اعتبارهم له ضمن كتاب الحوليات، فمن باب تاريخه العام، أي كتاب العبر أو تاريخ شمال افريقية كما يسمونه، والذي عالج فيه ابن خلدون عهود ما قبل الإسلام معالجة توحي بكونه مقدمة، لا غير، لتاريخ البربر الذي هو موضوعه الحقيقي. لكن نظرة متفحصة لتاريخ الخلافة ضمن تاريخ البربر تكشف أنها لا تعدو كونها تقريبا مختصرا لحوليات ابن الأثير[2]. ولذلك فهي لا توحي إلا بتناول سطحي[3].

ويبدو أن ابن خلدون قد سلم إلى قرائه، الجزء الأخير من كتابه الكبير في التاريخ، مليئا بالتفاوت والاختلاف والتباين، وبأسلوب تارة متقن، متكلف ومصطنع، وتارة أخرى، مليء بالأخطاء والهفوات. وتجد هذه النقائص تفسيرها في كون ابن خلدون كان كثير التنقل والترحال، ومحروما أحيانا من كتبه، ومستعجلا بقلة صبر السلطان أبي

---

(1) - CHERBONNEAU, "Notice et extrait du Eunouan…", J. A., 1856, **op. Cité**, P : 487.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 29.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 132.

العباس. فلم يكن إذن يتوفر على الوقت الكافي لمراجعة هذا الجزء الأخير من كتابه الكبير في التاريخ[1]، وقد أعاب عليه ذلك حتى بعض الكتاب المسلمين، وحجتهم في ذلك أنه عرض منهجا نقديا في مقدمته، ولكنه لم يطبقه على نفسه في كتاب العبر.

وأما المقدمة (Prolégomènes)، فهي التي سطع بها نجمه في القرون الخوالي، وظهر من خلالها بفكره الواسع، وعبقريته الفذة التي تفوق بها عن زمانه وأمته. أما المستشرقون الفرنسيون، فقد اعتبروا المقدمة، أول محاولة في فلسفة التاريخ، إذ لم يحدث أن كتب مثلها من قبل، ولذلك كان بعضهم ينعته "بالمؤرخ الفيلسوف".

كان ابن خلدون يتنقل، ليس فقط، من خدمة أمير إلى آخر، ولكن من شؤون دولة إلى أخرى، ومن ممارسة مهمة القضاء إلى حياة التأمل[2].

وكانت المبادئ التي ضمنها مقدمته، قد تنبه إليها منذ مدة قبل تدوينها، وظلت تشغل فكره وتختمر إلى أن تقدم به العمر[3]. فقد امتاز ابن خلدون بكونه رجلا مليئا بالوقائع التي يربطها بأفكار كانت في الغالب أفكارا قوية وصحيحة[4].

درس ابن خلدون كل العلوم العربية، وعرف بعمق تاريخ الدول الإسلامية، وتعلم كثيرا من حياته المضطربة[5]. وامتاز بفكر فلسفي ملاحظ، من طراز أرسطو ومنتيسكيو، في نظر MOHL، لكن الأخير يضيف أنه أدنى من أرسطو بكثير[6]. وهنا يبدو لنا من ناحية أنه ولو افترضنا جدلا أن الحكم صحيح، فإن المقارنة لا تجوز نظرا لاختلاف الأزمنة والبيئات الحضارية وغيرهما، ومن ناحية أخرى فإن المستشرق لا يجرؤ

---

(1) – نشر الكتاب ودرسه محمد بن ثابت الطنجي.
- Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 127-128.
– انظر: "التعريف بابن خلدون مؤلف الكتاب ورحلته غربا وشرقا" بقلمه ضمن:
– تاريخ العلامة ابن خلدون، ج: 15، **مصدر سابق**، ص: 196-616.

(2) – Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 131.

(3) – انظر: المقدمة، **مصدر سابق**، ص: 366.

(4) – Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 47.

(5) – Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 47.

(6) – **نفس المصدر السابق**، ص: 47.

على الاعتراف بالحق لسببين -في اعتقادنا- أحدهما الرواسب الثقافية، وثانيهما المحيط الذي بدأ يعرف تطورا سلبيا مع تنامي نزعة الاستعلاء والفوقية، والنزعة الاستعمارية منذ ستينيات القرن 19 م، كما أسلفنا.

ومهما يكن من أمر، فإن مقدمة ابن خلدون، عدها المستشرقون الفرنسيون كتابا أساسيا، متميزا وأصيلا، من اجتهاد وإبداع كاتبها شكلا ومضمونا، في فهمها فهم للحضارة الإسلامية كلها، بكل ما تحمله هذه الحضارة من إيجابيات وسلبيات، من عظمة وضعف، من صواب أو خطأ. والمقدمة فضلا عن هذا، هي أشبه ما تكون بدائرة معارف، فيها العلوم والفنون، وجل هموم الفكر البشري[1].

ومن الممكن أن لا يكون هناك كاتب شرقي يفوق ابن خلدون تذوقا من القراء الأوربيين، لاسيما وأن إنتاجه فكري، يعتبره المستشرقون إنتاجا أوربيا خالصا!! [2].

وإذا كان الأوربيون قد أعجبوا بفكر المقدمة على العموم، فقد ركزوا على جملة أفكار أو نظريات أو فصول انفرد بها ابن خلدون أيضا، وامتاز بها عن غيره، وسبق بها فكر القرن 19 م، فكان رائدها بجدارة واستحقاق. ومن الفصول التي أثارت فضولهم، تلك التي يتناول فيها الحقوق المدنية العربية (Droit public arabe) وموقف السلطتين الدينية والزمنية منها، وكذلك موضوع ما أضحى الأوربيون في القرن 19 م، يسمونه الاقتصاد السياسي (l'Economie politique)، بحديث ابن خلدون عن أسعار المواد في المدن، وأسباب الزيادة أو النقص في الأموال، وأجر العمل، والعمل كشرط للثروة، وخُلُقَ التجارة، وأسباب الاحتكار وآثاره، وطبائع الحرف ...الخ[3]. وكذا الفصل الذي يقرر فيه أن الهدايا (رشوة) من مظاهر الانحطاط، فضلا عن ملاحظاته الدقيقة في مجالات العقيدة والإيمان والأصول وعلم الكلام[4]، ومبادئ علم الاجتماع والتاريخ وغيرهم.

---

(1) - DOZY, "Prolégomènes d'Ibn Khaldoun", J. A., 1849, **op. Cité**, P : 133-135.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 24.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 48.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 47-48.

وكان شخص ابن خلدون محل احترام وتقدير المستشرقين على العموم، إذ ينتابهم الإحساس وهم يقرؤونه، أنهم أمام رجل دولة وفكر: رأى كثيرا، وفكر كثيرا، وجرب كثيرا، فحمل قارئه على حب فكره، وهو الذي تنبأ بأهمية الكثير من المسائل التي لم تأخذ مكانها في أوربا إلا بعد أربعة قرون[1].

هكذا إذن، كان النقد لدى مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين، يخضع إلى قاعدة علمية وأخلاقية، إذ لم يكن نقد الأشخاص –على العموم– ولا مؤلفاهم، يهدف إلى النيل منهم في نظر القراء بقدر ما هو الاستفادة منهم. لقد كانت غاية النقد لديهم، في نظرنا، من بين ما تهدف إليه، لفت الانتباه إلى المقاطع الهامة في نظر الأوربيين ومن منظار عصر الاستنارة الجديد، لاسيما وأن الخطاب الاستشراقي كان موجها، في نظرنا، إلى الأوربيين أنفسهم، خلافا لأجيال المستشرقين اللاحقة.

وقد استمر هذا الخط المعتدل، العلمي الموضوعي نسبيا، مقارنة بالأجيال السابقة على الخصوص ثم اللاحقة، إلى ستينيات القرن 19، حيث بدأ هذا الجيل موضوع الدراسة يأخذ منحى آخر، لأسباب استعرضناها من قبل[2].

* * *

غطّت اهتمامات مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين في مجال التاريخ، جملة ما ألفه المستشرقون عن أحداث ووقائع القرون العتيقة القرون الأربعة الإسلامية الأولى بما فيها وتراجم رجال الإسلام والتقارير السياسية. وكذلك الوقائع والأحداث المتعلقة بالفترة المتأخرة من عصور الانحطاط العربي والإسلامي أو الحديثة بالمصطلح الأوربي، الفترة الممتدة بين القرن 10 – 13 هـ /16 – 19 م. واشتملت أيضا على جملة أقل من الحوليات والسّير والوثائق والمراسلات...الخ.

غير أن صورة اهتمامات المستشرقين لن تكتمل إلا باستعراض ما تناولوه من دراسات في مختلف الميادين العلمية المتبقية، مما سيشغلنا في الفصل السدس والأخير.

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 864, **op. Cité**, P : 53-54.

(2) – انظر الفصل الأول والثاني على الخصوص، من هذا البحث.

الفصل السادس: اهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في العلوم الأخرى

1 – الفلسفة والرياضيات

2 – الطب والعلوم الطبيعية

3 – الجغرافية وعلم الفلك

4 – الأنتروبولوجية.

1- الفلسفة والرياضيات:

لم يقتصر اهتمام مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين على النواحي الدينية والأدبية والتاريخية فحسب، ولكنه طال مختلف ميادين الحياة العلمية الأخرى ومنها الفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية، وكذا الجغرافيا وعلم الفلك والأنتروبولوجية، مما سيشغلنا في هذا الفصل.

* * *

اعتبر المستشرق REINAUD العرب المسلمين أكثر تطورا وسبقا من آبائه الأوربيين. ذلك أن المسيحيين ورثوا الإغريق والرومان لفترة طويلة، واقتصروا، خلال ذلك، على جر أقدامهم، كما يقول، ومحاولة اقتفاء آثارهم بعناء. أما العرب فلم يرثوا غيرهم، فهم كانوا قبل محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ محصورين في صحرائهم، ولم يكونوا يملكون حتى فن الكتابة. فلما ظهروا على مسرح الأحداث، وصاروا سادة على أروع بقعة أرضية، كان عليهم أن يبدعوا كل شيء. ولغتهم -التي لم تكن ترقى إلى مستوى الإغريقية واللاتينية- صارت أداة ابتكار وتطور علوم جديدة[1].

يقسم علماء المسلمين كل العلوم التي تدخل ضمن دائرة معارفهم إلى ثلاثة أقسام أو فروع أساسية هي: علوم العربية، والعلوم الشرعية، والعلوم الحكمية.

ولما كان لا يهمنا، من هذه الأقسام -في هذا الفصل- إلا القسم الثالث، رأينا أن لابد من تعداد ما يشتمل عليه من الفلسفة النظرية والمنطق، والرياضيات، والطب والعلوم الطبيعية، والجغرافيا وعلم الفلك، وغيرها[2].

استعار المسلمون واقتبسوا من المدارس الإغريقية علوم الفلسفة والرياضيات والطب. وقد طوروها في كثير من فروع معارفها الإنسانية. كما احتفظوا بها وحافظوا

---

(1) - REINAUD, "Sur les dictionnaires", **J.A.**, 5me série, T : 16, 1860, P : 69.

(2) - KAZEM BEG, "Notice sur la marche et les progrès", J. A., 1850, **op. Cité**, P : 158-160.

عليها خلال العهود الأكثر وحشية لأوربا القرون الوسطى. ثم أعاد المسلمون للأوربيين فيما بعد، لاسيما عن طريق اليهود، ما كانوا قد تلقوه[1].

وقد اعترف المستشرقون بالتهاون الكبير لأسلافهم في دراسة المصادر العلمية العربية- الإسلامية منذ كان الفلاسفة والرياضيون والأطباء المسلمون يشعون على المدارس الناشئة في أوربا، ولذلك فهم (المستشرقون) يعتبرون حركتهم، في القرن 19 م -التي تهدف إلى استكشاف كل أجزاء الفكر الإنساني- بداية استدراك للنقص وسد للثغرة[2].

* * *

- الفلسفة:

كيف تأخذ المعرفة صفة العلم؟

تظل المعرفة، لاسيما النظرية منها، فلسفة. فإذا ما نظمت هذه المعرفة، تبعا لقواعد الفكر، أخذت -كما يقول ابن نبي- صفة العلم بسبب هذه القواعد[3].

وحينما ندرس تاريخ العقل البشري، نلاحظ فرقا أساسيا أو جوهريا بين تطوراته التي ينشد فيها تحقيق الجمال والخير، وما يميل فيه نحو معرفة الحق.

إننا نرى، في عهود مختلفة، وعند أمم مختلفة، ميلاد وتطور فن أو دين، مشكلا بذلك كلا في ذاته، ويحمل شخصية متميزة. لكن هذا لا ينسحب على العلم، فهو (العلم) إما يعكف أو يقتصر على جمع الملاحظات ليستخلص منها النتائج، وإما يجتهد في كشف وتعميق حقائق مبهمة أو رفيعة[4].

والفلسفة هي البحث على الحق والحقيقة على العموم[5].

---

(1) - تبنى يهود الأندلس الفلسفة الرشدية، التي تسربت إلى الفلسفة السكولاستيكية. ومع حلول منتصف القرن 7 هـ/13 م، كانت أهم مؤلفات ابن رشد مترجمة إلى اللاتينية، كما سيأتي.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1843, **op. Cité**, P : 500.

(3) - ابن نبي، مشكلة الثقافة، **مصدر سابق**، ص: 22.

(4) - WOEPCKE, "Mémoire sur la propagation des chiffres indiens", **J. A., 6^{me}** série, T : 1, 1863, P : 27.

(5) - DOZY, "Sur l'Averroïsme", **J. A.**, 5^{me} série, T : 2, 1853, P : 91.

لقد كانت العلوم العربية موضوع أعمال عديدة، إذ نشر STEINER كتيبا يتعلق بتاريخ الصراع بين الفلسفة العربية والقرآن أو بالأحرى مع التفسير التقليدي وما انبثق عنه من اعتقاد وتسليم(1) وثوقي قطعي، مبني على الوحي (Dogmatique).

منذ مطلع القرن الثاني للهجرة، فإن العقيدة القدرية(2) أو عقيدة الجبر (Doctrine de prédestination)، التي بالغ فيها المحدثون، ولدت معارضين لها يقولون بالعقل. فلما انتشر تأثير المدارس الإغريقية، فيما بعد، انتقلت المعارضة إلى العقائد، كصفات الله تعالى، وطبيعة الخلق، والحياة الأخرى، كما تمت محاولة التوفيق بين القرآن ومقتضيات الفلسفة والتشبث بحقوق العقل ضد أو مقابل التفسير بالنقل[3] والتفسير اللفظي[4] (Exégèse littérale).

تغلغلت هذه الاعتقادات الأخيرة والجديدة في عمق الأمة وحازت، لاسيما في عهد الخليفة المأمون، على تفوق بلغ حدا تحولت فيه إلى أفكار مُضْطَهدة. وبسبب ما

---

(1) - **القدرية** هم الذين يثبتون القدر.. والمعتزلة يطلقون هذا الاسم على الجبرية، لأنهم يثبتون القدر لله دون الإنسان، والجبرية يطلقونه على المعتزلة لأنهم يثبتون القدر للإنسان.

- **والجبرية** هم من عدة فرق إسلامية، يجمعها: نفي أن يكون الإنسان خالق أفعاله. ويميز بينها التفاوت في الموقف الجبري. فبعضها يرى الإنسان مجبرا جبرا مطلقا، فهو كالريشة المعلقة في الهواء تميلها ريح القدرة الإلهية حيث مالت .. وبعضها ينسب للإنسان "كسبا" هو عبارة عن الرغبة في الفعل والقصد إليه، أما خالق الفعل ذاته فهو الله.. وبعضها يرى أن الإنسان "فاعل" لكن على سبيل المجاز، والفاعل الحقيقي هو الله.

- موسوعة الحضارة العربية، ج 2، **مصدر سابق**، ص : 264 و274.

(2) - مذهب القائلين بوجود قدر مقضي على الإنسان به، أي أن مصير الإنسان محدد بقوى غير إنسانية، ولا حرية للإنسان في تشكيل مصيره بل ولا في تقرير أعماله.

- انظر: بدوي، موسوعة الفلسفة، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 236.

(3) - **التفسير بالنقل أو التفسير بالمأثور**: وهو تفسير القرآن بالاعتماد على النقل والرواية والإخبار، ويشتمل تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة، وتفسير القرآن من الصحابة، وأضاف كثيرون ما نقل من التفسير عن التابعين.

- محمد الزحيلي، **تعريف عام بالعلوم الشرعية**، ط 2، طلاس دار، دمشق، 1992، ص: 51.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 42-43.

- **التفسير اللفظي أو التفسير اللغوي**: يتعلق بعلوم اللغة العربية في الأدب والنحو والبيان والبديع.

لحق بالمجددين(Novateurs) من مآس، بسبب تبنيهم الجدلية الأرسطية[1] (Dialectique aristotélicien)، التي احتضنوا خصومهم بها في البداية. إلا أن الأخيرين ما لبثوا أن استحوذوا بدورهم على السلاح الجديد، وتحول الصراع إلى خلاف مدارس جد غامض لاسيما من القاعدة العريضة، ففقد بذلك قيمته الجماهيرية، هذا في الوقت الذي تعزز فيه مذهب الحديث وتقوى بالشكل المنتظم الذي أخذه. فقد طبق الأشعري[2] الدياليكتيكية[3] على المذهب[4] وشكل بذلك العقيدة[5]

---

[1] - **الجدلية أو الدياليكتيك** عند أرسطو، شكل غير برهاني للمعرفة، وهو "مظهر فلسفي" وليس معرفة يقينية، ولا الفلسفة نفسها. ومن هنا فإنه في نظره نوع من الجدل، وليس من العلم، وهو احتمال، وليس يقينا، وهو "استقراء" وليس "برهانا" أي حجة يقينية. ولهذا نرى أرسطو يذهب أحيانا إلى نعت الدياليكتيك بأنه معرفة احتمالية، ظنية. - بدوي، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 487

[2] - **الأشعري**: هو أبو الحسن علي بن إسماعيل (260 – 324 هـ /873 – 935 م). كان معتزليا، ثم تراجع عن القول بالعدل وخلق القرآن. وهو صاحب الأصول وإليه تنسب الطائفة الأشعرية. له عدة كتب منها: كتاب "اللمع" و "الموجز" و"إيضاح البرهان" و"التبيين عن أصول الدين" و"الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل" وهو صاحب الكتب في الرد على المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج وسائر أصناف المبتدعة.

- أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خليكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، ج 8/3، دار صادر، بيروت، 1972، ص: 284 – 285.

- وكذلك: النديم، الفهرست، **مصدر سابق**، ص: 231.

[3] - **الدياليكتيك أو الجدل**: يستمد اسمه من الفعل اليوناني الذي يعني: "يحاور"، وكان معناه في الأصل "فن الحوار" أو النقاش أو "الجدل". وقد طبق الجدل بنحو عام لأول مرة على يدي سقراط، وهو الذي كان – كما صورته محاورات أفلاطون الأولى – يمارس على الدوام طريقتين كلتاهما تتخذ صورة الفرض، أولاهما: هي تفنيد رأي الخصم وذلك باستدراجه عن طريق إلقاء الأسئلة عليه إلى أن يسلم بعبارة مناقضة لرأيه، باعتبارها نتيجة نهائية تترتب على ذلك الرأي (وهي مرحلة التنفيذ) ثم الانتهاء به إلى تعميم وذلك عن طريق استدراجه إلى التسليم بصدقه في سلسلة من الأمثلة الجزئية وهو ما سمي: بالاستقراء.

- دافيد سانتلانا، **المذاهب اليونانية الفلسفية في العالم الإسلامي**، ترجمة وتقديم وتعليق محمد جلال شرف، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص: 127.

[4] - **المذهب الأشعري**: نسبة إلى أبي الحسن الأشعري. والأشعرية يمثلون الموقف الوسطي بين المعتزلة وبين الجبرية الخلص (الجهمية). ففي فعل الإنسان قالوا: إن خالقه هو الله، وللإنسان فيه الكسب، أي كونه محلا للفعل، فهو فاعل له على سبيل المجاز وفي التأويل يجيزون بعضه ، فلا يمنعونه كما هو فعل أصحاب الحديث، ولا يعتمدونه سبيلا لنصرة برهان العقل على ما يعارضه من ظاهر النقل، كما هو حال العقلانيين. وفي صفات الله: يثبتون له الصفات، ولكن على نحو يجعلهم وسطا بين تنزيه المعتزلة وتشبيه المجسدة والمشبهة.

وهكذا ففيما يتعلق بالعقائد، استن الأشعري لنفسه طريقا استند فيه إلى موقف أهل السنة منها، وهو أن النظر واجب بالشرع، ولكن على أساس أن يكون للنقليات مكان الصدارة، ثم تجيء العقليات خادمة للدين. - محمد عمارة وآخرون، **موسوعة الحضارة العربية الإسلامية**، ج 3/2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1986، ص: 549. وكذلك: مذكور، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 587-594.

[5] - انظر: السكولاستيكية، **الفصل التمهيدي**، ص: 20.

السكولاستيكية (Théologie scolastique)، التي تبناها التيار السني التقليدي الذي كون جبهة معارضة لدعاة التجديد ففشلوا في اختراقها. وهكذا فُقدت حرية التفكير لدى المسلمين، وبدأ انحطاط العالم الإسلامي، في نظر المستشرقين، انحطاطا بطيئا، تخللته عهود لامعة، ولكنه في اتجاه واحد (Irréversible)، وكانت النتيجة ما وصل إليه العالم الإسلامي من تخلف في القرن 19 م. إن المنحى الذي أخذه الفكر الإسلامي خلال قرونه الأولى، كان له تأثير عميق في القرون الوسطى اللاتينية من خلال السكولاستيكية التي ولدتها[1].

وأصدر DIETERICI ببرلين، ترجمة لعمل عربي يعود إلى القرن 4 هـ /10 م، بعنوان: "الإنسان والحيوانات"[2]، هي المقالة الإحدى والعشرون لإخوان الصفا[3] التي تنتقل بالحديث من العلوم الطبيعية إلى علم الإنسان، وهي مثيرة للفضول من حيث النزعة الإنسانية التي تخيم عليها، والتي يرى المستشرقون إمكانية استفادة أوربيي القرن 19 منها. وكانت قد صدرت للمقالة طبعتان عربيتان بكالكوتا.

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 43 – 44.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 37.

(3) - **إخوان الصفا**: جماعة سرية من الشيعة الإسماعيلية (الباطنية)، أو هم جماعة من الأصدقاء الأوفياء، جمعتهم المودة والرحمة، فأقبلوا على العلم وتعاونوا فيه. وقيل إنهم أخذوا اسمهم من كتاب كليلة ودمنة الذي كان شائعا في أيامهم، والذي جاء في باب الحمامة المطوقة منه "أن العاقل لا يعدل بالإخوان شيئا". وقد كانوا يعتبرون صداقتهم قرابة رحم، إذ يضحي أحدهم بنفسه في سبيل إخوانه.

وقد ذكر إخوان الصفا أن غايتهم من تأليف جماعتهم هو صلاح الدين والدنيا، و السير وراء الحكمة، والاقتداء بالحكماء (؟)، والأخذ بجميع العلوم طبيعية كانت أو رياضية أو إلهية. ووضعوا منهجا للانخراط في سلك جماعتهم.

ولقد بدأت دعايتهم أول ما بدأت بالاتصال الشخصي، فلما زاد عددهم استعملوا الرسائل لا في دعايتهم أيضا. ألف إخوان الصفا رسائل أودعوها كل أفكارهم وفلسفتهم وعددها إحدى وخمسون رسالة عدا رسالة الفهرس والرسالة الجامعة. وتعد الرسالة الأخيرة ملخصا وافيا لجميع الرسائل.

وقد أراد إخوان الصفا لرسائلهم أن تكون موسوعة علمية تنهج في كتابتهم منهج التعليم. ونأوا بها عن التعمق، وخلطوا فيها العلم بالسحر والفلك بالتنجيم، وأخذوا من كل فلسفة بطرف ومن كل دين ما حلا لهم أن يأخذوه، فجاءت رسائلهم خليطا من أقوال الشيعة الباطنية والإسماعيلية ومن فكر أفلاطون وأفلوطين وفيثاغورس وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين. وهم يعتبرون من أوائل الذين فتحوا باب حرية الفكر ومن أوائل الذين وضعوا موسوعة تحوي بين دفتيها ميتافيزيقا وفيزيقا وبقية فروع الفلسفة.

- مذكور، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 457-462. للتوسع أكثر في الموضوع انظر:

- عمر فروخ، **إخوان الصفا**، بيروت، 1953.

- سعيد زايد، **رسائل إخوان الصفا**، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1969.

عرفت أوربا موسوعة إخوان الصفا قبل منتصف القرن 19، لكن الأعمال الحديثة العهد لـ NAUWERK، SPRENGER ولاسيما FLUGEL، أبرزوا كل أهميتها[1].

تعد جمعية إخوان الصفا، ذات الأصول الاعتزالية[2] إحدى أهم الجمعيات التي أنتجتها الأمة الإسلامية. وقد تعرض الإسلام لاختبار كبير، بانتشار العرب في سوريا وبلاد فارس ووجودهم في صلة بالعلم وأفكار الشعوب المثقفة. فهل كانوا سيقبلون بعلوم الإغريق، وهل سيرضون بحرية الفكر في الأبحاث، في ظل وجود القرآن الكريم؟[3].

الواقع أن الصراع كان طويلا، حيويا ومريرا، ملأ بأشكاله المختلفة القرون الأولى للخلافة. وكادت حرية الفكر أو العقل أن تنتصر على النقل، في نظر المستشرقين، وحينما قرر الخليفة المأمون الوقوف في صف دعاة خلق القرآن، أعتقد أن العلم انتصر انتصارا حاسما لأنه تحت هذا الشكل الشاذ والغريب اختبأت المسألة الكبرى للفلسفة في مواجهة العقيدة. وكان الأوربيون، في العصور الوسطى المسيحية، قد عرفوا طرح نفس المسألة بطريقة شاذة غريبة، لأنه يبدو أن ليس هناك أصعب على العقل البشري من الذهاب رأسا نحو الهدف، لكن علماء العقيدة المسلمين (Théologiens) كانوا يستردون الموقف في كل مرة ويرفضون العلوم الوافدة باستثناء الرياضيات، الطب، وجدلية أرسطو الذين وجدوا فيهم ضرورة اقتباسهم أو استعارتهم من خصومهم. وبذل دعاة حرية العقل في القرن 4 هـ /10 م، مجهودا آخر للمطالبة بحرية البحث عن الحق والحقيقة، ومحاولة التوفيق بين العلم والفلسفة من خلال تفسير القرآن الكريم. وتشكلت جمعية سرية من العلماء بالبصرة، أطلقت على نفسها اسم إخوان الصفا، ونظمت محافل لها في مدن أخرى. كما أصدرت إحدى وخمسين مقالة في العلوم الدقيقة، ومعارف في الطبيعة وحول الإنسان والقضايا الربانية أو الصفات الإلهية (Choses Divines)، وهي المقالات التي تعد بلا شك من إنتاج الأدب العربي الأكثر إثارة للفضول.

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 40.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 116.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité**, P : 38.

ومن الممكن أن يكون لإخوان الصفا نظريات ســرية باطنيــة[1] (Doctrines ésotériques) غير منصوص عليها في المقالات، ولكن الواضــح فيمــا نــشروه، أن أطروحاقم الميتافيزيقية[2] كانت أفلاطونية (Néoplatonicienne) وأن جهد التوفيــق بينها وبين القرآن أنشأ نوعا من الغنوصية(3) أو العرفانيــة (Gnosticisme)، وهــو النتيجة المؤكدة لكل خلط أو مزج بين أفكار التوحيد والحلولية[4] أو وحدة الوجــود (Panthéistes). لكنه باستثناء عقيدقم السرية، في نظر المستشرقين، يبقى الإعجــاب بصفاء فكرهم، وحرية تفكيرهم، واحترامهم للعلم. فلو أن تعاليمهم تغلبت في المدارس العربية وقتذاك، لكان من المحتمل أن الأمة الإسلامية حافظت على تفوقها الذي حققته على الأوربيين، غير أن أسلوب إخوان الصفا التعديني كان غير متلائم كثيرا مع القرآن الكريم، ولذلك فإن علماء العقيدة السنية (Théologiens orthodoxes) خنقوا المدرسة الجديدة، فهيمن منذئذ وبلا منازع أساتذة وأنصار التفسير اللفظي والجدل (Exégèse

---

(1) – لا سيما وأنهم من الشيعة الإسماعيلية (الباطنية)، كما أسلفنا.

(2) – كلمة "**ميتافيزيقا**" تعريب للكلمة اليونانية "تامتاتافوسيكا" ومعناها: ما بعد الطبيعة. والمعروف أن الأصل في هذا الاسم يرجع إلى ترتيب كتب أرسطو لما نشرها أندرونيقوس الروديسي (في القرن الأول قبل الميلاد) فجعل موضع كتب أرسطو المتعلقة بالفلسفة الأولى تاليا لموضع كتاب "الطبيعة" وعلى ذلك فإن "ما بعد الطبيعة" تعني فقط الكتاب التالي في الترتيب لكتاب "الطبيعة" في مجموع مؤلفات أرسطو الذي نشره أندرونيقوس، ولا علاقة له بمضمون أو موضوع هذا العلم. أما اسم هذا العلم عند أرسطو فهو: "الفلسفة الأولى"، وأحيانا يسميه الإلهيات.

– بدوي، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 493.

(3) – **الغنوصية**: من الكلمة اليونانية (= معرفة، عرفان)، ويمكن أن تترجم بـــ "العرفانية"، وهي نزعة فلسفية دينية صوفية معا. وسميت بهذا الاسم لأن شعارها هو أن: "بداية الكمال هي معرفة (غنوص) الإنسان، أما معرفة الله فهي الغاية والنهاية". واهتمام الغنوصيين إنما هو بالكمال. ويمكن بلوغ الكمال بواسطة الغنوص. والغنوص يتم بوصفه عرفانا بالإنسان، وهذا العرفان يفضي إلى عرفان الله. والعرفان بالله هو المؤدي إلى النجاة أو الخلاص، لأن الله هو الإنسان، في نظرهم. ولهذا فإن أساس الغنوص هو معرفة الإنسان بنفسه بوصفه إلها، وهذه المعرفة تؤدي إلى نجاة الإنسان.

– **نفس المصدر السابق**، ص: 86.

(4) – **الحلولية**: من غلاة الشيعة، قالوا أن الله هو روح القدس، وأنها حلت في النبي، ثم في أئمتهم: علي، فالحسن، فالحسين، فعلي بن الحسين، فمحمد بن علي، فجعفر بن محمد بن علي، فموسى بن جعفر، فمحمد بن علي بن موسى، فعلي بن محمد بن علي بن موسى، فالحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى، فمحمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي. ولذلك قالوا بألوهية هؤلاء الأئمة.

– موسوعة الحضارة العربية، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 266.

et dialectique). واضطرت العقول غير المقتنعة بهذا النمط من التفكير والمضطهدة، إلى اللجوء إلى موجة التصوف الحلولي، أو إلى بعض المذاهب السرية أو الباطنية، وهكذا يرى المستشرقون، أن هلاك العالم الإسلامي في القرن 19 مرده إلى رفض "العلم" منذ القرن 4 هـ /10 م[1]، يوم استبعدت مدرسة إخوان الصفا الأفلاطونية في ما وراء الطبيعة، الأرسطية في العلوم الطبيعية، واستبعد معها كل تفكير وبحث حرين. مع العلم أنه بالإمكان العثور ضمن مقالات إخوان الصفا على إشارات ودلائل لتجارب كانوا قد أنجزوها[2].

وهكذا، فقد كانت حركة إخوان الصفا تهدف من ناحية، إلى ربط أرسطو وأفلاطون، ومن ناحية أخرى، إلى ربط الفلسفة الإغريقية والعقيدة الإسلامية. وكان العمل شاقا والنتائج متواضعة[3].

وقد نشر GOSCHE ببرلين مقالا مطولا عن أحد الفلاسفة البارزين، هو أبو حامد الغزالي[4] المولود بضواحي طوس ببلاد فارس عام 451 هـ /1059 م،

---

(1) - Rapport annuel; J.A., 1859, **op. Cité**, P : 39-40.

(2) - Rapport annuel, J.A., 1861, **op. Cité**, P : 45-46.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 116.

(4) - **الغزالي**: مفكر ومتكلم وفقيه وصوفي، لديه قدرة على الحجاج منقطعة النظير. بدأ في قراءة كتب الفلسفة حوالي سنة 484 هـ /1091 م، وهو في الرابعة والثلاثين من عمره. فأخذ فكره يتغير مجراه، وحدث له أزمة روحية، كان من نتائجها أن شك في اعتقاداته الموروثة. وهذا الشك كان أول دافع له إلى النظر العقلي الحر، وهو الذي قال: إن من لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة والضلال، ولا خلاص للإنسان إلا في الاستقلال. وهذا الشك المنهجي الذي دعا إليه الغزالي إنما هو ثمرة مطالعاته لكتب الفلسفة.

درس إذن كتب الفلاسفة، ولاسيما الفرابي، وابن سينا. ثم ألف مقاصد الفلاسفة، ملخصا فيه مسائل الفلسفة، غير متعرض لنقدها، مرجئا النقد لكتب تالية كان أهمها: تهافت الفلاسفة، ثم قدم مؤلفه القيم: إحياء علوم الدين، في الفترة التي كان منصرفا فيها للعبادة والتأليف وقد عاصر أربع تيارات فكرية: المتكلمون، الباطنية، الفلاسفة والمتصوفة.

وقد شرع الغزالي في إبطال حجج الفلاسفة، حيث كان على النقيض، لا يرى في الأقيسة العقلية أداة صالحة لمعرفة الحق، بل الأداة الصالحة لذلك عنده هي الذوق الباطني. ومن ثم فقد أخذ بوجهة نظر المتصوفة دون الفلاسفة والمتكلمين أو الباطنية. لكنه ليس بصحيح ما يذهب إليه البعض من أن هجومه على الفلاسفة والفلسفة بعامة كان له أثر في صرف المسلمين عن الفلسفة، ولا أدل عن ذلك من أن كل فلاسفة الأندلس إنما عاشوا وازدهروا بعده، كما أن الفلسفة الإسلامية في المشرق تابعت مسيرتها الخصبة دون أن تعبأ بما قاله الغزالي، ويكفي أن نذكر أسماء السهروردي المقتول، وفخر الدين الرازي في القرن السادس ثم الإيجي والدواني وغيرهم.

- بدوي، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 82- 83. وكذلك: - سانتلانا، **مصدر سابق**، ص: 35- 36.

في زمن أوشكت فيه المعركة الكبرى بين الفلسفة والعقيدة على نهايتها في العالم الإسلامي. وكان الغزالي صديق الوزير الشهير نظام الملك، الذي عينه أستاذا بالمدرسة التي أنشأها بنيسابور، وأقنعه فيما بعد بمرافقته إلى بغداد للتدريس. ثم انعزل الغزالي بمكة، فالقدس، ودرس بعض الوقت بدمشق والإسكندرية، لينعزل ثانية، عزلة دينية بطوس، يعود إلى كرسي التدريس بنيسابور، لينتهي بوفاته في عزلة أخيرة بطوس[1].

ولعل هذه الحياة المضطربة، التي نصادفها عند جل العلماء المسلمين، لتعبير على اضطراب العقول أيضا وقتذاك، وهو الاضطراب الذي نعثر على آثاره العميقة في مؤلفات الغزالي نفسه، حيث المذهب السني، وتأثير الفلسفة، وميل الغزالي الطبيعي نحو التصوف، كل ذلك يتصارع ويتغلب على بعضه دوريا في فكر الغزالي[2].

وقد نشر MULLER بميونيخ، النص العربي لثلاث رسائل لابن رشد بعنوان: "فلسفة وعقيدة ابن رشد"[3]، عثر عليهم ضمن مخطوط بمكتبة "الأسكوريال"[4].

ولد ابن رشد بقرطبة حوالي عام 514 هـ /1120 م، وتوفي بالمغرب الأقصى عام 595 هـ /1198 م، وقد تزامن عهده بآخر إشراقة للفلسفة العربية، حين كانت

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité**, P : 44.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 44.

(3) - أشهر ما يعرف به **ابن رشد** أنه: شارح أرسطو، فالنص اللاتيني لمؤلفات أرسطو الكاملة يحتوي عادة على شروح ابن رشد، وهي شروح مستقاة في أغلب الأحوال من ترجمة عبرية للأصل العربي المفقود.

ولقد كتب ابن رشد على كثير من مؤلفات أرسطو ثلاثة شروح مختلفة هي: الملخصات، الشروح المتوسطة، والشروح الطويلة. وتتمثل أهمية ابن رشد، من حيث هو فيلسوف ديني في رسائله الجدلية، وفيها جاء تصديه الجريء لهجوم الغزالي على الفلاسفة، وفي شرحه على جمهورية أفلاطون. فقد وقفت الفلسفة بعد الغزالي موقف الدفاع وأصبحت موضوعا لهجوم متصل يشنه عليها علماء الشريعة والكلام. ومن هنا كان الطابع الجدلي الذي يميز كثيرا من كتابات ابن رشد، فلقد أخذ على عاتقه أن يوفق بين الشريعة والفلسفة، بأن يبين وحدة المقصد لكل منهما.

ظفر ابن رشد في العصر الوسيط وأوائل العصر الحديث بشهرة لم يحظ بمثلها أي فيلسوف إسلامي آخر. ومنذ أن ترجم مؤلفاته إلى اللاتينية ميخائيل سكوت (بصقلية) ابتداء من 1230، وفلاسفة أوربا اللاتينية يقرنون ابن رشد بأرسطو إيجابيا وسلبا، أي اعتناقا وتنفيذا. وقد كان القديس توما الأكويني (1225- 1274 م) أكبر خصم، وفي نفس الوقت أكبر مستفيد من ابن رشد ومؤلفاته وشروحه، في مقابل روجر بيكون الشديد الإعجاب بابن رشد.

وقد ظلت الرشدية تشق طريقها المظفر في جامعات أوربا كلها...

- بدوي، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 38. وكذلك: - سانتلانا، **مصدر سابق**، ص: 28- 29.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1863, **op. Cité**, P : 50.

عرضة، تارة للمحاباة وأخرى للاضطهاد، وستنطفئ، على الأقل، كتفكير حر، وكشكل مضيء في فكر الأمة. وهكذا، فبعد صراع شرس دام ثلاثة قرون، تغلبت العقيدة نهائيا على الفلسفة، التي ستنحصر بعدها وتقتصر فيها المدارس العربية على دراسة المنطق والجدل. وكان الأمر المرغوب فيه كثيرا، لدى المستشرقين، أن يكتب تاريخ هذا الصراع، باعتباره حدثا عالميا كبيرا، كانت نتيجته جمود فكر العرب والمسلمين، وهو الفكر الذي كان مرشحا للعب دور تاريخي أطول. ويمكن القول أن ابن رشد كان ينتمي إلى آخر مدرسة كانت تصارع ضد "الفكر الضيق للعقيدة الإسلامية". فكان ابن رشد يبرئ الفلسفة ويبرز مجال علاقتها بالدين والفوائد التي يمكن أن تقدمها في البرهنة على أركانه الأساسية والدفاع عن الإيمان والعقيدة، برسم توافق للفلسفة الحقيقية مع الدين.

وفي سبيل تحقيق هذا المسعى، لم يكن ابن رشد عدوانيا ولا مثيرا، ولكن ذلك لم يكن كافيا لإنقاذ قضية كان قد حكم عليه فيها مسبقا بالإعدام. فحلت النكبة بابن رشد، ونفي، وأحرقت مؤلفاته ومؤلفات فلاسفة زمانه[1].

إن الاضطهاد العنيف الذي كانت الفلسفة لدى المسلمين عرضة له، في زمن ابن رشد ولاسيما بعده، أنسى قومه فيه، بينما احتل شهرة كبيرة في أوساط اليهود والمسيحيين، وعلى قدم المساواة مع أرسطو[2] . وقد اطلع المستشرقون على مجموعة

---

[1] - **نفس المصدر السابق**، ص: 50-51.

- **امتحان ابن رشد**: لما مات أبو يعقوب يوسف، وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور بالله، زادت مكانة ابن رشد. ثم وشى به بعض الحاقدين عليه فغضب عليه المنصور سنة 591 هـ /1194 م، وأهانه ونفاه إلى قرية خاصة باليهود (اليسانة) على مقربة من قرطبة، وأمر بإحراق كتبه، وأصدر منشورا لعامة المسلمين ينهاهم فيه عن قراءة كتب الفلسفة أو الاشتغال بها، وكان ابن رشد ضمن جماعة من العلماء غضب عليهم أمير الموحدين.

وقد اختلفت الآراء في تفسير محنة ابن رشد. فقيل أن الأمير أخذ عليه أنه مال إلى حاكم قرطبة أكثر مما يطمئن إليه المنصور، وقيل لأنه كان يرفع الكلفة بينه وبين الخليفة، وقيل لأنه هاجم علماء الكلام، وقيل لأن شروحه لأرسطو احتوت على عقائد تناقض عقائد الإسلام.

لكن المنصور عاد فعفا عن ابن رشد واستدعاه إلى مراكش، حيث مات ابن رشد بعد ذلك بقليل سنة 595 هـ /1199 م.

وامتحن من غير ابن رشد: أبو جعفر الذهبي، والفقيه أبو عبد الله محمد بن إبراهيم، قاضي بجاية، وأبو الربيع الكفيف، وأبو العباس الحافظ الشاعر القرابي.

- مذكور، **مصدر سابق**، ص: 139 – 140. وكذلك: - بدوي، ج 1، **مصدر سابق**، ص:21-23.

[2] - Lettre de RENAN à REINAUD, Rome le 27/02/1850, **J.A.**, 4^{me} série, T : 15, 1850, P : 390.

من آثاره مترجمة إلى العبرية واللاتينية. ويتضمن مخطوط مكتبة فلورنسا، ذي الأصول المغربية، الشرح الكبير للأجزاء الخمسة لـــ(l'Organon) عن البلاغة والشعر، أي عن مؤلفات المنطق لأرسطو.

كان ابن رشد ومؤلفاته موضوع بحث بعنوان: "ابن رشد والرشدية" لـــ RENAN، قاده إلى كثير من مظان المخطوطات في أوربا ومنها مكتبة (Laurentienne) و(l'Escurial) والمكتبة الوطنية بباريس ومكتبة (Florence) و(Pise) بتوسكانيا (إيطاليا). وقد وقف "رينان"، أثناء ذلك، بكنيسة (-Sainte Catherine) على لوحة المشهد (Traini) الذي يمثل، على زعمه، هزيمة ابن رشد أمام القديس "طوماس"، وهو شهادة مؤثرة تعبر عن الكيفية التي تحولت فيها الرشدية وقتذاك في إيطاليا إلى مرادف للكفر.

من الممكن القول إنه بلبس وغموض مخيب للآمال، أن نطلق اسم الفلسفة العربية على مجموعة من الأعمال التي أنجزت كرد فعل ضد العروبة (l'Arabisme) في أجزاء بعيدة من مركز الخلافة الإسلامية وعن الجزيرة العربية، سمرقند، بخارى، قرطبة، المغرب. هذه الفلسفة مكتوبة بالعربية لأن هذه اللغة تحولت إلى لغة علمية مقدسة في كل البلاد الإسلامية، هذا غاية ما في الأمر، في نظر DOZY. فعبقرية العرب الحقيقية، المتميزة بشعر المعلقات وبلاغة القرآن، لا تتماشى إطلاقا والفلسفة الإغريقية. فهم منغلقون ككل الشعوب السامية، في الدائرة الضيقة للحماسة وأسلوب الشعر الغنائي والنبوة. فلم يحدث أن كان لسكان شبه الجزيرة العربية، في نظر "رينان"، أبسط فكرة عما يسمى علم أو عقلانية [1] [2] (Rationalisme).

ولما تغلب العقل الفارسي[3] –بتزايد نفوذ العنصر الفارسي– على العقل العربي ممثلا في الخلافة العباسية، تسربت إلى الإسلام الفلسفة الإغريقية. وكانت بغداد بامتياز

---

(1) – فلسفة قائمة على العقل في ميادين المعرفة والأخلاق الخ...

(2) – DOZY, "Sur l'averroïsme", J. A., 1863, **op. Cité**, P : 91-92.

(3) – استعان خلفاء بني العباس أول الأمر بالخراسانيين من أهل إيران، ثم استعانوا بالترك من بعدهم. وفيما يتعلق **بحركة النقل من التراث اليوناني إلى التراث العربي**، يتبين استفادة العرب من السريان إذ أن ما قاموا به من ترجمة، آلت فائدته إلى العلم عند العرب والفرس. والذين اشتغلوا بنقل كتب اليونان إلى –العربية فيما بين القرنين الثامن والعاشر

مركزا للحركة الجديدة. كما كان السبب في دخولها مسيحيون سوريون وعناصر من (Magisme) كمحرك ومحرض في آن واحد[1].

وكان الخليفة المأمون[2] الممثل البارز والمتحمس لرد الفعل الفارسي. وللحركة العباسية هذه أوجه شبه كثيرة، بتلك الحركة التي قادت الشعوب الجرمانية التي اعتنقت المسيحية، إلى البحث في اليونان عن إلهام فلسفي وأدبي. لكن أسبابا خارجية أوقفت حركة التطور، وهو السبب الذي أبقى النظر إلى الفلسفة لدى المسلمين على أنها تدخل أجنبي، وبالتالي أجهضت المحاولة وبقيت بلا نتائج في مجال تعليم وتثقيف شعوب الشرق.

وقد اعتبر المتكلمون علماء عقيدة تقليديون (Théologiens scolastiques) اقتصر دورهم على الدفاع عن قواعد وأركان الإسلام ضد هجمات الفلاسفة. وكانت مدارسهم ببغداد، في نهاية القرن 4 هـ /10 م، مفتوحة مهما كانت ديانات أصحابها، كما كانت المسائل الفلسفية والعقدية تناقش بكل حرية، وليس شرطا أن تكون وفق قواعد الشريعة الإسلامية.

لم تكن مجالس المتكلمين تشتمل فقط على المسلمين من كل الطوائف السنية (Horthodoxes) والبدعية (Hétérodoxes)، ولكنها تجمع أيضا الكفار

الميلادي يكادون جميعا يكونون من السريان، ونقلوا ما نقلوه: إما عن التراجم السريانية أو عن تراجم أصلحوها هم أو قاموا بها من جديد. - دافيد سانتلانا، **مصدر سابق**، ص: 145.

(1) - DOZY, "Sur l'averroïsme", J. A., 1863, **op. Cité**, P : 92.

(2) - يرى بعض الباحثين، إن **الإسلام** لم يعرف **الفلسفة اليونانية** إلا حين بدأت تلك الحركة الرسمية في عهد الخليفة المنصور العباسي، وبلغت ذروتها أيام الخليفة المأمون، وإن اتصال الفلسفة اليونانية بالإسلام، إنما تم حين استحضرت كتب الفلسفة اليونانية من الخارج (من بيزنطة مثلا).وقد أثبتت الأبحاث الحديثة بصورة قطعية، أن مراكز البحث الفلسفي كانت منتشرة في العالم القديم الذي فتحه المسلمون وأن هذه المراكز لم يتوقف عملها العلمي. كما أثبت البحث العلمي -أيضا- كذب قصة حرق مكتبة الاسكندرية، وتهافت تلك القصة التي استند عليها بعض مؤرخي العرب بغير تحفظ وبدون تمحيص علمي أو تثبت تاريخي.

ففي بحث للدكتور Max Meyerhof بعنوان: "من الاسكندرية إلى بغداد"، ظهر في (أخبار جلسات الأكاديمية البروسية للعلوم، القسم الفلسفي التاريخي عام 1930)، أثبت أن مدرسة الاسكندرية كانت لا تزال قائمة وقت أن فتح العرب مصر، كما وجدت مدارس علمية وفلسفية أخرى في أنطاكية وحران لم يمسها المسلمون بسوء، فضلا عن مدارس أخرى في: الرها ونصيبين، والمدائن وجنديسابور. - دافيد سانتلانا، **مصدر سابق**، ص: 145- 146.

(Mécréants)، والمجوس (Guèbres) على مذهب زردشت، والماديون (Matérialistes)، والملاحدة (Athée)، واليهود، والمسيحيون، وباختصار، مجالس متكلمين كفار (Incrédules) من كل نوع. ولكل طائفة رئيسها، مكلف بالدفاع عن الأفكار التي يتبناها. كلما دخل رئيس، قام له الجميع كعلامة احترام. فإذا غصت القاعة بالحاضرين يأخذ كافر الكلمة قائلا: "لقد اجتمعنا بغرض التفكير، وتعرفون الشروط، أنتم المسلمون أيضا لا تعارضوا بأفكاركم المستمدة من كتابكم أو القائمة على سلطة نبيكم لأننا لا نؤمن لا بهذا ولا ذاك. كل منا يقتصر إذن، على المعطيات المأخوذة من العقل البشري"، فيهتف الحضور بالموافقة[1]. وإن عبر هذا على شيء فإنما يعبر على قمة التسامح والعفو لاسيما عند المقدرة.

تبنى يهود الأندلس الفلسفة الرشدية، التي تسربت إلى الفلسفة السكولاستيكية. وقد قام ميخائيل سكوت[2] (SCOT)، بمساعدة يهودي، في ترجمة مؤلفين لابن رشد بطليطلة، ومع حلول منتصف القرن 7 هـ /13 م، كانت أهم مؤلفات ابن رشد مترجمة إلى اللاتينية. ووجدت نظرياته كثيرا من الأنصار في الغرب. وقد اعتبرته المدرسة الفرنسيسكانية[3] وجامعة باريس، ابن رشد "أكبر مترجمي أرسطو"، ولذلك حظي

---

(1) - DOZY, "Sur l'averroïsme", J. A., 1863, **op. Cité**, P : 93.

- نقل الكلام أبو عمر أحمد بن محمد بن السعدي الذي زار بغداد في نهاية القرن 4 هـ /10م، في حوار له مع أبي محمد بن أبي زيد القيرواني. - للمزيد من التوسع في الموضوع انظر:

- الفخر الرازي، **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**، القاهرة، 1938.

(2) - **ميخائيل سكوت**: (1175- 1236)، راهب بندكتي اسكتلندي، تعلم في أكسفورد وجامعة باريس، ثم رحل إلى طليطلة حيث أتقن العربية، ثم عينه فريديريك الثاني إمبراطور صقلية منجما ومشرفا على مكتب الترجمة. ترجم عدة كتب لابن سينا والبطروجي وابن رشد والترجمات العربية من أرسطو، كما ألف عنها أيضا. - الموسوعة العربية الميسرة، ج 3، **مصدر سابق**، ص: 1355.

(3) - **الفرنسيسكانية**: رهبانية أسسها القديس فرنسيس (Saint Francis) الأسيّزي عام 1209 م، ولكنها سرعان ما انقسمت على نفسها حتى قبل وفاة مؤسسها عام 1226. وفي عام 1525 م نشأت الرهبانية الكبّوشية بوصفها حركة إصلاحية ضمن نطاق الرهبانية الفرنسيسكانية، ثم استقلت عنها نهائيا عام 1619. وأفراد الرهبانية الفرنسيسكانية يعيشون عيش الكفاف، وقد تولوا مهمة الإشراف على الأماكن المقدسة المسيحية في فلسطين منذ القرن 15 م. ولهم نشاط واسع في حقل التبشير.

أما مؤسس الفرنسيسكانية، فرنسيس الأسيّزي القديس (1182- 1226)، فهو راهب ومبشر إيطالي. يعتبر أحد زعماء الإصلاح الكنسي البارزين في القرن 13 م. بعد تأسيسه الفرنسيسكانية عام 1209، أنشأ شعبة منها خاصة بالنساء عام 1212. وعاش عيشة فقر وَضَعَة وتعاطف مع البائسين. زال الأراضي المقدسة عام 1219 ثم انقلب إلى إيطاليا ليعيد تنظيم رهبانيته.

باحترام الأستاذ، فيما اعتبره البعض الآخر، لاسيما مدرسة الدومينيكان[1]، المؤسس لفكر منبوذ (Damnable Doctrine)، والممثل للمادية والكفر والزندقة، فابن رشد في نظر هؤلاء، مبتدع.

ومهما يكن من أمر، فإن تاريخ الرشدية وتأثيرها قد تواصل إلى القرن 11 هـ/ 17 م، على الأقل من خلال مدرسة "بادوا"[2] (Padoue)[3].

وقد أثار مخطوط المسائل الفلسفية -أو "المسائل الصقلية" الموجهة إلى علماء المسلمين من إمبراطور صقلية (FREDERIC II)- اهتمام المستشرقين، وهي المسائل التي أجاب عنها، بسبتة في النهاية، ابن سبعين[4]، وتتعلق بالعالم والقدم والخلق

- موسوعة المورد، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 162.

(1) - **الدومينيكانية:** رهبنة أسسها القديس دومينيك (Saint Dominic) عام 1215 م. بدأت نشاطها، أول ما بدأته، في مدينة تولوز بفرنسا، وكانت أول رهبنة كاثوليكية أخذت على عاتقها التبشير بالعقيدة المسيحية، وهي مهمة كانت تعتبر من قبل وقفا على الأساقفة (ومندوبيهم) وامتيازا لهم. وقد تميز الدومينيكانيون الأولون بثقافة تخطت اللاهوت إلى دراسة أرسطو كما عرفته أوربا من خلال الفلاسفة العرب، وإلى محاولة التوفيق بين اللاهوت والفلسفة أيضا.

وأما مؤسس الدومينيكانية القديس دومينيك (1170- 1221 م)، فهو راهب كاثوليكي إسباني المولد، وعمل في فرنسا. أنفق جانبا كبيرا من سني حياته في محاربة الهرطقة ودعوة الهراطقة إلى العودة إلى حظيرة الكنيسة الرومانية. وقد ارتحل إلى روما، خلال ذلك، مرات متعددة لكي يحظى بالموافقة على نشاطاته تلك، وفي إحدى هذه الرحلات حصل على إجازة بإنشاء الرهبنة الدومينيكية.

- **نفس المصدر السابق**، ج 3، ص: 211.

(2) - بادوا: مدينة في إقليم فينيشا، شمال شرق إيطاليا. تأسست بها جامعة عام 1222 م، واستمرت في ازدهارها لمدة طويلة. ألقى جاليليو محاضرات بجامعتها (1592- 1610).

- الموسوعة العربية الميسرة، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 426.

(3) - DOZY, "Sur l'averroïsme", 1863, **op. Cité**, P : 94-95.

(4) - **ابن سبعين:** هو عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر(614 – 669 هـ/ 1218 - 1270 م) ، صوفي أندلسي متفلسف. ولد في وادي رقوطة من أعمال مرسية، ودرس لعربية والآداب على جماعة من شيوخها، ونظر في العلوم الدينية على مذهب مالك، وفي العلوم العقلية، وفي الفلسفة. كما حصل على علوم الأوائل والأواخر بمحض الاطلاع على الكتب المصنفة فيها، وليس عن طريق الأساتذة.

هاجر من مرسية حوالي عام 640 هـ/ 1242 م قاصدا شمال إفريقيا ومعه فريق من تلاميذه ، ولعله هاجر لأسباب سياسية منها: ضعف دولة الموحدين وانتهاء عهد الحرية الفكرية في الأندلس، أو لهجوم بعض الفقهاء عليه. وانتهى المطاف بابن سبعين إلى مدينة سبته، وكان حاكمها آنذاك ابن خلاص، وفي أثناء إقامته فيها تزوج، وبها أيضا بعث إليه الإمبراطور فريدريك الثاني (1194- 1250 م) حاكم صقلية، بأسئلته الفلسفية الأربعة التي تدور حول فلسفة أرسطو، ويبدو أن حاكم سبته تبين من إجابة ابن سبعين على أسئلة الإمبراطور أنه فيلسوف،

والإبداع والحدوث، ومبادئ علم العقيدة ومقاصدها، والمقولات في العلوم، والروح والإيمان...الـــخ[1].

– **الرياضيات العربية:**

اهتم العرب، بحماسة وشوق كبيرين بعلم الرياضيات. فتبنوا أولا علوم الهنـــود، وفيما بعد علوم الإغريق. وقاموا برحلات إلى بلاد اليونان بغـــرض الحـــصول علـــى مخطوطات، لأجل هذا، يعترف المستشرقون بأن بعض المؤلفات الأساسية في الرياضيات الإغريقية لم تحفظ للأوربيين إلا في شكلها المترجم إلى العربية[2].

تشتمل الرياضيات في أساسها على الأرقام والأعداد وحسابها، وعلى الجبر والهندسة وغيرها. والحساب أنواع، منه الحساب الغباري، وهو استعمال للأرقام الغباريـــة. أخـــذ اسم غباري لأنه يجرى في الأصل على ألواح أو مناضد من خشب، مغطاة بغبار الرمـــل الدقيق. وهناك عدة كتب في الموضوع منها: "كشف الأسرار عن

علم حروف الغبار"، و"كشف الحجاب عن علم الحساب"[3] للقلصادي الأندلسي[4].

فأجبره على مغادرة المدينة، فخرج منها إلى العدوة، ومنها إلى بجاية، وأقام بهذه المدينة فترة، ثم دخل قابس في تونس، ولكنه لقي فيها عداء شديدا منفقيه يدعى أبا بكر بن خليل السكوني، فقرر ابن سبعين الهجرة نهائيا إلى المشرق...
– مدكور، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 163- 164.

(1) - AMARI, "Questions philosophiques adressées aux savants Musulmans" par FREDERIC II, **J. A.**, 5^{me} série, T : 1, 1853, PP : 240-266.

– **ثقافة ابن سبعين:** كما تبدو من مصنفاته واسعة منوعة، فهو قد عرف مذهب فلاسفة اليونان، والفلسفات الشرقية القديمة كالهرمسية والفارسية والهندية، ووقف على مذاهب فلاسفة الشرق: كالفرابي وابن سينا، وفلاسفة المغرب: كابن باجة وابن طفيل وابن رشد، وله إلمام واضح بما تضمنته رسائل إخوان الصفا، ومعرفة دقيقة بمذاهب المتكلمين خصوصا الأشعرية، وهو إلى جانب ما تقدم عميق المعرفة بمذاهب الفقه الإسلامي. – مدكور، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 165

(2) - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 148.

(3) – حسب خليفة: "كشف الجلباب في الحساب"، انظر: – كشف الظنون، ج 2، **مصدر سابق** ص: 1488.

(4) – **القلصادي**: هو أبو الحسن علي بن الحسن محمد البسطي الشهير بالقلصادي(815-891 هـ /1412- 1486 م). من أشهر الرياضيين الذين ظهروا في القرن 15 م. ولد في مدينة بسطة في الأندلس، وتوفي في مدينة باجة التونسية. عاش مدة في تلمسان وأخذ فيها العلم وانتصب للتدريس بها. كان صاحب فضل وعلم، اعترف له بذلك علماء عصره.

اشتغل القلصادي بالحساب، وألف فيه تآليف نفيسة، وأبدع في نظرية الإبداع والإعداد وله في ذلك ابتكارات. نذكر من آثاره في علم الحساب: "كتاب كشف الجلباب عن علم الحساب" في 4 أجزاء، و"كتاب كشف

أما علم الجبر فيقوم على ثلاثة عناصر هي: الأعـــداد، والأشـــياء أو المجاهيـــل، والتربيع أو الأس الذي يضاف إليه التكعيبات. ليس للأعداد أس، وأس المجاهيـــل هـــو واحد، وأس التربيع اثنان، والتكعيب ثلاثة. فضمن هذه العناصر ككل، ليس هناك من معلوم إلا العدد. أما الأشياء والجذور فلها نفس المدلول، وتعني مقدارا مجهولا. والمربـــع هو محصلة لضرب الأشياء في نفسها. وأما التكعيب فمحصلة ضرب المربع في جذره.

ويعني الجبر في اللغة التقنية، فعل نزع أو طرح حرف من استثناء وما يتبعه، ونقله إلى الشطر الآخر مع المحافظة على المعادلة. والمقابلة والمعادلة، هي فعل اختبار عبـــارات المسألة، أو النظر بين ألقاب المسألة، وطرح كل نوع مماثـــل: النـــاقص مـــن الزائـــد، والموجب هو الذي يسبق جزيء السالب، والسالب هو الذي يتبعه (1) الخ...

والأمر المؤكد، أن العرب في القرنين الثاني والثالث الهجريين جمعوا بعناية المؤلفات الرياضية الإغريقية، وترجموها إلى العربية بمساعدة مترجمين أجانب، في أغلب الظـــن، وبحثوا على توضيحها بشروح. ورغم أن المؤلفين العرب، الذين عرفوا من المستشرقين، لم يطوروا إلا عددا قليلا من النظريات الجديدة في الحساب، وأنهم توقفوا عنـــد حـــل المعادلات من الدرجة الأولى والثانية، يجب الاعتراف لهم بكـــونهم المكملـــين للعـــصر العلمي القديم، وأنهم أنقذوا علوما من النسيان، كانت ستلتهمها عهود الجهـــل، الـــتي خيمت على أوربا في القرون الوسطى.

هناك نظرية جديدة ووحيدة، جديرة بالتنويه، إلى القرن 19 م، هي نظرية ثابت

الأسرار عن علم أسرار الغبار" في 4 أجزاء أيضا، و"كتاب قانون الحساب"، و"كتاب تبصرة في حساب الغبار"، وله شروحات لكتاب "تلخيص الحساب" لابن البناء.

– عبد الرزاق بن حمادوش، **رحلة ابن حمادوش الجزائري**، تقديم وتحقيق وتعليق د. أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص: 106.

– محمد العربي، **المناهج والمذاهب الفكرية والعلوم عند العرب**، ط 1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994، ص: 235.

(1) – WOEPCKE, Recherches sur l'histoire des sciences mathématiques chez les orientaux, d'après des traités inédits Arabes et Persans, **J. A.**, 5me série, T : 4, 1854, P : 358-364.

بن قُرَّة[1] (Ben Korrah)، التي أضــافها إلى الحــساب النظــري (Arithmétique Spéculative)، للإغريق[2].

وتوقع CHERBONNEAU، أواخر المرحلة التي تعنينا، العثور على تآليف كثيرة في مجال الرياضيات، ضمن كتاب ساهموا في رفع سمعة الأندلس وبلاد المغرب، خــلال العصور الوسطى، لأنه في نظره، يستحيل على أمة -بلغت ما بلغته الأمة العربيــة مــن تطور فكري وكانت خلال فترة من الزمن في مقدمة ركب الحركة الفكرية والثقافيــة الأوربية- أن تكون قد ولدت عبقريا واحدا قادرا على تحريك حدود العلم. وتحقيقــا لمسعى المستشرقين في هذا المجال، سعى "شيربونو" إلى مراجعة تــصانيف القــرافي[3] وأحمد بابا، من علماء المالكية، ومن ضمنهم أيضا القلصادي ذي المعارف الرياضية[4].

---

(1) - **ثابت بن قرة:** ولد في حران شمالي العراق(221- 286 هـــ /836- 901 م)، وكان على دين الصابئة. نزح إلى بغداد حيث تعلم الفلسفة والرياضيات. وقيل أنه سافر إلى جنوب العراق حيث التقى بالخوارزمي الرياضي المشهور، فأعجب الأخير بذكائه وعلمه فاصطحبه معه إلى بغداد حيث قدمه إلى الخليفة المعتد. وقد أحبه الخليفة وأدخله إلى بلاطه وأنعم عليه بالعطاء، وكذلك فعل معه الخليفة المعتضد (ابن الأول). وفي بغداد وضع ثابت معظم مؤلفاته، المتعلقة بعلوم الرياضيات والفلك والطب والصيدلة، ومنها المؤلف ومنها المترجم.

تجلت عبقريته العلمية في مجال الرياضيات، إذ مهد لحساب التكامل والتفاضل مما أتاح للعلماء المعاصرين تطوير علوم أخرى مرتبطة بالحساب وبالرياضيات. وترك ثابت رسائل ومؤلفات في الهندسة التحليلية التي تطبق الجبر على الهندسة، وينسب إليه تقسيم الزاوية بطريقة تختلف عن طريقة الرياضيين اليونان. ولثابت جهود ملحوظة في الأعداد المتحابة والتامة والناقصة والزائدة. وله أيضا المربعات المسطحة والمعادلات التكعيبية. ومن الكتب التي ترجمها نذكر: "المدخل إلى علم العدد".

وفي علم الفلك: يروي ابن أبي أصيبعة أن ثابتا قد بنى مرصدا حاول بواسطته ضبط السنة الشمسية وطول أيامها، وله نظرية جريئة حول الاهتزاز الأرضي.

وفي الطب: كان ثابت طبيبا بارعا وجه اهتمامه لمسائل التوليد والأورام ويقال إنه حضر أدوية ناجعة لمعالجة بعض أنواع النوبات القلبية. وله مؤلفات ودراسات في الفلسفة والمنطق والموسيقى والصيدلة.

- العربي، **مصدر سابق**، ص: 237- 238.

(2) - CHERBONNEAU, "Notice bibliographique sur Kalçadi, mathématicien arabe du 15me Siècle", **J. A.,** 5^{me} série, T : 14, 1859, P : 438-439.

(3) ــ **القرافي:** (توفي عام 683 هـــ /1285 م)، هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، أبو العباس، شهاب الدين الصنهاجي القرافي: من علماء المالكية، نسبته إلى قبيلة صنهاجة (من برابرة المغرب) وإلى القرافة (المحلة المجاورة لقبر الإمام الشافعي) بالقاهرة. وهو مصري المولد والمنشأ والوفاة. له مصنفات في الفقه والأصول.

- الزركلي، الأعلام، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 94- 95.

(4) - CHERBONNEAU, "Notice bibliographique", J. A., 1859, **op. Cité**, P : 438.

وفي زيارة للمستشرق LETOURNEUX إلى واحات سوف، والشعانبة، ووادي قير بالجزائر، لفت انتباهه إلى نظام عددي خماسي كان لا يزال قيد التطبيق، في أوساط الناطقين باللسان البربري، إذ كان لديهم خمس ألفاظ للدلالة على أرقام الآحاد الخمسة الأولى، ثم يعيدون الكرة، أي أنهم يسمون سبعة وثمانية وتسعة، خمسة وواحد، خمسة واثنان، خمسة وثلاثة (فوس-ايغام، فوس-تزام، فوس-شريت، وفوس-أوكاس)[1]. ويرى المستشرق HANOTAUX خلاف ذلك لدى التوارق، وتطابقا مع قبائل الوولف بالسينيغال[2]. بينما تأثير الأعداد العربية على الأعداد البربرية لا يحتاج إلى برهان[3].

كان البيروني[4] عالم في الرياضيات العربية عاش بـ "مولتان" (Moultan) (الهند) وتعلم السانسكريتية. ومن المحتمل أن يكون قد ألف بالسانسكريتية في الرياضيات. وقد عاد إلى غزنة في عهد السلطان محمود، وأنهى كتابه في العلوم الهندية عام 423 هـ /1031 م، ومن ضمنها علم الرياضيات. وكتابه هذا غير معروف من

---

(1) - REINAUD, "Sur le système primitif de la numérotation", J. A., 1860, **op. Cité**, P : 110.

(2) - **نفس المصدر** السابق، ص: 112-113.

(3) - Lettre adressée à REINAUD par HANOTAUX, Dra el-Mizan, le 29/10/1860 **J. A.**, 5^{me} série, T : 16, 1860, PP : 264-267.

(4) - **البيروني**: هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني(362- 440 هـ /973- 1048 م)، أحد أعلام العصر الذهبي للعلم الإسلامي. عاصر ابن سينا وابن الهيثم، ونافسهما فيما برزا فيه. ولد في بيرون وقضى فيها نحو عشرين سنة دارسا ومتعلما، فأجاد العربية والفارسية ، وألم بشتى الدراسات الإسلامية من أدب وفقه وعلم وفلسفة. ثم طوف في عدة أقاليم: في فارس وأفغانستان، في العراق والشام. واتصل بكبرى الدول الإسلامية في عصره، وبخاصة الدولة الساسانية حيث. لقي ابن سينا، ودارت بينهما مناظرات ومحاورات، والدولة الغزنوية التي فتحت أمامه الطريق إلى الهند، ودفعته إلى تعلم السنسكريتية، ومكنته من أن يقيم في الهند زمنا كشف فيها عن طقوسها وعباداتها، ونظمها وطبقاتها. وللرحلة شأن في اتساع آفاقه وشمول رؤيته.
كان للبيروني دراية خاصة بالفلك والرياضيات، درسهما عن عمق وصنف فيهما الكتب الجليلة، برهن فيها على أصالة وابتكار.
- مذكور، **مصدر سابق**، ج 1، ص: 118. - انظر كذلك: - ابن حمادوش، **مصدر سابق**، ص: 140.

المستشرقين إلا من خلال فصل يتعلق بالجغرافيا، كان REINAUD قد استغله، فأثار به فضول المستشرقين، ورغبتهم على مستويات عليا، في معرفة باقي الكتاب[1].

شكلت مجمل الوقائع المبرهن عليها والنظريات المكتسبة، إرثا انتقل من جيـل إلى جيل، ومن شعب إلى آخر، فتراكمت أثناء تنقلها. بهذا الشكل تم توريث العرب المسلمين رياضيات الإغريق والهنود الذين نقلوها بدورهم إلى الغرب المسيحي، بعد أن أضافوا إليها[2].

من أين للأوربيين بالأرقام الحديثة المسماة "الأرقام العربية" ؟ هل هي هندية الأصل، كما تنسبها العرب؟ أو هي لفيثاغورس[3] (Pythagore) حسب كاتب لاتيني سابق للعرب المسلمين؟ ومهما كان الأمر من هو صاحبها؟

يؤكد المستشرق الألماني WOEPCKE، أنها ليست من اختراع العرب، وأن الكل يؤيد هذا الرأي بمن فيهم العرب أنفسهم[4].

والواقع أن اكتشاف هذه الأرقام واستعمالها لا يقل أهمية عن اكتشاف النار والبخار. وقصة كيفية انتقالها من الهنود إلى العرب في عهد الخليفة المأمون معروفة، وهؤلاء هم الذين نقلوها إلى البلاد المفتوحة حتى الأندلس[5].

ومراتب العدد عند جمهور القدماء أربع هي: الآحاد، العشرات، المئات والآلاف. وذلك "ملاحظة لمراتب الأمور الطبيعية، التي أكثر ما جعلها الخالق (عز وجل) أربع، مثل: الأركان الأربع، والطبائع الأربع، والأزمنة الأربع، والجهات الأربع، والرياح الأربع، والاستقصات الأربع، والأخلاط الأربع، ونحو ذلك"[6].

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1862, **op. Cité**, P : 22-23.

(2) - WOEPCKE, "Mémoire sur la propagation des chiffres indiens", **J.A.**, 6^me^ série, T : 1, 1863, P : 27-28.

(3) - **فيثاغورس**: ولد في ساموس وهو فيلسوف يوناني ازدهر في حوالي عام 530 ق.م. ذاع صيته لمعلوماته العلمية والرياضية، حيث كان رياضيا بارعا. ولقد برهن على أن قوة الأصوات تابعة لطول الموجات الصوتية.
- سانتلانا، **مصدر سابق**، ص: 22.

(4) - WOEPCKE, "Mémoire", **J. A., op. Cité**, 1863, P : 29- 30.

(5) - **نفس المصدر السابق**، ص: 35.

(6) - **نفس المصدر**، ص: 59-60.

ولا بد من الإشارة إلى أن هناك اختلافا أساسيا بين الأرقام الهندية لعرب المشرق والأرقام الغبارية (Gobar) المستعملة من عرب المغرب والأندلس. فهذه الأخيرة هـي التي انتقلت إلى مسيحيي أوربا، لما كانوا ينتقلون إلى الأندلس للدراسة وتحصيل العلـوم العربية، لاسيما فيما بعد على يد "جربرت" الذي صار فيما بعد بابا باسم (Sylvestre II) (توفي عام 394 هـ /1003 م). وكان "جربرت" قد درس بإشبيلية أو قرطبة، أين تحصل على معارف تتعلق بالأرقام واستعمالهما وبفضل جهوده التي استمات فيهـا - كمصلح في مجال العلوم- انتشر استعمال الأرقام في كل أمم أوربا المسيحية[1]. ومـع ذلك لم يكن المستشرقون، خلال الفترة التي تعنينا، يملكون مخطوطـات في الموضـوع تتعدى القـرن 5 هـ /11 م[2].

طرح الأوربيون على مستويات علمية عالية مسألة الرياضيات العربية، ومـا إذا كان العرب مجرد نقلة لرياضيات الهنود والإغريق، أم أنهم أضافوا إليها وطوروها؟

وقد حاول جملـة مـن الكتـاب -أمثـال: (G. Meerman) عـام 1742، و(Montucla) عام 1798، و(M. Gartz) عام 1820- طرح المسألة اعتمـادا علـى مخطوط في الموضوع بليدن. وقد توصلوا بالتخمين إلى أن العرب بلغـوا بالرياضـيات المعادلات من الدرجة الثالثة (Equations cubiques)، غير أن الأمر بقي مجرد فرضية[3]، على الأقل إلى بداية الفترة التي تعنينا.

وقد أدى توفر مادة تاريخ الرياضيات، إلى اهتمام المستشرق SEDILLOT بهـا، وأصدر الجزء الأول من كتاب له(4) في الموضوع. وكان هدف هذا الكاتـب هـو البرهنة، من خلال مقارنة المعالم المتوفرة، أن مدرسة بغداد عرفت كيف تطور المعارف

---

(1) - **نفس المصدر**، ص: 35. انظر كذلك أصل رسم الأعداد وتطورها، **نفس المصدر**، ص: 62-63 وكذلك ص: 75.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 30-31.

(3) - SEDILLOT, "De l'Algèbre chez les Arabes", **J. A.**, 5^me^ série, T : 2, 1853, P : 323.

(4) - L. Am. SEDILLOT, **Matériaux pour servir à l'histoire comparée des, sciences mathématiques chez les Grecs et les orientaux**, T: 1, Paris, 1845, (466p.). Et T : 2, Paris, 1849, (304p.).

في مجال الرياضيات والجغرافيا وعلم الفلك، التي استقتها من الإغريق. وكان "سـيديو" يبحث أيضا، قسط الهنود والصينيين في تطور العلوم الدقيقـة(1).

اكتسبت العلوم العربية تطورا وأهمية لائقتين، لكن الأوربيين ظلوا غير معترفين بها لفترة طويلة. وكان الغرض من ذلك معرفة ماذا أضاف العرب إلى التطور الذي أحرزه الإغريق في العلوم الرياضية والتأثير الذي مارسوه -في الموضوع- على شعوب آسيا الشرقية؟[2].

يعتبر المستشرق SEDILLOT مدافعا شرسا، في نظر غيره من المستشرقين، عـن التطور الذي أحرزه العرب في مجال تطوير العلوم التي اقتبسوها من الإغريق[3].

كان COLEBROOKE، قد قام بمقارنة مؤلف ابن موسى[4] بمؤلف بهاء الدين[5]، وانتهى إلى أن العرب تركوا الجبر في الحالة التي تلقوه فيها من الإغريـق. غـير أن مسألة التطور الذي أحرزه العرب في الجبر، كانت موضوع دراسة خاصة قام بها أيـضا العالم الألماني WOEPCKE، فنشر نص وترجمة مؤلف عمر الخيام[6] حول المعادلات،

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 25.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 138.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 139.

(4) - **محمد بن موسى**: بن شاكر أبو عبد الله (المتوفى عام 259 هـ /873 م)، العلم بالهندسة والحكمة والموسيقى والنجوم، ترك عدة مصنفات منها: "كتاب الحيل لبني موسى بن شاكر المنجم"، ومقالة في "حركة الفلك الأولى"، و"كتاب الثلث"، و"كتاب الجزء"، و"كتاب الشكل الهندسي"، و"كتاب المخروطات"، وغيرهما. - البغدادي، هدية العرفين، ج 6، **مصدر سابق**، ص: 16- 17.

(5) - بهاء الدين: لم نجد له ترجمة، لعله الحنبلي ولعله ابن حنا.

(6) - عمر الخيام: ولد في نيسبور وتوفي فيها (443- 517 هـ /1051- 1123 م). لقب بالخيام لأنه اشتغل بحرفة الخيامة في بداية حياته وقد خصصه أحد أصدقائه، بعدما تولى منصب وزير، براتب سنوي من خزينة نيسابور مما وفّر للخيام معيشة كريمة مكنته من الانصراف إلى تحصيل العلوم والدرس.

قامت شهرة الخيام على شعره وفلسفته، وقلة من الباحثين فقط عرفت مكانته ومنجزاته في علوم الرياضيات والفلك.

كان الخيام لا يعتقد أنه بالإمكان حل المعادلات ذات الدرجة الثالثة بطريقة جبرية وكذلك معادلات الدرجة الرابعة بواسطة الهندسة، وقد تمكن الخيام من حل حتى المعادلات التكعيبية هندسيا.

والخيام من أوائل الذين حاولوا تقسيم المعادلات إلى أقسام متنوعة واعتبر المعادلات ذات الدرجة الأولى والثانية والثالثة إما بسيطة وإما مركبة. كما تمكن من استنباط طريقة إيجاد مفكوك أي مقدار جبريّ ي حدين مرفوع إلى قوة أساسها أكثر من اثنين. والخيام تمكن أيضا من حل معادلات من الدرجتين الثالثة والرابعة عن طريق قطع المخروط.

واتبعه بنصوص كثيرة اقتبست من مؤلفات علماء جبر عرب آخرين، كما ناقش المؤلف في مقدمة الكتاب مناهج العرب والنتائج التي توصلوا إليها (1)، فبرهن على أن مدرسة بغداد في الرياضيات، قد بلغت في القرن 5 هـ/11 م، درجة عالية في معارف الجبر، وفاقت بكثير ما توصل إليه الإغريق(2).

وفي إطار المحو التدريجي للخلفية التي ظل الأوربيون يتداولونها لفترة طويلة، والتي مفادها أن العرب لم يحسنوا إلا نقل أو شرح المؤلفات الإغريقية، التي درسوا من خلالها العلوم، أصدر WOEPCKE مقالا عن نظرية مضافة من طرف ثابت بن قرة إلى الحساب العلمي لدى الإغريق(3).

وقد أفاد WOEPCKE، أكاديمية العلوم باكتشافه للترجمة العربية لكتيب صغير لـ(4) (Euclide)، ذو الأصل المفقود، حول علم توازن القوى (5)(Statique).

إن WOEPCKE لمن المستشرقين القلة، الذين يجمعون المعارف الضرورية للدراسات العسيرة(6). فقد نشر بباريس مؤلفا(7)

وقد وردت هذه المساهمات في "كتاب الجبر" للخيام، والذي ترجم إلى الفرنسية عام 1851.
- العربي، **مصدر سابق**، ص: 248- 249.

(1) - F. WOEPCKE, **L'algèbre d'Omar Alkhayyam,** publiée, traduite et accompagnée d'extraits de manuscrits inédits, Paris, 1851, (19, 52, 127p.).

(2) - Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 139-140.

(3) - WOEPCKE, "Notice sur une théorie ajoutée par Thabit Ben Korrah, à l'arithmétique spéculative des Grecs", **J. A.,** 4me série T : 20, 1852, P : 420-425.

(4) - **أوقليدس**: رياضي إغريقي (330- 275 ق.م.). عرف أوقليدس كمعلم في الإسكندرية، ويظن أنه درس في أثينا، وقد اتسعت شهرته بسبب كتبه في الهندسة والتي يكاد استعمالها يعمر ألفي عام.
من أهم كتب أوقليدس ثلاثة عشر مجلدا بعنوان: العناصر، ترجمها عن اليونانية علماء المسلمين في عصر الترجمة والتدوين، ثم نقلها علماء أوربا إلى اللاتينية مجددا عن اللغة العربية عام 1482. و لم يبهت بريق الهندسة الأقليدية إلا بظهور النظرية النسبية في القرن 20، دون أن يعني ذلك انتهاء الهندسة الأقليدية. ومن مؤلفات أوقليدس الأخرى كتاب: "المعطيات" (Data) في الهندسة، وكتاب "الظواهر" في الفلك، وغيرها.
- **موسوعة العلماء .. والمخترعين**، ط 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1978، ص: 31.

(5) - Rapport annuel, J. A., 1851, **op. Cité**, P : 140. انظر أيضا:
- WOEPCKE, "Notice sur des traductions arabes de deux ouvrages perdus d'Euclide, **J. A.,** 4me série, T : 18, 1851, PP : 217-225.

(6) - Rapport annuel, J.A., 1853, **op. Cité**, P : 148.

(7) - WOEPCKE, "**Extrait du Fakhri, traité d'algèbre par Abou Bekr Mohammed ben Alhaçan Alkarkhi**, précédé d'un mémoire sur l'algèbre indéterminée chez les Arabes, Paris, 1853".

للكرخي[1]، عالم الرياضيات العربية، أثبت من خلاله معرفة العرب للجبر الغير منتهي (l'Algèbre indéterminée)، وأن أعمالهم عن الموضوع ارتكزت على "ديوفانت"[2] (Diophante) ، وأن العرب أضافوا إلى أعمال الأخير، مناهج جديدة ومسائل أرفع مستوى، بالإضافة إلى أن التطورات التي عرفها الجبر والتي نسبت إلى "فيبوناكسي"[3] (Fibonacci) ، إنما استعيرت من الفخري (؟).

والواقع أن هذه المسألة التي اتضحت بفضل الجهود السابقة، ستزيل نقصا فادحا في تاريخ الرياضيات، وتضبط موقع أو مكانة العرب الحقيقية، بين الإغريق وإيطاليي عصر النهضة، المكانة التي بقيت لمدة طويلة غامضة -لدى الأوربيين- بل ومعترضا عليها[4].

ترى ما هي أصول الجبر؟

لما كلف الخليفة المأمون، عام 215 هـ /830 م، محمد بن موسى بكتابة وتحرير أصول الجبر، يبدو أن جملة من كتب الهنود في مجال الرياضيات والفلك كانت تتوفر في بغداد، ومنها اقتبس محمد بن موسى جزءا من مؤلفه الذي عرف مبكرا في الغرب،

---

(1) - **الكرخي**: هو محمد بن الحسن أبوبكر الكرخي(355- 407 هـ /965- 3 سبتمبر 1016 م). تظهر أهمية الكرخي لدى البحث في مؤلفاته وأهمها: "كتاب الفخري" و"كتاب الكافي" و"كتاب البديع". يشتمل كتاب الفخري على خمسة عشر بابا، يتناول في بعضها نظريات عدة في الحساب والجبر فيبحث الأعمال الأربعة فيهما، وفي النسبة واستخراج الجذور الصماء وضربها وقسمتها ويتفنن في هذه المباحث ويعطي طرقا مبتكرة لحلولها وقواعد جديدة في التربيع والتكعيب.

وفي الكتاب عرض لنظريات أخرى تعين على استخراج المسائل بالجبر والمقابلة وفي الباب الثاني عشر منه أعطى الكرخي المسائل الست في الجبر وهي تشمل على حلول لمعادلات الدرجة الثانية في صورها المختلفة.

وفي الباب الثالث عشر بحث في معادلات من رتب أعلى واستعمل القانون العام المعروف في حل لمعادلات الدرجة الثانية.

وفي الكتاب بيان لحلول المعادلات غير المعينة أي السيالة. وقد ترجم كتاب الكرخي إلى اللغات الأوربية وهو يمثل التفكير العربي المستقل في معالجات المباحث الرياضية.

- العربي، **مصدر سابق**، ص: 247- 248.

(2) - **ديوفانت**: (325- 410 م) عالم رياضي إغريقي، ينتمي إلى مدرسة الإسكندرية. أول من كتب عن الرياضيات التي أسماها العرب الجبر. ترك ستة كتب في علم الحساب، تضمنت معادلات متوسطة ذات مكافئات معقولة ويلزمها حل منطقي ويطلق عليها اسم "المعادلات الديوفانتية".

- موسوعة العلماء، **مصدر سابق**، ص: 136.

(3) ـــ **فيوناكسي**: (1175- 1240)عرض المعارف الرياضية العربية، وأدخل استعمال الأعداد المعروفة بالعربية.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1853, **op. Cité**, P : 149.

وكان السبب في تزويد الأوربيين بالمعارف الأولية في الجبر[1] ، كما يعترف المستشرقون أنفسهم.

وبما أن المستشرق WOEPCKE لم يعثر في مؤلفات الهندسة للإغريق على أي أثر للجبر، فإنه يستحيل القول إن الإغريق ألفوا معادلات من الدرجة الثالثة. ولذلك فإن الفضل يعود إلى العرب في أنهم حاولوا تطبيق الجبر على الهندسة، والعكس بالعكس. كما أن وضعهم الأسس لعلاقة الحساب مع الهندسة، كان له غاية المساهمة في تطوير الرياضيات، فيما بعد.

ويبدو أن محمد بن موسى لم يتجاوز -في الجبر- المعادلات من الدرجة الثانية، ولذلك يعتبر عمر الخيام أول من اشتغل على المعادلات التكعيبية[2]. والتحليل العددي أو الرقمي، أخذ أشكالا متقدمة، منها على سبيل المثال: ما يعرف في القرن 19 م بالتحليل الجبري لمعادلة ما.

كما أن براهين عمر الخيام، فيما يتعلق بالمعادلات من الدرجة الثانية، هي أكثر أناقة وأكثر علمية من تلك المتعلقة بسابقه محمد بن موسى[3]، ذلك أنه تولد لديه تصور لنظرية منسقة للمعادلات من الدرجة الثالثة، لا بل ارتفع العرب نتيجة ذلك إلى مستوى حل مسائل الدرجة الرابعة، التي ضموها إلى عباراتهم الجبرية[4].

وهكذا فإنه ابتداء من منتصف القرن 4 هـ /10 م، صار جبر الإغريق يهيمن على جل المدارس العربية[5].

ومهما يكن الأمر، فإن العرب المسلمين في مجال العلوم، هم تلامذة الإغريق والهنود، في نظر المستشرقين، ولكنهم أساتذة أوربا العصور الوسطى. فهل هم فقط ورثة للإغريق أم مكملون لهم، وفي هذه الحالة الأخيرة، كم أضافوا لما حققوه من نتائج

---

(1) - L. Am. SEDILLOT, "De l'Algèbre chez les Arabes", J. A., 1853, **op. Cité**, P : 326.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 327.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 327-328.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 331.

(5) - **نفس المصدر**، ص: 327.

أبحاثهم الخاصة؟ إنه السؤال الذي أجابت عنه الكثير من أبحاث المستشرقين الفرنسيين وغير الفرنسيين، خلال الفترة التي تعنينا على الأقل، بالرغم من أن البحث كان متواصلا، بل كان لايزال في بداياته باعتراف المستشرقين الفرنسيين أنفسهم. الأمر الذي جعل السؤال محل عناية وتحقيق جادين من المستشرقين عموما، واعتمادا على المصادر العربية[1].

يعترف المستشرقون الفرنسيون، أن العرب بحثوا عن المؤلفات الرياضية للإغريق خلال العهود المشرقة للخلافة، وأن الأوربيين مدينون لهم بترجمة هذه المؤلفات، التي لو لا هم لاضمحلت[2].

2- الطب والعلوم الطبيعية:

والطب هو حفظ الصحة للإنسان ودفع المرض عنه، ويتفرع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بَدَنُ الإنسان[3].

الطب ضروري في المدن والأمصار، وفائدته حفظ صحة الأصحاء ودفع المرض عن المرضى بالمداواة، كما يقول ابن خلدون[4].

وقد عرفت دراسة تاريخ الطب، الخصب في تعليمه، تطورا نادرا، في أوساط المستشرقين، خلال الفترة التي تعنينا. وإذا كان اهتمام علماء الطب قد انصب، قبل ذلك، على المؤلفين الإغريق والرومان، وأهمل الطب العربي، رغم الفائدة والأهمية التي لا يمكن للمستشرقين إلا أن يعترفوا للعرب بفضلهم فيها حينما يتعلق الأمر بهذا النوع من الدراسة، رأى المستشرقون الفرنسيون بغبطة، أن طب الشرق عموما جدير بتقديرهم. وهكذا فقد ظهر رجال ذوي القدرة الكافية للاقتباس بأنفسهم من المصادر الأصلية، فنشروا مؤلفات كثيرة ذات القيمة الأولى لدى العرب، ولاسيما في موضوع الطب. وكان أمل المستشرقين دائما زيادة عدد الأبحاث والنشرات أكثر فأكثر[5].

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1855, **op. Cité**, P : 49.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1856, **op. Cité**, P : 40.

(3) - ابن خلدون، المقدمة، **مصدر سابق**، ص: 258.

(4) - **نفس المصدر** السابق، ص: 264.

(5) - Aug. HILLE, "Critique ", **J. A.**, 4^{me} série, T : 9, 1847, P : 148-149.

نشر DE SONTHEIMER بشتوتجارت ترجمة ألمانيـــة للكتـــاب الخـــامس في القانون لابن سينا[1]، الذي يتناول الأدوية المركبة للعرب. وقد كمل بهـــذا الكتـــاب ترجمته للمؤلف الكبير لابن البيطار[2] عن النباتات الطبيـــة (Les simples). ويمكـــن القول إنه لأول مرة يظهر هذا الجزء من مؤلفات ابن سينا في لغـــة أوربيـــة، مادامـــت الترجمة التي نشرها (Gérard DE CREMONE) في القرن 16 م، غير دقيقة تماما كي توضع في الحسبان.

---

(1) - **ابن سينا**: (370- 428 هـــ /980- 1036 م)، ولد بقرية خرميثنا (بخارى) وتوفي بهمذان. لما بلغ 10 سنين كان قد أتقن علم القرآن الكريم والأدب وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة، ثم قرأ على الحكيم أبو عبد الله الناتلي كتاب إيساغوجي وأحكم عليه علم المنطق أوقليدس وفاقه فيها أضعافا. ثم اشتغل بتحصيل العلوم كالطبيعيات والإلهيات وغيرها. ثم رغب في علم الطب وتأمل الكتب المصنفة فيه، وعلمه حتى فاق فيه الأوائل والأواخر في أقل مدة، وسنه إذ ذاك نحو 16 سنة. كان ابن سينا كثير المطالعة، وكان إذا أشكلت عليه مسألة توضأ وقصد المسجد الجامع وصلى ودعا الله عز وجل أن يسهلها عليه ويفتح مغلقها له.

و لم يستكمل ابن سينا 18 سنة من عمره إلا وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها التي عاناها.

صنف كتاب "الشفاء" في الحكمة و"النجاة" و"الإشارات" و"القانون" وغيرها مما يقارب 100 مصنف... وله رسائل منها: رسالة "حي بن يقظان" ورسالة "سلامان وابسال" ورسالة "الطير". وهو أحد فلاسفة المسلمين،

- ابن خلكان، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 157- 161. انظر كذلك:

- ابن سينا، **القانون في الطب**، حققه ووضع فهارسه وعلق عليه إدوار القش، ج 4/1، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص: ح- ل.

(2) - **ابن البيطار**: (توفي عام 646 هـــ /1248 م) هو أبو محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي، العشاب. ولد بمالقة في أواخر القرن 6 هـــ. لما بلغ العشرين من عمره، جاب مراكش والجزائر وتونس، ولما وصل مصر عينه الملك الكامل الأيوبي رئيسا على سائر العشابين، ولما توفي الكامل، استبقاه ابنه الملك الصالح نجم الدين الذي كان يقيم في دمشق.

وفي دمشق بدأ ابن البيطار يدرس نباتات سوريا، ومنها انتقل إلى آسيا الصغرى باحثا عن النباتات في موطنها، دارسا لصفاتها، واشتهر ابن البيطار بأنه الطبيب الحاذق، والعشاب البارع في خصائص الأعشاب.

ترك ابن البيطار مؤلفات كثيرة، واشتهر باثنين منها، هما ثمرة دراساته العلمية والعملية، أولها "كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية"، وهو مجموعة من العلاجات المستخلصة من النباتات أو المعادن، ويقول إنه جمع فيه من مؤلفات الإغريق والعرب ومن تجاربه الخاصة، كل ما يختص بالنباتات الطبية التي يتخذ منها عقاقير لعلاج الأمراض، وكذلك العقاقير التي كانت تتخذ من بعض الحيوانات أو المعادن. أما المؤلف الثاني الذي اشتهر به ابن البيطار، فهو "كتاب المغني في الأدوية المفردة في العقاقير"، تناول فيه علاج الأعضاء عضوا بطريقة مختصرة كي ينتفع به الأطباء.

وفي مفردات ابن البيطار مادة طبية أجهد نفسه في جمعها وترتيبها وتبويبها وفيه معلومات مفيدة. فابن البيطار من أئمة أهل الصناعة في زمانه وفيما ترك من مؤلفات ذخيرة علمية وطبية.

- مدكور، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 67- 69. وكذلك:

- خليفة، كشف الظنون، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 1772.

يشمل المؤلف المترجم مجمل المادة الطبية للعرب، ويقدم أدوات غنية للحكم على التطور الذي أحرزه العرب المسلمون في علم ظلوا فيه طوال قرون أساتذة أوربا[1].

ضمن فروع الطب المختلفة، هناك طب العيون (Ophtalmologie) اعتنى العرب به عناية فائقة. ولو أنهم على العموم، اقتصروا على التوسع فيما تلقوه من الإغريق، ومع ذلك فقد كانت فرصة للممارسة في هذا القسم من العلوم الطبية على مساحة شاسعة، وغالبا ما جعلوا تعاليم أساتذهم الإغريق أكثر توسع وعملية (تطبيقا)، لاسيما أن المناخ الحار لأقطار الشرق، ولد ولا يزال، الالتهابات الواسعة والمتكررة لحاسة النظر (Organe de la vue)، والتي كثيرا ما تتحول إلى موطن مرض ووباء الرمد. وقد ينجر عنه التهابات أخرى للعين، بالإضافة إلى أمراض أخرى لم يسبق وصفها من قبل، من مثل الجدري، وحمى أخرى مهيجة (Fièvre éruptive)، بعض الأمراض الجلدية الخاصة بالبلاد التي بسط العرب المسلمون سيطرقم عليها، في عهد قوتهم. وبانتقال تأثير هذه الأمراض إلى العيون، تتولد عادة أمراض ذات أعراض (Maladies symptomatiques) تقتضي علاجا خاصا قادرا على إثارة اهتمام الأطباء الممارسين (Praticiens). كل هذه الحيثيات والوقائع من شأنها أن تعطي اهتماما كبيرا للأبحاث المتعلقة بتاريخ طب العيون عند العرب. وقد يشكل النظري والتطبيقي لدى العرب في مجال طب العيون (Médecine oculaire) بعضا من الأهمية بالنسبة لأطباء العيون (Ophtalmologistes)، الذين يميلون إلى اعتبار هذا الفرع الهام من علم الطب، لا بالنسبة لتطبيقاته فحسب، ولكن من وجهة نظر علمية أيضا[2].

وفي أثناء كتابة HILLE، تاريخ لهذا الفرع الطبي، لاسيما فن المداواة فيه، لدى شعوب الشرق، اهتم بطبيب عيون عربي يعود إلى القرن 3 هـ/9 م، لا يكاد يعرف في

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1845, **op. Cité**, P : 26.

(2) - HILLE., "Critique littéraire, Ali Ben-Isa", **J. A.**, 4me série, T : 9, 1847, P : 149-150.

مدارس الطب الحديثة، كان من ضمن أوائل أبحاث المستشرق السالف الذكر. إنها نشرة نقدية حول الطبيب عيسى بن علي[1].

وقف المستشرقون الفرنسيون، من خلال تاريخ الأطباء لابن أبي أصيبعة[2] (590- 668 هـ /1193- 1269 م)، على عدد هائل من المؤلفات التي أنجزها الأطباء العرب، غير أن أغلب هذه المؤلفات بقيت مجهولة من علماء أوربا. وفيما سجلوا أنها أدوات جد هامة لتاريخ الطب، ولعلها للطب في ذاته، تأسفوا من جدوى بقائها مدفونة في المكتبات، وتمنوا أن تجد من ينفض عنها الغبار ويُشيِّد بها سرحا للعلم، وتاريخا للطب العربي، كاملا، علميا، ومأخوذا من الأصول والأمهات.

قدم ابن أبي أصيبعة حياة ثمانية وستون وثلاثمائة طبيب، من ضمنهم تسعة وثلاثون ومائة طبيب عربي، وثلاثة من عرب بلاد المغرب، وسبعة وثمانون من عرب الأندلس، وثلاثة وعشرون فارسيا، وستة عشر إغريقيا.

ومن كل الأطباء العرب والفرس، لا يعرف المستشرقون إلا سطحيا، ابن سينا (Avicenne)،

---

[1] - **نفس المصدر**، ص: 154-155.

- **عيسى بن علي**: طبيب الخليفة المعتمد على الله. انظر: ابن سينا، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 14.

ولعله عيسى بن علي، من تلاميذ حنين، له من الكتب، كتاب المنافع التي تستفاد من الحيوان. انظر: النديم، **مصدر سابق**، ص: 355.

[2] - **أبن أبي أصيبعة** هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس. ولد بدمشق أين درس على جماعة من الأدباء والحكماء، الحديث والتفسير والأدب وعلوم الحكمة والنبات ، وعلى أبيه درس الطب. وترك عدة كتب، أهمها "عيون الأنباء في طبقات الأطباء"، وهو في ثلاث مجلدات "، يشتمل على نيف وثلاثمائة وثمانين ترجمة، للأطباء القدماء والمحدثين، وعرف بطبقاتهم على توالي أزمنتهم، كما أودعه نبذا من أقوالهم وحكاياتهم ونوادرهم ومحاوراتهم وكتبهم. كما أودع ابن أبي أصيبعة كتابه هذا ذكر جماعة من الحكماء والفلاسفة ممن لهم نظر وعناية بصناعة الطب. والكتاب مرتب على حسب بلاد الأطباء وتوالي طبقاتهم، فيبتدئ المؤلف بطبقات اليونانيين ثم ينتقل إلى أطباء العرب في زمن ظهور الإسلام، ثم السريانيين الذين كانوا في ابتداء الدولة العباسية ثم إلى المترجمين الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اليونانية إلى العربية ثم يذكر طبقات بلاد العجم وطبقات أطباء الهند وأطباء المغرب وأطباء مصر وأخيرا أطباء الشام.

- خليفة، كشف الظنون، **مصدر سابق**، ج 2، ص: 1185. وكذلك:

- مذكور، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 27- 29.

ابن رشد (Averroès)، الرازي[1] (Rhazès)، أبو جعفر، ابن البيطار، عبد اللطيف، ابن باجة[2] (Aven-Pace)، الفارابي، الكندي، الغزالي. ولو أن الأربعة الأخيرين يعتبرون فلاسفة أكثر منهم أطباء[3].

لعله من ضمن مؤلفات الطب العربي الكثيرة المترجمة في العصور الوسطى،

---

(1) - **الرازي**: هو أبو بكر محمد بن زكريا، لقب بالرازي نسبة إلى مسقط رأسه مدينة الري (جنوب شرق طهران). اشتغل أول حياته في الكيمياء سعيا وراء الإكسير وتحويل المعادن البخسة إلى ذهب وفضة قبل أن يولع بدراسة الطب. ألف الرازي عددا كبيرا من الكتب والرسائل في الكيمياء، وجاءت معرفته بالكيمياء عن طريق الطب إذ لا بد للطبيب البارع أن يحضر الأدوية والعقاقير والمراهم... كما أن ميله إلى دراسة الكيمياء لعلاقتها الوثيقة بالطب، وألف في الكيمياء كتبا عديدة، فقد الكثير منها. وكان الرازي قد تأثر بما قرأه من كتب جابر بن حيان في الكيمياء يعتبر الرازي أحد المشاهير في الطب والكيمياء والفلسفة، وذ كرت بعض المصادر أنه اشتغل في الفلسفة والكيمياء والعلوم الطبيعية والفلك والهندسة حتى بلغ الأربعين من عمره وعندها انصرف إلى الطب كليا وبرز فيه، وكان المعلم في ذلك أبا الحسن علي بن سهل بن الطبري، وقد أجمع المؤرخون على أن الرازي من أشهر أطباء الإسلام ولقب بجالينوس العرب.

وقد أورد ابن أبي أصيبعة أسماء اثنين وثلاثين ومائتي كتاب نسبها للرازي في مختلف فروع المعرفة، وذكر غيره أنه ألف ما ينوف مائة تأليف وأكثرها في الطب، وأشار الفهرست إلى ثمانية وستين كتابا وتسع وسبعين رسالة في الطب. ومنها كتاب الحاوي الذي ترجم إلى اللغة اللاتينية وطبع لأول مرة في "بريشيا" شمال إيطاليا عام 1486 م وهو أضخم كتاب طبع بعد اختراع المطبعة مباشرة، وظل الكتاب حجة بلا منازع حتى القرن 17 م. أما كتاب "المنصوري" الذي يقع في 10 أجزاء وهي المدخل في الطب وفي شكل الأعضاء وفي تعريف مزاج الأبدان وهيئتها ...الخ، فقد نال شهرة واسعة في الشرق والغرب على السواء وطبع لأول مرة في ميلانو عام 1481 م.

ــ موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 31- 37. وكذلك، ص: 67- 77.

- انظر تقسيمه للمعادن، أو المواد المعدنية، **نفس المصدر السابق**، ص: 35- 36.

(2) - **ابن باجة**: (توفي عام 523 هـ /1128 م)، هو أبو بكر محمد بن يحي الصائغ المعروف بابن باجة (باجة: الفضة بلغة الفرنج بالمغرب). ولد في سرقسطة واستوزره والي غرناطة ثم والي سرقسطة. ذهب إلى فاس فاتهم بالإلحاد، ومات فيها. وقيل إنه مات على يد منافسيه من الأطباء. ووصفه ابن أبي أصيبعة في كتابه "عيون الأنباء" بأنه: "كان علامة وقته وأوحد زمانه، ابتلي بمحن كثيرة من العوام، وقصدوا هلاكه مرات فنجاه الله منهم. كان متميزا في العربية حافظا للقرآن، يعد من الأفاضل في صناعة الطب، متقنا للموسيقى جيد اللعب بالعود". وقد أشاد به ابن طفيل وابن رشد، ورماه ابن خاقان بالإلحاد وبإنكار الحياة الأخرى والقول بأن الدهر عود على بدء، غير أن ابن خلكان يرى أن ابن خاقان غلا في كراهيته لابن باجة وفي نقده.

- مذكور، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 49- 58.

- ابن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان حقي، ج 7، دار الثقافة، بيروت، 1971، ص: 429- 431.

(3) - G. DUGAT, "Etudes sur le traité de médecine d'Abou Djafar Ah'mad, intitulé "زاد المسافر", J.A., 5me série, T : 1, 1853, P : 289-290.

كتاب "زاد المسافر" (في علاج الأمراض)، لأبي جعفر أحمد الملقب بابن الجزار[1] (توفي عام 369 هـ /980 م)، الذي عاش في القيروان تحت سلطة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي. وله كتب أخرى كثيرة في الطب منها: كتاب (الاعتماد في الأدوية المفردة)، و(البغية في الأدوية المركبة)، وكتاب (العدة لطول المدة) أكبر كتبه في الطب، ورسالة في المعدة وأمراضها ومداواتها، ورسالة الفرق بين العلل التي تشتبه أسبابها وتختلف أعراضها، ورسالة في الزكام وأسبابه وعلاجه، ومقالة في الجذام وأسبابه وعلاجه، الخ...[2].

وكان "زاد المسافر" قد ترجم إلى الإغريقية واللاتينية والعبرية.

اهتم DUGAT بمخطوط "زاد المسافر" غير المنشور، واشتمل عمله على وصف المخطوط، ونشر حياة أبي جعفر نقلا عن تاريخ الأطباء لأبي أصيبعة، مع ترجمة لها، كما قام بترجمة فصلين من الكتاب -الحب، وداء الكلب (Hydrophobie)- ثم لمحة لسير الأطباء والمؤلفات التي أوردها أبو جعفر، وأخيرا جدول عام لـ "زاد المسافر"[3]، فكان العمل أشبه ما يكون بقاموس خاص بالأمراض[4].

إن العرب الذين بلغ الطب الإغريقي أوربا عن طريقهم، وأنقذوا مؤلفات اغريقية -من خلال ترجمتها إلى العربية- ضاعت أصولها[5]، أصبحوا في القرن 19 م في جهل غلظ في هذا العلم، كما يلاحظ المستشرق DUGAT. فخَلَفُ ابن سينا، وابن رشد،

---

[1] - ابن الجزار: أحمد بن إبراهيم بن أبي خالد، أبو جعفر القيرواني، طبيب ومؤرخ. له "زاد المسافر وقوت الحاضر" في الطب، مجلدان، ترجم إلى اللاتينية واليونانية والإيطالية، "الاعتماد" في الأدوية المفردة، ألفه لأحد ملوك الفاطميين في إفريقية، و"البغية" في الأدوية المركبة، وغيره.

- الزركلي، الأعلام، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 85.

- انظر أيضا ترجمة لحياة ابن الجزار:

- DUGAT, "Etudes sur le traité", T : 1, 1853, **op. Cité**, P : 299- 305.

- من أواخر من ترجم لابن الجزار وعرف به هو إبراهيم بن مراد التونسي، وهو أستاذ بجامعة تونس، من منشورات دار الغرب الإسلامي (بيروت).

[2] - انظر غيرها كثير من كتب الطب لابن الجزار: - **نفس المصدر السابق**، ص: 288-289. وكذلك:

- البغدادي، هدية، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 70.

[3] - انظر الجدول: - **نفس المصدر السابق**، ص: 340-353.

[4] - **نفس المصدر السابق**، ص: 292-293.

[5] - Rapport annuel du 27/06/1867, **J. A.**, 6me série, T : 10, 1867, P : 40.

وأبو جعفر، في الجزائر، هم إما مرابطون حالمون أصحاب رؤى وطب الدجل، يعالجون الأمراض بآي القرآن الكريم، أو أنهم حلاقين لا يحسنون استعمال المبضع، مما يضطرهم إلى استعمال الموسى أو المحلق بخفة ومهارة فريدتين. في حين أن في سوريا، نلاحظ بعض تقاليد (Galien). واستعمال النباتات الطبية على نطاق واسع. وأما في مصر، فقد أدخل التعليم الطبي العلمي، في عهد محمد علي، عن طريق الدكتورين "كلو باي" (Clot-Bey) و "بيرون" (Perron)، وعلماء آخرين[1].

ونشر الدكتور SANGUINETTI عدة مقاطع من كتاب ابن أبي أصيبعة عن تاريخ الأطباء، وترجمها إلى الفرنسية وأرفقها بملاحظات. ومن ضمن الأطباء المؤرخ لهم، الذين شملهم التعريف، يونانيون أمثال أبقراط (Hippocrate) وتلامذته، وكذلك أهم الفلاسفة كفيثاقورس (Pythagore) وأومبيدوكل (Empédocle) وسقراط (Socrate) وأفلاطون (Platon) وأرسطو (Aristote) وغيرهم[2]. وأطباء وجدوا منذ مطلع الخلافة العباسية، كطبيب الخليفة المنصور، جرجيس بن جبريل، على سبيل المثال. ومن هؤلاء الأطباء مسلمون وغير مسلمين[3].

وتكملة للعمل السابق، نشر "سانجينيتي" مختارات من حياة بعض الأطباء مستخلصة من مؤلف "الوافي بالوفيات" للصفدي[4]، كثير منها لا تتوفر في كتاب ابن

---

(1) - DUGAT, J.A., 5me série, T: 1, 1853, P: 294 .

(2) - Dr B. R. SANGUINETTI, "Cinquième extrait de l'ouvrage arabe d'Ibn Aby Ossaibi'ah sur l'histoire des médecins", trad. Française, accompagnée de notes, **J. A.**, 5me série, T : 8, 1856, P : 175.

(3) - SANGUINETTI, **J.A.**, 5me série, T : 6, 1855, P : 131.

- انظر عن الترجمة العربية لطب الإغريق:

- L. LECLERC, "De la traduction arabe de Dioscorides et des traductions arabes en général", **J. A.**, 6me série, T : 9, 1867, PP : 5-17.

(4) - **الصفدي**: يوسف بن هلال بن أبي البركات جمال الدين الحلبي الحنفي(696 - 764 هـ /1297 - 1363 م)، أبو الفضل، طبيب. كانت له معرفة بالأدب والفقه. يرفق بالفقراء ويؤثر مرضاهم بالمداواة ويبرهم بما يواتيهم من الطعام والشراب. له كتاب سماه "كشف الأسرار وهتك الأستار".

- الزركلي، ج 8، **مصدر سابق**، ص: 256.

أبي أصيبعة، لاسيما وأن الأول متأخر عن الثاني[1].

هناك علم تطبيقي آخر اشتهر به العرب باستمرار، لكنه يعرض لأول مرة بتوسع -مطلع الستينيات- من طرف الطبيب المستشرق PERRON، إنه علم البيطرة أو طب الخيل (l'Hippiatrique). فمن المعلوم أن العرب يُكنُّون حبا كبيرا للخيل، وأشعارهم القديمة والحديثة مليئة بأوصاف خيل الحرب والفروسية، وسلوكهم تجاهها مضبوط إلى الحد الذي يخجل ويصدم أمما تعتقد في نفسها السمو والرفعة في المجال الإنساني. ومن الطبيعي أن الاهتمام المستمر بالخيول وملاحظتها وعلاج أمراضها، ولد لدى العرب معلومات نظرية وتطبيقية تستأهل أن تعرف، وهو ما حاول الدكتور PERRON القيام به، لما يتمتع به من معارف طبية، ولطول إقامته في الشرق[2].

فقد قام PERRON بترجمة ونشر كتاب "الناصري" -نسبة إلى ناصر بن قلاوون، سلطان مصر- أو "إتقان الفنين"، أو "المقال الكامل في علم الخيل (d'Hippologie) والبيطرة العربي" (d'Hippiatrie)، الذي ألفه أبو بكر بن بدر في القرن 8 هـ /14 م، وهو في ثلاثة أجزاء[3].

يستعرض المؤلف في القسم الأول من الكتاب ملاحظاته عن البنية (Conformation)، الطبع، التربية، العلامات، الألوان، الغذاء، عيوب الخيل. وفي القسم الثاني، عالج المؤلف أمراض الخيل والأدوية المناسبة. أما المترجم فقد وضع مقدمة طويلة للكتاب استعرض فيها تاريخ الحصان لدى العرب، وإضافات مقتبسة من مؤلفات عربية أخرى[4].

---

(1) - SANGUINETTI, "Notices biographiques de quelques médecins, tirées d'un ouvrage arabe d'Assafady, tra.française, accompagnée de notes, **J. A.**, 5me série, T : 9, 1857, P : 392-395.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité,** P : 50.

(3) - Paris, 1859, 3 vol. (512, 500, 527 p.).

(4) - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité,** P : 50-51.

- ألف أيضا يوجين DUMAS كتاب (الخيول العربية) اعتمد فيه كثيرا على الأمير عبد القادر، وهو مطبوع بالفرنسية ومترجم إلى الإنجليزية.

ولعله من ضمن المعالم التي بقيت من الطب العربي، الأكثر تثقيفا وإثارة للفضول، المؤلف الكبير في الطب لابن البيطار، الذي يحمل طابعا خاصا، سواء من ناحية طريقة تأليفه، أم من ناحية الوقائع التي وجد المؤلف نفسه في خضمها. ففي الوقت الذي رأى فيه ابن البيطار النور، توفي ابن رشد وابن ميمون، وعاصر الفترة المشرقة والقصيرة، التي هيمن فيها الموحدون على الأندلس، وشجعوا الآداب والعلوم والفنون. ولكن ابن البيطار سمع بأفول نجم الموحدين وهو بالمشرق حيث توفي بدمشق (عام 646 هـ/1248 م)[1].

قام الدكتور "لوكليرك" LECLERC بدراسات تاريخية ولغوية حول ابن البيطار، لاسيما كتابه، الذي لا يتميز فقط بمنهجه المبني على الحروف الأبجدية، ولكنه تجميع خالص، تقريبا في مجمله، واستعارات من كل جهة. فالطب الإغريقي والطب العربي وضعا جنبا إلى جنب، أو في المقابل، تجمعهما عناوين. فمؤلف ابن البيطار هو أقرب إلى فهرست، وضع بغرض الاطلاع عليه من طرف البحاثة والمستشرقين.

تقوم طريقة ابن البيطار على ذكر الدواء، فمرادفاته. وعادة ما يذكر بعده مباشرة "ديوسكوريد"[2] (Dioscoride)، "قاليان" (Galien) وبعض الأطباء الإغريق الآخرين، ثم يأتي بعدهم الكتاب العرب، الذين يأتي في مقدمتهم الغافقي (El-Rafequi)، أبو حنيفة، اسحق بن عمران[3] (توفي عام 294 هـ/907 م)

---

(1) - Dr. L. LECLERC, "Etudes historiques et philologiques sur Ebn Beitar" **J. A.**, 5^{me} série, T : 19, 1862, P : 435.

(2) - **ديوسكوريد**: طبيب إغريقي، ولد حوالي 50 م (مجهول الوفاة)، عمل جراحا عسكريا في جيش نيرون، وكان من أوائل المشتغلين بعلم النبات. وقد وصف في كتابه: "المواد الطبية" حوالي 600 من النباتات ظلت تستعمل في العلاج حتى القرون الوسطى. ولعل إشارته إلى استعمال "اليبروح" (أو الملفاح وهو من العائلة الباذنجانية) لتأثيره المنوم لمن يخضعون لعمليات جراحية، هي أول إشارة للجراحة تحت التخدير.

- موسوعة العلماء، **مصدر سابق**، ص: 136.

(3) - **اسحق بن عمران**: طبيب بغدادي الولادة والمنشأ. احترف الطب واشتهر. دعي إلى إفريقية فجاءها سنة 264 هـ/877 م. قال بن جلجل: به ظهر الطب بالمغرب وعرفت الفلسفة. ألف للأمراء الأغالبة عدة كتب بقي منها كتاب "المالنخوليا Melencolia"، في أمراض الوسواس. قتله زيادة الله بن الأغلب.

- الزركلي، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 295.

الخ...ويتعلق الاستشهاد بالوصف أولا، ثم الأصل أو المصدر، فمميزات أو خصائص الدواء. ولا يتدخل ابن البيطار إلا في حالتي التناقض أو الغموض، حيث يناقش أو يوضح.

وهكذا فإن مؤلف ابن البيطار يعد ملخصا كبيرا للمادة الطبية، أين يمكن العثور على أصول وتطور الطب العربي. وبهذا فلا يمكن أن يعوضه حتى "سيرابيون" (Sérapion) الذي يقترب منه في الشكل، ولكنه بعيد عن أنه يحتوي على كم هائل من الوثائق[1].

لم تقتصر حياة ابن البيطار على الأندلس، ولكنه زار المغرب والمشرق. وكانت زيارته لبلاد المغرب كعالم نبات (Botaniste)، أو طبيب أعشاب، وقد روى ملاحظاته الطبية ودون أسماء الأعشاب التي كانت له بها معرفة في أرياف ومدن، بجاية، وسطيف، وتونس، والقيروان، وبرقة. وكذلك القاهرة -أين كرم وعرضت عليه مهمة تفتيش باعة الأعشاب الطبية (Herboristes)- وسوريا. وهكذا فقد كرس ابن البيطار حياته كاملة لعلم النبات[2].

ونشر الدكتور SANGUINETTI النص العربي[3] وترجمة فرنسية لبعض الفصول، في الطب وفن الشفاء والمداواة (Thérapeutique) العربية، مقتبسة من: "كتاب المصابيح السنية في طب البرية" لشهاب الدين أحمد القليوبي[4] (توفي عام

---

(1) - LECLERC, "Etudes historiques", T: 19, 1862, **op. Cité**, P : 433- 434.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 436-437.

- يعرف الكتاب بـ"مفردات ابن البيطار"، وهو المسمى "بجامع مفردات الأدوية والأغذية"، انظر:

- خليفة، كشف الظنون، **مصدر سابق**، ج 2، ص: 1772.

(3) - SANGUINETTI, "Quelques chapitres de médecine et de thérapeutique arabes", texte arabe, publié, traduit, suivi d'une liste de termes techniques et autres, **J. A.**, 6^{me} série, T : 6, 1865, P : 378.

- انظر النص العربي، ص: 383-417. - انظر كذلك الألفاظ والمفردات التقنية:

- SANGUINETTI, **J. A.**, 6^{me} série, T : 7, 1866, P : 292-328.

(4) - **القليوبي**: أحمد بن أحمد بن سلامة، فقيه متأدب، من أهل قليوب مدينة صغيرة قرب القاهرة، له عدة مؤلفات في العقيدة والشريعة والفلسفة والنحو ، ومنها كتاب "تذكرة القليوبي في الطب"، و"الجامع في الطب"، و"الفوائد الطبية الموافقة لطب البرية". انظر:

- البغدادي، هدية العارفين، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 161. وكذلك:

1069 هـ /1659 م)، وقد أرفقها بقائمة من المفردات التقنية وغير التقنية، إفادة للمهتمين من المستشرقين.

والكتاب مصنف، وينقسم إلى عشرة فصول، خصص الأول منها إلى عرض المذهب المزاجي أو مذهب الأخلاط حسب الطب القديم (Doctrine Humoral)، بينما تناولت الفصول الأخرى علاج أمراض مختلف أجزاء الجسم بدءا بأمراض الرأس. يتناول الفصل الأول –الذي نشر في المجلة الآسيوية- النبض ثم الأمراض، فسوائل الجسم، والأغذية، والمشروبات، وفق مذهب الأخلاط. ويتطرق الفصل الثاني لعلاج أمراض الرأس، وأخيرا الفصل الثالث المخصص كاملا إلى أمراض العيون المتعددة. هذا وقد لاحظ الدكتور "سانقينيتي"، تنوعا كبيرا في مواضيع الكتاب، وثروة حقيقية في مجال الأدوية، وكذلك أحكام مسبقة وآثار متعددة للخرافات[1].

إن وفرة الأدوية (Polypharmaçie) التي تزخر بها الفصول المنشورة، لم تكن لتبهر قراء المجلة الآسيوية، في نظر "سانقينيتي" لأنهم يعرفون أن العرب بأرضهم وتجارتهم، لاسيما مع الهند، يجدون أنفسهم يمتلكون عددا هائلا من الأدوية لم تكن لتتوفر لدى الإغريق. وبهذا الشكل فإن صيدلية العرب تتوسع أكثر، ومادة أدويتهم تغتني. فقد كانوا أسخياء وزادوا أكثر، في استعمال الدواء عن "قاليان"[2].

غير أن العرب المسلمين، انحطوا في مجال الطب، لاسيما في نهاية الخلافة العباسية، فظهر فيهم السحرة (Magiciens)، والمشعوذون (Bateleurs)، والدجالون (Charlatans) من كل نوع. وقد اهتم DE GOEJE بهؤلاء من خلال تحليل كتاب "الأسرار المكشوفة" للجوبري (Djaubari) الذي يقدم جملة من الخطوط العريضة للعرب المسلمين في نهاية الخلافة العباسية[3].

- الزركلي، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 92.

(1) - SANGUINETTI, "Quelques chapitres de médecine, **J.A.**, 6 me série, T : 6, 1865, P : 378- 380.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 381.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1867, **op. Cité**, P : 51.

- **العلوم الطبيعية:**

مفيدة هي معرفة الطريقة التي كان الفلاسفة أو الطبيعيون العرب يفهمون بها تسلسل عوالم أو أجناس الطبيعة، وانطلاق من أي كائن كانت تتم عندهم عملية الانتقال من هذا العالم إلى ذاك. يجب أن نتذكر المستوى الذي كان فيه تاريخ الطبيعة (l'Histoire Naturelle) وقتئذ، وكم كانت تنقص وسائل الملاحظة، وكم كان يصعب على العلماء الدخول في تواصل فكري، بين العوالم والأجناس[1].

من الممكن أن تكون حدود أجناس الطبيعة، قد تغيرت بفعل تطور التجارب، لأنه بسبب التطور نفسه، استوجب الترول في سلم التنظيم، بغرض العثور على الكائنات المختلطة الوسيطة (Les êtres mixtes intermédiaires). فإذا كانوا يتوقفون في زمن أرسطو والقزويني[2] (توفي 665 هـ /1266 م) عند الرخويات (Mollusques) والدودة (Ver) ، فإن القرن 19 م، الذي أفرز المجهر، والذي جاء ليكشف عن نظم لم يكن الإنسان ليتصورها، وتم الترول حتى النقاعيات (Infusoires) -أي الحيوانات المجهرية ذوات الخلية الواحدة التي تعيش في السوائل وفي نقاعات المادة العضوية- وإلى المديخ (Polypes) -حيوانات بحرية من المجوقات- أو المريجات (Zoophytes) -حيوانات نباتية الشكل كالأسفنج- ثم إن تصنيف مخلوقات الخالق، والبحث عن نقاط التقاء عوالم الطبيعة، كانت ولا تُزال من مهام العقل البشري، فهي مذاهب غايتها إصلاح وتنظيم الأفكار[3].

الجص أو الجبس مما يلي التراب، هو أول المعادن في سلسلة أجناس الطبيعة، عند القزويني، والملح مما يلي الماء. وأما آخر المعادن مما يلي الأمطار والنبات، فهي الكمأة

---

(1) - J. J. CLEMENT-MULLET, "Sur l'enchaînement des trois règnes de la nature, extrait de Kazwiny", **J. A.**, 3me série, T : 10, 1840, P : 421.

(2) - **القزويني**: (605- 682 هـ /1208- 1283 م) زكريا بن محمد بن محمود، ولد بقزوين، يأخذ بمذهب الإمام مالك. أعظم مؤلفاته كتاب "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات"، جمع الفلك والطبيعة والنبات والحيوان والجيولوجيا.

- موسوعة الحضارة، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 178.

(3) - CLEMENT-MULLET, "Sur l'enchaînement des trois règnes ", 1840, **op. Cité**, P : 422- 423.

التي لا ورق لها ولا ثمرة، وتتكون من المعدنيات، فصارت تشبه المعدنيات من جهة، وتشبه النبات من جهة أخرى.

وأما النبات، عند القزويني، فأولها متصل بالمعدنيات وآخرها بالحيوان، لأن مرتبة النبات وأدناها مما يلي التراب خضر الدمن، وآخرها أشرفها مما يلي الحيوان النخل، لأن النخلة إذا قطع رأسها جفت وبطل ثمرها، كالحيوان إذا ضرب عنقه[1].

وأما الحيوان فأوله شبه النبات، وهو الحلزون -دودة في جوف أنبوبة حجرية. وأما مرتبة الحيوانية التي تلي الإنسانية القرد، فشكله وجسده قريب من جسد الإنسان ونفسه تحاكي أنواع النفوس الإنسانية. وهكذا، فالفَرَس ذكي وحسن الأدب وكريم الأخلاق، وربما لا يروث مادام الملك راكب عليه أو بمحضره...[2].

وأما مرتبة الإنسانية، التي تلي الحيوانية، فإن أدناها مرتبة الذين لا يعلمون من الأمور إلا المحسوس ولا يرغبون إلا في زينة الدنيا ولذاتها من الأكل والشرب والنكاح مثل الخنازير والحمير ويدخرون أكثر ما يحتاجون إليه كالنمل ويتهارسون على حطام الدنيا كالكلاب على الجيفة... وأما مرتبة الإنسان التي تلي الملائكة فهي مرتبة الذين انتبهت نفوسهم من نوم الغفلة وانفتحت لهم عين البصيرة بنور قلبهم ما كان غائبا عن حواسهم... فهم من أصناف الملائكة مع أبناء جنسهم من الآدميين[3].

ظلت الدراسات اللغوية والتاريخية والأثرية تستقطب اهتمامات المستشرقين، إلى مطلع الخمسينيات، كما أسلفنا، وبقيت علوم شرقية أخرى مهمشة أو كادت، كالعلوم الفيزيائية وتاريخ الطبيعيات مثلا.

كان المستشرق CLEMENT-MULLET من أوائل من نشر مقالات في تاريخ

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 423-424.

(2) - **نفس المصدر**، ص: 424-425.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 425-426.

الطبيعيات العربية، من ذلك مقال في العنكبوتيات اعتمادا على ابن سينا والدَّميري[1] والقزويني، والمقدسي، كما اعتمد على معجم "الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية" لكلوت-باي، ونشر لبعضهم نصوصا عربية وترجمة لها. وقد لاحظ MULLET أن للعرب، في مجال العنكبوتيات، اقتباسات من الإغريق، لاسيما من أرسطو، وكذلك القرآن الكريم والحديث الشريف، وقد زعم أن مقولة: "العنكبوت شيطان فاقتلوه"، حديث (؟)[2].

كما نشر MULLET مقالا عن دود القز، استعرض فيه ابرز الكتاب العرب الذين تناولوا الموضوع. وكان أبرز ما أثار استغراب المستشرق، هو ابن العوام[3] (توفي نحو 580 هـ /1185 م) في كتابه الضخم في الفلاحة، فرغم أن الكتاب بمثابة دائرة معارف في علم الزراعة، إلا أنه لا يقول كلمة عن تربية دود القز، ولو أنه يعطي إرشادات بتوسع كاف عن زراعة الفرصاد، وهي شجرة التوت (Mûrier)، ويقال له التوت العربي وهو توت الحرير. أما الكُتّاب الذين تناولوا دود القز فهم: القزويني والدَّميري والمقدسي(4).

أما المقدسي، فتناول دود القز في كتابه "الطيور والأزهار" الذي كان DE TASSY قد نشره من قبل ولقي استحسانا في أوساط المستشرقين. وأما القزويني، ففي

---

(1) - **الدميري:** (742- 808 هـ /1341- 1405 م)، محمد بن موسى بن عيسى بن علي ، أبو البقاء، كمال الدين، من أهل دمير (بمصر): ولد ونشأ وتوفي بالقاهرة. باحث، أديب، من فقهاء الشافعية. كان يتكسب بالخياطة، ثم أقبل على العلم وأفتى ودرس، وكانت له في الأزهر خلق خاصة، وأقام بمكة والمدينة. من كتبه "حياة الحيوان" مجلدان، ومختصر له من المؤلف نفسه سماه: "حاوي الحسان من حياة الحيوان"، وغيرهما. - الزركلي، ج 7، **مصدر سابق**، ص: 118.

(2) - - CLEMENT-MULLET, "Recherches sur l'histoire naturelle chez les arabes, arachnides", **J. A.**, 5^me série, T : 4, 1854, P : 214-215.

- لم نعثر على الحديث المزعوم لا في **صحيح البخاري**، 7 أجزاء، دار موفم للنشر، الجزائر، 1992. ولا في كتاب: الشوكاني، **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.ط.

(3) - **ابن العوام:** يحي بن محمد بن أحمد، الشهير بابن العوام الإشبيلي، علم أندلسي، اشتهر بكتابه "الفلاحة الأندلسية" قسم منه ترجم إلى اللغتين الإسبانية والفرنسية. وله رسالة في "تربية الكروم" و"عيون الحقائق وإيضاح الطرائق".
- الزركلي، ج 8، **مصدر سابق**، ص: 165.

(4) - انظر نصوصا عربية ضمن: - CLEMENT-MULLET, "Recherches sur l'histoire naturelle ", 1854, **op. Cité,** P : 218- 220.

كتابه: "عجائب المخلوقات". وتناول الدّميري دود القز في كتاب: "حياة الحيوان الكبرى"(1).

تعتبر الصين الموطن الأول لدودة القز، ومنه انتقلت إلى الهند، وسماها العرب "الدودة الهندية". ومن الهند انتقلت إلى بلاد فارس حيث تم تربيتها بنجاح كبير، ثم انتقلت إلى مصر على الخصوص. ولم تكن الألبسة الحريرية غريبة على المسلمين الأوائل مادامت مذكورة في القرآن الكريم[2].

أما أوربا فقد وصلتها دودة القز على طريقين مختلفين، إحداهما الهند، إذ جاء بها، في القرن 6 م، مبشران إلى القسطنطينية، في عهد جوستنيان[3] (Justinien). أما الطريق الثاني، فبواسطة العرب المسلمين الذين نقلوها إلى سواحل افريقيا -بلاد المغرب- والأندلس. كما انتقلت إلى صقلية، زمن الحروب الصليبية، وإلى جنوب إيطاليا، ومنها إلى فرنسا، حين غزا شارل 8 نابولي الإطالية[4].

والفلاحة من الصنائع الضرورية في العمران أو النوع البشري[5].

وقد نشر CLEMENT-MULLET مقالا مطولا حول أسماء زروع النباتات الموسمية (Céréales) -كالحنطة والشعير والذرة والأرز- عند القدماء ، ولاسيما عند العرب. واعتمد فيه على الكتاب العرب كابن البيطار وابن العوام، وعلى الإغريق، كثيوفاست (Théophaste) وديوسكوريد (Dioscoride)، وعلى اللاتين كبلين (Pline) وغيرهم[6].

يقسم قدماء الإغريق واللاتين، النباتات الغذائية، إلى قسمين رئيسيين. تتشكل الأولى من النباتات ذات البذور التي تعطي خبزا كالحبوب، والثانية ذات البذور التي لا

---

(1) – **نفس المصدر السابق**، ص: 499-500.

(2) – **نفس المصدر**، ص: 517-518.

(3) – هناك: **جوستينيان الأول**، إمبراطور بيزنطة الذي حكم بين: (518- 527). **وجوستينيان الثاني**: الذي حكم بين (565- 578). – موسوعة المورد، **مصدر سابق**، ص: 27.

(4) – **نفس المصدر السابق**، ص: 516.

(5) – ابن خلدون، المقدمة، **مصدر سابق**، ص: 258.

(6) – - CLEMENT-MULLET, "Sur les noms des céréales chez les anciens, et en particulier chez les arabes", **J. A.**, 6^{me} série, T: 5, 1865, P: 185-186.

تعطي خبزا كالخضـــر(1). وقد تناول MULLET جملة أسماء عربية متنوعـــة مـــن الحبوب منها الحنطة والقمح (Le Froment et l'épeautre). وقد أورد فيمـــا يتعلـــق بالقمح عدة أصناف ذات الأشكال والألوان المتعددة، وذكر نحو العشرة، منها المـــصرية على الخصوص(2). ومن الحبوب أيضا الشعير (3) (l'Orge)، والخرطال أو الخرطان والشوفان (4) (l'Avoine)، والذرة (5) (Miliacée ou Sorgho)، والأرز (Riz) ذي الأصول الهندية (6). وقد ركز في تناول هذه الأسماء على أصولها واشتقاقاتها.

ونشر CLEMENT-MULLET أيضا، دراسات وأبحاثا تتعلق ببعض العائلات من النباتات التي أوردها مؤلفون عرب، ومحاولة مقارنتها بمثيلاتها لدى علماء النبات في أوربا القرن 19 م، وكذلك لدى الإغريق واللاتين، مما يمكن أن يوفر وثائق ذات فائدة(7).

وقد وقع اختيار MULLET -في دراسته لعينات من مختلف العائلات النباتيـــة- على أشـــجار البرتقـــال (Orangers)، الخبازيـــات أو الملوخيـــات (Malvacées)، الفربيونيات -ذات الفلقتين- (Euphorbiacées)، والقرعيات أو اليقطينيـــات -ذات الفلقتين- (Cucurbitacées). وتخللت الدراسة، رسومات رائعة لبعض العناصر مـــن علم النبات(8) وغراسة الأشجار (Arboriculture)، طبقا لما رسمه المؤلفون العـــرب في مؤلفاتهم.

ذهب MULLET إلى أن مذاهب علم الزراعة، كادت تنعدم، عند العرب كما عند قدماء الإغريق. ومع ذلك فقد كان للعرب بعض المفاهيم العامة والإلمـــام الـــذي

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 187.

(2) - **نفس المصدر**، ص: 190-207.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 207-209.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 213-216.

(5) - **نفس المصدر**، ص: 217-224.

(6) - **نفس المصدر**، ص: 224-226.

(7) - CLEMENT-MULLET, "Etudes sur les noms arabes de diverses familles de végétaux", **J. A.**, 6^{me} série, T : 15, 1870, P : 5.

(8) - انظر الرسومات: - **نفس المصدر السابق**، ص: 10-16.

كونته لهم الممارسة والخبرة، فلا يمكن بحال من الأحوال، أن يرفض الأوربيون للعرب المسلمين، معارف تطبيقية على قدر معين من التطور[1].

والشجرة عند العرب، لها أساس من الحياة، ولهم معارف في مجال التلاقح والإثمار، من منطلق ظاهرة التلاقح الاصطناعي بين النخلة وشجرة التين. وتفرق العرب بين النبات المذكر المنتمي إلى النوع البري (Sauvage) والنبات المؤنث المثمر. وقد تجد كلا النوعين يثمر. وللعرب معرفة بدورة النُسْغ -ماء النبات- (Sève)، ووفق صعود أو نزول النُسْغ، خلال الفصول، يمكن تحديد أو ضبط الوقت الملائم للتلقيح أو التذكير[2].

هذه إذن، فكرة عن بعض علوم العرب في مجال علم وظائف أعضاء النبات(Physiologie végétale) ، رغم أنه يبدو أن العرب، لم يعرفوا مؤلفات "ثيوفراست" [3](Théophraste).

إن الحديث عن الحبوب والنباتات والأشجار وغيرها، يجرنا إلى الحديث عن الفلاحة التي ثمرتها -كما يقول ابن خلدون- "اتخاذ الأقوات والحبوب، بالقيام على إثارة الأرض لها وازدراعها، وعلاج نباتها، وتعهده بالسقي والتنمية إلى بلوغ غايته، ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه وإحكام الأعمال لذلك"[4].

ظلت الفلاحة لدى الشرقيين، مجهولة من المستشرقين، إذ لم ينشر ما يكشف عن أساليبها ومبادئها. وكان علمهم بوجود بعض المؤلفات في مجال الفلاحة غامضا. وبقي الأمر كذلك إلى أن بدأ بعضهم يتحدث عن الفلاحة النبطية. ونشر QUATREMERE مقالا عن الفلاحة النبطية، في المجلة الآسيوية، مما أثار فضول غيره من المستشرقين.

بيد أنه لا ينبغي الخلط بين "كتاب الفلاحة النبطية" مع كتاب ابن العوام في الفلاحة أيضا، ذلك أن الأول موضوعه طريقة الفلاحة وكيفية استعمالها على ضفاف نهر الفرات، بينما ابن العوام، الذي عاش في اشبيلية، عمل لصالح بلده، وللحقيقة فإنه

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 5-6.

(2) - **نفس المصدر**، ص: 6-9.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 9.

(4) - ابن خلدون، المقدمة، **نفس المصدر**، ص: 259.

استقى معلوماته من جل المؤلفين الذين سبقوه، ومن كتاب الفلاحة النبطية ذاته، لكن مع إضافة لمؤلفه نتائج خبرته الخاصة[1].

قضى CLEMENT-MULLET بضعة سنوات في الريف، يدرس أعمال الفلاحين، ويستفسر عقلاءهم. وكان له ميل وذوق تجاه البستنة وزراعة الحدائق (Horticulture)، وعلى العموم كل ما له علاقة بدراسة الطبيعة. فضلا عن أنه درس العربية وأتقنها. ثم راح يوظف كل هذا في ترجمة ونشر كتاب الفلاحة لابن العوام، فكان الكتاب ثمرة جهد استغرق ست سنوات. سد به فراغا، كما حقق رغبات المهندسين (Agronomes) والخبراء الزراعيين المتنورين، وكذلك المستشرقين نظرا لكونه حل مشكلات عديدة تتعلق بالتقنية العربية في مجال الفلاحة. كما ولد فيه رغبة وإقبالا على دراسة تاريخ الطبيعيات (Histoire naturelle)[2].

يشتمل كتاب الفلاحة لابن العوام الاشبيلي على جملة من الفصول، بدأها بالحديث عن طبيعة الأراضي، مرتبا إياها حسب اللون، وتركيبتها المعدنية (Composition minéralogique) والخاصية[3]. وقد بين ابن العوام النباتات، التي من خلالها يمكن استنباط طبيعة الأرض[4]. ثم استعرض الوسائل الخاصة بتسميد الأراضي، التي تقوم على مبدأ إعادة ما تفتقر الأرض إليها، كما يقول ابن العوام. وتناول في عدة فصول أخرى، المياه والحدائق والمشاتل. وقد خصص الفصل العاشر إلى الحراثة، وهنا نجد العرب تستعمل نحوا من العشر طرق في مجال القطن والكتان[5].

وتناول في الفصل الثالث عشر إخصاب أو تلاقح الأشجار. وفي الرابع عشر أمراضها، من ذلك على سبيل المثال، أن ارمداد أو فُطْر الكروم (l'Odium de la vigne) الذي عرف كمرض منذ ابن العوام، وعرف دواؤه أيضا، هو الدواء نفسه

(1) - CLEMENT-MULLET,"Le livre de l'agriculture d'Ibn el-Awam (Kitab al-Felahat) ", - traduit de l'arabe, **J. A.**, 5me série, T: 15, 1860, P: 449-450).

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 450-451.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 451.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 453.

(5) - جنس نبات يزرع للحصول على اليافه، ويستخرج من بزوره زيوت تستعمل في الدهان.

الذي يعالج به الأوربيون كرومهم في القرن 19 م، حسب المترجم. وأما الفصل السادس عشر الذي هو بعنوان: "حفظ الفواكه والبذور"، فيعالج المطامير[1] التي يحفظ فيها القمح والذرة وغيرهما. كما عالج في الفصل الموالي طريقة فلاحة الحبوب، والعلف (Fourrage)، والورود، والأشجار، مع تفاصيل ضافية عن أنواع عديدة للتلقيم (Greffe) وقتذاك. كما أن الخبازة والاختباز (Panification) موصوفة بتفصيل وتكشف عن أساليب متنوعة ومثيرة لفضول المستشرقين.

ويتضمن الفصل الثلاثون من كتاب الفلاحة لابن العوام، التراكيب، والتقطير (Distillation) الذي كان العرب أساتذته الأوائل. وكانت آلاته موصوفة بمنهجية، وتشغيلها مرسوم بوضوح. وقد عالج في ثلاثة فصول أخرى، المواشي (Bétail)، والفرس، وفن البيطرة، ذي التفاصيل الهامة والمثيرة للفضول، المتضمن لـ116 مرضا نصح بمعالجة بعض منها عن طريق أسلوب الوخز بالإبرة. وتناول ابن العوام في فصله الأخير، طيور الدواجن وتربة النحل. ولعل أهم ما استرعى اهتمام "مولي" أسلوب تغذية البط والوز، بغرض الحصول على أكباها مشحمة[2].

وهكذا، فإن ترجمة "مولي" لكتاب ابن العوام، كشفت للمستشرقين ولغيرهم، عن أساليب قديمة كانوا يعتقدون أنها جديدة، وأن جملة أخرى من الأساليب، غير المعروفة، الواردة في كتاب ابن العوام، تستدعي الفائدة تجربة بعض منها[3]. وقد أثنت "الجمعية الفلاحية الفرنسية" ثناء حسنا على مترجم الكتاب، وعلى الكتاب نفسه، لما له من أهمية وفائدة تطبيقية، يمكن للكتاب أن يقدمه للفلاحة في جنوب أوربا، ولاسيما في الجزائر. وفي كل الأحوال، يكتسي كتاب ابن العوام أهمية كبرى في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، لأنه يبرز بتفصيل الأهلية التي اكتسبها العرب والفن الذي طوروه في مجال الفلاحة، رغم كونها غريبة عليهم في البداية، ولكنهم أثبتوا قدرتهم على تجاوز من سبقوهم من المغول والترك والفرس، والإسبان[4].

---

(1) - حفر تحفظ فيها الغلال.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 451-452.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 453.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1864, **op. Cité**, P : 60-61.

تناول CLEMENT-MULLET بصفته عالما طبيعيا ومستشرقا -فضلا عما سبق- مقالات عن الأحجار الكريمة اعتمادا على المؤلفين العرب[1]. فنشر محاولة في العدانة أو التعدين (Minéralogie) العربي، وتحديدا الأحجار الكريمة (Pierres précieuses) ، أو الجواهر (Gemmes) اعتمادا على مؤلف أحمد التيفاشي[2] (580- 651 هـ /1184- 1253 م)(Teifaschi)، وقد اتخذه الناشر كدليل في بحثه، نظرا لمنهجيته وإحاطته بالموضوع. يتكون الكتاب من خمسة وعشرين فصلا، كرسها المؤلف إلى أربعة وعشرين حجر كريم. عرض في كل فصل أسباب تكون الحجر وفق النظريات المسلم بها وقتئذ (Théories admises)، ولاسيما التي جاهر بها أرسطو و"بليناس" (Bélinas)، وهي النظريات التي يجمعها تقريبا نظام واحد[3].

لعل القواعد الأساسية لهذا النظام هي الأرض والماء المنقولتين إلى حالة الانبعاث الدخاني (Etat d'exhalaison fumeuse ou vaporeuse) أو إلى الحالة اليابسة. ثم عن طريق التركيز والتكاثف (Condensation) شكلت، الأولى المواد المنصهرة والمعادن، بينما شكلت الثانية، الأجسام الملتهبة والحجارة. كما أن الحرارة والبرودة، الجفاف والرطوبة، كان لها قسط وافر في تحقيق الظاهرة. وكان الاعتقاد سائدا في تحول العناصر (Transmutation des éléments)، وانتقال حالة إحداهم إلى الأخرى، مما سهل تفسير حوادث مختلفة كثيرة[4].

وكان لا يزال الكبريت والزئبق عنصران جد هامين في إنتاج المعادن، إذ الكبريت بمثابة الأب أو العقل، والزئبق بمثابة الأم أو الروح. وكان العامل الثالث،

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1869, **op. Cité**, P : 27.

(2) - **التيفاشي**: شهاب الدين أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر ابن حمدون، من أهل تيفاش (من قرى قفصة بتونس)، ولد بها، تعلم بمصر، وولي القضاء ببلده، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها. عالم بالحجارة الكريمة. من كتبه: "أزهار الأفكار في جواهر الأحجار"، و"الأحجار التي توجد في خزائن الملوك وذخائر الرؤساء"، و"خواص الأحجار ومنافعها"، وغيرها. - الزركلي، **مصدر سابق**، ج 1، ص: 273. - انظر كتبا أخرى في الأحجار الكريمة ضمن:

- CLEMENT-MULLET, "Essai sur la minéralogie arabe, les pierres précieuses", **J. A.**, 6^{me} série, T : 11, 1868, P : 10-14.

(3) - **نفس المصدر السابق**، ص: 5.

(4) - **نفس المصدر السابق** ، ص: 6.

الذي يتدخل أحيانا أيضا هو الزرنيخ (l'Arsenic) الذي يتقاسم مع الكبريت خاصية الروح.

ترتبط الأحجار الكريمة بالمعادن، إذ تملك مبادئها الأولية. غير أن هــذه المبــادئ تغيرت أثناء تصلبها بسبب حوادث طارئة، كالحرارة والجفاف، الــبرودة أو الرطوبــة، فتحولت عن هدفها الأول مكونة حجرا كريما، أو جوهر، عوض عن مادة معدنية هي الفلز. وهذا ما يفسر عثورنا على الجوهر مرتبا حسب المعادن التي يعزوها إليها الكاتب. وهكذا فإن الياقوت (Corindon)، حجر يرتبط بالحجر الذهبي. إذا تغلبــت الحــرارة والجفاف، أخذ الحجر اللون الأحمر: فهو اليــاقوت الأحمــر (Rubis). وإذا ضــعفت الحرارة، كان لون الحجر أصفر: فهو الياقوت الأصــفر أو الزبرجــد (Topaze). وإذا صارت الحرارة معتدلة صار الحجر أبيض: فهو الياقوت الذي لا لون له الــخ...[1].

تلك إذن، بعض الأمثلة من النظريات المسلم بها وقتذاك، والتي كــان لا يــزال البعض منها يتبناه العلم الحديث، علم القرن 19 م، من ذلك على سبيل المثال تقــسيم التيفاشي للأحجار الكريمة[2].

(1) - **نفس المصدر**، ص: 7. — انظر الجواهر الآتية:

- الدرة، ص: 16-30.
- الياقوت، ص: 30-35.
- الياقوت الأصفر، ص: 35-36.
- الياقوت الإسمانجوني، ص: 36-39.
- الياقوت الأبيض، ص: 39-64.
- الزمرود، ص: 64-67.
- الزبرجد، ص: 67-127.
- الماس، ص: 127-170.
- المغناطيس، ص: 170-201.
- المرجان، ص: 201-250.

(2) - **نفس المصدر السابق** ، ص: 8.

3 ـــ الجغرافية وعلم الفلك:

- الجغرافية:

استعملت كلمة جغرافيا لأول مرة بمعنى "علم الجغرافيا" في رسائل إخوان الصفـــا[1]، ولكنها فسرت بأنها "صورة الأرض"، وظل هذا المعنى شائعا خلال العصور الوسطى[2].

وفيما يتعلق بالجغرافيا العربية، فقد عرف عن العرب المسلمين، أنهم كلما فتحوا بلدا، أمر قادة الجيش -بأمر من الخليفة- رسم الحالة الجغرافية والإحصائية للإقليم أو المقاطعة بغرض إعادة توزيع الأراضي. كما أن فريضة الحج ساهمت في ميلاد ونمو تذوق الرغبة في السفر والترحال في أوساط المسلمين. وقد اعتبر القرآن واللغة العربية الملازمين للدين الإسلامي -الذي هيمن على الإقليم الجغرافي الممتد من حوض السند إلى المحيط الأطلسي، ومن أقاليم القوقاز واليقزرت (Yaxarte) إلى رمال إفريقيا- عاملين مساعدين أيضا على ظهور ونمو علم الجغرافيا. كما أن رغبة بعض المسلمين وفضولهم في استكشاف الأقاليم الواسعة التي فتحها المسلمون وتجوالهم فيها من أقصاها إلى أقصاها، هي التي أدت إلى بروز رحلات ورحالة أمثال المسعودي والإصطخري وابن حوقل[3] وغيرهم. وللحقيقة -يعترف "رينو"- أن الرحلات في الأقطار الإسلامية كانت أسهل منها في الأقطار المسيحية، والسبب في ذلك أن الأولى كانت أقل انقساما وحواجز، كما كان الشأن في أوربا[4].

---

(1) - **رسائل إخوان الصفا**، القاهرة، 1347، ص: 111. وقد عرّف حاجي خليفة "علم جَغْرافيا": أنها كلمة يونانية بمعنى صورة الأرض، مما يتضح أن تعريف إخوان الصفا مأخوذ عن اليونان. ويضيف أن عَلَم جغرافيا لم ينقل له في العربية لفظ مخصوص وأول من صنف فيه بطليموس القلوذي فإنه صنف كتابه المعروف بجغرافيا أيضا بعدما صنف المجسطي وذكر أن عدد المدن أربعة آلاف وخمسمائة وثلاثون مدينة في عصره وسماها مدينة ... وقد عرب الكتاب في عهد المأمون، غير أن خليفة يشير إلى أن كتاب بطليموس المعرب لم يعد موجودا في عهده.

- كشف الظنون، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 590- 591.

(2) - انظر مادة "جُغرافيا"، دائرة المعارف الإسلامية، ج 7، **مصدر سابق**، ص: 10- 43.

(3) - انظر تعريفا سابقا بكل من **المسعودي والإصطخري وابن حوقل**.

(4) - REINAUD, "Géographie d'Aboulféda", trad. ., **J. A.**, 4me série T : 12, 1848, P : 70.

ما هي مصادر علم الجغرافيا العربية ؟[1] إنها الشعر العربي القديم وروايته، والقرآن الكريم لأنه يحض على السفر ومعرفة الكون. وعلماء من طراز هشام أبي المنذر بن الكلبي (توفي عام 205 هـ/820 م)، والإدريسي[2] والمقدسي[3]. وكذلك علم رسم المصورات الجغرافية في القرن 10 م، فضلا عن آراء جغرافية أولية تناقلها اليهود والنصارى، وهي أقرب إلى علم وصف الكون منها إلى الجغرافيا (عن أسفار العهد القديم وغيره)، والمصادر الفارسية والمصرية واليونانية القديمة، وكذا الفتوحات العربية الكبرى التي جمعت المعلومات الجغرافية عن العالم غير العربي.

وكانت هناك الحاجة إلى ظهور المصنفات الجغرافية، كمعرفة الطرق الكبرى التي تربط أقاليم الدول الإسلامية بعضها ببعض، والأغراض الإدارية والسياسية، وتعيين محطات القوافل على طرق الحج...الخ(4).

كانت الرحلات العلمية الجغرافية تحرر كلها باللغة العربية، وكانت العربية أشبه ما تكون باللاتينية في أوربا لفترة طويلة، فهي لغة الوحي ولغة الكتب، وبالتالي فقد

---

(1) - الجغرافيا عند العرب: موسوعة الحضارة العربية، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 7- 8.

(2) - **الإدريسي**: (493- 560 هـ /1100- 1165 م)، هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي، أبو عبد الله: من أدارسة المغرب الأقصى. ولد في سبتة (ويرجح أن وفاته في سبتة) ونشأ وتعلم في قرطبة. مؤرخ، من أكابر العلماء بالجغرافية.

رحل رحلة طويلة انتهى بها إلى صقلية، فنزل على صاحبها روجر الثاني (Roger II) ووضع له كتابا سماه "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" أكمله سنة 548 هـ /1153 م، وهو أصح كتاب ألفه العرب في وصف بلاد أوربا وإيطاليا، وكل من كتب عن الغرب من علماء العرب أخذ عنه. وقد ترجم إلى الفرنسية واللاتينية والإنجليزية والألمانية، وطبعت منه بالعربية خلاصات. وللإدريسي أيضا "الجامع لصفات أشتات النبات" استفاد منه ابن البيطار، و"روض الأنس ونزهة النفس" ويعرف بالممالك والمسالك، و"أنس المهج وروض الفرج".

وللمهندس البغدادي المعاصر أحمد سوسة "الشريف الإدريسي في الجغرافية العربية".

- الزركلي، ج 7، **مصدر سابق**، ص: 24. انظر كذلك:

- دائرة المعارف الإسلامية، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 547.

(3) ـــ **المقدسي**: (336- نحو 380 هـ /947- نحو 990 م)، محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء، المقدسي ويقال له البشاري، شمس الدين، أبو عبد الله: رحالة جغرافي. ولد في المقدس. وتعاطى التجارة، فتجشم أسفارا هيأت له المعرفة بغوامض أحوال البلاد، ثم انقطع إلى تتبع ذلك، فطاف أكثر بلاد الإسلام، وصنف كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، وامتاز فيه بكثرة ملاحظاته وسعة نظره. وقد قال عنه المستشرق "سبرنجر": لم يتجول سائح في البلاد كما تجول المقدسي، ولم ينتبه أحد أو يحسن ترتيب ما علم به مثله.

- الزركلي، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 312.

(4) - المادة: جغرافيا، دائرة المعارف الإسلامية، ج 7، **مصدر سابق**، ص: 10- 43.

كانت مفهومة من كل المثقفين. ولم تظهر في أوساط المسلمين مؤلفات بالفارسية والتركية إلا في فترة متأخرة(1).

منذ أن اهتم "رينو" ضمن أبحاثه بالجغرافيا لدى العرب والشرقيين عموما، كانت له فرصة للتأكد من أن العرب أثناء دراساتهم العلمية الأولية، في القرنين الثامن والتاسع، قاموا باقتباسات عديدة من الهنود، ضمن نظرياتهم الجغرافية، ولم يتوقف تأثير هذه الاقتباسات في رؤى كتّاب الإمبراطورية الإسلامية إلى غاية انحطاط آدابهم.

وقد اهتم "رينو" بالتعريف بالأصول التي نهل منها الجغرافيون العرب. وفي أثناء تعميق تقصيه، عثر على أشياء لم يكن يبحث عنها، من مثل صلات العرب الجغرافية ورحلاتهم نحو الهند والصين (2).

تعود بداية ازدهار دراسات جغرافية العرب والمسلمين إلى منتصف الثلاثينيات، حين طبع عام 1834ـ1835 كتاب أبي المحاسن. وقد كشفت للأوربيين، طباعة ترجمة الكتاب، عن تطبيق نظام جغرافي جديد وأصيل من خلال استبدال خط التنصيب بالجزر السعيدة في بيان خطوط الطول، كما أبرز في نفس الوقت تصويبات هامة أدخلها العرب على جداول بطليموس (3) (Ptolémée)، عن حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد ترتب عن هذه الحقائق، استثارة انتباه المستشرقين واستيقاظهم، فبدأت الأبحاث تتضاعف، وجمعت الكثير من الوثائق، وتولدت أفكار جديدة. فكان

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ج 7، ص:.

(2) - REINAUD, "Fragments Arabes et Persans relatif a l'Inde", **J. A.**, 4me série, T : 4, 1844, P : 114.

(3) – **بطليموس**: (90- 168 م)، كلوديوس، نشأ في الأسكندرية، وهو من أبرز علمائها. رياضي، فلكي، جغرافي، إغريقي- مصري. وهو صاحب الكتاب الشهير "الماجسطي" Almageste والكلمة هذه هي ناتج الاختصار العربي للاسم الحقيقي للكتاب والذي كان مرجعا في الفلك حتى عصر "كوبرنيكوس" و"كبلر". وفيه اعتقد بطليموس أن الأرض مركز الكون.

قسم بطليموس الدرجات إلى دقائق وثوان وحسب النسبة التقريبية، وتضمن كتاب الماجسطي رسما توضيحيا لمواقع أكثر من ألف نجم وكوكب. يحتوي الكتاب بعضا من المعلومات الجغرافية وقائمة لبعض الأماكن مشارا إلى مواقعها طولا وعرضا (بالنسبة لخط الاستواء).

- موسوعة العلماء، **مصدر سابق**، ص: 62.

أن أحاط "لولويل" LELWEL بالأعمال المنجزة في مجملها، وأخضعها لدراسة جادة، اعتمادا على النصوص العربية (1).

أصدر "رينو"، عام 1847، النصف الأول من ترجمته لجغرافية أبي الفداء(2) - الكتاب الذي كان محل اهتمامه منذ شرع في نشرته الممتازة لنصه العربي- والتي اشترك فيها مع "دوسلان"، ونشرت على نفقة الجمعية الآسيوية الفرنسية(3).

وهكذا فقد ساهمت الترجمة المرفقة بتعاليق وتوضيحات، في وضع كتاب بين أيدي كل المهتمين بالعلوم التاريخية، لم يقتنع فيه "رينو" بترجمة مؤلفه، بل بسط أصول جغرافية العرب، وحلل وناقش مؤلفات أهم الرحالين والجغرافيين العرب، وفصل مختلف أقسام مذهبهم الجغرافي، ومناهجهم في علم الفلك والرياضيات من حيث تأثيرها في علم الجغرافيا، وكذلك نهجهم في رسم الخرائط، وتطور معارفهم في الجغرافيا واتساعها، فضلا عن أصل البوصلة، وأخيرا جل المواضيع والمسائل التي تدخل في موضوع الجغرافيا المتشعب. وقد أضاف "رينو" إلى ترجمة الكتاب، خرائط الأرض مرسومة وفق مناهج ومعارف الاصطخري[4]، الإدريسي، البتاني[5]

---

(1) - Joachim LEWEL, "Géographie du Moyen-Âge", **J . A.** ,4^{me} série, T : 17, 1851, P : 591-592.

(2) - REINAUD , "Géographie d'Aboulféda", J. A. ., 1848, **op. Cité,** P : 107.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité,** P : 108.

(4) - **الاصطخري = الكرخي**: (توفي عام 346 هـ /957 م)، إبراهيم بن محمد الفارسي، أبو اسحاق الإصطخري ويقال له الكرخي: جغرافي ورحالة، من العلماء. من أهل إصطخر (بإيران)، قام بسياحة طاف بها بلاد الهند، وبلغ الأوقيانوس الأتلانتيكي، واستعان بكتاب "صور الأقاليم" لأبي زيد البلخي، ولم تكن مصادر علم البلدان موفورة في عصره، فألف كتابيه "صور الأقاليم" على اسم كتاب البلخي، و"مسالك الممالك" ونقل ياقوت عنهما أو عن أحدهما في **معجم** البلدان.

- الزركلي، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 61.

(5) - **البتّاني**: (توفي عام 317 هـ /929 م)، محمد بن جابر بن سنان الحراني الرقي الصابىء، أبو عبد الله المعروف بالبتاني: فلكي مهندس، يسميه الأوربيون (Albategni) أو (Albatenius). ولد قبل سنة 244 هـ /858 م، وتوفي قرب سامراء. كان من أهل حران وسكن الرقة، واشتغل برصد الكواكب من سنة 264 إلى 306 هـ (877- 918 م). هو صاحب "الزيج" المعروف بزيج الصابىء، في ثلاثة أجزاء، طبعت ترجمته إلى اللاتينية في نورنبورغ سنة 944 هـ /1537 م، وقالوا إنه أصح من زيج بطليموس. ومن كتبه أيضا "معرفة مطالع البروج فيما بين أرباع الفلك" و"شرح أربع مقالات لبطليموس" و"رسالة في تحقيق أقدار الاتصالات"، ولم يبلغ أحد في

والمسعودي(1).

وستشكل الدراسة الدافع الكبير إلى جزء هام مما سيصدر لاحقا من مخطوطات.

وموازاة مع عمل "رينو"، كان SCHIER بدريسد (ألمانيا)، قد أصدر آخر نشرة من طبعته الحجرية لنص كتاب جغرافية أبي الفداء(2).

أما وصف افريقية أو رحلة أبي القاسم محمد بن حوقل[3] إلى البلاد الممتدة من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي، في عهد المعز لدين الله الفاطمي، فقد ترجمها "دوسلان".

يعود تأليف الكتاب إلى منتصف القرن 4 هـ/ 10 م، وقد اعتمد المترجم على نسخة من مخطوط ليدن (هولندا)، كان قد جلبها LANGLES وأودعها المكتبة الوطنية بباريس. اقتصر "دوسلان" على ترجمة خمسة وعشرين صفحة من المخطوط، الذي يتكون من خمسمائة واثنتي عشرة صفحة، واشتكى المترجم من رداءة المنقول، مبديا أسفه على عدم حصوله على واحد من أجود المخطوطين، ألا وهما مخطوطا ليد وأكسفورد (انجلترا)، اللذان من دونهما يصعب -إن لم يكن مستحيلا في نظر "دوسلان"- نشر نص جغرافية ابن حوقل، أو ترجمته (4).

الإسلام مبلغ ابن جابر في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركتها. وكان يرصد في الرقة على الضفة اليسرى من الفرات. وهو أول من كشف السَّمت Azimuth والنظير Nadir وحدد نقطتيهما من السماء، والكلمتان عند علماء الفلك الأوربيين عربيتان. كما اكتشف البتاني حركة الأوج الشمسي وتقدم المدار الشمسي وانحرافه، والجيب= =الهندسي والأوتار حسب تشمبرلس (في موسوعات العلوم الفلكية الانجليزية. وقال المستشرق "نلينو" Nallino إن للبتاني رصودا للكسوف والخسوف اعتمد عليها دنتون Dunthorne سنة 1749 في تحديد تسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمن. وقال الفلكي الفرنسي لالند Lalande: "البتاني أحد الفلكيين العشرين الأئمة الذين ظهروا في العالم كله". - الزركلي، ج 6، **مصدر سابق**، ص: 68. انظر أيضا: - دائرة المعارف الإسلامية، ج 3، **مصدر سابق**، ص: 336.

(1) - Rapport annuel, J. A., 1848, **op. Cité,** P : 108.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص. 109.

- Ismaël ABOULFEDA, **Géographie en arabe**, publiée d'après deux manuscrits. Livraison III, IV. Dresde, 1847.

- انظر أيضا: - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité,** P : 39- 40.

(3) - انظر تعريفا لابن حوقل، ص: 333.

(4) - DE SLANE, "Description de l'Afrique", J. A, 1842, **op. Cité,** P : 159-160.

يصف الرحالة ابن حوقل مدن بلاد المغرب كبرقة، وأجدابية، وأوجلة، وودّان، وسرت، وطرابلس(1)، وقابس، وسفاقس، والمهدية، والمنصورية، وسوسة، والمنستير، وتونس، وقرطاجنة، وبترت، وبونة، وجزائر بني مزغنة، وتنس، ووهران، ومليلة، وطنجة، وفاس، وسلا، وغيرها...

كما يصف ابن حوقل، شساعة المدن، وكثافة سكانها، وموقعها بالنسبة للسهول والجبال، وأهمية الموقع، ومصادر الثروة الزراعية والحيوانية أو الصناعية أو التجارية، ونظافة المساجد، وشهرة كل مدينة وتميزها عن سائر المدن الأخرى في مجال من هذه المجالات المختلفة، والقبائل المحيطة بها، كما يذكر خلقة وأخلاق السكان، والتبعية الإدارية للمدينة.على أن الجانب التاريخي يطغى في أغلب الأحيان على سائر النواحي الأخرى(2) .

والمستشرقون الفرنسيون مدينون في مجال علم الجغرافيا إلى **DEFREMERY**، الذي أصدر مختارات من رحلات ابن بطوطة، وهو فقيه من طنجة، جاب الشرق وقسما من إفريقيا، خلال النصف الأول من القرن 8 هـ/ 14 م. وجد المستشرقون في قصص وروايات أسفار ابن بطوطة، فضولا كبيرا بسبب المعلومات التي يمنحها عما شاهده خلال تنقلاته الطويلة، وكذلك بسبب سيرته الذاتية، ذلك أن المستشرقين الفرنسيين أذهلتهم كثرة رحلات العلماء المسلمين، ولاسيما سهولة التنقل في الأقطار الإسلامية، والترحاب الذي يلاقونه أينما حلوا، والشرف الذي يمنحهم إياه الحكام، والسرعة التي يتغلبون بها على التكاليف الضخمة في البلاد الأجنبية (غير الإسلامية). ولعل عوامل عديدة ساهمت في إطالة عمر هذا الوضع منها: عادة الترحاب التي نقلها العرب أينما حلوا، وكذلك قلة تكلف الشرقيين عموما، واستعمالهم المشترك للغة علمية (العربية). لكن السبب الأهم من هذا وذاك -في نظر المستشرقين- يكمن في الاحترام

---

(1) - يذهب النويري إلى أن مدينة طرابلس ضمت إلى إقليم إفريقية عام 367هـ /977 م، في عهد الخليفة الفاطمي نزار الذي كان حاكما لمصر آنئذ. ضمها إلى أبي الفتوح بلوغين حاكم افريقية. انظر: **نفس المصدر السابق**، ص: 166.

(2) - **نفس المصدر**، ص: 160ـ196.

الذي تكنه الشعوب الإسلامية للعلم الذي تربطه علاقات، من كل النواحي، بالـــدين (الإسلامي).

فأنت ترى من خلال مؤلفات ابن بطوطة نفسه، أية درجة، وأي حد هو يبالغ بسهولة التنقل والانتقال بين مناصب يمنحها إياه الاحترام الشامل، في صورة لم يجد لها المستشرقون شبيها في القرن 19 م إلا في أوساط علماء الماسونية. وهكذا، فقد يترل ابن بطوطة، تارة ضيفا على السلاطين وحكام المدن، فيثقل بهداياهم، وتارة أخرى يعيش بين الشيوخ والنساك. كما تجده تارة قاضيا بدلهي، وأخرى سفيرا بالصين، وثالثة قاضيا بجزر المالديف (المحيط الهندي). وهكذا قضى نحوا من الثلاثين سنة من عمره(1) .

لم تكن رحلات ابن بطوطة معروفة من المستشرقين منذ مدة، إلا مـــن خـــلال المختصر المترجم إلى الإنجليزية الذي نشره المستشرق LEE. وقد نشر DULAURIER، ضمن المجلة الآسيوية، جزءا من القسم الأول من رحلة ابن بطوطة(2).

بعد حوالي قرن من سقوط بغداد على يد المغول والتوقف عن احتلال مركز الصدارة في الخلافة الإسلامية، زار ابن بطوطة بغداد، ووصف ظاهرة كون نصفها خرائب وأطلالا، وقد أسماها الأثر المطموس أو الشبح المتبدد المضمحل. هكذا إذن، تحدث ابن بطوطة، الذي نشر SANGUINETTI وDEFREMERY نص وترجمة الجزء الثاني من كتابه(3) ، وفيه يتناول رحلته إلى بلاد ما بين النهرين، جزء من بلاد فارس، الجزيرة العربية، الشواطئ الشرقية من إفريقيا، آسيا الصغرى وروسيا الجنوبية. أما الجزء الثالث من رحلات ابن بطوطة، فقد صدر عام 1855 ويتضمن مغامرات

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1849, **op. Cité,** P : 23-24.

- محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق عبد الهادي التازي، 5 أجزاء، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1849**, op. Cité,** P : 25.

(3) - DEFREMERY et SANGUINETTI, "**Ibn Batouta**", texte et traduction, Vol. II, imprimerie impériale, Paris, 1854, (XIV et 465p.).

الكاتب في كيبتشك، ببلخ، افغانستان وجزء من الهند. و لم يكن ابن بطوطة فيما كتب منتحلا. ورحلاته تختلف عن رحلات الأوربيين من حيث أنه ينتبه إلى غير ما يثيرهم، ومع ذلك فهو يشد انتباههم لأنه ليس ناقلا ولكنه يشرك القارئ في وقائع الطريق، وهو يشعرك في كتابته بالحياة الإنسانية الواقعية، وفي الغالب من أوجه غريبة. خذ مثلا، دخوله إلى بلاط دلهي، الاستقبال الذي حظي به، الصعوبات التي واجهها، الطريقة التي صار بها قاضيا بدلهي...الخ، وهو ينظر بحرية إلى ما يجري حوله، ويسجله دون حرج ولا أغراض شخصية (1).

أما الجزء الرابع والأخير من كتابه، وكذلك الفهارس، فقد صدرت عام 1858، ضمن مجموع مؤلفات الشرق، وشكلت طبعته نهاية لنشر أول كتاب ضمن المجموع (2). وفيه تناول ابن بطوطة إرساله كسفير إلى بكين من سلطان دلهي، البعثة التي قادته إلى أماكن عديدة وصفها في هذا الجزء، كسواحل "مالابار" التي تقع إلى الشرق من شبه الجزيرة الهندية وشواطئ "كورومانديل" الغربية ، وسيلان، وسوماطرا، وكانتون وبكين، ومن هناك عاد إلى فاس مرورا بكاليكوت وبلاد فارس، ومسقط وبغداد، فالقدس ومكة، ثم انتقل إلى الأندلس حيث زار جبل طارق، مالقة، غرناطة، وعاد مجددا إلى فاس. لكن عودته كانت لكي يرسل من سلطان فاس إلى تمبوكتو، التي عاد منها بداية عام 1358م /760هـــ، واستقر اثر تنقلات واغتراب دام ثلاثين سنة، ومكث طوال الثلاث سنوات الموالية يحرر قصة أسفاره.

اعتبر المستشرقون الفرنسيون رحلات ابن بطوطة ذات قيمة كبيرة، ازدادت الحاجة إليها كلما تطورت الدراسات التاريخية، حول الشرق وإفريقيا، خلال المرحلة التي تعنينا، نظرا لما تحتوي عليه الرحلات من ملاحظات وتواريخ دقيقة، تتعلق برقعة جغرافية عالمية واسعة(3). كان ذلك أيضا في الوقت الذي كانت فيه الدول الاستعمارية في أمس الحاجة إلى معرفة الشعوب البعيدة عن أوربا.

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1856, **op. Cité,** P : 34 – 35.

(2) - DEFREMERY et SANGUINETTI, "**Ibn-Batouta**", texte et traduction, t. IV, Paris, 1858, (479p.).

(3) - Rapport annuel, J. A., 1858, **op. Cité,** P : 15- 17.

وقد اغتنى أدب الجغرافيا العربية برحلة محمد ابن جبير[1] (الأندلسي)، التي هي نتيجة لزياراته خلال سنتي 579 هـ /1183 و 580 هـ /1184، والأشهر الأولى من سنة 581 هـ / 118 م، حيث زار الكاتب مصر وجزءا من الجزيرة العربية والعراق وسوريا وصقلية(2).

أدت فريضة الحج إلى بيت الله الحرام مرة في العمر، وكذلك شوق المسلمين إلى رؤية مهبط الوحي موطن أسلافهم من الصحابة والتابعين، أدى إلى تنامي ظاهرة شد الرحال إلى الشرق. لاسيما في أوساط المثقفين في الأندلس وبلاد المغرب، ليس فقط لزيارة البقاع المقدسة، لكن أيضا لطلب العلم والاحتكاك بالعلماء. لم يكن كل المؤمنين يمتطون البحر المتوسط ليترلوا على اليابسة بالإسكندرية، لكن الأغلبية كانت تعبر المغرب الأوسط، فتحصل بذلك على ميزة اكتشاف المدن الشهيرة في أوقات الفراغ، سواء من خلال آثارها ومعالمها التذكارية، أم من خلال جامعاتها. أما بالنسبة لرجال العلم، فهي مناسبة للتعرف على مشاهير العلماء والأدباء، والتبرك بالصلحاء. ولما كان ضمير الانتماء للأمة الإسلامية، أمة محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ في منتهى قواه، كان المسافر يستقبل بالترحاب أينما حل(3) كما أسلفنا.

على أن الحدث الجدير بالاهتمام في هذه الحركة العامة، هي أن طلاب العلم، في نهاية الدراسة، لا يشعرون بجدارة التعليم إلا إذا أجيزوا من أشهر علماء الإسلام. وهم لا يرجون أن يستأهلوا ثقة مواطنيهم إلا بعد أن يكونوا قد قرؤوا أمهات المصادر على شيوخ تلمسان، بجاية، تونس أو القاهرة. وحينما يعود طلاب العلم إلى أوطانهم، يكتبون مشاعرهم وأحاسيسهم التي عاشوها أثناء الرحلة العلمية، ويدونون على الخصوص، أسماء

---

(1) - هناك طبعه حديثة للرحلة: ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2001.
- انظر تعريفا لابن جبير، ص: 336.

(2) - كان AMARI قد نشر من رحلة ابن جبير الفصل المتعلق بصقلية، نصا وترجمة وملاحظات، ضمن أعداد 45 ــ 1846 من المجلةالآسيوية.
- انظر: - C. D.….y ., Bibliographie , **J. A.,** 4me série, T : 19, 1852, P : 288- 289.

(3) - - CHERBONNEAU, "Notice et extraits du voyage d'El-Abdery à travers l'Afrique septentrionale au VII siècle de l'hégire".
"رحلة العبدري" , **J. A.,** 5me série, T : 4, 1854, P : 145.

شيوخهم ويصفون المصادر التي شرحت لهم. لأجل هذا يملك المسلمون عددا كبيرا من الرحلات، وهي مؤلفات خاصة ضمن كتب الجغرافيا.

وقد تم التعرف على كثير من كتب الرحلة، بفضول المستشرقين، كرحلة ابن العربي، وابن جبير، والهروي، وابن حوقل، وابن بطوطة. وحكم "شيربونو" على باقي كتب الرحلة -بناء على شهادات كتاب السير- أنها لا تتمتع بأدنى شهرة(1).

يأتي في مقدمة كتب الرحلة الشهيرة كتاب العبدري[2]. وبقدر ما هو كتاب نادر، فإنه مثير للفضول. وقد قام "شيربونو" بنشر موجز له مرفق ببعض المقتطفات تتعلق بالجزائر وتونس.

والشيخ أبو محمد العبدري من مواليد بلنسيا، كان يسكن حاحا بالمغرب عـــام 688هـــ/ 1289م، زار مكة برا، وأدى فريضة الحج رفقة ابنه محمد. وفي طريق العودة، سلك المسلك نفسه وكأنه يريد أن يتعود على العباد والبلاد التي مر بها أولا، ومن الممكن أن يكون العبدري قد فعل ذلك خوفا من ركوب البحر[3].

يحمل كتاب العبدري عنوان: "الرحلة المغربية"، ولا يعرف منه المستشرقون آنذاك إلا ست نسخ موزعة على مكتبات: ليد، الإسكوريال، جامع الزيتونة، مكتبة "ألفونس روسو" بتونس، مكتبة "مارتان" بقسنطينة وكذلك مكتبة "شيربونو" الخاصة.

وقد اعتمد الأخير على نسخة "مارتان"، التي يبدو أنها إحدى النسخ الأولى التي نسخت في البلد، في العهد الذي كان لا يزال فيه خط سير العبدري ذا شهرة ورواج،

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 145.

(2) - **العبدري**: (توفي نحو 700 هـــ /نحو 1300 م)، محمد بن محمد بن علي بن أحمد، أبو عبد الله الحاحي العبدري، صاحب "الرحلة" المعروفة باسمه. أصله من بلنسية، ونسبته إلى بني عبد الدار، وكان من سكان بلدة "حاحة" في المغرب، بعد أزمور، توجه منها حاجا سنة 688 هـــ /1289، فدخل الجزائر، باجة وتونس والقيروان، ومر بالاسكندرية ذهابا وإيابا.

كان العبدري قد بدأ بتقييد رحلته في تلمسان، ورحل منها في ربيع الأول 689 هـــ ثم عاد إليها في طريقه بعد الحج، واستقر في بلده، حيث أنجز الرحلة. رحلته مطبوعة مرتين في الجزائر والمغرب.

- الزركلي، ج 7، **مصدر سابق**، ص: 32.

(3) - كان علماء الجنوب المغربي يحجوا برا عبر الجزائر، فضلا عن أن العبدري كان في أواخر الحروب الصليبية، وكان البحر غير آمن للمسلمين.

أي بعد أزيد من خمسين سنة من الانتهاء من تحرير الكتاب بمراكش عام 745 هـ/1345 م (1).

وألف الزمخشري قاموسه الجغرافي "مراصد"، الذي لم يتمكن من إنهائه. وكان تأليفه نتيجة لإقامته الطويلة بمكة، والتي جلبت له اسم جار الله. وتناول فيه شبه الجزيرة العربية خاصة. وكان يمزج فيه وصفه المختصر بأبيات من الشعر العربي القديم تتعلق بجهات ونواح مختلفة. ويدل على أهمية الكتيب، شهرته وإتقانه، أن أدرجه الفيروزبادي ضمن قاموسه. وقد قام بنشر النص العربي للقاموس الجغرافي "مراصد" -اعتمادا على النسخة الوحيدة بليدن- المستشرقان JUYBOLL وde GRAVE وقد أضاف الأخير للنص، ملاحظات وجداول ومقدمة(2).

وقد أصدر DE SLANE، بالجزائر العاصمة، نص جغرافية المغرب الأوسط للبكري(3). وكان أبو عبيد الله البكري، وهو ابن أحد أمراء الأندلس، سلب ملكه ملك اشبيليا، فانسحب إلى قرطبة أين عاش الابن حياة القصور والآداب، وقد نشر على التوالي، مؤلفات عديدة في العقيدة واللغة والنباتات. كما باشر تأليف كتاب في الجغرافية العامة لم يصل منه إلى القرن 19 م إلا بضعة فصول، من ضمن هذه الفصول ولعل أهمها، ما يتعلق بوصف المغرب الأوسط. ويبدو أن البكري ألف هذا الجزء من

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 146ـ 147.

(2) - Rapport annuel, J . A., 1856, **op. Cité,** P : 31.

(3) - Abou-Oubeid-El-BEKRI, **Description de l'Afrique septentrionale,** texte arabe, revu sur quatre manuscrits et publié par DE SLANE, Alger, 1857, (19 et 213p.).

- انظر: - Rapport annuel, J. A. 1858, **op. Cité,** P : 34.

- **البكري**: (توفي عام 487 هـ/1094 م)، عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي، أبو عبيد. نسبته إلى بكر بن وائل، كانت لسلفه إمارة غربي جزيرة الأندلس... ولد بشلطيش (Saltés غرب إشبيلية) وانتقل إلى قرطبة، ثم صار إلى ألمرية، فاصطفاه صاحبها (محمد بن معن) لصحبته ووسع راتبه، وهذا ما حمل بعض المؤرخين على نعته بالوزير. ورجع إلى قرطبة بعد غزوة المرابطين، فتوفي بها عن سن متقدمة. جغرافي، ثقة. علامة بالأدب، له معرفة بالنباتات. ترك عدة كتب، منها: "المسالك والممالك" غير كامل، طبع جزء منه باسم "المغرب في ذكر إفريقية والمغرب"، و"**معجم** ما استعجم" أربعة أجزاء، و"أعلام النبوة"، و"الإحصاء لطبقات الشعراء"، و"أعيان النبات"، وغيرهم.

- الزركلي، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 98. وكذلك:

- دائرة المعارف الإسلامية، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 48-50.

كتابه اعتمادا على العلاقات التي كانت لأمراء بني أمية بقرطبة مع بلاد المغرب والتي عثر عليها البكري في وثائقهم. وانتهى من تأليف كتابه هذا عام 458 هـ /1065 م (1).

وقد أثار العمل اهتمام جملة من المستشرقين، من ذلك أن QUATREMERE نشر منه عام 1831 مقالا موسعا وترجمة لبعض المقاطع، غير أنه لم يكن يتوفر إلا على مخطوط غير كامل وعديم الشكل. وشيئا فشيئا تم اكتشاف عدة نسخ أخرى أهم، في الجزائر ومدريد ولندن، بها تمكن DE SLANE من تكملة واسترجاع النص وضبط قراءة أسماء الأعلام. وقد ساعده في ذلك إقامته في الجزائر ودراساته التي اقتضاها منه نشر تاريخ البربر لابن خلدون. وهكذا نشر النص الكامل للبكري على نفقة الحكومة العامة بالجزائر، وكذلك الترجمة الكاملة(2).

أما المؤلف الجغرافي الضخم "معجم البلدان"(3) لياقوت الحموي[4]، الذي يعود إلى بدايات القرن 13م / 7هـ، فقد جلب انتباه المستشرقين مبكرا، لاسيما بعد نشر FRAEHN مختارات منه.

---

(1) - Rapport annuel, J. A. 1858, P : 34-35.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 35-36.

(3) - "معجم البلدان": الغرض من وضع الكتاب هو معرفة أسماء الأماكن والبقاع التي على الربع المسكون من الأرض. لكتاب "**معجم البلدان**" مختصر بعنوان: "**مراصد الاطلاع**"، نشره JUYBOLL بليد، في ثلاثة مجلدات.

- أنظر: - Rapport annuel, J. A. 1861, **op. Cité,** P : 34.

- أنظر كذلك: -Rapport annuel, J. A. 1863, **op. Cité,** P : 41-43.

- أنظر أيضا الطبعة الحديثة للكتاب:

- ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، 7 أجزاء، ط 2، دار صادر، بيروت، 1995.

(4) - ياقوت الحموي: (574- 626 هـ /1178- 1229 م)، ابن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله، شهاب الدين، مؤرخ ثقة من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب. أصله من الروم. أسر من بلاده صغيرا، وابتاعه ببغداد تاجر اسمه عسكر بن إبراهيم الحموي، فرباه وعلمه وشغله بالأسفار في متاجره، ثم أعتقه سنة 596 هـ /1199 م وأبعده، فعاش من نسخ الكتب بالأجرة. عطف عليه مولاه بعد ذلك، فأعطاه شيئا من المال واستخدمه في تجارته، فاستمر إلى أن توفي مولاه، فاستقل بعمله، ورحل رحلة واسعة انتهى بها إلى مرو (بخراسان) وأقام يتجر، ثم انتقل إلى خوارزم. وبينما هو فيها خرج التتر سنة 616 هـ /1219 م، فانهزم بنفسه تاركا ما يملك، ونزل بالموصل وقد أعوزه القوت، ثم رحل إلى حلب وأقام في خان بظاهرها إلى أن توفي. من كتبه "معجم البلدان" و"إرشاد الأريب" ويعرف **بمعجم** الأدباء، و"المبدأ والمآل" في التاريخ، وكتاب "الدول"، و"أخبار المتنبي".

- الزركلي، ج 8، **مصدر سابق**، ص: 131. وكذلك:

- ابن خليكان، وفيات الأعيان، ج 6، **مصدر سابق**، ص: 127-139.

ولد ياقوت في نهاية القرن 12 م /6 هـ، من عائلة إغريقية، بيع صغيرا واتخذ عبدا، ولكنه تربى في كنف الآداب والعلوم العربية، حتى صار مسلما تقيا، لم يبق له تأثير أو ذكر بأصوله. كما صار ياقوت بائع كتب ومؤلف عدة مصنفات أشهرها قاموسه الجغرافي.

صدم ياقوت، أثناء نقاش علمي، لصعوبة عثوره على معلومات تتعلق بمكان معين، فعزم على الجمع بترتيب أبجدي ما تحويه كتب الجغرافيين والمؤرخين عن كل أقاليم العالم التي للعرب معرفة بها، فجمع أربع مجلدات ضخمة. والقاموس كنز من المعلومات التاريخية والجغرافية والأدبية، المستقاة من الكتب مع قليل من الملاحظات الخاصة به كرحالة(1). وقد ساهمت مهنتا بيع الكتب والرحلة في توفير مادة غزيرة، استعملها ياقوت في تأليف معجمه الجغرافي الضخم الواسع. غير أن سعة الكتاب وضخامته جعلت مخطوطاته نادرة، كما أنها وقفت حاجزا، أمام نشر المستشرقين له، مما اضطرهم إلى إصدار مختصرات منه، كما فعل WUSTENFELD إذ نشر مقتطفا، عالج فيه ياقوت أسماء جغرافية تتعلق بعدة مواضع ونواح. ومنذئذ بدأت مخطوطات ياقوت تتضاعف، فتحصل المتحف البريطاني على عدد منها، منح SCHEFER نسخة منها إلى المكتبة الوطنية بباريس(2). وواصل WUSTENFELD نشر القاموس الجغرافي لياقوت اعتمادا على مخطوطات برلين، سانبطرسبورغ، باريس، لندن وأكسفورد، على نفقة الجمعية الآسيوية الألمانية، وقد وصل عام 1866 إلى حرف الزاي(3).

وشرع DE MEYNARD في نشر ترجمة جزئية للمنجد، مختارا كل المواد أو المفردات المتعلقة ببلاد فارس وأفغانستان وأكمله بشروح مستقاة من مصادر جغرافيين عرب وفرس غير منشورة (4).

---

(1) - Rapport annuel, J. A. 1863, **op. Cité,** P : 35-37.

(2) - Rapport annuel, J. A., 1859, **op. Cité,** P : 27-28.

(3) - Rapport annuel, J . A., 1868, **op. Cité,** P : 110.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1859, P : 27-28.

لم يكن كتاب "البلدان" للجغرافي العربي أحمد بن أبي يعقوب[1]، المعروف باسم اليعقوبي -يعود إلى نهاية القرن 3 هـ /9 م- معروفا في أوربا إلى أن جلب أستاذ التركية Muchlinski، بسانبطرسبورغ نسخة مخطوطة من الجزء الثالث من الشرق. توزعها باحثان شابان هولنديان لنشرها، فاختار GOEJE وصف شمال إفريقيا واختار JUYNBOLL الابن، باقي المخطوط(2).

يشتمل كتاب البلدان لليعقوبي على أقسام عدة، منها الجزء الثالث الذي ذكرناه والذي من ضمنه الأقاليم التي جابها الكاتب، من ذلك، سواحل افريقية: كبرقه والقيروان ومدينة تونس، وسواحل المغرب الأوسط، فالأندلس، ثم يعود إلى المغرب الأقصى ومنها سوس الأقصى فتخوم إقليم السودان إلى مدينة "غات" (3) (Ghât). وقد ذكر اليعقوبي في كتاب البلدان نفسه على أن له كتابين آخرين هما: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية وقصة فتح المسلمين لبلاد المغرب(4).

هناك عدة جغرافيين عرب يقسمون الأرض، مرتكزين على خط الاستواء والمدار كقاعدة لأرباع الكرة الأرضية. أما اليعقوبي فيسمي المشرق والمغرب نسبة إلى طلوع الشمس وغروبها، غير أن هذه التسمية ليست دائمة ولا ثابتة طوال السنة، لأن جهة الشرق قد تعني الشمال-الشرقي، أي الجهة التي تشرق منها الشمس خلال فصل الصيف. بينما قد يعني الغرب، الجنوب-الغربي أي اتجاه غروب الشمس أثناء فصل الشتاء. أما الجنوب، فينطبق -بالنسبة إلى سكان بغداد مثلا- على اتجاه مكة، لأجل

---

(1) - **اليعقوبي**: (توفي بعد 292 هـ / بعد 905 م)، أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي، مؤرخ وجغرافي كثير الأسفار، من أهل بغداد. كان جده من موالي المنصور العباسي. رحل إلى المغرب كما أقام مدة في أرمينية. ودخل الهند، وزار الأقطار العربية. وصنف كتبا منها: "تاريخ اليعقوبي" انتهى به إلى خلافة المعتمد على الله العباسي، وكتاب "أسماء البلدان" الذي سماه الممالك والمسالك، و"أخبار الأمم السالفة" وكتاب "مشاكلة الناس لزمانهم".

- الزركلي، **مصدر سابق**، ج 1، ص: 95. انظر كذلك:

- ياقوت الحموي، **معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، تحقيق إحسان عباس، ج 7/2، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ص: 557.

(2) - - Rapport annuel, J. A., 1861, **op. Cité,** P : 38.

(3) - - A. F.MEHREM, "Spécimen, Kitab El-Boldan d'Ahmed Ibn Abi Yaqub" **J. A.,** 5[me] Série, T : 19, 1862, P : 245.

(4) - **نفس المصدر السابق**، ص: 243.

هذا فهم يسمونه قبلة الجنوب، أي الجهة الأكثر تميز، ونجم كانوب(1) -الشهير في علم الفلك العربي بتأثيراته المختلفة في التكوين الإنساني والحيواني- في كتاب البلدان الذي يرتكز في الأفق الجنوبي وهي الجهة نفسها المسماة جهة كانوب. ولا يعرف اليعقوبي جهة الشمال إلا معرفة ناقصة، فهو يتوقف في الفصل الأول، في السواحل الجنوبية من بحر قزوين المتاخمة لخراسان. ولعل لفظة "شمال" أخذها اليعقوبي بالمعنى الأولي لكلمة شِمال، أي جهة اليسار بالنسبة لمن توجه نحو مشرق الشمس فيكون الشمال إلى يساره، مما يسمى مدار الجدي، ويرمز أيضا إلى النجم القطبي (2).

واليعقوبي غير معصوم من بعض الأخطاء الخاصة بالجغرافيين العرب القدماء، من ذلك مثلا، تنصيصه على التقاء نهر النيل بنهر السند(3).

أعطى DE MEYNARD نص وترجمة "كتاب الطرق والأقاليم" لابن خرداذبه، مسئول البريد في الخلافة الإسلامية في النصف الثاني من القرن 3 هـ، وأحد أقدم الجغرافيين العرب. وقد استعمل "دومينار" نسخة من مخطوط "أكسفورد"، قارنها له وفيق أفندي بنسخة أخرى وحيدة محفوظة بمكتبة مسجد اسطنبول.

ليس كتاب ابن خرداذبه كتاب كشاف طرق فقط، بقدر ما يشير أيضا إلى مقاطعات وأقاليم الخلافة، كما يعطي مبالغ مستحقات الزكاة لكل مقاطعة، مضيفا إلى قائمة مراحل الطرق الطويلة، تفاصيل منوعة، وغالبا ما هي مفيدة جدا في التاريخ والجغرافيا(4).

وأصدر SPRENGER بليبزيج، القسم الأول من خطوط سير ابن خرداذبه في أمبراطورية الخلافة. وقد بدأ بتعداد ونقد الوسائل، ثم شرع في بيان طرق البريد والطرق التجارية بمحطاتها ومسافاتها في أقاليم الخلافة الإسلامية، ويناقش مختلف المعطيات التي

---

(1) - كانوب (Canope) : خابية الأموات (وعاء فخاري كان المصريون القدماء يحفظون فيه أحشاء موتاهم).

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 246ـــ 247.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 248.

(4) - - Rapport annuel, **J. A.**, 1865, **op. Cité,** P : 13.

- انظر أيضا: - Rapport annuel, **J. A.**, 1866, **op. Cité,** P : 27.

قدمها الكتاب، مضيفا إليها تفاصيل عن المراكز، لاسيما في المناطق غير المعروفة بدقة. كما أنه لخص عمله في ستة عشر خريطة، أي خريطة لكل إقليم.

فالكتاب إذن، مليء بأشياء جديدة، وستكون الخرائط ذات فائدة كبيرة للمؤرخين لأنها تشير إلى عدد من المراكز التي تنقص في خرائط الأوربيين والتي يعثر عليها عند المؤرخين، لأن الطرق بقيت تقريبا على ما هي عليه عبر القرون. أما القسم الثاني فيتناول جزيرة العرب والتوزيع الجغرافي بتفصيل.

اعتمد "سبرنجر" في هذا العمل، بالخصوص على مؤلفات ابن خرداذبه، وياقوت والمقدسي سابقي الذكر(1).

يعتبر شمس الدين أبو عبد الله محمد الدمشقي[2] من كتاب القرن 13 م، المعاصرين لأبي الفدا وابن بطوطة، عرف هيمنة اللآتين في المشرق، قضى أغلب حياته في دمشق، عاش حتى عام 1327م. له كتاب في وصف الكون، نشر منه المستشرق MEHREM مقتطفان بالدنمركية، ومقتطفات أخرى بالفرنسية ضمن "حوليات الأسفار الجديدة". ولعل من ضمن ما يهمنا مما نشره "مهرم"، ما يتعلق بالأندلس(3).

أما المستشرقان DOZY و GOEJE، فقد نشرا النص العربي لوصف بلاد المغرب والأندلس للإدريسي[4]، مرفقا بترجمة وشروح.

تعتبر القواميس الجغرافية من الأهمية بمكان، ذلك أن الحاجة تدعو إليها في أبسط دراسة لها علاقة بالجغرافيا. وإذا كان هذا النوع من التأليف قد نشأ مع الكتابة، فإن المستشرقين الفرنسيين يعترفون أن فكرة القواميس وردت إلى الإغريق متأخرة في القرن

---

(1) - Rapport annuel du 28 / 06 / 1865, **J. A.**, 6me série, T : 6, 1865, P : 39- 40.

(2) - هو محمد بن حسن بن سباع بن أبي بكر الجذامي، أبو عبد الله، **شمس الدين**، المعروف **بابن الصائغ**: (645-720 هـ /1247-1320 م)، مصري الأصل، دمشقي المولد والوفاة. له قصيدة نحو ألفي بيت في "الصنائع والفنون" و"شرح ملحة الإعراب"، وغيره.

- الزركلي، ج 6، **مصدر سابق**، ص: 87. وكذلك::

(3) - Rapport annuel, **J. A.**, 1868, **op. Cité**, P : 108-109.

(4) - **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج 1+2، ط 1، دار عالم الكتب، بيروت، 1989.

6 م، وهو أمر أثار استغرابهم، لاسيما وأن الرومان سيطروا على جزء هام من العالم، ويفترض أنهم كانوا الأحوج إلى قواميس جغرافية بأتم معنى الكلمة. وخلافا لهذا فإن انعدام قواميس جغرافية طوال فترة أوربا القرون الوسطى، لم يثر استغراب REINAUD لسبب بسيط، كون أوربا -خلال هذه الفترة- كانت مقسمة إلى دويلات تكاد تمزقها الحروب باستمرار، ويعمها البؤس ويخيم عليها الجهل(1). ولذلك لم يعرف الأوربيون قاموسا جغرافيا باللاتينية إلى عام 1578م، حيث أنجز Ortelius البلجيكي واحدا، ثم الإيطالي Ferrari قاموسا آخر عام 1627 م(2).

والمعاجم التي تعنينا، والتي عددها خمسة، حررت كلها بالعربية. يعود إثنان منها إلى القرنين 11 و 12 م، موضوعهما جزيرة العرب لاسيما البقاع المقدسة. أما الثلاثة المتبقية فتشمل كل الأقطار الإسلامية، إثنان منهما يعودان إلى القرن 13 م، والثالث إلى فترة لاحقة(3).

وإذا كانت هذه القواميس قد أدت غرضها حين تأليفها ولم يكن هناك ما يضاهيها، فقد صارت في حكم المتخلفة مقارنة بمثيلاتها الأوربية في القرن 19 م، الأمر الذي يفسر ترجمة المسلمين لكتب أوربية في الموضوع. ومع ذلك تبقى هذه القواميس ذات قيمة نفيسة(4).

ومن المعروف أن المسلمين، في العصور الوسطى لما تسربت إليهم العلوم، صنعوا لأنفسهم مجسمات لكرات أرضية من معدن بغرض تكوين فكرة دقيقة عن مجموعات النجوم وأهمها، وكان لا يزال المجسم -في القرن 19 م- بمتحف "دريسدن" بألمانيا. ونشر SCHIER عام 1865، رسم قبة السماء -العربية- التي تملكها مكتبة "دريسدن"(5). ويبدو أن الكرة صنعت ببلاد فارس في النصف الثاني من القرن 13 م

---

(1) - REINAUD, "Notice sur les dictionnaires géographiques arabes", **J.A., 5me** série, T : 16, 1860, P : 65- 66.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 67ـ 68.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 71.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 72.

(5) - Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité**, P : 109.

من طرف عالم من علماء مدرسة ناصر الدين الطوسي، وقد خصها المستشرق SCHIER بدراسة للمرة الثانية وتمكن من شرحها شرحا دقيقا(1).

شهد العصر الوسيط، حتى في عهوده الأكثر بربرية، على دراسات شبه جادة حول مسائل جغرافية شغلت الإغريق والرومان. بيد أنه، لما أحاط (2) Vasco de Gama برأس الرجاء الصالح، واكتشف (3) Christophe Colomb أمريكا، ولاسيما عندما أحاط رفاق Ferdinand Magellan(4) بالأرض، فإن أفقا جديدا قد انفتح أمام العقول، فكان لابد من تقعيد قواعد جديدة لعلم الجغرافيا(5).

---

(1) - REINAUD, Des globes de métal pour les arabes du moyen age, **J. A., 6me** série, T : 7, 1866, P : 99.

(2) - **فاسكو دي غاما:** (1460- 1524 م)، ملاح ومستكشف برتغالي. كان أول من قام برحلة بحرية إلى الهند من طريق رأس الرجاء الصالح (1497-1498 م)، مفتتحا بذلك الطريق البحرية من أوربا الغربية إلى الشرق، مما ساعد على جعل البرتغال دولة عالمية. قام دي غاما برحلة بحرية ثانية إلى الهند (1502-1503 م)، وعين عام 1524 نائبا لملك البرتغال في الهند، ولكنه قضى نحبه بُعيد وصوله إلى تلك الديار.

- موسوعة المورد، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 189-190.

(3) - **كولومبوس:** (1451- 1506 م)، ملاح إيطالي، عمل في خدمة إسبانيا. مهدت رحلاته الأربع إلى العالم الجديد السبيل لحركة الاستكشاف والاستعمار الأوربية، وغيرت مجرى التاريخ. آمن بأن في إمكانه الوصول إلى الشرق من طريق الإبحار غربا. قام بأولى هذه الرحلات في 3 أوت 1492 م مبحرا من ميناء بالوس Palos بسفنه الثلاث بينتا Pinta ونينيا Ninia وسانتا ماريا Santa Maria فوصل إلى جزر باهاما Bahama Islands في 12 أكتوبر 1492 وبذلك اكتشف أمريكا من غير أن يدري أنه فعل.

- منير البعلبكي، **معجم أعلام المورد**، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1992، 376.

(4) - **ماجلان** فرديناند (1480- 1521 م)، ملاح برتغالي. يعتبر أول من قام برحلة بحرية حول العالم. أبحر من سواحل إسبانيا في 20 سبتمبر 1519 فوصل إلى سواحل أمريكا الجنوبية واجتاز عام 1520 المضيق المعروف اليوم باسمه "مضيق ماجلان". ومن ثم عبر المحيط الهادي إلى الفيليبين حيث قتله بعض أبناء البلاد فتابعت إحدى سفنه الخمس فيكتوريا Victoria طريقها عبر رأس الرجاء الصالح، إلى سواحل إسبانيا فبلغتها في 6 سبتمبر 1522.

- **نفس المصدر السابق**، ص: 404.

(5) - Le Vicomte DE SANTAREM, "Essai sur l'histoire de la cosmographie et de la cartographie pendant le Moyen Age, t.I, Paris, 1849", **J. A.**, 4me série, T : 14, 1849, P : 254.

- **علم الفلك:**

ينقسم تاريخ علم الفلك، في عمومه، إلى ثلاث مراحل كبرى، ترتبط بثلاث مدارس متميزة، المدرسة الإغريقية أو مدرسة الإسكندرية، المدرسة العربية، والمدرسة الحديثة.

وقد مثل المدرسة الإغريقية، "هيبارك"(1) (Hipparque) وبطليموس (Ptolémée) (2)، على الخصوص. وهي المدرسة التي قدمت للعلم خدمات. والاكتشافات والتطور الذي يدين به علم الفلك إلى هذه المدرسة تم إبرازه منذ عصر النهضة، فيما بقيت جهود المدرسة العربية، في هذا المجال مجهولة(3).

ومع بدايات القرن 19 م، بدأ المستشرقون، من خلال البحث في تاريخ العلوم العربية -وغير العربية- الوقوف على بعض أسماء علماء الفلك العرب، وكان رائدهم في هذا المجال "سيديو"J. J. SEDILLOT الأب -وليس الابن- الذي سيغير جل الأفكار السابقة في مجال علم الفلك العربي ويمنحه المكانة اللائقة به(4).

كان الشائع في أوربا، إلى مطلع القرن 19 م، أن العرب لم يضيفوا شيئا إلى فرضيات مدرسة الإسكندرية في علم الفلك، وأن الاكتشافات الحقيقية في هذا الحقل - منذ بطليموس- مردها إلى علماء أوربا الحديثة. وقد ذهب "سيديو" إلى أن هذه الفرضية، أيدها كتاب تاريخ العلوم وعلماء بارزون، رغم كونها غير صحيحة. ولم تدحض الفرضية، لجهل الأوربيين بأعمال الفلكيين العرب، والالتفاتة المحدودة التي يولونها لفحص المخطوطات العربية، الأمر الذي ساهم في انتشار واستمرار الخطأ. فما

---

(1) - **هيبارك:** عاش بين 190ـــ 120 ق. م. عالم فلك ورياضي يوناني. يعتبر أحد أعظم علماء الفلك القدامى. أفاد من منجزات البابليين الفلكية. تأثر به بطليموس تأثرا كبيرا. وضع أول خريطة للسماء وعين فيها مواقع ما يزيد على ألف نجم، حسب طول السنة فجاء حسابه مطابقا للواقع مع فرق ست دقائق ونصف دقيقة فقط.

- **معجم** أعلام المورد، **مصدر سابق**، ص: 486.

(2) - عاش بين 100ـــ 170 م.، وهو فلكي ، رياضي وجغرافي إغريقي. انظر: **سابقا**.

(3) - - "Recherches nouvelles pour servir à l'histoire de l'astronomie chez les arabes", **J. A.**, 2[me] série, T : 16, 1835, P : 420.

(4) - أصدر "سيديو" الابن نتائج أبحاث أبيه ضمن مقال:

- "Introduction au Traité des instruments astronomiques des arabes, par Aboul-Hhassan, t.I, 1834".

- انظر: " - Recherches nouvelles ", J. A., 1835, **op. Cité**, P : 421.

كان يعرفه الأوربيون عن الكتابات العلمية العربية، لم يكن ليساهم في إبداء حكم بالاستنتاج، عن مؤلفات لم تصل إلى أوربا(1).

إن الاكتشافات الجديدة التي تمت على أيدي المستشرقين، في مجال علم الفلك، التي سيعرضها "سيديو"، أثبتت أن هذا الفرع من الاستشراق بعيد عن أن يكون معينه قد نفد(2).

شكل عهد الخليفة المأمون (198ـــ 218 هـــ /813 ـــ 833 م)، بداية لأعمال علم الفلك. وكان المشارقة -العرب، الفرس وتتار الترانسوكسانيا- تلامذة الإغريق، لكن المسلمين أكملوا وطوروا أساليبهم وطرقهم الحسابية. فبتعويضهم الوتر بالجيب (sinus)، وإدخالهم المماسات (tangentes) في حساب المثلثات، أعطوا العبارات التناسبية (l'expression des rapports) وتنسيقها معنى أكثر اتساعا وبساطة.

إن جبر العرب المسلمين الذي طوره الأوربيون، يتشكل من المعادلات من الدرجة الثالثة(3). كما أن جداولهم في علم حساب المثلثات، وجداول استدراكاتهم لها، هي أكثر ملاءمة وتوافقا، وأحسن تحرير من تلك المتعلقة بالإغريق، لأن بعضها محسوب دقيقة بدقيقة حتى الكسر العشري التاسع (neuvième décimal) والبعض الآخر حتى الفاصلة الثلاثية...الخ(4).

جاء في مختصر لتاريخ علم الفلك لـــ DE LAPLACE أن نشاط الفلكيين العرب، اقتصر على ملاحظات، لم تمتد إلى بحث فروقات وتباينات جديدة، منتهيا إلى أن العرب لم يضيفوا جديدا إلى فرضيات بطليموس، كأن الأخير هو مؤسس علم الفلك الأول والأخير. ويؤيد "دولابلاس" "دولامبر" DELAMBRE، إذ يرى أن هناك علم فلك واحد، هو علم الفلك الإغريقي الذي قلدته شعوب أخرى بقليل أو كثير من

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 421ـــ 423.

(2) - **نفس المصدر**، ص: 423.

(3) - **نفس المصدر**، ص: 424ـــ 425.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 425ـــ 426.

النجاح، وقد خص العرب بالذكر، إذ يرى أنهم تبنوا فرضيات بطليموس، دون أدنى تغيير، وهي الفرضيات التي لم تقلب إلا من طرف KEPLER(1) .

غير أن هذه الأحكام غير صحيحة -في نظر "سيديو"- لأن اكتشاف المتراجحة من الدرجة الثالثة (la troisième inégalité lunaire) من طرف العرب، على يد عالم الفلك أبو الوفاء حوالي عام 975 م ببغداد، تعطي البرهان والدليل على ذلك. فهذه المتراجحة، المسماة عادة متغيرة (variation)، لم تعرف في الفترة الحديثة إلا مطلع القرن 17 م، من طرف الدنمركي Tycho Brahé(2).

نشرWESTENFELD وصف الكون لزكرياء بن محمد بن محمود القزويني[3]، بتشجيع من الجمعية الشرقية الألمانية، ويضم العنوان: كتاب عجائب المخلوقات (Traité des merveilles de la création)، ويتناول الجزء الأول من الكتاب، لاسيما القسم الجغرافي منه، الحديث عن قبة السماء، والسماوات والملائكة التي تسكنها، والكواكب وتأثيراتها، فالكوكب الأرضي الذي يعالج فيه الظواهر التي تحدث على ظهره، وشكل الكرة ومظهرها، وتشكيل الجبال والأنهار، وجل الكائنات التي تعيش على اليابسة، في الماء والهواء. فالكتاب خليط من النظريات والملاحظات والأساطير والوقائع التاريخية التي تعطينا فكرة كافية عن معارف العرب في القرن 13 م، وتمنح نصوصا ووثائق مثيرة لفضول المؤرخين والطبيعيين(4).

أما القسم الثاني لنفس العنوان السابق، في نظر صاحبه، فهو "كتاب روائع الأمم" (le Livre des monuments des pays). والقزويني مصنف شبيه ببلين Pline

---

(1) - **نفس المصدر**، ص: 426 ــ 427. انظر:

- LAPLACE, **Exposition du système du monde**, 1821.

(2) - "Recherches nouvelles ", J. A., 1835, **op. Cité,** P : 428-429.

(3) - **زكريا القزويني**: (605 - 682 هــ /1208- 1283 م)، هو زكريا بن محمد بن محمد، من سلالة أنس بن مالك الأنصاري النجاري. ولد بقزوين (بين رشت وطهران) ورحل إلى الشام والعراق، فولي قضاء واسط والحلة في أيام المعتصم العباسي. مؤرخ، جغرافي، وقاض، صنف عدة كتب، منها: "آثار البلاد وأخبار العباد" في مجلدين، و"عجائب المخلوقات" ترجم إلى الفارسية والألمانية والتركية:

- الزركلي، ج 3، **مصدر سابق**، ص: 46.

- البغدادي، هدية العارفين، **مصدر سابق**، ج 5، ص: 373.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1849, **op. Cité,** P : 22- 23.

- انظر كذلك: - Rapport annuel, **J. A.**, 1848, **op. Cité,** P : 111.

من موسوعيي العصر الوسيط، الذين يجمعون، في إطار منهجي، ملاحظات وآراء عدد من الكتاب. ويثير كتاب عجائب المخلوقات، على الخصوص، الفضول لأنه يعطي كمّا من المعلومات حول نظريات وملاحظات العرب في مختلف نواحي العلوم الطبيعية، حتى أن الأساطير التي تبناها ليست عديمة الفائدة بالنسبة للطبيعيين، الذين يبحثون عن أثر للوقائع الحقيقية، لكنها مرئية بشكل غير سليم، أو بالنسبة للمؤرخ الذي يعثر على دليل نقل الأخطاء العامة من شعب إلى آخر(1).

بينما ظلت أوربا المسيحية غارقة في ظلمات العصر الوسيط، فإن العرب الذين قادوا شعوبا من خلال الفتوحات الإسلامية والعلاقات المختلفة بين الشعوب التي دخلت الإسلام، نحو درجة عالية من الحضارة، تثقفوا بالعلوم والآداب، وحازوا على أعمال الإغريق.

فمنذ القرن 8 م، شجع الخليفة المنصور علم الفلك تحديدا، وكذلك خليفته المأمون، الذي حكم بغداد ابتداء من 814 م. وقد عمل الأخير على ترجمة كتاب بطليموس(2) l'Almageste فبث في إمبراطوريته معارف علم الفلك لمدرسة الإسكندرية، غير أن كتابات الفلكيين العرب بقيت محدودة المعرفة من الأوربيين حتى بداية الفترة الحديثة.

يبدو أن "المقدمة" لجداول محمد بن جبر البتاني، التي يعود تأليفها إلى القرن 9 م، والتي شرحت بعناية ووفاء، في نظر المستشرقين، هي نموذج لتقليد العرب الدقيق للإغريق، فقد بدوا محافظين على نظريات الإغريق ومذاهبهم العامة (Théories générales)، التي طوروا قليلا في وسائلها وأصولها. من ذلك أنهم أوضحوا أكثر، ميل

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 112.

(2) - "**المَجَسْطي**"، لفظة يونانية الأصل ومعناها: الترتيب أو البناء الأكبر. موسوعة فلكية ورياضية ألّفها عالم الفلك اليوناني بطليموس Ptolémée حوالي العام 140 م. عرض فيها الكاتب الأسس النظرية الهندسية ـــ الرياضية لوصف الحركة الظاهرة للكواكب وكذا الشمس والقمر. كتبت أصلا باللاتينية. وترجمت إلى العربية من طرف حنين بن اسحق، نقلا عن السُّريانية، عام 212 هـــ /827 م، ثم ترجمت إلى اللاتينية نقلا عن العربية، في النصف الثاني من القرن 12 م /6 هـــ. وهي تقع في 13 كتابا.. كانت مرجعا رئيسيا لعلماء الفلك العرب والأوربيين حتى مطلع القرن 17 م تقريبا.

- موسوعة المورد، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 83.
- خليفة، كشف الظنون، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 1594- 1596.

الكسوف والخسوف (l'obliquité de l'écliptique)، وانحراف الشمس عن المركز أو المحور (l'excentricité du soleil)، وحركتها المتوسطة، وكذلك الاعتدالين (la précession des équinoxes). كما أن العرب هم الذين استعملوا الجيب (les sinus) عوضا عن الوَتَر (les cordes) في الحسابات الفلكية. وقد لاحظ "سيديو" الابن أن العرب لم يذهبوا أبعد من هذا، ولذلك إذا أردت تطورا أكثر في علم الفلك فما عليك إلا أن تستجير بفلكيي أوربا بدءا من القرن 16 م(1).

ومن الممكن أن يكون الجهل بالعلوم العربية والفلكيين العرب وانجازاتهم العلمية هو الذي حدا بــ Bailly إلى الحكم على أن البتاني هو العالم الوحيد، في مجال علم الفلك، الذي حاز مكانة واحتراما في أوساط الأوربيين، فعرضوه على أنه أكبر فلكي ظهر على وجه الأرض منذ بطليموس إلى عهد "ريجيومونتان"(2) . Regiomontin (3)

شكك "سيديو" في الآراء التي تبخس العرب علومهم، وذهب إلى أن لهم معارف علمية أوسع وأكمل، وانهمك في البحث العميق، في موضوع علم الفلك العربي، على الخصوص(4). فبدأ بإصدار سلسلة من الاكتشافات، من ذلك تكملة لترجمة ابن[5]

---

(1) - L. A. SEDILLOT, Taité d'astronomie d'Aboul-Hassan Ali, intitulé : N. J. A., 2me - série, T : 12,1833, P : 386. "جامع المبادئ والغايات"

(3) - **ريجيومونتان:** (1436- 1476)، رياضي وعالم فلك ألماني. أسهم في إحياء علم المثلثات Trigonométrie وتطويره. شخص إلى روما عام 1462 ليتعلم اليونانية ويجمع المخطوطات من اليونانيين الذين فروا من القسطنطينية بعد استيلاء العثمانيين عليها عام 1453. زعم أنه توفي بالطاعون ولكن الراجح أن بعض خصومه دسّ له السُّم فمات. اسمه الأصلي: جوهان مولر Johan Muller.

- **معجم** أعلام المورد، **مصدر سابق**، ص: 215

(4) - **نفس المصدر**، ص: 287.

(5) - ابن يونس: (توفي عام 399 هــ /1009 م)، علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي المصري، أبو الحسن. يرمى بالغفلة لقلة اكتراثه، ولرثاثة ثيابه. أعظم علماء الفلك بعد البتاني وأبي الوفاء، وعارف بالأدب. اختص بصحبة الحاكم الفاطمي، وتوفي بالقاهرة. كان مرصده على صخرة في جبل المقطم قرب الفسطاط في مكان يقال له بركة الجيش. له "الزيج الحاكمي" ويعرف بزيج ابن يونس، في أربعة مجلدات، صحح به أغلاط من سبقه من مصنفي الأزياج. وكان تعويل أهل مصر عليه. وضع ابن يونس في القاهرة زيجه الحاكمي المشهور فأنسى كل زيج قبله في العالم، حتى عني به فلكيو الصين فذكره أحدهم وهو "كوشيو كينغ" سنة 1280 م، وترجم "كوسان دي برسفال" أستاذ العربية في "كوليج فرنسا" بعض فصوله، إلى الفرنسية سنة 1804 م.

يونس (Ebn-younis)، التي عثر عليها بمكتبة ليد بأمستردام (هولندا)، كما عثر على ثمانية وعشرين فصلا جديدا لهذا الفلكي ضمن كتاب ابن الشاطر[1] (ebn-Schathir)، وقد أوضح "سيديو" لغيره من المستشرقين الفرنسيين تطوير العرب لعلم الفلك، الذي لم يكن لديهم فكرة عنه، من ذلك جملة من التطبيقات والقواعد التي تقرب علم حساب المثلثات (Trigonométrie) العربي، من مثيله لدى علماء العصر الحديث، وكذا استعمال المماسات (Tangentes) والقاطعات (Sécantes) كوسائل احتياط في بعض الحالات الأكثر تعقيد، وهي براعات حسابية لم يتخيلها الأوربيون إلا في النصف الأول من القرن 18 م.

كما أن "سيديو" بترجمة لمؤلف أبي الحسن علي المغربي (المراكشي)[2] -الذي عاش مطلع القرن 13 م- يقدم للمستشرقين كتابا كاملا ومفصلا في صناعة مزولة العرب الشمسية(Gnomonique)، وهنا لابد من الإشارة إلى أن المذهب في عمقه، هو نفسه دائما، ولكن الإضافات هامة ومثيرة لفضول "سيديو" نفسه. فالوصف الدقيق لأبي الحسن، أزال كل لبس، وكتابه يتضمن أكبر عدد من الإختراعات المدينة للعرب، بالطبع (3).

=ومن كتب ابن يونس أيضا، "التعديل المحكم" و"جداول السمت" و"جداول في الشمس والقمر" و"غاية الانتفاع في معرفة الدوائر والسمت من قبل الارتفاع".

- الزركلي، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 298. وكذلك: البغدادي، هدية العارفين، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 684. - ابن خليكان، وفيات الأعيان، ج 7، **مصدر سابق**، ص: 253.

- دائرة المعارف الإسلامية، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 304.

(1) - **ابن الشاطر**: (704-777 هـ /1304- 1375 م)، هو علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري الموقت، أبو الحسن علاء الدين، المعروف بابن الشاطر. عالم بالفلك والهندسة والحساب. من أهل دمشق مولدا ووفاة. كان رئيس المؤذنين فيها. رحل إلى الاسكندرية. من كتبه: "إيضاح المغيب في العمل بالبع المجيب" فلك، و"أرجوزة في الكواكب" و"الإسطرلاب" رسالة، و"مختصر في العمل بالإسطرلاب" و"النفع العام في العمل بالربع التام" و"نزهة السامع في العمل بالربع الجامع" رسالة، و"كفاية القنوع في العمل بالربع المقطوع" رسالة، وهو الذي صنع "البسيط" في منارة العروس بجامع دمشق، وله "الزيج الجديد" اختصره محمد بن عبد الرحيم المخللاتي وسماه "نزهة الناظر باختصار زيج ابن الشاطر". - الزركلي، ج 4، **مصدر سابق**، ص: 251. - البغدادي، ج 5، **مصدر سابق**، ص: 725

(2) - **أبو الحسن علي المراكشي**: (توفي حوالي 660 هـ /1262 م)، هو الحسن بن علي بن عمر، أبو علي شرف الدين المراكشي، موقت مغربي. له. "جامع المبادئ والغايات في علم الميقات".

- الزركلي، ج 2، **مصدر سابق**، ص: 203.

(3) - - SEDILLOT, "Traité d'astronomie d'Aboul-Hassan Ali" N. J. A., 1833, **op. Cité,** P : 390-391.

كان أبو الحسن المغربي قد كرس القسم الأول من كتابه "جامع المبادئ والغايات"[(3)] إلى طرح العناصر المختلفة التي تقف عليها مختلف فروع علم الفلك وهي: علم وصف قبة السماء والكرة الأرضية، وعلم تسلسل الوقائع التاريخية، وصناعة المزولة الشمسية. كما يلاحظ استعمال مماسات وقاطعات علم حساب المثلثات، التي يعود اكتشاف بعضها واختراع بعضها الآخر، إلى القرن 10 م...إلخ.

وفي فرضياته، في المزولة الشمسية، لم يظهر أبو الحسن -في نظر المستشرقين- أسفل أو أدنى من المهندسين الفرنسيين، إذ أنه بعد أن حاز المبادئ العامة طبقها بنجاح على رسم وتخطيط ساعات اليوم والليلة المتساوية، فهو الأول ضمن العرب من طور الناحية النظرية ورسم كثيرا من الخطوط المتوازية والمعقدة، أو الأقواس والساعات القديمة غير المتساوية، وهي الوحيدة التي يستعملها المشارقة في تقسيم اليوم، والتي يعتبر أبو الحسن أول من شرح صناعتها أو تركيبها على سطوح الاسطوانة، المخروط والكرة الأرضية.

أما الأبواب الثلاثة الأولى من القسم الثاني من كتاب أبي الحسن، فقد كرس جلها إلى الأدوات المتعلقة بقياس الزمن. وأما الأبواب الأربعة الموالية، فوصف فيها أدوات علم الفلك المحضة التي من ضمنها أرباع الدائرة، كرة أرضية، وخارطة نصفي القبة السماوية، وأربع (؟) (mésatirahs)، وتخطيط على سطوح موازية في الأفق أو في الهاجرة (خط الزوال السماوي)، بالإضافة إلى عشرة أنواع من آلات قياس ارتفاع الشمس أو النجوم، المعروفة بالإسطرلاب، منها ما هو خاص بمراقبة الكسوف والخسوف وميلاد الأهلة وظواهر سماوية أخرى كثيرة(2).

---

(1) - كتاب: "**جامع المبادئ والغايات في علم الميقات**"، أعظم ما صنف في هذا الفن. رتبه على أربعة فنون: الأول في الحسابيات وهو يشتمل على سبعة وثمانين فصلا، والثاني في وضع الآلات وهو مشتمل على سبعة أقسام، والثالث في العمل بالآلات وهو مشتمل على خمسة عشر بابا، والرابع في مطارحات يحصل بها الدربة والقوة على الاستنباط وهو يشتمل على أربعة أبواب في كل منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة.

- خليفة، ج 1، **مصدر سابق**، ص: 572.

(2) - - SEDILLOT, "Traité d'astronomie d'Aboul-Hassan Ali", N. J. A, 1833, **op. Cité,** P : 391.

ولأبي الحسن المغربي مخطوط آخر، مكمل لما سبق، يتضمن عرضا لكيفية استعمال جل الوسائل السالفة الذكر، وكذلك مجموع من المسائل وحلولها سواء باستعمال الحساب أو عن طريق الرسومات البيانية. ومما يدل على سعة اطلاعه في مجال علم الفلك، العدد الهائل من المؤلفين الإغريق والعرب الذين أوردهم في مؤلفاته. فمن الفلكيين الإغريق نذكر على سبيل المثال: هيبارك، بطليموس، أبولونيوس، أرخيمد، أوتوسيوس داسكالون، ثاوذوسيوس، ثيون، أقليدس، فيلون ...إلخ. ومن الفلكيين العرب نذكر: البتاني الذي حدد بوضوح دقيق آنذاك ميل الكسوف والخسوف، وموضع الاعتدالين والانحراف عن المركز بالنسبة لكسوف الشمس، وجابر بن أفلح الذي بسط طرق علم حساب المثلثات، وكذا البيروني، وألفراغن (Alfragan)، وابن سينا، وأبو الوفاء شارح أقليدس وديوفانت وبطليموس، والهندسي خوستا بن لوخا، ومحمد بن موسى المعاصر للخليفة المأمون مؤلف الجداول المعروفة (الجداول الهندية)، وأحد الأوائل الذين تفرغوا لدراسة الجبر، وأخيرا أرزاشيل (Arzachel) الذي راقب بطليطلة، حوالي نهاية القرن 11 م.

وأبو الحسن المغربي هو الذي جاب، كملاحظ متنور، وسط الأندلس، وجزء هام من المغرب الأوسط، وسجل الارتفاع القطبي في إحدى وأربعين مدينة انطلاقا من إفران قرب مدينة فاس إلى مدينة القاهرة. وألف كتابا في طريقة مراقبة ميلاد الأهلة(1).

---

(1) - **نفس المصدر السابق**، ص: 393ـ 394.

4 – الأنتروبولوجيا / الإثنولوجيا.

انبثق عن الحركات الفكرية والثقافية في القرن 18 م، مشاريع علمية كان من نتائجها ميلاد علم الأنتروبولوجيا، وهو علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته.

وقد شُرع في دراسة الإنسان "البدائي" بغرض دمجه في التاريخ العالمي، وسرعان ما عرفت إشكالية الإنسان البدائي تطورا في مفهوم الأوربيين، إذ لم يعد السؤال "لماذا البدائي بدائ ؟" ولكن "لماذا لم يتطور الإنسان البدائي على غرار إنسان أوربا ؟". وفي نهاية القرن 18 ومطلع القرن 19 م، تضاعفت "تواريخ الإنسان"، فارتسم شكل متطور للنوع البشري.

وموازاة لذلك، تحول "المجتمع" إلى موضوع تحقيق في ذاته. وحاول "مونتيسكيو" في كتابه "روح القوانين"[1] (1748)، ومن خلال مقارنة النظم الاجتماعية، دراسة عاذات ومؤسسات شعوب العالم.

والأنتروبولوجيا دراسة تحليلية تشريحية، وعلم بالخصائص الثقافية والاجتماعية للكائنات البشرية. وقد قسم هذا العلم إلى فرعين أساسيين: الأنتروبولوجيا الجسدية التي تعنى بدراسة التطور البيولوجي والتطور الفيزيولوجي للإنسان، والأنتروبولوجيا

---

[1] – كتاب "**روح القوانين**": صدر عام 1748 م، وهو نتيجة استقصاء 20 عاما من العمل. وفحواه: البرهان على أن القوانين التي تنظم أمر المجتمعات ليست اعتسافية أو غير قابلة للتغيير. فليست هي من اختراع التروة. لكن ليس هناك كذلك من مبدأ ميتافيزيقي يُثَبِّتها إلى الأبد، فتبقى هي هي مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة. فالقوانين تعبر عن علاقات الأشياء، وتتبع للمناخ ولمساحة البلد ولطرق المواصلات ولطبيعة الحكم. وهذا الأخير يستند إلى مبدأ يضمن له سلامة العافية وفعالية الاشتغال. وعلى هذا النحو يرتكز الاستبداد على الخوف، والملكية على الشرف، والجمهورية على الروح المدني، وهو ما يسميه مونتسكيو بالفضيلة. وعندما يفسد المبدأ، يتهاوى نظام الحكم. ويدعو الكتاب بوجه خاص إلى فصل السلطات الثلاث: التنفيذية والتشريعية والقضائية. وقد صاغ مونتسكيو نظرية الفصل هذه، التي بدت له الضمانة الوحيدة للحريات السياسية، على ضوء ما لاحظه من اشتغال تجريبي للمؤسسات الانجليزية عام 1830.

رد مونتسكيو عام 1750 ، في الدفاع عن روح القوانين، على هجمات اليسوعيين والجانسينيين. وعلى الرغم من جهوده وبمجاملاته واحتجاجاته، أدين الكتاب من قبل السوربون، ثم أدرج في فهرست الكتب المحرمة في ديسمبر 1751.

– **معجم** الفلاسفة، **مصدر سابق**، ص: 602- 603.

الاجتماعية والثقافية وتعنى بدراسة حياة المجتمعات البشرية الحاضرة والماضية، وكذا تطورات لغاتهم ومعتقداتهم وممارساتهم الاجتماعية، وهي بذلك تشكل في البحث ميدانا أساسيا متعدد الثقافات.

وهكذا فإن عددا من علماء أوربا، حاولوا طرح مشكلة الإنسان في صيغ علمية. ففي عام 1772 م استعمل المؤرخ الألماني "شلوزر" Schlözer لأول مرة لفظة "اثنوغرافيا"، أي علم خصائص الشعوب وأصول السلالات البشرية، وهو علم من العلوم الإنسانية كما أنه فرع من فروع علم الأنتروبولوجيا، وقصد بها التطرق للتاريخ السلالي لكل شعب، الأمر الذي أدى إلى بروز صنف من المؤرخين، هم مؤرخو الإنسانية.

وقد أدى التوسع الاستعماري في الفترة الحديثة إلى حدوث صدمة في أوساط الأوربيين أنفسهم، إذ قلب عوالم الثقافات والذهنيات وكذا الأفكار المكتسبة. وظهرت "إنسانيات جديدة" أيقظت حب الاطلاع، لاسيما بعد اكتشاف أمريكا وشعوب أخرى. وقد ولد ذلك مشكلة حقيقية محيرة لعقول الأوربيين الذين تساءلوا: كيف يمكن لهم أن يأخذوا بعين الاعتبار غيرهم من البشر، وأين يمكن أن يضعوهم ضمن القائمة العامة للبشرية ؟ هذان السؤالان وغيرهما من الأسئلة ولدت عدة كتابات فيما وراء البحر، لمغامرين، مبشرين، حكام مستعمرات، علماء لاهوت، فلاسفة، علماء أخلاق، مؤرخين ورجال قانون. وقد كانت هذه الكتابات متعددة ومتناقضة، الأمر الذي وفر للمؤرخين معارف علمية شكلت أول وأكبر مصدر للإثنولوجيا، مما أدى إلى وضع مركزية أوربا موضع الشك. وترنحت معارف الأجيال مما شجع على نقد الفكر الأوربي نفسه ووضعه موضع النسبية، وكذلك معتقدات وعادات الأوربيين.

نشأت عام 1799، أول جمعية علمية ذات وجهة اثنولوجية، هي "جمعية الملاحظين للإنسان". وسمحت أوربا عصر الاستنارة ببروز وجهتين ستقوم عليهما الإثنولوجيا: من ناحية، الفكرة التي مفادها أن الحدث الإنساني هو حدث اجتماعي، وأن الإنسان لا يمكن إلا أن يكون جزءا من المجتمع، ومن ناحية أخرى، فكرة أن البشرية تتطور من البدائية أو الوحشية نحو الحضارة.

يرتكز عمل الأنتروبولوجيين على الأرض، وعلى التجارب الميدانية، وانغماس الملاحظين منهم في نشاطات ومعتقدات المجتمع. وستعرف المدرسة الأنتروبولوجية الفرنسية تطورا من ناحيتها، في نهاية القرن 19م، مع "دوركايم"[1] Durkheim و"ماوس" Mauss. لاسيما وأن الأوربيين سيكرسون عددا كبيرا من الأبحاث في نهاية القرن 19، إلى الثقافات الغربية نفسها.

فكيف تعامل مستشرقو الجمعية والمجلة الآسيويتين، خلال الفترة التي تعنينا مع علم الأنتروبولوجيا، وكذا الآثار والنقوش المساعدة لهما ؟ وكيف مارسوها أو طبقوها على أرض الواقع، لاسيما على بلاد المغرب ؟

سبق أن عرفنا -في الفصلين الأول والخامس- أن TAUXIER، أصدر دراسة نشرها في المجلة الآسيوية عن الأمم البربرية قبل الإسلام، وجدولا للتوزيع الجغرافي للعشائر البربرية ببلاد المغرب في عهد محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾[2]. وقبل ذلك، هناك حديث عن العهود القديمة، وعن العنصرين اللذين يكونان العائلة البربرية وهما: عنصر البتر (مصمودة، أزداجة، زاتيمة، عجيسة[3]، كتامة وهوارة)، وعنصر مضر أو البرانس (صنهاجة، زوارة، نفزاوة، فاتن، مكناسة ولواتة)، وتوزيعهما ببلاد المغرب[4].

وقد رأى بعض المستشرقين، في هذا المجال، وعلى رأسهم "رينان"، أن خلط مسائل التماثيل "الميجاليتيكية" المفهومة بمعنى "السلتومان" (Celtomanes)، علم الجمجمة، نظرية الأعراق الشقراء، والأصول "الغالية"، يخشى أنها تفسر غامضا بغامض. غير أنه يرى في الوقت ذاته، أن أي إسراف أو مبالغة لطريقة الفهم، لن تترع من هذه

---

(1) - **دوركايم إميل:** (1858- 1917)، فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي. يعتبر أحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث، وقد وضع لهذا العلم منهجية مستقلة تقوم على النظرية والتجريب في آن معا. أبرز آثاره : "في تقسيم العمل الاجتماعي" De la division du travail social (عام 1893)، و"قواعد المنهج الصوصيولوجي" Les règles de la méthode sociologique (عام 1895).

- **معجم** أعلام المورد، **مصدر سابق**، ص: 190.

(2) -TAUXIER, "Etude sur les migrations", J. A., 1862, **op. Cité,** P : 343- 346.

(3) - عجيسة في الأدبيات العربية: ابن خلدون مثلا.

(4) - **نفس المصدر**، ص: 346 ــ 349.

الدراسات الأنتروبولوجية الحديثة فوائدها النادرة. فإلى جانب العالم الهندو-أوربي، هناك العالم السامي، العالم التتاري، والعالم الإفريقي البربري الأطلسي. إذ ليس في نظره، التاريخ فقط، أو اللغة أو النقوش الليبية هي وحدها التي تتحدث عن شخصية العنصر البربري[1].

كتب DE SLANE إلى REINAUD من الجزائر قائلا: "التحقت بمعسكر باتنة بغرض الاطلاع على خرائب وأطلال "لامبيزا" (Lambaeza) -عن النقوش والنصب- وكذلك نقل النقوش النوميدية التي ادعى اكتشافها وقتذاك عن النصب المسمى من الأوربيين بقبر ملوك النوميديين -لعل ماسينيسا هو المقصود هنا (؟)- والمسمى من الأهالي "مدراسن"- الشخص الذي يعده ابن خلدون ضمن أعرق أسلاف البربر. إن التصميم إغريقي، بني بحجارة ضخمة، وهو يعادل نصب "قبر الرومية" الواقع بين الجزائر العاصمة وشرشال، بيد أن خرائب "لامبيزا" من شأنها أن تشغل هاويا ستة أشهر كاملة[2].

وكانت غاية الجمعية الأثرية بقسنطينة، استغلال البقايا الكثيرة، التي تركتها على أرض الإقليم، في نظر المستشرقين، هيمنة القرطاجيين، والنوميديين، والرومان والعرب، من ذلك أن JUDAS نشر مقالا تناول فيه تسع عشرة كتابة نقشية نوميدية-بونيقية جديدة اكتشفت بإقليم قسنطينة ونسخت[3].

أما المستشرق GUERIN، فقد جاب قسما كبيرا من الإيالة التونسية بحثا عن بقايا العصور القديمة، لاسيما النقوش الرومانية منها، فجمع 536 قطعة، من جملتها نقش "توجة" (Thugga) الشهير، وضمّن الكل كتابا له[4].

---

(1) - نفس المصدر، ص: 80.

(2) - Lettre de M. DE SLANE à M. REINAUD, J. A., 1845, **op. Cité,** P : 163- 164.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1862, **op. Cité,** P : 29 -30.

(4) - V. GUERIN, "Voyage archéologique dans la régence de Tunis", **J. A., 5^{me}** série, T : 20, 1862, P : 391.

ولما كانت الآثار عاملا مساعدا قويا وضروريا لكل الأبحاث التاريخية، ولم تكن تنقص وقتذاك، فقد فكر المستشرقون الفرنسيون في جمع الآثار الإسلامية منها، التي ساهمت في توضيح بعض المسائل في حوليات تاريخ الشعوب الإسلامية[1].

وكان استغلال "شيربونو" لآثار ميلة، سوفيفار (Sufévar)، سيلا (Sila)، ومقبرة سيقوس (Sigus)، قد وفر معطيات هامة[2].

والنقوش ما هي إلا مجموع بقايا آثار الأمم التي مارست تأثيرا كبيرا على مصير الإنسانية. لأجل ذلك رأى المستشرقون أنه من الضروري الكشف عن فحواها، لاسيما وأن علم النقوش Epigraphie ، والمنقوشات الكتابية، من أكبر الوسائل العلمية التي تمكن من إدخال تطورات معتبرة على الدراسات الأنتروبولوجية.

كان المستشرقون يتلقون من المؤسسات الرسمية مساعدات متواضعة، لأجل ذلك فهم يفتقرون إلى قواعد اللغة والمعاجم، وكانت المكتبات تفتقر إلى المخطوطات، وكانت نسخ النقوش النادرة في وضع مأساوي، كما كانوا يفتقرون إلى وسائل طبع النصوص. ومع ذلك فقد كان كل منهم يصنع لنفسه بصعوبة وسائل عمله، فألفوا قواعد لغوية ومعاجم لمختلف اللغات، ولعدد كبير من اللهجات، ونسخوا مخطوطات، واستجلبوا أخرى من الشرق، كما تحصلوا على قوالب ونماذج حل الكتابات، فطبعوا كتبا أساسية، ونشروا نصوصا وترجمات، ضبطوها بأسلوب صارم متصاعد ابتكرته الفلسفة بغرض نقد النصوص القديمة.

وللإشارة فإن المستشرقين لم يكونوا ليتراجعوا أمام دراسة القواعد اللغوية وشروح الكتب، وهي أعمال مضنية، رغم أنها كانت ضرورية للغوص في التاريخ واللغات القديمة المختلفة[3].

ولعل هذا ما أوحى لعدد من أعضاء أكاديمية النقوش والآداب الجميلة، المؤمنين كلهم بالجمعية الآسيوية، فكرة جمع في مدونة -كما فعل الألمان في برلين بالنقوش

---

(1) - N.DE KHANIKOF, "Chartes recueillies et publiées par la commission Archéologique", **J. A.**, 6^{me} série, T : 13, 1869, P : 80.

(2) - **Rapport annuel**, J. A., 1870, **op. Cité**, P : 82.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité**, P : 101–102.

الإغريقية، وكما كان يفعل الفرنسيون وقتذاك بالنقوش اللآتينية- جل النقوش السامية القديمة، أي السابقة لشمولية التفوق الإسلامي. لقد كانت مهمة كبيرة وصعبة، إذ تتطلب كثيرا من الوقت. و لم يكن بالوسع نشر الأجزاء الأولى من المجموع إلا في حالة جاهزية الأجزاء الأخيرة. وقد فكر المستشرقون الفرنسيون في أن السبيل الوحيد لاستمرار مشروع النقوش وتجنيبه التوقف هو إنشاء مؤسسة دائمة خاصة به. كانت غاية المشروع في البداية، هي جمع النقوش، وترتيبها وتنظيمها، لا شرحها وتفسيرها، ووضع بيبليوغرافيات دقيقة لما كتب عن كل المعالم والآثار[1] كانت اللجنة المعينة من الأكاديمية تتشكل من أعضاء هم: "دوسوسي" (DE SAULCY)، "مول"، "لونجبيريي" (LONGPERIER)، "دوسلان"، "وادينجتون" (WADINGTON)، "دوفوجي" (DE VOGUE) و"رينان"[2].

وقد عرف حل رموز وشرح وتفسير النقوش السامية تقدما خلال الستينيات، من ذلك، وفيما يتعلق بموضوعنا على الخصوص، توفر نصوص فينيقية وأخرى بونيقية من تونس ، ومن الجزائر من خلال جمعية قسنطينة، وأشخاص "شيربونو"، "فيرو" و"جوداس"، من خلال دراساتهم عن النقوش البونيقية والبونيقية الحديثة، وقد بينت الدراسات غنى بلاد المغرب بمعالم وآثار نوميدية، وقرطاجية و"ميقاليتيكية" (Mégalithiques)[3].

شعر المستشرقون الفرنسيون بخدمة كبيرة قدمها زملاؤهم في الجزائر، عندما اكتشفوا عالم التوارق أو الليبي، عالم لا هو بونيقي، ولا روماني ولا وندالي ولا بيزنطي ولا عربي ولا تركي، إنما هو عالم إفريقي، في نظر المستشرقين، حافظ على نفسه إلى القرن 19 م، عبر هيمنات أجنبية، من خلال اللسانين القبائلي والترقي، والخط التيفيناغي، وكذلك من خلال النقوش الليبية والمؤسسات والعادات الخاصة بأهل البلد "الأصليين". وقد كان المستشرقون يرون أن هذا العالم بصدد الخروج من باطن الأرض،

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité,** P : 73 – 74.

(2) - **نفس المصدر السابق**، ص: 74.

(3) - Rapport annuel, J. A., 1868, **op. Cité,** P : 76-77.

وأنه بدأ يبرز بكثير من الوحدة والوضوح. فالمؤسسات المسماة بالليبية تضاعف عددها مع نهاية الستينيات (1868-1870). ومن ضمن ما توفر من نقوش، هناك نحو من العشرة مزدوجة اللغة (لاتينية-ليبية)، عثر عليها قرب عنابة في مقابر شافية القديمة وضواحي القالة. إنه لحدث مثير، في نظرهم أن يعثروا على نصوص، تعود إلى القرن الثالث والرابع الميلاديين، منقوشة بأحرف ليبية (نوميدية)، ما استطاعت أن تجتثها لا قرطاجة ولا روما ولا المسيحية[1] (كذا).

غير أنه إلى هذه الفترة بالذات، لم يكن المستشرقون قد فسروا هذه النقوش لغويا، ولا عرفوا الانتماء الحقيقي لهذا اللسان. ولعل أبرز خدمة قدموها، هي ما قام به الدكتور "ريبو" REBOUD، الذي سارع بإرسال نصوص في الموضوع إلى أكاديمية النقوش[2]. كما تنافس معه في الموضوع الجنرال[3] FAIDHERBE، وكذلك الدكتور JUDAS[4].

وفي أثناء تأدية "دوسلان" مهمة له في الجزائر، عاش في خيمة مع العرب عدة أيام، ووقف على اللهجات المستعملة في الجزائر، فأذهلته شدة أعجميتها، وقتذاك، لا سيما وأنه كان يتقن اللغة العربية. وقد لاحظ أن الأهالي لا يفهمون زائرهم إن لم يكثر من الأخطاء النحوية، الأمر الذي يحيل لغة المتكلم إلى غير العربية، مع اختلاف المناطق بعضها عن بعض، وهي عين اللهجات عند "دوسلان".

وفي نفس الأثناء زار "دوسلان" أطلال عدد من المدن الرومانية بإقليم قسنطينة، على غرار ما فعل "بواسوني" قبله. ولاحظ "دوسلان" كثرة النقوش وتنوعها، وقد حرر

---

(1) - Rapport annuel, J. A., 1870, **op. Cité,** P : 79 – 80.

(2) - **Recueil d'inscriptions libyco-berberes**, avec 25 planches, Paris, 49 pages.

(3) - **Collection complète des inscriptions numidique** (libyques), avec des aperçus ethnographiques sur les Numides, 6 planches, Lille, 79 pages.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1870, **op. Cité,** P : 80 -81.

تقريرا في الموضوع إلى وزير التربية[1]. ثم انتقل من إقليم قسنطينة إلى ما وراء الصحراء بحثا عن مؤشرات ودلائل حضارة لاشك فيها[2].

تأثر اللسان البربري من خلال احتكاكه بلغات أمم أخرى كثيرة، لا سيما العربية منها. وقد أدى ذلك إلى وجود عدد من الكلمات والصيغ العربية، وبخاصة ضمن لسان الأقاليم المحاذية للبحر المتوسط، حيث "هيمن المسلمون" مبكرا. وإذا كانت جل الكلمات بربرية، في نظر "رينو"، فهي أبعد ما تكون عن اللغات السامية[3].

وللإشارة فإن المستشرقين لم يكونوا ليتراجعوا أمام دراسة القواعد اللغوية وشروح الكتب، وهي أعمال مضنية، ولكنها ضرورية للغوص في التاريخ واللغات القديمة المختلفة [4]، كما أسلفنا.

لقد أحيا المستشرقون بجهودهم تلك، لغات الشعوب القديمة، التي لم تترك آثارا إلا من خلال نقوشها الكتابية، التي ضاعت قراءتها ومعانيها منذ أمد بعيد. وهكذا، فقد عثروا على المصرية القديمة في الهيروغليفية، واللغة الفارسية عهد دريوس (نهاية القرن 6 ق. م.) في النقوش المسمارية (Inscriptions Cunéiformes)، واللغة البابلية في النقوش الأشورية، واللغة الفينيقية في البقايا المنقوشة التي عثر عليها في خرائب مستوطناتهم، والحميرية في النقوش السبئية، والنبطية في نقوش سيناء، واللهجة السانسكريتية للبوذية الأولى في نقوش أسوكا[5]. ومن المعلوم أن التاريخ القديم يدعم بقوة من خلال قراءة الكثير من الوثائق المعاصرة التي لا يشك أحد في صدقها في نظر المستشرقين أنفسهم.

ولعل أولى نتائج هذه الأعمال العميقة والمتنوعة في مجال اللغات، هو ابتكار علم جديد يتمثل في مقارنة قواعد اللغة، التي هي من الوسائل الناجعة، سواء بالنسبة لفقه

---

(1) - Lettre de M. DE SLANE à M. REINAUD, J. A., 1845, **op. Cité,** P : 164.

(2) - CHERBONNEAU, Lettre à M. DEFREMERY sur Ahmed Baba le Tombouctien, J. A., 1853, **op. Cité,** P : 94.

(3) - REINAUD, "Sur le système primitif de la numérotation chez la race Berbère", J. A., 1860, **op. Cité,** P : 108.

(4) - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité,** P : 101–102.

(5) - أمبراطور هندي حكم بين 273 ـــ 237 ق. م. ينطق أيضا (أشوكا) ASHOKA.

اللغة ودراسة النصوص، أم بالنسبة لدراسة العهود القديمة. من شأن هذا العلم تمكين الدارسين من ولوج قواعد وقوانين الألسن، وتفسير شذوذ اللهجات، وضبط تقارب السلالات البشرية بدقة، كما أنه يمكن المستشرقين من استخلاص مؤشرات أكيدة عن اللغة، والمستوى الحضاري للسلالات البشرية وتقاليدها التاريخية.

كان علم قواعد اللغة الجديد، جزءا من الدراسات الشرقية، لأنه انبثق عنها، كما أنه لم يكن بعد قد طبق بجد إلا على اللغات الآرية والسامية. وقد كان في تصور المستشرقين آنذاك أنه سيطال يوما ما كل العناصر البشرية، إذ مثلما طبقت "الهمبولدية" (نسبة إلى "هومبولدت"[1] Humboldt الألماني) من قبل، على اللغات المحيطية (السانسكريتية، الصينية، المجرية، البرمانية، اليابانية والمكسيكية القديمة)، سيكشف في عهد لاحق عن السلالات البشرية الأمريكية والإفريقية، لكن يبقى الفخر من نصيب الآداب الشرقية التي كانت السبب في ميلاد العلم الجديد[2].

هكذا إذن، وإلى عام 1872، كان المستشرقون الفرنسيون يطرحون في جلساتهم العامة أسئلة من مثل: إلى أي عائلة أو أي أعضاء لغوية أخرى معزولة ترتبط البربرية؟ وكيف يمكن ترتيب تلك الأصناف المتنوعة من سكان الجزائر والصحراء ؟ وما الرابط الذي يمكن إقامته بين تلك العناصر العرقية أو السلالية القديمة كما هي، والآثار التذكارية المعروفة بالسلتية (Celtiques) الكثيرة في الجزائر والبقايا المتعددة لعمر حجري (رؤوس الأسهم من صوان أو صر Silexe). وقد انتهى المستشرقون إلى أن الغموض لا يزال يخيم على كل هذا، وأن الصبر كفيل بحل هذه الإشكاليات المطروحة[3].

وغير بعيد عن بلاد المغرب، قارن "جومار" JOMARD بين المصريين المحدثين والعرب، من جهة الأخلاق والمناقب، فوجد لهما نفس السمات، الأخلاق والطبائع: الذكاء، التساهل، حدة الذاكرة، الفكر المفتوح، والكثير من الخيال، وهذه الرغبة في

---

(1) - Guillaume de HUMBOLDT، (1767-1835) عالم ألماني في اللغة وفلسفتها.
- انظر: - ROBERT 2, **op. Cité**, P : 882.

(2) - - Rapport annuel, J. A., 1865, **op. Cité,** P : 103 – 104.

(3) - - Rapport annuel, J. A., 1872, **op. Cité,** P : 44 -45.

المعرفة التي تتمسك بفضول مولد، كونت لديهم ميلا تجاه الملاحظة، وفي نفس الوقت لهم فطنة وبصيرة، كما أنهم يتذوقون العلوم الفيزيائية، وهم يفضلون الهندسة لحاجتهم إليها في فنون البناء، لاسيما منذ تطور الدراسات، والتي هي مألوفة لديهم، كما أن لهم أيضا حذقا ورشاقة وحدة ذهن في محاكاة المؤلفات الأجنبية. وأخيرا هناك خصال أخرى يجمعونها كالصبر، الحزم، الشجاعة، والتضحية، تجعل من المصريين، الذين يطلق عليهم "جومار" اسم "عرب مصر"، النموذج والأساتذة الأسوة لغيرهم من شعوب الشرق. وإذ ينتهي "جومار" إلى أنه بمثل هؤلاء الرجال يمكن الوصول إلى جلائل الأعمال، يلاحظ أن ذلك لا يمكن أن يتم إلا في ظل السلم واستقرار النظام السياسي، وهما مسألتان منعدمتان، في نظره.

ولا يعتمد "جومار" على ما سبق للبرهنة على أن العرب والمصريين، من أصل واحد، ولكنه يقيم عدة مقارنات بين درجة الحضارة لكلا الشعبين خلال فترات متعددة من تاريخهم: كالروائع الفنية، الفن المعماري، الأعراف، الدين، وغيرها...[1].

وهذا "شيربونو" يكشف عن نقش عبرت به أجيال سابقة عن فتور شعيرة الحج، لاسيما في أوساط الطبقة الميسورة، مما أدى إلى انتشار قول مأثور تناقلته الأجيال اللاحقة في الجزائر وتونس، في حق العائدين من أداء هذه الشعيرة، يوحي بعدم احترام نسبة من يعودون من الحج على كبر سنهم، وهم يحملون اسم الحاج ويسلكون سلوكات تثير مواطنيهم، من هذه الأقوال في الجزائر وتونس:

سيدي الحاجّ حجّ وأماير[2] الحجّ عليه

الغمزة والهمزة مازالت فيـــــــــــــه

والّي عنـــده غار يمشي يتوسع فيــــــه

أما المثل المنتشر أيضا الذي يلخص القولين فهو:

حـــجّ وزمزم وجاء للبلاء متحـــزم[3].

---

(1) - SEDILLOT, "Notice sur l'ouvrage", J. A., 1840, **op. Cité,** P : 190-191.

(2) - "أماير" جمع أمارة، ومارة = العلامات، العلامة.

(3) - CHERBONNEAU, "Lettre à M. DEFREMERY sur une inscription", J. A., **op. Cité,** 1858, P : 595 -597.

وفي ضوء هذا الاهتمام بألسنة وعادات الشعوب نظمت عدة ارساليات، كلفت بالذهاب لدراسة إثنيات جديدة. وقد نشأت عدة جمعيات إثنية بدءا من عام 1838 في فرنسا.

وفي إطار ميلاد الإثنولوجيا، عرف القرن 19 م، تيارين متناقضين نسبيا: من جهة، فكر تجريبي ووضعي بناء على الوقائع الاجتماعية والثقافية مع "أوغيست كونت"[1] Auguste Comte، والإثنوغرافيين والأثريين، ومن جهة ثانية، تيار فكري يطمح إلى إعادة تركيب تاريخ الإنسانية بدءا من أصولها وفق نموذج العلوم الطبيعية. ويمكن اعتبار مستشرقي المجلة الآسيوية من أشد أنصار التيار الأخير.

أدى بروز هذين التيارين إلى ميلاد علم الإثنولوجيا، حوالي عام 1870 م. وهكذا فإن بروز وتطور هذا العلم الجديد لم يكن محل صدفة، ولكنه جاء في سياق الموجة الاستعمارية: إذ أن رجال الاستعمار اهتموا بالشعوب التي استعمروها، فاستهوى فكرهم اكتشافهم لشعوب جديدة.

* * *

طال اهتمام مستشرقي الجمعية والمجلة الآسيويتين مختلف ميادين الحياة العلمية، من الفلسفة والرياضيات والطب والعلوم الطبيعية، وكذا الجغرافيا وعلم الفلك والأنتروبولوجية.

ويعترف المستشرقون الفرنسيون، كما أسلفنا بأن العرب بحثوا عن المؤلفات الرياضية للإغريق خلال العهود المشرقة للخلافة، وبعض المؤلفات الأساسية في

---

[1] - **أوغوست كونت**: (1798-1857)، رياضي وفيلسوف فرنسي. يعتبر مؤسس الفلسفة الوضعية Positivisme التي تعنى بالظواهر والوقائع اليقينية وحسب، وتهمل كل تفكير تجريدي أو ميتافيزيقي. ومن الباحثين من يعتبره مؤسس علم الاجتماع Sociologie أيضا. تأثر في صدر شبابه بفلسفة سان سيمون Saint-Simon الاشتراكية. دعا إلى الإيمان بدين جديد سماه "دين الإنسانية" Religion de l'humanité (حوالي عام 1844). عاش فترة من حياته فقيرا يتصدق عليه بعض مريديه، ومات بالسرطان. من أشهر آثاره: كتاب "مباحث في الفلسفة الوضعية" Cours de philosophie positive (1830- 1842).

- **معجم** أعلام المورد، **مصدر سابق**، ص: 377.

الرياضيات الإغريقية لم تحفظ للأوربيين إلا في شكلها المترجم إلى العربية. فـالأوربيون مدينون للعرب بترجمة هذه المؤلفات، التي لو لا هم لاضمحلت.

كما إن العرب الذين بلغ الطب الإغريقي أوربا عن طـريقهم، أنقـذوا أيـضا مؤلفات اغريقية -من خلال ترجمتها إلى العربية- ضاعت أصولها.

ولقد بقيت علوم شرقية أخرى مهمشة أو كادت، كالعلوم الفيزيائيـة وتـاريخ الطبيعيات مثلا. وكان مستشرقوا المجلة، من أوائل من نشر مقالات في تاريخ الطبيعيات العربية. وانتهوا إلى أن النظريات المسلم بها وقتذاك، كان لا يزال البعض منها يتبناه علم القرن 19 م.

وقد جاء تطور علم الأنتروبولوجية والإثنولوجيا الجديد، حوالي عام 1870 م، في سياق الموجة الاستعمارية: إذ أن رجال الاستعمار اهتموا بالشعوب التي استعمروها، فاستهوى فكرهم اكتشافهم لشعوب جديدة.

تلك هي محصلة نهاية الجيل الأول لمستشرقي الجمعية والمجلة الفرنسية الآسيويتين، فماذا عن الغموض الذي كان لا يزال يخيم على كثير من القضايا ؟ ذلك ما ستتكفل به أجيال المستشرقين اللاحقة.

الخاتمة

الاستشراق الفرنسي المعاصر هو ابن الثقافة والمنهجية الأوربيين، وكذا الطريقة الأوربية في الدراسة والنظر إلى الأشياء، في ظل النظرة الوضعية التاريخاوية، واعتماد المنهجية الفليلوجية (فقه اللغة) في القرن 19.

وقد تميز الاستشراق خلال الفترة التي تعنينا بخصائص وأفكار مسبقة سيطرت على الوضع وسادت خلال الفترة، منها المركزية الأوربية وأولوية النموذج الأوربي وتفوق أوربا، واعتبارها محور التاريخ العالمي. أضف إليها الجوهرانية العنصرية بالنسبة إلى العناصر والشعوب الأخرى. فضلا عن المثالثة اللاهوتية التي على ضوئها تفسر الأشياء وتصدر الأحكام، وتتحدى الديانات لاسيما الدين الإسلامي.

إن المحايد، المتمعن في الفعل الاستشراقي، في المجالات الدينية والأدبية والتاريخية والعلوم الأخرى، يخلص إلى أن مردوده ضخم. وأن مضمونه الفكري هو حصيلة لا يستهان بها من الطرق والوسائل والمناهج، فضلا عن المعلومات.

يعود الفضل إلى المستشرقين، في أنهم أنقذوا وحافظوا على كثير من النصوص الأصلية والأصيلة. وإثارتهم لقضايا اللغات والألسن واللهجات على العموم، واللغة العربية على الخصوص، جعلتهم يساهمون في بعثها وتجديدها بإثارة نصوصها الأصلية وإلقائها إلى الساحة الفكرية والأدبية والثقافية الأوربية سواء في شكل كتب مطبوعة طباعة عصرية أو مقالات على صفحات مجلات عامة أو متخصصة ومستقلة بتراث الشرق بالذات، كما هو شأن المجلة الآسيوية.

وإذا كان البحث الاستشراقي يهدف من بين ما يهدف، إلى كشف الستار عن تاريخ النوع البشري منذ القدم، فإن الدراسات الاستشراقية تلتقي في مقصد مشترك ألا وهو مساعدة المستشرقين على فهم الشرق في شتى مناحي حياته الثقافية، الاجتماعية، الاقتصادية، السياسية والحضارية.

وقد اعترف المستشرقون بالتهاون الكبير لأسلافهم في دراسة المصادر العلمية العربية-الإسلامية منذ كان الفلاسفة والرياضيون والأطباء المسلمون يشعون على المدارس الناشئة في أوربا، ولذلك فهم (المستشرقون) يعتبرون حركتهم، في القرن 19 م -التي تهدف إلى استكشاف كل أجزاء الفكر الإنساني- بداية استدراك للنقص وسد للثغرة.

كما يعترف المستشرقون الفرنسيون، أن العرب بحثوا عن المؤلفات الرياضية للإغريق خلال العهود المشرقة للخلافة، وأن بعضا منها لم تحفظ للأوربيين إلا في شكلها المترجم إلى العربية، وأن الأوربيين مدينون لهم بترجمة هذه المؤلفات، التي لولاهم لاضمحلت. كما أن العرب الذين بلغ الطب الإغريقي أوربا عن طريقهم، أنقذوا مؤلفات إغريقية -من خلال ترجمتها إلى العربية- ضاعت أصولها.

بقيت علوم شرقية أخرى مهمشة أو كادت، كالعلوم الفيزيائية وتاريخ الطبيعيات مثلا. وكان مستشرقو المجلة، من أوائل من نشر مقالات في تاريخ الطبيعيات العربية، كما أن النظريات المسلم بها وقتذاك، كان لا يزال البعض منها يتبناه العلم الحديث، علم القرن 19 م.

وبقدر ما اتصف به منهج المستشرقين من قساوة وسلبية أحيانا، في النظرة والتصور، والتعامل والتطرق، فإن من إيجابياته تفعيل التراث التاريخي العربي الإسلامي، من خلال إخضاعه لقراءة حديثة، وفق مقتضيات بحث علمي متخصص وجديد. ولكن يجب أن يفهم ذلك على أنه مجرد محاولة قابلة للتغيير والتبديل، وأحكامها ليست نهائية، بل مجرد اجتهاد علمي، حقائقه مؤقتة، تؤخذ وترد.

لقد مكنتنا الدراسة من الوقوف على كيفية استكشاف وجرد قسم هام من التراث، تكمن أهميته في كون جله من أمهات المصادر التاريخية العربية-الإسلامية. تراث أهمله أهله، فكان عرضة لكل الاحتمالات.

قام المستشرقون الفرنسيون وغير الفرنسيين من الجيل الأول، بنفض الغبار على تراث المنطقة، وتصفحوا مضامينه المخطوطة وكان محتواه أحيانا في حالة من التدهور،

فاستكملوا ما نقص منه بالرحلة والاستكشاف والتقصي والمراسلات، وتجشموا الصعاب والمخاطر في سبيله، في أوربا وفي العالم الإسلامي. وطبعوه ونشروه لأول مرة، وبالتالي أنقذوا نصوصه على الأقل من التلف والضياع، والإهمال والنسيان.

لقد تعامل المستشرقون، فيما يتعلق باللغة والأدب العربيين كما تعاملوا مع أنفسهم حين اعتبروا التراث الإغريقي-اليوناني-الروماني تراث كل الدول الأوربية مجتمعة أو متفرقة. فكذلك تراث الأدب العربي بمختلف فنونه، هو ملكية جماعية مشتركة.

وقد سبق المستشرقون الفرنسيون رواد النهضة في العالم الإسلامي، إلى مفهوم الجامعة الإسلامية حين كانوا لا يعتبرون اللغة العربية هي لغة الإسلام فقط، وإنما يضيفون إليها الفارسية والتركية (العثمانية)، لاسيما وأن هاتين اللغتين كانتا تكتبان بالحروف العربية، وكانت الكتابة وفق التفكير والتصور الإسلاميين. ولذلك فقد كانوا يسمون اللغات الثلاث، اللغات الإسلامية. وبالفعل لم يكن أصحاب المخطوطات يعرفون الحدود والفواصل بين المشرق والمغرب، حدود كانت في أذهان المستشرقين الفرنسيين في مطلع القرن 19 م، ولكنهم لم يعثروا عليها في الواقع، واعتبروا ذلك اكتشافا في ذاته.

كان الشرق محل اهتمام رجل الاستشراق ورجل الاستعمار على حد سواء. وقد نشأ بين الطرفين اهتمام وعمل متكامل، فلا غرابة إن وجدنا دراسات استشراقية موجهة لخدمة أهداف عملية مطلوبة منهم لهذه الحكومة أو تلك. فالاستشراق إذن، هو الوجه الفكري للتوسع الاستعماري، وخطاب بعض المستشرقين ولد في أحضان الاستعمار، فقد اشتغلوا في اللجان العلمية والجمعيات المختصة ونشروا بعض أبحاثهم ضمن المجلة الآسيوية.

غير أنه وإلى عام 1872، نهاية ما اعتبرناه الجيل الأول لمستشرقي الجمعية والمجلة الفرنسية الآسيويتين، كانوا يرون أن الغموض لا يزال يخيم على كثير من القضايا، وأن الصبر كفيل بحلها. فماذا حققت الأجيال اللاحقة ؟ ذلك هو ما يمكن وما نرجو أن تستوعبه جملة من الأطروحات والكتب الأخرى المكملة لموضوعنا هذا.

الملاحق

1 ــ رسم بياني بتطور ولادات المستشرقين

2 ــ رسم بياني بتطور وفيات المستشرقين

3 ــ خريطة توزيع المسترقين على النواحي الفرنسية والأوربية

1 – رسم بياني بولادات المستشرقين

- Woepcké
-Dugat
-Renan
-Defremery
-Beaussier +
-Belin +
-Krafft +
-Bresnier +
Cherbonneau +
-Boissonnet +Derenbourg ++
-Barges +
-Sédillot(L.) +Cureton ++
-Saulcy +
-Judas + Munk + Perron +++
-Burnouf + De Slane ++
-Ampere + Mohl + Pautier +++
-Dubeux +
-Mullet + Dumast ++
-Reinaud + Fresnel + De Perceval (A. P.) ++ +
-De Tassy +
-Bopp +
-De Lagrange +
-Freytag +
-Lajard +
-Bianchi +
-Quatremere +
-Jaubert +
-De Laporte + Sédillot (J. J.) + +
-Marcel +
-Du Caurroy +
-De Hammer-Purgstall +
-Kieffer +
-Langles +
-De Lasteyrie + De Perceval
+ - DE SACY

1760 ______ 70 ______ 80 ______ 90 ______ 00 ______ 10 ______ 20

2- رسم بياني بوفيات مستشرقي الجيل الأول(*)

-Halévy (81ans)
-Meynard (81)
-Boissonnet (91)
-Barges (86)
-Derenbourg (84)
-Dugat (70)
-Renan (69)
-Guerin (60)
-Defremery (61) + Sanguinetti (72)
-Cherbonneau (69)
-De Saulcy (73) +
-De Tassy (84) + De Slane (77) ++
-Belin (60) +
-Mohl (76) + Sédillot (68) + De Perceval (66) + Perron (71) ++++
-Beaussier (52) + Pauthier ++
-Botta +
-Bresnier (45) + Mullet (73) ++
-Reinaud (72) + Desverges (62) + Munk (62) + Fresnel (72) ++++
-Bianchi (91) +
-Dubeux (66) + Woepcké (38) + Cureton (56) + Ampere(jj) (64) + Hase +++++
-Dumast +
-De Laporte (84) +
-De Lagrange (68) + Lajard (74) ++
-Hammer purgstall (82) +
-Langlois +
-Marcel (78) +
-Quatremere (70) + Burnouf (52) ++
-Jaubert (68) + Krafft ++
-DE SACY (80) +
-Du Caurroy (60) +
-De Perceval +
-Langles (61)+
1820_____30_____40_____50_____60_____70_____80 →

(*) - تشير الأرقام إلى أعمار المستشرقين.

خريطة توزيع المسترقين على النواحي الفرنسية والأوربية -3 (*)

De Slane (**islande**) Cureton (**westberg**)

Judas (**zelande**)

Woépcké (**Déssau**)

Freytag (**Russia**)

Du Caurroy (**Eu**) Mohl (**stutgart**)

Fresnel (**Calvados**) Munk

Renan (Trégueux)

Marcel Belin

Boissonnet **PARIS** Bianchi

De Laporte De Sacy Langles Krafft (**vienne**)

Quatremere

Kieffer (**strasbourg**)

Ampere (**Lyon**)

De Lasteyrie (**brive la gallarde**)

Dugat

Reinaud (**Provence**)

Jaubert

Meynard (**marseille**)

Dubeux (**lisbonne**)

(*) – عن الأوربيين غير الفرنسيين، أنظر التفاصيل ضمن الصفحات: 115، 116، 132 من الفصل الثاني.

فهرس البيبليوغرافيا

البيبليوغرافية

نقد المصدر:

يعد التقرير السنوي أو محضر الجلسة العامة للجمعية الفرنسية ومجلتها الآسيوية، من أنفس محتوياتها، نظرا للعناية التي يتم تحضيره بها ومنهجية عرضه وشمولية محتواه، وغنى معلوماته، فهو أبرز وأصدق وثيقة تعكس وجهة الجمعية الآسيوية، ومجلتها، ولذلك فقد اعتبرنا التقرير وثيقة تاريخية من الدرجة الأولى.

استقى مستشرقو المجلة الآسيوية معلوماتهم، من مصادر أصلية في أحيان كثيرة، وهي أمهات دينية من النصوص المقدسة كالقرآن الكريم والحديث الشريف، أو ما قام على أساسها من تفاسير وشروح، وكذلك نصوص أدبية وتاريخية كشعراء الجاهلية، ومؤلفات المسعودي، وابن الجوزي، وابن الأثير، والنويري، وابن الأبار، والشهرستاني، وابن عبد الحكم، وابن خرداذبيه، والبكري، وابن خلدون، وألف ليلة وليلة وغيرها كثير.

كما اعتمدوا أيضا على المسكوكات والنقوش والحفريات والأواني والتماثيل وغيرها. وعلى مصادر أخرى لرحالة وجغرافيين إغريق ورومان ولاتين من مثل "هيومبسال" و"هيرودوت" و"سترابون" و"بلين" و"بطليموس" وغيرهم.

وقد تعاملوا مع التراث العربي الإسلامي، بالاطلاع عليه وإصداره في شكل أبحاث ومحاولات، أو إسهامات، وبالنقل والنسخ أحيانا، والمقارنة أو المقابلة بين نصوصه، وأحيان أخرى، جاء في شكل ملخصات ومواجيز، وباقتطاع أجزاء أو مستندات ووثائق، أو مقتطفات تاريخية، وخلاصات، وقصص وحكايات، والتعرض لها بالشرح والتعليق والنقد ، وبالتوطأة لها والتمهيد.

وقد استخدموا التقنية الحديثة في البحث، بالذهنية الأوربية وتحت تأثير عوامل منها التقليدية في نظرتهم للشرق، ومنها ذهنية عصر الاستنارة والرومانسية وغيرهما.

تعرضوا للوثائق والمخطوطات والنصوص بالنقد الذي امتاز بالفطنة والبصيرة النافذة والوقوف منها موقف الشك والتحفظ. وكان النقد منصفًا تارة، وتارة أخرى غلب عليه المدح، وثالثة الانتقاد.

وتتميز ترجمات بعضهم للنصوص باللباقة والدقة أحيانا والصحة إلى حد ما، وهذا الأسلوب في التناول قد يدخل أصحابه في صنف المادحين. وهنا لا بد أن نقول إن المستشرقين المادحين كتبوا في الغالب لنصرة الحقيقة العلمية والتاريخ، كما كتبوا لمجتمعهم الفرنسي والأوربي.

والمجلة الآسيوية تزخر بنقد المستشرقين بعضهم لبعض وتصحيح أخطاء بعضهم بالاعتراف والإقناع وتبادل المعلومات...الخ. ومن المستشرقين الناقدين من تطرف إلى حد السقوط في الانتقاد، أي انتقاد بعضهم وانتقاد تراث الشرق وحضاراته انتقادًا مشوها لها.

وقد غلب على أعمال المستشرقين، في المجال الديني، الفائدة والمنفعة، والتثقيف والتنوير، بآراء غير مغرضة تارة، وفكر ثابت وهمّ وانشغال، وآراء مسبقة ومتحيزة، تارة أخرى.

وقد بالغ بعضهم، وخرج آخرون عن اللياقة، وعن الأخلاق العلمية. فكان منهم من كان يرد ويطرح ويستبعد، كل ما يتعلق بالروحانيات، لاسيما الإسلامية منها، من عناية إلهية، ومعجزات وخوارق، وكرامات، وعلى رأسها ككل الوحي.

ولعله من إيجابيات الاستشراق، في مجال الدين الإسلامي، تفعيله من خلال إخضاع الجانب التراثي منه، لا النصوص المقدسة، لقراءة حديثة، على عيوبها، سواء أكان ذلك عن قصد أم عن غير قصد.

ومهما يكن من أمر فإن الفضل يعود إليهم، في أنهم أنقذوا، كثيرا من النصوص الأصلية والأصيلة من الضياع. وأعمالهم مجرد محاولة قابلة للتغيير والتبديل، وأحكامها ليست نهائية، بل مجرد اجتهاد علمي، حقائقه مؤقتة، تؤخذ وترد.

وقد استعنا بمصادر قريبة من فترة البحث ومراجع مطبوعة متأخرة وكتب تاريخية ودراسات متخصصة، أكاديمية وغير أكاديمية، قسمناها حسب لغتها.

كما استعنا بمراجع عامة ومجلات وجرائد وغيرها...

* * *

1 - Journal Asiatique ou recueil de Mémoires d'Extraits et de otices relatives à l'histoire à la philosophie, aux langues et à la Littérature des peuples orientaux.

- التقارير السنوية للمجلة والجمعية الفرنسية الآسيويتان-

2 – Procès Verbal de la séance du 31/05/1841, **J.A.**, 3 me série, T12, 1841 .

3 – Rapport de la séance du 30/ 05/ 1842, **J.A.**, 3 me série, T : 13, 1842.

4 – Rapport annuel de la séance du 30/ 05/ 1843, **J. A.**, 4 me série, T : 1, 1843.

5 - Rapport de la séance du 30/05/1843, **J.A**,.

6 – Rapport du Conseil de la séance du 10/07/1844, **J.A**, 4 me série, T: 4.

7 – Rapport du 17/06/1845, **J.** A, 4eme série, T : 6, 1845.

8 – Rapport annuel du14/06/1847, **J.** A, 4 me série, T : 10, 1847.

9 –Rapport annuel du 17/ 08/ 1848, **J. A.**, 4 me série, T : 12, 1848.

10 – Rapport annuel du 17/08/1846, **J. A.**, 4 me série, T : 12, 1848.

11 – Rapport annuel du 30/ 07/ 1849, **J. A.**, 4 me série, T : 14, 1849.

12 – Rapport du 3/07/1850, **J.A.**, 4 me série, T : 16, 1850.

13 – Rapport annuel (1850 – 1851), **J. A.**, 4 me série, T : 18, 1851.

14 – Rapport (1851-1852), **J. A.**, 4 me série, T : 20, 1852.

15 – **Procès Verbal de séance du 10/ 12/ 1852, J.A.**, 5 me Série, T : 1, 1853.

16 – Rapport annuel du 13/ 06/ 1853, **J. A.**, 5 me série, T : 2, 1853.

17 – Rapport du 12/03/1854, **J. A**, 5 me série, T : 4, 1854.

18 – Procès verbal, octobre 1854, **J. A.**, 5 me série, T : 5, 1854.

19 – Rapport du 20/06/1855, **J. A.**, 5 me série, T : 6, 1855.

20 – Rapport annuel du 23/ 06/ 1856, **J. A.**, 5 me série, T : 8, 1856.

21 – Rapport annuel du 24/ 06/ 1857, **J. A.**, 5 me Série, T : 10, 1857.

22 – Rapport annuel du 29/ 06/ 1858, **J. A.**, 5 me série, T : 12, 1858.

23 – Rapport annuel du 29/ 06/ 1859, **J. A.**, 5 me série, T : 14, 1859.

24 – Rapport annuel du 2/ 07/ 1860, **J. A.**, 5 me série, T : 16, 1860.

25 – Rapport annuel du 26/ 06/ 1861, **J. A.**, 5 me série, T : 18, 1861.

26 – Rapport annuel du 25/ 06/ 1862, **J. A.**, 5 me série, T : 20, 1862.

27 – Rapport annuel du 30/ 06/ 1863, **J. A.**, 6 me série, T : 2, 1863.

28 – Rapport Annuel du 29/ 06/ 1864, **J. A.**, 6 me série, T :4, 1864.

29 – Rapport annuel du 28/ 06/ 1865, **J. A.**, 6me série, T : 6, 1865.

30 – Rapport du 25/06/1866, **J. A**, 6me série, T : 8, 1866.

31 – Rapport annuel du 27/06/1867, **J. A.**, 6me série, T : 10, 1867.

32 – Rapport annuel du 9/ 07/ 1868, **J. A.**, 6me série, T : 12, 1868.

33 – Procès Verbal de la Société, **J. A.**, 6me série, T : 14, 1869.

34 – Rapport annuel du 28/ 06/ 1869, **J. A.**, 6me série, T : 14, 1869.

35 – Rapport annuel du 28/06/1870, **J. A**, 6me série, T : 16, 1870.

36 – Rapport annuel du 29/ 06/ 1871, **J. A.**, 6me série, T : 18, 1871.

37 – Rapport annuel du 27/ 06/ 1872, **J. A.**, 6me série, T : 20, 1872.

38 – Rapport annuel du 28/ 06/ 1876, **J. A.**, 7me série, T : 8, 1876.

39 – Rapport annuel du 28/ 06/ 1879, **J. A.**, 7me série, T : 14, 1879.

40 – Rapport annuel du 6/ 07/ 1883, **J. A.**, 8me série, T : 2, 1883.

– الرسائل المتبادلة بين المستشرقين:

41 –BELIN, "Lettre a M. REINAUD, sur un document Arabe relatif a Mahomet", **J. A.**, 5me série, T : 4, 1854.

42 – BOISSONET, "Extrait d'une lettre à DE SAULCY", Constantine le 27/ 07/1845, **J. A.**, 4me série, T : 6, 1845.

43 – CHERBONNEAU, "Lettre à M. DEFREMERY sur le paradigme d'unehuitième forme usité dans l'Arabe parlé", Constantine, le 22/09/1851, **J. A.** ,4me série, T: 19, 1852

44 – CHERBONNEAU, "Lettre à M. DEFREMERY sur Ahmed Baba le Tomboctien", **J.A.**, 5me série, T 1, 1853.

45 –CHERBONNEAU, "Lettre de M. CHERBONNEAU à M. RENAN", Constantine le 29/ 11/1859 J. A., 5 me série, T : 15, 1860.

46 – CHERBONNEAU, "Extrait d'une lettre adressée à M.REINAUD", Alger le 20/ 04/ 1864, J.A., 6 me série, T: 4, 1864 .

47 – DEFREMERY, "Lettre de DEFREMERY" Constantine le 12/06/ 1858, **J.A.**, 5ème série, T : 12, 1858.

48 – FRESNEL, "Lettre sur le réçit de Fathh-Allah Sayegh ", **J. A.**, 6me série, T : 17, 1871.

49 – FRESNEL, "Lettre à M. CAUSSIN DE PERCEVAL", du Caire le 27/04/1850, **J.A.**, 4me série, T 16, 1850 .

50 – HAMMER-PURGSTALL, De, "Lettre à M. MOHL, sur les chevaux arabes", **J.A.**, 4me série, T 20, 1852.

51 – KOSEGARTEN, "Lettre du 19/ 07/ 1849 a REINAUD", **J. A.**, 4^{me} série, T : 14, 1849.

52 – QUATREMERE,"Extrait d'une lettre de M.PERRON, professeur à l'école de médecine au Caire, à M.MOHL", **J. A.**, 3^{me} série, T : 5, 1838.

53 – RENAN, "Lettre de RENAN à REINAUD", Rome le 27/02/1850, **J.A.**, 4^{me} série, T : 15, 1850 .

54 – ROUSSEAU, "Lettre à M. REINAUD, Président de la société asiatique", Tunis le 15/12/1849, **J.A.**, 4 ^{me} série, T 13, 1849.

55 – SLANE, Le baron de, "Lettre à M. HASE de M. de SLANE,"
J. A., 4ème série, T : 4, 1844.

56 – SLANE, De "Lettre à M. REINAUD", Marseille, Le 24/07/1845,
J.A., 4 ^{me} série, T 6, 1845.

57 – SLANE, De, Extraits de trois lettres écrites de Constantinople, adressée à M. MOHL", datée du 14/12/1845, **J.A.**, 4 ^{me} série, T 7, 1846 .

58 –SLANE, De, "Lettre de M. Le baron de SLANE à M.REINAUD", Alger le 25/ 01/ 1847, **J. A.**, 4 ^{me} Série, T : 9, 1847 .

59 – SLANE, De, "Extrait d'une lettre à REINAUD", Alger le
14/ 09/1855, **J. A.**, 5 ^{me} série, T : 6, 1855.

– الوفيات–

60 – GRANGERET DE LAGRANGE, "Nécrologie", **J. A.**, 3 ^{me} série, T : 5, 1838.

61 – JAUBERT, A., "Discours prononcé aux funérailles de M. le baron Silvestre DE SACY, au nom de l'école spécial des Langues orientales, et de la Société Asiatique", **J. A.**, 3 ^{me} série, T: 5, 1838 .

62 – JAUBERT, A."Discours prononcé aux funérailles de M. le baron Silvestre DE SACY au nom de l'école spéciale des Langues Orientales et de la Société Asiatique", **J. A.**, 3 ^{me} série, T: 5, 1838.

63 – "Nécrologie", **J. A.**, 4 ^{me} série, T: 8.

64 – "Nécrologie", M. Pierre-Amédée JAUBERT, **J. A.**, 4 ^{me} série, T: 9, 1847.

65 – ABOULFEDA, Ismaël, **Géographie en arabe**, publiée d'après- deux manuscrits. Livraison III, IV. Dresde, 1847 .

66 – AL-TIDJANI, Cheikh Mohammed-ben Ahmed, **Touhfat al- Arous**, ou le cadeau des époux, Paris et Alger, 1848.

67 – AMARI, "Questions philosophiques adressées aux savants- Musulmans par FREDERIC II, ", **J. A.**, 5 me série, T: 1, 1853.

68 – BARGES, l'abbé, Actes Notariés, Traduites de l'arabe par-BARGES, **J. A.**, 4 me série, T:2, 1843 .

69 – BARGES, L'abbé, Trad. "Histoire du Nil Bienfaisant " par le- Cheikh Ahmed Ben- Mohamed- EL- Menoufiyi", **J.A.**, 4 me Série, T: 7, 1846.

70 – BARGES, trad., "**Histoire des Beni Zeiyan, rois de Tlemcen**, par l'Imam cidi Abou Abdallah Moh'ammed Ibn abd el-Djelyl et-Tenessy", Paris, 1852, (172 p.).

71 – BELIN, "Fetoua relatif à la condition des Zimmis etparticulièrement des Chrétiens en pays Musulmans, depuis l'établissement de l'Islamisme, jusqu'au milieu du 8 me Siècle de l'Hégire", **J. A.**, 4 me série, T : 18, 1851.

72 – BOUCHER, "**Diwan de FERAZDAK**, récits de Mohammad ben-Habib", d'après Ibn el-Arabi, publié en arabe sur le manuscrit de Sainte- Sophie, avec une traduction française et des notes, Paris, 1870, (154p.).

73 – CHERBONNEAU, Trad. Et Notes, "Extrait de la Faresiade, ouvrage d'Ahmed El-Khatib", **J.A.**, 4 me série, T 13, 1839 .

74 – CHERBONNEAU, (public. Et trad.), "Histoire de la Dynasties des Beni Hafs" par Aboul-Abbas Ahmed el-Khatib, **J.A.**, 4me série, T 12, 1848 .

75 – CHERBONNEAU, Trad. Et notes, "Expédition Mourad-Bey contre Constantine et Algérie 1112 H (1700), Fréquent extrait la chronique Arabe d'El-Hajd Hamouda Ben Abdel-Aziz", **J.A.**, 4 me série, T 18,1851.

76 – CHERBONNEAU, Trad. Et notes, "Expédition Mourad-Bey contre Constantine et Algérie 1112 H (1700), Fréquent extrait la chronique Arabe d'El-Hajd Hamouda Ben Abdel- Aziz", **J.A.**, 4 me série, T 18, 1851 .

77 – CHERBONNEAU, "la farésiade ou commencement de la dynastie des Beni- Hafs, 3 me extrait, Trad., et Notes, **J. A.**, 4 me Série, T: 17, 1851.

78 – CHERBONNEAU, Trad. Et Notes, **Voyage du Scheikh Ibn Batouta à Travers l'Afrique septentrionale et l'Egypte au commencement du 14siècle**, Tiré de l'originale arabe,Paris,1852(88p.).

Rapport annuel du 13/06/1853, **J.A.**, 5 me série, T 2, 1853 .

79 – CHERBONNEAU, Notice et extraits du voyage d'El-Abdery à travers l'afrique septentrionale au VII siècle de l'hégire .
J. A., 5me série, T :4, 1854. "رحلة العبدري"

80 – CHERBONNEAU, Rédaction et annotation, catalogue des manuscrits arabes de Sidi Saïd Ben Bachterzi, Taleb de Constantine, **J.A.**, 5 me série, T 4, 1854 .

81 – CHERBONNEAU, "Notice et Extraits du Eunouan Ed-diraïa ou galerie desLittérateurs de Bougie, au 7 me siècle de l'Hégire", **J.A.**, 5 me série,T: 7,1856 .

82 – CHERBONNEAU, Trad., "Documentation inédits sur l'Hérétique Abou Yazid Mokhalled Ibn-Kidad de Tademket", **J.A.**, 4 me série, T 20, 1852.

83 – CHODZKO, Alexandre, Trad."Le Deisme des WAHHABI, expliqué par eux-mêmes", **J. A.**, 4 me série, T 11, 1848.

84 – CLEMENT-MULLET, "Le livre de l'agriculture d'Ibn el-Awam (Kitab al-Felahat)", traduit de l'arabe, **J. A.**, 5me série, T: 15, 1860.

85 – CLEMENT-MULLET, J. J. "Sur l'enchaînement des trois règnes de la nature, extrait de Kazwiny", **J. A.**, 3me série, T : 10, 1840 .

86 – **Commentaire de la Djaroumia, en arabe**, Boulac, 1826 (1242), **N. J. A.**, T : 8,1831.

87 – COURTEILLE, P. DE, "Histoire de la campagne de Moharez, publiée avec la traduction française et des notes", **J.A.**, 5me série, T:15, 1860.

88 – DELAPORTE fils, J. H.,"Vocabulaire Berbère", **J. A.**, 3 me série ,
T : 1, 1836.

89 – DEFREMERY, C., et SANGUINETTI, Dr. B.R., texte arabe et trad., Collection d'ouvrages Orientaux, **Voyage d'Ibn Batouta**, Paris, 1853, T 1 (443p.), T2 (465 p.).

90 – DEFREMERY et SANGUINETTI, "**Ibn-BATOUTA**", texte et traduction, Vol. II, imprimerie impériale, Paris, 1854, (XIV et 465p.).

91 – DEFREMERY et SANGUINETTI, "**ibn-Batouta**", texte et traduction,
t. IV, Paris, 1858, (479p.).

92 – DELAPORTE, J. D., "Spécimen de la langue berbère, Paris, (57p. lithographié), Rapport annuel du 16/06/1846, **J. A.**,4me série, T : 8, 1846.

93 – DERENBOURG, J., "Les Fourberies de Dalila... ", **J. A.**, 5 me, Série, T 8, 1856.

94 – DERENBOURG, Joseph, "Deux passages dans le VI volume des Prairies D'Or de Masoudi, **J. A.**, 6 me série, T : 9, 1867, P : 253 - 254 .

95 – DERENBOURG, H., "Le Diwan Nabigha Dhobyani, texte arabe, introduction historique, **J. A.**, 6me série, T: 12, 1868.

96 – DEVIC, L. Marcel, Trad., **Les aventures d'ANTAR, fils de Cheddad**, Roman arabe des temps anté-islamique, depuis la naissance d' ANTAR jusqu'à la captivité et la délivrance de chas., Paris, S.D. (369p.) Rapport annuel, J. A., 1864.

97 – DOZY, DUGAT, KRAHC et WRIGHT, public., Analectes sur l'Histoire des Arabes d'Espagne, par Al-Makkari, volume 2 partiel, Leyde, 1858, (400 p.).

98 – DOZY, Reinhardt "Prolégomènes d'Ibn khaldoun, texte arabe publié, D'après les manuscrits de la bibliothèque impériale par QUATREMERE, Examen de texte et trad., **J. A.**, 6 me série, T : 14, 1869.

99 – DOZY, Prolégomènes d'Ibn-Khaldoun, traduits en français etcommentés par DE SLANE, Paris, 1863-1868. 3 volumes, **J.A.**, 6

100 – DUGAT, G., me série, T : 1, 1853, d'Abou Djafar.

Intitulé : "زاد المسافر" , **J. A.**, 5me .

101 – DUGAT, G., Trad., "**Le livre d'Abdelkader, intitulé: Rappel à l'intelligent, vis a avis à l'indifférent, considérations philosophiques, religieuses, et historiques**... Etc.", par l'Emir Abd el kader, Paris, 1858, (371p.). Rapport annuel, J.A., 1858.

102 – "Etudes sur le traité de médecine, me série", T 14, 1869. Ah'mad.

103 – FRESNEL, F., "Lamiyat Al-Arab, poème de SCHANFARA", traduction nouvelle, Lettre: le Caire, 22/10/1833, à M. WATSON, savant Ecossais, **N. J. A.**, 2me série, T: 14, 1834.

104 – HANOTAU, **Poésies Kabyles du Djurdjura**, texte Kabyle et trad., Paris, 1867.

105 – **Histoire de Nour-ed-dine, tirée des Milles et une nuit,** le texte arabe ponctué à la manière française, et suivi d'un appendice ou l'on a expliqué les difficultés grammaticales, les arabismes et les étymologies, Paris,1852.

106 – **Leçons de lecture arabe, comprenant l'alphabet, la lecture courante, les et les chiffres arabes,** Paris, 1852. **nombres**

107 – Législation Musulmane Sunnite, rite Hanéfi, Code civil, **J. A.**, 4 me série, T: 13, 1849 .

108 – Législation Musulmane; Rite Hanéfi, **J. A.**, 1849- 1850-1851-1852.

110 – Législation Musulmane Sunnite, rite Hanéfi, Code civil, **J. A.**, 4 me série, T: 17, 1851 .

110 – Législation Musulmane Sunnite, rite Hanéfi, Code civil, **J. A.**, 5 me série, T : 1, 1853 .

111 – Législation Musulmane; Rite Hanéfi, **J. A.**, 1849, 1850, 1851, 1851, 1852, 1853, 1853.

112 – LEON et H. HELIOT, **Fables de Lokman**, surnommé le sage, en Arabe et en français, Paris, 1846 .

113 – MEHREM, A. F., "Specimen, Kitab El-Boldan d'Ahmed Ibn Abi Yaqub", **J. A.**, 5me Série, T : 19, 1862.

114 – MEYNARD, DE, et COURTEILLE, DE, Collection d'ouvrages orientaux, **MACOUDI, les prairies d'or**, texte et traduction, T 1, Paris, 1861, (408 p.). **J.A.**, 6 me série, T 20, 1862.

115 – MUNK, S., "Essai d'une traduction des Séances de Hariri, précédé de quelques observations sur la poésie arabe", **N. J. A.**, 2[me] série, T : 14, 1834.

116 – OTTOCAR DE SCHLECHTA, Trad. "La prise d'Alger, raconté par un algérien, Texte turc", **J.A.**, 5 [me] série, T 20, 1862.

117 – PELLISSIER E., et REMUSAT, Trad., **Mohamed Ben-El-Raïni El-Kaïrouani, Histoire de l'Afrique**, Paris, 1845, (517 p.).

118 – PERRON, Dr., **Glaive des Couronnes (Seif-el-Tidjan)**, Roman traduit de l'arabe, Paris, 1862, 334p.

110 – **J. A.**, "Publication d'un lexique trilingue Arabe-Persan-Turc oriental", 3[me] série, T : 5, 1838.

120 – REINAUD et DE SLANE, "**géographie d' Aboulféda**", texte arabe publié D'après les manuscrits de Paris et de Leyde.

121 – REINAUD, "Fragments Arabes et Persans relatif a l'Inde", **J. A.**, 4[me] série, T : 4, 1844 .

122 – REINAUD, "Vers arabes sur Paris", **J. A.**, 4me série, T: 5, 1845.

123 – REINAUD, "Géographie d'Aboulféda", trad ., **J. A.**, 4[me] série, T : 12, 1848 .

124 – REINAUD, Lettre inédite de Muley Hassen de Tunis, **J.A.**, 6 me série, T 8, 1866 .

125 – REINAUD, **géographie d'Aboulféda**, traduite de l'arabe en français et accompagnée de notes et d'éclaircissement, Vol I et II, paris, 1848, **J. A**, 6[éme] Série, T : 10, 1867.

126 – REINAUD,"Bibliographie: texte arabe des poésies de MOTENABBI, Commentaire de OUAHIDI", Edit. et publ. par DIETIRICI, **J. A.**, 5[me] série, T: 13, 1859.

127 – ROUSSEAU, A., "Extrait de l'Histoire de la dynastie des Beni Hafs, par Abou-Abdellah Mohammed ben Ibrahim El-lowlowi El-Zerkeschi", **J.A.**, 4 [me] Série, T 13, 1849 .

128 – ROUSSEAU, Alphonse, Trad., "Voyage du Scheikh Et-Tidjani dans la régence de Tunis, pendant les années 706, 707 et 708 H. (1306-1307)", **J.A.**, 4 [me] série, T 20, 1852.

128 – SACY, DE, Edition de Hariri, **J. A.**,,T: 1, 1822.

130 – SACY, DE Chrestomathie arabe, Paris, 1806.

131 – SACY, DE "Chrestomathie arabe", T 2, P : 393-401, J.A., T 7, 1827.

132 – SACY, DE, Bibliographie, "Bibliothèque de DE SACY, Impr. Royale, Paris, 1842" (catalogue), **J. A.**, 4 me série, T : 1, 1843.

133 – SACY, DE, Bibliographie : "Les séances de Hariri", 2me Edit. par REINAUD et DERENBOURG, **J. A.**, 4me série, T : 8, 1846, P : 561.

134 – SACY, DE, **Les Séances de Hariri**, publiées en arabe, avec un commentaire choisie par DE SACY, 2me Edit. Revue sur les Manuscrits et augmentée de notes historiques et explicatives par REINAUD et DUREMBOURG, Paris, 1853, (780 et 216p.).

135 – SANGUINETTI, Dr B. R., "Cinquième extrait de l'ouvrage arabe d'Ibn Aby Ossaibi'ah sur l'histoire des médecins", trad. Française, accompagnée de notes, **J. A.**, 5me série, T : 8, 1856.

136 – SANGUINETTI, "Notices biographiques de quelques médecins, tirées d'un ouvrage arabe d'ASSAFADY, tra. française, accompagnée de notes, **J. A.**, 5me série, T: 9, 1857 .

137 – SCHULZ, Fr.Ed., "sur le grand ouvrage historique d'Ibn KHALDUN appelé Kitab al ibar wa divan-ol- maquetter wel khaber (sic)" **J. A.**, T: 7, 1825 .

138 – SEDILLOT, L. A., "Taité d'astronomie d'Aboul-Hassan Ali, intitulé ": **N. J. A.**, 2me série, T : 12,1833 .

139 – SLANE, Le Baron Mac Guckin DE, Bibliographie : Kiteb Wefeyet El Ayan d'Ibn Khallikan, Firmin-Didot, Paris, 1838-39.**J.A.**, 3 me série, T 7, 1839 .

140 – SLANE, DE, trad., "Histoire de la province d'Afrique et du Maghreb,traduite de l'Arabe d'En -Noueir"i, **J.A.**, 8 me série, T 11, 1841.

141 – SLANE, Le Baron Mac Guckin DE, "Histoire de la province d'Afrique et du Maghrib, Trad. De l'arabe d'En- Noweiri, Invasion de l'éspagne", **J. A.**, 3 me série, T : 11, 1841.

142 – SLANE, DE trad. "Description de l'Afrique par Ibn-Haucal", **J.A.**, 3 me série, T: 13, 1842.

143 – SLANE, DE Trad., "Histoire de la province d'Afrique", **J.A.**, 3 me Série, T: 13, 1842.

144 – SLANE, DE, "Autobiographie d'Ibn-Khaldoun", **J.A.**, 4 me série, T, 1844 .

144 – SLANE, DE, Trad., "Description de l'Afrique Septentrionale par El-Bekri", **J. A.**, 5 me série, T : 12, 1858.

146 – SLANE DE, Abou-Oubeid-El-Bekri, **Description de l'Afrique septentrionale**, texte arabe, revu sur quatre manuscrits et publié par, Alger, 1857, (19 et 213p.). Rapport annuel, **J. A.**, 1858 .

147 – SLANE, DE, trad., "Voyage dans le Soudan, par Ibn-Batouta", **J. A.**, 4me série, T : 1, 1843 .

148 – SLANE, DE, Trad., "Description de l'Afrique par Ibn-Haucal", **J.A.**, 3 me série, T 18, 1851.

149 – SLANE, DE, Trad., **histoire des berbères et dynasties musulmanes de**

L'Afrique septentrional par Ibn-Khaldoun, T 1, Alger, 1852, (480 p.).

150 – TASSY, Garçin DE, **Roman de Mahomet, en vers du 13me Siècle**, par Alexandre DUPONT, et **livre de la loi au Sarazin, en prose du 14 me Siècle**, par Raymond LULLE, publié pour la 1re fois et accompagné de notes, par REINAUD, Paris, s. d., **J. A.**, 2 me série, T: 9, 1832.

151 – TASSY, Garçin DE, **Roman de Mahomet, J. A.**, 2 me série, T : 9, 1832.

152 – TASSY, Garçin de "Chapitre inconnu du CORAN", publié et traduit pour la 1re fois, **J. A.**, 3 me série, T : 13, 1842.

153 – VINCENT, B., **Etude sur la loi Musulmane (rite Malékite,)** législation criminelle, Paris, 1842 (124 p.).

154 – VINCENT, B. "Vers sur la conquête d'Alger", **J. A.**, 3me série, T: 8, 1839.

155 – WOEPCKE, "**Extrait du Fakhri, traité d'algèbre par Abou Bekr Mohammed ben Alhaçan Alkarkhi**, précédé d'un mémoire sur l'algèbre indéterminée chez les Arabes, Paris, 1853".

156 – ZOTENBERG, Hermann, Chromique de Ibn Abou-Djafar Mohammed ibn Djarir Yezid Tabari, traduite sur la version personne d'Abou- Ali-Mohammed- Behami, T 1, Paris, 1867, (p : 599.).

– الدراسات الاستشراقية–

157 – ABOUL-HHASSAN, "Introduction au Traité des instruments astronomiques des arabes, t.I, 1834".

158 – ARNAUD, Th., pièces relatives aux inscriptions himyarites, découvertes par Arnaud, **J.A.** , 4éme série, T: 5 et suivant..

159 – AUCAPITAINE, Le Baron Henri, "Etude sur l'origine et l'histoire des tribus Berbères de la Haute Kabylie", **J.A.**, 5ème série, T : 14, 1859.

160 – AVRIL, D', Adolphe, **L'Arabie contemporaine, avec la description du Pèlerinage de la Mècque**, Paris, 1868.

161 – BARBIER DE MEYNARD, C., "Notice sur la vie et les travaux de M. BIANCHI", **J. A.**, 6 me série, T: 5, 1865, P: 175 .

162 – BARBIER DE MEYNARD, L'Arabie contemporaine.., **J. A.**, 6me série, T: 12, 1868.

163 – BARBIER DE MEYNARD, C. B,,"Le livre des routes et des provinces par Ibn Khordad beh", **J. A.**, 6 me série, T : 5,1865 .

164 – BARGES, L'abbé, "Tradition musulmane sur les magiciens de Pharaon... extraite du livre des charmes..., Par Djelal- eddin el-Soyouthii", **J. A.**, 4 me série, T : 2, 1843.

165 – BARGES, L., "Note sur un nouveau dictionnaire arabe", publié à Marseille, par MM.Rochaid et Simon Dahdah, **J. A.**, 4^me série, T: 11, 1848 .

166 – BARGES, L'Abbé, Bibliographie, Dictionnaire arabe de Germanos Farhat, revu, corrigé et augmenté, par Rochaid.. Marseille, 1849, **J. A.**, 4^me sére, T : 14, 1849.

167 – BARGES, "Excurtion à Sebdou, poste français sur les frontiere du Maroc", Extraite de Souvenirs de la province d'Oran, ou voyage à Tlemcen, **J. A.**, 4 ^me série, T : 14, 1849 .

168 – BELIN, A. Bibliographie, "Chrestomathie orientales vivantes", **J. A.**, 3^me série, T: 13, 1842 .

169 – BELIN, Extrait d'un mémoire sur l'origine et la constitution des biens de main-morte, en pays Musulman, **J. A.**, 5 ^me série; T : 2, 1853.

170 – BELIN, Etude sur la propriété foncière en pays Musulmans, Rite Hanéfi, **J. A.**, 5 ^me série, T : 18, 1861 .

171 – BELLERMAN, **Grammaire arabe, idiome d'Algérie, à l'usage de l'armée et des employés civils de l'Algérie**, 4me Edition, Paris, 1860 (210p.).

172 – BLACAS, le comte, Lettre à M. DE SACY, sur la collection de monuments Orientaux , paris, 1820, **J. A**, 6^éme série, T : 10, 1867.

173 – BOISSONNET, "Note sur l'alphabet Berbère usité chez les Touareg et ses rapports avec l'antique alphabet des Libyens; J. A., 4 ^me série; T: 9, 1847.

174 – BOUCHER, R., "Deux poètes Anté-Islamiques, Notice sur Orwa Ben El-Ward...", **J. A.**, 6me série, T : 9, 1867.

175 – BOURMONT, le Comte DE, "Proclamation adressée à L'armée française d'Afrique" traduite en arabe par, Asselin RICHE, **N.J.A.**, 2 ^me Série, T : 5, 1830 .

176 – DE BRAINE, J. F. BLED, **Cours synthétique et pratique de la langue arabe, ou les dialectes vulgaire Africains d'Alger de Maroc, de Tunisie et d'Egypte sont enseignés sans maître**, Dondey-Dupré, Paris, 1844

177 – BRESNIER, **Chrestomathie d' arabe vulgaire**,recueil d'écrits divers, lettres et actes de différents styles, Alger, 1845.

178 – BRESNIER, "Med Ben Daoud-el-Sanhadjy, **grammaire arabe élémentaire**", texte arabe et traduction, Alger, 1846 .

179 – BRESNIER, L. J., "De l'enseignement de l'Arabe à Alger", **J. A**, 3^eme Série, T : 5, 1838, P : 485 .

180 – CAUSSIN DE PERCEVAL, A.P., **Essai sur l'histoire des Arabes,** Vol. 1+2, Paris, 1847 .

181 –CAUSSIN DE PERCEVAL, "Ces poèmes fameux nommés Moallacat", **N. J. A.**, 2 ^me série, T: 12, 1833 .

182 – CAUSSIN DE PERCEVAL, DE "Le combat de Bedr, épisode de la vie de Mahomet", **J. A.**, 3 ^me série T : 7, 1839.

183 – CAUSSIN DE PERCEVAL, CAUSSIN DE "Histoire de la littérature",**J.A.**, 3 me série, T: 10, 1840.

184 – CAUSSIN DE PERCEVAL,"Mémoire sur le calendrier arabe avant l'Islamisme", **J.A.**, 4 me série, T 1, 1843.

185 – CAUSSIN DE PERCEVAL, A.P., **Essaie sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme, pendant l'époque de Mahomet et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane**, Paris, 1874, vol 1(424 p), Vol 2 (702 p.), vol 3, **J.A.** 4 me série T 12, 1848.

186 – CAUSSIN DE PERCEVAL, **Grammaire Arabe vulgaire, pour les dialectes d'orient et de barbarie**, Paris, 1844, (175p.).

187 – CHERBONNEAU, "Histoire de la littérature arabe au Soudan", **J.A.**, 5me série, T 6, 1855 .

188 -CHERBONNEAU, "Observations sur l'origine et la formation du langage Arabe Africain, J. A. ,5me série, T: 6,1855.

189 – CHERBONNEAU, "Histoire de la conquête de l'Espagne par les Musulmans, **J. A.**, 5 me série; T : 8, 1856 .

190 – CHERBONNEAU, "Nouvelles observations sur le dialecte Arabe de l'Algérie, **J. A.**, 5me série, T: 18, 1861.

191 – CHERBONNEAU, **Anecdotes musulmanes, ou cours d'arabe élémentaire**, suivi d'un dictionnaire analytique des mots, des formes et des idiomes contenus dans le texte, Paris, 1847 (149p.).

192 – CHERBONNEAU, Trad., "Extrait de l'ouvrage intitulé", **J. A.**, 4 me série, T : 7, 1846 .

193 – CHERBONNEAU, Dictionnaire Arabe-Français ..., **J. A.**, 4 me série, T : 8, 1846 .

194 – CHERBONNEAU, "Histoire des khalifes Abbassides, extrait de l'ouvrage intitulé:Traité de...", **J.A.**, 4me série, T : 9, 1847.

195 – CHERBONNEAU, "Définition lexicographique de plusieurs mots usités dans le langage de l'Afrique septentrionale, **J. A.**, 4 me série, T: 13, 1849 .

196 – CLEMENT-MULLET, "Recherches sur l'histoire naturelle chez les arabes, arachnides", **J. A.**, 5me série, T: 4, 1854.

196 – CLERMONT-TONNERRE, Marquis de, "Le Rapport du Ministre de la guerre sur une expédition à Alger (1827)", **R. A.**, N° 70, 1929 .

198 – CLEMENT-MULLET, "Sur les noms des céréales chez les anciens, et en particulier chez les arabes", **J. A.**, 6me série, T: 5, 1865.

199 – CLEMENT-MULLET, "Etudes sur les noms arabes de diverses familles de végétaux", **J. A.**, 6me série, T: 15, 1870.

200 – CLEMENT-MULLET, "Essai sur la minéralogie arabe, les pierres précieuses", **J. A.**, 6me série, T : 11, 1868.

201 – DEFREMERY, C., "Essai sur l'Histoire des Ismaéliens" J.A., 5 me série, T : 8, 1856.

202 – DERENBOURG, Joseph, "Histoire générale et système comparé des Langues Sémitiques" Par RENAN, **J. A.**, 5 me série, T 6,1855 .

203 – DERENBOURG, Hartwig, "The Kamil of El Mubarrad…", **J. A.**, 6me série, T: 8, 1866.

204 – DERENBOURG, Joseph, "Lexicographie arabe", **J. A.**, 6me série, T: 10.

205 – Description de l'Afrique septentrionale, **J. A.**, 5ème série, T : 12, 1858.

206 – **Dictionnaire français-bérbère**, dialecte écrit et parlé par les kabiles de la division d'Alger, Ouvrage composé par ordre du ministère de la guerre, Paris, 1844 (656p.).

207 -- **Djaroumia, La, grammaire arabe**, Boulac, 1824 (1239).

208 – **"Droit Romain et sources de la législation Mahométane", J. A.**, 6 me série, T : 13, 1869.

209 – DOZY, R. P. A., "Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdam, 1845", **J. A.**, 4me série, T: 8, 1846, P: 365-368 .

210 – DOZY, **Ouvrages arabes**, Leyde, 1846-7, T : 1 (322p.), et T : 2. (128p.) Rapport annuel, **J. A.**, 1848 .

211 – DOZY, **Ouvrages arabes,** 4 me livraison, Leyde, 1849, (202 p.).

212 – DOZY, R.P.A., **Recherches sur l'Histoire politique et littéraire de l'Espagne pendant le Moyen-Âge**, T.I., Leyde, 1849 (711 p.).

213 – DOZY, "Sur l'Averroïsme", **J. A.**, 5me série, T: 2, 1853 .

214 – DOZY, "**La Religion des Anciens Arabes, de Med., des sectes Musulman et de la condition de l'Islam jusqu'à nos jours.**"

215 – DUGAT, Gustave, "Observation sur le mémoire d'histoire orientale de CH. DEFREMERY…", **J. A.**, 5 me Série, T : 7, 1856.

216 – DUGAT, G., "Notice sur un manuscrit du roman d'ANTAR", **J. A.**, 5me Série, T : 7, 1856.

217 – DUGAT, G. "Le Roi Noman, ses jour de bien et ses jours de mal, Extrait du Roman d'Antar...", **J. A.**, 5me série, T : 1, 1853 .

218 – DUMAST, Guerrier DE, **L'orientalisme rendu classique dans la mesure de l'utile et du possible,** 2 me édit… Augmentée de documents, et Correspondances sur l'état présent de la question orientaliste, Nancy, 1854.

219 – DUMAST, P. Guerrier DE, "Sur la vraie prononciation du chezy les Arabes", Lettre a M. GARCIN DE TASSY, J.A., 5me série, T : 9, 1857.

220 – DU MAST, Le baron P. G.,"Ponctuer les phrases dans les langues musulmanes", **J. A.**, 7 me série, T : 1, 1873 .

221 – DU MAST, Le baron P. G., "Ponctuer les phrases dans les langues Musulmanes", à M.jules MOHL, président de la société asiatique, Nancy le 15/10/1872, **J. A.** ,7me série, T: 1,1873.

222 – DUMAST, P.G. DE, "Mémoire sur la question de l'unité des langues", **J. A.** 4 me série, T 7, 1846.

223 – **DUPRAT, Paul, Essai historique sur les races anciennes et modernes de l'Afrique Septentrionale**, Paris; 1845.

224 – **DUPRAT, Paul, Les encyclopédistes, leurs travaux, leurs doctrines et.**

225 – **DUPRAT, Paul, Les Révolutions**, Paris, 1869 .

226 – **DUPRAT, Paul, L'esprit des Révolutions**, Paris, 1879.

227 – **Elément de la phraséologie française, avec une traduction en arabe vulgaire (idiome africain), à l'usage des indigènes**, Constantine, 1851.

228 – Etude sur la propriété foncière en pays Musulmans et spécialement en Turquie, rite Hanéfite, **J. A.** ,5 ^{me} série T: 18, 1861.

229 – **Exercices pour la lecture des manuscrits arabes, comprenant des actes, des circulaires, des lettres et des historiettes**, Paris, 1851. - "Edition des milles et une nuit", **J. A.**, T: 1, 1822.

230 – FAIDHERBE, Général, "Inscriptions numidiques", **J. A.**, 7 ^{me} série, T : 5, 1875.

231 – FERRETTE, Jules, "Méthode simplifiée pour imprimer l'Arabe avec les points voyelles", **J.A.** 5 ^{me} série, T : 14, 1859 .

232 – FLEISCHER, "Remarques critiques sur le 1er tome de l'édition des Milles et une Nuit de M. Habicht", **J. A.**, T: 7, 1827 .

233 – GLAIRE, J. B., **Principes de grammaire arabe**, Paris, 1861.

234 – GRANGERET DE LAGRANGE,, Bibliographie, Glossaire des mots français tirés de l'arabe du persan et du turc, A.P. PIHAN, Duprat, Paris, 1847, (312p.), **J. A.**, 4^{me} série, T : 9, 1847 .

235 – GRANGERET DE LAGRANGE,, "Essai sur l'histoire des Arabes...", par CAUSSIN DE PERCEVAL, 3 volumes Firmin-Didot, Paris, 1847-48, **J.A.**, 4eme série, T 13, 1849, P : 265-267 .

230 – GRANGERET DE LAGRANGE , , **J.A.**, 4^{me} série, T : 17, 1851.

237 – GUERIN, V., "Voyage archéologique dans la régence de Tunis", **J. A.**, 5 ^{me} série, T : 20, 1862.

238 – HALEVY, "Etudes Sabéennes, langues et écritures des anciens populations de l'Arabie", **J. A.** ,7^{me} Série, T: 1,1873.

239 – HAMMER, DE, "Notice sur l'introduction à la connaissance de l'histoire, ouvrage d'Ibn-Khaldoun", **J.A.**, T 1, 1822.

240 – HAMMER-PURGSTALL, "Sur le Socialisme en orient", **J. A.**, 4 ^{me} série, T : 15, 1850 .

241 – HAMMER- PURGSTALL, "sur la chevalerie des arabes antérieur à celle de l'Europe", **J.A.**, 4 ^{me} série, T 13, 1849.

242 – HAMMER-PURGSTALL, "Sur la chevalerie des Arabes antérieurs à celle de l'Europe", **J.A.**, 4 ^{me} série, T13, 1861.

243 – HANOTEAU, A., "Essai de grammaire de la Langue Tamachek, Paris, 1860, 294 p., in Rapport annuel du 29/ 06/ 1861, **J. A.** 5 ^{me} série, T : 18, 1861 .

244 – HILLE, Aug., "Critique littéraire, Ali Ben-Isa", **J. A.**, 4me série, T: 9, 1847.

245 – **Histoire des musulmans d'Espagne, jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides (711 -1110)**, Leyde, 1861, vol 1(392 p.), vol 2 (356 p.). Rapport annuel du 26/06/1861, **J.A.**, 5 me série, T:18, 1861, P : 32.

246 – HOURY, C.B., "Extraits d'un mémoire sur les langues orientales, adressé à MM. les Administrateurs de l'université de Bruxelles, en Octobre 1834, **J. A.**, 3 me série, T: 1, 1836 .

247 – JACKSON, James Grey, "Conformité de l'Arabe de Barbarie avec l'Arabe de Syrie", **J.A.**, T4, 1824.

248 – JACQUET, E., "Sur l'origine de la dénomination de l'Afrique", **N. J. A.**, 2éme série, T : 13, 1834.

249 – KAZEM BEG, Mirza, "Notice sur la marche et les progrès de la jurisprudence parmi les sectes orthodoxes", **J. A.**, 4 me série, T : 16, 1850.

250 – KAZEM- BEG, Mirza, " Bàb et les Babis ou le soulèvement politique et religieux en Perse de 1845 à 1853", **J.A.**, 6 me série, T :7, 1866 .

251 – KAZIMIRSKI, De biberstein, **Dictionnaire arabe-français**, Paris, 1845 .

252 – KHALPHA, Hadji-, Lexicon bibliogra, Dictionnaire arabe, **J.A.**, 5 me série, T 14, 1859.

253 – KREHL, (publié par), **Le recueil des Traditions Mahométanes par El- Bokhari,** T:2, Leyde, 1864 .

254 – KREMER, A. DE, "Notice sur Sha'Rany ", **J. A.**, 6 me série, T : 11, 1868.

255 – LAPLACE, **Exposition du système du monde**, 1821.

256 – LECLERC, Dr. L., "Etudes historiques et philologiques sur Ebn Beitar", **J. A.**, 5me série, T : 19, 1862 .

257 – LECLERC, L., "De la traduction arabe de dioscorides et des traductions arabes en général", **J. A.**, 6me série, T : 9, 1867.

258 – LEES, W. Nassau, **The Qoran with the commentary of Zamarkhshari**, Volume 1, Calcuta.

259 – LEUFEUVE, **Histoire de Saint-Germain**, Paris, 1863.

260 – LEWEL, Joachim, "Géographie du Moyen-Âge", **J . A.** ,4me série, T : 17, 1851.

261 – MARTIN, A., **Dialogue arabe-français**, avec la prononciation figuré en, caractère français, Paris, 1846.

262 – MARTIN, J.SAINT "Notice historique, chronologique et génialogique des principaux Souverains de l'Asie et de l'Afriquese-ptentrionale pour l'année 1828", **N.J.A.**, 2 me Série, T :1, 1828 .

263 – **Mémoire de l'académie des Inscriptions**, ancienne série, T : 18.

264 – **Mémoires d'histoire et de géographie orientale**, N° 3. Mémoire sur la Conquête de la Syrie, Leyde, 1864, (132p). Rapport annuel, **J.A.**, 1865.

265 – MOHL, J., "sur l'enseignement supérieur tel qu'il est organisé en France, et sur le genre d'extension à y donner", par P.G. DEDUMAST, Paris, 1865, **J.A.**, 6 me série, T 1, 1865.

266 – MUNK, "Histoire...", **N. J. A.**, 2me série, T: 14, 1834 .

267 – NEUMANN, "Coup d'oeil Historique sur les peuples et la littérature de l'orient", **N.J.A.**, 2 me série, T : 14, 1834 .

268 – Note sur l'alphabet berbère usité chez les Touaregs, et ses rapports avec l'antique alphabet des Libyens. **J. A.** 4 me série T : 9, 1847 .

269 – PERRON, Dr., Femmes arabes avant et depuis l'Islamisme, Paris, (611 p), **J.A.**, 5 me série, T : 17, 1861.

270 – Professeurs (Les) de L'école des Langues Orientales Vivantes, chrestomathies Orientales, **J. A**, 3 me Série, T : 13, 1842.

271 – QUATREMERE, "Mémoire sur l'ouvrage كتاب الأغاني **N. J. A.**, 2 me intitulé série, T : 16, 1835.

272 – QUATREMERE, "Publication d'un lexique trilingue Arabe Persan Turc oriental", **J. A.** 3me série, T:5, 1838 .

273 – QUATREMERE, "Mémoire sur l'ouvrage"كتاب الأغاني intitulé: 2me série, T : 16, 1835 .

274 – QUATREMERE, DE, "Notice sur la vie et les ouvrages de Masoudi", **J.A.**, 3 me série, T 7, 1839 .

275 – QUATREMERE, "observation sus le feu grégeois", **J.A.**, 4 me série, T: 15, 1850 .

276 – QUATREMERE, "sur Tabari l'historien", **J.A.**, 5 me série, T : 17, 1861.

277 – REINAUD, **Monuments arabes, Persans et turcs**, du cabinet de M. le duc de Blacas et d'autres cabinets, ...les moeurs et l' histoire des nations Musulmanes, Paris, 1828.

278 – REINAUD, "Notice sur les chroniques orientales qui doivent trouver place dans le recueil général des croisades", **J. A.**, 2 me série, T : 13, 1834, P : 561.

279 – "Recherches nouvelles pour servir à l'histoire de l'astronomie chez les arabes", **J. A.**, 2me série, T : 16, 1835.

280 – **Recueil d'inscriptions libyco-berberes**, avec 25 planches, Paris, 49 pages.

281 – REINAUD et FAVE, Du feu grégeois et des origines de la poudre à Canon, Paris, 1845, (287 p.) Et 17 p.). Rapport de Annuel du 17/06/1845, **J.A.**, T 6, 1845.

282 – REINAUD, "De l'Art militaire chez les Arabes de Moyen- Age", **J.A.**, 4 me série, T12, 1848 .

283 – REINAUD et FAVE, "Du feu grégeois,des feux de guerre, et des origines de la poudre à Canon, chez les Arabes, les persans et les chinois", **J.A.** 4 me série, T 14, 1849.

284 – REINAUD, "Nouvelles observation sur le feu grégeois et les origines de poudre à Canon", **J.A.**, 4 me série, T 15, 1850.

285 – REINAUD, "De l'état de la littérature chez les populations chrétiennes Arabes", **J. A.**, 5 ^{me} série, T: 9, 1857 .

286 – REINAUD, Hadji-Khalfa (sic), Léxicum…, **J. A.**, 5^{me} série, T : 14, 1859.

287 – REINAUD, "Recherche sur les dialectes Musulmans", par E. BEREZINE, **J. A.**, 5^{me} série, T : 14, 1859.

288 – REINAUD, "Sur le système primitif de la numération Chez la race Berbère", lu devant l'académie des inscriptions et Belles-lettres dans la séance du 27/ 07/ 1860 , **J. A.** ,5ème série ,T :16 , 1860 .

289 – REINAUD, "Notice sur les dictionnaires géographiques arabes", **J.A.**, 5^{me} série, T : 16, 1860.

290 – REINAUD, Des globes de métal pour les arabes du moyen age, **J. A.**, 6^{me} série, T : 7, 1866.

291 – RENAN, "Nouvelles considérations sur le caractère général des peuples Sémitiques et en particulier sur leur tendance au Monothéisme", **J. A.**, 5 ^{me} série, T: 13, 1859.

292 – ROUSSEAU, A., "Tableau des Lettres arabes et leur valeur adoptée par les orientalistes français", **J. A.**, 4^{me} série, T: 20, 1852.

293 – ROUSSEAU, Le baron, "Parnasse oriental, ou **Dictionnaire desmeilleurs poètes de l'orient**", Alger, 1841 .

294 – SACY, DE, Le baron S., "De l'utilité de l'étude de la poésie arabe", **J. A.**, 1re série, T : 8, 1826.

295 – SANGUINETTI, **J.A.**, 5^{me} série, T : 6, 1855.

296 – SANGUINETTI, "Quelques chapitres de médecine", **J.A.**, 6 ^{me} série, T : 6, 1865.

297 – SANGUINETTI, **J. A.**, 6^{me} série, T : 7, 1866.

298 – SANTAREM, Le Vicomte DE, "Essai sur l'histoire de la cosmographie et de la cartographie pendant le Moyen Age, t.I, Paris, 1849". **J. A.**, 4^{me} série, T : 14, 1849 .

299 – SAULCY, F. DE, "Observations sur l'alphabet Tifinag", J. A., 4 ^{me} série, T : 13, 1849.

300 – SEDILLOT, "De l'Algèbre chez les Arabes", **J. A.**, 5^{me}série, T :2, 1853.

301 – SEDILLOT, J. "Notice sur l'ouvrage intitulé : Etudes géographiques et Historiques sur l'Arabie, par JOMARD", **J.A.**, 3 ^{me} Série, T : 9, 1840.

302 – SLANE, Le baron de, Lettre de M. Le baron de SLANE à M.REINAUD, Alger le 25/ 01/ 1847, **J. A.**, 4 ^{me} Série, T : 9, 1847.

303 – SLANE, de, Rapport adressé à M. Le Ministre de l'instruction publiquepar M. de SLANE, suivi de catalogue de manuscrits arabes les plus importants de la bibliothèque d'Alger, **J.A.**, 4 ^{me} série, T 9, 1847.

304 – SOLVET et BRESNIER, Notice sur les successions musulmanes, Alger, 1846.

305 – TASSY, Garçin DE "La Rhétorique des nations Musulmanes", **J. A.**, 4^{me} série, T: 4, 1844 .

306 – TASSY, DE, "Prosodie des Langues de l'Orient Musulman..", **J. A.**, 4^me^ Série, T : 11, 1848.

307 – TAUXIER, Henri,"Etude sur les migrations des nations Berbères avant l'islamisme", **J. A.**, 5^ème^ série, T : 20,1862.

308 – WEIL, G."Sur un fait relatif à Mahomet", **J. A.**, 3 ^me^ série, T : 14, 1842.

309 – WORMS, Docteur, "Recherches sur la constitution de la propriété territoriale dans les pays musulmans, et subsidiairement en Algérie", **J. A.**, 3 ^me^ série, T : 14, 1842 .

310 – WOEPCKE, "Notice sur des traductions arabes de deux ouvrages perdus d'Euclide, **J. A.**, 4^me^ série, T: 18, 1851.

311 – WOEPCKE, Recherches sur l'histoire des sciences mathématiques chez les orientaux, d'après des traités inédits Arabes et Persans, **J. A.**, 5^me^ série, T: 4, 1854.

312 – WOEPCKE, "Mémoire sur la propagation des chiffres indiens", **J. A.**, 6^me^série, T : 1, 1863.

313 – WORMS, "Recherche sur la constitution de la propriété territoriale en Algérie....", **J. A.**, 3 ^me^ Série, T : 1, 1864.

– المتفرقات البيبليوغرافية –

314 – BELIN, Bibliographie Ottomane, **J.A.**, 6 ^me^ série, T 11, 1868.

315 – Bibliographie, **J.A.**, 4 ^me^ série, T 7, 1846.

316 – CHERBONNEAU, "Notice bibliographique sur Kalçadi, mathématicien arabe du 15^me^ Siècle", **J. A.**, 5^me^ série, T: 14, 1859.

317 – **Collection complète des inscriptions numidique** (libyques), avec des aperçus ethnographiques sur les Numides, 6 planches, Lille, 79 pages.

318 – **Commentaire de la Djaroumia, en arabe**, Boulac, 1826 (1242).

319 – DOZY, "**La Religion des Anciens Arabes, de Med., des sectesMusulmans et de la condition de l'Islam jusqu'à nos jours**".

320 – **Djaroumia (La), grammaire arabe**, Boulac, 1824 (1239).

321 – HAMMER-PURGSTALL, "Bibliographie", **J. A.**, 5 ^me^ série, T: 1, 1853.

322 – LEES, W. Nassau, **The Qoran with the commentary of Zamarkhshari**, Volume 1, Calcuta. 49 pages.

323 – LEUFEUVE, **Histoire de Saint-Germain**, Paris, 1863.

324 – **Mémoire de l'académie des Inscriptions**, ancienne série, T : 18. **N. J. A.**, T : 8,1831.

325 – **Recueil d'inscriptions libyco-berberes**, avec 25 planches, Paris,

326 – SACY, DE, **Chrestomathie arabe**, Paris, 1806.

327 – **YANOSKI, Domination des Vandales en Afrique**.

– القواميس والمعاجم الأجنبية–

328 – **Dictionnaire Médical, (Le)**, édit. S. A., Genève, 1974.

329 – **Dictionnaire Quillet de la Langue Française**, Librairie aristide quillet, Paris, 1975.

330 – **Grande Encyclopédie (La)**, Inventaire raisonné des sciences, des Lettres et des Arts par une société de Savants et de gens de Lettres, 30 Tomes, société anonyme de la grande encyclopédie, Paris, S. D .

331 – MOURRE, Michel, **Dictionnaire encyclopédique d'histoire**, Bordas, Paris, 1978,

332 – **Nouvelle Biographie**, depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours T : 42, paris, M D C C C L X V I X.

333 – ROBERT, Paul, **Petit ROBERT 2,** 5 me édit. Paris, 1981.

– المصادر العربية المتقدمة عن فترة البحث–

334 – **القرآن الكريم**، سورة البقرة، الآية 251.

335 – **صحيح البخاري**، 7 أجزاء، دار موفم للنشر، الجزائر، 1992.

336 – البغدادي، إسماعيل باشا، **هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، 1955.

337 – ابن الجوزي، **أخبار الخنساء**، هذبه وحققه إيهاب كريم، دار النديم، بيروت، 1991.

338 – ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2001.

339 – ابن خلدون، عبد الرحمن، **تاريخ العلامة ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج: 12، دار موفم للنشر، الجزائر، 1995.

340 – ابن خليكان، أحمد بن محمد بن أبي بكر، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، ج 8/3، دار صادر، بيروت، 1972.

341 – ابن سينا، **القانون في الطب**، حققه ووضع فهارسه وعلق عليه إدوار القش، ج 4/1، مؤسسة عز الدين

342 – ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد، **العقد الفريد**، (8 أجزاء+جزء الفهارس)، ط 3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.

343 – الإدريسي، **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج 1+2، ط 1، دار عالم الكتب، بيروت، 1989.

344 – البرقوقي، عبد الرحمن، **شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري**، دار الكتاب العربي، بيروت، 1990.

345 – البغدادي، إسماعيل باشا، **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج: 3، دار العلوم الحديثة، بيروت، د. ت.

346 – البغدادي، إسماعيل باشا، **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، ج 5، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.

346 – الزوزني، الحسن بن أحمد، **شرح المعلقات السبع**، تحقيق محمد الفاضلي، ط 1، المكتبة العصرية، بيروت، 1998.

347 - الشوكاني، محمد بن علي، **الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.ط.
348 - العدواني، **تاريخ العدواني**، تحقيق ونشر د. سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996 .
348 - اللواتي الطنجي، محمد بن عبد الله ، **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق عبد الهادي التازي، 5 أجزاء، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1997.
349 - **المبرد، الكامل**، حققه وعلق عليه محمد أحمد الدالي، الأجزاء: 1+2+3+4 (فهارس)، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1993.
350 - المقري التلمساني، أحمد بن محمد، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، في ثمانية أجزاء.
351 - النديم، اسحاق، **كتاب الفهرست**، تحقيق رضا المازني، ط 3، دار المسيرة، د.م.ط.، 1988.
352 - بن خلدون، عبد الرحمن، **تاريخ العلامة ابن خلدون**، ج 12، دار موفم للنشر، الجزائر، 1996.
353 - بن خلدون، عبد الرحمن، **مقدمة العلامة ابن خلدون**، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1991.
354 - خليفة، حاجي، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج: 1+2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992.
355 - خليفة، حاجي، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، ج 4، دار الفكر، بيروت، 1990.
356 - شلق، تاج الدين، **شرح ديوان جرير**، ط 2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994 .
357 - صالحاني (الأب اليسوعي)، أنطوان، **شعر الأخطل**، ط 2، دار المشرق، بيروت، 1986.

- المراجع العربية المتأخرة عن فترة البحث-

358 - ابن الأمير عبد القادر، محمد، **تحفة الزائر**، ط 2، دمشق، 1964.
359 - أدهم، علي، **بعض مؤرخي الإسلام**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1974.
360 - أرقون، هنري، **البوذية**، ترجمة هنري زغيب، المنشورات العربية، المطبعة البوليسية، 1975.
361 - إكيدا، دايساكم، **حياة البوذا سيرة مفسرة**، ترجمة محمود منقذ الهاشمي، منشورات وزارة الأوقاف، سوريا، 2002.
362 - الأطير، حسني يوسف ، **عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية**، ط 2، مكتبة الزهراء، القاهرة، 2000.
363 - الأطير، حسني يوسف، **عقائد النصارى الموحدين بين الإسلام والمسيحية**، ط 2، مكتبة الزهراء، القاهرة، 2000.
364 - الإمراني، حسن، **المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين**، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت،
365 - ابن نبي، مالك، **الظاهرة القرآنية**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1981.
366 - ابن نبي، مالك، **إنتاج المستشرقين**.
367 - ابن نبي، مالك، **شروط النهضة**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986.
368 - ابن نبي، مالك، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو، ط 1، دار الفكر، الجزائر، 1992.
369 - ابن نبي، مالك، **مشكلة الثقافة**، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 4، دار الفكر، دمشق، 1984.
370 - ابن نبي، مالك، **وجهة العالم الإسلامي**، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، 1986.
371 - البيهقي، أبو بكر، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، 7 أجزاء، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985.
372 - بروكلمان، كارل، **تاريخ الأدب العربي**، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، 3 أجزاء، ط 5، دار المعارف، القاهرة، 1991.
373 - بلاشير، رجيس، **تاريخ الأدب العربي**، ترجمة إبراهيم الكيلاني، ط 2، دار الفكر، دمشق، 1984.

374 - تشرشل، شارل هنري، **حياة الأمير عبد القادر**، ترجمة د. أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، تونس، 1974.
375 - حركات، إبراهيم، **المغرب عبر التاريخ**، ج: 1، ط 2، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1984.
376 - حسين الذهبي، محمد، **التفسير والمفسرون**، ج 1، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1961.
377 - الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد ، **تاريخ الجزائر العام**، ج: 1، ط 6، دار الثقافة، بيروت1983.
378 - بن حمادوش، عبد الرزاق، **رحلة ابن حمادوش الجزائري**، تقديم وتحقيق وتعليق د. أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
379 - داغر، يوسف، **مصادر الدراسة الأدبية**.
380 - الذهبي، محمد حسين ، **التفسير والمفسرون**، ج 1، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1961.
381 - الرازي، الفخر، **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**، القاهرة، 1938.
382 - ريغ، دانيال، **رجل الاستشراق**، ترجمة ابراهيم صحراوي، ط 1، دار الجفان والجابي للطباعة والنشر، د. م. ط.، 1997.
383 - زايد، سعيد، **رسائل إخوان الصفا**، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1969.
384 - الزحيلي، محمد، **تعريف عام بالعلوم الشرعية**، ط 2، طلاس دار، دمشق، 1992.
385 - زيادة، نقولا، **قمم من الفكر العربي الإسلامي**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987.
386 - سانتلانا، دافيد، **المذاهب اليونانية الفلسفية في العالم الإسلامي**، ترجمة وتقديم وتعليق محمد جلال شرف، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.
387 - سعد الله، أبو القاسم، **أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر**، ج: 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1878.
388 - سعد الله، أبو القاسم، **الحركة الوطنية الجزائرية**، ج1، قسم1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992.
389 - سعد الله، أبو القاسم، **بحوث في التاريخ العربي الإسلامي**، بيروت، 2002.
390 - سعد الله، أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 6، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.
391 - سعد الله، أبو القاسم، **تجارب في الأدب والرحلة**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
392 - سعد الله، أبو القاسم، **محمد الشاذلي القسنطيني 1807 – 1877** دراسة من خلال رسائله وشعره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974.
393 - السقّا، أحمد حجازي، **البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل**، ج 1+2، ط 1، دار الجيل، بيروت، 1989.
394 - الشرقاوي، محمد عبد الله ، **في مقارنة الأديان، بحوث ودراسات**، ط 2، دار الجيل، بيروت، 1990.
395 - الشرقاوي، محمد عبد الله، **في مقارنة الأديان، بحوث ودراسات**، ط 2، دار الجيل، بيروت، 1990.
396 - شيخو، الأب لويس ، **تاريخ الآداب العربية (1800 –1925)**، ط 3، منشورات دار المشرق، بيروت، 1991.
397 - شيخو، لويس، **شعراء النصرانية قبل الإسلام**، ط 2، دار المشرق، بيروت، 1986.
398 - صالح حمدان، عبد الحميد، **طبقات المستشرقين**، مكتبة مدبولي، د. م. ط.، د. ت. ط. (يرجح طبع الكتاب في نهاية التسعينيات بدليل أن مراجعه تمتد إلى 1995).
399 - صبحي، أحمد محمود، **في علم الكلام، دراسة فلسفية لآراء الفرق الإسلامية في أصول الدين**، ج 1+2+3، دار النهضة العربية، بيروت، 1985.
400 - العربي، محمد، **المناهج والمذاهب الفكرية والعلوم عند العرب**، ط 1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994.
401 - العقيقي، نجيب، **المستشرقون**، ج1، دار المعارف، القاهرة، 1980.
402 - عبد العزيز، أمير، **دراسات في علوم القرآن**، ط 2، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، 1988.

403 - عبد الغني، عاطف، **أساطير التوراة**، ط 1، مركز الحضارة العربية، د. ط.، 1999.
404 - عبد الغني، عاطف، **أساطير التوراة**، ط 1، مركز الحضارة العربية، د. ط.، 1999.
405 - عبده (الإمام)، محمد، **الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.
406 - عبده (الإمام)، محمد، **الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1988.
407 - عبده (الشيخ)، محمد، **جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين**، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، د. ت.
408 - عبده (الشيخ)، محمد، **جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين**، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، د. ت.
409 - الغلاييني (الشيخ)، مصطفى، **رجال المعلقات العشر**، المكتبة العصرية، بيروت، 1990.
410 - فروخ، عمر، **إخوان الصفا**، بيروت، 1953.
411 - فريد بك، محمد، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، ط 2، دار النفائس، بيروت، 1983.
412 - القرضاوي، يوسف، **أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة**، مطبعة المعارف، الجزائر، د. ت. ط.
413 - مظهر، سليمان ، **قصة الديانات**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
414 - مظهر، سليمان، **قصة الديانات**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1995.
415 - مير، محمد أبو الفضل، **بحوث في تاريخ القرآن وعلومه**، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1980.
416 - نجيب محمود زكي، **المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري**، ط 4، دار الشروق، بيروت، 1987.

– المقالات العربية–

417 - اسمايلوفيتش، **الفكر العربي**، العدد: 32، 1983.
418 - بول، حان ، شارنيه، **الفكر العربي**، العدد: 32، 1983.
419 - حنفي، حسن ، جريدة "**الخبر**" الجزائرية، بتاريخ 15 /02/ 2001.
420 - سعيد، ادوارد، **الفكر العربي**، العدد: 32، 1983.
421 - سعيدوني، ناصر الدين، "الكتابات التاريخية حول الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر"، **الثقافة**، العدد 45، يوليو 1978.
422 - فرنسوا، دي بلوا، "في نقد المستشرقين"، **الفكر العربي**، العدد: 32، 1983.

– الموسوعات والمعاجم ودوائر المعارف العربية–

423 - بدوي، عبد الرحمن، **موسوعة الفلسفة**، ج1، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1984.
424 - البستاني، بطرس، **دائرة المعارف**، ج: 10، دار المعرفة، بيروت، د.ت.ط..
425 - البعلبكي، منير، **معجم أعلام المورد**، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.
426 - البعلبكي، منير، **موسوعة المورد**، ج 6، بيروت، 1981.
427 - التونجي، محمد، **المعجم المفصل في الأدب**، ج: 1، ط 2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1999.

428 - الجبر، موفق فوزي، **معجم الأوثان والأصنام عند العرب**، ط 1، دار الفكر العربي، دمشق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.م.ط.، 1984.

429 - الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، 7 أجزاء، ط 2، دار صادر، بيروت، 1995.

430 - **دائرة سفير للمعارف الإسلامية**، ج 15 – 16، شركة سفير، القاهرة، 1990.

431 - الزركلي، خير الدين، **الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ج 7، دار العلم للملايين، بيروت، 1992.

432 - زكار، سهيل، **المعجم الموسوعي للديانات والعقائد والمذاهب والفرق والطوائف والنحل في العالم منذ فجر التاريخ حتى العصر الحالي**، تعريب وتصنيف وتقديم، ج 1، 201.

433 - السيد، فؤاد صالح، **معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العربي والإسلامي**، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1990.

434 - السيد، فؤاد صالح، **معجم الألقاب والأسماء المستعارة في التاريخ العربي والإسلامي**، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1990.

435 - الشنتناوي، أحمد وآخرون، **دائرة المعارف الإسلامية**، نقل وتعريب ، ج 7، د.م.ط.، د.ت.ط..

436 - صليبا، جميل، **المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية**، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.

437 - عبد الرحمن، عفيف، **معجم الشعراء**، من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، معجم بيليوغرافي يعرف بالشعراء ومراجع دراستهم، ط 1، دار المناهل للطباعة والنشر، بيروت، 1996.

438 - عبد النور، جبور، **المعجم الأدبي**، ط 2، دار العلم للملايين، بيروت، 1984.

439 - عمارة، محمد وآحرون، **موسوعة الحضارة العربية الإسلامية**، ج 3/2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1986.

440 - كحالة، عمر رضا، **المستدرك على معجم المؤلفين**، ط 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988.

441 - كحالة، عمر رضا، **معجم المؤلفين**، تراجم مصنفي الكتب العربية، الجزء 8، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت..

443 - الكيالي، عبد الوهاب، **موسوعة السياسة**، ج 7 ، ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1994.

444 - مدكور، إبراهيم، **معجم أعلام الفكر الإنساني**، ج 1، الهيأة المصرية العامة للكتاب، **1984**.

445 - نعمة، حسن، **موسوعة الأديان السماوية والوضعية، موسوعة ميثولوجيا وأساطير الشعوب القديمة ومعجم أهم المعبودات القديمة**، ج 1، دار الفكر اللبناني، بيروت، 1994.

446 - **الموسوعة العربية العالمية**، ج، ج 30/26، ط 1، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، 1996.

447 - **الموسوعة العربية الميسرة**، ج 1+2+3، الطبعة 2 المحدثة، دار الجيل، بيروت، 2001.

448 - **الموسوعة العسكرية**، ج 1، ، ج 1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1977.

449 - **موسوعة الأديان في العالم**، الديانات القديمة، بيروت، د. ت..

450 - نخبة من الأساتذة المصريين، **معجم أعلام الفكر الإنساني**، تصدير إبراهيم مدكور، ج: 1، 1997.

الفهارس العامة

فهرس الأشخاص(*)

(*)- ألغينا في جميع الفهارس اعتبار ابن وأبو وال.

(ت)

(ث)

(خ)

(د)

(ك)

(ل)

(م)

فهرس الأشخاص (الواردون بالفرنسية)

D

E

F

T

V

W

Y

Z

فهرس الأماكن

(ن)

فهرس الأماكن (الواردة باللغة الفرنسية)

فهرس الدول والفرق والقبائل والجماعات

فهرس المؤسسات والمراكز والجمعيات

فهرس المخطوطات والكتب والمجلات

(ج)

(ح-خ)

(ل)

(م)

(ن)

فهرس المحتوى

فهرس المحتوى

الفصل الثالث: اهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في المجال الديني

الفصل الرابع: اهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في مجال الأدب

الفصل الخامس: اهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في مجال التاريخ

الفصل السادس: اهتمامات المستشرقين وتوجهاتهم في العلوم الأخرى



دار الغرب الإسلامي

تـونـس

لصاحبها الحبيب اللمسي

6 نهج الدالية بالفي - تونس - تلفون: 0021671393360 - فاكس: 0021671396545 - خلوي: 216-96-346567

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.: 200 - R.P. 1015 TUNIS

الرقم: 498 / 1000 / 2 / 2009

التنضيد: مطبعة الريان - بيروت - لبنان

الطباعة: مطبعة الريان - بيروت - لبنان

L'ORIENTALISME FRANCAIS AU MAGHREB ET AU MASHREK SELON LA REVUE ASIATIQUE (1822-1972)

PAR

MOHAMED LARBI MARICHE



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS

L'ORIENTALISME FRANCAIS
AU MAGHREB ET AU MASHREK
SELON LA REVUE ASIATIQUE
(1822-1972)

L'ORIENTALISME FRANCAIS AU MAGHREB ET AU MASHREK SELON LA REVUE ASIATIQUE (1822-1972)

PAR

MOHAMED LARBI MARICHE



DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
TUNIS